

أساليب الحجاج في (جمهرة خطب العرب)

لأحمد زكي صفوت

دراسة بلاغية

Argumentation Techniques in jamharat khuttab al-arab by Ahmad Zaki

Safwat

-Rhetorical study-

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة (الدكتوراه)

في الدراسات الأدبية

إعداد الطالب

عمران بن محمد الأحمد

الرقم الجامعي

٣٨١١٠٠١٦٨

إشراف الأستاذ الدكتور

إبراهيم بن منصور التركي

أستاذ البلاغة بالقسم

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

إقرار

أقر بأنني قد التزمت بقوانين جامعة القصيم وأنظمتها واللوائح المتعلقة بإعداد الرسائل العلمية، وقد قمت شخصياً بإعداد هذه الرسالة بما ينسجم مع الأمانة العلمية وكافة المعايير الأخلاقية المتعارف عليها دولياً في كتابة الرسائل العلمية والبحث العلمي، كما أقر بأن رسالتي هذه غير منقولة أو مستلة أو منتحلة من رسائل أو كتب أو أبحاث، أو أي منشورات علمية سبق نشرها أو تخزينها في أي وسيلة إعلامية، وإلى ذلك فإنني أقر بأنه لم يسبق تقديم هذه الرسالة للحصول على أي درجة علمية أخرى، وفي حال تبين غير ذلك فإنني أتحمل المسؤولية بأنواعها كافة.

الاسم: عمران بن محمد الأحمد

الرقم الجامعي: ٣٨١١٠٠١٦٨

التوقيع:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إجازة الرسالة



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة القصيم
كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها

أساليب الحجاج في (جمهرة خطب العرب) لأحمد زكي صفوت - دراسة بلاغية
Argumentation Techniques in jamharat khuttab al-arab by
Ahmad Zaki Safwat -Rhetorical study-

إعداد الطالب: عمران بن محمد الأحمد

الرقم الجامعي: (٣٨١١٠٠١٦٨)

تمت الموافقة على قبول هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات

درجة دكتوراه الفلسفة في الدراسات الأدبية

لجنة المناقشة والحكم على الرسالة:

التوقيع	التخصص	المرتبة العلمية	الاسم	أعضاء اللجنة
	بلاغة ونقد	أستاذ	النوراني عبد الكريم كبور جبير	المشرف والمقرر
	بلاغة ونقد	أستاذ	منذر ذيب كفاي كفاي	المناقش الخارجي
	بلاغة	أستاذ	محمد بن عبد الرحمن الخراز	المناقش الداخلي

في يوم: الأربعاء ١٤٤٤/١١/٢٥ هـ ، الموافق : ٢٠٢٣/٦/١٤ م

المُلخَص

يُمثِّلُ جنس الخطبة أهمَّ الأجناس الحجاجية التي عرفها العرب، فقد نشأت الخطبة العربية مرتبطة بالإقناع والدفع والاستمالة، وبعد الإسلام أصبحت الخطبة جزءًا لا يكتمل عدد من الشعائر والعبادات إلا به؛ لذا فإنَّه يمكن القول: إنَّ مَعقِد الحجاج العربي القديم هو تلك الخطب التراثية التي حفظتها بطون المدوّنات والكتب، وإذا كانت حقبة الجاهلية وما تبعها من عصور إسلامية زاهية تمثِّل الأنموذج السامي الذي يُمكن احتدائه واقتفائه أثره، فإنَّ كتاب (جمهرة خطب العرب) يُعدُّ المدوّنَة المثلَى التي يُمكن من خلالها دراسة الخطبة العربية، ولئن كانت الخطبة العربية على هذا القدر من التماسّ مع الحجاج فإنَّ الوارد أن يختار الخطيب أنفع الأساليب وأكثرها تحقيقًا للهدف المنشود؛ لذا فقد جاءت هذه الدراسة في سبيل تتبع واستقصاء تلك الوسائل الحجاجية ومعرفة أثرها ودورها.

وتبدأ هذه الدراسة بتمهيدٍ عرّف الباحث من خلاله بالحجاج وبأهمّ مدارسه، ثم عرّف بالمقصود ب(أساليب الحجاج)، ليختتم هذا التمهيد بالتعريف بالمدوّنَة المدروسة، وعلى إثر هذا التمهيد فقد تناولت الدراسة الأساليب في مستوياتٍ ثلاثة؛ فعُنتيت في فصلها الأول بأشهر الأساليب اللغوية الإقناعية التي توحّاها الخطباء، فظهر هذا الفصل في أربعة مباحث تناولت: الروابط والعوامل والتوكيد والتكرار، أمّا الفصل الثاني فإنَّه محتصّ بأهم الأساليب البلاغية التي اختارها الخطباء طريقًا إلى النتائج المقصودة؛ فمن خلال ثلاثة مباحث فإنَّ هذا الفصل قد درس الأساليب البلاغية في مستوياتها الثلاثة: الكلمة، والتركيب، والصورة، في حين كان الفصل الثالث مقصورًا على الأساليب المنطقية؛ بحيث تناول في ثلاثة من مباحثه: الحجج شبه المنطقية، والحجاج بالسبب، والحجاج بالسلطة، وإلى جانب اعتناء هذه المباحث بالأساليب الحجاجية المنطقية الثلاثة فقد درس المبحث الرابع من هذا الفصل الأثر الترتيبي لمفردات هذه الأساليب.

ولعلّ من أظهر النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة هو استيعاب الخطبة العربية لعدد من مظاهر الحجاج ومستوياته، بما يُثبت تجدّر الحجاج في الخطبة، ودقة الخطيب العربي في اختيار أقرب الطرق وأقواها تحقيقًا للهدف المنشود.

المقدمة

شهد التاريخ العربي مراحل مُهمّةً سادها الكثير من الأحداث العظيمة، حيث كانت حياة الإنسان العربيّ محفوفة بما يدعو إلى الأخذ والردّ والطلب والدفع والتدافع، وقد حفظت لنا المصادر عيون ما تكلم به أهل العربية في أوج حضارتهم وتمسّكهم بلغتهم، وعلى رأس ذلك جملة من الخطب المشهودة.

وعلى سبيل سائر الخطابات الغرضية الهادفة، فإنها لا تخلو هذه الخطب من مكنونٍ حجاجيٍّ إقناعيٍّ، بل إنّ القيمة الحجاجيّة في الخطبة تظهر أعلى من غيرها من أجناس القول؛ ذلك أنّ الحجاج وظيفة مُنغرسه فيها؛ بصفتها مجالاً قولياً جاداً يهدف أساساً إلى التأثير والإقناع، والاستدراج والاستمالة.

وليست أساليب الحجاج في الخطبة في مستوًى واحد؛ إذ تتنوع وتختلف بحسب تنوع المقام والغرض الدافع إلى القول، وغنيّ عن القول: إنّ لا غنى للخطيب الناجح عن التوسّل بكافة الأساليب اللغوية، والأساليب البلاغية، والأساليب المنطقية، وما سواها من كفايات إقناعية إشارية بصرية.

ومن منطلق هذه الأهميّة القصوى للحجاج، ولمكانة الخطبة ودورها الفعّال في تحقيق شتىّ الغايات السياسية والاجتماعية والدينية، ووفاءً بحق التراث، فقد رأيت أن أدرس في أطروحتي للدكتوراه: (أساليب الحجاج في «جمهرة خطب العرب» لأحمد زكي صفوت)؛ وذلك نظرًا لكون هذه المدوّنة المُختارة تُمثّل أزهى عصور الخطبة العربية.

ويمكن إجمال تساؤلات البحث ومشكلاته فيما يلي:

- ما أهمّ أساليب الحجاج المعتمّدة في المدونة المختارة؟
- ما تأثير المقام على اختيار الأسلوب، وما مدى وعي الخطيب بذلك؟
- إلى أيّ مدى يمكن الاستفادة من المنجزات البلاغية الجديدة، وتوظيفها في دراسة نصوص عربية تراثية أصيلة؟
- كيف تجلّى المتلقي في خطب المدوّنة المدروسة، وما الدور الموكول إليه؟

• هل نجحت خطب المدونة المدروسة في توفير حجاج مؤثّرٍ وفاعلٍ ودافعٍ إلى الفعل؟
وتأسيسًا على تلك التساؤلات، فإنّ هذه الدراسة تهدف إلى تحقيق مجموعة من الأهداف التي يمكن إجمالها بما يلي:

- أ- تبيّن أهم أساليب الردّ والإقناع المستعملة في المدونة المختارة.
ب- تبصّر أثر المقام ودوره في العدول واختيار أقرب الأساليب المؤصلة إلى النتيجة المقصودة، والتعرّف على مدى وعي الخطيب العربي القديم بما يوظّفه من أساليب.
ج- الاستفادة من المنجزات البلاغية الجديدة، وتحقيق رؤية حجاجية متكاملة متّصلة بالمنجزين البلاغيين: القديم والحديث.
د- الكشف عن مدى فاعلية المناهج البلاغية والنقدية الحديثة في تحليل المدونة الثرية العربية القديمة.

هـ- الإسهام في سدّ النقص المتعلق بدراسة جنس الخطبة العربية.
وفي ظلّ الإعداد لفكرة البحث فإنّ الباحث قد وقف على عدد من الدراسات السابقة، لعلّ من أولاها بالذكر:

(١) كتاب محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري لدراسة الخطبة العربية (الخطبة في القرن الأول) أنموذجًا^(١). وقد اقتصر مؤلفه على الخطبة في القرن الأول الهجري، وفي ظلّ نماذج محدّدة وقليلة خلّلت بشكل مُقتضب.

(٢) رسالة زوليخة رحمون: الحجاج في خطب صدر الإسلام: (خطب الخلفاء الراشدين أنموذجًا)^(٢). وقد درّست الباحثة- في حدود عشرين صفحة- أربع خطب لأربعة خلفاء، مقتصرةً على تناولها من جهة: حجاجية التركيب، وحجاجية الصورة، وحجاجية البديع.

(٣) رسالة خديجة محفوظي: بنية الملفوظ الحجاجي للخطبة في العصر الأموي^(٣). وقد جاء القسم

(١) دار إفريقيا الشرق، ط ٢، الدار البيضاء، عام ٢٠٠٢م، (صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٥م).

(٢) رسالة ماجستير، جامعة محمد خضير، الجزائر، نوقشت عام ٢٠١٥م.

(٣) رسالة ماجستير، جامعة منتوري، الجزائر، نوقشت عام ٢٠٠٧م.

التطبيقي من هذه الرسالة في أقل من خمسين صفحة تقريباً، خللت فيها الدراسة أربع خطب، ولم تراع فيه الباحثة التمييز بين آليات الحجاج البلاغية وآلياته اللغوية.

(٤) كتاب **آمال المغامسي: الحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية**^(١). وهذا الكتاب وإن وافق في مباحثه عددًا من المباحث التي ينوي الباحث مقارنتها فإنه اختُصَّ بدراسة الحديث النبوي ليس غير.

(٥) كتاب **مثنى كاظم صادق: أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي: تنظير وتطبيق على السور المكية**^(٢). وهذا الكتاب كسابقه من جهة موافقته بعض المباحث التي سوف يدرسها الباحث، إلا أنه مختلف من جهة المدونة المدروسة؛ فهو مختص بدراسة السور المكية.

(٦) وبعد تسجيل الموضوع والمُضي في كتابة الرسالة، ظهرت أطروحة دكتوراه ل: هدية محمد فاضل، بعنوان: **الحجاج في خطب العرب: كتاب (جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة) أمودجًا**^(٣). وتقع هذه الأطروحة فيما يقارب ثلاثمائة وثلاثين صفحة، ولئن بدت متماسة مع عنوان هذه الدراسة من جهتي: الموضوع والمدونة، إلا أنه بالتصفح فإن هذه الأطروحة قد تجلّت دراسة مختلفة من حيث المنهج ومن حيث تناول، مع توسّع في دراسة (الأفعال الكلامية) ودراسة (البديع)، وإغفالٍ للجانب المنطقي. وحسب المقارن النظر في منهجي الدراستين وفي محتوياتهما وتفحص مراجعتهما، ذلك مع أخذ ضخامة المدونة وأهميتها بالاعتبار.

ومن حيث التبويب، فإنّ هذه الدراسة قد جاءت في مقدّمة متبّعة بتمهيد عرّف الباحث فيه بالحجاج وبثلاث من أهمّ مدارسه، ولتحرير عنوان الدراسة فإنّ الباحث عرّف بأساليب الحجاج، ثمّ ختمّ التمهيد بوصفٍ شاملٍ للمدونة المدروسة.

وقد جعل الباحث الفصل الأول موقوفًا على دراسة الأساليب اللغوية مقسّمًا إلى أربعة مباحث: المبحث الأول: الروابط الحجاجية، والمبحث الثاني: العوامل اللغوية، والمبحث الثالث:

(١) الدار المتوسطة للنشر، ط١، تونس، ٢٠١٦م.

(٢) منشورات ضفاف، ط١، بيروت، ٢٠١٥م.

(٣) أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، العراق، نوقشت عام ١٤٤٠هـ.

التوكيد، والمبحث الرابع: التكرار.

أمّا الفصل الثاني فقد عُني الباحث فيه بدراسة الأساليب البلاغية في مستوياتها الثلاثة، بحيث درس في المبحث الأول: الكلمة، وفي المبحث الثاني: التركيب، وفي المبحث الثالث: الصورة. وقد اختصَّ الباحث الفصل الثالث بدراسة الأساليب المنطقية في ظلّ ثلاثة من مظاهرها، بحيث استأثر المبحث الأول بالحجج شبه المنطقية، والمبحث الثاني بالحجاج بالسبب، والمبحث الثالث بالحجاج بالسلطة، لينتهي هذا الفصل في مبحثه الرابع بدراسة بعض مظاهر ترتيب تلك الحجج. ثمَّ إن الدراسة حُتِمت بخاتمة تضمّنت أبرز النتائج وشيئاً من التوصيات.

وبخصوص المنهج الذي سيعتمده الباحث في مقارنة هذا الموضوع فهو المنهج الذي سارت عليه دراسات البلاغة الجديدة كما في مقارنة (شاييم بيرلمان) و(لوسي أولبريخت تيتيكا)؛ القائمة على دراسة ما تؤدّيه التقنيات البلاغية والمنطقية من دور في تحديد وجهات النظر، وكشف ما ينطوي عليه الخطاب من مقاصد إقناعية وتأثيرية.

وإذ يأمل الباحث أن يُقدّم هذا العمل مادة جادة يُمكن أن تكون إضافة إلى الجهود الحجاجية العربية، فإنّه لا يفوته ذكر ما واجهه من صعوبة في إعداد هذا العمل، فكثيراً ما كان المعنى المقامي داعياً إلى مزيد بحث وتثوير ومساءلة وتقصّص، كما واجه الباحث صعوبة في الاستفادة من المنجز البلاغي الجديد دون القطيعة مع المنجز العربي (اللغوي) و(البلاغي) القديم.

وفي نهاية المطاف، فإنّي أشكر الله ﷻ على ما يسّر وأعان، ثمَّ إنّي أتوجّه بالشكر الخاصّ إلى الدكتور إبراهيم بن منصور التركي الذي لم يأل جهداً في توجيهي وإرشادي ومتابعتي، إذ كان له الأثر الجليل في خروج العمل بهذه الصورة، سائلاً الله أن يجزيه عني خيراً وأن يبارك في عمره وعمله، وإذ أتوجّه بذلك فإنّه لا يفوتني أن أشكر كلّ من مدّ لي يد العون من الأساتذة الأفاضل في القسم وخارج القسم، ولا أنسى أن أخصّ بالشكر والدعاء كلاً من الدكتور: نجيب محمد العمامي، والدكتور: السيد عبد السميع حسونة، وذلك على ما تفضلاً به من توجيه وإرشاد.

ثمَّ إنّي أسأل الله أن ينفعني بهذا العمل، وأن ينفع به الباحثين، وأن أكون قد وفقت في سدّ خلّة في مكتبة دراسات الحجاج، والحمد لله ربّ العالمين.

التمهيد

ويشتمل على ما يلي:

أولاً: تعريف الحجاج.

ثانياً: أهم مدارس الحجاج المعاصرة.

ثالثاً: أساليب الحجاج.

رابعاً: وصف المدونة المختارة.

لقد فضّل الله الإنسان على غيره من المخلوقات بما أودع فيه من عقل قادر على الإدراك والتمييز والتحليل والتركيب، وبفعل نعمة العقل فإنّ كلّ ما يصدر عن الإنسان من حركات وسكّنات وتوجّهات إنّما هي أشياء مقصودة يُفترض أنّ تكون مصحوبةً بمبررات ذهنية قابلة للطّرح والتداول، وبتلك المبررات فإنّه يمكن لأيّ إنسان المُحاجّة والمدافعة عن جميع ما يبدر منه؛ الأمر الذي يبرّر القول بأنّ الإنسان كائنٌ حجاجيٌّ إقناعيٌّ بامتياز؛ فحيثما «وُجد خطاب العقل واللغة فإنّ ثمةً استراتيجيةً معيّنة نَعَمَدُ إليها، لغويًا وعقليًا، إمّا لإقناع أنفسنا أو لإقناع غيرنا، وهذه الاستراتيجية هي الحجاج ذاته»^(١).

إنّ الحجاج- بهذا المعنى- عنصرٌ يوميٌّ لا يمكن للإنسان السويّ الانفكاكُ عنه أو التجرد منه، وبهذا الارتباط الأزليّ بين الإنسان والحجاج فإنّ اللغة ستبقى مقترنة بالحجاج دومًا وأبدًا؛ إذ هي الوسيلة المثلى للكشف والتعبير، وفي المقابل فإنّ كلّ أطروحة حجاجية ستكون قابلةً للردّ أو الشكّ، مما ينتج عنه ولادة نصّ حجاجيٍّ آخر، وهكذا يتسلسل الحجاج ويتناسل- إثباتًا ومعارضةً- ليصبح وقودًا محفّرًا لاستمرار حركة التواصل اليومية، ولئن كان الحجاج ناتجًا عن عملية التواصل فإنّ كثيرًا من التواصل ناتجٌ عن الحجاج^(٢).

وبارتباط اللغة بالحجاج، فإنّ الخطابات الإنسانية على اختلافها (خطبًا، وقصائد، وحواراتٍ يومية، ومفاوضات، ولافتات، وخطاباتٍ سياسيّة، ومرافعات، وروايات، ومسرحيات، ومناظرات، وسيرًا ذاتيّة، وغيرها) لا يمكن أن تخلو من مكنونٍ حجاجيٍّ إقناعيٍّ.

ويمكن القول: إنّ كلّ النصوص ذات اللغة الطّبيعيّة هي نصوص حجاجيّة بالمعنى الأوّل، فلا خطاب دون وظيفة ولا وظيفة إلا بحجاج، غير أنّ حضور الحجاج يختلف من جنسٍ إلى آخر، ففي الخطبة-مثلاً- تكون القيمة الحجاجيّة أعلى فيها من غيرها، حيث إنّ الحجاج وظيفيّة أساسيّة مُنغرسّة في القول الحطّابي؛ من جهة أنّ الخطبة مجالٌ قوليٌّ يهدف إلى الإقناع والاستدراج والاستمالة. ونحوها: (المناظرة) و(الجدل) و(المرافعة)؛ إذ يبلغ الحضور الحجاجي درجته القصوى

(١) بحث: الحجاج والاستدلال الحجاجي: عناصر استقصاء نظري، الحبيب أعراب، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته: دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إشراف: حافظ إسماعيلي علوي، ط ١، ج ١، ص ٦٢٥ (عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١٠م).

(٢) ينظر: الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، ط ١، ص ١٢ (مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ٢٠١٠م).

في خطاب هذه الأجناس^(١).

وكما يختلف حضور الحجاج باختلاف نوع الخطاب، فإنَّ الحجاجَ مختلفٌ -أيضاً- من حيث السِّمة؛ إذ ينشأ كلُّ حجاجٍ متأثراً ببيئته؛ فإذا كان الخطاب لغوياً فإنَّ الحجاج سيكونُ لغوياً، وإذا كان الخطاب بلاغياً فإنَّ الحجاج سيبدو بلاغياً، وإذا كان الخطاب سياسياً فإنَّ الحجاج سيظهر منصباً بالسياسة، وإذا كان الخطاب قضائياً فإنَّ الحجاج سيتجلى متأثراً بالمنظومة القانونية، وهكذا؛ فلكلِّ خطابٍ طبيعيٍّ سِمته الحجاجية المُشاكِلة له^(٢).

وبفعل انقسام الحجاج وتفرُّقه بين النصوص ذات الهوية (النص الشعري، النص الخطابي، النص السردي، النص القانوني، وغيرها) وتواشجه معها، فإنه لا يمكن -بأَيِّ حالٍ من الأحوال- القول بوجود نصٍّ حجاجيٍّ مسيِّجٍ بحدودٍ وضوابطٍ شكليةٍ ومعنويةٍ تُعيِّنه وتؤسسُ هُويته^(٣). ولما تقتضيه الدراسة من البدء بتحرير المصطلحات وتحديد المفاهيم فإنَّ الباحث سيعرِّف -فيما يلي- بالحجاج، وسيلقي بالضوء على أهمِّ مدارسه، ثم يتحوَّل إلى التعريف بالأساليب محوِّلاً الانتباه إلى تعريف شاملٍ للمصطلحين معاً.

(١) ينظر: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، محمد طروس، ط ١، ص ٥ (دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٥م). والخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص ١١. والتواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية، صالح بن الهادي رمضان، ط ١، ص ١٣٦، ١٣٨ (نادي الرياض الأدبي، الرياض، ١٤٣٥هـ). والسلام الحجاجية في القصص القرآني: مقارنة تداولية، فائزة بوسلاح، أطروحة دكتوراه، ص ١٢، جامعة وهران ١ - أحمد بن بلة، الجزائر، وهران (٢٠١٤-٢٠١٥م).

(٢) ينظر: الحجاج في النص القرآني، إيمان درنوبي، رسالة ماجستير، ص ١٣، جامعة الحاج لخضر، الجزائر، باتنة (١٤٣٣-١٤٣٤هـ).

(٣) ينظر: الوظائف الحجاجية في الخطاب الحربي: (خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه) أمودجًا، علي عمران، ضمن كتاب: الحجاج رؤى نظرية ودراسات تطبيقية، إشراف: حسن خميس الملخ، ط ١، ص ٢٢٣ (عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١٥م).

أولاً: تعريف الحجاج:

إنَّ الحجاج مفهوم قديم استحدثت آلياته المنهجية في العصر الحديث، فصار له منهجه وآلياته التي يُعرف بها، وعند البحث عن المعنى المعجمي للحجاج فإنَّ الباحث سيجد أنَّ المعاجم العربية قد تواترت على إعادة المصطلح إلى الجذر (حَجَج) الذي اشتقت منه مجموعة من المصطلحات المتصلة بالحجاج من قبيل: الحُجَّة، والتَّحاجُّ، والاحتجاج، والمُحجَّة^(١).

وتكاد المعاجم العربية تُجمع- في تناولها للحجاج- على ما جاء به ابن منظور ونقله؛ إذ يقول: «حَاجَجْتُهُ أَحَاجُهُ حِجَاغًا وَمُحَاجَّةً حَتَّى حَجَجْتُهُ؛ أَي: غَلَبْتُهُ بِالْحُجَجِ الَّتِي أُدْلِيْتُ بِهَا... وَالْحُجَّةُ: البرهانُ وقيل: الحُجَّةُ ما دُوْفِعَ بِهِ الخِصْمُ، وقال الأزهري: الحُجَّةُ الوجه الذي يكون به الظَّفَرُ عند الخصومة، وهو رجلٌ مُحَجَّجٌ أَي جَدِلٌ، والتَّحاجُّ: التخاصُّمُ، وجمع الحُجَّةِ: حُجَجٌ وحِجَاجٌ، وحَاجَهُ مُحَاجَّةً وحِجَاغًا نازعَةً الحُجَّةَ، وحَجَّه يُحِجُّه حَجًّا: غلبه بالحُجَّةِ وفي الحديث: ((فَحَجَّ آدمُ موسى))؛ أَي غَلَبَهُ بِالْحُجَّةِ... وَالْحُجَّةُ: الدليلُ والبرهان»^(٢).

وقد ورد لفظ الحجاج في عدَّة آيات قرآنية، منها قول الله تعالى: ﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

وقول الله تعالى: ﴿وَحَاجَّهٖ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾^(٤).

وقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَلَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾^(٥).

(١) ينظر: الحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، إيمان المغاسمي، ط ١، ص ٢٠ (الدار المتوسطة للنشر، تونس ١٤٣٧هـ).

(٢) لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، ط ٣، ج ٣، ص ٥٣ (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٩هـ).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٦.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٨٠.

(٥) سورة غافر، الآية: ٤٧.

وقول الله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ أَصَاتِكَ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ (١).

وعن معنى قوله تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ يقول الراغب الأصفهاني: «أي لا احتجاج لظهور البيان؛ والمُحَاجَّةُ أن يطلب كلُّ واحد أن يُرَدَّ الآخرَ عن حُجَّتِهِ وَمُحَاجَّتِهِ» (٢). في حين يحرِّرُ صاحب (معجم الألفاظ القرآنية) مصطلح (الحجاج) بقوله: «حجُّ مُناظرة: غلبه بالحُجَّةِ والبرهان، وحاجَّة: جادله، وتُحَاجَّ: تخاصما... والحُجَّةُ: البرهان» (٣).

ويُظهِرُ من هذا التناول اقتضاء الحجاج للخصومة؛ من جهة أن الغلبة في الكلام حاصلَةٌ لمن يقيم الحجة على صحة أطروحته، فمتى وُجِدَتِ الخصومة فإنَّ الجدال هو المظهر الذي يجسِّدُ صورة الخطاب الحجاجي، كما يظهر أيضًا أنَّ الحجاج هو البراهين والأدلة والحُجج التي يسوقها المتكلم للمدافعة عن أطروحةٍ ما أو إثبات فكرةٍ ما (٤).

وفي كتب التعريفات عند القدماء يظهر أنَّ الحجاج لا يختلف كثيرًا عن معناه المعجمي، وعن وظيفته في الإقناع والتأثير والغلبة (٥)؛ ففي كتاب (التعريفات): «الحجاج في الاصطلاح هو ما دُلَّ به على صحة الدعوى، وقيل: الحُجَّةُ والدليل واحد» (٦)، بينما ذهب صاحب (الكليات)

(١) سورة الشورى، الآية: ١٥-١٦.

(٢) المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق وإعداد مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، ج ١، ص ١٤١ (مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، د. ت).

(٣) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم، ص ١١٦ (دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٨م).

(٤) ينظر: الحجاج في خطب صدر الإسلام: (خطب الخلفاء الراشدين) أنموذجًا، زوليخة رحمون، رسالة ماجستير، ص ٦، جامعة محمد خيضر، الجزائر، بسكرة (١٤٣٥-١٤٣٦هـ). والحجاج في خطب الحجاج بين يوسف الثقفي، عائشة سلامة، رسالة ماجستير، ص ٩، جامعة محمد خيضر، الجزائر، بسكرة (١٤٣٦-١٤٣٧هـ).

(٥) ينظر: بلاغة الحجاج في خطبة الغدير، طاهرة طوبائي ومربية آباد، مجلة اللغة العربية وآدابها، السنة ١١، العدد ٢، ص ٢٥٨ (صيف ١٤٣٦هـ).

(٦) التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط ٢، ص ٨٧ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ).

إلى القول بأنَّ: «الْحُجَّةُ، بالضم: البُرْهَانُ...»، وما ثبت به الدَّعوى من حيث إفادته للبيان يُسمى بَيِّنَةً، ومن حيث العَلَبَة به على الخصم يُسمى حِجَّةً^(١)، في حين رأى مؤلف (موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم) أنَّ لفظ الحُجَّةِ: «مرادف للدليل... والحُجَّةُ الإلزامية هي المرَكَّبَةُ من المقدمات المسلَّمة عند الخصم، المقصود منها إلزام الخصم وإسكاته»^(٢).

وقد عرَّف الحجاج حديثًا بعدة تعريفات لا تتعد عن التعريفات القديمة السابقة، غير أنَّه يصعب حصر تلك التعريفات الحديثة بسبب كثرة تناولات الحجاج وتعدُّد مجالاته، ولعلَّ أسبق تعريف حديثٍ للحجاج هو تعريف (بيرلمان) و(تيتيكا) الذي حدَّا فيه الحجاج بأنَّه: «تقنياتُ الخطاب التي من شأنها أنْ تُوَدِّي بالأذهان إلى التَّسليم بما يُعرض عليها من أطروحات، أو أنْ تزيد في درجة ذلك التَّسليم»^(٣)، وإلى هذا التعريف فقد حصر (ديكرو) عملية الحجاج «في: أنْ يقدِّم المتكلم قولاً- أو مجموعة أقوال- هو (ق ١) يقود إلى (ق ٢) الذي هو بمثابة النتيجة، ما يعني أنَّ الحجاج هو الإتيان بمجموعة من الحجج التي تساعدنا على تحديد وجهة النتيجة»^(٤)، في حين وصف (ميشال مايير) الحجاج بأنَّه: «جهدٌ إقناعيٌّ إفحامِيٌّ، ويُعتبر البعد الحجاجيُّ بعدًا جوهريًّا في اللغة لكون كلِّ خطاب يسعى إلى إقناع مَنْ يتوجه إليه»^(٥)، أمَّا (إريك كراب) فإنَّه قد ذهب إلى أنَّ الحجاج يَنبني على «جملة من التَّصورات والمقدمات والفرضيات التي يَنسج منها المُحاجَّ حُطَّطَه البرهانية؛ فبهذه المقدمات يُستمال المعنويون، كما أنَّ لهم الحق في رفضها إذا لم تنسجم مع تصوراتهم، أو كانت من البساطة أو السطحية بحيث لا تمثِّل أيَّ عنصر جذاب»^(٦).

ولا يذهب الدارسون العرب في-تعريفهم للحجاج- بعيدًا عن هذه المعاني؛ إذ تُعرِّف إحدى

(١) الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، ط ٢، ص ٤٠٦ (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ).

(٢) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، تحقيق: علي دحروج وآخرين، ط ١، ج ١، ص ٦٢٢ (مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م).

(٣) في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، عبد الله صولة، ط ١، ص ١٣ (مسكيلياني، تونس، ٢٠١١م).

(٤) الآليات الحجاجية في الخطاب الديني: خطبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنموذجًا، حليلة مسعي، مجلة سياقات اللغة والدراسات البيئية، المجلد ٢، العدد ٥، ص ٢٠٩ (أبريل ٢٠١٧م).

(٥) بحث: الحجاج والاستدلال الحجاجي، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٢٤.

(٦) السلم الحجاجي في رسالة الإمام زين العابدين، عبد الإله عبد الوهاب العرداوي، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد ٢٠، العدد ١، ص ٥٧ (٢٠١٧م).

الباحثات الحجاج بأنه: «وسيلة المتكلم في جعل المتلقي يتقبل آراءه واتجاهاته، وانتقاداته وتوجيهاته»^(١)، بينما يرى أحدهم أنّ الحجاج: «انتهاج طريقة معينة في الاتصال، غايته استمالة عقول الآخرين والتأثير فيهم، وبالتالي إقناعهم بمقصد معين»^(٢)، وقريبٌ من ذلك ما ذهب إليه جميل عبد المجيد إذ وسم الحجاج بأنه: «خطابة تستهدف استمالة عقل المتلقي والتأثير على سلوكه، أي: الإقناع»^(٣)، في حين يحتزل أبو بكر العزاوي تعريف الحجاج بكونه: «تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة»^(٤).

والخلاصة من هذا العدد من التعريفات والمفاهيم والمعاني هي أنّ وظيفة الحجاج ومهمته تكمن في «التأليف بين مجموعة من القضايا تهدف كلها إلى إثبات صحة قضية أخيرة تُقدّم باعتبارها النتيجة لهذه المتواليات الاستدلالية»^(٥)، وبذلك المفهوم فإنّ الحجاج يعني بذل جميع ما يؤدّي بالمتلقي إلى الاقتناع والإذعان، وذلك من خلال الأسباب والعلل التي تكون حجةً تؤيد أو تعارض فكرة أو رأياً أو توجهًا ما^(٦).

وفي محاولة من الباحث لتعريف الحجاج بتعريف وافٍ ومركّز، فإنّه يذهب إلى أنّ الحجاج: **اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما من شأنه أن يُثبت أو ينفي قضيةً أو فكرةً أو توجهًا ما.**

ولعلّ الباحث- بهذا التعريف- يكون قد نجح في إضفاء شيء من الشمولية التي يستوعب بها الحجاج كافة الآليات الإقناعية، اللغوية وغير اللغوية؛ ذلك أنّ من الآليات الحجاجية اللازمة ما يخرج عن حيّز اللغة، من قبيل الصمت، ومن قبيل بعض الكفايات المسرحية، نحو: رفع الصوت، أو هيئة المُلقّي، أو لباسه أو نظرتّه، أو إشارته أو حركته، أو توتّره أو اندفاعه؛ فبفعل هذه

(١) الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي، بمينة تآبتي، مجلة الخطاب، العدد ٢، ص ٢٨٤ (١ يونيو ٢٠٠٧م).

(٢) البيان الحجاجي في إعجاز القرآن الكريم: (سورة الأنبياء) أنموذجاً، عبد الحليم عيسى، مجلة التراث العربي، السنة ٢٦، العدد ١٠٢، ص ٣٧ (نيسان ٢٠٠٦م).

(٣) البلاغة والاتصال، جميل عبد المجيد، ص ٧ (دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠م).

(٤) اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ط ١، ص ١٦ (المؤلف، ٢٠٠٦م).

(٥) الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، ط ١، ص ١٠٤ (مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ٢٠١٠م).

(٦) ينظر: أسلوبيّة الحجاج التداولي والبلاغي: تنظير وتطبيق على السور المكّية، مثنى كاظم صادق، ط ١، ص ١٥ (منشورات ضفاف، بيروت، ١٤٣٦هـ).

الكفايات فإنَّ ظاهر الشخص- نفسه- يتحول إلى خطابٍ مضاهٍ للخطاب الغوي^(١). وبالخروج من تعريفات الحجاج إلى فضاءاته المتشعبة والمتفاوتة، فإنه لا بدَّ من الاعتراف بوجود سياقات كثيرة وحقول وظيفية متعددة للحجاج، مما يُعزِّز الوصولَ إلى تحديدٍ ملخِّصٍ ودقيقٍ لمعنى الحجاج، ويُعسِّرُ-أيضاً- الفصل التام بين معنَى حجاجيٍّ ومعنَى آخر^(٢).

وفي حين يساوي بعضهم بين (الحجاج) و(البرهان)، فإنه يُقال: على الرِّغم مما بين (الحجاج) و(البرهان) من تقارب وتواشج إلا أنَّ الحجاج لا يعني البرهان؛ فبينما يمتازُ الحجاج بإمكانية نقض قضيةٍ ما ودحضها، فإنَّ البرهان لا يمكنه ذلك؛ لأنَّ نتيجته موضوعيةٌ ويقينيةٌ، كما ينماز الحجاج بسِمته الإضمارية في غالب الأحيان؛ من حيث إنَّ الإدلاء بالأخبار وتداول الأفكار والرؤى- بين المُلقِي والمُتلقي- لا يمكن أن ينفكَّ عن قصد إحداث الإقناع والاستمالة، وذلك بخلاف البرهان فإنَّ سِمته الجلاء والظهور^(٣).

ولهذا الإشكال، وبسبب هذا الالتباس في موضوع الحجاج، ولما للحجاج من أهمية- من حيث: حضوره ودوره الناجع، وتقدّم وسائل الإعلام ووسائل الاتصال، ونشاط الديمقراطية في مجموعة من الدول، ووجود موجاتٍ من التطرُّف تستدعي اللجوء إلى الحجاج لجمع الكلمة وتخفيف الاحتقان- فإنَّها قد تضافرت جهود المحدثين في التأسيس لنظرية حجاجية تستفيد من جهود السلف (اليونان، الرومان، العرب)، وتستوعب ما طرأ على الحجاج في العصر الحديث، وكانت حصيلةً هذه الجهود: دراساتٍ وأبحاثاً وكتباً ومقالاتٍ لا حصر لها، وبطبيعة الحال فقد

(١) ينظر: رسائل الجاحظ، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ج٤، ص٢٤٧ (دار الجليل، بيروت، د. ت). وبلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، حسن المودن، ط١، ص٩٢، ١٠٣ (كنوز المعرفة، عمّان، ١٤٣٥هـ). ومدخل إلى قراء النصوص الخطابية القديمة، صالح بن رمضان، مجلة علامات في النقد، المجلد ٥، الجزء ٢٠، ص١٨١-١٨٢ (١٩٩٦م).

(٢) ينظر: بحث: الحجاج والاستدلال الحجاجي، مرجع سابق، ص٦٢٥. وتحليلات الحجاج في الخطاب النبوي: دراسة في وسائل الإقناع (الأربعون النووية) أنموذجاً، هشام قرّوم، رسالة ماجستير، ص٤٥، جامعة الحاج لخضر، الجزائر، باتنة (٢٠٠٨-٢٠٠٩م).

(٣) ينظر: بنية الملفوظ الحجاجي للخطبة في العصر الأموي، خديجة محفوظي، رسالة ماجستير، ص٩، جامعة منتوري، الجزائر، قسنطينة (٢٠٠٦-٢٠٠٧م). وأطروحة: السلام الحجاجية في القصص القرآني: مقارنة تداولية، مرجع سابق،

ذهب كلُّ منظرٍ إلى تقديم نظرية حجاجية تنطلق مما لديه من خلفيات وتوجهات، وهذا ما يُبرر الوقوف فيما يلي على أهم مدارس الحجاج المعاصرة وأشهرها^(١).

(١) ينظر: من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، جميل حمداوي، ص ٩، (أفريقيا الشرق، د. ت، الدار البيضاء، ٢٠١٤م).
ورسالة: تحليلات الحجاج في الخطاب النبوي: دراسة في وسائل الإقناع (الأربعون النووية) أنموذجًا، مرجع سابق، ص ٤٥.

ثانياً: أهم مدارس الحجاج المعاصرة:

بفعل الاختلاف والتفاضل، فإنه لا مناص من التفاوت في تلقّي الحجاج؛ فمن الناس - كما يقول ابن رشد- «من يصدّق بالبرهان، ومنهم من يصدّق بالأقويل الجدلية تصديق صاحب البرهان بالبرهان؛ إذ ليس في طباعهم أكثر من ذلك، ومنهم من يصدّق بالأقويل الخطائية كتصديق صاحب البرهان بالأقويل البرهانية»^(١)، ولعلّ ابن رشد قد انطلق في قوله هذا من قول الله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٢)؛ ومراعاةً لهذا التفاوت فقد تنوعت وسائل الإقناع وآلياته، والمُلقي الجيد هو الذي يختار حججه وينيها على ما يناسب المتلقين ويتوافق مع سياق الخطاب وموضوعه؛ فالأطروحة السياسية-مثلاً-تختلف في وسائلها وآلياتها الإقناعية عن الأطروحة الاجتماعية أو الثقافية أو الدينية، وهكذا، فلكل أطروحة آلياتها ووسائلها الإقناعية^(٣).

والمُتأمل في منظومة الوسائل والآليات الحجاجية يجد أنّها تحوي ما هو فكري (الدليل، الأمانة، البرهان، وغيرها)، وما هو عاطفي (الشعور، التحفيز، الاستفزاز، التحريض، وغيرها)، وما هو لغوي (التأكيد، التكرار، الروابط، وغيرها)، وما هو بلاغي (الاستفهام، السجع، الاستعارة، وغيرها)، وما هو خارج عن ذلك كلّ (هيئة الخطيب، صوته، لباسه، وغيرها)^(٤). ويذهب بعضهم إلى ردّ جميع الآليات والوسائل الحجاجية إلى أصلين: منطقية (عقلية)، وغير منطقية (عاطفية، لغوية، بلاغية، وغيرها من الآليات الحجاجية الخارجة عن حدود الحجج

(١) فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، أبو الوليد بن رشد، تحقيق: محمد عمارة، ط ٢، ص ٣١ (دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م).

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) ينظر: استراتيجيات الخطاب: مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي الشهري، ط ١، ص ٤٧٧ (دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م). وأدوات الإقناع العقلي والعاطفي: خطبة عبد الله بن يحيى زعيم الإباضية لما استولى على اليمن أنموذجاً، محمد إسماعيل بصل، وعدنان محمد أحمد، واكمس أحمد فياض، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، المجلد ٣٩، العدد ٦، ص ١٤٣ (٢٠١٧م).

(٤) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، محمد سالم محمد الأمين الطلبة، ط ١، ص ١٢ (دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٨م).

العقلية)^(١).

وإلى جانب تفاوت الآليات والوسائل الحجاجية وتنوعها، فقد تعددت الخلفيات المرجعية للدراسات الحجاجية؛ جزاء ما حظي به الحجاج من اهتمام في العصر الحديث، حيث أصبح الحجاج محطّ أنظار المنطقيين واللسانيين والفلاسفة والإعلاميين ودارسي التواصل وغيرهم، وبفعل هذا التنوع المرجعي أصبح لكل دارسٍ حجاجيٍّ زاويته التي يطلُّ منها؛ الأمر الذي جعل من الحجاج ميداناً رحباً لتنافس جملةٍ من العلوم والتخصصات، وهو ما ساعد في نشوء عدّة مدارس حجاجية (لغوية، بلاغية، فلسفية، منطقيّة)^(٢).

وبدراسة المدارس الحجاجية الحديثة فإنه يظهر التطور اللافت الذي طرأ على التصور القديم للحجاج، وذلك بعد أن استوعبت تلك المدارس جهودَ القدامى وقرأتها قراءة جديدة مؤيِّدةً بأحدث ما وصلت إليه العلوم اللسانية الحديثة في مجالات مختلفة، ولأنّه يتعدّد دراسة كافة تلك المدارس فإنّ الباحث سيكتفي بدراسة أهمّ ثلاث مدارس حجاجية في العصر الحديث، وهي:

(١) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، ط٢، ص٨ (دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٧م).

(٢) ينظر: بحث: اللغة والحجاج: قراءة في كتاب (اللغة والحجاج) للدكتور أبو بكر العزاوي، زكريا السرتي، ضمن كتاب: الحجاج اللغوي: قراءات في أعمال أبي بكر العزاوي، تنسيق: حسن مسكين، ط١، ص٢٢٥ (عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١٧م).

المدرسة الأولى: مدرسة البلاغة الجديدة^(١):

يتزعم هذه المدرسة منظران، هما: (بيرلمان) و(تيتيكا)، وقد ذهب بعض الدارسين إلى أنّ البدايات الأولى للدراسات الحجاجية في العصر الحديث كانت مع صدور الكتاب المشترك ل(بيرلمان) و(تيتيكا): (البلاغة الجديدة: مصنف في الحجاج)^(٢) عام ١٩٥٨م، ويعدّ هذا الكتاب زبدة نتاج الباحثين وجماع تصنيفاتهما المتفرقة في مجال الحجاج^(٣).

وترتكز رؤية هذين المنظرين على أنّ الخطاب الحجاجي الناجح هو الخطاب الذي يوفّق إلى زيادة مستوى إقناع المتلقين وإذعائهم بشكلٍ يحثّهم على أداء المطلوب، أو هو الخطاب الذي يوفّق-على أقلّ تقديرٍ- إلى جعل المتلقين مهيين للقيام بالمطلوب متى حان وقت أدائه، وبذلك فإنّ غاية الحجاج الأساسية لدى هذه المدرسة تتمثّل في دفع المتلقين إلى الأداء أو تهيئتهم له، وعلى هذا النهج يتبيّن أنّ الحجاج في كتاب (مصنف في الحجاج) كامن في صميم التفاعل بين المحاجّ والجمهور المتلقي له^(٤).

وإذ تتركز رؤيتهما على ذلك فإنّ مفهوم الحجاج عندهما يستند إلى صناعة الجدل من ناحية، وإلى صناعة الخطابة من ناحية أخرى؛ مما يجعل الحجاج لديهما شيئاً ثالثاً مغايراً للجدل وللخطابة، إنّه- كما يقولان-: (خطابة جديدة) تختلف عن الخطابة والجدل، من جهة جمعها

(١) اعتمدت هذه التسمية وتركت تسميات أخرى مثل: المدرسة البلجيكية، وقد استعملها: محمد سالم محمد الأمين الطلبة. ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، مرجع سابق، ص ١٠٤. المدرسة ذات الرؤية الفلسفية، استعملتها: الباحثة خديجة محفوضي. ينظر: رسالة: بنية الملفوظ الحجاجي للخطبة في العصر الأموي، مرجع سابق، ص ٢٢.

(٢) أعلنت (دار الكتاب الجديد) عن طبعه بترجمة: محمد الولي، إلّا أنّه بتواصل الباحث مع الدار-وقت إعداد هذا العمل- أفاد العاملون بالدار بأنّ الكتاب قيد الطباعة وأنّه سيوزّع قريباً.

(٣) ينظر: الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال (مصنف في الحجاج-الخطاب الجديدة) لبرلمان وتيتيكا، عبدالله صولة، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، سلسلة آداب، المجلد XXXIX، ص ٢٩٨ (جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب، تونس، منوبة). والحجاج: من اللغة إلى الخطاب في أعمال أبو بكر العزاوي، فضيل نصري، ضمن كتاب: الحجاج اللغوي: قراءات في أعمال أبي بكر العزاوي، مرجع سابق، ص ١٧٩.

(٤) ينظر: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ص ١٣. والحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ط ٢، ص ٢١ (عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١١م).

بين التأثير النظري والتأثير السلوكي العملي، وعلى هذا التأسيس فإن الاستجابة العملية المترتبة على الحجاج ليس متوسلاً إليها بالمغالطة والخداع والمخاتلة؛ وإنما هي استجابة هيأ لها العقل والتدبر والنظر، وبذلك فإن هذه المدرسة تكون قد خلّصت الخطابة من دائرة الاتهام بالتزييف والتلاعب بالجمهور، على نحو ما فهمها أرسطو وبعض تلامذته من العرب مثل: ابن سينا وغيره^(١).

لقد أسست هذه المدرسة لبلاغة جديدة تحترم المتلقي وتعترف بوجهات نظره، وتتجاوز ما صُبغت به البلاغة القديمة من سمات تعليمية ومعيارية ومنطقية تسعى إلى استلاب المتلقين وإجبارهم على الاقتناع، وبتعويل هذه المدرسة على حرية المتلقي في الاقتناع فإنها ترى أنّ الحجاج مبني على: (المعقولة + الحرية)، إذ هو أشبه ما يكون بحوار قائم بين المحاج والمتلقين للوصول إلى اقتناع سليم منزّه عن الاعتباطية واللامعقولة اللذين يسودان الخطابة عادةً، ومنزّه-أيضاً-عن الإلزام والاضطرار اللذين يسودان الجدل، ولئن كانت الحرية تقابل العنف فإن حجاج هذه المدرسة بعيد عن العنف بشتى مظاهره؛ ذلك أنّه لولا الاختيار لَمَا كان ثمة حجاج أصلاً كما يقول (بيرلمان)^(٢).

إنّ حرية المتلقي-التي يشترطها منظرو هذه المدرسة-في تقبّل الحقيقة الحجاجية تجعل المعاني الحجاجية معاني متعددة قابلة للتداول والاختلاف؛ فالحقيقة عندهم غير مضمونة، وليست واحدة (يتفق الناس في فهمها) كما يقول البرهانويون^(٣).

وفي سعي من منظري هذه المدرسة إلى تحديد معالم نظريتهما فإنهما قد ميّزا الحجاج بخمسة ملامح ركيزية، هي:

أ- توجهه إلى متلقٍ.

ب- لغته الطبيعية.

(١) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٢٨. والحجاج في الشعر العربي:

بنينه وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢١.

(٢) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، مرجع سابق، ص ١٠٩. وفي نظرية الحجاج دراسات

وتطبيقات، مرجع سابق، ص ١١. ومن الحجاج إلى البلاغة الجديدة، مرجع سابق، ص ٨١-٨٢.

(٣) ينظر: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ١٤.

ج- احتمالية مسلماته.

د- اكتفاؤه في تناميهِ عن الضرورات المنطقية.

هـ- نتائجهُ غير ملزمة^(١).

وترى هذه المدرسة أنه ينبغي للحجاج أن يكون مبنياً على: (التصورات) و(المقدمات) و(الفرضيات)، كما ينبغي للمُحاجِّ الاعتناء بالسياق القولي وبالأسلوب البلاغي، والتركيز على الأفكار المهمّة والتصورات الثابتة في أذهان المتلقين، ذلك إلى جانب أهمية اختيار الألفاظ المناسبة البعيدة عن التنفير والاستفزاز؛ فانسجام المقال مع المقام شرطٌ أساسٌ في عملية الحجاج^(٢).

وإلى ما سبق، فإنّ هذه المدرسة تُشيدُّ بالمظاهر الشكلية (البديعية) للخطاب الحجاجي؛ من حيث إنّها موجّهات مقصودة تُؤكد القيمة الحجاجية للأشكال، بعيداً عن الاقتصار على قيمتها الجمالية؛ إذ لا يخفى دور تلك الأشكال في الاستمالة والاستذكار والتأليف بين المتفرقات^(٣).

وفي إطار اهتمام هذه المدرسة بالمتلقي، فإنّها تُلحُّ على دور المتلقي وحضوره في النصّ الحجاجي؛ ذلك من جهة إنشاء الخطاب وتحديد موضوعه، فالمحاجُّ الناجح هو الذي يحاور أفكار متلقيه ويحترم مسلماتهم، فيختار موضوعه وآلياته الحجاجية بما يتوافق مع قدرات المتلقين وكفاءاتهم واحتياجاتهم، وذلك بخلاف الخطابات ذات الصفة الأحادية التي لا تهتمّ إلا بقناعات المتكلم وحده^(٤).

وبعد، فقد كشفت رؤى هذه المدرسة عن تصوّر متقدّم يُدرجُ المكوّن الحجاجي ضمن كافة الخطابات ذات اللغة الطبيعية المرنة، كما كشفت عن جدوى الحجاج من جهة كونه بديلاً فاعلاً للعنف؛ فالحجاج غير الملزم وغير الاعتباري هو وحده الجدير بتحقيق الحرية الإنسانية؛ من حيث إنّها ممارسة واعية لاختيارٍ عاقلٍ^(٥).

(١) ينظر: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، محمد العمري، ط ٢، ص ٢٢٠، (أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٢م).

(٢) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، مرجع سابق، ص ١١١-١١٦.

(٣) ينظر: السابق، ص ١١٦، ١٢٧. وفي نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٣٣. وفواصل الآيات القرآنية: دراسة بلاغية دلالية، السيد خضر، ط ٢، ص ١٧ (مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٩م).

(٤) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، مرجع سابق، ص ١١٨-١١٩.

(٥) ينظر: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ١٦.

المدرسة الثانية: المدرسة اللغوية^(١):

قُطبا هذه المدرسة هما: (أزوالد ديكرود) و(كلود أنسكومبر)؛ اللذان تجلّى تعاونهما واتّحاد أفكارهما في كتابهما المشترك: (الحجاج في اللغة)، وقد انطلقا في تأسيس آرائهما الحجاجيّة من منظورٍ تداوليٍّ مميّزٍ؛ ذلك أنّهما رفضا التصور السائد القائم على الفصل بين: الدلالة (وموضوعها: معنى الجملة) والتداولية (وموضوعها: استعمال الجملة في المقام)، وسَعَيَا إلى البحث داخل بنية اللغة عن كلّ ما له صلةٌ بالاستعمال البلاغي المحتمل، وهما بذلك يركّزان اهتمامهما على الجانب اللغوي (اللساني) التداولي للجملة، بعد أن كان الاهتمام الحجاجي منصبًا على الجانب الخبري الوصفي للجملة، وبهذا التوجُّه فقد برزت أفكار هذه المدرسة في أديمٍ لسانيٍّ بحثٍ يحوي حجاجًا مختلفًا عن الحجاج المعروف عند مدارس الحجاج الأخرى^(٢).

وتعدُّ نظرية هذه المدرسة جزءًا من النظرية الدلالية؛ ذلك أنّ غايتها استنطاق الكوامن الحجاجية التي لا يمكن تمييزها دون مساعدة اللغة، انطلاقًا من أنّ المتكلم إنّما يتكلم بقصد إقناع المتلقين والتأثير فيهم، وفي حال أنّ لغة الكلام لا تنفك عن قصديّة التأثير، فإنّها لن تخلو أيضًا من معنى الإقناع، وعليه فإنّ الوظيفة الكبرى للغة هي الوظيفة الحجاجية لا الوظيفة الإخبارية؛ مما يعني اندراج الدراسات الحجاجية في البحوث التي تسعى إلى اكتشاف منطق اللغة^(٣).

وترى هذه المدرسة أنّ الحجاج هو الخيط المسؤول عن ترتيب الأقوال وترابطها؛ فإنّ تقصد الإقناع والتأثير يعني أنّ توجّه قولك وجهةً مقصودةً، وترتبط أجزاءه بروابط محدّدة تؤدّي أخيرًا إلى تحقيق الأثر المنشود، فموضوع الحجاج إذن، هو دراسة ما تستبطنه الأقوال من القوّة الحجاجية

(١) اخترت هذه التسمية التي أخذ بها جميل حمداوي في كتابه: (من الحجاج إلى البلاغة الجديدة) وتجاوزت التسميات الأخرى مثل: الرؤية اللسانية التداولية، استعملتها: الباحثة خديجة محفوظي. ينظر: رسالة: بنية الملفوظ الحجاجي، مرجع سابق، ص ٢٢.

(٢) ينظر: نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، مرجع سابق، ص ٣٥١. وبحث: الحجاج والاستدلال الحجاجي، مرجع سابق، ص ٦٣٠. ونظرية الحجاج في اللغة في الدراسات العربية المعاصرة: الاستيعاب والممارسة، عمر بو قمر، مجلة العاصمة، كلية الجامعة تروننتيرم، الهند، كيرالا، المجلد ٩، ص ١٦٦ (٢٠١٧م).

(٣) ينظر: من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، مرجع سابق، ص ٣٥. والروابط الحجاجية في الخطبة الفدكية للسيدة الزهراء، علي عباس الأعرجي، مجلة العلوم الإنسانية بجامعة بابل، المجلد ٢٤، العدد ٢، ص ٧٤٦-٧٤٧ (٢٠١٧م).

التي تشكّل مكوناً رئيساً لا يمكن فصله عن معنى القول (دلالته الإخبارية)؛ مما يقتضي أن تكون مهمة الباحث الحجاجي هي البحث في البنى اللغوية للأقوال؛ من أجل تبين طاقاتها التأثيرية الحجاجية^(١).

وتكمن أهمية عمل الباحثين القصوي في: نقل الاهتمام بالروابط والعوامل والأبنية اللغوية-عامّة-من الدراسات النحويّة والبلاغية إلى الدراسات الحجاجيّة والتداولية؛ إذ ركّز (ديكرو) وزميله، على دور أبنية اللغة بوصفها ظاهرة لغويّة، مهمّة جدّاً، تتدخل بطريقة مباشرة في توجيه الحجاج^(٢).

ومن هذا المنظور، فإنّ كلّ ما تحمله الجملة القولية من عناصر (تركيبية، وصوتية، وبلاغية، وصرفية) لابدّ أن تؤدّي-إلى جانب الإخبار-دوراً مهمّاً في توجيه القول وجهةً حجاجية ما، ومن شأن ذلك أن يحقّق التأثير في المتلقي فيأخذ به إلى هذا الاتجاه أو ذاك، وبذلك فإنّه لا يمكن كشف الطاقة الإقناعية للغة-بجميع عناصرها ومستوياتها-إلا من خلال ما أسماه (ديكرو) (التداولية المدججة)؛ التي تركز أساساً على المستويين اللغوي والبلاغي^(٣).

ومن خلال هذا العمق الحجاجي يُدرِك أنّ المتكلم لا يتكلم بقصد الإخبار أو تقديم المعلومات فقط؛ فحين أقول-مثلاً-لأحد المسافرين: (إنّ هذا النزل رائع) فإنّي لا أقصد إخباره بقدر ما أُلح عليه بالإقامة في هذا النزل؛ وذلك أنّ قصدي من هذا القول المؤكّد، في هذا المقام بالذات، هو إيصال المتلقي إلى نتيجة مفادها القطع بأنّ إقامته في النزل المعني ستكون ذات عائدٍ إيجابيّ عليه، ومتى نظر الناظر في القيمة الإخبارية لهذه الجملة فإنّه سيجدها قيمة ثانويةً بالنسبة إلى القيمة الأصلية التأثيرية (الإقناع بالاستمالة) المذكورة^(٤).

إنّ الحجاج بهذا المعنى: عدول واختيار أسلوبٍ يلجأ إليه المتكلم في مقامٍ معيّن؛ ليرجّح خياراً

(١) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، مرجع سابق، ص ١٩٢. وأسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، مرجع سابق، ص ١٥.

(٢) ينظر: آليات الحجاج اللغوية في رسائل الإمام علي: الروابط الحجاجية اختياريّاً، أحمد حياوي السعيد ورائد مجيد جبار، مجلة العميد، السنة ٣، المجلد ٣، العدد الخاص ٣، ص ٨٥، (كانون الأول ٢٠١٤م).

(٣) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، مرجع سابق، ص ١٩٣.

(٤) ينظر: بحث: الحجاج ومنطق الخطاب بصدد الخطاب والحجاج للدكتور أبو بكر العزاوي، عبد الله بريهي، ضمن كتاب: الحجاج اللغوي: قراءات في أعمال أبي بكر العزاوي، مرجع سابق، ص ٨٥. وبحث: نظرية الحجاج في اللغة في الدراسات العربية المعاصرة: الاستيعاب والممارسة، مرجع سابق، ص ١٦٨.

من الخيارات، وتفوق المتكلم في الحجاج مرتهم بمدى نجاحه في اختيار الأسلوب الأكثر أداءً من جهة التأثير والإقناع^(١).

وبما مضى، فإنه يمكن القول بأن أفكار هذه المدرسة هي خير ما يمثّل التعاون الممكن بين المجالين: الحجاجي والتداولي؛ وذلك بدراسة النصّ في ضوء المقام. وإذا ما كانت آراء هذه المدرسة تنطلق في أفكارها الحجاجية من منطلق لغوي، فإنّ الباحث سيقف على جهود مدرسة أخرى تخالف المدرسة اللغوية في نظريتها الحجاجية، وتتفق معها من جهة تأسيس نظريتها على المعطيات اللغوية.

(١) ينظر: رسالة: بنية الملفوظ الحجاجي للخطبة في العصر الأموي، مرجع سابق، ص ١٠.

المدرسة الثالثة: مدرسة المساءلة:

رائد هذه المدرسة هو مؤلف كتاب: (من علم الأشكلة)؛ الفيلسوف والعالم البلجيكي (ميشال مايير)، وتتأسس أفكار مدرسته تلك على أنّ الحجاج كامنٌ في كلِّ ما يقدمه كلام المُلقِي من أجوبة صريحة (حجج) تجيب عن أسئلة مقدّرةٍ يستنتجها المتلقي من متضمن القول؛ وذلك أنّ جميع الخطابات تنبني على أساس واحد هو إثارة السؤال؛ فالكلامُ مُشكّلٌ مطروحٌ يتصلُّ حلُّه بشئانية: سؤال (الضمني)/ جواب (الصريح)^(١).

وإن كان (مايير) قد استثمر بعض أفكار من سبقوه إلا أنّه فاقهم وانفرد عنهم بمفهومه للحجاج (المساءلة)، فلن كان لابدّ للملفوظ أن يجيب عن عدّة أسئلة ضمنية، فإنّ من المُحال - بلاغيّاً - الجزم باقتصار الملفوظ على معناه الظاهر فقط، والحجاج الناجع هو الذي يستغلُّ ما في اللغة من طاقة وثراء قصدَ تقليص مسافة المساءلة الفاصلة بين طرفي التخاطب؛ بتقديم إجابة شافية ومقنعة تلغي اختلاف طرفي التخاطب، وتؤكد اتفاقهما؛ مما يقتضي قدرًا عاليًا من الخبرة الحجاجية التي تغذيها معرفة الشخص وظروف المقام^(٢).

إنّ الغاية الحجاجية من تقديم الإجابات (الحجج) هي تحفيز المتلقي - بصفته مكونًا أساسًا في عملية إنتاج الخطاب - على الاندماج في النص، والدخول في عملية حوارية تتجاوز ظاهر القول إلى ضمنيّه؛ من خلال مساءلة كلِّ إجابة من إجابات النص المطروحة، ومن شأن الخراط المتلقي في تلك العملية الثنائية، التجريبية والاختيارية، أن ينتهي به إلى عدد من النتائج المُلزِمة له

(١) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٣٨. وبلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، ط ١، ص ١٠٦-١٠٧ (دار الأمان، الرباط، ١٤٣٤هـ). والبلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، محمد علي القارصي، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، مرجع سابق، ص ٣٩٤. ونظرية المساءلة والبلاغة لميشال ماير مقارنة في الأصول والأسس والتمثيلات، نعمة الطائي، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد ٤٣، ص ٢١٨٤-٢١٨٥ (٢٠١٩م).

(٢) ينظر: عندما نتواصل نغيّر: مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، ص ٢٠٥، (أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م). ومن الحجاج إلى البلاغة الجديدة، مرجع سابق، ص ٤٧. وبلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ١٠٨. وبمبحث: البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، مرجع سابق، ص ٤٠٠. والثنائية الحجاجية الأصولية (السؤال والجواب) في ضوء نظرية المساءلة لميشال ماير، مجلة بدايات، المجلد ٢، العدد ٢، ص ٤٦-٤٧ (نوفمبر ٢٠٢٠م).

بالتصديق والاقتناع^(١).

بعد هذا التقديم اليسير والعامّ، فإنّه يتبيّن أنّه يمكن اختزال جهود هذه المدارس في أنّ الحجاج عملية فكرية يقصّد بها المتكلم التأثير في المتلقي بُغية إقناعه بأمر ما أو ثنيه عنه، والحجاج بهذا المعنى إنجاز بلاغيّ؛ من جهة أنّ مدار البلاغة كلها منبني على استدراج الخصم والانتهاء به إلى الإذعان والتسليم، أو من حيث إنّ دور البلاغة هو السعي إلى تقريب وجهات النظر، أو من حيث ارتباط البلاغة بالمحتمل^(٢).

ويمكن القول: إنّهُ على الرّغم من وجود الحجاج في جميع الخطابات الطبيعية إلا أنّ مظاهر حضوره تبقى مختلفة، فقد يكون الحجاج مادّيّاً ملموساً من خلال الوسائل اللغوية والأساليب البلاغية والكفايات المسرحية، وقد يكون عقليّاً قائماً على الحجج المنطقية والبراهين العقلية. وعلى إثر تعريف الحجاج وإلقاء الضوء على أهمّ مدارسهِ، فإنّه يلزم الباحث التعريف بـ(أساليب الحجاج)؛ لأنّ أساليب المدونة هي المعنية بالدرس والتتبع.

(١) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٣٨-٣٩. وبحث: نظرية المساءلة والبلاغة لميشيل ماير مقارنة في الأصول والأسس والتمثيلات، مرجع سابق، ص ٢١٨٧-٢١٨٨.

(٢) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، ط ٢، ج ٢، ص ٢٠٥ (دار نضمة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د. ت). وبلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، ص ١٠٧. وحجاجية التكرار في إلياذة الجزائر لـ(مفدي زكريا)، خيرة خرفي، رسالة ماجستير، ص ٣، جامعة وهران، الجزائر، وهران (٢٠١٤-٢٠١٥م). وبحث: البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، مرجع سابق، ص ٤٠٠.

ثالثاً: أساليب الحجاج:

لمعرفة المقصود بالأساليب، فإنه يجب الاعتراف بوجود أصلٍ مجرّدٍ لكلِّ كلامٍ مقول، وهو أصلٌ يتفاوت المتكلمون في الالتزام به-زيادةً ونقصاً-بحسب غرضهم وغايتهم من القول، وكلُّ مخالفة لهذا الأصل لا بدّ أن يكتنفها عملية (عدولٍ) و(اختيارٍ)؛ فالعدولُ هو الخروج المنضبط المبرّر عن الأصل اللغوي المعياري (اللغة المثالية/ النواة الأساسية للقول/ درجة الصفر)، وأمّا الاختيار فإنه يُمثّل الإجراء التفضيلي الذي انتهى إليه المتكلم من بين عدّة وسائل ممكنة خارجة عن حدود الأصل؛ فقول: (محمدٌ حاضرٌ) أصلٌ مجرّدٌ يمكن العدول عنه بمستوياتٍ متفاوتةٍ وبطرقٍ متغايرة: (إنَّ محمدًا حاضرٌ..إنّما محمدٌ حاضرٌ..إنَّ محمدًا هو الحاضر..ليس محمدٌ غائبًا..وهكذا)^(١).

وبناء على تعريف الباحث للحجاج بأنّه: (اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما من شأنه أن يزيد من مستوى إثباتٍ أو نفيٍ قضيةٍ أو فكرةٍ أو توجّهٍ ما)، فإنّ دراسة الأساليب يجب أن تكون معنيّةً بدراسة توظيف الظواهر التواصلية توظيفًا نفعيًّا؛ لتشمل دراسة (أساليب الحجاج) جميع الملابس الكفيلة بإحداث الإقناع والتأثير؛ مما يعني أنّه ينبغي للأسلوب أن يقوم بوظيفة لا تتصل بالجمال، بل بالفاعلية والتأثير^(٢).

إنّ الأسلوب «ضغطٌ مسلّطٌ على المتلقي؛ بحيث لا يُلقَى الخطاب إلا وقد تهيأ فيه من العناصر الضاغطة ما يُزيل عن المتلقي حريّة ردود الفعل، فالأسلوب بهذا التقدير هو حَكَمُ القيادة في مركب الإ بلاغ، لأنه تجسيدٌ لعزيمة المتكلم في أن يكسوَ المتلقي ثوبَ رسالته في محتواها من خلال صياغتها»^(٣).

وزيادة في الإيضاح والتحقيق فإنّ الباحث قد اختار الأصل اللغوي: (أحبُّ محمدًا)؛ ليبيّن

(١) ينظر: الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، ط ٣، ص ٧٤-٧٧ (الدار العربية للكتاب، طرابلس، د. ت). وشعر

أحمد الصالح: دراسة أسلوبية، عبد الله بن مطر المطيري، ط ١، ص ١٨-٢١، (نادي القصيم الأدبي، بريدة، ١٤٣٩ هـ).

والعدول من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية: دراسة تداولية في عناوين جريدة الغد الأردنية، يوسف رابعة، ونبالة

نزال، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، الجامعة الإسلامية بغزة، المجلد ٢٩، العدد ١، ص ٣٢٦ (٢٠٢١ م)

(٢) ينظر: علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، ط ١، ص ١٠٠ (دار الشروق، القاهرة، ١٤١٩ هـ).

(٣) الأسلوبية والأسلوب، مرجع سابق، ص ٨١.

من خلاله بعض العدولات الممكنة الواردة التي يمكن الخروج بها عن هذا الأصل؛ إذ يمكن أن يُضيف المتكلم إليه ملامح تأثيرية إقناعية لا حصر لها^(١)، فعلى سبيل المثال، فإنه يمكن تجاوز هذا الأصل بإضافة عدد من العناصر اللغوية: (إني أحب محمدًا، أنا لا أحبُّ إلا محمدًا، محمدٌ ليس صديقًا فقط بل هو حبيب قريب، وهكذا)، ويمكنُ تجاوزه أيضًا بعدد من الجمل البلاغية: (أحبُّ محمدًا كما تحب الأرض المطر، جاء من يملأ العين، أقبل من يرفُّ له القلب، محمدٌ في سويداء القلب، محمدٌ فقير الكزة، وهكذا)، كما يمكن تجاوزه بعدد من الإجراءات والوسائل العقلية: (أحبُّ محمدًا؛ لأنَّه دمث الأخلاق، أحبُّ الطريق الذي يمشي عليه محمدٌ، أحبُّ كلَّ أفراد عائلة صديقي محمدٍ، أحبُّ محمدًا لأنه تقيٌّ والله يحبُّ المتقين، أحبُّ محمدًا لأمرٍ ثلاثة: صدقه وأمانته وحيأؤه، أحبُّ محمدًا لأنَّه أخي الذي أعرف منه غيبي من سميني، حبِّي لمحمد يفوق حب الأخ لأخيه، وهكذا)، وإضافة لذلك فإنه يمكن الدلالة على حبِّ محمد بإشارة إلى القلب، أو إلى القمر، وما إلى ذلك من الكفايات غير اللغوية.

وبتلك التقلبيات، فإنه يمكن الاتفاق مع (مارسيل بروست)، إذ يذهب إلى «أنَّ الأسلوب ليس بأية حال زينة ولا زخرفًا كما يعتقد بعض الناس، كما أنه ليس مسألة (تكنيك)؛ إنه مثل اللون في الرسم، إنه خاصية الرؤية التي تكشف عن العالم الخاص الذي يراه كلُّ منا دون سواه»^(٢). ومن يتفق مع (مارسيل بروست) في هذا الرأي فإنه لا يُخالف (موريه) في أنَّ الأسلوب «موقف من الوجود، وشكل من أشكال الكينونة، وليس في الحقيقة شيئًا نلبسه ونخلعه كالرداء، ولكنه الفكر الخالص نفسه، والتحويل المعجز لشيء روعي إلى الشكل الوحيد الذي يمكننا به تلقيه وامتصاصه»^(٣).

وحاصله، أنه يدخل في دراسة أساليب الحجاج كلُّ الوسائل ذات القيمة الإقناعية التأثيرية؛ ذلك أنَّ الحجاج اختيارًا مقاميًّا واعٍ لطريقٍ تعبيرٍ من بين عدَّة طرق أو وسائل ممكنة خارجة عن

(١) ينظر: علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، مرجع سابق، ص ٩٨.

(٢) السابق، ص ٩٦.

(٣) السابق، ص ٩٧.

الأصل اللغوي^(١).

وبعد أن عرّف الباحث ب(أساليب الحجاج)، فإنّ دراسته للمدونة المدروسة سوف تكون في مستويات ثلاثة مقسّمة على فصول ثلاثة، هي:

١- المستوى اللغوي.

٢- المستوى البلاغي.

٣- المستوى العقلي.

وذلك بعد أن يستوفيّ التعريف بالمدونة.

(١) ينظر: الأسلوبية ونظرية النص، إبراهيم خليل، ط١، ص ٧٥ (دار الفارس للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٩٧م). وعلم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، مرجع سابق، ص ٩٧-٩٨. والأسلوبية والأسلوب، مرجع سابق، ص ٦٨.

رابعاً: وصف المدونة المختارة:

حتى يطمئن الباحث إلى الدخول في وصف المدونة فإنه سيُلقي بشيءٍ من الضوء على جنس الخطبة ثم يثني بوصف المدونة.

أ- في الخطبة:

«الخطبةُ: مصدر الحَطِيبِ؛ حَطَبَ الخاطِبُ على المنبرِ يَحْطِبُ حَطَابَةً بالفتح، وحُطْبَةٌ بالضم... ورجلٌ خطيبٌ؛ حسن الحُطْبَةِ بالضم، جمعه حُطْبَاءٌ، وقد حَطَبَ بالضم حَطَابَةً بالفتح: صار خطيباً»^(١).

وقد عُرِّفت الخطبة بعددٍ من التعريفات، ولعلَّ من أوفى تلك التعريفات تعريف أحدهم لها بأنّها: «فنُّ مخاطبة الجماهير بطريقة إقائية تشتمل على الإقناع والاستمالة»^(٢)، والخطبة بهذا المعنى إنجازٌ حجاجيٌّ مُعلنٌ.

وتعدُّ الخطبة إحدى اللوازم التي تقتضيها حياة الإنسان وسط الجماعة، حيث كانت ولا تزال طريقاً للتَّوجيه ورأب الصدع وحلِّ المشكلات وإثبات الحقِّ وردِّ الباطل، وطريقاً إلى إثارة النفوس وتحريضها، ولأمرٍ ما قال موسى ﷺ عندما بعثه ربه إلى فرعون: ﴿رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ۖ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾^(٣).

ولا يمكن لصاحب الدعاية والمناادي بالإصلاح والداعي إلى الفكرة أن يستميل الناس ويؤثر فيهم دون الاستعانة بالخطبة؛ لذا فقد شكَّلت الخطبة ركناً مهماً في تأسيس الأحزاب والدُّول والجماعات، وفي هزم السياسات والدعوات المضادة، إلى جانب ما تحقَّقه من إنجازات ومهامٍ على الصعيدين: المجتمعي والتنظيمي، ولهذا الأهمية فقد عُدَّت الحُطَابَةُ لازماً من لوازم الإنسانية،

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، تحقيق: علي هلاي وآخرين، ط ٢، ج ٢، ص ٣٧٢ (مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٤٠٧هـ).

(٢) الخطابة وإعداد الخطيب، عبد الجليل عبده شلي، ط ١، ص ١٣ (دار الشروق، القاهرة، ١٩٨١م).

(٣) سورة طه، الآيات: ٢٥-٢٨.

كما عُدَّت صفةً أساسيةً من صفات القائد الناجح^(١).

ولم تكن الخطبة موقوفة على حضارةٍ بعينها أو زمنٍ بعينه؛ إذ وُجِدَتْ عندَ كافةِ الأممِ وعند العربِ على وجهِ الخصوص؛ فقد عرفها العرب في جاهليتهم ثمَّ زادت صلتهم بها بعد إسلامهم؛ فهي ركنٌ لازمٌ في عددٍ من الشعائر الإسلامية، كما جعلها الرسول ﷺ وسيلةً لدعوته وعُدَّةً له في كثيرٍ من الأمور التنظيمية والتشريعية، وتبعه في هذا النهج الخطابي الخلفاء من بعده؛ فكانت الخطبة سبيلهم في التواصل مع المحكومين، وفي استقبال الوفود، وفي حثِّ الجيوش، وفي غير ذلك من الشؤون الجماعية المهمة، وبعد أن اختلفت الأمة وتصدَّعت الخلافة أصبحت الخطبة ميداناً مشهوداً تداغ فيه الأطروحات؛ إثباتاً للحقِّ والأحقية وردّاً للظلم والظالمين، وقد بلغت الخطابة العربية أوجها زمن الخلافتين: (الأموية والعباسية)؛ لما شهدته الخلفان من ولادةٍ للعديد من الأحزاب والفرق التي كثيراً ما عملت على قرح زناد الخطبة وإشعال جذوتها^(٢).

ولأهمية الخطبة فقد كان للخطباء البارعين المُفلقين ثقلهم في مجتمعاتهم، فقد ظلوا محاطين دائماً بالإعجاب والتقدير في كلِّ الحضارات؛ مما جعلهم يتمتَّعون بوجاهة لائقة وامتيازٍ خاصٍ؛ بحُكم تمكُّنهم من الخطابة^(٣)، وعند العرب خاصةً، فإنَّ منزلة الخطيب فاقت منزلة الشاعر، فقد كان الشاعر كما يقول الجاحظ: «أرفع قدرًا من الخطيب وهم إليه أحوج؛ لردِّه ما أثرهم عليهم، وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدرًا من الشاعر»^(٤).

والمتتبع لتاريخ الخطبة العربية يدرك أثر القرآن والحديث النبوي في تطورها وجزالتها؛ فقد أضحيت الخطبة العربية بفعل هذين النصين المقدسين أكثر ثراءً وأمتن بناءً؛ لما وجدته الخطباء فيهما من أدلَّةٍ وبراهينٍ وحججٍ جاهزةٍ تُغذِّي خطبهم، وتُضفي عليها المزيد من الأبهة والجمال

(١) ينظر: الخطابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة، ط ١، ص ١٥ (مطبعة العلوم، القاهرة، ١٩٣٤م). والحجاج الخطابي أسسه وتقنياته من خلال (ثمرات الأوراق) لابن حجة الحموي، محمد الناصر كحولي، ط ١، ص ٧٣ (زينب للنشر والتوزيع، تونس، ٢٠١٧م).

(٢) ينظر: الخطابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مرجع سابق، ص ٧.

(٣) ينظر: الحجاج في الخطاب: مقاربات تطبيقية، عبد اللطيف عادل، ط ١، ص ٢٥ (مؤسسة آفاق، مراكش، ١٤٣٨هـ).

(٤) البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٧، ج ٤، ص ٨٣ (مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨هـ).

والجلال، إن على سبيل الاقتباس وإن على سبيل الاستفادة من المضمون والأسلوب^(١).

وفي مجال الدراسة والتدريس، فإنه قد شاع تعلُّم الخطبة وتعليمها منذ أن دعت الحاجة إليها؛ يظهر ذلك جلياً في جهود السوفسطائيين، ثم جهود أرسطو التّقييدية من خلال كتابه (الخطابة)، ثمَّ جهود علماء العرب وأدبائهم، وكان لتعريب كتاب أرسطو في الخطابة دورٌ بارزٌ في تبين ملامح جنس الخطبة ورسم حدوده، ولم يكن علماء العصر الحديث بعيدين عن الخطبة وعن الاهتمام بها؛ إذ استفادوا من جهود سابقهم في هذا المجال، وعملوا على تعزيزها بما وفّرت لهم النهضة الحديثة من علوم ونظريات^(٢).

وإنَّ أُنحِت الحُطْب من جهة جنسها إلا أنَّها تظَلَّ متعدّدة من حيث مشاربها (سياسية، دينية، تحفيزية، قضائية، وغيرها)، وقد ذهب بعضهم إلى إلحاق بعض الوصايا بالخطب لما تتضمنه من توجيه وإرشاد واستمالة وإقناع، كما لم يميّز بعضهم بين (المناظرة) و(الخطبة)؛ لاشتراكهما في مستويات عدّة، وفي مستوى الإقناع على وجه الخصوص^(٣).

وإذا ما قُصِدَ فكَّ التباس الخطبة بهذه الأجناس وغيرها، فإنَّ الخطبة تمتاز عن غيرها بتعدد متلقّيها، كما تمتاز بخلوّها من الحوار، أو وعدم قبولها التكافؤ والاشتراك والمراجعة في الكلام؛ فسمّة المتكلّم في الخطبة هي التّفرد بسلطة الكلام وبحقّ توجيهه إلى المتلقين، كما أنّ سمّة متلقّيها هي الإنصات دون الردّ أو المشاركة^(٤)، وعلى الرّغم من أنّ الخطبة معدودة في النثر إلا أنَّها - بخلاف بعض الأجناس النثرية - لا تميل إلى التخيل إلا عندما يكون طريقاً إلى الاستمالة والإقناع^(٥).

(١) ينظر: الخطابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مرجع سابق، ص ٣٩-٤٠.

(٢) ينظر: السابق، ص ٦، ٧، ١١.

(٣) ينظر: الخطابة وإعداد الخطيب، مرجع سابق، ص ٣٥٧، ٣٧٠. وفن المناظرة في الأدب العربي: دراسة أسلوبية تداولية، باشا العيادي، ط ١، ص ٧٣ (كنوز المعرفة، عمّان، ١٤٣٥هـ).

(٤) ينظر: فن المناظرة في الأدب العربي: دراسة أسلوبية تداولية، مرجع سابق، ص ٧٤.

(٥) ينظر: الخطابة وإعداد الخطيب، مرجع سابق، ص ١٥.

ب- في المدونة:

بحسب عنوان الدراسة فإنها تنحصر في الخطب الواردة في كتاب: (جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة)؛ الذي جمعه وألّف بين خطبه: أحمد زكي صفوت^(١)، ويشكّل هذا الكتاب مرجعاً مهماً وفريداً في دراسة الخطب العربية في الأدب العربي القديم؛ ذلك لما بذل فيه المؤلف من جهدٍ مشهودٍ في سبيل جمع أشهر ما حفظته كتب السلف من خطب العرب الأوائل ثمّ التأليف بينها، حيث يقول المؤلف في هذا الشأن: «وقد نظرت فوجدتُ تلك الخطب مبعثرة منثورة في كتب الأدب والتاريخ، لا يؤلّف بينها نظام ولا يضمّ اشتاتها كتاب، فإذا ما شئت أن تتعرف صورة الخطابة في عصر من العصور أو تترجم لخطيب من خطباء العربية ألفت الطريق أمامك وعرةً شائكة، وأنفقت وقتاً مديداً في التّقيب عن خطبة في بطون الأسفار، بله ما يعترضك من مشاقّ في تحرير ألفاظها وتحقيق عباراتها؛ لما نالها من عبث التّسّاخ والطّبّاع من التصحيف والتحرّيف الذي يَنبَهُمُ معه معناها ويستغلق به تفهّمها»^(٢).

وقد قسّم المؤلف كتابه إلى مراحلٍ عصريّة تشمل عصور العربية الذهبية أو الزّاهرة- كما اختار أن يسميها- التي كانت اللغة العربية فيها على غاية من التّوقد والأصالة والمحافظة، فجزأ الكتاب إلى أربعة أبواب وجعلها في ثلاثة أجزاء:

الجزء الأول: ويضم البابين الأول والثاني؛ الباب الأول: في خطب الجاهلية، والباب الثاني: في خطب صدر الإسلام.

الجزء الثاني: ويحوي الباب الثالث: في خطب العصر الأموي.

(١) أحمد زكي صفوت (١٣١١-١٣٩٥هـ): ولد في دمياط وتوفي في القاهرة، تخرّج في مدرسة دار العلوم عام ١٩١٤م، عمل في التدريس في عدد من المدارس، منها مدرسة دار العلوم التي تحولت إلى كلية وانضمت إلى جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة)، حيث رقي إلى درجة أستاذ مساعد عام ١٩٧٤م، وإلى درجة أستاذ عام ١٩٥٠م، واختير وكيلاً لكلية دار العلوم عام ١٩٥٢م، وظلّ في عمله حتى إحالته على التقاعد، له قصائد شعرية نُشرت في كتابه (صفوة المنشآت)، من مؤلفاته وأعماله: صفوة المنشآت، جمهرة خطب العرب، جمهرة رسائل العرب، شرح وتحقيق الجزء الثاني عشر من كتاب: الأغاني للأصفهاني (نشر دار الكتب المصرية)، وغيرها. ينظر: معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط١، ج٢، ص ٦٢٢ (مؤسسة جائزة سعود عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ٢٠٠٨م).

(٢) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، ط١، ج١، ص ٣ (المكتبة العلمية، بيروت، د. ت).

الجزء الثالث: ويتضمن الباب الرابع: في خطب العصر العباسي الأول، وذيل الجمهرة في: خطب متفرقة من خطب الأندلسيين والمغاربة في عصور مختلفة، وفي خطب ووصايا مجهولة العصر والمصدر، وفي خطب ومواعظ الأعراب، وفي خطب النكاح، وفي خطب من ارتجح عليهم.

وعُني المؤلف-إلى جانب الجمع والتأليف-بضبط الألفاظ وتفسير غريبها معقِّبًا على كل خطبة بذكر مصادرها، وبفضل هذا الجهد المبارك فقد أصبح الكتاب مرجعًا في الخطب وموردًا عذبًا من موارد النثر العربي وموسوعة علمية أدبية راقية.

وقد اشتمل الكتاب على ألف وستين خطبة ووصية:

-العصر الجاهلي: وفيه ست وسبعون خطبة، وأربع عشرة وصية.

-عصر صدر الإسلام: وفيه ثلاثمائة وخمس عشرة خطبة، وثلاث وثلاثون وصية.

-العصر الأموي: وفيه أربعمائة وخمس وستون خطبة، وسبع عشرة وصية.

-العصر العباسي الأول: وفيه مائة وثمانٍ وعشرون خطبة، واثنان عشرة وصية^(١).

وليكون العمل وافيًا، فقد استعان المؤلف في جمعه لتلك الخطب والوصايا بالعديد من المصادر الأدبية المعتبرة مثل (البيان والتبيين) للجاحظ، و(الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني، و(العقد الفريد) لابن عبد ربه، كما استعان المؤلف بالعديد من المصادر التاريخية، من قبيل: سيرة ابن هشام المعافري، و(تاريخ الأمم والملوك) لأبي جعفر الطبري، و(الكامل في التاريخ) لابن الأثير^(٢).

ومن الواضح أنّ قصد المؤلف من هذا الكتاب هو الجمع فقط؛ «فلا نرى فيه مقابلة بين روايات الخطب مثلاً، أو حديثًا عن توثيقها والحكم عليها بالصحة والنحل، ولعلّ هذا كلّ لم يكن همّ المؤلف لنُلوّمه عليه»^(٣).

(١) ينظر: التوكيد النحوي في خطب العرب ووصاياهم في كتاب جمهرة خطب العرب، لأحمد زكي صفوت: دراسة نحوية دلالية، أيمن سلامة صعلوك، رسالة ماجستير، ص٢، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمّان (٢٠١٤م).

(٢) ينظر: الخطب الجاهلية في كتاب: (جمهرة خطب العرب) لأحمد زكي صفوت: بحث في المادة ومنهج الجمع والتحقيق، محمد عبد الساتر زكريا، وسمير الديوب، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، السنة ٤، العدد ٣٢، ص١٦ (يوليو ٢٠١٧م).

(٣) السابق، ص١٧.

ولئن كانت الخطب والوصايا هي الغالبة على هذا الكتاب، إلا أنه شمل العديد من سجع الكهّان والمقاولات والمنافرات والمناظرات والوصايا وغيرها من المنشورات، وربما كان السبب الداعي إلى جمع هذه الأجناس والمنشورات مع الخطب هو اشتراكها مع جنس الخطبة في بعض الخصائص. ولاختلاف الخطبة عن غيرها من الأجناس والنصوص فإنّ الباحث سيحاول الاقتصار على الخطب؛ أملاً في أن تحظى الأجناس والنصوص الخارجة عن جنس الخطبة بدراسات حجاجية مختصة.

الفصل الأول

الأساليب اللغوية

ويشتمل على ما يلي:

المبحث الأول: الروابط الحجاجية.

المبحث الثاني: العوامل الحجاجية.

المبحث الثالث: التوكيد.

المبحث الرابع: التكرار.

بعد الوقوف على أهمّ المدارس الحجاجية، فإنّه يحسن-بدايةً-القول بأنّ هذا الفصل يتكئ على مُعطيات تلك المدارس، وبالأخص مدرسة (الحجاج اللغوي)؛ إذ تتأسس رؤى هذه المدرسة-كما تقدم-على دراسة عناصر اللغة من منظورٍ حجاجيٍّ، انطلاقاً من أنّ المتكلم عندما يقول فإنّه يقصد التأثير، وذلك عبر توجيه خطابه الوجهة التي تمكّنه من تحقيق الغاية الإقناعية التأثيرية^(١).

إنّ اللغة الطبيعية تحمل في طيّاتها-وبشكلٍ دائمٍ-وظيفةً حجاجيةً تتجلّى في بُنيّتها: الصوتية والصرفية والتركيبية؛ فيمكنُ لكلّ قول أن يشتمل على عوامل أو روابط أو أدوات أو بني أو جمل أو أصوات تعمل-فضلاً عن محتواها الإخباري-على توجيه المقول نحو وجهةٍ حجاجية ما، ومن ثمّ سَوِّق الملتقي نحو هذا الاتجاه أو ذاك^(٢).

وبما أنّ الأقوال تُبني على تراكيبٍ عامةٍ؛ لا يختصّ بها مجالٌ بعينه، ولأنّ هذه التراكيب تتكوّن من عناصر طيّعةٍ؛ تنساق وفق اختيار القائل، فإنّ دور المحاجّ الجيد هو استغلال هذه العناصر وترتيبها ونظّمها بما يتناسب مع مقام الحجاج؛ فبقدر نجاح المحاجّ في اختيار العناصر اللغوية وتنسيقها يكون نجاحه في الحجاج، وبذلك فإنّه لا يمكن للقول الحجاجي أن يخلو من وجهة حجاجية مسجلةٍ فيه؛ تظهر من خلال عناصره أو مكوناته اللغوية التي تعمل على تحديد المعنى وتضييق احتمالاته الحجاجية أو توسيعها^(٣).

وانطلاقاً من هذا المبدأ اللغوي، فإنّ هذا الفصل سيركّز اهتمامه على دراسة منطوق اللغة من خلال تناول أهمّ العناصر اللغوية ودورها في تحقيق المعنى الحجاجي؛ وذلك على اعتبار أنّ اللغة

(١) ينظر: اللغة والحجاج، مرجع سابق، ص ٨، ١٤. والروابط والعوامل الحجاجية في رسائل الجاحظ، عبد السلام بوفار، رسالة ماجستير، ص ٣٦، جامعة مولود معمري، الجزائر، تيزي وزو (٢٠١٦م).

(٢) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٩٨. والعوامل الحجاجية في شعر البردوني: النفي أنموذجاً، ألفت الشامي، مجلة كلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد، الجزء ١، العدد ٤٣، ص ٤٢٢، (٣٠ أيلول، ٢٠١٥م). والعوامل الحجاجية في آيات الأحكام، عايد جدوع حنون، وثائر عمران شدهان، مجلة اوروك، المجلد ٩، العدد ٤، ص ١٠ (٢٠١٦م).

(٣) ينظر: استراتيجيات الخطاب: مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص ٤٧٦. والأبعاد التداولية في الخطاب القرآني: (سورة البقرة) أنموذجاً، عيسى تومي، رسالة ماجستير، ص ١٢٨، جامعة محمد خيضر، الجزائر، بسكرة (٢٠١٤م).

محلّ للحجاج وليست مجرد أداة له^(١).

وفي اللغة العربية يواجه الدارس العديد من العناصر المعهودة، ولعلّ من أهمّها وأولها بالبداية: أدوات الربط أو (الروابط الحجاجية) كما يُطلق عليها في الدراسات الحجاجية الحديثة؛ إذ هي أدوات حجاجيّة فعّالة، لا تنحصر وظيفتها على الربط والتأليف كما سيّضح.

(١) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٩٧. ورسالة: الروابط والعوامل الحجاجية في رسائل الجاحظ، مرجع

المبحث الأول: الروابط الحجاجية:

بفضل ما بين الوظيفة الحجاجية وبنية اللغة من اقتران، فإنَّ المتكلم حين يوجِّه كلامه وجهة حجاجيةً ما فإنَّه إنما يفعل ذلك من خلال تضمين كلامه عددًا من العلامات والإشارات اللغوية، وتعدُّ الروابط ضمن أهم تلك العلامات والإشارات التي تتجلى من خلالها الغاية الحجاجية من الخطاب، بل إنَّه يمكن القول: إنَّ سائر المظاهر الحجاجية تأتي مصاحبة للروابط مُتفاعلة معها؛ مما يجعلها تُمثِّل واحدة من الآليات المُهمَّة التي تأسست عليها (نظرية الحجاج اللغوي)^(١).

إنَّ للروابط دورها الرئيس في الحجاج، وذلك من جهة ربطها بين المتواليات الحجاجية وتأليفها، ومن جهة دورها العامِّ في ترتيب أجزاء القول وتنسيق مفرداته، بما يتوافق مع سياق الحجاج والمنطق أولاً، وبما يتوافق مع ما تقتضيه قواعد اللغة ثانيًا؛ فقد يضعف القول حجاجيًا رغم تماسكه وترابطه لغويًا^(٢).

وإذا كانت الروابط متعددة ومتنوعة في خصائصها ومستوياتها، فإنَّ الباحث سيعتمد تقسيمها الوظيفي الدارج إلى أربعة أصناف، هي:

-روابط التعارض الحجاجي.

-روابط التساوق الحجاجي.

-روابط التعليل الحجاجي.

-روابط العطف الحجاجي^(٣).

(١) ينظر: الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنيوية، رشيد الراضي، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٣٥.

(٢) ينظر: اللغة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٦. والحجاج والمعنى الحجاجي، أبو بكر العزاوي، ضمن كتاب: التحايج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق: حمو النقاري، ط ١، ص ٦٣ (مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٤٢٧هـ). والروابط الحجاجية والطاقت الاستدلالية قراءة في كتاب اللغة والحجاج للدكتور أبو بكر العزاوي، أحمد كروم، ضمن كتاب: الحجاج اللغوي في أعمال العزاوي، مرجع سابق، ص ٤٥. وأسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، مرجع سابق، ص ٧١. وبمبحث: آليات الحجاج اللغوية في رسائل الإمام علي، مرجع سابق، ص ٨٣، ٨٥، ٨٨.

(٣) ينظر: بمبحث: آليات الحجاج اللغوية في رسائل الإمام علي، مرجع سابق، ص ٨٩.

١-روابط التعارض الحجاجي:

وهي الروابط التي تُعنى بالربط بين متناقضين أو متنافرين، بحيث تعمل على ملء الفجوة بين تلك المتناقضات والمتناقرات؛ جاعلةً منها كلاً متسقاً متآزرًا ومتآلفاً في خدمة النتيجة المقصودة، ومن أهم هذه الروابط:

١-أ-(لكن):

وهو-بنوعيه المخفف والمثقل-مختصٌ بنفي كلامٍ وإثبات غيره؛ من جهة أنه: «حرف استدراك؛ ومعنى الاستدراك أن تنسب حُكمًا لاسمها يخالف المحكوم عليه قبلها؛ كأنك لَمَّا أَخْبَرْتَ عن الأوَّلِ بخبرٍ خفتَ أن يُتوهمَ من الثاني مثل ذلك، فتداركت بخبره، إن سلبًا وإن إيجابًا...، ولا تقع (لكن) إلا بين متنافيين بوجهٍ ما»^(١)؛ فيكون مقتضى ما بعدها مخالفًا لمقتضى ما قبلها^(٢).

وفي الحجاج فإنَّ التلفظ بقول: (أ لكن ب) يستدعي أمرين: أولهما: أنَّ القائل يورد (أ) و(ب) على أنَّهما ملفوظان يؤدِّيان إلى نتيجتين ضمنتين متخالفتين؛ فيؤدِّي الملفوظ (أ) إلى نتيجة معيَّنة (ن)، أمَّا الملفوظ (ب) فإنَّه يؤدِّي إلى نتيجة مضادةٍ لنتيجة الملفوظ قبله (لا-ن) وثانيهما: أنَّ المتكلم يورد الملفوظ (ب) على أنَّه المعطى الأقوى والموجِّه للقول بكليته نحو النتيجة المقصودة (المضادة)، وبهذين الأمرين فإنَّ الدور الإقناعي ل(لكن) يكمن في الربط بين قضيتين متناقضتين ضمنيًّا، كما أنَّه يكمن في منح ما بعده قوةً لازمةً تلغي ما قبله^(٣).

وإذا قيل: إنَّ الشَّكل القاعديَّ للحجاج هو ربط علاقةٍ بين معطى ونتيجة، فإنَّ حجاجيَّة (لكن) تظهر في عملها على نكس النتيجة المنتظرة؛ الأمر الذي يؤدِّي-ضرورةً-

(١) الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، ط١، ص٦١٥

(دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ).

(٢) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: عبد اللطيف محمد الخطيب، ط١، ج٣،

ص٥٤١ (السلسلة التراثية، مطابع السياسة، الكويت، ١٤٢١هـ).

(٣) ينظر: بحث: آليات الحجاج اللغوية في رسائل الإمام علي، مرجع سابق، ص٨٩.

إلى دحض العلاقة بين المعطى والنتيجة المتوقعة^(١).

ولمزيدٍ من الإيضاح فإنَّ الباحث يستعين بالمثال الآتي:

الوقت مناسب لكنني مرهق

(أ) (ب)

فملفوظ: (الوقت مناسب) يسوق المتلقي إلى نتيجةٍ من قبيل: (إنني مستعدُّ أو سأفعل)، أمَّا الملفوظ الثاني: (لكنني مرهق) فإنَّه يقدِّم تعليلًا ظاهرًا؛ لدحض تلك النتيجة (إنني مستعد أو سأفعل) وفرض نتيجة مناقضة مفادها النفي (لا-ن = لست مستعدًا أو لن أفعل)، وبما يحمله الملفوظ الثاني من نقض وتعليل فإنَّه يظهر الدور الجلي ل(لكن) من حيث توجيه المتلقي وسوقه نحو النتيجة المقصودة^(٢).

وفي المدونة المدروسة فإنَّ هناك العديد من الأمثلة المؤكدة على جدوى هذا الرابط ودوره في الحجاج، ومن عداد تلك الأمثلة، ما ورد في خطبة سعيد بن العاص رضي الله عنه لما ولي أمر الكوفة، إذ قدمها فصعد المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: ((والله لقد بُعثت إليكم وإني لكاره، ولكي لم أجد بدًّا إذ أمرت أن أتمر))^(٣).

فقد عمل الرابط (لكن) على الربط بين ملفوظين متناقضين ضمنيًّا؛ إذ ورد الملفوظ (أ) ليخدم نتيجة ضمنيَّة من قبيل: (سأجتنب إمرتكم)، بينما ورد الملفوظ (ب) ليخدم نتيجة مضادة مفادها: (لن أترك إمرتكم).

وبهذا التدارك الحجاجي والتوجيه اللغوي فإنَّ الخطيب يكون قد ضرب أروع أمثلة البر والسمع والطاعة لولي الأمر؛ فإنَّ كنتم يا أهل الكوفة قد عصيتم ونازعتم الأمر أهله وتشعَّبت على ولي الأمر، فإنِّي قد أتيت ما أكرهه طاعةً لولي الأمر، فما لكم لا تأتون ما تحبونه من السلامة والأمن؛ تحقيقًا لمصلحة أنفسكم وطاعة لولي أمركم.

ونحوه، ما جاء في معرض خطبة يزيد بن أسد البجلي في أهل الشام يوم (صقين)، إذ يقول:

(١) ينظر: (لكن) في القرآن الكريم: دراسة تركيبية دلالية، فتحية عبيدة، رسالة ماجستير، ص ٦١، جامعة الجزائر (٢٠٠١م).

(٢) ينظر: السابق، ص ٦٤.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٧٨.

((ثم كان من قضاء الله أن جمعنا وأهل ديننا في هذه الرقعة من الأرض، والله يعلم أيّ كنت كارهاً لذلك، ولكنهم لم يُبلعونا ريقنا، ولم يتركونا نرتاد^(١) لأنفسنا وننظر لمعادنا، حتى نزلوا بين أظهرنا، وفي حريمنا وبيضتنا^(٢))).^(٣)

فإن كان المفوظ (أيّ كنت كارهاً لذلك) يصبّ في مصلحة نتيجة مفادها: (ترك الخروج إلى القتال)، فإنّ الخطيب قد بادر إلى الرابط ب(لكن)؛ ليبدّل الاتجاه الحجاجي ويوجّه المتلقي إلى وجهة حجاجية جديدة، بطرح ملفوظ آخر مخالف للوجهة السابقة من جهة نتيجته الداحضة والمخالفة لما قد ينصرف إليه المتلقي من الدعوة إلى ترك القتال؛ فلئن كان الخطيب يكره الخروج فإنّه قد انقلب بفضل الطاقة الحجاجية في هذا الرابط إلى طالب للخروج داعٍ إليه مبرّر له محرضٍ عليه: (لم يُبلعونا ريقنا، ولم يتركونا نرتاد لأنفسنا وننظر لمعادنا، حتى نزلوا بين أظهرنا، وفي حريمنا وبيضتنا).

إنّ المتأمل في دور (لكن) في هذه الشاهد يجد أنّ الخطيب قد استطاع من خلاله الجمع بين مظهرين متعارضين، الأول: مظهر المسلم المسالم الذي يخاف الوقوع في دماء المسلمين، الثاني: مظهر المسلم القوي الذي يأبى الظلم والبغي؛ فبعد أن كانوا مجتنبين للفتنة نائين عنها قام المقصودون بالبغي عليهم، فحلّ لهم الخروج إلى قتالهم؛ استناداً إلى قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَتَّقِيَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاتًّا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٤)، وإلى قول الله تعالى: ﴿وَلَمِنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾^(٥).

ومن قبيله، ما ورد في عظة أحد الحكماء، حيث يقول: ((ولو أنّ المرء لا يعظ أخاه حتى يُحكّم أمر نفسه، لترك الأمر بالخير والنهي عن المنكر، ولكنّ محادثة الإخوان حياة

(١) الارتياذ: طلب المرعى. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٨، ص ١٢١.

(٢) البيضة: ساحة القوم. ينظر: السابق، ج ١٨، ص ٢٥٨.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٤٤.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ٨.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٤١.

لقلوب، وجلاء للنفوس، وتذكير من النسيان))^(١).

بالنظر في هذا الشاهد فإنَّ الناظر يُدرك أنَّ الرابط الحجاجي (لكن) قد أدَّى دورًا حجاجيًا رئيسًا؛ ذلك من جهة فرضه بعض التأثيرات المعنوية التي توجه المتلقي إلى فهم الملفوظين: (أ) و(ب)، إذ إنَّ الاستدراك بهذا الرابط يوجّه دلالة القول كَلِّه لسلب نتيجة الملفوظ قبله (انقطاع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعدم كمال الناصح)، وفرض ملفوظٍ جديدٍ متضمنٍ لنتيجة أخرى ورافعٍ صحّة توهم ما سواها (استمرار النهي بالمعروف والنهي عن المنكر أيًا كان حال الناصح؛ لما يتحقق بذلك من مصالح لا تخفى).

لقد تمكّن الخطيب-بفاعلية طاقة هذا الرابط الحجاجية-من إخراج نفسه وكلّ واعظ من مأزق افتراض الكمال والسلامة من العيوب، إذ قطع به الطريق على كلِّ متلقٍ لا يقبل الحقّ من قائله؛ فمادام أنَّ العظة حياة للقلوب، وجلاء للنفوس، وتذكيرٌ من النسيان، فإنّه يجب قبولها والإنصات لها أيًا كان مصدرها.

في ضوء ما تقدم من تناول، يظهر أنَّ الرابط (لكن) قد شكّل علامة فارقة في توجيه الحجاج في كلِّ شاهد من الشواهد المذكورة؛ ذلك بفضل ما يحصل به من استدراك ونفي وتعليل، وإثبات ناتج عن طرح حجة أخرى تفوق سابقتها قوة وتعلوها قيمة.

١-ب-(بل):

وتأتي في معنى «الإضراب عن الأوّل [المتبوع]، والإيجاب للثاني [التابع]»^(٢)، أو صرف الحكم إلى التابع ونفيه عن المتبوع^(٣)، أمّا من الجهة الحجاجية فإنّها تعمل عمل (لكن)، من حيث ربطها بين ملفوظين يخدمان نتيجتين متضادتين، ومُتمثل الملفوظ الواقع بعدها الملفوظ الأقوى، ومتمثل نتيجته المضادة (لا-ن) النتيجة المعتمدة^(٤).

(١) جمهرة خطب العرب، ج٣، ص٢٣٣.

(٢) معاني الحروف، علي بن عيسى الرماني، تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، ط٢، ص٩٤ (دار الشروق، جدة، ١٤٠١هـ).

(٣) ينظر: المطوّل: شرح تلخيص مفتاح العلوم، مسعود بن عمر التفتازاني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط٢، ص٢٤٩ (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م).

(٤) ينظر: اللغة والحجاج، مرجع سابق، ص٦٣.

ومن مواضع هذا الرابط في المدونة، قول المستورد بن علفة في إحدى خطبه في الخوارج: ((ثم قام الصديق، فَصَدَقَ عن نبيه، وقاتل من ارتد عن دين ربه، وذكر أن الله ﷻ قرن الصلاة بالزكاة، فرأى أنَّ تعطيل إحداها طعن على الأخرى، لا بل على جميع منازل الدين))^(١).

فقد أنشأ الرابط (بل) في هذا الشاهد علاقة بين ملفوظين، يقتضي أولهما أنَّ (تعطيل الزكاة كتعطيل الصلاة وحدها)، ويقتضي ثانيهما أنَّ (تعطيل الزكاة إنما هو بمثابة تعطيل أركان الدين كلها)، وبإنعام النظر في هذا الشاهد فإنه يتضح الدور الحجاجي ل(بل) من حيث عملها على تقرير النتيجة المقصودة ورفع توهم ما قبلها.

ومن ناحية أخرى، فإنَّ في إدخال الخطيب ل(لا) النافية على (بل) مزيد تأكيد وترسيخ لمعنى الإضراب، ذلك أنَّ فيها معنى نفي الملفوظ القبلي نفياً قاطعاً وإثبات الملفوظ البعدي ورد الاختلاف في حكمه، في حين أنَّ انفراد (بل) يجعل الملفوظ قبلها في حكم المسكوت عنه الذي يقبل الشك والاحتمال^(٢).

وظاهر دور هذا التركيب اللغوي من جهة توجيه القول برؤيته نحو تعظيم أمر الدين، وقطع الطريق على كل من يُفَرِّق بين أركانه أو يُهون من أحدها، فالإسلام بأركانه كل لا يتجزأ، وهدم ركن من أركانه هدم للبقية.

ومن قبيله، ما تكلم به داود بن علي في إحدى خطبه وقد ارتجج عليه: ((إنما اللسان مضغة من الإنسان، يفتت بفتوره إذا نكل، ويثوب بانبساطه إذا ارتجل، ألا وإننا لا ننطق بطراً ولا نسكت حصراً، بل نسكت معتبرين وننطق مرشدين))^(٣).

إذ وصل الرابط (بل) بين سكوتين ونطقين، أمَّا ما قبل الرابط فإنه نُطِقَ منفي (نطق المتكبر الجاهل بنفسه قبل غيره)، وسكوت منفي (سكوت فاقد القدرة على الكلام)، وأمَّا ما بعد الرابط فإنه سكوت مُثَبَّت (سكوت القادر على الكلام)، ونطق مُثَبَّت (نطق العارف

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٤١٥.

(٢) ينظر: معاني النحو، فاضل السامرائي، ط ١، ج ٣، ص ٢٦٢ (دار الفكر للطباعة، عمان، ١٤٢٠هـ).

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٧.

البصير المتجاوز في البصيرة إلى غيره).

وبمراجعة نتائج الملفوظين، فإنه يتبين أنّ ما قبل (بل) يقودنا إلى نتيجة من قبيل: (إنّ الخطيب من أهل الدّراية والبيان)، بينما يقودنا الملفوظ بعد الرابط إلى نتيجة مفادها: (رفع توهم اقتصار الخليفة على النتيجة السابقة)؛ فهو لا يقف في إمكانياته عند حدود الدّراية والبيان؛ لأنّ صمته أبلغ من نطقه، وعلمه يتجاوز درايته بنفسه إلى درايته بغيره، وبإثبات هذا التّفوّق فإنّ الخطيب يكون قد نجح في ترسيخ أحقيته بالولاية على المخاطبين؛ إذ نفى عن نفسه كلّ ظنٍّ بالضعف والعيّ والجهل.

وبهذا المعنى، فإنّه يتبين الدور الحجاجي ل(بل)؛ من جهة ورودها ل«نفي الحكم السابق، في الكلام قبلها، والقطع بأنّه غير واقع، ومُدّعيه كاذب، والانصراف عنه واجب إلى حكم آخر يجيء بعدها»^(١).

وقد يأتي الرابط (بل) في المدونة بقصد الانتقال من غرض أدنى إلى غرض أعلى ليُشكّل إضراباً ارتقائياً نوعياً^(٢)، بُغية التمهيد لظهور حجة أخرى تُساند سابقتها وتزيد القول توجيهاً نحو النتيجة المقصودة، على سبيل ما جاء في خطبة الحسن بن علي رضي الله عنهما إذ خطب الناس في عهد خلافته، فكان مما قال: ((نحن حزب الله المفلحون، وعترته^(٣) رسول الله صلى الله عليه وآله الأقربون، وأهل بيته الطاهرون الطيّبون، وأحد الثّقَلين^(٤) اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وآله، والثاني كتاب الله؛ فيه تفصيل كل شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعوّل عليه في كل شيء، لا يخطئنا تأويله، بل نتيقن حقائقه))^(٥).

إذ حقّق الرابط (بل) نوعاً من الإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض آخر، دون قصد

(١) النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة، عباس حسن، ط ٢، ج ٣، ص ٥٠١ (دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤).

(٢) ينظر: الروابط الحجاجية في القرآن الكريم: نماذج مختارة، مسعودة الساكر، مجلة العرب والفكر العالمي، مجلة الآداب، جامعة مونتوري قسنطينة، المجلد ٢١، العدد ١، ص ٤٥٠ (٢٠٢١م).

(٣) العِترَةُ: نسل الرجل وأقاربه من ولدٍ وغيره. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٢، ص ٥٢٠.

(٤) الثّقَلُ: كل شيء حَطَرٍ نفيسٍ مصونٍ له وزنٌ وشأن، ينظر: السابق، ج ٢٨، ص ١٥٦.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٧.

إبطال الكلام الأوّل؛ ذلك أنّ مؤدّاه إثبات حكم الملفوظ بعده مع نفي انفراد ما قبله بالحكم^(١)؛ حيث يقتضي الملفوظ الأوّل اقتصار تفوّق العترة على العلم بظاهر القرآن فقط، في حين يُفضي الملفوظ الثاني إلى نتيجة ضمنية معارضة لهذا الاقتصار (لا-ن) مؤدّاهما تجاوز العلم بظاهر القرآن إلى اليقين بحقائق بواطنه.

ولا يخفى الدور الترتيبي ل(بل) في هذا الشاهد؛ من جهة الانتقال من الأخص إلى الأعمّ والأكبر، حيث انتقل الحسن بن علي رضي الله عنه من الاقتصار على معرفة التأويل إلى مرتبة تيقن الحقائق^(٢).

إنّ أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله لا يتوقف علمهم عند حدود الظاهر بل هم-أيضاً-أعلم الناس بباطن القرآن وذلك «أنّ القرآن الكريم له ظهر وبطن؛ ظهر يفهمه كل من يعرف اللسان العربي، وبطن يفهمه أصحاب الموهبة وأرباب البصائر، غير أن المعاني الباطنية للقرآن لا تقف عند الحد الذي تصل إليه مداركنا القاصرة، بل هي أمر فوق ما نظن وأعظم مما نتصور»^(٣).

ويمكن أن تأتي (بل) في المدونة بصفتها رابطاً داعماً ل«الانتقال من شيء إلى شيء»، من غير إبطال لما سبق^(٤)، نحو قول ابن الفخّار في دفاعه عن أحد القضاة: ((ولم يعلموا أنّ اهتضام المقدّم راجع على المقدّم، بل جمحوا في لجاجهم، فعموا وصمّوا، وفعلوا وأمضوا ما به همّوا))^(٥).

إذ عملت (بل) في هذا الشاهد على مضاعفة توبيخ المعنيين؛ وذلك من خلال الربط بين ملفوظين متعاضدين في سعيهما إلى تحقيق مقصد واحد، فلئن كان مفاد الملفوظ الأوّل: (جهل المعنيين)، فإنّ مفاد الملفوظ الثاني: (إصرار المعنيين واغترارهم واستطالتهم وجسارتهم

(١) ينظر: الروابط الحجاجية في القرآن الكريم: نماذج مختارة، مرجع سابق، ص ٤٥١.

(٢) ينظر: استراتيجيات الخطاب: مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص ٥١٤.

(٣) التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ج ٢، ص ٢٦٤ (مكتبة وهبة، القاهرة، د. ت).

(٤) تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، وزهير جعيد، ط ٣، ج ٤، ص ٤٧٧ (دار الفكر، بيروت، ٢٠١٠م).

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٧٨.

في سبيل الضلال)، ومن غير الخفيّ أنّ هذين المفادين يصبّان في مصلحة نتيجة واحدة، هي: (نقصُ المعنيين وضلالهم).

ولئن بدا الملفوظان متعارضين في ظاهرهما-نفيًا وإثباتًا-إلا أنّهما متفقان في الدلالة على المُقتضى نفسه، وبهذا الوضوح في الإظهار فإنّ الخطيب يكون قد بلغ الغاية في كشف حقيقة نقص المؤلّبين وكمال القاضي ونزاهته؛ فمذمّة الناقص دليلٌ على كمال المنقوص.

وبما سبق، فإنّها تتضح أهمية الرابط (بل) ويتجلّى دوره في مضاعفة التوجيه وتركيزه، كما يظهر أثره في لفت انتباه المتلقي وتحفيزه؛ بفعل قوة الملفوظ بعده وأثره ومفارقته للملفوظ قبله.

٢-روابط التساوق الحجاجي:

وهي الروابط التي تُعنى بإدراج ملفوظ جديد يرفد الملفوظ السابق له ويساوقه شكلاً ومضموناً، فيشترك الملفوظان-التالي والسابق-في خدمة نتيجة واحدة مع تفاوت بينهما من جهة القوة الحجاجية الكامنة في الملفوظ المُدرج^(١)، ومن أشهر روابط هذا الصنف، الرابط الحجاجي:

(حتى):

لئن كان هناك ثلاثة معانٍ مسجّلة للرباط (حتى)، فإنّ ما يعيننا-هنا-هو مجيئه لإفادة انتهاء الغاية^(٢)، ذلك لما في هذا المعنى من إشارة إلى أهمية ما هو ثانويّ (الملفوظ البُعدي) وتفعيل دوره بالنسبة إلى الأساس (الملفوظ القبلي)؛ ليرسخ معناه في ذهن المتلقي، وعليه فإنّ ما قبل (حتى) وما بعده ينتميان إلى مستويات غير متساوية^(٣).

وبهذا التوجيه، فإنّ الملفوظ الذي يأتي بعد الرباط (حتى) يمثّل أقوى ما يمكن أن نتخيله أو نتصوره، وآخر ما يمكن تقديمه لصالح النتيجة المقصودة، إضافة إلى ما في هذا الملفوظ البُعدي من لفت وتأثير ناتج عن إدراج غير المتوقّع، ومن شأن ذلك كلّ أن يضاعف الفاعلية الحجاجية للقول برمته^(٤).

وليتبيّن سبيل (حتى) في الحجاج فإنّه يُستشهد بالمثل المعروف: (أكلت السمكة حتى رأسها)؛ فلئن كانت نتيجة هذا المثل هي (أكل السمكة بحذافيرها) فإنّ الرابط الحجاجي (حتى) عمل على إقامة علاقة بين ملفوظين متماثلين في توجّههما الحجاجي لخدمة تلك النتيجة، في حين أنّ الملفوظ البُعدي (أكلت رأسها) أكثر قوّة ودقّة من سابقه؛ ذلك من جهة دوره في التحديد والتعليل، والقضاء على جميع الأوهام والشكوك التي قد تتسلل إلى

(١) ينظر: اللغة والحجاج، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٢) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعراب، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٦٠.

(٣) ينظر: أسلوبيّة الحجاج التداولي والبلاغي، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٤) ينظر: السابق، ص ٩٧. ونظرية الأفعال الكلامية من سوسور إلى فلسفة اللغة، أوزفالد دوكرو، ترجمة: مركز الإنماء

القومي، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد ١٠، ص ١٥٥-١٥٦ (ربيع ١٩٩٠م).

المتلقي من طريق ما في الملفوظ القبلي من إتهام^(١).

ولا تخلو المدونة من عددٍ من أمثلة الرابط (حتى)، ومن بينها قول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عرض خطبته بعد البيعة: ((ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه))^(٢).

فقد عمل الرابط (حتى)- في الموضعين- على الربط بين ملفوظين جاء صريحين في توجههما للخدمة نتيجة واحدة مؤداها: (العدل هو سيرتي معكم)، وبذلك يكون الخطيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد ضاعف توجيه المتلقين نحو النتيجة المقصودة.

ومن يتأمل في الملفوظ الذي يتلو الرابط في الموضعين، يجد أن هذا الملفوظ البعدي يمثل تحوُّلاً بيناً مُنهيّاً للشكِّ في عدله وحزمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إذ بلغ الغاية في العدل؛ فليس لديه أدنى محاباة أو اختصاص، فالضعيف هو القوي إلى أن يرجع إليه حقه، كما أن القوي هو الضعيف إلى أن يُنتزع الحق منه.

ومتى جُرِّدَ هذا الشاهد من الرابط (إن أقواكم عندي الضعيف، وأضعفكم عندي القوي)، فإنَّ تركيبه يتحوَّل إلى صيغة إخبارية مُبهِمة تُفقدُ القول معاني العزم والاستمرار، والاستغراق (الغاية) والتَّحديد، التي يُجِيلُ إليها الرابط (حتى).

ومن بين أمثلة المدونة أيضاً، قول زياد بن أبيه الوارد في خطبته (البترء): ((ما أنتم بالخُلمااء، ولقد اتبعتم السفهاء؛ فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرْمَ الإسلام))^(٣).

فليخوذة تقاعس المسلمين وتحاذلهم عن النهي عن المنكر، ولما تستدعيه حال المتقاعسين من التنبيه والتحريك، فإنَّ زياداً عدل إلى الرابط (حتى) في هذا الموضع؛ ليبيِّن مستوى الخطر الذي هم فيه، وليعيِّن سبب الدعوة إلى صده، حيث تمادى المخاطبون في التقاعس إلى أن أصبحت حُرْمات الله منتهكة.

(١) ينظر: اللغة والحجاج، مرجع سابق، ص ٧١.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٨٠.

(٣) السابق، ج ٢، ص ٢٧١.

ولئن دلَّ ما قبل الرابط على ظهور أهل الفسق وغلبتهم على المُخاطِبين، فإنَّ ما بعده جاء جليًّا صارحًا في الدلالة على الخطر القائم؛ من جهة استطالة أهل الفسق وبغيهم، وما من ريبٍ في أنَّ اتفاق الملفوظين على تحقيق نتيجة واحدة (ضرورة صدِّ الفساق ونهيهم عن المنكر) يُشكِّلُ عاملاً مهمًّا في إيقاظ أذهان المتلقين واستفزازهم إلى تحقيق العمل المطلوب. ومما في عداده، ما جاء في خطبة كُتِّبَ بن شهاب التي يصدُّ بها أهل الكوفة عن الشغب والتشعب عن أميرهم عبيد الله بن زياد، حيث يقول: ((قد أعطى الله الأميرَ عهدًا لئن تَمَّتْ^(١) على حربته ولم تنصرفوا من عشيتكم أن يجرم ذريتكم العطاء، ويفرِّق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع، وأن يأخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتى لا يبقى له فيكم بقية من أهل المعصية إلا أذاقها وبال ما جرَّت أيديها))^(٢).

لقد استجمع كُتِّبَ بن شهاب كلَّ ما لديه من وسائل الاستمالة والإقناع لفضِّ جموع المتشعبين وردعهم، وكان من تمكِّنه وخبرته أن استعان في سبيل تحقيق ذلك بالرابط (حتى)؛ ليعلن النهاية البشعة التي ستحلُّ بالمارقين؛ فلن ينجو من المارقين الخارجين أحدٌ، لأنَّ ابن زيادٍ سيتبَّعهم عن بكرة أبيهم، وسيذيقهم وبال تشعبهم عليه وعصيانهم له.

وبفعل دور (حتى) في إدراج ملفوظٍ متناهٍ في فضاغته ورُعبه، ودقَّته واستقصائه، فإنَّ الخطيب يكون قد نجح في القضاء على كلِّ ما يذهب إليه المتلقون من ظرِّ حيال أمر سلامتهم ونجاتهم من عقاب ابن زياد ومن تتبَّعه لهم.

ومما جرى مجراه، قول أحد الأعراب المستمنحين: ((تتابعنا علينا سنون ثلاثٌ، غيرت النَّعم وأهلكت النَّعم، فأكلنا ما بقي من جلودها فوق عظامها، فلم نزل نعلل بذلك أنفسنا، ونمئى بالغيث قلوبنا حتى عاد مُحنَّا عظامًا، وعاد إشراقنا ظلامًا))^(٣).

زيادةً في الاستعطاف والاستمالة اختار الأعرابي الرابط (حتى)؛ ليكشف من خلاله غاية البؤس التي انتهى إليها حالهم، إذ تعاضد الملفوظان - ما قبل الرابط (حتى) وما بعده -

(١) تَمَّتْ على الأمر: استمررت عليه. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣١، ص ٣٣٩.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣٩.

(٣) السابق، ج ٣، ص ٢٦٧.

على خدمة نتيجة واحدة من قبيل (نحن أجدر الناس بالصدقة).

ومن يتأمل ما بعد الرابط يجده أكد في الدلالة على النتيجة المقصودة، وأوفى تعليلاً وأجدى تأثيراً؛ لما فيه من إظهار مستوى العوز والفاقة؛ فقد بلغوا غايةً من سوء الحال صيرت أجسادهم إلى عظامٍ فارغةٍ من مَحْمَا، وأحالت نضارة وجوههم وبياضها إلى سواد قائم.

وإضافة إلى ما سبق، فإنها لا تخفى القيمة الحجاجية ل(حتى) في هذا الشاهد؛ من جهة محافظتها على التدرج المنطقي لتحول حال الخطيب وقومه من الأضعف أثراً إلى الأقوى أثراً، فقد تطور بهم الهزال شيئاً فشيئاً إلى أن بلغ ذروته بفقدانهم لمخ عظامهم، وإشراق وجوههم^(١).

وبهذه الشواهد تتضح الأهمية والقيمة الحجاجية للرابط (حتى) في الخطبة، بفعل دوره الظاهر في إدراج ملفوظٍ جديد يقوي ما قبله ويُساوئه في سبيل تحقيق غاية واحدة، وبفعل ما ينتج عن ذلك من ترسيخ للمعنى وتنبية عليه.

(١) ينظر: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، رضوان الرقي، مجلة عالم الفكر، المجلد ٤٠، العدد ٢، ص ١٠٧ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠١١).

٣-روابط التعليل الحجاجي:

وهي الروابط التي تأتي في سياق التعليل والتسبيب والتبرير، إذ يتطلب الحجاج منهجاً تعليلياً ومساراً تفسيرياً يدعم إدراك العلاقة المنطقية بين الملفوظين، ولا شك أنّ ذكر الشيء معللاً أكد وأبلغ من ذكره دون تعليل؛ إذ إنّ النفوس تقبل الأحكام المعللة وتستجيب لها^(١). ويمكن للباحث فيما يلي الوقوف على أبرز روابط التعليل الحجاجي:

٣-أ- الرابط الحجاجي (لأنّ):

يُعدُّ هذا الرابط أهمّ ألفاظ التعليل والتفسير؛ لما في اقتران لام التعليل ب(أنّ) من مضاعفة معنى التعليل وزيادة مستوى الربط والتماسك، ويأتي لتبرير الفعل كما يأتي لتبرير عدم الفعل أيضاً، وهو مختصُّ بربط النتيجة (المعلول) بالحجة (التعليل)^(٢).

وقد وقف الباحث في المدونة المدروسة على عددٍ من شواهد هذا الرابط، من قبيل ما جاء في معرض خطبة دفاع عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن بني هاشم، حيث يقول: ((والله لقد نشأت ناشئتنا مع ناشئة قريش، وإن كنا لقاتلهم إذا قالوا، وخطباءهم إذا خطبوا، وما عدّ مجدّ كمجد أولنا، ولا كان في قريش مجد لغيرنا، لأنّها في كفر ماحق، ودين فاسق، وضلالة وضلالة في عشواء عمياء، حتى اختار الله تعالى لها نوراً، وبعث لها سراجاً، فانتجبه^(٣) طيباً من طيبين، لا يُسبِّ بمسبة، ولا يُبغى عليه غائلة، فكان أحدنا وولدنا، وعمنا وابن عمنا^(٤))).

فقد اختار عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الرابط (لأنّ) ليتبعه بتعليلٍ منطقيٍّ يُعلِّلُ تفرُّد الهاشميين بالمجد دون سائر قريش؛ وذلك أنّ الله اختار رسول الله صلى الله عليه وآله من بني هاشم ليُخرج

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٣، ج ٣، ص ٩١ (دار

التراث، القاهرة، ١٤٠٤هـ). وبمحت: آليات الحجاج اللغوية في رسائل الإمام علي، مرجع سابق، ص ١١٣.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، ص ٣١٩ (مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ت).

وبمحت: آليات الحجاج اللغوية في رسائل الإمام علي، مرجع سابق، ص ١١٣.

(٣) انتجبه: استخلصه، واصطفاه اختياراً وتفضيلاً على غيره. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٣٨.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٢٣.

به قريشاً والناس كافة من الظلمات إلى النور، وتلك منقبةٌ لبني هاشم لا ينازعهم فيها ولا عليها أحدٌ إلى يوم القيامة، وحسب بني هاشم ذلك.

وإنَّ الناظر في هذا الشاهد لا يخفى عليه مدى تأثير الرابط (لأنَّ) في زيادة مستوى الطاقة الإقناعية؛ إذ جاءت النتيجة مُتَّبَعَةً بِحِجَّتِهَا المُسَكَّتة وَعَلَّتْهَا المُؤَيَّدَة؛ وبذلك فإنَّه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يكون قد قطع الطريق على كلِّ من ينتقص قريشاً أو يقلل من شأنها.

ومن قبيله، ما ورد في خطبة الحجاج إثرَ قتله عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، حيث كان مما قال: ((ولو كان شيء مانعاً للعصاة لَمَنَعَ آدَمَ حَرَمَةُ الْجَنَّةِ^(١)؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ، وَأَبَاحَهُ جَنَّتَهُ؛ فَلَمَّا عَصَاهُ أَخْرَجَهُ مِنْهَا بِخَطِيئَتِهِ، وَآدَمَ عَلَى اللَّهِ أَكْرَمُ مِنْ ابْنِ الزَّبِيرِ، وَالْجَنَّةُ أَكْبَرُ حَرَمَةً مِنَ الْكَعْبَةِ))^(٢).

إذ استعان الحجاج بالرابط (لأنَّ) ليربط النتيجة (المعلول): (العاصي أيًّا كان قدره لا تمنع عنه حُرْمَةٌ) بالدليل (التعليل): (الله تعالى خلق آدم بيده، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنَّته؛ فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته ولم ينتفع بتلك الحُرْمِ)؛ فإذ لم تُحَلْ هذه الأمور دون عقاب أبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكذلك الشأن مع ابن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا على الرغم من ثقله وحُرْمَة الصحابة وقداسة بيت الله.

إنَّ الحجاجَ لَمَّا ارتكب هذا الأمر العظيم أراد أن يُبرئ نفسه ويُخَلِّصَ الخِلافةَ من مَعْبَةِ تلك الحادثة مُلْقِيًا باللوم كَلِّه على عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فكانت (لأنَّ) هي الطريق الأمثل لتبرير هذا المنكر السافر؛ وذلك لمنطقيتها وقوتها في التوجيه.

ومن قبيله أيضاً، قول أحد الغلمان الوافدين مع أهل الحجاز على عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

(١) لكي يَحْفَظَ الحجاج من مَعْبَةِ قتله ابن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الحرم فإنه يعقد هنا قياساً بين حالتين: حالة خروج ابن الزبير من مكة بالقتل وعدم انتفاعه بحُرْمَةِ الحُرْمِ، وحالة خروج آدم عليه السلام من الجنة بالهبوط وعدم انتفاعه بما للجنة من حُرْمَةٍ؛ ووجه القياس في ذلك اتفاق الحالتين في الأمور التالية: حرمة وقداسة الموضعين، المعصية، الخروج من الحُرْمَةِ بموجب المعصية.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٨٧.

((يا أمير المؤمنين، نحن وفدُ التهئة لا وفد المرزئة^(١)، قدمنا إليك من بلدنا، نحمد الله الذي منَّ بك علينا، لم يخرجنا إليك رغبة ولا رهبة، لأنَّا قد أمنا في أيَّامك ما خفنا، وأدرکنا ما طلبنا))^(٢).

فلما كانت الغرضية قرينة الوفادة على الخليفة، أراد هذا الغلام أن يوجّه ملفوظه إلى حيث لا يُظن بوفدهم ذلك، فهم ليسوا وفد رجاءٍ ولا خوفٍ، بل هم وفد تهئة ومباركة، ودليل ذلك وعلمته المؤكدة أنهم خرجوا غير راغبين بعبء عُمر رَحْمَتَهُ ولا راهبين من عقابه؛ فقد كفاهم عدله مؤونة ذلك.

وعلى الرغم من بوار المدح في عهد عمر بن عبد العزيز رَحْمَتَهُ إلا أن هذا الغلام قد استطاع بفضل هذا الرابط-التعليقي التديلي المؤكّد-أن يمتدح الخليفة بما فيه، وأن يبرئ نفسه ووفده من الطمع والخوف في زمن العدل والفيض والاكتفاء. ولجميع هذه المعاني الحجاجية، فإنه لا يخطئ من يذهب إلى أن «الحجاج اللغوي ما هو إلا استدلال طبيعي غير برهاني»^(٣).
ومما يندرج فيه، ما جاء في معرض موعظة أحدهم لوالي (أرمينية): ((إنَّ حُبَّ عباد الله موصول بحب الله، وبُغْضَهُم موصول ببغض الله؛ لأنَّهم شهداء الله على خلقه، ورقبأؤه على مَنْ اعوجَّ عن سبيله))^(٤).

حيث وَرَدَتْ (لأنَّ) في هذا الشاهد لتُفسَّر السبب المنطقي للترابط بين علاقة الوالي بخالقه وعلاقته بخلقه؛ فطريقتك أيها الوالي وسيرتك في عباد الله ستكون هي نفسها طريقك إلى النجاة والفوز بالآخرة؛ لأنَّ العباد هم شهداء الله ورقبأؤه، فعليك بما يحبُّهم بك، وإيَّاك أن يكرهوك فيبغضك الله وتحسر آخرتك.

وبما سلف من شواهد وتناول واستنطاق، فإنه يتجلَّى دور الرابط (لأنَّ) في تغيير مسار

(١) المرزئة: إصابة الخير. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٤٤.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٤١٩.

(٣) تقنيات الحجاج في كتاب: (حوار مع صديقي الملحد) للدكتور مصطفى محمود، محمود حمزة محمد، مجلة كلية الآداب للإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة الفيوم، المجلد ١٢، العدد ٢، ص ٣٨٩ (٢٠٢٠م).

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٣٤.

الحجاج، ونقله نقلاً مُفارقاً من الإخبار إلى التدليل، وفي زيادة مستوى التأكيد والتماسك والتكثيف.

٣-ب- لام التعليل:

لام العلة أو لام السبب: أحد أحرف الربط المختصة بالدخول على الاسم، وعلى الفعل المضارع خاصة، وبدخولها فإن ما بعدها يتحوّل إلى علة صريحة لما قبلها (النتيجة). وإلى ما في هذا الحرف من معنى التعليل والتدليل فإنه لا يخلو -أيضاً- من معنى الاختصاص، حيث إن معنى التعليل فيه راجع إلى معنى الاختصاص، فإذا قلت: (جتتك لأكرمك) أو (جتتك للإكرام)، فإن اللام هنا تدل على أنّ المجيء مختص بالإكرام، إذ الإكرام سببه دون غيره^(١).

ولعل من خير شواهد هذا الرابط في المدونة المدروسة قول عثمان رضي الله عنه في إحدى خطبه:

((إن الله ﷻ إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة))^(٢).

بفضل دخول لام التعليل على المضارع، فإنّ الشاهد قد اكتسب نوعاً من المخالفة والمقابلة المحوّزة؛ من حيث تمييز العلة عن المعلول (أعطاكم الدنيا # تطلبوا بها الآخرة)، وتيقن حقيقة كلّ منهما؛ فليس الماضي (الدنيا) سوى وسيلة وطريق إلى الفوز بالمستقبل (الآخرة)^(٣).

وإن ذهب بعضهم إلى أنّ انفراد لام التعليل بالدخول على الفعل المضارع متضمن معنى مختلفاً عن دخولها عليه مع (أن)؛ من جهة دلالة الانفراد (انفراد اللام) على عدم وقوع الفعل، وأنه إنّما قصد إليه ليقع مستقبلاً، فإنّ تجريد عثمان رضي الله عنه التركيب من (أن) يحمل معنى التلويح بتقصير المخاطبين، فكأنهم بتهاونهم لم يطلبوا الآخرة، ولم يسعوا إليها من قبل^(٤).

ومن شواهد هذا الرابط أيضاً، قول عمّار بن ياسر رضي الله عنهما في مناصرة علي رضي الله عنه: ((أيها

(١) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني، مرجع سابق، ص ٩٧، ١٠٥، ١٠٩. ورسائل الإمام علي في نهج البلاغة: دراسة حجاجية، رائد مجيد جبار، ط ١، ص ١٠٧ (مؤسسة علوم نهج البلاغة، كربلاء، ٢٠١٧م).

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٧٦.

(٣) ينظر: خصائص الجملة التعليلية في شعر المعلقات، السيد أحمد أحمد موسى، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، الجزء ٤، العدد ٤، ص ١٧٢٣ (٢٠٢١م).

(٤) ينظر: معاني النحو، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٥٣-٣٥٤.

الناس أخو نبيكم وابن عمه يستنفركم لنصر دين الله))^(١).

لَمَّا كَانَ الاستفزاز فعلاً غير معهود يوجب عرض العلة المقنعة الداعية إليه، فإنَّ عماراً رضي الله عنه قد عدل إلى لام التعليل، ليجب المتلقين فيحصرهم ويقطع أعدارهم؛ فعلي رضي الله عنه أحق الناس بالتأييد والمناصرة؛ لأنَّه لا يدعوكم لنفسه وإنما يدعوكم لنصرة دين الله خاصة، وتناقلكم عنه إنما هو في حقيقته تناقلٌ عن نصره دين الله صلواته على.

وإذ يختار عمار رضي الله عنه المصدر (نصر) ويعدل عن الفعل المضارع (لتنصروا)، فإنه إنما أراد بذلك أن يُخلص هذا السبب من سمة التبدل والحدوث التي لا يخلو منها المضارع، ولا شك في أن إخراج الكلام على هذا التركيب مما يُزيل الشك والاشتباه بوجود غرضٍ آخر.

ومما جرى مجراه، قول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في خطبته لَمَّا دعا عشرة من فقهاءها إبان ولايته المدينة: ((إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأحرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغني))^(٢).

فلورعه رضي الله عنه وفقهه وبصيرته، فإنه قد اختار أن يبدأ ولايته على أهل المدينة برسم الخطوط العريضة لسياسته فيهم، وقد افتتح خطبته بهذا التعليل المنطقي والصريح ليخلص بالمتلقين من خلاله إلى القبول والانقياد والاحتفاء بهذا العقد السياسي؛ إذ لم يدعهم إلا للنوال والمشاركة.

ولما في المعلول (دعوتكم) من نوع غرابة وإثارة-فدعوة الفقهاء في هذا الوقت وبهذا الكم مما يثير الشك ويبعث الوحشة؛ لخروج عمر رضي الله عنه بتلك الدعوة عن السنن الذي عهده الناس من ولاتهم السابقين-فإن الإقناع يفرض بذل مزيد إثبات وتحقيق، الأمر الذي جعله رضي الله عنه يعدل إلى تخصيص العلة ب(اللام)، وإثباتها ب(الاسمية)؛ ذلك لتطمئن قلوب المتلقين

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٩٤.

(٢) السابق، ج ٢، ص ٢٠١.

ويهدأ روعهم^(١).

ونحوه، قول قحطبة بن شبيب في جُنْدِه الخُرَّاسانيين-وقد بعثه أبو مسلم الخُرَّاسانيّ في جيش لقتال عامل مروان بن محمد الأمويّ على (جُرْجَان)-: ((يا أهل خُرَّاسان: هذه البلاد كانت لأبائكم الأوّلين، وكانوا يُنصرون على عدوهم لعدولهم وحسن سيرتهم، حتى بدّلوا وظلموا فسخط الله ﷻ عليهم فانتزع سلطانهم وسلّط عليهم أذلّ أمة كانت في الأرض عندهم، فغلبوهم على بلادهم، واستنكحو نساءهم، واسترقّوا أولادهم، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل، ويوفون بالعهد، وينصرون المظلوم، ثم بدّلوا وغيروا، وجاروا في الحكم، وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة رسول الله ﷺ، فسلطكم عليهم، لينتقم منهم بكم، ليكونوا أشدّ عقوبة؛ لأنكم طلبتموهم بالثأر))^(٢).

فإن كان على كلّ خطيب مقاومة آفتين من آفات التلقي، هما: الشرود والنسيان^(٣)، فإنّ التعليل باللام من خير ما يُعين الخطيب على القضاء على تلك الآفتين؛ ذلك لما فيها من التركيز والتكثيف والانسباب، مقارنة بأحرف التعليل الأخرى. ولطول الخطبة المستشهد بها واحتراس الخطيب من تعرّض المتلقين لإحدى الآفتين، فإنّه اختار أن تكون اللام سبيله إلى التعليل في أكثر من موضع من مواضعها.

وإلى ما قيل، فإنّ في دخول لام التعليل على المضارعين (ينتقم.. يكونوا) معنى التكرار والتجدّد في الحصول، إضافة إلى معنى الاستمرار والثبوت الناتج عن الاسمية؛ إذ تُؤوّل (أنّ) المضمرّة جوازاً مع الفعل المضارع (لينتقم.. يكونوا) بمصدر مجرور باللام (لانتقام.. لكون)^(٤).

وبالوقوف على تلك الشواهد، فإنّها تظهر القيمة الحجاجية للام التعليل في الإقناع في الخطبة خاصة؛ بفعل ما تنطوي عليه من تكثيف واختصاص، ولا شكّ في أنّ اختصاص المعلول بالعلّة مما يضاعف المعنى، ويستدعي قبوله وإنفاذه.

(١) ينظر: بحث: خصائص الجملة التعليلية في شعر المعلقات، مرجع سابق، ص ١٧٢٧-١٧٢٨.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٥١٣.

(٣) ينظر: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

(٤) ينظر: بحث: خصائص الجملة التعليلية في شعر المعلقات، مرجع سابق، ص ١٧٢٦.

٤- روابط العطف الحجاجي:

ويُقصد بها: الحروف التي تأتي لعطف لفظ على لفظ أو جملة على جملة^(١)، وتكمن حجاجية هذا النوع من الروابط في الربط بين العناصر الحجاجية وتنسيقها وترتيبها ترتيباً منطقيّاً في سبيل الاتجاه نحو نتيجة مضمرة مُعيّنة، فمتى ما أحسن المحاجُ اختيار هذه الروابط واعتنى بتوظيفها توظيفاً مقامياً فإنّ من شأن ذلك أن يقوي خطابه ويُعين على تحقيق مراده^(٢).

وفيما يأتي سيحاول الباحث الوقوف على أكثر روابط العطف وروداً واستعمالاً، وهي: (الواو، الفاء، ثمّ).

٤-أ-(الواو):

ويأتي هذا الرابط في معنى الاشتراك والجمع، والترتيب أحياناً^(٣)، وهو أكثر روابط العطف استعمالاً؛ ذلك لدوره المُهمّ في الجمع والتأليف والتماسك والسبك، إضافة إلى وظيفته السُّلمية من حيث تنسيق الملفوظات ومُوالاتها بشكلٍ متّسقٍ منطقيّاً^(٤).

ولعل من أكثر مواضع هذا الرابط جلاءً في المدونة، وروده المكرّر في خطبة المأمون الحارثي في نادي قومه إذ ((نظر إلى السماء والنجوم ثم أفكر طويلاً، ثم قال: أرعوني أسمعكم، وأصغوا إليّ قلوبكم يبلغ الوعظ منكم حيث أريد، طمح^(٥) بالأهواء الأشر^(٦)،

(١) ينظر: رسائل في اللغة، عبد الله بن السيد البَطْلَيْوُسي، تحقيق: وليد السراقي، ط ١، ص ٢١٠ (مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤١٩هـ).

(٢) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٤٧٢. والحجاج في كتاب: (المثل السائر) لابن الأثير، نعيمة يعمرانن، رسالة ماجستير، ص ٢٨، ٩٣، جامعة مولود معمري، الجزائر (٢٠١٢م). وبحث: آليات الحجاج اللغوية في رسائل الإمام علي، مرجع سابق، ص ١٢٢.

(٣) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني، مرجع سابق، ص ١٥٩-١٦٠. والنحو الوافي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤٥١.

(٤) ينظر: رسائل الإمام علي في نخب البلاغة: دراسة حجاجية، مرجع سابق، ص ١٤٤. والحجاج اللساني وآلياته في نص الخطبة: دراسة لنماذج مختارة، فانتن جغلاف، رسالة ماجستير، ص ٤١، جامعة محمد خيضر، الجزائر، بسكرة (٢٠١٥-٢٠١٦م).

(٥) طمح به: ذهب به. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٦، ص ٥٨٨.

(٦) الأشر: البطر. ينظر: السابق، ج ١٠، ص ٥٣.

وران^(١) على القلوب الكدر، وطخطح^(٢) الجهل النظر، إنَّ فيما ترى لمعتبرًا لمن اعتبر؛ أرض موضوعة، وسماء مرفوعة، وشمس تطلع وتغرب، ونجوم تسري فتعرب^(٣)، وقمر تُطلعه النحور^(٤)، وتمحُّفه أديارُ الشهور، وعاجز مثير، وحوَّل^(٥) مُكْدِ^(٦)، وشابُّ مُحْتَضِر^(٧)، وَيَقْنُ^(٨) قد عَبَرَ^(٩)، وراحلون لا يؤوبون، وموقوفون لا يفرطون، ومطر يُرسل بقدر؛ فيحيي البشر، ويورق الشجر، ويُطلع الثمر، ويثبت الزهر، وماءٌ يتفجَّر من الصخر الأثير^(١٠)، فيصدع المدر^(١١) عن أفنان الحضر، فيحيي الأنام، ويُشبع السَّوام^(١٢)، ويُنمي الأنعام، إنَّ في ذلك لأوضح الدلائل على المدبِّر المقدر، البارئ المصور. يأيها العقول النافرة، والقلوب النائرة^(١٣)، أنيَّ توفكون، وعن أيِّ سبيل تعمهون، وفي أيِّ حيرة تهيمون، وإلى أيِّ غاية توفضون؟ لو كُشفت الأغطية عن القلوب، وتجلت الغشاوة عن العيون، لَصَرَحَ الشكُّ عن اليقين، وأفاق من نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة^(١٤).

حيث تجلَّى في هذه الخطبة دور رابط العطف (الواو) في الربط والتأليف بين مختلف التراكيب والمعاني؛ لتبدو تلك الملفوظات في قوَّة الكلِّ المجتمع، وإلى ذلك فقد ظهرت قيمة (الواو) الحجاجية في مراعاة التناسب المنطقي والدهني؛ فمن تأمل تلك المعطوفات لا يعدم هذه الدلالة، ولا سيَّما

-
- (١) ران: أصبح ذلك كصدأ على قلوبهم فغيَّب عنهم معرفة الخير من الشر. ينظر: السابق، ج ٣٥، ص ١٣٠.
- (٢) طخطح: أظلم. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٧، ص ٣٠٢.
- (٣) تعرب: تغيب. ينظر: السابق، ج ٣، ص ٣٦٣.
- (٤) نحر الشهر: أوله. ينظر: السابق، ج ١٤، ص ١٨٥.
- (٥) رجلٌ حوَّل: عالمٌ بتحويل الأمور بصيرتها. ينظر: السابق، ج ٢٨، ص ٣٧٠.
- (٦) المُكدي من الرجال: من لا يثوب له مال ولا يزيد. ينظر: السابق، ج ٣٩، ص ٣٨١.
- (٧) مُحْتَضِر: وصف يُطلق على الشاب إذا مات فتياً طرياً؛ لأنه يؤخذ في أحسن حالاته. ينظر: السابق، ج ١١، ص ١٧٩.
- (٨) اليقْنُ: الشيخ الطَّاعن في السن. ينظر: السابق، ج ٣٦، ص ٢٩٩.
- (٩) الغابر: الباقي. ينظر: السابق، ج ١٣، ص ١٨٨.
- (١٠) الأثير: الشديد القاسي. ينظر: السابق، ج ١٤، ص ٤٥٥.
- (١١) المدر: قَطْعُ الطَّيْنِ الناشف المتماسك. ينظر: السابق، ج ١٤، ص ٩٥.
- (١٢) السَّوام: كُلُّ إِبِلٍ ترسل ترعى دون أن يُقدَّر لها علفٌ. ينظر: السابق، ج ٣٢، ص ٤٣١.
- (١٣) النائر: الذي يُلقى بين الناس الشرور. ينظر: السابق، ج ١٤، ص ٣٢٧.
- (١٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٩.

قوله: (أرعوني..وأصغوا) وقوله: (طمح..وران..وطخطخ) وقوله: (يحيي..ويورق..ويطلع).
وبتلك الوظيفة المنطقية، فإنَّ (الواو) تكون قد انتقلت من مستواها الضيق، من حيث الضمّ والتأليف، إلى كونها حرفاً حجاجياً له إشارات تواصلية استدلالية تمتد في سلسلة النص، بحيث يشكّل حضورها ركناً رئيساً في فهم المعنى الكلي للخطبة^(١).

ومن مواضع هذا الرابط أيضاً، ما ورد في خطبة الحجاج في أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم، إذ كان مما قال فيها: ((يا أهل العراق، إنَّ الشيطان قد استبطنكم، فخالط اللحم والدّم والعصب، والمسامع والأطراف، والأعضاء والشغاف، ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ^(٢)، ثم ارتفع فعشّش، ثم باض وفرّخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً، وأشعركم^(٣) خلافاً، اتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤمراً^(٤) تستشيرونه))^(٥).

فمن يتأمل هذا الشاهد يلحظ أنّ (الواو) عملت على انتظام ملفوظاته وإدراجها بشكل متّسقٍ ومتآزرٍ يقوي النتيجة المقصودة ويدعمها، وفيما يلي إيضاحٌ لذلك:

المسامع ← والأطراف
الأعضاء ← والشغاف
باطض ← وفرخ
حشاكم ← وأشعركم
دليلاً ← وقائداً

ويكشف هذا الرسم أنّ الحجاج قد استعمل (الواو) للربط بين عدّة عناصر متصاعدة، بعيداً عن الاعتباطية والتضاد؛ مما يرفع مستوى القبول، ويُعزز قدرة المتلقي على الاستيعاب والفهم؛ إذ إنّ الطريقة التنظيمية في عرض الملفوظات الحجاجية وبنائها وتوجيهها نحو وجهة مقصودة معيّنة إنما تكون-عادة-بهدف زيادة مستوى الإقناع والتأثير، حيث تصبح

(١) الروابط الحجاجية وطاقت الاستدلال، أحمد كروم، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، المجلد ٣٤، العدد ١٣٦، ص ٤٢ (٢٠١٦م).

(٢) الصّماخ: خرق الأذن المفضي إلى الرأس. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٧، ص ٢٩٣.

(٣) أشعركم: بطننكم. ينظر: السابق، ج ١٢، ص ١٨٥.

(٤) المؤامر: المشاور. ينظر: السابق، ج ١٠، ص ٧١.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٩٣.

الملفوظات المترابطة منطقيًا بمثابة الدليل والحجة على صحّة المقصود ومشروعيته^(١).

ولا يخطئ من يذهب إلى أنّ وجود (الواو) الرابطة يستلزم وجود قدرٍ من التناسب والخيوط الفكرية التي تربط بين الملفوظات وتُعَلِّل تضامّهما، وإلا كانت قيمة (الواو) الرابطة كاذبة، ولكأنّها تُنشئ تلازمًا وتناسبًا غير موجود في الواقع^(٢).

ومن مواضع هذا الرابط أيضًا، أنّ الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان خَلَعَ ((محمدًا (الأمين) وحبسه، وأخذ البيعة لعبد الله (المأمون)، فلمّا أصبح الناس من الغد، طلبوا من الحسين بن علي الأرزاق، وماج الناس بعضهم في بعض، وقام محمد بن أبي خالد، فقال: أيها الناس، والله ما أدري بأي سبب يتأمرّ الحسين بن عليّ علينا ويتولّى هذا الأمر دوننا؟ ما هو بأكبرنا سنًا، ولا أكرمنا حسَبًا، ولا أعظمنّا منزلةً، وإنّ فينا من لا يرضى بالدنيّة، ولا يُقاد بالمخادعة، وإنيّ أوّلكم نَقْضَ عهده وأظهر التغيير عليه والإنكار لفعله، فمن كان رأيه رأبي فليعتزل معي))^(٣).

فقد ربط الخطيب هنا بين أكثر من مُعطى من خلال الرابط (الواو)، فجاءت المُعطيات منتظمة ومتألّفة ومتناسبة في مسارٍ يأخذ بالمتلقي نحو النتيجة المعنيّة (ضرورة تنحية الحسين بن علي)، إذ يكشفُ التنامي الرُتبيّ الذي ينتظم المُعطيات عن وجوب تصعيد رفض هذا الخطر المتفاقم وإزالته.

إنّ الخطيب حين يكون في تصرّفه عدد من المُعطيات، فإنّه يمتلك إمكانات هائلة للربط بينها، والخطيب الناجح هو الذي يتوخّى المعاني فيُحسن اختيار روابطه وينزلها من الكلام بما يؤدي إلى النتيجة ويُحقّق الغرض؛ ذلك أنّ التناسق في إدراج الملفوظات الحجاجية يؤدي إلى بناء القوة النازمة التي تحثّ المتلقي على المصادقة والتّصديق^(٤).

(١) ينظر: بحث: الروابط الحجاجية وطاقت الاستدلال، مرجع سابق، ص ٦٠.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٢٢٥. البلاغة العربية: أسسها وعلومها فنونها وصورٌ من تطبيقاتها بمبكل جديد من طريف وتليد، عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني، ط ١، ج ١، ص ٥٧٩ (دار القلم، دمشق، ١٤١٦هـ).

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١١٤.

(٤) ينظر: دلالات التراكيب، محمد محمد أبو موسى، ط ٢، ص ٣٤٦ (دار التضامن، القاهرة، ١٤٠٨هـ). واستراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٤٧٢-٤٧٣. وبحث: الروابط الحجاجية وطاقت الاستدلال، مرجع سابق، ص ٥٩.

وعلى منوال المواضع السابقة خطبة المنذر بن سعيد البلوطي إثر الاحتفال بقدوم رسل ملك الروم زمن الناصر لدين الله، حيث يقول: ((أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ مَعَاشِرَ الْمَلَأِ، أَلَمْ تَكُنِ الدَّمَاءُ مَسْفُوكَةً فَحَقَّنَهَا، وَالسُّبُلَ مَحْوَفَةً فَأَمَّنَهَا وَالْأَمْوَالَ مَنْتَهَبَةً فَأَحْرَزَهَا وَحَصَّنَهَا؟ أَلَمْ تَكُنِ الْبِلَادُ خَرَابًا فَعَمَرَهَا، وَتَغَوَّرَ الْمُسْلِمِينَ مُهْتَضِمَةً فَحَمَاهَا وَنَصَرَهَا؟ فَادْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِخِلَافَتِهِ، وَتَلَاْفِيهِ^(١) جَمْعَ كَلِمَتِكُمْ بَعْدَ افْتِرَاقِهَا بِإِمَامَتِهِ، حَتَّى أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْكُمْ غِيْظَكُمْ، وَشَفَى صَدُورَكُمْ، وَصَرِّمُ يَدًا عَلَى عَدُوِّكُمْ، بَعْدَ أَنْ كَانَ بِأَسْئَلِكُمْ بَيْنَكُمْ))^(٢).

فلا يخفى دور (الواو) في هذا الشاهد من جهة تضامّ الملفوظات وانسجامها، وتوجيهها توجيهًا قصديًا مُهَيِّئًا للقبول والاقتناع، ومرسِّحًا النتيجة في أذهان المتلقين، حيث جاءت الملفوظات المعطوفة على هيئة وحداتٍ حجاجية لا تقتصر على ربط بعض الملفوظات ببعض، بل تتجاوز ذلك إلى الربط المنطقي بين دلالاتها؛ فلمنع الاعتداء-بمحقن الدماء- أولوية تفوق تأمين السبل، ولسلامة الرعية-بتأمين السبل- أولوية تفوق تحصين المال. ومثل ذلك يُقال عن أولوية عمار البلاد على حماية الثغور.

وإلى ذلك، فإنَّ للعطف ب(الواو) على معمول الاستفهام التقريري (ألم) دلالة حجاجية ظاهرة؛ إذ يُشكّل هذا العطف مزيدَ إثباتٍ وتعزيزٍ لمقتضى الملفوظين الأولين: (ألم تكن الدماء مسفوكة فحقننها) و(ألم تكن البلاد خرابًا فعمرها)، وهو ما يُضاعف الردّ والإنكار على الجاحدين لآلاء الخِلافة المرتابين فيها^(٣).

وبما ذُكر فإنّه يظهر دور العطف ب(الواو) في حُطْب المدوّنة، إذ أسهم هذا الرابط في إدراج ملفوظات الشواهد بشكلٍ متماسكٍ ومتسقٍ؛ كلُّ حجة في إثر سابقتها، تساندها وتدعمها في خدمة اتجاه حجاجيٍّ واحدٍ، يُفضي بالمتلقي إلى النتيجة المقصودة.

٤-ب-(الفاء):

وتأتي في معنى الترتيب والتعقيب، كما تأتي في معنى السببية؛ بأن يكون المعطوف متسببًا

(١) تلافية: تداؤكته. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٩، ص ٤٧١.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٧٠.

(٣) ينظر: معاني النحو، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٩٧.

عن المعطوف عليه^(١)، «فهي أداة ربط عليّة واستنتاجية في الخطاب الحجاجي التداولي، ومن ثمّ فهي تجمع بين قضيتين غير متباعدتين في الدلالة على التقارب بين الأحداث، فضلاً عن الدلالة على الترتيب والاتصال، وأكثر ورودها كون ما بعدها، أو المعطوف بها، متسبباً عما قبله»^(٢).

وقد كثر ورود هذا الرابط في المدونة، على نحو ما جاء في معرض خطبة ظبيان بن حداد رضي الله عنه بين يدي الرسول ﷺ، إذ كان من قوله في تلك الخطبة: ((وإنّ حمير ملكوا معاقل الأرض^(٣) وقرارها^(٤)، وكهول الناس وأعمارها^(٥)، ورؤوس الملوك وعرازها^(٦)؛ فكان لهم البيضاء والسوداء^(٧)، وفارس الحمراء^(٨)، والجزية الصفراء^(٩)، فبطروا النعم^(١٠)، واستحقوا النقم، فضرب الله بعضهم ببعض))^(١١).

فقد ظهرت ملفوظات هذا الشاهد-بفضل اختيار الربط بـ(الفاء)- في تسلسل لغويّ مُتراتبٍ، متلاحقٍ ومترايطٍ، في سرد أحداثه؛ وكأثماً نحن أمام صورة حيّة مُسرّعة تختصر تاريخ هؤلاء القوم وعاقبتهم، ومن نظر في القيمة الحجاجية لهذا الترتيب والتلاحق المُعرب عنه بـ(الفاء)، يجد أنّ من سنّة الله إذا دنا وقت هلاك قوم أنّ يصبّ عليهم النعم صبّاً، فيجعلونها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات، ليبادرهم الله بحلول النعمة والهلاك، ذلك بإيثارهم الفسوق والعصيان على الشكر

(١) ينظر: النحو الوافي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤٦٤.

(٢) رسائل الإمام علي في نهج البلاغة: دراسة حجاجية، مرجع سابق، ص ١٤٦.

(٣) معاقل الأرض: حصونها. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٠، ص ٣٦.

(٤) القرار: المُطمئنّ المنخفض من الأرض. ينظر: السابق، ج ١٣، ص ٣٩٢.

(٥) العُمُر: العزّ الذي لم يُجرب الأمور. ينظر: السابق، ج ١٣، ص ٢٥٦.

(٦) عرازها: أصولها. ينظر: السابق، ج ١٣، ص ٢٠.

(٧) البيضاء والسوداء: الحرب والمعمر من الأرض. ينظر: السابق، ج ١٨، ص ٢٥٣.

(٨) الحمراء: العجم؛ للون جلودهم. وكانت العرب تصف العجم الذين يكون البياض غالباً على ألوانهم، مثل الرّوم والفرس ومن صاقبهم، بأنهم الحمراء. ينظر: السابق، ج ١١، ص ٧٦.

(٩) الصفراء: الذهب؛ لونه. ينظر: السابق، ج ١٢، ص ٣٢٦.

(١٠) بطروا النعم: لم يشكروها باستخفافهم بها. ينظر: السابق، ج ١٠، ص ٢١٣.

(١١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٦٨.

والامتنان^(١).

وحين يقال بحمل (الواو) لمعنى الترتيب فإنَّ في عدول الخطيب عن الربط بـ(الواو) إلى الربط بـ(الفاء) دلالةً على تأكيد الخطيب على معنى الترتيب وإلحاحه عليه؛ إذ إنَّ معنى الترتيب في الربط بـ(الفاء) أقوى حضوراً منه في الربط بـ(الواو)^(٢).

وبتلك المعاني يُلمس أثر المقام الظاهر في تركيب هذا القول ونظمه؛ إذ تجلَّى الترتيب والترابط الداخلي في اتجاهٍ توالديٍّ مرسومٍ حجاجياً بغرض تحقيق النتيجة المقصودة؛ فلئن دلَّت (الفاء) في قوله: (فكان لهم البيضاء والسوداء.. فبطروا النعم) على استخفاف المقصودين بتلك النعم ومبادرتهم بكفرها، فإنَّ (الفاء) في قوله: (فضرب الله بعضهم ببعض) قد دلَّت على سرعة أخذ الله لهم بما يُناسب حالهم؛ ذلك أنَّ اتصال فعل البطر بفعل ضرب الله لهم بعضهم ببعض، من غير فاصل، هو التحوُّل المنطقي الذي يستدعيه مقام مبادرة نعم الله بالكفر والاستخفاف^(٣).

وعلى نحوه، ما جاء في إحدى مواضع عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حيث يقول: ((إِنَّ لِكُلِّ سَفِيرٍ زَادًا لَا مَحَالَةَ، فَتَزُودُوا لِسَفَرِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ، وَكُونُوا كَمَنْ عَايَنَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ مِنْ ثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ فَرِغُوا وَرَهَبُوا، وَلَا يَطْوِلَنَّ عَلَيْكُمْ الْأَمْدُ فَتَقْسُوا قُلُوبَكُمْ وَتَتَقَادُوا لِعُدُوكُمْ؛ فَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بُسِطَ أَمَلٌ مِنْ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ لَا يَصْبِحُ بَعْدَ إِمْسَائِهِ وَلَا يَمْسِي بَعْدَ إِصْبَاحِهِ، وَرَبَّمَا كَانَتْ بَيْنَ ذَلِكَ خَطَفَاتُ الْمَنِيَا، فَكَمْ رَأَيْنَا وَرَأَيْتُمْ مَنْ كَانَ بِالدُّنْيَا مَغْتَرًّا فَأَصْبَحَ فِي حَبَائِلِ خَطُوبِهَا وَمَنِيَايَاهَا أَسِيرًا، وَإِنَّمَا تَقْرَأُ عَيْنٌ مَنْ وَثِقَ بِالنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا يَفْرَحُ مَنْ أَمِنَ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَأَمَّا مَنْ لَا يَبْرَأُ مِنْ كَلْمٍ إِلَّا أَصَابَهُ جَارِحٌ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، فَكَيْفَ يَفْرَحُ؟ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَمْرَكُمْ بِمَا أَنهى عَنْهُ نَفْسِي، فَتَخْسِرَ صَفْقَتِي، وَتَظْهَرَ عَوْرَتِي، وَتَبْدُوَ

(١) ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جارا لله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: خليل مأمون شيحا، ط٢، ص ٥٩٢ (دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٦هـ). وبحث: الروابط الحجاجية وطاقت الاستدلال، مرجع سابق، ص ٦٠.

(٢) ينظر: توجيه النفي في تعامله مع الجهات والأسوار والروابط، شكري المبخوت، ط١، ص ١٥٧ (دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٩م).

(٣) ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، ط٣، ج ١، ص ٣١٦ (وزارة الأوقاف بجمهورية مصر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية-لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦م).

مسكنتي في يوم يبدو فيه الغني والفقير والموازن منصوبة والجوارح ناطقة))^(١).

بفعل ما في الربط بـ(الفاء) من تدرّج؛ من جهة تقديمها السبب على النتيجة، فإنّه رَحِمَ اللهُ قد اختار الربط بها؛ ليحدد من خلالها أسباب السلامة وأسباب الهلاك ونتائجها، فما على المتلقين إلا سلوك السبل المؤدّية إلى الفوز والنجاة، واجتناب السبل المُفضية إلى الخسران والبوار^(٢).

إنّ (الفاء)-مثل بقية الروابط-ليست سوى متغيّر ذي وظيفة أساسية في توجيه القصد الحجاجي وكشف مظهره؛ ذلك أنّه لو أُبدلت (الفاء) برابط آخر فإنّ الخطبة ستفقد معنى التوجيه التعليلي المشار إليه^(٣).

وعلى منواله، ما ورد في خطبة أحد الأعراب المستجدين إذ يقول: ((يا قوم، تتابعت علينا سنون بتغيّر وانتقاص، فما تركت لنا هُبَعًا^(٤) ولا رُبَعًا^(٥)، ولا عافطة ولا نَافِطَةً^(٦)، ولا ثَاغِيَةً ولا رَاغِيَةً، فَأَمَاتت الزرع، وقتلت الضَّرْع، وعندكم من مال الله فضلٌ نعمة، فأعينوني من عطية ما آتاكم الله، وارحموا أبا أيتام، وَنَضَوْ زَمَانَ^(٧)))^(٨).

ففي وصل هذا الأعرابي لبعض ملفوظاته بـ(الفاء) نصّ ظاهرٌ على الجهة السببية الرابطة بين تلك الملفوظات؛ فليتابع السنون فإنّهم فقدوا ثروتهم الحيوانية، وبمجرد فقدهم لحيواناتهم فإنّهم عُدِموا الزرع واللبن، ولأنّ عند المتلقين ما يمكن مدّه لهم فإنّ عليهم مدّ يد العون.

وإذ اختار الأعرابي الربط بـ(الفاء) فإنّه إنّما قصد إظهار نفسه مظهر الصادق؛ من جهة دلالة

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٠٩.

(٢) ينظر: تقنيات الحجاج في خطاب عمر بن عبد العزيز: دراسة نصية تداولية، وليد الدوسري، مجلة جامعة الباحة للعلوم الإنسانية، العدد ٢٨، ص ٤٣٦ (٢٠٢١م).

(٣) ينظر: بحث: الروابط الحجاجية وطاقت الاستدلال، مرجع سابق، ص ٣٩، ٤٣.

(٤) الهُبُع: الفصيل الذي ينتج في شدّة القَيْظ. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٢، ص ٣٧٩.

(٥) الرُبُع: الفصيل الذي ينتج في فصل الربيع. ينظر: السابق، ج ٢١، ص ٤٢.

(٦) العافطة: النعجة. وسبب تسميتها بذلك أنّها تَغْفِطُ، أي تَضْرِبُ. والتَّافِطَةُ: العَنْزُ، سميت بذلك؛ لأنّها تَنْفِطُ بأنفها. ينظر: السابق، ج ١٩، ص ٤٨١.

(٧) نَضَوْ زَمَانَ: هو الذي أهزلته تقلبات الزمان وتحولاته وأذهبت لحمه. ينظر: السابق، ج ٤٠، ص ٩٨.

(٨) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٢٦٧.

(الفاء) على مدى صبره وتعقُّفه؛ فلم يقف أمامهم إلا بعد أن مرَّت عليه كلُّ هذه المراحل المترتبة المتعاقبة فلم تُبق له شيئاً، ذلك إلى جهة دلالة (الفاء) على تعاقب هذه المصائب عليهم، دون مهلة تُمكنهم من التصرف وتدبّر أمورهم، وإليه فإنَّها لا تخفى دلالة الفاء في قوله: (فأعينوني) على التماس الأعرابي السرعة في الإنجاز، فحالُه لا تحتمل التأخر أو التريُّث. ولعلَّ في هذا التناول كفاية في الدلالة على ما تحمله (الفاء) من المعاني الحجاجية؛ إذ لا تقتصر مهمتها على ربط الملفوظات، وإنَّما تتجاوز ذلك إلى كونها وسيلة توجيهية ناجعة من جهة لفت انتباه المتلقين وإيقاظهم؛ وذلك بفعل ما تتضمنه من تعليل وإشارة إلى اتصال الأحداث وتقاربها.

٤-ج-(ثُمَّ):

يأتي هذا الرابط في معنى الترتيب مع التراخي، فيفيد التراخي والمهلة بين قضيتين متباعدتين في ترتيبهما، لينقل المتلقي من وضع إلى وضع آخر مع مراعاة المسافة الفاصلة بين كلِّ من الوضعين^(١).

وخيرٌ ما يُستفتح به أمثلة (ثُمَّ)، ما ورد في أوَّل خطبة خطبها النبي ﷺ بالمدينة، وذلك أنه قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله: ((أما بعد أيها الناس فقدِّموا لأنفسكم؛ تعلِّموا والله ليصعقنَّ^(٢) أحدكم، ثمَّ ليدعنَّ غنمه ليس لها راعٍ، ثمَّ ليقولنَّ له ربُّه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلَّغك، وآتيتك مالا، وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟ فلينظرنَّ يمينا وشمالا فلا يرى شيئا، ثمَّ لينظرنَّ قدَّامه فلا يرى غير جنهم، فمن استطاع أن يقِي وجهه من النَّارِ ولو بشقِّ من تمرٍ فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة؛ فإنَّ بها تُجزى الحسنَةُ عشرَ أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم وعلى رسوله الله ورحمة الله وبركاته))^(٣).

فقد عمل الرابط (ثُمَّ) على تقوية تأثير فكرة الخطبة ومضاعفتها، إذ إنَّ في تتالي هذه

(١) ينظر: النحو الوافي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤٦٦.

(٢) الصاعقة: الموت. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٢٦، ص ٢٣.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٤٨.

الأحداث مع تراخيها زيادةً في التهويل والتخويف؛ فهي أحداثٌ متفرقةٌ ومنفصلةٌ يستدعي كلُّ واحدٍ منها توقُّفاً وتأملاً وتأهّباً خاصّاً به.

وإلى هذا المعنى، فإنَّ في تراخي الأحداث معنى الإيجاز والتكثيف والتركيز، ذلك من جهة اقتصاره ﷺ على ذكر أهمِّ الأحداث المتعلقة بموضوع الخطبة وتجاوز ما بينها من أحداثٍ غير مقصودة، وبذلك المعاني تتجلى القيمة الحجاجية ل(ثم) في الكشف عن المنطق الداخلي للخطاب، وذلك بما انطوى عليه من طاقة دلالية كامنة خلف معناه المختص بالتسلسل مع التراخي^(١).

ومن ذلك ما جاء في معرض خطبة الحسن بن علي في مقام المدافعة عن مقام أبيه ﷺ، حيث يقول: ((ولقد علمتم أنَّ عليّاً صلَّى مع رسول الله - صلى الله عليه وآله - وحده، وإنَّه يوم صدَّق به لفي عاشرة من سنِّه، ثم شهد مع رسول الله - صلى الله عليه وآله - جميع مشاهدته، وكان من اجتهاده في مرضاة الله وطاعة رسوله وآثاره الحسنة في الإسلام ما قد بلغكم، ولم يزل رسول الله - صلى الله عليه وآله - راضياً عنه حتى غمَّضه بيده وغسله وحده والملائكة أعوانه والفضل ابن عمه ينقل إليه الماء، ثم أدخله حفرته، وأوصاه بقضاء دينه وعِداته وغير ذلك من أموره، كلُّ ذلك من مِرِّ الله عليه، ثم والله ما دعا إلى نفسه، ولقد تداكَّ الناس عليه تداكَّ الإبل الهيم عند ورودها، فبايعوه طائعين))^(٢).

ففي معرض إثبات أحقيَّة علي بن أبي طالب ﷺ بخلافة الأمة يأتي الحسن بن علي ﷺ بأكثر من ملفوظٍ حجاجيٍّ معطوفٍ على سابقه بالرباط (ثم)، وهو إذ يختار هذا الرباط المتناسق والمتماشي مع تلك الأحداث التاريخية المتفاوتة، إمَّا يكشف عن أهميتها ومحوريتها في تشكيل سيرة أبيه ﷺ؛ فلم تكن أحداثاً هامشية متتالية، بل هي أحداثٌ متراحية تُثبت صدقه ﷺ وصلاحه مع تغيّر الزمان وامتداده.

ولعلَّ في اختيار الرباط (ثم) في هذا الشاهد ما يكفي للدلالة على دوره وأهميته في الربط بين العناصر الداخلية للخطبة، ومحيطها التاريخي من ناحية أخرى؛ لتكون الخطبة بذلك خطاباً تفاعلياً

(١) ينظر: بحث: الروابط الحجاجية وطاقت الاستدلال، مرجع سابق، ص ٥٢.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٩٤.

دقيقاً في دلالاته وإحالاته^(١).

ونحوه، قول عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في إحدى خطبه: ((أيها الناس، إنكم ميّتون، ثم إنكم مبعوثون، ثم إنكم محاسبون، فلعمري لئن كنتم صادقين لقد قصّرتم، ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم، أيها الناس، إنه من يقدر له رزق برأس جبل أو بحضيض أرض يأتيه، فأجملوا في الطلب))^(٢).

فلأهمية هذه المفصلات الكبرى وعظم أمرها، ولما تستحقه من أبهة واستعداد، فقد اختار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يربط بينها ب(ثم)؛ وذلك لأنها أحداث كبيرة متباعدة في أزمنتها مستقلة بأنفسها؛ فلذلك حدث منها شأنه وتفصيله، كما أنّ في الربط ب(ثم) إشارة ظاهرة إلى تراتب تلك المراحل، فلا يمكن الخلوص لأحدها إلا بعد استغراق سابقه.

وبهذه المعاني الحجاجية الدقيقة، فإنّه يمكن القول: إنّ الخطاب الحجاجي ليس مجرد متواليات قولية اعتباطية ساذجة، بل هو خطابٌ غرضيٌّ موجّهٌ بما يكفي لتحقيق نتيجة مقصودة ومحددة تتم الإشارة إليها من خلال علامات لغوية ظاهرة تستوفي شرائط التعليل المنطقي والذهني لهذا التركيب أو ذاك^(٣).

وعلى منواله، ما جاء في خطبة أبي مسلم الخراسانيّ بالمدينة في السنة التي حج فيها أيام خلافة السفاح، إذ يقول: ((الحمد لله الذي حمد نفسه، واختار الإسلام ديناً لعباده، ثم أوحى إلى محمد رسول الله-صلى الله عليه وآله- من ذلك ما أوحى، واختاره من خلقه؛ نفسه من أنفسهم وبيته من بيوتهم، ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي حفظه بعلمه، وأشهد ملائكته على حجّه، قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٤)، ثم جعل الحق بعد محمد-صلى الله عليه وآله- في أهل بيته، فصبر من صبر

(١) ينظر: التماسك النصي: دراسة تطبيقية في نهج البلاغة، عيسى جواد الوداعي، أطروحة دكتوراه، ص ١٦، الجامعة الأردنية (٢٠٠٥م).

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٣) ينظر: بحث: الروابط الحجاجية وطاقت الاستدلال، مرجع سابق، ص ٦٣.

(٤) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٣.

منهم بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وآله - على اللاؤاء^(١) والشدة، وأغضى على الاستبداد والأثرة^(٢)، ثم إنَّ قومًا من أهل بيت الرسول - صلى الله عليه وآله - جاهدوا على مِلَّة نبيه وسنته، بعد عصرٍ من الزمان، من عمل بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن، بين ظهرائي قوم آثروا العاجل على الآجل والفاني على الباقي^(٣).

فإذ أراد أبو مسلم سوق متلقيه إلى نتيجة ضمنية تقتضي أحقيَّة العباسيين بالخلافة، فإنَّه قد استعان بالرباط (ثمَّ) ليستبعد - بتراخيه - الأحداث غير المهمة في تحقيق النتيجة، ويستبقي أهم ما تتحقق به النتيجة من أحداث.

وإذا ما علِّم بأنَّ (ثمَّ) تُثبت معنى الانفصال، فإنَّها تظهر دقَّة الخطيب في اختياره الربط بها في قوله: (ثمَّ إنَّ قومًا من أهل بيت الرسول)؛ ذلك أنَّ هذا الحدث لم يحصل إلا بعد انفصال الحقِّ عن أهله مدَّة من الزمن^(٤).

إنَّ دور الرباط (ثمَّ) لم يقتصر في هذه الخطبة على الربط والتماسك؛ حيث تجلَّت أهميته التوجيهية بصفته آلية، منطقيَّة وفعالة، تشدُّ ذهن المتلقي نحو أحداثٍ بعينها وتعوض المحذوف من الأحداث التاريخية غير المقصودة، وبذلك فإنَّ الخطيب يكون قد نجح في نقل هذا الرباط من الدلالة الإخبارية والإبلاغية إلى الدلالة الحجاجية والإقناعية^(٥).

وبهذا القدر من التدليل والتناول، فإنَّه يتقرر أنَّ عدول الخطيب إلى الرباط (ثمَّ) يُمثِّلُ عدولاً حجاجياً مقصوداً؛ ذلك بما وقف الباحث عليه من دلالاته المقامية المقصودة الزائدة عن معناه المتعارف عليه.

*** **

وإذ تبين في هذا المبحث الجانبُ النفعي الإقناعي لعددٍ من الروابط، فإنَّها تُدرِكُ العلاقة

(١) اللاؤاء: ضيق المعيشة. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٩، ص ٤٢٨.

(٢) الأثرة: الحالُ المرفوضة غيرُ المرُضية. ينظر: السابقة، ج ١٠، ص ١٨.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٢٠.

(٤) ينظر: توجيه النفي في تعامله مع الجهات والأسوار والروابط، مرجع سابق، ص ١٥٨.

(٥) الحجاج في اللغة، أبو بكر العزاوي، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٤. وأسلوبية

الحجاج التداولي والبلاغي، مرجع سابق، ص ٧٣.

الوثيقة بين الروابط وطاقت الاستدلال، إذ تُشكّل تلك الروابط بنية لغوية حجاجية دقيقة في سوق المتلقين نحو النتيجة المقصودة؛ بصفتها أبعاداً منطقيّة خاضعة لقصد المتكلم وغرضه من القول.

وإضافة إلى ذلك، فإنّ دراسة الروابط تكشف القيمة الإضافية التي تضطلع بها الدراسات الحجاجية والتداولية والأسلوبية الحديثة، ذلك أنّ الاقتصار على قيمة الروابط النحوية المسجلة وإغفال دورها المقامي يُفقد القول جزءاً لا يمكن تعويضه من القيمة المعنوية.

ويُشيرُ هذا المبحث إلى وجود مستوى من التوافق والتقاطع بين (نظرية النظم) عند عبد القاهر و(نظرية الحجاج اللغوي) عند ديكر و زميله، من جهة تأسس (نظرية النظم) على توحي معاني النحو في معاني الكلم؛ بحيث يحمل كلُّ رابطٍ معناه الخاص به، ويستلزم كلُّ تغيير في الترتيب تغييراً في المعنى، ومن جهة تأسس (نظرية الحجاج اللغوي) على البحث عن المعنى التداولي الكامن خلف البنى اللغوية؛ باعتبارها عناصر بنيوية لا يمكن أن تنفك عن قصد المتكلم ونيته في تقوية الوجهة الحجاجية لقوله.

وإذا كانت الروابط على هذا القدر من الأهمية في تحديد المعاني الحجاجية، فإنّ الباحث سينتقل فيما يلي إلى نوع آخر من المؤشرات اللغوية الحجاجية التي لا تقل في دورها وأهميتها عن الروابط الحجاجية.

المبحث الثاني: العوامل الحجاجية:

تقرّر في مقدمة هذا الفصل أنّ حجاجيّة الخطابات تعود في جملتها إلى ذاتِ بنيتها اللغوية؛ فما من ملفوظ إلا وهو ينصبُّ ويتّجه نحو تحقيق غايةٍ مقصودةٍ، وفي القولِ عامّةً يحتفي المتخاطبون خلف اللغة، ويكون الحضور في مجمله للغة وحدها؛ فهي المعنيّة-غالبًا- بالتوجيه نحو نتيجةٍ معينة أو الصّرف عنها^(١).

وبالنظر إلى الحجاج على أنّه خاصيّة لغويّة ثابتة- كما تأسست عليه نظرية (الحجاج في اللغة)- فإنّ (العوامل الحجاجية) تُعدُّ ضمن أهمّ العلامات البنائية للغة الحجاجية؛ ذلك من جهة أنّها: «عناصرُ لغويّةٍ إسناديةٍ، نحويّةٍ أو معجميّةٍ، تربط بين مكونات القول الواحد؛ نحو: الحصر والنفي والشرط»^(٢) وبعض الألفاظ المعجمية المختصّة بتوجيه الجملة الواحدة^(٣).

وإذ تُعدُّ العوامل مظهرًا من مظاهر العدول الوظيفي الذي ترتقي به اللغة-بوضوح- عن درجتها المثالية، فإنّ الوظيفة الحجاجية للعوامل تظهر من خلال دورها الرئيس في ضبط عملية فهم الخطاب وتأويله، وإتياع الوجهة الصحيحة التي يقصدها المتكلّم، ذلك من حيث عملها على الحدّ من غموض القول وتعدّد نتائجه؛ إذ يتمُّ بها تقديم النتيجة الملائمة للمتلقّي والقضاء على كلّ استلزام لا يعضد النتيجة المرادة^(٤).

وبقدر ما يحصل بالعوامل من اختزال وحصر للمسالك التأويلية فإنّ المتلقّي يسلم من الضياع والتشتت بين نتائج القول المحتملة وإمكاناته المتعددة؛ مما يجعل العوامل أشبه ما تكون باللوحات الإرشادية أو الإشارات المرورية التي تعمل على سوق متلقيها نحو نقطة واضحة ومحدّدة^(٥).

وإذ تؤدي العوامل هذه الوظيفة المهمّة في الإقناع فإنّها لا تُخلّ بالقيمة الإخبارية للقول، إذ ينحصر دورها في تغيير القيمة الحجاجية للقول؛ فهي لا تضيف مضمونًا خبريًا جديدًا، وإنّما غاية

(١) ينظر: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، عز الدين الناجح، ط ١، ص ٣٠-٣١ (مكتبة علاء الدين، صفاقس،

٢٠١١م). وبمبحث: الحجاج والاستدلال الحجاجي، مرجع سابق، ص ٦٣١.

(٢) بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٣) ينظر: رسالة: الروابط والعوامل الحجاجية في رسائل الجاحظ، مرجع سابق، ص ٥٧.

(٤) ينظر: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مرجع سابق، ص ٣٥، ٦١.

(٥) ينظر: رسالة: الروابط والعوامل الحجاجية في رسائل الجاحظ، مرجع سابق، ص ٤٨.

ما تحدّثه هو شحن المضمون الخبري القائم وتحديده؛ ليؤدّي وظيفةً تتوافق مع الوجهة الحجاجية للخطاب^(١).

ومما سبق تظهر الحدود الفاصلة بين (الروابط الحجاجية) و(العوامل الحجاجية)؛ فإذا كانت مهمة الرابط الحجاجي هي الربط والتأليف بين العناصر الحجاجية في عامّة الخطاب فإنّ دور العامل الحجاجي مخالفٌ لهذه المهمة؛ من جهة أنّ وظيفته متمثلةٌ في حصر الإمكانيات الحجاجية للجملة الواحدة، وإبقاء بنيتها ملتحمة دون انفراط^(٢).

ولإيضاح فاعلية العوامل الحجاجية وطاقتها الاستدلالية في تحديد التأويلات وتقييدها، فإنّ الباحث يُورد الأمثلة الآتية:

١- ظننت محمدًا حاضرًا.

٢- أدّ زكاة مالك على الأقلّ.

٣- إنّما النصر الصبر.

فقد أدّى العامل (ظن) في المثال الأوّل إلى إقصاء جميع التأويلات المحتملة وتوجيه المتلقي نحو النتيجة المقصودة، في حين أنّ عدمَ وسمّ القول بالظن يوقع المتلقي في مأزق التعدّد والتشّتت بين تأويلاتٍ متعدّدة لا حصر لها، منها: المعنى الإخباري؛ الذي يفيد حضور محمدٍ، والمعنى الاستفهامي؛ الذي يفيد الاستعلام (محمد حاضرٌ؟)، كما قد يُفهم من جملة (محمدٌ حاضرٌ) تنبيه المتلقي ليأخذ أمر حضور محمد بالحسبان. ومثله العامل المعجمي (على الأقلّ) في المثال الثاني، إذ إنّ الاقتصار على قول: (أدّ زكاة مالك) يفتح أمام المتلقي مجال تأويلاتٍ أخرى متعدّدة، حيث يمكن تأويل القول بأنّ المتلقي من المحافظين على أداء الزكاة غير أنّه تهاون في شيء منها فجاء الأمر لطيفًا؛ لأنّ التهاون اقتصر على موقف واحد، وقد يُحمل القول أيضًا على معنى تكبير المتلقي بأداء زكاة ماله، إلا أنه بإضافة العامل (على الأقلّ) تنقلص التأويلات المحتملة لتتحصّر

(١) ينظر: رسالة: الحجاج اللساني وآلياته في نص الخطبة، مرجع سابق، ص ٦٥. وبحث: العوامل الحجاجية في شعر البردوني، مرجع سابق، ص ٤٢٣.

(٢) ينظر: الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص ٥٦. وأسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، مرجع سابق، ص ١٠٢. وبحث: العوامل الحجاجية في آيات الأحكام، مرجع سابق، ص ١٣.

الإفادة في أنَّ المعنيَّ من الممتنعين عن أداء الزكاة؛ فهو غير مُطالب بالصدقة ولكن يُحث على أداء الزكاة المفروضة. وتبرز في المثال الثالث القيمة الحجاجية للعامل (إنَّما)؛ ذلك أنَّ خلوَ هذا المثال منه يُشثت المتلقي ويشغل عقله بعدد من الاحتمالات غير المقصودة؛ إذ قد يذهب ذهنه إلى وجود أشياء أخرى غير الصبر تؤدي إلى النصر (التخطيط، العناد، الخبرة، المناجزة، المخاتلة)^(١).

وتتضم مقولة العوامل: بعض الألفاظ المعجمية نحو: (على الأقل، منذ، تقريباً، مجرد، وغيرها) والأدوات النحوية مثل: (ربما، كاد، قارب، لعل، ظنَّ، النفي، النفي والاستثناء، إنَّما، القسم، وسائر أدوات التوكيد)^(٢)، ويمكن دراسة هذه العوامل في ضوء تصنيفها إلى: (عوامل شكّية) و(عوامل يقينيّة).

(١) ينظر: رسالة: الروابط والعوامل الحجاجية في رسائل الجاحظ، مرجع سابق، ص ٥٧.

(٢) ينظر: اللغة والحجاج، مرجع سابق، ص ٢٧.

١-العوامل الشكّية (التقريبية):

وهي الألفاظ التي «لا تُعيّن-عمومًا-تحقق مقتضاها أو عدم تحقّقه»^(١)، وإنما تُستعمل للدلالة على ما استقرّ في النفس من الشكّ وعدم الجزم، ولإثبات انتفاء اليقين^(٢)، من قبيل (كاد، قارب، لعل، ظن، كأن، زعم)، وبهذه الصفة فإنّ دخول هذه العوامل على معمولاتها لا بدّ أن يغيّر وجهتها ويحدد نيتها؛ فنتيجة قطعك بقول: (أصبثُ الهدف) مُغايرة حتمًا لنتيجة قولك: (كدتُ أن أصيبَ الهدف)، وهكذا.

وحين يعدل الخطيب إلى هذه العوامل الشكّية فإنّه لا يُقدّم مضمونًا مُتحقّقًا، ومن ثمّ فإنّه لا يضمن صدق هذا المضمون ولا يلتزم به^(٣)، فضلًا عن كون هذه العوامل طريقًا إلى إكساب معمولاتها صبغةً موضوعيةً؛ من جهة عدم الجزم والتجرّد من الحكم، الأمر الذي يجعل القول على قدرٍ من النزاهة والبراءة والحياديّة التي تهَيّئ متلقيه للتّصديق والقبول^(٤).

وسيتناول الباحث فيما يلي ثلاثة من أهمّ تلك العوامل التقريبية في المدونة، وهي: (ظنّ) و(زعم) و(لعلّ):

١-أ-(ظنّ):

«الظن: هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض...، وقيل: الظن: أحد طرفي الشكّ بصفة الرجحان»^(٥)، ويُستعمل في المعاني التي لا تبلغ في النفس مبلغ الثقة الثابتة^(٦)، فيه يتحدّد مستوى اعتقاد المتكلم حيال القضية المطروحة وموقفه منها؛ إذا لا يمكن أن تخلو كلّ قضية مطروحة من

(١) توجيه النفي في تعامله مع الجهات والأسوار والروابط، مرجع سابق، ص ٥٥.

(٢) ينظر: الكتاب: سيوييه، عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٣، ج ١، ص ٤٠ (مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨هـ).

(٣) ينظر: توجيه النفي في تعامله مع الجهات والأسوار والروابط، مرجع سابق، ص ٦٦.

(٤) ينظر: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مرجع سابق، ج ١، ص ١٠٣٧-١٠٣٨. والحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٣١٧-٣١٩. ورسائل الإمام علي في نهج البلاغة: دراسة حجاجية، مرجع سابق، ص ١٧٥.

(٥) التعريفات، علي الجرجاني، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط ٢، ص ١٤٧ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ).

(٦) ينظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، ص ٩٩ (دار العلم والثقافة، القاهرة، ١٩٩٨م).

موقف مسجّل للمتكلم، فهو إمّا جازمٌ أو متردّدٌ أو محتملٌ أو مثبتٌ أو نافٍ لها^(١).

ومما ورد في المدونة موجّهًا بالظنّ، قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إحدى خطبه: ((ألا فمّن أظهر لنا خيرًا ظننّا به خيرًا وأثينا به عليه، ومن أظهر لنا شرًا ظننّا به شرًا وأبغضناه عليه))^(٢).

لئن كان علم سرائر النفوس مما اختصّ الله تعالى به نفسه، فإنّ مظاهر الناس موجبة للظنّ دون اليقين، وحين يُعبّر رضي الله عنه عن موقفه من فحوى القضية بـ(الظن) فإنّه إمّا رام بذلك الموضوعية، والتزام الحياد والإنصاف؛ فمجرد الظنّ بالخير موجبٌ لتحرّي العدل والإنصاف، كما أنّ مجرد الظنّ بالشرّ مستدعٍ لأخذ الحيطة والحذر؛ ذلك «أنّ الظنّ القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنّه لا حرج في الظنّ القبيح بمن ظاهره القبح»^(٣).

وفي هذا الظنّ براءة لدمته رضي الله عنه وحفظ لحقوق المظنون بهم؛ فمتى تحقق ظنّه فإنّه يكون قد بادر بالوفاء والجزاء، أمّا إذا وقع الأمر خلاف ظنّه فإنّ القول بالظن لا يقبل المُحاسبة ولا يحتمل التخبطة. إنّ إعلان الشك والتردّد يهَب للخطيب مساحة تقريبية حيادية تُخصّصه من تبعات الجزم بالحكم، وتجعل قوله قولاً موضوعياً صادقاً^(٤).

ومنه، قول عبد الملك بن مروان في خطبته لمّا دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير رضي الله عنه: ((أيها الناس، فاستقيموا على سبيل الهدى، ودعوا الأهواء المُردية، وتجنّبوا فراق جماعات المسلمين، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لا تعملون أعمالهم، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعدة إلا شرًا، ولن نزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة))^(٥).

فقد جاء الخطيب هنا بالظنّ على هيئة موجّهٍ منفيٍّ؛ ليبالغ في إخراج المتلقين من دائرة

(١) ينظر: رسائل الإمام علي في نصح البلاغة: دراسة حجاجية، مرجع سابق، ص ١٨١-١٨٢.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢١٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنته من السنة وآي الفرقان، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرين، ط ١، ج ١٦، ص ٣٣٢ (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٧هـ).

(٤) ينظر: توجيه النفي في تعامله مع الجهات والأسوار والروابط، مرجع سابق، ص ٦٦.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٩٤.

الانتفاع والاعتِاظ إلى دائرة الشرِّ والانتكاس، «فأثر النفي يدفع باتجاه تقوية الشك إذا عرفنا أنَّ الفعل (ظنَّ) في أصله لا يخرج عن دائرة الشك والتقريب؛ أي إنَّه في حالة النفي فإنَّ الفعل يردُّ الإثبات السابق، وهذا الإثبات لا يصل إلى درجة اليقين بما في اليقين من التزام، بل يظل مجرد درجة في سلّم الشك، ولكن هذه الدرجة في النفي غيرها في الإثبات، فهي تقترب من الحسبان والشك أكثر من احتمالية اليقين، فالخطيب يُحمِّل شكه شكًا آخر من أجل التعبير عن عدم التزامه بصدق مضمون كلامه»^(١).

والخطيب إذ يظن بالمتلقين شرًّا في هذا المقام فإنَّه يعلم «أنَّ إحسان الظن في مثل هذه الأحوال غير محمود؛ لأنه قد يوقع فيما لا يُحْدُ ضرُّه من اغترار في محل الحذر»^(٢)، فيكون حسن الظن طريقًا إلى التشعب والانفلات.

لقد أدّى الموجه الشكِّي المنفي دوره الاستباقي المهم في إفادة معنى التهديد بالعقوبة والتهيؤ لها، فإذا كان الخليفة على هذا القدر من عدم الثقة بهم فإنَّه سيكون متيقِّظًا لهم مُستعدًّا لمؤاخذتهم على أيِّ بادرة سوء تصدر من أحدهم، وإلى ذلك فإنَّ لعدوله عن القطع إلى هذا الظن أثره الإقناعي الظاهر؛ من جهة تضمنه معنى الإفساح للتائبين منهم، ومنحهم فرصة للرجوع والاستقامة.

ومنه أيضًا، ما ورد في خطبة الحجاج في أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم، إذ كان مما قال فيها: ((ألستم أصحابي بالأهواز حيث رُمتم المكر، وسعيتم بالصدر، واستجمعتم للكفر، وظننتم أنَّ الله يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرْفِي، وأنتم تتسللون ليوأذًا، وتنهزمون سِرَاعًا؟))^(٣).

أراد الحجاج بتلبيسهم الظنَّ-هنا-الإشارة إلى أنَّ كلَّ تربص بالخلافة وأملٍ بانحزامها إنما هو من قبيل الظن الباطل، والوهم الخاسر، مهما انعقد في النفس وتمكَّن منها وجرى العمل بمقتضى تحقِّقه؛ ذلك أنَّ «الظنَّ الباطل إذا تكرَّرت ملاحظته ومعاودة جولانه في النَّفس قد يصير علمًا راسخًا في النَّفس، فتترتب عليه الآثار بسهولة، فتصادف ما هو حقيقٌ بضدِّها»^(٤).

(١) رسائل الإمام علي في نهج البلاغة: دراسة حجاجية، مرجع سابق، ص ١٨٦.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج ٢٦، ص ٢٥٢ (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م).

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٩٣.

(٤) تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢٦، ص ٢٥٢.

وفي مجيء المظنون مؤكِّدًا بـ(أَنَّ) دليلٌ على انكسار أقوى الظنون وانخادها أمام حقيقة خلافة بني أمية، فلئن كان ظنّ المتشعِّبين مستحکمًا حائلًا دون فرض أيِّ احتمال؛ بفعل لِيْن الخلافة معهم واغترارهم بأنفسهم، فإنَّ ظنَّهم هذا قد أرداهم ولم يغنهم من حقِّ الخلافة شيئًا^(١).

وعلى منواله، قول داود بن عليٍّ في خطبته عندما ارتجَّ على أبي العباس (السفَّاح): ((أيُّها الناس، إنَّ أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قوله فعله، ولأثُرُ الفعّال أجدى عليكم من تشقيق المقال^(٢)، وحسبكم بكتاب الله مُمْتَنِّلاً فيكم، وابن عم رسول الله ﷺ خليفة عليكم، والله -قسماً بَرًّا لا أريد به إلا الله- ما قام هذا المقام أحدٌ بعد رسول ﷺ أحق به من عليٍّ بن أبي طالب، وأمير المؤمنين هذا، فليظنَّ ظانِّكم، وليهمس هامسكم))^(٣).

إنَّ الخطيب حينما يتقدّم بكلِّ هذه الأدلة المُثبِّتة لأحقية (السفَّاح) وجدارته، ثمَّ يقول: (فليظنَّ ظانِّكم)، إنّما قصد الدلالة بذلك على أنّ كلَّ ما تذهب إليه نفس أحدهم غير هذا اليقين الموثَّق، إنّما هو من قبيل الظن الآثم الباطل، المفتقر إلى القرائن، المتقاصر عن حدود العلم واليقين، فليس من الحقِّ في شيء^(٤).

ومن جانبٍ حجاجيٍّ آخر فإنَّ الأمر بالظنِّ في هذا الشاهد متضمّنٌ معنى الإحاطة بالمتلقين وكشف سرِّهم والهيمنة عليهم؛ ذلك من جهة استباقهم إلى ما توسوس به نفوسهم والدراية بما تُكُنُّ صدورهم، والإبطال القبليِّ لمفعول كلِّ ما ذهبوا إليه من ظنون^(٥).

بما سلف، فإنَّه يظهر ما لتوجيه القول بالظن من أثر في تحقيق الغاية الحجاجية، وذلك من حيث دور مقتضاه في توجيه المتلقين تلقاء نتائج مقاميةٍ مُحدَّدة، فهو تارة للاحتراز والتوقِّي، وتارة للاستباق وبيان ضعف الخصم وفساد معتقده وفشل مراده. إنَّه وإن كان للعلم نتائجه ومآلاته، فإنَّ للظن نتائجه ومقتضياته أيضًا.

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٥٦. وتفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢٦، ص ١٦٤.

(٢) شَقُّ الكلام: أخرجه من أحسن مخارجه. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٥، ص ٥٢٢.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١١.

(٤) ينظر: الظن بين الناس في القرآن الكريم: دراسة موضوعية، فلوة بنت ناصر الراشد، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد ١٧، العدد ١، ص ٣٠٦، ٣٠٩ (٢٠٠٤م).

(٥) الحجاج في الخطاب: مقاربات تطبيقية، مرجع سابق، ص ٤٠.

١-ب-(زعم):

والزَّعمُ: «القول بلا دليل»^(١)، وهو أحد الموجهات الشكّية التقريبية التي يكثر استعمالها «في الباطل»^(٢)، أو في «غير المستند إلى الوثوق»^(٣)، «مما يُشكُّ فيه ولا يُحقَّق»^(٤)، ويرتبط هذا العامل بالكذب ارتباطاً وثيقاً، فكثيراً ما يأتي الزَّعم عند العرب مناقضاً للصدق^(٥).

وتتجلّى الفاعلية الحجاجية لهذا العامل من خلال تحقيقه لاستراتيجية الهدم والبناء؛ إذ تُهدم به حجج المعترض وتُضعف، ويُؤسّس لحجج جديدة تقوم على أنقاض ما تم تقويضه؛ باعتبار الحجج الجديدة جواباً لازماً عن تساؤل اقتضاه العامل (زعم)^(٦).

وقد برز هذا العامل في عدد من مواضع المدوّنة، نحو قول عمر رضي الله عنه في إحدى خطبه: ((كنتم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوحي؛ فمن أسر شيئاً أخذ بسريرته، ومن أعلن شيئاً أخذ بعلايته، فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم، والله أعلم بالسرائر؛ فإنه من أظهر لنا قبيحاً وزعم أن سريره حسنة لم نصدق، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً))^(٧).

فإذا كان الزعم عند بعضهم: هو القول المخالف للواقع^(٨)، فإنّ في توجيه عمر رضي الله عنه القول بالعامل (زعم) قطعاً على هذا الصنف من الناس طريقهم في الغيّ والخداع، واستباقاً لكشف خباياهم، فهم كاذبون مخادعون؛ لأنّ فساد مظاهرهم دليلٌ على فساد مخابرتهم، وصلاح هذا بهذا.

ولأنّ من غير الإنصاف الحكم بفساد إنسانٍ ما بمجرد إظهاره لقبيحٍ من القبائح، فإنّه-في

(١) التعريفات، مرجع سابق، ص ١١٧.

(٢) أساس البلاغة، مرجع سابق، ص ٤١٥.

(٣) شرح الرضي على الكافية، رضي الدين محمد بن الحسن الأسترابادي، تحقيق: يوسف حسن عمر، ط ٢، ج ٤، ص ١٥١ منشورات جامعة قارونس، بنغازي، ١٩٩٦م).

(٤) لسان العرب، مرجع سابق، ج ٦، ص ٤٩.

(٥) ينظر: السابق، ج ٦، ص ٤٧.

(٦) ينظر: رسائل الإمام علي في نهج البلاغة: دراسة حجاجية، مرجع سابق، ص ١٧٨.

(٧) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢١٤.

(٨) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢٨، ص ٢٧٠.

المقابل أيضاً- لا يمكن الوثوق بتركيبه لسريرة نفسه مادام مُظهرًا لذلك القبيح؛ لذا فقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دقيقًا في اختياره للموجّه (زعم)، من جهة كشف تردّده وعدم ارتياحه، وتوزّعه عن الجزم والقطع، مع تنبيهه أهل القبائح على درايته بحقائق دواخلهم وفطنته لهم وعدم انطواء زعمهم عليه، وتنفيرهم من هذا السلوك المختلط^(١).

ومن الأمثلة أيضًا، ما ورد في خطبة خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لدى أمير الروم، إذ كان مما قال: ((الحمد لله الذي جعلنا نؤمن بنبينا ونبيكم وجميع الأنبياء، وجعل الأمير الذي وليناه أمورنا رجالًا كبعضنا، فلو زعم أنه ملك علينا لعزلناه عنّا، ولسنا نرى أنّ له على رجل من المسلمين فضلًا، إلا أن يكون أتقى منه عند الله وأبرّ))^(٢).

أراد خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يكشف لأمير الروم أهمّ مزايا الإسلام وأهله، فجاء بهذا القول ليجلّي به حقيقة عظيمة من حقائق الإسلام، ولئن أراد أحد المسلمين أن يجيد عن تلك الحقيقة فلن يكون له ذلك إلا على سبيل القول الباطل المرفوض ابتداءً، فكيف يصحّ له (الزاعم) اعتقاد ذلك وليس إلا رجالًا كبعضهم؛ لا يفضلهم إلا بتقواه وبرّه.

ولا يخفى على الناظر ما في تقييد الزعم بأداة الشرط (لو) من زيادة في تركيز المعنى وتثبيت مقتضاه، ذلك من جهة دلالتها على البعد؛ إذ إنّ شرطها محالٌ بعيد الوقوع؛ فالمسلم أبعد شيء من أن يعتقد ذلك، ومن ناحية أخرى فإنّ وقوع اللام في جوابها (لعزلناه) متضمنٌ معنى القطع والتأكيد بالردّ على فعل الشرط (الزعم) بفعل الجزاء (العزل)^(٣).

ومما جرى مجراه، قول عمرو بن سعيد الأشدق في خطبته لمّا غلب على دمشق: ((أيها الناس: إنّه لم يقم أحد من قريش قبلي على هذا المنبر إلا زعم أنّ له جنة ونارًا، يُدخل الجنة من أطاعه والنار من عصاه، وإني أخبركم أنّ الجنة والنار بيد الله؛ وأنّه ليس إليّ من ذلك شيء،

(١) ينظر: رسائل الإمام علي في نهج البلاغة: دراسة حجاجية، مرجع سابق، ص ١٧٦.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٥٠.

(٣) ينظر: معاني النحو، مرجع سابق، ج ٤، ص ٩٠-٩١، ٩٤.

غير أنّ لكم علي حسن المؤاساة^(١) والعطية^(٢).

قصد الخطيب أنّ يستفتح أمرته لأهل دمشق بهذا العقد السياسي الجليّ والواضح، فإن كان من قبله يلتمسون طاعة الناس لهم بهذا الادعاء الباطل، فإنّه إنّما يلتمس طاعتهم له بحسن المؤاساة والعطية؛ ذلك أنّ الجنة والنار بيد الله وحده، وليست لأحد من عباده.

ومتى حُقق النظر في هذه الخطبة القصيرة، اتضح أنّ الخطيب قد عُني فيها بالاقتصاد في اللغة، وتكثيف العبارة بما يهَيئ لهذا العقد الرسوخ وسهولة البلاغ، وكان من شأن هذا الاقتصاد أنّ عدل الخطيب إلى الموجه (زعم)؛ ذلك لِمَا يتضمّنه هذا الموجه من الـ«إشارة إلى الانتفاء»^(٣)، دون الحاجة إلى النصّ عليه.

وفي عِداده، ما جاء في إحدى خطب الحجاج في أهل الكوفة؛ إذ كان مما قال: ((زعمتم أنّي ساحر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ﴾، وقد أفلحت، وزعمتم أنّي أعلم الاسم الأكبر؛ فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون؟))^(٤).

كما في الأمثلة السابقة فإنّ حجاجية (زعم) ظهرت في هذا الشاهد من خلال فاعليته في الهدم والتمهيد للبناء:

المهدوم بالعامل (زعم)	الحجة المبنية على أنقاض المهدوم
أنيّ ساحر	وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ﴾، وقد أفلحت
أنيّ أعلم الاسم الأكبر	فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون؟

إنّه لا يمكن إغفال دور الموجه (زعم) في ترتيب القول وتدرّجه وتماسكه هدمًا وبناءً، كما يمكن اعتبار هذا العامل أحد المحكّات الحجاجية المعتمدة في قياس مدى نجاح القول وفشله في الإقناع؛ ذلك أنّ الهدم (التكذيب) يقتضي تعليلًا منطقيًا-ظاهرًا أو مضمّرًا- يُبرّر عدول الخطيب

(١) المؤاساة: الإصلاح. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٧، ص ٧٩.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٣١.

(٣) تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٥، ص ١١٠.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٩٥.

إلى التكذيب والهدم، وإلا لأصبح القول مجرد اعتراضٍ اعتباريٍّ خالٍ من مقوّمات الإقناع. ولئن كان حجاج المدوّنة في جزء منه إبطاليًّا مُركّزًا ومكثّفًا، فقد جاء الموجه الشكّي (زعم) غاية في تحقيق ذلك، بفعل ما يتضمنه من التكتيف والتوجيه، والترتيب والتماسك، ذلك إلى جانب بُعد الموضوعي الناتج عن حياديته واستلزامه التعليل والتبرير.

١-ج-(لعلّ):

وهو أحد العوامل الشكّية التي تُستعمل فيما يُتوقّع حصوله، فتوقّع المحبوب يُسمى (ترجيًّا) و(إطماعًا)، وتوقّع المكروه يُسمى (إشفاقًا)^(١)، وشأن هذا العامل في الحجاج شأن غيره من العوامل الشكّية؛ من جهة انتفاء الجزم ونقل المقول من دائرة اليقين إلى دائرة الشكّ.

وقد تكرر ورود هذا العامل في عدّة مواضع من المدونة، ومنها قوله ﷺ في خطبة الوداع: ((اسمعوا مني أُبين لكم؛ فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا))^(٢).

فرسول الله ﷺ وإن كان لا يعلم متى سيلحق بالرفيق الأعلى إلا أنّه أصدق الناس حدسًا وأقربهم من الحقيقة، وقد قصد ﷺ بطرقه لتلك الحقيقة التقريبية أن يوقظ أذهان السامعين، ويشدّهم إلى ما سيتلو هذا التوقّع؛ ليأخذوه بقوة.

«إنّ أخطر مُنطلقٍ حجاجي توافرَ لخطبة النبي في حجة الوداع قد تمثل في إخطاره أصحابه وجمهوره من المستمعين للخطبة أن خطبته هذه في هذا الموقف قد تكون الأخيرة...، إنّ هذا المُنطلق الحجاجي يبني إثارةً نفسية لدى المخاطب، فيرتسم هذا المخاطب أمام الخطيب مصغيًّا مستملاً منجذبًا إلى الخطاب، كما يسهم في تكوين اتجاه انفعالي حيال الخطاب، وغالبًا ما يكون موقفًا إيجابيًا يتحقق فيه التأثير والإقناع»^(٣).

ومن ذلك، أنّ أبا بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خطب بعد البيعة، فكان من قوله في تلك الخطبة: ((يا أيها الناس، إنّما أنا مثلكم، وإنّي لا أدري لعلكم ستكلفوني ما كان رسول الله ﷺ يُطبق، إنّ الله

(١) ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٠، ص ٣٧٢. ومعاني النحو، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٠٤.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٥٥.

(٣) آليات الحجاج في خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، هاني علي سعيد، مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الرسالة ٤٤٠، الحولية ٣٦، ص ٣٣-٣٤ (ديسمبر ٢٠١٥م).

اصطفى محمداً على العالمين، وعَصَمَهُ من الآفات، وإِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ وَلست بمبتدع، فَإِن استقمت فتابعوني، وَإِن زَعْتِ فَقَوِّمُونِي))^(١).

فإذا كان أمرُ المستقبل إلى الله ﷻ فَإِنَّ أبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد عدل إلى العامل (لعلَّ) احتراساً من الجزم على أمرٍ غيبيٍّ، واعتراضاً وإبطالاً استباقياً لِمَا قد يبدو من أحدهم؛ فقد كانوا مع نبيٍّ معصوم وهم الآن مع مُتَّبِعٍ يَقَوِّمُونَهُ إذا ضلَّ طريق الاتِّباع، ويؤازرونه إذا وافق الحقَّ.

لقد منح العاملُ (لعلَّ) القولَ في هذا الشاهد «تطلُّعا أو توقُّعا مجالَه زمان ما بعد القول، إنَّه تطلع ذهني يفارق الواقع الراهن (زمن القول) إلى ما يفترضه الذهن قبل حصوله، وهو تطلع متصل باعتقاد المتكلم»^(٢) المستقرَّ.

ومنه أيضاً، ما ورد في إحدى مواعظ عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذ يقول: ((فإنَّه والله ما بُسِطَ أَمَلٌ من لا يدري لعله لا يصبح بعد إمسائه، ولا يمسي بعد إصباحه))^(٣).

إنَّ في العامل (لعلَّ) في هذا الشاهد تذكيراً ظاهراً للمتلقين وتنبهً جلياً لهم، ذلك أنَّ الأجلَ أمرٌ محسوم، وحياة المسلم في الدنيا حياة تقريبية لا تبلغ اليقين، فمادمت لا تدرين متى تنتفضي آجالكم فعليكم بالعمل والطاعة استعداداً لمباغطة الموت.

لقد سمح هذا الموجه التقريبي/ الشكِّي للخطيب بممارسة دوره في الإرشاد والتوجيه؛ ذلك أنَّ قرب مُفارقة الدنيا لا بدَّ أن يستثير المتلقي ويحركه إلى تحقيق النتيجة المقصودة من الحذر من التمادي والمبادرة بالأعمال الصالحة، وإلى ذلك فقد أكسب درءُ الجزم بهذه القضية الخطابَ صفة الموضوعية، وكفل حصول مبدأ التعاون بين الخطيب والمتلقي، من جهة اشتراكهما في العجز عن العلم بوقت حصول الموت، الأمر الذي يُبرهن على حجاجية الشكِّ وأهميته^(٤).

ومن قبيله، ما جاء في معرض خطبة يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب حين ولي الرشيد

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٨١.

(٢) الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب: (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة-دراسة تداولية، ابتسام بن خراف، أطروحة دكتوراه، ص ٢٦٩، جامعة الحاج لخضر، الجزائر، باتنة، (٢٠٠٩م-٢٠١٠م).

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٠٩.

(٤) ينظر: رسائل الإمام علي في نهج البلاغة: دراسة حجاجية، مرجع سابق، ص ١٨٥.

الخلافة، حيث كان مما قال: ((وهو-أمتعته الله بالنعمة، وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة، وتولاه بما تولى به أوليائه وأهل طاعته-يعدكم من نفسه الرأفة بكم، والرحمة لكم، وقَسَمَ أعطياتكم فيكم عند استحقاقكم، ويئذُل لكم من الجائزة، مما أفاء الله على الخلفاء مما في بيوت المال، ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهرًا، غيرَ مُقَاضٍ لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم، وحاملًا باقي ذلك-للدفع عن حريمكم وما لعلَّه أن يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين-إلى بيوت الأموال، حتى تعود الأموال إلى جِمامها وكثرتها والحال التي كانت عليها))^(١).

في حين أنه يستحيل الجزم على أمرٍ مستقبليٍّ، ولَمَّا كان استبقاء المال وخزنه محلًّا للسؤال، فإنَّ الخطيب قد عدل إلى الموجَّه (لعلَّ)؛ ليكون إجابةً دقيقة ومُتقنعة عن هذا السؤال، فحفظ هذا المال إثمًا هو على سبيل الجزم وإعداد العدة في سبيل تصدّي الخلافة للعصاة والمارقين.

وإلى ذلك، فإنَّ في العامل (لعلَّ) مخرَجًا للخطيب من جهة اجتنابه الالتزام بالمضمون التزامًا كليًّا، ومن جهة توقُّيه بعض إمكانات الإخفاق، إذ لو أنه كان متأكدًا لعدل إلى ألفاظ اليقين والجزم، فهو إذ يوجَّه قوله بهذا العامل الشكِّي إنما يجعله سبيلًا للإخبار على سبيل التوقُّع المستلزم لاستبقاء المال وعدم بذله، دون ترك أدنى فرصة للرجوع إليه (الخطيب)، أو محاسبته في شيء من مضمون هذا الإخبار، فكلامه على هذه الصفة التقريبية إنما هو بمثابة اعتذار مسبق للمتلقّي في حال بدا الأمر خلافًا للمتوقَّع^(٢).

ومما تقدّم يتضح أنّ القول الموجَّه ب(لعلَّ) قولٌ تقريبيٌّ خالٍ من مسؤولية الالتزام والتحقُّق، وبالعلم بحدود معرفة الإنسان، وبخفاء المستقبل عنه، تُستيقن أهمية مثل هذا الموجَّه في ترجمة الحدس والكشف عن التطلّعات المستقبلية.

ولئن اقتصر البحث على هذا العدد المحدود من الموجَّهات الشكِّيَّة، فإنَّ فيما وُقِفَ عليه منها كفاية في الدلالة على أهمية هذا النوع من الموجَّهات؛ ذلك أنّها تسمّ الحجاج بالمحايدة، وتُمكن الخطيب من طرُق باب الظنون ومعالجة الشكوك مع حمايته من المساءلة وتبرئته من الالتزام.

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٨٢.

(٢) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٣٩٨. والحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية،

مرجع سابق، ص ٣١٩.

٢- العوامل اليقينية:

وهي العوامل التي تُفيد التوجيه بالقطع وعدم التردد في دلالة معمولاتها، ويضم هذا الصنف مجموعة من العوامل، منها: (أدوات النفي، أدوات الحصر، أدوات التوكيد).

وفيما يلي فإنَّ الباحث سيقف على أهمِّ العوامل اليقينية التي شكَّلت ورودها ظاهرة في المدونة، مُراعياً اختصاص المبحث الثالث (مبحث: التوكيد) بالعوامل التوكيدية.

٢-أ- عوامل النفي:

النفي: «أسلوب يهدف إلى نقض الكلام وإنكاره بصيغ وأدوات معروفة في العربية، تُناسب المقام وأغراض المتكلمين»^(١)، وهو بهذه الصفة نقيض الإثبات، و«شطر الكلام كِلِّه، لأنَّ الكلام إمَّا إثبات أو نفي»^(٢).

والنفي في الحجاج: «تلقُّظٌ على تلقُّظٍ، فهو توجيه على توجيه؛ لذلك فإنَّه بمجرد إدماج عامل النفي تتحدد النتيجة (ن) بسرعة»^(٣)؛ «فمحتوى القضية بلفظها لم يتغير سوى بتغيير النتيجة من جراء سلطة العامل عليها»^(٤)؛ وعليه فإنَّه لا بدَّ أن يحضر النفي بصفته خادماً لنتيجة ما؛ إذ «لا يُصوَّر نفي مطلق، ولا نفي شيء فقط، بل تحتاج إلى قيدين كقولك: نفي شيء عن شيء»^(٥)، ونتيجة لهذا التوجيه المحدد والمقيّد فإنَّ المتلقي لن يجد حرجاً أو يحتاج إلى كدّ ذهنه في إدراك المقصود.

ولا يقتصر دور النفي في الحجاج على التحديد والتقييد؛ إذ تظهر طاقته الحجاجية أيضاً في دلالاته المكتنفة، من حيث تضمنه معنى نقض الفكرة المعارضة وهدمها، وتحويل القضية الصائبة إلى قضية خاطئة، والقضية الخاطئة إلى قضية صائبة، ومن حيث تحميل المُعترض مشقّة التنفيذ،

(١) أساليب النفي ودلالاتها في شعر (راشد حسين): دراسة أسلوبية وإحصائية، وفاء يعقوب، رسالة ماجستير، ص ٣٢، جامعة بيرزيت، فلسطين (١٤٣٨هـ).

(٢) البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٧٥.

(٣) العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مرجع سابق، ص ٥٠.

(٤) السابق، ص ٤٨.

(٥) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط ١، ص ٣٦٧ (دار المدني، جدة، ١٤١٢هـ).

مما يجعل أسلوب النفي طريقًا مهمًا من طرق التنفيذ والمعارضة^(١).

وقد يتجاوز النفي مهمته الرئيسة في السلب إلى مجرد التشكيك في القضية، ف«المتكلم يرِدُّ في جانب من نفيه كلام المخاطب المثبت، وإذا كان المخاطب المثبت يعتقد في (ض)، وله أسباب ودواعٍ تجعله يصدّق بها، فليس من اليسير بمجرد ترديد كلامه ونفيه أن يُحمل على تغيير اعتقاده»^(٢)، ولكن حسب المتكلم النَّافي أن ينقله (المخاطب) من دائرة اليقين بالقضية إلى دائرة الشكِّ بها.

وإن استوت الدلالة الإخبارية (أنفي حصول كذا) مع دلالة النفي (لم يحصل كذا) «فإنَّ الدلالة الإنشائية الحرفية على النفي أقوى من الدلالة المعجمية عليه؛ بما أنَّ الجملة كلّها تُختزل من حيث القوة الإنشائية في الصدر^(٣)»^(٤).

ومن جهة اتحاد القول وانسجامه، فإنَّ للنفي دوره المهم في سبك القول الحجاجي وترتيب أجزائه؛ ذلك أنَّ معنى النفي يتضمن جميع ما يقع في حيزه من أجزاء الجملة، وبهذا التشريك لأجزاء الجملة في معنى النفي فإنَّ الجملة تكون أكثر تماسكًا وأقوى ارتباطًا في سبيل أداء معناها^(٥).

وإلى جانب تلك المعاني الحجاجية، فإنَّ النفي أحدُ الأبنية الحجاجية التي تسمح للمعترض بالاشتراك-غير المباشر- في إنتاج الحجاج؛ ذلك أنَّه «يدلُّ على تعدد الأصوات؛ إذ يسمَح للمتكلم بالتعبير المتزامن عن الصوتين المتقابلين، الصوت الذي يتبنى جانب الإثبات [صوت المتلقّي المعترض]، وصوت المتكلم المتبني للنفي، فالنفي يشير إلى إثبات ضمني ويرد عليه؛ مما

(١) ينظر: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مرجع سابق، ص ٤٧-٤٨. وبلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٢٢٣. الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، شايم بيرلمان، ترجمة: الحسين بنوهاشم، ط ١، ص ١٢٢ (دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٢٢م).

(٢) إنشاء النفي وشروطه النحوية الدلالية، شكري المبخوت، ص ١٧٦ (مركز النشر الجامعي بجامعة منوبة، تونس، ٢٠٠٦م).

(٣) أي موضع النفي من الجملة.

(٤) توجيه النفي في تعامله مع الجهات والأسوار والروابط، مرجع سابق، ص ٨٣.

(٥) ينظر: أسلوب النفي في بعض الأحاديث النبوية الشريفة: (صحيح مسلم) أمودجًا، أسماء عبد الباقي محمد، مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد، العدد ١٠٢، ص ١٨٩ (٢٠١٢م).

يجعله تجليًا واضحًا لتعدد الأصوات في الخطاب»^(١).

وسيقف الباحث-فيما يلي-على خمسة من أشهر عوامل النفي المستعملة في المدونة:

أ-١- (لا):

وهي «أصل النفي»^(٢)، وأشهر عوامله وأعرقها استعمالاً^(٣)، وتدخل على الجمل الاسمية والفعلية؛ لذا فإنها كثيراً ما كانت زاداً لخطباء المدونة في تقرير قضاياهم وتأكيد نفي ما سواها من الاستلزمات والاحتمالات غير المقصودة، من قبيل ما ورد في إحدى خطبه عليه السلام إذ يقول: ((فإنَّ العبد بين مخافتين: أجلٍ قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه، وأجلٍ باقٍ لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشيبه قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات))^(٤).

لقد كان لتكرار النفي بـ(لا) في هذا الشاهد وقُوعه الحجاجي ونفعه التأثيري، من حيث مضاعفة التوجيه والتأكيد على أمرين محددين لا فكاك منهما؛ فأنتم أيها الأحياء مرتهنون بزمنين: زمنٍ مضى لا تدرون هل يعاقبكم الله عليه أو يعفو عنكم، وزمنٍ باقٍ لا تدرون ما كتب الله لكم فيه من التوفيق أو الخسران، فكونوا على وجلٍ وتزوّدوا من العمل لعلَّ الله أن يرحمكم ويجزيكم خيراً^(٥).

إنَّ في سلب الدّراية سدّاً على المتلقين وحيلولةً دون جميع آرائهم وأصواتهم المخالفة وردّاً لها، فما دتمت أيّها المتلقون لا تدرون ذلك ولا تعلمونه، فليس أمامكم إلاّ توقّي المنكرات والمبادرة بالصالحات^(٦).

(١) بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، ص ٩٤ (علم المعرفة، الكويت، ١٩٩٢م).

(٢) البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٧٩.

(٣) ينظر: معاني النحو، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٦٨.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٥٢.

(٥) ينظر: شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنيّة بالمنح المحمدي للعلامة القسطلاني، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، ط ١، ج ١٠، ص ٥١٢ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ).

(٦) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٤٢٨.

ومن قبيله، أنه لما قرأ مسلم بن عقيل رضي الله عنه^(١) على أهل الكوفة كتاب الحسين رضي الله عنه إليهم ((قام عابس بن أبي شبيب الشاكري، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنني لا أخبرك عن الناس، ولا أعلم ما في أنفسهم، وما أعزك منهم، والله أهدتك عما أنا موطن نفسي عليه، والله لأجيبنكم إذا دعوتكم، ولأقاتلن معكم عدوكم، ولأضربن بسيفي دونكم حتى ألقى الله، لا أريد بذلك إلا ما عند الله))^(٢).

فحيث تهاوى أهل الكوفة وتولى قعودهم عن نصره علي رضي الله عنه وآله، فإن عابسا أراد من خلال هذا النفي الاستهلاكي اللافت أن يخلص نفسه ويبرئها مقدما من جميع ما يمكن أن يحصل من أهل الكوفة من تراجع وتخاذل في نصره الحسين رضي الله عنه.

ولا يخفى ما انطوى عليه النفي في هذا الشاهد من معنى التشديد على الالتزام بالنصرة والمناصرة، ذلك أن نفي الخطيب جاء في معرض إثبات استقلاله بنفسه عن أهل الكوفة، ومتى استقل المرء بنفسه خاصة كان عليه من المسؤولية والعهدة ما لا يكون على الواحد الداخل في الجماعة من الناس، فضلا عما في هذا الاستقلال من معاني الاكتفاء والاعتناء بالنفس.

وإن بدا ظاهرياً استواء الجملتين: (أجهل ما في أنفسهم) و(لا أعلم ما في أنفسهم) من حيث الإفادة، فإن لاختيار الخطيب نفي العلم معنى حجاجياً لا تحمله جملة الإثبات، ذلك أن نفي أفعال الاعتقاد تجنباً للتصريح بالاعتقاد ورداً على من يجعل للخطيب اعتقاداً يصدر عنه، ولكأن الخطيب بذلك يجعل نفسه في نقطة محايدة بين العلم والجهل، فيخرج نفسه من مسؤولية

(١) أبو يزيد، مسلم بن عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب رضي الله عنه، صحابياً جليلاً أسلم بعد الفتح، قدمه الحسين رضي الله عنه إلى الكوفة حين كاتبه أهلها ودعوه إليها، فأتى (مسلم) الكوفة واختلفت إليه الشيعة، فأمر يزيد بن معاوية عبید الله بن زياد بن أبيه بطلب ابن عقيل ونفيه إذا ظفر به أو قتله، وأن يتيقظ في أمر الحسين رضي الله عنه ويكون على استعداد له، وكان من أمر مسلم أن تفرق عنه الناس، وعثر عليه بعد طلبه، فلما أدخل على ابن زياد قال: يا بن عقيل أتيت لتشتيت الكلمة؟ فقال: ما لذلك أتيت، ولكن أهل المصر كتبوا أن أباك سفك دماءهم، وانت هك أعراضهم فجئنا لنأمر بالمعروف، وننهي عن المنكر، فقال: وما أنت وذاك، وجرى بينهما كلام فقتله. ينظر: جمل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، تحقيق: سهيل زكار، ورياض زركلي، ط ١، ج ٢، ص ٣٢٧، ٣٣٤-٣٣٩ (دار الفكر، بيروت، ١٤١٧هـ).

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣٧.

العلم وتبعات الجهل^(١).

ونحوه، قول عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في إحدى خطبه القصيرة: ((أيها الناس، إنما يُراد الطيب للوجع الشديد، ألا فلا وجع أشدُّ من الجهل، ولا داءٌ أخبثُ من الذنوب، ولا خوفٌ أخوفُ من الموت))^(٢).

لئن كان الخطاب الشفاهي مظنةً النسيان والتشتت والضياع، فقد أراد عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لهذه الخطبة أن تبقى زادًا مُرَكَّبًا ومُكثَّفًا يسهل حمله والاحتفاظ به، وكان النفي بـ(لا) طريقه إلى ذلك؛ بفعل ما في النفي بـ(لا) من مبالغة واختزال واختصار؛ من جهة ما ذهب إليه بعضهم من أنَّ علةَ عمل (لا) عمل (إنَّ) هو تشابههما الناتج عن حملهما معنى المبالغة^(٣)، ومن جهة كون تلك المنفيّات إجابات صريحة لأسئلةٍ مُقدَّرة على لسان المتلقين (أي الوجع أشد، وأيِّ الداء أخبث، وأيِّ الخوف أخوف؟)؛ مما يجعل هذه الخطبة تُشكِّلُ تقاؤلاً نصفه منطوق مقول، ونصفه الآخر ضمنيٌّ مُقتضى^(٤).

وبالقول بأنَّ (لا) تحتاج دائماً إلى الأسماء النكرة المفتوحة وغير المُحدَّدة، فإنَّ النفي في هذا الشاهد متضمنٌ معنى العموم والإطلاق، والشمول والاستغراق، إنَّ على سبيل المُسمَّى (وجع..داء..خوف)، وإنَّ على سبيل موضع المُسمَّى من الزمن؛ إذ لا ينحصر هذا النفي على نفي الوجود في زمن مُعيَّن، بل هو نفيٌّ دائم ومطلق يشمل الأزمان الثلاثة: (الماضي، الحاضر، المستقبل)^(٥).

(١) ينظر: توجيه النفي في تعامله مع الجهات والأسوار والروابط، مرجع سابق، ص ٦٨.

(٢) السابق، ج ٢، ص ٢٠٧.

(٣) ينظر: شرح الرضي على الكافية، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٦٠.

(٤) ينظر: توجيه النفي في تعامله مع الجهات والأسوار والروابط، مرجع سابق، ص ١٢. و(ما) و(لا) النافيتان والفرق بينهما، مكي الحسني، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٩٢، الجزء ٣-٤، ص ٤٩٧ (٢٠١٩م).

(٥) ينظر: شرح المفصل للزمخشري، يعيش بن علي بن يعيش الموصلبي، تحقيق: إميل بديع يعقوب، ط ١، ج ٢، ص ٩٧ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ). وتوجيه النفي في تعامله مع الجهات والأسوار والروابط، مرجع سابق، ص ١٠٣. ومعجزة النفي في اللغة العربية، العربي بيلوش، مجلة أبحاث لسانية، العدد ٣٣، ص ١٣٥ (٢٠١٧م). والدلالة الزمنية لـ(لا) النافية للجنس في القرآن الكريم، إسحاق رحمانى وصديقة دريانورد، مجلة الممارسات اللغوية، العدد ٣٩، ص ٩١ (٢٠١٧م).

وعلى إثر هذا التناول الموجز، فإنه يجدر الاعتراف بالقيمة الإقناعية للنفي بـ(لا)؛ حيث كشف التحليل والتعليل عن أهميتها التوجيهية البالغة في تحديد المعنى ومضاعفة تركيزه، وإلغاء التقديرات الأخرى؛ مما يُبرّر القول بأنّ العدول إلى هذا العامل إنما هو عدولٌ حجاجيٌّ لا يمكن أن يخلو من قصد الإقناع والتأثير.

أ-٢- (ما):

وهي وإن كانت أقلّ من سابقتها استعمالاً إلا أنّها تتفق معها في الدخول على الجملتين: الاسمية والفعلية؛ لذا فإنّها تمثّل عاملاً توجيهياً بارزاً في المدونة المدروسة، ومما وقف عليه الباحث منها، قول الحسن رضي الله عنه يرد على مستنكري الصلح: ((أما بعد، فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا، ومن عرفه بالنصيحة والاستقامة لنا، وقد فهمت ما ذكرتم، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا وللدنيا أعمل وأنصب، ما كان معاوية بأبأس مني وأشدّ شكيمة، ولكان رأيي غير ما رأيتم، لكّني أشهد الله وإياكم أيّ لم أُرِدْ بما رأيتم إلا حقن دماءكم، وإصلاح ذات بينكم))^(١).

لأنّ الحسن رضي الله عنه في مقام ردّ ودفع، فقد اختار النفي بـ(ما) ليقطع به جميع الظنون والأوهام التي ساورت نفوس المتلقين بشأن جنوحه إلى المصالحة طمعاً؛ فلو كان يطلب الدنيا- كما يظنون- لما سبق إليها، ولما غلب عليها، ولكنّه أراد ما فيه صلاح شأنهم، وجمع كلمتهم، وحقن دماءهم. ولئن كان يصحّ لغةً جريانُ القول على هذا التركيب (ما كان معاوية أبأس مني وأشدّ شكيمة)، فإنّ زيادته رضي الله عنه لحرف الجر (الباء) إنّما جاءت على سبيل مضاعفة توكيد المعنى وترسيخه وتقديره^(٢). ولا يخلو هذا النفي المؤكّد من معنى التعريض وذمّ كلّ من سخر قوته وبأسه في ملاحقة الدنيا والاستكثار منها.

ومما جرى مجراه، أنّ المختار الثقفي خطب الناس يدعوهم إلى نفسه، فكان مما قال: ((ألا فادخلوا أيها الناس فبايعوا بيعة هدى، فلا والذي جعل السماء سقفاً مكفوفاً، والأرض فجاءاً

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٦.

(٢) ينظر: معاني النحو، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٠.

سبلاً، ما بايعتم بعد بيعة عليّ بن أبي طالب وآل عليّ أهدى منها))^(١).

سعى المختار إلى باطله بحق آل البيت عليهم السلام، فأراد من خلال خطبته تلك أن يُدرج نفسه ويُقحمها في هذا الأمر؛ مُقسماً وناقياً ب(ما)- التي «تتمتع بخاصية نفى كلّ المحتوى القضوي الذي يليها»^(٢)- شرعية كلّ بيعة بايعها المتلقون بعد بيعة عليّ وآله عليهم السلام؛ ليثبت ويؤكد- بفعل ما يحمله النفي من إثبات ضمني- صحة بيعتهم له (المختار)، فمن أراد سبيل الهدى فليبايعه وليرض بولايته، وليس غير الهدى إلا الضلال.

وإذ يحمل المضارع معنى المعاودة والتجدد، فإنّ في اختياره للفعل الماضي (بايع) وعدوله عن المضارع منه دلالة حجاجية لطيفة؛ إذ يحمل المُضَيّ معنى الدلالة على انتهاء الحدث وانقطاعه، ولكأنّ المختار- بهاتين الدالتين- يُشيرُ إلى أنّ كلّ ما كان من أمر خروج الولاية عن عليّ وآله عليهم السلام إنما هو من قبيل المخالفات التي انتهى زمانها، فلن تعود ولن تتكرّر^(٣).

ومما يندرج فيه، قول عُقْبَةُ بن حديد التَّمْرِي إذ خطب أهله وأصحابه يوم (صَفَيْن) فكان مما قال: ((أستبدلون الدنيا بالنظر في وجه الله عز وجل، ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في دار القرار؟ ما هذا بالرأي السديد!))^(٤).

لئن كانت الأنفس عُرضة للاهتزاز والتبدّل في حال الحرب والقتال، فإنّ الخطيب قد استبق أصحابه إلى القطع بخطل ما قد تسوّل لهم نفوسهم به من أمر الركون إلى الحياة الدنيا والميل لها، فليس ذلك من السداد في شيء.

ولئن استوت (ما) في هذا الشاهد مع (ليس) في أداء معنى النفي، فإنّ لتفضيل الخطيب (ما) على (ليس) دلالة مقامية مهمة؛ إذ إنّ (ما) «أكد من (ليس)؛ فإنّها تقع جواباً للقسم، تقول: (والله ما هو بمنطلق) بخلاف (ليس)»^(٥)، ولا شك أنّ قوة تعلق الأحياء بالدنيا وارتباطهم

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٨٥.

(٢) (ما) النافية: بنائها الدلالية والتركيبية، مصطفى منباني، مجلة إحالات، العدد ٧، ص ١٥٢ (٢٠٢١م).

(٣) ينظر: معاني النحو، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٩٥.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٦٤.

(٥) معاني النحو، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٩٣.

بها مفتقرٌ إلى نفيٍ مؤكّد؛ فالنفي إنّما يُبنى على حسب الإثبات^(١).

ومنه، أنّ سائلاً أعرابياً وقف في المسجد الجامع بالبصرة فكان من قوله: ((قَلَّ النَّيْلُ، وَنَقَصَ الكَيْلُ، وَعَجَفَتْ^(٢) الخَيْلُ، وَاللّهُ مَا أَصْبَحْنَا نَنْفَخُ فِي وَضَحِ^(٣)، وَمَا لَنَا فِي الدِّيوانِ^(٤) وَشِمَّةً^(٥)))^(٦). إذا كانت (ما) تأتي في سياق الرّدّ على القول أو ما أنزل منزله^(٧)، فقد رامَ هذا الأعرابي بالنفي من خلالها دفع الاتهامات المقدّرة التي قد تطرأ في مثل هذا المقام—من قبيل: لديكم من اللبن ما يقيم أودكم، أو: معكم من المال ما تمارون به—ذلك أنّهم عَدَمُوا الغداء (اللبن)؛ بسبب نفوق دوابّهم وتأخر المطر عنهم، وأنّهم ليس لديهم أدنى مصلحةٍ مقيدةٍ في سَجَلِ الخِلافة (ما لنا في الدِيوان وشِمَّة).

ولا يعدم الناظر في هذا الشاهد اختلاف الدلالة الحجاجية للنفيين من جهة الاسمىة والفعلىة، إذ إنّ في عدول السائل إلى الفعلىة في النفي الأول (ما أصبحنا ننفخ في وضح) معنى التغيّر والتبدّل، ومعنى قُرب عهدهم بالمصيبة؛ إذ الأغلب مجيء (ما) لنفي الماضي القريب^(٨)، وتلك معانٍ مقصودة في هذا المقام، من جهة طروء الحال وحدثان السؤال؛ فليس السؤال من دأبهم إلا أنّ تغيّر الحال القريب قد قاده حتّمًا إلى السؤال، كما أنّ في عدول الخطيب إلى الاسمىة في النفي الثاني (ما لنا في الدِيوان وشِمَّة) معنى ثبوت حال حرمانهم من العطاء الذي قد يغنيهم—لو وُجدَ—عن السؤال.

وإنّ كان من المتقرّر أنّ اللغة اختيارٌ مقصود، فإنّ اختيار الخطيب لـ(ما) وعدوله عن (لا) النافية، إنّما هو اختيارٌ مقاميّ إقناعيّ؛ ذلك أنّ العبارة المنفية بـ(لا) إنّما تكون جوبًا لسؤال مجهول الإجابة، حاصل أو مقدّر (هل من وضح تنفخون فيه، وهل لكم في الدِيوان عطاء)، في حين

(١) ينظر: توجيه النفي في تعامله مع الجهات والأسوار والروابط، مرجع سابق، ص ١١.

(٢) عَجَفَتْ: هزِلَتْ. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٤، ص ١٢٧.

(٣) الوَضَح: اللبن، سمي وضحًا لبياض لونه. ينظر: السابق، ج ٧، ص ٢١٢.

(٤) الدِيوان: الكتاب يُرصد فيه أهل الجيش وأهل العطيّة. ينظر: السابق، ج ٣٥، ص ٣٥.

(٥) وشِمَّة: كلمة أو لفظ، يُقال: وَمَا عَصَيْتُهُ وَشِمَّةً، أي: كَلِمَةً. وهي أيضًا: الخطُّ. ينظر: السابق، ج ٣٤، ص ٥٢.

(٦) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٢٦٥.

(٧) ينظر: معاني النحو، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٩٤.

(٨) ينظر: بحث: (ما) و(لا) النافيتان والفرق بينهما، مرجع سابق، ص ٤٩٧.

تأتي العبارة المنفية بـ(ما) بصفتها ردًّا على قولٍ وتصحيح ظنٍّ، وهي-من هذا الوجه-أقرب إلى مقام خطبة الأعرابي؛ إذ هو مقام دفع لا بيان^(١).

ولعلَّ في هذا تناول ما يكفي للدلالة على القيمة الإقناعية لـ(ما) النافية، فهي وإن كانت حرفًا من جملة حروف النفي إلاَّ أنَّه تكرر ظهورها مرتبطة بمعنى مقاميٍّ خاصٍّ بها يُبرِّز اختيارها ويُعلِّل تفضيلها المقامي على غيرها من أدوات النفي.

أ-٣-(ليس):

وهي مختصة بنفي الجملة الاسمية، وتأتي بمعنى نفي الحاضر والمستقبل^(٢)، وقد تكرر استعمال هذه الأداة في أكثر من موضع من مواضع المدونة، من قبيل ما ورد في جواب قيس بن سعد-في وقعة (صقين)-على النعمان بن بشير-رضوان الله عن الصحابة أجمعين-إذ يقول: ((وانظر أين المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ثم انظر هل ترى مع معاوية غيرك وصويحك، ولستما والله بدرين ولا عَقَبَيْن^(٣)، ولا لكما سابقة في الإسلام، ولا آية في القرآن))^(٤).

إنَّ المتأمل في هذا القول يدرك دور النفي في أداء معنى المعارضة وتحديد الوجهة، وإلزام الخصم وإفحامه، فلئن اشترك الطرفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في الصُّحبة، فقد جاء النفي بـ(ليس) على سبيل الردِّ على كلِّ ما قد يُذهب إليه من التساوي والتكافؤ، وهو ما تتحقق به النتيجة النهائية من القول (أصحاب عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خيارُ الأمة ومأرز الحق).

وإنَّ كان هذا المقتضى الحجاجي حاصلًا بالإثبات أيضًا (إنَّ معنا من شَهد بدرًا والعقبة)، فإنَّ عدول الخطيب عن الإثبات إلى النفي بـ(ليس) متضمنٌ معنى الإثبات مع التأكيد على خلوّ جيش معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من هذا الصنف من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، ذلك إلى جانب مناسبة أسلوب النفي ومشاكلته لمقام المنافسة والمدافعة، من جهة دلالاته على الردِّ وسلب إمكانية الخصم وإظهار نقصه

(١) ينظر: السابق، ص ٤٩٢.

(٢) ينظر: معاني النحو، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٩٠.

(٣) لستما ممن حضرا بدرًا ولا بيعة العقبة.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٦٧.

وافتقاره.

ومن قبيله، ما جاء في معرض خطبة المختار الثقفي وقد استنصره محمد بن الحنفية رضي الله عنه، حيث خطب الناس في هذا المقام فكان من قوله: ((ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصرًا مؤزرًا، وإن لم أسرب إليهم الخيل في إثر الخيل، كالسيل يتلوه السيل))^(١).

فقد بلغ من جدية المختار في هذا الأمر أن ألغى بالنفي ذاته وأبطلها على رؤوس الأشهاد، وذلك في حال تراجع عن نصر أهل البيت أو التهاون في المدافعة عنهم، وهو بتلك المبالغة الطاغية إنما يعاهد المتلقين على النصره ويؤكد عزمه عليها مهما كانت الكلفة والظروف.

إن في خلو المنفي بـ(ليس) من التقييدات الزمنية وشمول النفي بها للأزمة الثلاثة دلالة إقناعية فائضة عن الدلالة الإخبارية المجردة (أصل الكلام)، وذلك من جهة أدائها معنى الانتفاء المستمر والملازم، دون أدنى فرصة للرجوع أو التراجع، وبموجبه فإن الخطيب حين يقصّر في هذا الأمر فإنه لن يكون أبا إسحاق أبدًا.

ونحوه، أنه ((لما انهزم عبد الله بن علي من الشام قديم على المنصور وفد منهم، فقام عدة منهم فتكلموا، ثم قام الحارث بن عبد الرحمن الغفاري، فقال: يا أمير المؤمنين إننا لسنا وفد مباهاة، وإنما نحن وفد توبة، وإننا ابتلينا بفتنة استخفت كرمنا، واستفرت حلیمنا، ونحن بما قدمنا معترفون، ومما سلف منا معتذرون، فإن ثعاقبنا فيما أجرمنا، وإن تعف عنا بفضلك علينا، فاصفح عنا إذ ملكت، وامنن إذ قدرت، وأحسن إذ ظفرت، فطالما أحسنت إلى من أساء منا))^(٢).

فلأن مقام الخطيب في هذا الشاهد مقام خضوع وانكسار، وتوبة وإقرار، فإنه قد عدل إلى استهلال خطبته بالنفي القاطع ليحدد مهمة الوفد، وليمهد للاعتذار، ملغيا بالنفي كل ما قد يسري إلى نفس الخليفة من معاني التماذي والاستخفاف بمقام الخلافة.

ولئن كان الاعتراف بالذنب مقدمة لازمة من مقدمات العفو والصفح فقد بادر الخطيب الخليفة بهذا النفي على سبيل: الإقرار القاطع بالذنب، والطلب الملح للصفح، والاستحواذ على

(١) السابق، ج ٢، ص ٨٥.

(٢) السابق، ج ٣، ص ٤٢.

انتباه الخليفة والعجلة في سبيل رضاه؛ لتحقيق بذلك النتيجة المقصودة (العفو والصفح).

وإذ رأى الخطيب أنّ نفيه لا يكفي لإزالة الشك والتردد، وأنّ المتلقي قد يذهب ظنه إلى أنّ هذا الوفد وفدٌ استرفاد أو إنكار أو غير ذلك، أردف نفيه بجواب كافٍ لإزالة ما قد يبقى من بوادر الشك والتردد، ومُحدّد لهويّة هذا الوفد (وإنّما نحن وفد توبة)؛ ذلك أنّ تحديد القصد من النفي يتوقّف على هذا التعقيب المسمّى بـ(جواب النفي)^(١).

وعلى منواله، أنّه ((كان الوزير الوليد بن عبد الرحمن بن غانم صديقاً للوزير هاشم بن عبد العزيز، ثابتاً على مودته، فلما قضى الله على هاشم بالأسر، أجرى السلطان محمد بن عبد الرحمن الأمويّ ذكره في جماعة من حُدّامه، والوليد حاضر، فنسبه إلى الطيّش والعجلة والاستبداد برأيه، فلم يكن فيهم من اعتذر عنه غير الوليد، فقال: أصلح الله تعالى الأمير، إنّهُ لم يكن على هاشم التخيّر في الأمور، ولا الخروج عن المقدور، بل قد استعمل جهده، واستفرغ نصحه، وقضى حقّ الإقدام، ولم يكن مِلاك النصر بيده، فخذله من وثق به، ونكّل عنه من كان معه، فلم يُزحج قَدَمه عن موطن حِفَاظه^(٢)، حتى مُلِكَ مُقبِلاً غير مُدبر، مُبِلياً غير فَشِل، فجوزي خيراً عن نفسه وسلطانها؛ فإنّه لا طريق للملام عليه، وليس عليه ما جنته الحرب الغشوم))^(٣).

إن كانت عاملية النفي تُدرَك بتحويل القضية الصحيحة إلى خاطئة، والخاطئة إلى صحيحة، فإنّ الخطيب قد أراد بهذا النفي أن يقلب الأمر لصالح هاشم بن عبد العزيز، ويقطع الطريق على ذوي الأطماع الفاسدة ممن يتربّصون به، فما هو إلا مخلصٌ استنفد ما في وسعه، وبذل نفسه ومهجته مدافعةً عن مقام الخلافة، ولأنّ الحرب-بطبعها-غشومٌ لا تفرّق بين الناس ولا تقبل المقايسة والتعقّل، فإنّه لا يمكن عقلاً لوّم الوزير أو انتقاصه بسبب ما جنته عليه هذه الحرب.

وغيرُ خافٍ ما للصفة (الغشوم) من دورٍ في توجيه هذا القول وتخصيص معناه؛ فمن «حُكْم النفي إذا دخل على كلام ثم كان في ذلك الكلام تقييد على وجه من الوجوه، أن يتوجه إلى ذلك التقييد، وأن يقع له خصوصاً...، وجملة الأمر أنّه ما من كلامٍ كان فيه أمرٌ زائد على مجرّد إثبات المعنى للشيء إلا كان الغرض الخاصّ من الكلام، والذي يُقصدُ إليه ويُزجى القول فيه،

(١) ينظر: بحث: العوامل الحجاجية في شعر البردوني، مرجع سابق، ص ٤٣٩.

(٢) الحِفاظ: المحافظة على العهد والوفاء بالعقد. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٠، ص ٢٢١.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٦٨.

فإذا قلت: جاءني زيدٌ ركبًا، وما جاءني زيدٌ ركبًا، كنت قد وضعت كلامك لأن تُثبت مجيئه ركبًا أو تنفي ذلك، لا لأن تُثبت المجيء وتنفيهِ مطلقًا، هذا ما لا سبيل إلى الشك فيه»^(١).

ولا يخفى -أيضًا- أثر تقديم المسند (الجار والمجرور: عليه) في زيادة طاقة النفي؛ «النفي حين يدخل على المسند الجار والمجرور المقدم تكون دلالاته على القصر دلالة لازمة، فإذا قلت: (ليس عليك حرج في فعل كذا) أفدّت أنّ نفي الحرج خاص به، وأن غيره إذا فعل كان عليه حرج، وكأنك تريد ليس عليك بخلاف غيرك؛ فإنّه عليه حرج، وإذا أردت مجرد نفي الحرج من غير هذه الإشارة فقل: لا حرج عليك في فعل كذا»^(٢).

وبهذا تناول المقتضب، فإنّه يكون قد ظهر الأثر الحجاجي لعامل النفي (ليس)؛ ذلك من جهة تحويله مسار القول من الإيجاب إلى الرّدّ والسلب والنقض المطلق، الأمر الذي يجعل هذا العامل في مصافٍ أهم إشارات الحجاج وموجهاته الدقيقة في سوق المتلقين نحو النتيجة المقصودة.

أ-٤- (لن):

«تدخل على الفعل المضارع فتخلّصه للاستقبال، وتنفيه نفيًا مؤكّدًا؛ تقول: لا أبرح اليوم مكاني، فإذا وكّدت وشدّدت قلت: لن أبرح اليوم مكاني»^(٣)، وشأن خطباء المدونة مع النفي بهذا العامل شأنهم مع العوامل السابقة، حيث ورد في عدة خطبٍ من خطب المدونة، نحو خطبة عبد المطلب بن هاشم التي يهنئ فيها سيف بن ذي يزن باسترداد مُلكه من الحبشة؛ إذ قال مما قال فيها: «سلفك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير حلف، ولن يهلك من أنت حلفه، ولن يحْمَل من أنت سلفه، نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته، وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجت بكشف الكرب الذي فجعنا، فنحن وفد التهنة، لا وفد المرزئة»^(٤).

ففي اختيار عبد المطلب النفي بـ(لن) إقرار ظاهر بعظمة هذا الملك واعتراف بعراقته وامتداده، وحين يُقَيّد عبد المطلب هذا المعنى بالنفي -لا بالإثبات- فإنّه إنّما يُزِيل ويُبطل اعتقاد كلّ من يعتقد أنّ غير هذا الملك أحق بالأمر منه وأولى، كما يؤكد على انضوائهم تحت راية هذا الملك، مستبعدًا

(١) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٢٧٩-٢٨٠.

(٢) دلالات التراكيب، مرجع سابق، ص ١٧٢.

(٣) معاني النحو، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٥٩.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٧٦.

جميع احتمالات الخروج عن سيطرته أو الشكِّ في أحقيته، ومن جهة أخرى فقد تضمَّن هذا النفي معنى التعريض والتنديد بالمخالفين، إذ إنَّ كلَّ من ليس الممدوح خلقاً له فإنَّه معرضٌ للهلاك، وكلَّ مَنْ ليس الممدوح سلفاً له فإنَّه معرض للخمول.

ولئن تقرَّر لدى بعضهم انقطاع مُلك سيف بن ذي يزن بانتصار الحبشة عليه، فإنَّ في (لن) من القوَّة ما يجعلها مناسبة لردِّ كلِّ ما تقرَّر واستحکم حيال هذا الأمر، ذلك أنَّ (لن) «نقيضة (سوف)، فإذا قلت (سوف أفعل) فنفية (لن أفعل)؛ فسوف للإثبات و(لن) للنفي»^(١).

ومنه، ما ورد في خطبة عمر رضي الله عنه بعد توليه الخلافة، إذ يقول: ((إنَّ الله عز وجل قد ولَّاني أمركم، وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم، وإني أسأل الله أن يعينني عليه، وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره، وأن يُلهمني العدل في قسِّمكم كالذي أمرني به، وإني امرؤ مسلم وعبد ضعيف إلا ما أعان الله عز وجل، ولن يغيِّر الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئاً إن شاء الله))^(٢).

لمَّا كانت الولاية محلاً للتغيُّر والتبدُّل، فإنَّه قد قدَّم رضي الله عنه ما يدلُّ على تواضعه، ثمَّ عقَّب بنفي جميع ما قد يُتوهم ويُظنُّ به من معاني التغيُّر والتبدُّل، وفي هذا النفي القاطع ب(لن) سدُّ على المتربصين ومعاودة للمتلقين بالثبات والبقاء على ما عرفوه عنه رضي الله عنه من الإيمان والتواضع.

ومتى عُرف أنَّ الخوف من التغيُّر إمَّا هو خوفٌ مختصُّ بالمستقبل، وأنَّ القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يُصرفها كيف يشاء، علمنا دقَّته رضي الله عنه في اختاره لهذا الحرف؛ إذ إنَّ النفي ب(لن) «مستمرٌّ في المستقبل إلا أن يطرأ ما يُزيِّله؛ فهي لنفي المستقبل، و(لم) لنفي الماضي و(ما) لنفي الحال»^(٣).

ومما جرى مجراه، قول أم كلثوم بنت عليٍّ رضي الله عنها في خطبتها بأهل الكوفة بعد مقتل الحسين رضي الله عنه: ((أتبكون؟ إي والله فابكوا، وإنكم والله أحرىء بالبكاء، فابكوا كثيراً، واضحكوا قليلاً،

(١) معاني النحو، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٥٩.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢١٢.

(٣) البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٤، ص ٣٨٧.

فلقد فُزِمَ بعارها وشنارها^(١) ولن تُرْحَضُوهَا^(٢) بِغَسَلٍ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَأَنْتِ تُرْحَضُونَ قَتْلَ سَلِيلِ خَاتَمِ النُّبُوَّةِ، وَمَعْدَنَ الرِّسَالَةِ، وَسَيِّدَ شَبَّانِ أَهْلِ الْجَنَّةِ^(٣).

ففي حين أنَّ المقام مقام تجريم لعملٍ لا يحتمل طلب المغفرة والتوبة، فإنَّها إنَّما عدلت رَضُوهُنَّ إلى النفي بـ(لن) لتقطع على المتلقين آمالهم وما قد تهوَّنَ به نفوسهم عليهم من خذلهم للحسين وإراقة دمه رَضُوهُنَّ.

وإن كانت (لن) -عند بعضهم- لا تخلو من معنى التأييد، فإنَّ لمضاعفة الخطيبة رَضُوهُنَّ هذا المعنى بقولها: (أبدًا) دلالةً حجاجية زائدة، تُلمس في بيان شناعة فعلهم وعِظَم جُرمهم واستحالة تطهَّره من مغبَّة هذا الفعل، فمهما حاولوا وعملوا فإنَّهم لن ينتفعوا بذلك ألبتة^(٤).

ومما هو في بابه، قول أبي جعفر المنصور في خطبته بعد قتله لأبي مسلم الخراساني: ((إِنَّا لَن نَبْخَسُكُمْ حَقُوقَكُمْ، وَلَن نَبْخَسَ الدِّينَ حَقَّهُ عَلَيْكُمْ، إِنَّهُ مِن نَّازَعَنَا عُرُوءَ هَذَا الْقَمِيصِ أَجْزَرْنَا حَيِّيَّ هَذَا الْغَمْدِ، وَإِنَّ أَبَا مُسْلِمٍ بَايَعَنَا، وَبَايَعَ النَّاسَ لَنَا عَلَى أَنَّهُ مِن نَكَثَ بَنَا فَقَدْ أَبَاحَ دَمَهُ، ثُمَّ نَكَثَ بَنَا، فَحَكَمْنَا عَلَيْهِ لِأَنفُسِنَا حَكْمَهُ عَلَى غَيْرِهِ لَنَا، وَلَمْ تَمْنَعْنَا رِعَايَةَ الْحَقِّ لَهُ، مِن إِقَامَةِ الْحَقِّ عَلَيْهِ))^(٥).

فإذ ادَّعى أبو مسلم في خروجه طلبَ العدل والإنصاف، فإنَّ الخليفة قد رام بهذا النفي إقامة الحجة، وقطع الطريق على كلِّ من يستغلَّ هذا الأمرَ مشكِّكًا في عدل الخليفة أو طامعًا في التقصير في حقِّ الخلافة، فكلُّ أمرٍ غيرِ العدل في الحقوق والسير بالخلافة بمقتضى الشرع هو أمرٌ منفيٌّ مرفوضٌ لا مجال لحصوله.

ولئن كان النفي سلبيًا للمنفيَّات، فإنَّه متضمنٌ معنى إسباغ الصفة الإيجابية المقابلة لتلك الحالة المنفيَّة؛ مما يجعل قول الخطيب: (لن نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الدين حقه عليكم)

(١) الشَّنَارُ: أشنع العيب وأقبحه. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٢، ص ٢٤٥.

(٢) تُرْحَضُوهَا: تغسلوها، ينظر: السابق، ج ١٨، ص ٣٤١.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٣٥.

(٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١٥، ص ٣٥٦. ومعاني النحو، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٦٠.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٣١.

متضمناً معنى كمال وفائه بحقوق الناس وحقوق الدين، ولذلك فإنّ النفي يتجاوز مجرد السلب إلى كونه بؤرة ضوئية ومصدر إغناء للمعنى الإيجابي^(١).

وإنّ في نفي لفظ (البخس) خاصةً دلالةً دقيقةً على التزام الخلافة باستقصاء الحقوق على أتمّ وجه وأكمّله وأحزمه، إذ إنّ في نفي البخس معنى عدم انتقاصهم أقلّ حقوقهم، وعدم انتقاص الدين أقلّ حقه عليهم.

وفي حين أظهر تناول شيئاً من حجاجية (لن) في المدونة، فإنّه يُبيّن أهمية هذا الحرف وأثره في تقوية المعنى وتحديد الوجهة من القول، كما يُعرّف اختلافه عن غيره من أدوات النفي؛ بفعل ما ينطوي عليه من قوّة تمكّنه من نفي المتقرّر، وبفعل اختصاصه بالزمن المستقبلي.

أ-٥-(لم):

و«هي لنفي (فَعَل)؛ فإذا قلت (حَفِظَ) ففيه (لم يَحْفَظُ)»^(٢)، ولئن كانت محتصّةً بالدخول على المضارع إلا أنّها تدلّ على نفي وقوع الفعل في الزمن الماضي^(٣)، ومن شواهدا في المدونة، قول عمرو بن الشريد السلمي بين يدي كسرى: ((أيها الملك، نَعِمَ بالك، ودام في السرور حالك، إنّ عاقبة الكلام مُتَدَبَّرَةٌ، وأشكال الأمور مُعْتَبَرَةٌ، وفي كثير ثُقَلَةٌ، وفي قليل بُلْغَةٌ، وفي الملوك سَوْرَةٌ العز، وهذا منطوق له ما بعده، شَرُفَ فيه مَن شَرُفَ، وَحَمَلَ فيه من حَمَلَ، لم نأتِ لضيّمك، ولم نَفِدَ لسُخْطك، ولم نتعرّض لِرَفْدِك))^(٤).

فلمّا كان مقام تظاهر هذا العربي واعتزازه وفخره بين يدي كسرى يقتضي تخليصه لنفسه ومَن وَفَدَ معه من تهمّة التعالي على مقام كسرى أو مُضاهاته، فإنّه اختار النفي ب(لم) ليزيل كلّ ما قد يرد على ذهن كسرى من معانٍ تُعيق الإقناع وتحوّل دون التأثير؛ فنحن أيّها الملك رغمّ اعتزازنا وفخرنا إلا أنّنا لا يمكن أن يكون باعث قدومنا إليك هو ضيّمك أو سُخْطك.

وفي حين أنّ مقام التظاهر والشرف والاعتزاز منافٍ لمقام الاستجداء والطلب، فإنّ الخطيب

(١) ينظر: البحث البلاغي عند ابن تيمية رحمه الله: دراسة وتقيّمًا، إبراهيم التركي، ط ٢، ص ١٢٠ (دار كنوز إشبيلية، الرياض، ١٤٣٩هـ).

(٢) معاني النحو، مرجع سابق، ج ٤، ص ٨.

(٣) ينظر: في النحو العربي نقد وتوجيه، مهدي المخزومي، ط ٢، ص ٢٥٤ (دار الرائد العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ).

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٥٩.

أكدَّ على نفي مجرّد التعرّض لذلك: (لم نتعرّض لرفدك)؛ فهم لا يمكن أن يكونوا وفد استجداء ولا استفاد. وبهذه المتواليات من النفي فإنّه يظهر أثر النفي في قلب اعتقاد المتلقي، ورفض ادعائه المُقدّر، وإثبات نقيضه إثباتاً مؤكّداً.

ومن الشواهد أيضاً، قول زياد بن كعب في أهل (أذريجان)، وكان عليّ رضي الله عنه قد وجهه بكتاب إلى عاملها: ((وإنّ أمر عثمان لم يَنفع فيه العيان، ولم يَشف منه الخبر، غير أنّ من سمعه ليس كمن عاينه، وإنّ المهاجرين والأنصار بايعوا عليّاً راضين به))^(١).

فما أنّ الأمة افتقرت إثر مقتل عثمان رضي الله عنه فقد عدل الخطيب إلى هذا النفي ليُفتت به مواطن الخلاف ويلغي النزاع؛ فإنّ كان الأصل أن يتأسس الخلاف ويقوم النزاع على الحقائق المعلومة المُستيقّنة، فإنّ هذا الأمر مما لا يمكن إدراك حقيقته واستيعابها.

وإذ إنّ المشاهدة والسمع (العيان/ الخبر) هما مصدر تلقي الأخبار وتداول الحقائق، فإنّ الخطيب قد اختار نفيهما خاصةً؛ ذلك أنّ انتفاء الانتفاع بهما في هذه القضية يحوّل دون الوصول إلى كنهها، وبناء عليه فإنّ كلّ فعلٍ ناشئ عن هذه الحقيقة المتعدّرة والمستعصية إنّما هو فعلٌ مُفارقٌ للصواب من حيثُ المبدأ المنطقي.

ومنها، قول الوليد بن عبد الملك لمّا رجع من دفن أبيه: ((أبيها الناس، إنّه لا مؤخر لِمَا قدّم الله، ولا مقدّم لِمَا أحرّ الله، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحمله عرشه من الموت موتٌ وليّ هذه الأمة، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار؛ للذي كان عليه من الشدّة على المُريب، واللين على أهل الفضل والدّين، مع ما أقام من منار الإسلام وأعلامه، وحجّ هذا البيت، وغزو هذه الثغور، وشرّ الغارات على أعداء الله، فلم يكن فيها عاجزاً ولا وانياً، ولا مفرطاً))^(٢).

في حين أنّ مقام هذه الخطبة مقام تبيينٍ وذكرٍ لمحاسن الميّتٍ ودفاع عنه، قصّد الخطيب أن يذكر محاسنه التي تتردد بين الشدّة واللين، والعبادة والجهاد، ولكي يُزيل عن المؤبّن جميع ما قد يُرمى به من مساوئ الخلافة: (العجز، الضعف، التفريط)، فإنّه قد نصّ على نفي هذه المعاني

(١) السابق، ج ١، ص ٣٠٩.

(٢) السابق، ج ٢، ص ١٩٩.

ليُبرِّتَ منها، وليعلّلَ أفضليته وصلاحه، وليستمد من صلاح أبيه أحقيته في الخلافة؛ فصلاح الوالد مظنة صلاح الولد.

وإن كان من المشروع بحث علّة اختيار الخطيب ل(لم) وتفضيلها على غيرها من أدوات النفي، فإنّه يمكن التماس سبب هذا التفضيل فيما يقتضيه المضارع المنفي ب(لم) من معنى تجدد الحكم واستمرار حدوثه؛ وذلك أنّه قد يتكرر ويتجدّد-على مرّ الأزمان والعصور-بحث سيرة عبد الملك ومساءلتها، مما يقتضي العدول إلى صيغة نفيّ مُتجددة متوافقة مع تكرار تجدد البحث والمساءلة في كلّ زمن^(١).

وتبرّز تلك المعاني الدقيقة قول الشيخ عبد القاهر: «إنّ من شأن الوجوه والفروق ألا يزال يحدّث بسببها، وعلى حسب الأغراض والمعاني التي تقع فيها، دقائق وخفايا لا إلى حدّ ونهاية، وأنها خفايا تكثّم أنفُسها جَهْدَها حتى لا يُتنبه لأكثرها، ولا يُعلّم أنّها هي، وحتى لا تزال ترى العالمَ يعرضُ له السهو فيه، وحتى إنّهُ ليقصدُ إلى الصواب فيقعُ في أثناء كلامه ما يوهم الخطأ، كل ذلك لشدة الخفاء وفرط الغموض»^(٢).

ومما هو في عداده، قول أبي حمزة الشاري^(٣) في إحدى خطبه في المدينة: ((ألا وإنّ الله بقايا من عباده لم يتحيروا في ظلّمها، ولم يشايعوا أهلها على شُبّهها، مصابيح النور في أفواههم تزهو، وألستهم بحجج الكتاب تنطق، ركبوا منهج السبيل، وقاموا على العَلَمِ الأعظم، هم خصماء الشيطان الرجيم، بهم يُصلح الله البلاد ويدفع عن العباد، فطوبى لهم وللمستصبحين بنورهم، وأسأل الله أن يجعلنا منهم))^(٤).

(١) ينظر: معاني النحو، مرجع سابق، ج٤، ص١٩٥.

(٢) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص٢٨٥.

(٣) أبو حمزة الشاري، المختار بن عوف الأزدي البصري، أحد الخوارج الشراة، كان يدعو إلى خلاف مروان بن محمد فانتهت به دعوته إلى أن غلب على المدينة منتصف صفر سنة ثلاثين ومائة، فأحسن في أهل المدينة واستمالهم، ثمّ إنه خرج إلى الشام، وكان مروان قد سرح إليهم جنده بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية بن هوازن، فلقى جيش مروان جيش أبي حمزة فانهزم جيش الخوارج، وقُتل أبو حمزة. ينظر: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، وسهيل زكار، ط١، ج٣، ص٢١٠-٢١١ (دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ).

(٤) جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٤٨٠.

فالخطيب هنا يمتدح نفسه وطائفته من الشُّرأة والخوارج، مؤكِّدًا ومُشدِّدًا على معانٍ خاصةٍ تُبرِّز تسلُّطهم وتعلُّلُ أحقيَّتهم، فهم صلحاء موفِّقون؛ لأنَّهم من بقية عباد الله المستبصرين - حسب مقتضى النفي ب(لم) - الذين سلِّموا من جميع معاني الحيرة، ومن مواطأة أهل الشبهة، وإلى جانب ذلك فإنَّه غيرُ خافٍ ما حمله هذا النفي من معنى التعريض بكلِّ ولايةٍ غير ولايتهم وهجائها.

لقد جاءت المنفيات في هذا الشاهد على هيئة حججٍ وصفيَّةٍ تُمثِّل طهارة المعنيين ونقاوتهم، وتُبرِّز موقف الخطيب الرافض لواقع الأمة في عصره ولما نتج عن خلافة بني أمية من ممارسات مخالفة، وثمة فرق جليٌّ بين أن يقول الخطيب: (إنَّ لله عبادًا صالحين استناروا بنور الهدى، وتجنَّبوا أهل الشُّبه)، وأن يقول واصفًا ومصوِّرًا: (لم يتحيروا في ظلِّها، ولم يشايعوا أهلها على شُبَّهها)؛ إذ إنَّ في النفي الواصف مزيد تأثيرٍ وفضل إقناع؛ من جهة أنَّ الوصف - ولا سيما ذلك النوع الذي يأخذ شكل التصوير - يقدِّم الدعوى مدعومة بالدليل^(١).

وبدراسة هذا العامل فإنَّ الباحث يكون قد وقف على أهم خمسة من عوامل النفي مؤكِّدًا بذلك على أهمية النفي ودوره في الحجاج؛ ذلك أنَّ عدولَ الخطيب عن الأصل (الإخبار المجرد من العوامل) واختياره للنفي، لا يمكن أن يكون إلا لغرض التركيز على المعاني المستهدفة مع حفظها من الانفراط والتعدد وتوسع الاحتمالات؛ لمضاعفة توجيه المتلقي نحو النتيجة المقصودة وإقضاء جميع ما سواها من معانٍ.

وإضافة إليه، فإنَّ النفي سلبٌ لأحقيَّة الخصم في الرد؛ ذلك أنَّه آليَّة للنقض والهدم تنسف مقوِّمات الرأي المخالف وتجردُه من المصدقية، وتبني مكانها فكرةً جديدةً؛ فكلُّ نفيٍّ متضمَّن معنى الردِّ والتصحيح، ذلك إلى جانب ما يمتاز به أسلوب النفي من موافقة لاستراتيجية الحجاج بالمشافهة (الخطبة)؛ بفعل أدائه المعنى الكثير باللفظ القليل المُعين على التركيز والتذكُّر.

وبعد الوقوف على عوامل النفي، فإنَّ البحث سيتحوَّل إلى دراسة عوامل القصر، إذ هي أقرب العوامل إلى النفي؛ من جهة أنَّها تتضمن معناه وتحمل مقتضاه.

(١) ينظر: إنشاء النفي وشروطه النحوية الدلالية، مرجع سابق، ص ٢٤١. وتحليل الخطاب وتجاوز المعنى: نحو بناء نظرية المسالك والغايات، محمد محمد يونس علي، ط ١، ص ١٢٩ (دار كنوز المعرفة، عمَّان، ٢٠١٦ م).

٢-ب-عوامل القصر:

القصر أو الحصر: «تخصيص أمر بآخر بطريقٍ مخصوص، ويُقال أيضًا: إثبات الحكم للمذكور ونفيُه عمَّا عداه»^(١)؛ مما يستلزم اشتمال كلِّ أسلوبٍ قصرٍ على: مقصور ومقصور عليه، فمهمة القصر تخصيصُ المقصور عليه بالمقصور^(٢).

إنَّ تخصيص الشيء بالشيء يعني أن تجعله له دون سواه، فلو قلت: (أكل عمرو تفاحة)، لكان تركيبيًا مطلقًا خاليًا من الاعتبارات، ولأفاد أنه أكل تفاحة وليس ثمَّة شيء وراء تلك الإفادة، في حين أن قولك: (إنما أكل عمرو تفاحة) أو (لم يأكل عمرو إلا تفاحة)، يُفيد شيئًا إضافيًا عن مجرد إثبات أكل التفاحة، من جهة أن قصر الأكل على التفاحة مستلزمٌ معنى أن المقصود لم يأكل سواها ولم يتجاوزها إلى غيرها من المأكولات؛ فأكل عمرو (مقصور)، والتفاحة (مقصور عليه)^(٣).

ومن الناحية الحجاجية، فإنَّ القصر: عملٌ لغويٌّ إنجازيٌّ يستندُ إليه المحاجُّ للحدد من اتِّساع الاحتمالات وتعدد الاستنتاجات وتفاوت التَّأويلات الناجمة عن قولٍ ما، ذلك من خلال توجيه القول نحو وجهةٍ محدَّدة، إذ تنبني عملية القصر على ثنائيةٍ قوامها: نفي غير المقصود وردّه، وإثبات المقصود وتأكيده تأكيدًا قاطعًا^(٤)، فهي «دلالة ذات وجهين: وجه هو الإثبات؛ والدلالة عليه دلالة نصية أو دلالة بالمنطوق، ووجه هو النفي؛ والدلالة عليه بالمفهوم الذي هو أقوى المفاهيم»^(٥).

ولتلك الخصائص الحجاجية لأسلوب القصر، فإنَّه معدودٌ ضمن أهم الأساليب الحجاجية والبلاغية ذات الدلالة الموجزة والمكثفة، وما من داعٍ إلى القول بحاجة الخطيب الماسة إلى هذا

(١) الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٣، ص ١٦٦ (الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٣٩٤هـ).

(٢) ينظر: في البلاغة العربية (علم المعاني، البيان، البديع)، عبد العزيز عتيق، ص ١٤٦ (دار النهضة العربي، بيروت، د. ت).

(٣) ينظر: السابق، ص ٣٣-٣٤، ٣٧.

(٤) ينظر: رسائل الإمام علي في نهج البلاغة: دراسة حجاجية، مرجع سابق، ص ١٦٧. ورسالة: الروابط والعوامل الحجاجية في رسائل الجاحظ، مرجع سابق، ص ١١٦. وبمحت: العوامل الحجاجية في شعر البردوني (النفي) أنموذجًا، مرجع سابق، ص ٤٤٥.

(٥) دلالات التراكيب، مرجع سابق، ص ١٣٢.

النوع من الأساليب المُعينة على التركيز والتذكّر.

ومن حيث طُرق القصر، فإنَّ علماء المعاني قد أجمعوا على أنَّ للقصر طرقًا أربعة، هي: النفي والاستثناء، و(إِنَّمَا)، والعطف ب(لا، لكن، بل)، والتقديم والتأخير^(١)؛ وتجنُّبًا للوقوع في التكرار ومراعاة لاختصاص هذا المبحث بالعوامل فسيقصر الباحث على دراسة طريقتين من طرق القصر، هما: القصر بالنفي والاستثناء، والقصر ب(إِنَّمَا).

ب-١- القصر بالنفي والاستثناء:

ويقصد به (ما وإلا، وما في حكمهما)، ويقع المقصور عليه في هذا القصر بعد أداة الاستثناء مباشرة، أمَّا المقصور فإنَّه يأتي بعد أداة النفي^(٢).

ويشكِّلُ هذا النوع من القصر أبلغ السبل وأقواها إلى التأكيد وتقرير كَلِّ «أمرٍ ينكره المخاطب ويشكُّ فيه، فإذا قلت: (ما هو إلا مصيب) أو (ما هو إلا مخطئ)، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلت، وإذا رأيت شخصًا من بعيد فقلت: (ما هو إلا زيد)، لم تُقله إلا وصاحبك يتوهم أنَّه ليس بزيد، وأنَّه إنسان آخر، ويجدُّ في الإنكار أن يكون (زيدًا)، وإذا كان الأمر ظاهرًا كالذي مضى، لم تُقله كذلك، فلا تقول للرجل تُرِّقُّه على أخيه وتُنَبِّههُ للذي يجب عليه من صلة الرِّحم ومن حُسن التحاب: (ما هو إلا أخوك)»^(٣).

وقد عدَّ البلاغيون هذا الطريق من القصر ضربًا من ضروب الإيجاز التي تتضاعف به القوة التأكيدية والإقناعية للقول الحجاجي؛ ذلك بفعل ما يحصل بنفي العموم من تركيز على المعنى وتوجيه للقول نحو النتيجة المقصودة، ونفي المعاني الأخرى، فقول: (ما زيدٌ إلا شاعرٌ) يُثبت الشعارية لزيد ويخصِّه بها بعد نفي ما سواها من احتمالات واستلزامات؛ كأنَّ يكون زيدٌ خطيبًا أو كاتبًا أو نحوه^(٤).

ولتلك القوة في الدلالة، فإنَّه يمكن القول بأنَّ «النفي والاستثناء هو الطريق الأم بين طرق

(١) ينظر: في البلاغة العربية (علم المعاني، البيان، البديع)، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(٢) ينظر: السابق، ص ١٤٧.

(٣) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٣٣٢.

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٤١. والقصر بالنفي والاستثناء في نَحج البلاغة: دراسة دلالية، مجلة اللغة العربية وآدابها بجامعة الكوفة، عقيل الخاقاني، ووردة صالح نعماش، العدد ٢٢، ص ١١٤ (٢٠١٥م).

القصر، وأهمّ يقيسون عليه غيره ويصطنعونه في توضيح صورة المعنى وتحديد المقصور والمقصور عليه، فيقولون مثلاً: إنَّ قولك: (إنَّما لك هذا)، معناه ما لك إلا هذا، وقولك: (إنَّما فعلته كرهاً)، معناه: ما فعلته إلا كرهاً»^(١)، ولكثرة تردّد هذا القصر في المدونة، فإنَّ الباحث سيحاول دراسة أهمّ مظاهره فيما يلي:

ب-١-أ-(لا) و(إلا):

ولعلَّ خير ما يمثِّل هذا النوع من القصر قوله ﷺ في إحدى خطبه: ((ألا ولا يوم فاجرٍ مؤمناً إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه))^(٢).

فبما أنه ﷺ في مقام تشريع وبيان، فقد أراد أن يكون نصُّه صريحاً ومحدّداً، كما أراد- لحكمته ورحمته- من خلال الاستدراك ب(إلا) أن يُرخصَ لأُمَّته فيما لا طاقة لهم به، فكلُّ حالات إمامة الفاجر للمؤمن هي إمامة خارجة عن إطار الشرع، سوى الإمامة الواقعة تحت قهر السلطان فإنَّها إمامة مقبولة؛ وذلك خوف الوقوع في الفتنة أو ترك الجماعة^(٣).

إنَّ في هذا القصر تركيزاً على مسألة إمامة الفاجر للمؤمن، وتضييقاً لها ومبالغةً في النهي عنها، كما أنَّ في قوله ﷺ: (يخاف سيفه أو سوطه) مزيد تقييد لنطاق إمامة الفاجر للمؤمن وتشديدٍ في النهي عنها^(٤)، «لأنَّ مبنى الإمامة على الفضيلة»^(٥).

ومن أمثلة هذا الأسلوب، ما ورد في خطبة أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يوم السقيفة؛ حيث يقول: ((فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار؛ إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفياء وأنصارنا على العدو؛ آويتم وواسيتم، فجزاكم الله خيراً، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدينُ العربُ إلا لهذا الحيِّ من

(١) دلالات التراكيب، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٥٣.

(٣) ينظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، عبيد الله الرحمانى المباركفوري، ط ٣، ج ٤، ص ٦٠ (إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء-الجامعة السلفية-الهند، نارس، ١٤٠٤هـ).

(٤) ينظر: المطوّل: شرح تلخيص مفتاح العلوم، مرجع سابق، ص ٣١٤.

(٥) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، مرجع سابق، ج ٤، ص ٦٠.

قريش، فلا تَنَفَسُوا^(١) على إخوانكم ما منحهم الله من فضله^(٢).

فقد أراد أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذه الكلمات المَعْدُودَة أَنْ يرسم مسار الأمة بعد وفاة رسولها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحتى لا تتفرق الأمة وتتعدد الآراء وتطمع نفس أحدٍ من غير أهل الخلافة بالخلافة فإنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد انتحى هذا الأسلوب؛ لِيُقَلِّصَ به الخيارات المحتملة جاعلاً الخلافة محصورةً في هذا الحيِّ من قريش دون غيرهم.

إنَّ في اختيار أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهذا الأسلوب قطعاً لجميع الشكوك التي قد تساور المتلقين في شأن انفراد هذا الحي من قريش بحقِّ الإمامة، كما أنَّ فيه نفيًا لمعاني الاشتراك في السلطة أو التناوبِ عليها؛ فالخلافة حقٌّ مفردٌ؛ لا يقبل الشَّرْكَة ولا التناوب^(٣).

ومتى علمنا أنَّ (لا) تأتي مع المضارع لنفي الحال ولنفي المستقبل؛ فإنَّ القصر هنا قد ورد بـ(لا) و(إلا)، لِيُفِيدَ قصر الولاية- في زمن الحال والاستقبال- على هذا الحي من قريش؛ ذلك أنَّ الولاية متتالية على مدى الزمن، ولا يخلو تتاليها من اعتراض أو منافسة، ومجيء القصر على هذا الوجه من النفي يفيد النفي القاطع الذي يربط الحاضر بالمستقبل^(٤).

ومن أمثلته، ما ورد في خطبة سليمان بن صرد حينَ أقبل عليه وعلى صحبه أهلُ الشام، إذ يقول: ((إذا لقيتموهم فاصدقوهم، واصبروا إنَّ الله مع الصابرين، ولا يُوهِّمُ امرؤُ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ، أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ، لا تقتلوا مدبرًا، ولا تُجْهَرُوا على جريح، ولا تقتلوا أسيرًا من أهل دعوتكم إلا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه، أو يكون من قتلة إخواننا بالطَّفِّ رحمة الله عليهم، فإنَّ هذه كانت سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في أهل هذه الدعوة^(٥))).

فحيث أدرك سليمان بن صرد قرب التقاء السيوف، قَصَدَ أن يُحدِّدَ لجنده ما ينبغي أن

(١) نَفَسَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ: بَخَلَ بِهِ، وَلَمْ يَرَهُ أَهْلًا لَهُ، وَلَمْ تَطْبُ نَفْسُهُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٦، ص ٥٦٧.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٧٥.

(٣) ينظر: دلالات التراكيب، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٤) ينظر: بحث: القصر بالنفي والاستثناء في نَحْجِ البلاغة: دراسة دلالية، مرجع سابق، ص ١٣٠.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٧٢.

يسيروا عليه في اقتتالهم مع أهل الشام، فحدّثهم من جميع أشكال الإدبار، سوى إدبار المكيدة وتعزيز الفئة، كما منعهم من قتل أيّ أسير، سوى نوعين من الأسرى، وهم المقاتلون حال الأسر والقتلة بالطفّ، وبذلك فقد قيّد الخطيبُ وحدّدَ أهمّ أمرين يخشى انفراطهما ساعة القتال، وهما: الفرار من المعركة، والإثخان في الأسرى من أهل الإسلام.

إنّ هذا الأسلوب من القصر خير ما يُمكن أن تقدّم به النتيجة في هذا المقام القتاليّ الحرج، لما يحصل بفاعليته من ضبطٍ وتخليصٍ لأذهان المتلقين من الشتات والارتباك والضياع بين النتائج غير المرغوب فيها، فليس ثمة سوى هذه التعليمات المحصورة التي نصّ عليها القائد (الخطيب)، ولا مجال للاجتهاد أو الزيادة أو الاختلاف^(١).

ومنها، قول عبد الله بن الأهمّ في خطبته بين يدي عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ((فلَمَّا أراد الله أن ينشر فيهم رحمته، بعث إليهم رسولاً منهم عزيزٌ عليه ما عنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فلم يمنعهم ذلك أن جرحوه في جسمه، ولقّبوه في اسمه، ومعه كتاب من الله لا يرحل إلا بأمره ولا ينزل إلا بإذنه))^(٢).

فقول الخطيب هنا: (لا يرحل إلا بأمره ولا ينزل إلا بإذنه) تأكيدٌ على رسوليته ﷺ وتنزيهه لمقام النبوة عن كلّ الظنون، وردّ قاطعٌ على جميع الاعتراضات والشكوك؛ فهو ﷺ «ملتزمٌ بهذا الوحي التزاماً كاملاً؛ لا يتصرف في شأن من الشؤون التي ينزل فيها شرع إلا بتوجيه الوحي، والرحلة والنزول هنا مستعاران للفعل والترك، فالرحلة بمعنى الفعل الواقع منه ﷺ مقصورة على تعلّقه بالأمر، والنزول بمعنى ترك الفعل منه ﷺ مقصور على تعلّقه بالإذن، فهو لا يفعل فعلاً إلا بأمر الوحي، ولا يترك شيئاً إلا بإذنه، والنفي هنا يشمل كل فعل من الأفعال الداخلة في حيز التشريع، وكذلك الترك المعبر عنه بالنزول عامٌّ؛ فيشمل عدم النزول في الحالات كلها إلا في حالة الإذن»^(٣).

(١) ينظر: الحجاج في كتاب: (خطاب المرحلة) للشيخ يعقوبي: من ٢٠٠٣م حتى ٢٠١٤م، ثامر العبادي، رسالة ماجستير، ص١٩٨، جامعة ذي قار، العراق، الناصرية (٢٠١٦م).

(٢) جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٤٢٠.

(٣) دلالات التراكيب، مرجع سابق، ص٤٠.

ب-١-ب-(ليس) و(إلا):

وقد ورد هذا القصر في عدد من خطب المدونة، نحو ما جاء في معرض خطبة أنس بن مالك رضي الله عنه التي يحثُّ بها أهل اليمن على الجهاد مع أبي بكر رضي الله عنه، إذ يقول: ((أما بعد: فإنِّي رسول خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول المسلمين إليكم، ألا وإني قد تركتهم معسكرين، ليس يمنعهم من الشخوص إلى عدوهم إلا انتظاركم، فعجلوا إلى إخوانكم رحمة الله عليكم أيها المسلمون))^(١).

فلحصافة أنس رضي الله عنه وخبرته بما يُحرِّك النفوس، ولمعرفته بما يستدعيه هذا المقام من الإيجاز والإقناع، فإنَّه قد سلك في خطبته أقصر الطرق وأقواها في التأثير، وذلك من خلال عدة أساليب ذات مستوى عالٍ من الكثافة والتحديد، يهمننا منها: القصر في قوله: (ليس يمنعهم من الشخوص إلى عدوهم إلا انتظاركم)؛ إذ رام رضي الله عنه بهذا القصر أن يبالغ في حثِّ أهل اليمن على المبادرة والمُسارعة؛ ذلك أنَّ انطلاق الجيش متوقَّف على التحاقهم به وانضمامهم إليه.

لقد عمل القصر بالنفي والاستثناء في هذا الشاهد على نقل المتلقين من اعتقادهم السابق -بأنَّه من الممكن انطلاق الجيش دونهم- إلى حقيقة لاحقة مثَّلت النتيجة الحتمية المُراد إقناعهم بها: (تعدُّر انطلاق الجيش دون أهل اليمن)^(٢)، ذلك إلى جانب ما حمَّله الاستثناء من استدلال عقليٍّ حاصله: امتناع الانطلاق لعدم الاكتمال.

ونحوه، أنَّه لَمَّا استشار عليُّ رضي الله عنه أصحابه في المسير إلى الشام، قام هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فقال: ((أما بعد-يا أمير المؤمنين-فأنا بالقوم جدُّ خبير، هم لك ولأشباعك أعداء، وهم لمن يطلب حرث الدنيا أولياء، وهم مقاتلوك ومجادلوك، لا يُيقون جُهدًا؛ مشاحة على الدنيا وضنًا بما في أيديهم منها، ليس لهم إربة غيرها، إلا ما يخذعون به الجهَّال من طلب دم ابن عفان))^(٣).

فلنلا يختلط على الناس أمر أهل الشام في هذا المقام الملتبس، ولنلا يتردِّدوا في شأنهم، وحتى

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٩٣.

(٢) ينظر: رسالة: الحجاج في كتاب: (خطاب المرحلة) للشيخ يعقوبي: من ٢٠٠٣م حتى ٢٠١٤م، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣١٢.

لا يكون رأيي هاشمٍ كلامًا مرسلًا مجردًا، فإنه قد دَعَمَه بالقصر (ليس-إلا) ليكشف حقيقة أهل الشام ويُعرِّف بهم فيحدِّد من غموضهم؛ فجميع ما هم فيه باطلٌ سوى ما ادَّعوه مخادعةً من الطلب بدم الخليفة عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. ومتى «رأيت شيئًا هو من المعلوم الذي لا يُشكُّ فيه قد جاء بالنفي، فذلك لتقدير معنى صار به في حكم المشكوك فيه»^(١).

إنَّ في هذا القصر تركيزًا مكثفًا، وتعريَّةً بالغةً للمعنيين، ونزعًا لحُرْمَتهم، كما أنَّ في وصف المستثنى (ما يندعون به الجهال) قلبًا لافتًا ومثيرًا لنتيجة الاستثناء؛ فالقول وإنَّ كان- في ظاهره- استثناءً إلاَّ أنَّه في الواقع إضافةٌ واستكثارٌ للمستثنى منه (الباطل) وليس استثناء منه.

ونحوه، ما ورد في خطبة الحسن بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في الحثِّ والتحريض على القتال، إذ يقول: ((أمَّا بعد: فإنَّ الله كتب الجهاد على خلقه، وسمَّاه كرهًا، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢)؛ فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون))^(٣).

إذا كانت «الحقائق الثابتة لا تُدفع بالعبارات المجملة المبهمة»^(٤)، كما يقول ابن تيمية، فإنَّ الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد أراد بأسلوب النفي والاستثناء أن يحدِّد لمتلقيه حقيقة النصر وطريقه، فالصبر على ما يكرهونه من القتال هو سبيلهم الوحيد إلى إدراك ما يُجْبُون من الغلبة والنصر، ولو أخذوا بجميع الأسباب الأخرى وتركوا الصبر على القتال فإنَّهم لن ينالوا ما يُجْبُون.

وفي تقييد الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنه للمقصود عليه بقوله: (على ما تكرهون) تهيئة وتوطئة ظاهرة لنفوس أتباعه على التجلِّد وتحمل جميع ما قد يجرُّه قتال أعدائهم عليهم من المصاعب والمشقَّات؛ وذلك طمعًا في حصول المحبوب.

ومما جرى مجراه، قول المأمون إذ خطب في عيد أضحى: ((كونوا قومًا سألو الرجعة فأعطوها

(١) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٣٣٣.

(٢) سورة: الأنفال، الآية: ٤٦.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٩.

(٤) بيان تلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: يحيى بن محمد الهندي، ج ٣،

ص ٢١٣ (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٢٦ هـ).

إذ مُنِعَهَا الَّذِينَ طَلَبُوهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ يَتَمَنَّى الْمُتَقَدِّمُونَ قَبْلَكُمْ إِلَّا هَذَا الْمَهْلَ الْمَبْسُوطَ لَكُمْ^(١).
فإذ جُبلت النفوس على الغفلة والدَّعة، والاتكال والتراخي، فإنَّ المأمون قد قصد بهذا القصر حصر ما يتمناه الموتى مما هو بين يدي الأحياء؛ ليوَقظ نفوس متلقية ويحضرها على تغانم العمر، وتدارك ما فات من الأجر، ذلك أنَّ من سبقوكم إلى الموت لا يتمنون سوى ما أنتم فيه من بقية أعماركم، ولو حُيِّروا في جميع ما أنتم فيه من أمور الدنيا لَمَا طلبوا غير هذا (المهل).

إنَّ في هذا القصر قلبًا ظاهرًا لاعتقاد المتلقين، فما يضيِّعونه ويزهدون بتداركه إنَّ هو إلا أثنى ما يمكن أن يطلبه أهل المقابر، وغير خفيٍّ -أيضًا- أثر وصفه ل(المهل) ب(المبسوط)؛ إذ هو تقييدٌ إقناعيٌّ يزيد المتلقين إيقاظًا وتقديرًا لهذا المهل؛ فهو مهلٌ مذلٌّ يأخذون منه ما يشاءون ويدعون ما يشاءون، دون منغصات تمنعهم فيه من الطاعات والتزود بالخيرات.

ب-١-ج- (ما) و(إلا):

وقد تكرر هذا النوع من القصر في المدونة، ومنه قول بشير بن سعد رضي الله عنه يوم السقيفة: ((يا معشر الأنصار، إنَّا والله لئن كنَّا أولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربنا، وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا؛ فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضًا، فإنَّ الله وليَّ المنة علينا بذلك))^(٢).

حين افترق المهاجرون والأنصار في مال الأمر بعد وفاته صلى الله عليه وسلم استند كلُّ فريقٍ منهم رضي الله عنهم إلى بلائهم في الدعوة وبذلهم في سبيل نصره الحق، إلا أنَّ بشيرًا رضي الله عنه قد عمد بهذا الاستثناء إلى بيان الغاية الحقيقية من بلاء الأنصار وخدمتهم للدعوة، فلم يكن لهم بذلك من غاية سوى رضا الله جلَّ جلاله وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم وطلب الآخرة.

وإذ يعدل الخطيب رضي الله عنه في هذا المقام الحرج إلى هذا الأسلوب من القصر، فإنَّه إنما أراد أن يوجِّه به متلقيه من الأنصار رضي الله عنهم، ويتحوَّل بهم إلى نتيجة دقيقة ومحددة تكفيهم شرَّ الوقوع في الخلاف وتحفظ لهم قدرهم وسابقتهم، وبذلك فإنَّها تظهر الطاقة الإقناعية المهمة لهذا الحصر؛

(١) جمهرة خطب العرب، ج٣، ص١٢٣.

(٢) السابق، ج١، ص١٧٧.

من جهة جدواه الظاهرة في فضّ الخلاف وجمع الكلمة.

وغير خافٍ أثر تفضيل النفي بالجملة الفعلية: (ما أردنا إلا رضا ربنا) على النفي بالجملة الاسمية (ما قصّدنا إلا رضا ربنا)؛ ذلك من جهة التركيز على حدث الإرادة الذي دفعهم لأن يكونوا (أولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين)؛ فغاية الخطيب هي تسليط الضوء على الفعل المحرّك لتلك الفضيلة ولهذه السابقة^(١).

ونحوه، ما ورد في خطبة عبید الله بن زياد (أمير العراق) عندما اضطرب الأمر بموت يزيد بن معاوية، إذ قام في أهل البصرة فكان مما قاله: ((يا أهل البصرة، انسبوني؛ فوالله ما مهاجرٌ أبي إلا إليكم، وما مولدي إلا فيكم، وما أنا إلا رجلٌ منكم))^(٢).

لقد أدرك ابن زياد هشاشة موقفه وهوانه على أهل العراق بعد تولي الأمر عن يزيد بن معاوية، فأراد أن يمدّد نفسه بسببٍ منطقيٍّ يُبقي مكانته، ويحفظ منزلته لدى أهل العراق، وإن لم يكن منهم من حيث الأصل، فكان القصر بـ(ما وإلا) سبيله الأمثل إلى ذلك؛ فهو جديرٌ بولايتهم، وهو أيضًا أحقُّ الناس بهم؛ لأنهم لن يجدوا أباه قد اختار وفضّل بلدًا سوى بلدهم، ولن يجدوا للخطيب مسقط رأس سوى هذا البلد، ولن يجدوا قومًا يمكن أن يكون منهم الخطيب سواهم.

وإلى جانب القسم والحصر، فإنّ لتدرج الخطيب في القرب من أهل العراق، بدءًا من اختيار بلدهم مهجرًا من قبل والده ثم ولادته فيه ثم نشأته به، وفي كنف أهله، دورًا في زيادة معنى الحصر وتأكيده، فالأمر لم يكن حدثًا عارضًا يزول بزوال يزيد؛ بل هو حصيلة سنوات من المعيشة تُثبت منطقيًا تجذّر الخطيب وعمقه في هذا المجتمع.

وعلى منواله، قول المهلب بن أبي صفرة حين مال الخوارج على جيشه وانحزم الناس: ((والله ما بكم من قلة، وما ذهب عنكم إلا أهل الجبن والضعف والطمع والطبع^(٣)، إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله))^(٤).

(١) ينظر: بحث: القصر بالنفي والاستثناء في نصح البلاغة: دراسة دلالية، مرجع سابق، ص ١١٥.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣٢٩.

(٣) الطبع: الشين والعيب. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢١، ص ٤٤١.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٤٤٩.

فلأنَّ قوله: (والله ما بكم من قلَّة) يقتضي تساوُلًا مقدَّرًا في نفوس المتلقين، من قبيل: (كيف لا يكون بنا قلَّة وقد ذهب عن الجيش عدد لا يُستهان به؟)، وإذ إنَّ النفي بـ(ما) يأتي في سياق الردِّ على القول أو ما أنزل منزله^(١)، ولما يستدعيه هذا المقام الضيق والحرج من تكثيف وتأثير وتعبئة معنوية، فقد أخرج الخطيب كلامه على هذا الوجه من القصر: (ما ذهب عنكم إلا أهل الجبن والضعف والطمع والطبع)؛ ليردَّ على هذا التساؤل المقدَّر برِدِّ مكثَّف ومركِّز كفيل بأن يُعيد التوازن إلى جيشه، ويبعث الحميَّة في نفوس جنوده؛ فأنتم أيُّها الباقون موفورون منزَّهون ممحصون؛ لأنَّه لم يذهب عنكم إلا مَنْ لا يُنتفع بقتاله.

لقد استطاع المهلب بفاعلية هذا القصر أن يقلب المعادلة من النقص إلى الزيادة، ومن الضعف إلى القوة؛ فما يظنُّه المتلقون نقصًا وضعفًا هو في حقيقته زيادة وقوة أحرزوها بانصراف أهل الجبن والضعف والطمع والطبع عنهم؛ فلو بقوا فيهم ما زادوهم إلا حَبَالًا وخسارًا.

ومما جرى مجراه، ما ورد-أيضًا- في اعتذار الوليد بن عبد الرحمن بن غانم لصديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز، إذ كان من قوله في تلك الخطبة: ((إنَّه ما قصَد أن يجود بنفسه إلا رضا للأمير، واجتنابًا لسخطه، فإذا كان ما اعتَمَد فيه الرضا جالب التصدير، فذلك معدودٌ في سوء الحظ))^(٢).

فإذ تعيَّن كثرة ورود القصر بالنفي والاستثناء في مقام الردِّ والإنكار، فإنَّما سلكه الخطيب في هذا المقام؛ ليردَّ به كلَّ ما قد يُرمى به الوزير من دعاوى باطلة، وليبيِّن أنَّه حين صبر على القتال، وأورد نفسه موارد الأسر والموت فإنَّه إمَّا فعل ذلك لأموٍرٍ خالصة وهي: الفوز برضاك أيُّها الأمير، واجتناب ما قد يجلبه فراره من سخطك، وبهذا الحصر فإنَّ الخطيب يكون قد نجح في قلب النتيجة لصالح الوزير، ولم يترك لمُغرضٍ طريقًا ولا قولًا سوى شكر هاشم والوفاء له.

إنَّ الخطيب حين يحصر سبب بقاء هاشم في المعركة في هذين الأمرين وينفي ما سواهما عنه، فإنَّه لا يُبطل بذلك ما زُمي به فقط، بل يُظهره في لباس المخلص المُجرب الذي يفدي الأمير بنفسه دائمًا، مهما تغيَّر الناس أو تنكروا.

(١) ينظر: معاني النحو، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٩٤.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٦٨.

بما مضى من أمثلة وتناول، يظهر واضحًا الدورُ الحجاجيُّ لهذا النوع من القصر، وذلك من خلال تركيزه وكثافته، ومن خلال تحديده الناتج عن شموليته وفاعليته في إزالة جميع ما قد يرد على الأذهان، وحصره الإمكانيات المتعددة في المقصور عليه دون غيره.

ب-٢- (إِنَّمَا):

وتأتي «الخبر لا يجمله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لما يُنزَلُ هذه المنزلة؛ تفسيرُ ذلك أنك تقول للرجل: (إنما هو أخوك) و(إنما هو صاحبك القديم)، لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويُقرّ به، إلا أنك تريد أن تُنبهه للذي يجب عليه من حقّ الأخ وحُرمةِ الصاحب»^(١)، كما تأتي أيضًا لدفع ظنّ المتلقي حيال أمرٍ ما، كأن تقول لمن ظنَّ أن غير زيدٍ هو الآتي: (إنما جاءني زيد)^(٢).

ومن حيث موقع المقصور والمقصور عليه من (إنما)، فإنَّ المقصور يقع بعدها دائمًا في حين يتأخر المقصور عليه عن المقصور وجوبًا^(٣)، وهي (إنما) وإن كانت أداة واحدة إلا أنَّها تتضمن معنوي: النفي والاستثناء؛ من جهة إثبات المذكور بعدها ونفي ما سواه^(٤)، «ولذلك تسمع المفسرين لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾^(٥) (بالنصب) يقولون: معناه ما حرّم عليكم إلا الميتة»^(٦).

ولهذه المعاني مجتمعةً، فإنَّ القيمة الحجاجية ل(إنما) تظهر من جهة كونها أداةً توجّه الملفوظ توجيهًا ظاهرًا نحو نتيجة محددة ومؤكدة؛ ذلك أنَّها تقرُّ ما بعدها، وتقيد وتلحّ عليه، وتبطل كلَّ ما سواه من معانٍ أخرى غير مقصودة^(٧).

(١) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٣٣٠.

(٢) ينظر: السابق، ص ٣٣٦.

(٣) ينظر: في البلاغة العربية (علم المعاني، البيان، البديع)، مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٤) ينظر: لسان العرب، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٤٥.

(٥) سورة: البقرة، الآية: ١٧٣.

(٦) مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر السكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، ط ٢، ص ٢٩١ (دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ).

(٧) ينظر: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مرجع سابق، ص ٥٤.

وقد تكرر ظهور هذا العامل في عدد من خطب المدونة، ولعلَّ من أولها بالذكر خطبة أبي طالب بشأن زواج النبي ﷺ بخديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، حيث يقول: ((ثم إنَّ محمد بن عبد الله ابن أخي؛ مَنْ لا يوازن به فتى من قريش إلا رجع عليه: بَرًّا وفضلاً، وكرمًا وعقلًا، ومجدًا ونُبلاً، وإنَّ كان في المال قِلٌّ؛ فَإِنَّمَا المال ظلُّ زائلٌ، وعاريةٌ مسترجعةٌ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتُم من الصداق فعَلَيَّ))^(١).

لَمَّا خشي أبو طالب أن يكون المال عائقًا يحول دون زواجه ﷺ من السيدة خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أراد أن يُذكَر أولياءها بحقيقة المال وينبهم إلى أنه لا يمكن أن يكون معيارًا للقبول والردِّ؛ إذ هو مما لا يُضمن بقاءه ولا يُوثق باستمراره.

إنَّ في الاقتصار على وصف المال بهاتين الصفتين، المبينتين على تشبيه المال بالظلِّ الزائل والعارية المسترجعة، تقليلاً ظاهرًا لشأن المال وتحقيرًا غير خافٍ له، إذ حمل هذا الحصر معنى نفى كلِّ الصفات الأخرى عنه؛ كأنَّ يكون عزًّا، أو شرفًا، أو قدرًا يعيب فقده صاحبه^(٢).

ومتى ورد أسلوب القصر في معرض صورة بيانية فإنه يكون أوفى في الدلالة على المعنى والإحاطة به، ذلك بفعل تضافر التصوير مع التوكيد الذي يمنحه القصر بـ(إنَّمَا) في أداء المعنى المقصود^(٣)، ومتى ترسَّخ المعنى واستيقنه المتلقون فإنهم لا بد أن ينتهوا إلى الاقتناع والإذعان ومن ثمَّ إنجاز الفعل المطلوب (الموافقة والقبول).

ومما استحسسه الباحث من شواهد هذا العامل في المدونة، قول سعيد بن قيس في خطبته التي يُثبَّت بها أصحاب عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ((فوالله الذي هو بالعباد بصير أن لو كان قائدنا رجلًا مخدوعًا إلا أنَّ معنا من البدرين سبعين رجلًا، لكان ينبغي لنا أن تحسن بصائرنا وتطيب أنفسنا، فكيف وإنَّمَا رئيسنا ابن عم نبينا، بدرئِي صِدْق، صلَّى صغيرًا، وجاهد مع نبيكم ﷺ كثيرًا))^(٤).

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٧٧.

(٢) ينظر: معاني النحو، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٣٣.

(٣) ينظر: بحث: القصر بالنفي والاستثناء في نهج البلاغة: دراسة دلالية، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٥٥.

فقد قصد الخطيب بـ(إنّما) التأكيد على ما اختُصَّ به عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من فضائل تجعله أحقَّ الناس بالنصرة وتحجب غيره؛ فهو أقرب الناس منه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأقدمهم هدايةً به وأكثرهم جهاداً معه، في حين أنّ غيره خارجون عن إطار الحقيقة؛ ذلك أنّهم لم يُختصوا بتلك الخصائص.

وإن كان من المنطقيّ التساؤل حيال سبب عدول الخطيب إلى هذا القصر، إذ إنّ أصحاب عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ليسوا بحاجة إلى التذكير بهذا المعنى والتنبيه عليه؛ فقد رضوا به وقاتلوا دونه وعادوا من سواه، فإنّ هذا العدول يُعلّل بما ذهب إليه الشيخ عبد القاهر، حين رأى أنّ (إنّما) «أقوى ما تكون وأعلق ما تُرى بالقلب، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه، ولكن التعريض بأمر هو مُقتضاه»^(١)، فليس الغرض من القصر هنا أنّ يعلم المتلقون تلك الخصائص العلوية، وإنّما الغرض التعريض بالمناوئين وبيان وجه قصورهم وعدم أحقيّتهم.

وأنت لو جرّدت هذا الشاهد من (إنّما) ثم فتّشت عن هذا القدر من المعاني لم تجدها، ومتى انصرفت أذهان المتلقين إلى هذه الجهة المعنوية فإنّهم لن يعدلوا بعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أحداً، ولن يروا غيره أهلاً للخلافة، وبذلك فإنّه يحصل المقصود من الثبات والتماسك، والقتال دونه والمدافعة عنه.

ومن الشواهد أيضاً، ما ورد في أوّل خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في خلافته، إذ يقول: ((أيها الناس، إنّما نحن من أصولٍ قد مضت فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله؟ وإنّما الناس في هذه الدنيا أغراض تننضِل^(٢) فيهم المنايا، وهم فيها نُصَب^(٣) المصائب))^(٤).

أراد عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يعظّ الناس بكلامٍ موجزٍ مكثّفٍ يبلغ فيهم مداه، ويرسخ في أذهانهم فجاء بهذا التصوير المؤثّر المدعم بالقصر بـ(إنّما)؛ ليؤكد ويشدّد على معنى الفناء الوشيك، فما أنتم أيها المتلقون إلا فروع لأصولٍ سبقتم إلى الآخرة، وأيُّ فرعٍ يمكنُ أن يبقى بعد ذهاب أصله؟ وأنتم لذلك لا تعدّون كونكم أغراضاً للمنايا، تختاركم كيف شاءت ومتى شاءت.

(١) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٣٥٤.

(٢) النّضل: الاختيار. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٠، ص ٥٠١.

(٣) النّصبة: علامة الطريق المنصوبة. ينظر: السابق، ج ٤، ص ٢٧٥.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٠٢.

ولئن استُشكِل سبب تفضيل الخطيب القصر بـ(إئِمَّا) على القصر بـ(النفى والاستثناء)، فإنَّ الإجابة على ذلك ظاهرة والعلَّة غير خافية؛ ذلك أنَّ الخبر بالنفي والإثبات يكون للأمر ينكره المخاطَب ويشكُّ فيه، في حين أنَّ الخطيب قد جاء بالقصر في هذه الخطبة بقصد التذكير بأمرٍ يقينية لا يمكن إنكارها أو الشكَّ فيها؛ ليبيِّن عليه استدعاء كلِّ ما يُوجِبُه كونهم على وشك الموت والفناء^(١).

وفي حين أنَّ هذا المعنى يُعدُّ من المعاني الدارجة محلَّ الاتفاق، فإنَّه يجدُّ القول بأنَّ «المعاني التي تدخل عليها (إئِمَّا) معانٍ مأنوسة قريبة من النفوس، فلا تدخل على الحقائق الغريبة والأفكار البعيدة، هذا هو الأصل فيها، تقول: (إئِمَّا هو أخوك) و(إئِمَّا هو صاحبك) و(إئِمَّا يأكل الذئب من الغنم القاصية) و(إئِمَّا يعجل من يخشى الفوت)، وهكذا أفكار قريبة لئِنَّة، وهذا بخلاف (ما وإلا) التي تسمع لها قعقعة وتجد لها حدَّة، ولذلك لا تُصاغ بها إلا المعاني النافرة والحقائق النادرة، التي من شأن النفوس أن تُنكرها وتقيم دونها الأسوار، ومن هنا رأيناها كأثْمًا حِراب يفتح بها المتكلم أبواب القلوب»^(٢).

ومما جرى مجراه، قول أبي جعفر المنصور في خطبته بمكة: ((أيها الناس: إئِمَّا أنا سلطان الله في أرضه؛ أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله؛ أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه، فقد جعلني الله عليه قفلاً، إن شاء أن يفتحني فتحي لإعطائكم وقسم أرزاقكم، فإن شاء أن يقفلني عليها أفقطني))^(٣).

فمزيداً من التأكيد على معنى الأحقيَّة والأفضلية فإنَّ أبا جعفر قد جعل نفسه محصورةً على تلك الوظيفتين: (سلطان الله في أرضه) و(حارسه على ماله)؛ فما هو إلا سلطان الله في أرضه وحارسه على ماله، وعليه فإنَّ السُّلطة وما تحتها من المال يقع تديرهما-من قِبَل الخليفة-بتدبير الله تعالى وإلهامه وتوفيقه، وما عدا ذلك فإنَّه أباطيل مستبعدة.

وإذا كانت (إئِمَّا) مختصةً بما لا يُنكر أو يُشكُّ فيه، فإنَّ الخطيب قد عدل إليها في هذا الأمر المشكوك فيه المتنازع عليه، ليصوِّر الأمر على أنه «معلومٌ، ويدَّعي أنه من الصحة بحيث لا يدفعه

(١) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٣٣٠.

(٢) دلالات التراكيب، مرجع سابق، ص ١٤٨.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٢٧.

دافع^(١)، ولا يحتاج إلى تقرير وتأکید.

ولقوة دلالة (إنما) على أنّ ما تدخل عليه قطعيّ دارج، ولتمكّنها من هذه الدلالة وغلبة هذا المعنى عليها، فإنّها تفيض على الشيء غير القطعي فتصيرّه دارجًا مألوفًا، في حين أنّ القصر بالنفي والاستثناء- في هذا المقام غير القطعي- يُسقط ما في (إنما) من هذا الإحساس والإيهام والإيحاء الخافت بأنّ تلك حقيقة ظاهرة لا وجه لإنكارها، وبذلك فإنّ القصر بـ(إنما) يُعدُّ ضربًا من تقرير الحقائق يفوق كلّ صور التوكيد، ثم هو ضرب تكتيفيّ يَغْنَى به المعنى، ويعظّم أثره^(٢).

لقد كشفت الأمثلة السابقة عن أثر (إنما) في الإقناع ودورها، ذلك من جهة طاقتها التوكيدية القائمة على الإثبات والنفي، ومن جهة كثافتها الناتجة عن أدائها معنى النفي دون النصّ عليه، وحملها- كما رأينا- لبعض المعاني الزائدة على معنى التأكيد والنفي.

ومن خلال ما دُرِس من أساليب القصر وشواهد، فإنّه يمكن القول بأنّ القصر من أهمّ الموجّهات اللغوية اليقينية، فبالعدول إلى القصر يخرج الخبر المجرد من قيمة الإخبار متعددة الإمكانيات إلى كونه قولًا ذا نتيجة مؤكدة محدّدة وملزمة، بعيدًا عن الغموض والالتباس، ذلك إلى جانب ما كشفت عنه بعض أساليب القصر المدروسة من معانٍ مقامية لا تحفى.

*** **

وبدراسة هذا القدر من العوامل فإنّه يتّضح دورها الرئيس في نقل الملفوظ الحجاجي من الدلالة الإخبارية الإبلاغية إلى الدلالة الحجاجية؛ بفعل ما ينتج عن وسم الجملة بتلك العوامل من التركيز ومضاعفة التوجيه نحو النتيجة المقصودة والتأكيد عليها، واستبعاد غير المقصود من المعاني المحتملة.

وإذ تؤدي العوامل مهمّتها الحجاجية دون إضافة مضمون خبريّ جديد ودون المساس بالقيمة الإخبارية (الإبلاغية) للجملة، فإنّها إنّما تُلجّ على أنّها إنّما تأسست بغرض الإقناع ومن أجله، فهي عوامل حجاجية قبل أن تكون مفرداتٍ نحوية أو معجميّة.

إنّ العوامل بهذا المعنى مُحدّدت أو موجّهات أو إشارات لغوية غايتها القضاء على الالتباس

(١) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٣٥٧.

(٢) ينظر: دلالات التراكيب، مرجع سابق، ص ١٥٥-١٥٦.

والغموض والتعدد، وإرشاد المتلقي وحمايته من الضياع والتشتت، وغني عن القول بأن وضوح القول وجلاء الغاية منه مظنة صدقه وتصديقه.

ولا يُبالغ من يذهب إلى أنّ الخطبة أشدّ ما تكون افتقاراً إلى تلك العوامل وأكثر الخطابات ارتباطاً بها؛ ذلك لأهميتها ودورها في التركيز والتكثيف، ولوظيفتها المتعيّنة في التخفيف من ذاتية نصّ الخطبة وأحادية صوته، بفضل ما تحمله بعض تلك العوامل من سمات التظاهر بالحياد والموضوعية (العوامل الشكّية)، وسمات التظاهر بتعددية الأصوات (عوامل النفي).

وإنّ بدت مقولة التوكيد شاملة للعديد من العوامل فقد رأى الباحث أن يؤجل دراسة هذه العوامل إلى المبحث التالي؛ ليكون مختصّاً بالتوكيد عامة؛ إنّ على سبيل العوامل، وإنّ على سبيل الطُّرق التوكيدية الخارجة عن حدود العوامل.

المبحث الثالث: التوكيد:

ويتضمن موضوعُ التوكيد في الحجاج كلَّ ما ذكره النحاة وتناوله البلاغيون من العوامل والطَّرَق المؤدِّية إلى تَقوية المعنى وتقريره في النفس وتمكينه منها^(١)، ومثل بقية الأساليب فإنَّه يمكن دراسة التوكيد حجاجياً من خلال معيار العدول عن درجة الكلام العاديِّ المتعارف عليه في أوساط المتكلمين الذين ليسوا في رتبة البلاغة؛ ذلك أنَّ الكلام البليغ يتراوح- كما يرى السكاكي وآخرون- بين إيجازٍ يتمُّ به أداء المقصود بأقلِّ من العبارات المتعارفِ عليها؛ مثل أسلوب (الحذف)، وإطنابٍ يؤدِّي به المقصود بأكثر من العبارات المتعارفِ عليها في الأوساط؛ كما عليه الحال في أسلوب (التوكيد)^(٢).

إنَّ التوكيد بهذا المعنى أسلوبٌ إقناعيٌّ قائمٌ على العدول المحمَّل بالقصد، فلئن كان الأصل في الكلام تجرّده من التوكيد، فإنَّ المتكلم كثيراً ما يجد نفسه بحاجةٍ إلى العدول عن هذا الأصل ومخالفته؛ بُغية إفادة معنى مقاميّ تأكيديّ زائدٍ على معنى الكلام الأصليِّ^(٣).

وبناء عليه، فسيعنى هذا المبحث بدراسة العدول التأكيدي من جهة دوره في تعزيز مواقف المتكلم، وتمكينها وترسيخها في نفوس متلقيه؛ بفعل ما تحمله عوامل التوكيد وطرقه من طاقة تركيزية «تحقُّق الجملة، وتثبت قدمها في الصدق»^(٤)، وتزيل ما علق في نفس المخاطب حيالها من الشكِّ والتردد والالتباس، وتُخرِّج المعاني من كونها محتوى نظرياً مجرداً، ومن كونها محتوى إخبارياً محايداً، إلى كونها محتوى ذاتياً مؤثراً^(٥).

(١) ينظر: دراسة وظيفية لأسلوب التوكيد في القرآن الكريم، عائشة عبيزة، أطروحة دكتوراه، ص ٢١، جامعة الحاج لخضر، الجزائر، باتنة، (٢٠٠٨-٢٠٠٩م).

(٢) ينظر: مفتاح العلوم، مرجع سابق، ص ٢٧٦. ومعتك الأقران في إعجاز القرآن، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢٢. وقراءات مع: الشايبى والمنتبي والجاحظ وابن خلدون، عبد السلام المسدي، ط ٤، ص ١٣١ (دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٣م). والكتابة في درجة الصفر، رولان بارت، ترجمة: محمد نديم خشفة، ط ١، ص ١٥-٢٠ (مركز الإنماء الحضاري، حلب، ٢٠٠٢م).

(٣) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

(٤) المقتصد في شرح الإيضاح، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: كاظم بحر المرجان، ج ١، ص ٤٤٨ (دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٢م).

(٥) ينظر: في النحو العربي: نقد وتوجيه، مرجع سابق، ص ٢٣٤. والحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٢٨٣. والحجاج في الخطاب: مقاربات تطبيقية، مرجع سابق، ص ٤٣.

وقد ظهر الاهتمام بهذا النوع من العدول منذ زمنٍ متقدّم، حيث أدرك بلاغيّونا القدامى عندَ دراستهم لـ(الخبر) أهمية التوكيد وأثره؛ فجعلوا الخبر أضرباً متفاوتةً بحسب تفاوت مقاماتها المبنية على مقتضى الحال؛ منطلقين في ذلك من أنّ الأصل في الكلام: الإتيان بالخبر المفيد مع مراعاة حال المخاطب؛ بأن يكون الخبر موافقاً في إنشائه لحال المخاطب من حيث خلوّ ذهنه، أو تردده وشكّه، أو إنكاره؛ «فإن كان المُخاطَب ساذجاً أُلقي إليه الكلام خالياً عن التأكيد، وإن كان متردداً فيه حَسُنَ تَقْوِيَّتُهُ بِمُؤَكِّدٍ، وإن كان منكرًا وجب تأكيده، ويُراعى فيه القوّة والضعف بحسب حال المنكِر»^(١)، وكان حصيلة هذا الإدراك المُبكر لحال المخاطب وما يترتب عليها من مردودات دلالية مهمّة في توجيه المعنى أنّهم صنّفوا الخبر وجعلوه على أضرب ثلاثة^(٢):

الأول: الخبر الابتدائي:

وهو الخبر المُلقى على سامعٍ خالٍ ذهنه من الحكم قبل إلقائه، وابتدائيةً هذا الضرب ناشئة عن كونه خبراً لم يسمع المتلقي به من قبل، والمألوف أن يكون هذا الخبر جارياً على أصل الكلام من حيث خلّوه من أدوات التوكيد؛ إذ لا يتجاوز الأمر حدود الإخبار المثبت المجرد، مثل: (قام زيدٌ) و(قعد عمرو)؛ فيفترض بمُلقى هذا الضرب من الأخبار أنّه لا يتوقّع من سامعه أدنى شكٍّ أو تردّد.

الثاني: الخبر الطلبي:

وهو الخبر المُلقى على شاكٍّ به أو متردّدٍ متحيّرٍ في قبوله، ومهمة التوكيد في هذا الضرب هي إنقاذ المتلقي وتخليصه من مأزق الحيرة واللبس، ولأنّ حال متلقي الخبر الطلبي لا تتجاوز الشكّ والتردد، فإنّ على المُلقى الاكتفاء بأداةٍ واحدة من أدوات التوكيد؛ كإدخال (اللام)، أو (إنّ) كما في: (لزيد قائمٌ) و(إنّ زيداً قائمٌ)، وبموجبه فإنّ من أبرز أمارات هذا الضرب اكتفاءه بوسيلة واحدة من وسائل التوكيد.

(١) البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٩٠.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم، مرجع سابق، ص ١٧٠-١٧١. ودروس في البلاغة العربي، الأزهر الزناد، ط ١، ص ١٠١-١٠٢.

(المركز الثقافي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ١٩٩٢م).

الثالث: الخبر الإنكاري:

وهو الخبر المُلقَى على مُنكِرٍ له معتقِدٍ خلافه، والأصل أن يكون هذا الضرب من التوكيد موازيًا في مؤكِّداته لحال متلقيه الإنكارية، كأن تقول: (إني صادق)؛ لمن يُنكر صدقك إنكارًا، و(إني لصادق)؛ لمن يُبالغ في إنكار صدقك، و(والله إني لصادق)؛ لمن لا يتصوّر صدقك.

وبهذا التوظيف فإنّ الضربين الأخيرين-الطلبى والإنكاري-يمثلان عدولًا ظاهرًا عن المتعارف عليه من الكلام، بقصد تقوية مفهوم ما، أو حكم ما، ذلك أنّ «العدول عن (ب) إلى (أ) يضيف إلى الكلام شيئًا لم يكن في الصورة (ب)، وهذا الشيء المضاف هو الذي يقوِّي الاتجاه نحو (ن/ النتيجة)...، إنّ المعنى الثاني الزائد على أصل المعنى المستفاد هو الذي يعمّق درجة الإقناع بالنتيجة التي يوجّه إليها الملفوظ»^(١).

وحصيلته، أنّ الجمل التأكيدية في هذين الضربين تُطابقُ «أنماطًا مقامية مختلفة تتميز بموقف المخاطب من فحوى القضية، انطلاقًا من مجرد التردد في قبول الفحوى إلى الإنكار التام له»^(٢)، مما يُبرّر اتصاف اللغة بالحجاج ويُقرّر ملازمتها له، إذ إنّ تردد الكلام بين هذه الأضرب الثلاثة يستلزم «توظيف تقنيات الحجاج التي تدفع الشكّ أو الجحود أو التردد لدى المتلقين»^(٣).

وإنّ كان الباحث قد وقف على ما تنبّه إليه القُدّامى بشأن العدول في هذين المستويين، فإنّ دراسته لن تقف عند حدودهما؛ إذ سيتناول التوكيد من منظورٍ شموليٍّ-للخبر والإنشاء-يتأسس على مبدأ تصنيف الكلام إلى صنفين؛ «يهدف أحدهما»^(٤) إلى أن يكون معلومة أو معلومات خالصة، ويقع تحت هذا النوع كلُّ معلومة أو خبر موضوعيٍّ، بدءًا من الإخبار بحدث غير ذي أهمية كبيرة، وانتهاء بأشدّ النظريات أو القوانين العلمية تركيبًا وتعقيدًا، فيكتفي المرسل في مثل هذا النوع من الرسائل بأنّ تصل المعلومة إلى المستقبل فيفهمها ويكون الفهم هو المحطّة النهائية لها،

(١) البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو (الحجاج)، عبد الله صولة، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٨.

(٢) قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي، أحمد المتوكل، ص ١٨٨ (دار الأمان، الرباط، ١٩٩٥م).

(٣) بلاغة الخطاب المكتوب: دراسة لتقنيات الحرف واللون والصورة في خطاب الدعاية التجارية، أمينة رقيق، أطروحة دكتوراه، ص ١١٧، جامعة محمد خيضر، الجزائر، بسكرة (٢٠١٣-٢٠١٤م).

(٤) المكتفي عن التوكيد.

ويهدف **الصنف الآخر**^(١) إلى إقناع المتلقي بمضمون الرسالة، ولذلك فإنَّ رسالةً هذا شأنها تتجاوز الفهم إلى أن تكون محلَّ اقتناع لدى المستقبل، وقد يترتب على الاقتناع أن يعتقد المستقبل بصدق الرسالة لا بمجرد صحَّتها، وأن يجعل احتمال توجيهها لأفعالها أمرًا واردًا؛ إمَّا بفعل الحدث وإمَّا بالكفِّ عنه وتركه^(٢).

وشأنُ (الخطبة) مع التوكيد شأنُ سائر الخطابات الأخرى؛ فمَهْمَا اكتفى الخطيب عن التوكيد إلاَّ أنه سيجدُ نفسه - بفعل ظروف المقام وحالة المتلقي - مضطرًّا إليه في بعض مواضع خطبته؛ مما يجعل الخطبة تتراوح غالبًا بين هذين الصنفين المذكورين^(٣).

ولاتِّساع موضوع التوكيد واشتماله على كلِّ ما يصلح في العربية لأداء مهمة التقرير والتمكين من (الحروف، والأسماء، والأفعال، والمركِّبات)^(٤)، فقد حرص الباحث في هذا المبحث المستقلَّ أن يدرس أشهر أدوات التوكيد وطُرُقَه المتداولة في المدونة المدروسة^(٥)، وذلك من خلال العناوين الآتية:

١- التوكيد باسمية الجملة:

لئن كان هذا المبحث معنيًّا بدراسة العدول بالزيادة بغرض التوكيد، فإنَّه لا يمكن تحطِّي التوكيد باسمية الجملة، إذ تُعدُّ الجملة الاسمية آكد في المعنى وأمكن في الدلالة من أختها (الفعلية)؛ بفعل ما تحمله في طيَّاتها من سمات الثبات والاستمرار.

وبخِلْوِ الجملة الاسمية من زيادات الإثبات والتقرير فإنَّها تشكِّلُ أولى درجات التوكيد ومراتبه؛ ذلك أنَّه متى ما قصد المتكلِّمون «مجرّد الخبر أتوا بالجملة الفعلية، وإنَّ أكَّدوا فبالاسميَّة»^(٦).

(١) المفتقر إلى التوكيد.

(٢) ثلاثية اللسانيات التواصلية، سمير شريف إستيته، مجلة عالم الفكر، المجلد ٣٤، العدد ٣، ص ٢٣ (مارس، ٢٠٠٦م).

(٣) ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، محمد العمري، ط ٢، ص ٤١ (دار إفريقيا الشرق، بيروت، ٢٠٠٢م).

(٤) ينظر: دروس في البلاغة العربية، مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٥) سيتجاوز الباحث ما سبق تناوله أو سيتم تناوله في المباحث الأخرى، وهي: (لكنَّ، القصر، الاستثناء، القسم، التكرار اللفظي، التكرار المعنوي).

(٦) البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٩١.

وقد عُني علماءنا الأوائل بالمعنى التأكيديّ للجملة الاسمية، فدرسوا «الفرق بين الإثبات إذا كان بالاسم، وبينه إذا كان بالفعل: وهو فرق لطيف تَمَسُّ الحاجة في علم البلاغة إليه...؛ وبيانه أن موضوع الاسم على أن يُثبَّت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدُّده شيئاً بعد شيء، وأمَّا الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدُّد المعنى المُثبَّت به شيئاً بعد شيء؛ فإذا قلت: (زيدٌ منطلقٌ)، فقد أثبتَّ الانطلاق فعلاً له، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئاً، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: (زيد طويل) و(عمرو قصير)؛ فكما لا تقصد ها هنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجبهما وتثبتهما فقط وتقتضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض في قولك: (زيدٌ منطلقٌ) لأكثر من إثباته لزيد، وأمَّا الفعل، فإنَّه يُقصد فيه إلى ذلك، فإذا قلت: (زيدٌ ها هو ذا ينطلق)، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً، وجعلته يُزاوله ويُزجيه»^(١).

وإلى ما سطره القدامى، فقد كان المحدثون على وعيٍ تامٍّ بما تحمله الجملة الاسمية من طاقة ومعنى، ومما استجاده الباحث في هذا المضمار، ما ذهب إليه مصطفى الجويني من أن «الجملة الاسمية-إزاء الجملة الفعلية-حكما أشدَّ توكيداً، ومما يثبت أهمية الجملة الاسمية أن النحويين قالوا: إنَّ المصدر هو الأصل الذي يُشتقُّ منه الفعل»^(٢).

وقد ذهب بعض الباحثين المحدثين إلى أن الجملة الاسمية ليست سوى «محاولة لجعل ما نقوله يقع خارج دورة الزمان؛ فلا تُلابسه ذاتيةٌ ولا يداخله انحيازٌ؛ فتكون أقوالنا بمنزلة الحقائق والمسلّمات، كما أن في التعبير بالجملة الاسمية تكثيراً للمعاني»^(٣)، في حين تفتقر الجملة الفعلية إلى هذه الخصائص الاسمية.

وزيادة القول وخلاصته أن المتكلم لا يعدل عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية إلا بقصد «التأكيد والمبالغة»^(٤)؛ «فنوفاً الجملة لا يتميَّز أحدهما عن الآخر بنوع العناصر المكوِّنة لها بقدر

(١) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٢) البلاغة والنقد، مصطفى الصاوي الجويني، ص ١٩٦ (الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٧٥ م).

(٣) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٤٤٠.

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٣٤.

ما يتميِّز بالمعنى الذي تؤدِّيه»^(١).

وفيما يلي فإنه وقع اختيار الباحث على عددٍ من الشواهد التي شكَّلت الجملة الاسمية فيها ظاهرةً تستدعي الاستبانة والدرس، من قبيل قول قس بن ساعدة الإيادي في خطبته المشهورة في سوق عكاظ: ((أيها الناس، اسمعوا وعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ، ليلٌ داجٍ^(٢)، ونهارٌ ساجٍ^(٣)، وسماءٌ ذات أبراجٍ، ونجومٌ تزهر^(٤)، وبحارٌ تزخر، وجبالٌ مُرساة، وأرضٌ مُدحاة، وأنهارٌ مُجراة))^(٥).

فيظهر جلياً في هذا الشاهد الدور الحجاجي للجملة الاسمية؛ إذ نفد الخطيب من خلالها إلى تقرير العديد من المعاني وتمكين نتائجها، ذلك أنّ الاسمية تعمل على تثبيت المعاني وحمايتها من التبدل، «فهي لا تنقل معطًى حديثاً، وإنما تُقرّر حُكماً لا زمنياً دائماً، يفعل في النفوس فعل حجة السُّلطة»^(٦)، ممّا أحال معاني هذا الشاهد إلى عِبَرٍ وآياتٍ ظاهرة ينبغي أن تكون محلّ نظر المتلقي، ومحطّ اعتباره واعترافه بوجود خالقٍ مدبّرٍ لهذا الكون بشقّ مظاهره.

وإن كان لقائل أن يقول بعدم ملاءمة معنى الثبوت لتلك الظواهر الكونية دائبة الحصول؛ غير قارّة الذات، فإنّ القول في ذلك أنّ دلالة الثبوت الحاصلة بالاسمية لا تفيد الجمود في هذا المقام، وإنما تُفيد ثبوت التجدد ودوامه- في جميع الأزمنة- من غير ابتداءٍ طارئٍ^(٧).

ولا تخلو عدد من الجمل الاسمية في هذا الشاهد من معنى التأكيد بالتكرير الحاصل بفعل تقديم ما هو فاعل في أصل المعنى على فعله؛ إذ يحمل هذا التركيب معنى تكرار الفاعل مرتين؛ من جهة جريان الإسناد إلى المسند إليه مرتين؛ ظاهراً ومضمراً (نجوم تزهر هي، بحار تزخر هي،

(١) مساهمة في تحديد الجملة الاسمية، عبد القادر المهيري، مجلة حوليات الجامعة التونسية، العدد ٥، ص ٨ (١٩٦٨م).

(٢) داج: مُظلم. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٨، ص ٣٣.

(٣) ساج: دائم أو ساكن. ينظر: السابق، ج ٣٨، ص ٢٤٧.

(٤) تزهر: تُضيء وتتألأأ أو تُشرق. ينظر: السابق، ج ١١، ص ٤٧٦.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٨.

(٦) الحجاج في الخبر الأندلسي: حجاجية التخيل وتخييل الحجاج، محمد الناصر كحولي، ط ١، ص ١١٢ (نادي القصيم الأدبي، القصيم-بريدة، ٢٠١٦م).

(٧) ينظر: تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص ١٠٧١. وشروح التلخيص، ج ٢، ص ٢٧ (دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت).

وهكذا^(١)، ذلك إلى ما في الابتداء بالفاعل والثنية بالفعل من شدّ ذهن المتلقي وإثارته واستفزاز توقّعه وتوجيهه إلى المتابعة؛ فلمّا كان المتلقي يعرف المبتدأ كما يعرفه الخطيب ويجهل ما يخبره الخطيب به عنه، أفاده الخبر فصَحَّ بذلك الكلام واكتمل، ودخل به الخبر دخول المعنى الموطأ له والمنبّه عليه والمأنوس به^(٢).

ومن قبيله، قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إحدى خطبه: ((أصدقُ الحديثِ كتابُ الله، وأوثقُ العُرَا كلمةُ التقوى، أكرمُ المللِ ملّةُ إبراهيمَ، وخيرُ السُّننِ سُنّةُ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خيرُ الأمور أوسطُها، وشرُ الأمور محدثاتها. ما قَلَّ وكفى خيراً مما كثر وأهلى، خيرُ الغنى غنى النفس، وخير ما أُلقي في القلب اليقين. الخمرِ جماع الآثام، النساءِ حِبالة^(٣) الشيطان، الشباب شُعبة من الجنون، حُبُّ الكفاية مفتاح المعجزة، شرُ الناس من لا يأتي الجماعة إلا دَبْرًا^(٤)، ولا يذكر الله إلا هَجْرًا^(٥)، أعظم الخطايا اللسان الكذوب، سبب المؤمن فسقٌ وقتاله كفرٌ وأكل لحمه معصيةٌ، من يتألَّ على الله^(٦) يُكذِّبه، ومن يَغفر له، مكتوب في ديوان المحسنين: من عفا الله عنه، الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وُعظ بغيره، الأمور بعواقبها، ملاك العمل خواتيمه، أشرف الموت الشهادة، مَنْ يعرف البلاء يصبر عليه، وَمَنْ لا يعرف البلاء ينكره^(٧))).

لِدلالة الجملة الاسمية على الثبات، ولما تحمله من معاني التحقّق والمبالغة والتمكين من النفس^(٨)، فقد اتخذ الخطيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منها أداةً جادّةً لتحديد عددٍ من الحقائق والأحكام التي لا

(١) ينظر: البلاغة العربية: أسسها وعلومها فنونها وصورٌ من تطبيقاتها بهيكلٍ جديد من طريفٍ وتليد، مرجع سابق، ج ١، ص ١٨٧.

(٢) ينظر: المقتضب، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: عبد الخالق عضيمة، ط ٣، ج ٤، ص ١٢٦ (لجنة إحياء التراث بوزارة الأوقاف بجمهورية مصر العربية، القاهرة، ١٣٩٩هـ). ودلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٣) الحِبالة: المصيدة. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٨، ص ٢٦٥.

(٤) دَبْرًا: آخرٌ وقتها. ينظر: السابق، ج ١١، ص ٢٦١.

(٥) الهَجْر: ضدّ الوصل. ينظر: السابق، ج ١٤، ص ٣٩٦.

(٦) التَّأَلَّى على الله: بأن يقول: والله ليُدخلنَّ فلانَ جهنّم أو نحو هذا القول. ينظر: السابق، ج ٣٧، ص ٩١.

(٧) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٨٠.

(٨) ينظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، ج ٢، ص ٢٦-٢٩ (المقتطف،

تقبل التغيير ولا تسمح بالتحول، مهما أولها المتأولون، ليكشف عن حقيقة وجود حدود ثابتة وعلامات مستقرّة ملزمة ينبغي أن يسير المسلم عليها وينتهي إليها.

وإن أمكن الخطيب تقديم هذه المعاني بالجملة الفعلية، فإنّ في الجملة الاسمية من التأكيد والثبات والقوّة ما لا يوجد في أختها الفعلية؛ «وليس ذلك إلا لأنّ الفعل يقتضي مزاولةً وتجدّد الصفة في الوقت، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مُزاولةً وتزجئة فعلٍ ومعنى يحدّث شيئاً فشيئاً»^(١).

وعلى النسق ذاته يجري عليّ رضي الله عنه إذ يحضّ أصحابه بقوله: ((أيها الناس، استعدّوا لقتال عدوّ، في جهادهم القربة إلى الله - عزّ وجلّ - ودرك الوسيلة عنده، قوم خيارى عن الحق لا يبصرونه، مؤزعين^(٢) بالجور والظلم لا يعدلون به، جفاة عن الكتاب، نُكّب^(٣) عن الدين))^(٤).

حيث أخذ رضي الله عنه الجملة الاسمية طريقاً إلى التعريف بخطر أعدائه والتحذير منهم مدى الدهر؛ من خلال وسمهم بعددٍ من المعاني الثابتة والملازمة لهم، المبيّنة لخطرهم وضلالهم ومجانفتهم عن الحق.

ولئن كانت النفوس قد تثوب إلى رشدّها ويصحّ طريقها ويتجدّد مذهبها، فإنّ عدوله رضي الله عنه إلى الاسمية - في وصفه للمقصودين - متضمّن معنى استمرار المقصودين على هذا النهج الجائر وملازمتهم له، ومخادنتهم للباطل في كلّ زمانٍ ومكانٍ، ولكأنتهم إنّما خلقوا مقترنين بهذه الصفات دون أن يكون لهم أدنى اختيار أو تصرف يمكنهم من تغييرها، وبذلك فإنّه يكون رضي الله عنه قد استطاع تقديم هذه الأوصاف على هيئة مقدّمات يقينية لافتة، تمنح القول قوّةً وتجعله أكثر تأثيراً وأقوى إقناعاً^(٥).

وإلى تلك المعاني فإنّه لا يخفى على البصير دلالة عدوله رضي الله عنه إلى الابتداء بالانكراة (قوم)؛

(١) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٢) مؤزعين بالجور: مولعين به. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٢، ص ٣١٩.

(٣) نُكّب عن الدين: حائدون عنه. ينظر: السابق، ج ٤، ص ٣٠٥.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٤١٩.

(٥) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٤٤٢.

من جهة التقليل من قيمة المقصودين، وعدم الاعتراف بهم ودمّ تلك الأفعال أيًا كان مصدرها؛ دون حصرها في قوم بعينهم.

وعلى المنوال نفسه يسير لسان الدين بن الخطيب في جزءٍ من مخاطبته لثربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني، حيث يقول: ((السلام عليك يا مقرّر الصدقات الجارية، ومُشبع البطون الجائعة، وكاسي الظهور العارية، وقادح زناد العزائم الوارية^(١)، ومكّتب الكتائب^(٢) الغازية في سبيل الله تعالى والسرايا السارية، السلام عليك يا حُجّة الصبر والتسليم، ومتلقي أمر الله تعالى بالخلق المرضي والقلب السليم، ومفوض الأمر في الشدائد إلى السميع العليم، ومُعمل البنّان الطاهر في اكتاب الذكر الحكيم))^(٣).

فهذا القدر من الجمل الاسمية المتتالية تمكّن الخطيب من إحياء ذكر السلطان وإبقاء أثره في العالمين، فكيف يُنسى أو يندثر ذكرٌ من لازمته تلك الصفات ولم يبرحها طوال حياته، حتى أصبحت عاداته التي لا يُفتّر عنها وديدته الذي لا يجيد عنه؟ في حين أنّ الإخبار عن محاسن المؤبّن بالفعل يسلبها هذا المعنى من التقرير والاستحكام^(٤).

وإنّه لا يخفى على متأمل هذا الشاهد أهمية الجمل الاسمية وأثرها في الإقناع؛ من حيث تقريرها لمآثر المؤبّن، وإبرازه على أنّه شخصية استثنائية يصعب أن يوجد الزمان بمثلها، وهذا بلا شكّ مما تقصرُ الجملة الفعلية عن أدائه وتحقيقه.

والملاحظ الحجاجي الذي يمكن أن يُخرج به من الشواهد السابقة هو أنّ الجمل الاسمية تُمثّل إحدى طرق الإقناع المثلى وسبله الوافية إلى تعيين القضايا والمبادئ وترسيخها، فضلاً عن قربها من طبيعة جنس الخطبة؛ من جهة تضمّنها (الجملة الاسمية) العديد من المعاني بالقليل من الألفاظ؛ حيث تميل الخطبة- وجميع الأجناس الشفاهية- إلى استعمال الألفاظ والتراكيب اللغوية المكثفة، المُعينة على التركيز والتذكّر.

(١) الرّند الواري: الذي تخرج ناره سريعاً. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٤٠، ص ١٨٩.

(٢) كَتَبَ الكَتِيبَةَ: جَمَعَهَا. ينظر: السابق، ج ٤، ص ١٠٦.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٨٥.

(٤) ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات وعلله، عثمان بن جني، تحقيق: علي النجدي ناصف، وعبد الفتاح

إسماعيل شلبي، ط ٢، ج ٢، ص ٢٧٤ (دار سركين للطباعة والنشر، استامبول، ١٤٠٦هـ).

وغني عن القول بأنه لا يمكن لأيّ خطاب حجاجيّ مُتكاملٍ الاستغناء-تمامًا-بالجملة الاسمية عن الجملة الفعلية؛ فكما أنّ الاسمية تحسن في مقام الدلالة على الاستمرار والثبوت، فإنّ الفعلية تحسُن في مقام التجدد والمعاودة.

وإذا كانت الجملة الاسمية المجرّدة تمثّل أدنى درجات التوكيد وأقربها إلى أصل الكلام (الدرجة المعيارية/ الدرجة المثالية/ درجة الصفر)، فإنّ سلّمية التأكيد والتقريب تعلقو بقدر ما يُزاد على الجُمْل-الاسمية والفعلية-من مؤكّدات وبحسب ما لهذه المؤكّدات من اختصاصات؛ فقد تُؤكّد الجملة الاسمية «بأنّ ثم بها وباللام، وقد تُؤكّد الفعلية (بقد)، وإنّ احتياج بأكثر جيء بالقسم مع كلٍّ من الجملتين، وقد تُؤكّد الاسمية باللام فقط، نحو: (لزيدُ قائمٌ)، وقد تجيء مع الفعلية مضمرة بعد اللام، وحاصله أنّ الخطاب على درجاتٍ»^(١) من التأكيد.

ومادام أنّ التأكيد يأتي على درجاتٍ مُتفاوتة، فإنّه يسوغ للباحث دراسة التوكيد من جهة عدوله بالزيادة عن الأصل، مبتدئًا بالقسم؛ إذ هو أبلغ أنواع التأكيد، وإنّما تأتي المؤكّدات معه على وجه التبعية له^(٢).

(١) البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٩١.

(٢) ينظر: من بلاغة القسم في قصة نوح عليه السلام، عبد العزيز الدجيلج، مجلة العلوم العربية، العدد ١١، ص ١٠٦ (٢٠٠٩م).

٢- التوكيد بالقسم:

«وَالْقَسْمُ جَمَلَةٌ يُوَكِّدُ بِهَا الْخَبْرَ...، إِلَّا أَنَّهَا لَا تَسْتَقِلُّ بِنَفْسِهَا حَتَّى تُتَّبَعَ بِمَا يُقْسَمُ عَلَيْهِ»^(١)، وبذلك فإنَّ كلَّ أسلوب قَسَمٍ يقتضي جملتين: جملة المقسم به وجملة المُقسَم عليه (جواب القسم). ومن المنظور الحجاجي فإنَّ القَسَم يأتي للجزم القاطع بحكم ما؛ إذ هو أقوى صيغ التوكيد؛ من حيث «إِنَّ الْحُكْمَ يُفْصَلُ بَاثْنَيْنِ: إِمَّا بِالشَّهَادَةِ وَإِمَّا بِالْقَسَمِ»^(٢)، ويشكِّل المقسَم به (الحجَّة)، بينما يشكِّل المقسَم عليه (الدعوى).

ولفاعلية القَسَم في الحجاج فإنه يُعدُّ أكثر العوامل التأكيدية توجيهاً للإقناع وإلزاماً للمتلقى بالحكم؛ ذلك لتثبيته القضية وتأكيداها، ولنفيه القاطع لكلِّ ما قد يرد على ذهن المتلقي من معاني الشك والارتياب^(٣)، وإن لم يتم له ذلك فإنه «كثيراً ما يوهن في النفس الفكرة المخالفة، ويدفع إلى الشك فيها، ويبعث المرء على التفكير القوي فيما ورد القسم من أجله»^(٤).

وإذا كان الحجاج بالمشافهة يقتضي مقاومة التشتت والنسيان؛ من خلال بذل المزيد من الإيجاز والتكثيف، فإنَّ في القَسَم كفايةً عن عبارات وعوامل متعددة قد يحتاج إليها المُلقي لإثبات دعواه والدلالة على صدقها^(٥).

وحين يقال: إنَّ أسلوب القسم الحجاجي ينشأ عن تفاعلٍ بين جملتين-الحجَّة (العامل الحجاجي / المقسم به) والدعوى (جملة جواب القسم / المقسم عليه)- فإنَّ هذا التفاعل يقيم تلاحماً يَنبُج عنه تحوُّل جملة الدعوى إلى دعوى مُقنعة وملزمة؛ ذلك أنَّ عظمة المقسَم به من المشتركات المُجمَع عليها بين طرفي الخطاب، كما أنَّ جلاله المقسم به راجعةٌ في جزءٍ منها إلى ما تنطوي عليه الألفاظ المقسم بها (الله، ربُّ البيت، ربُّ محمد، وغيرها) من معانٍ راسخةٍ في عقيدة المتلقين؛

(١) المقتصد في شرح الإيضاح، مرجع سابق، ج ٢، ص ٨٦٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤١.

(٣) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٣٢٠. وأطروحة: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب: (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة-دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٢٤٨.

(٤) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، ص ١٣٢ (شركة نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م).

(٥) ينظر: بلاغة القسم في الحديث النبوي الشريف، أميمة بدر الدين، مجلة جامعة دمشق، العدد ٣+٤، المجلد ٢٦، ص ٨٠.

فالله: هو خالق الإنسان ورازقه ومحبيه ومميتة، ورب البيت: هو حامي البيت ورازق أهله ومؤمنهم، ورب محمد هو: باعث محمد ﷺ ومرسله إلى الناس كافة ومخرج الناس به من الظلمات إلى النور، وهكذا، والأصل في الألفاظ المُقسَم بها أن تكون في معانيها غاية ما يتصوره العقل البشري شرفاً وكمالاً وجلالاً؛ فإن ذلك أدعى إلى التصديق وأكد على الإقناع^(١).

وينضاف إلى ما سبق، ما جاءت به الشريعة الإسلامية من حُرمة القسم ووجوب التسليم لكل ما يُقسَم عليه، نحو قوله ﷺ: ((لا تحلفوا بأبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض بالله فليس من الله))^(٢).

وبموجب تعدد الألفاظ المُقسَم بها وتووعها، فإن الخطابات-عامّة- تُفصح عن عدد من الأقسام المتغايرة من جهة اللفظ المقسم به، إلا أن لفظ الجلالة (الله) الحظّ الأوفى والنصيب الأكبر من بين ألفاظ القسَم، ولعل السبب في ذلك عائد إلى قوّة هذا اللفظ؛ من جهة دخول الألف واللام على اسم الجنس (إله)؛ حيث أكسبت (أل) معنى لفظ الجلالة (الله) مقتضيين اثنين هما: أن الله هو الإله المتفرد بالألوهية، وأن آلهة المشركين ليست من الألوهية في شيء^(٣).

وفي القول بأنه يصح-لغوياً-القسم بـ«كل اسم من أسماء الله تعالى وصفاته، ونحو ذلك مما يعظم»^(٤)، دليل على قصدية اختيار الخطيب القسم بلفظ من الألفاظ أو صفة من الصفات وعدوله عن سواها، ويدل على ذلك ما صح عن رسول الله ﷺ من أنه قال لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ((إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت علي غضبي، قالت فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبي، قلت: لا، ورب))

(١) ينظر: أطروحة: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب: (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة-دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٢٤٩. وبحث: بلاغة القسم في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص ٨٢. وعمل القسم وبنيته الإخبارية، خالد السويح، مجلة بحوث جامعية، العدد ٨، ص ١٠٦ (٢٠١٠م).

(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، محمد ناصر الدين الألباني، أشرف عليه: زهير الشاويش، ط ٣، ج ٢، ص ١٢١٣، ح ٧٢٤٧ (المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ).

(٣) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٩٨.

(٤) شرح المفصل للزمخشري، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٤٨.

إبراهيم، قالت قلتُ: أجل، والله يا رسول الله ما أهجُرُ إلا اسمك^(١).

وقد تنبّه علماءنا الأوائل إلى دلالة المناسبة في اختيار لفظ المقسم به في القرآن الكريم، من قبيل قول صاحب كتاب (التيبان في أقسام القرآن) عن القسم في مفتتح سورة (القلم): «والمقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة: تنزيه نبيّه ورسوله عمّا يقول فيه أعداؤه وهو قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾^(٢)، وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالاً عليه أظهر دلالة وأبينها؛ فإنّ ما سطرّ الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون ولا تصدر إلا من عقلٍ وافرٍ، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم، بل العلوم التي تضمنها ليس في قوى البشر الإتيان بها، ولا سيما من أمّي لا يقرأ كتاباً ولا يخط بيمينه، مع كونه في أعلى أنواع الفصاحة، سليماً من الاختلاف برئاً من التناقض، يستحيل من العقلاء كلّهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله ولو كانوا في عقل واحد منهم، فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثير من الحيوان أن يميّزه، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الإفك، فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتمّ دلالة!»^(٣).

وعلى إثر تلك المقدمة فإنّ الباحث سيتناول-فيما يلي- عددًا من شواهد القسّم في المدونة محاولاً الوصول إلى ما وراء هذا العدول من قيمة إقناعية، وملتمساً العلة الإقناعية الدافعة إلى اختيار الخطيب للفظ المقسم به وتفضيله على غيره، ولعلّ من خير الشواهد على ذلك قول الرسول ﷺ في أول خطبة جمعة خطبها في المدينة: ((ومن يُصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السرّ والعلانية- لا ينوي بذلك إلا وجه الله- يكنّ له ذكرًا في عاجل أمره، وذخرًا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان من سوى ذلك يودّ لو أنّ بينه وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد، والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خُلفَ لذلك؛ فإنّه يقول عز

(١) الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ج٧، ص٣٦، ح٥٢٢٨ (دار طوق النجاة، بيروت، د. ت).

(٢) سورة: القلم، الآية: ٢.

(٣) التيبان في أقسام القرآن، ابن القيم، تحقيق: حمزة بن محمد عسيري، أطروحة دكتوراه، ص٣٣٨، جامعة أم القرى (١٤٢٢هـ).

وجل: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(١) ((^(٢))).

فإذ يُشكِّلُ القَسَمَ أقوى الطرق وأجلاها إلى جعل الدعوى في حيزِ الواقع المتحقِّق، فإنَّه ﷺ قد أخبر عن هذا الأمر الغيبي بصيغة القَسَم، ليقرِّر الحكم في أكمل صورته، ذلك أنَّه بتقرُّر هذا الحكم يتحقَّق المقصود من صلاح النفوس وتزكيتها^(٣).

وقد عدل ﷺ إلى القَسَم بما يلائم موضوع الدعوى (حتمية تحقُّق الأمر) فجاء بمقسمٍ به متوافقٍ مع هذا الموضوع ومتسقٍ معه (والذي صدَّق قوله وأنجز وعده)، ولا شكَّ أنَّ هذا التناسب والاتساق يضفي على القول مزيدًا من التأكيد والتأثير؛ ذلك من جهة التكرار المعنوي الناتج عن تنويه المقسم به بالمقسم عليه وحمله معناه (حتمية التحقُّق والحصول)^(٤).

وإلى جانب تلك المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، فإنَّ التأخي في المعاني ظاهر بين المقسم به المتعدّد في هذا الشاهد، من حيث إنَّ صدق القول يستلزم إنجاز الوعد، وإذا كان إنجاز الوعد وجهًا من صدق القول فإنَّها تظهر الطاقة الحجاجية الكامنة خلف هذا التفصيل أو الترقِّي في التوكيد؛ بفعل مُضاعفة معنى التحقُّق والحصول؛ فإنَّ كان قولُ الله صادقًا ووعدُه ناجزًا فإنَّ المقسم به حاصل لا محالة، وليس ثمة حاجة إلى بحث آثار تلك المناسبات والمعاني ودورها في تحقيق الترهيب والتهيب؛ إذ هي من الواضح الجليّ.

ومن شواهد التي لا يُمكنُ إغفالها، قَسَمُه ﷺ في خطبته التالية: ((أيها الناس إنَّ لكم معالم؛ فانتهاوا إلى معالمكم، وإنَّ لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم؛ فإنَّ العبد بين مخافتين: أجلٍ قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه، وأجلٍ باق لا يدري ما الله قاض فيه؛ فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الممات، والذي نفس محمد بيده ما

(١) سورة: ق، الآية: ٢٩.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٤٩.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٧٤. وأسلوب القسم الظاهري في القرآن الكريم: بلاغته وأغراضه، سامي عطا حسن، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت، المجلد ١٨، العدد ٥٣، ص ٥٤ (٢٠٠٣م).

(٤) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، مرجع سابق، ص ٩٨.

بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ^(١)، ولا بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنة أو النار^(٢).

لئن كان المتلقون (الصحابه رضي الله عنهم) على قدرٍ من الإيمان والتّصديق، فإنّ في مخالفته المألوف وعدوله عليه السلام إلى القسم قيمةً إقناعيةً ظاهرةً، إذ تحملُ هذه المخالفة معنى: العناية والاهتمام، وبيان جدية الدعوى، والإيقاظ والتذكير بما يجب من المبادرة بالطاعة واغتنام الفرصة^(٣).

وبما أنّ الدعوى المقسم عليها مختصةٌ بالموت وما يحصل به من انقطاع الفرصة، فقد جاء عليه السلام بمقسمٍ به مُشاكلٍ لهذه الدعوى (والذي نفس محمد بيده)، ولا مرية في أثر تلك المشاكلة على تماسك النص وانسجامه، وتحقيق المعنى المقصود؛ نظير ما انطوى عليه هذا المقسم به من إشارة واضحة «إلى أنّه عليه السلام وإن كان نبياً فإنه لا يملك من أمره شيئاً؛ فنفسه التي بين جنبيه بيد الله»^(٤)، فمتى تحقّق المتلقون هذا المعنى واستوعبوه فإنّ آمالهم ستنتقطع إلا عن طاعتهم وأعمالهم الصالحة قبل الموت.

ومن قبيله، أنّ عمر رضي الله عنه خطب الناس مرة فقال: ((والذي بعث محمداً بالحق لو أنّ جملاً هلك ضياعاً بشطّ الفرات، خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب))^(٥).

بالنظر في هذه الخطبة القصيرة فإنّ الناظر يجد أنّ القسّم قد استحوذ على كافة أجزاء هذه الخطبة، وهو رضي الله عنه حين يقسّم على هذا المبدأ المُهمّ في تحمّل المسؤولية إنّما يلفت المتلقين ويكشف لهم عن السياسة الدقيقة والحازمة التي ستلتزم بها الخلافة في التعامل مع شتى الأحداث البعيدة والقريبة، الكبيرة والصغيرة؛ «فالمتلفظ بالقسم لا يخلو من أن يكون مؤكّداً على نفسه، أو مؤكّداً على غيره، وهو في الحالة الأولى ملزّمٌ لنفسه بمحتوى المقسم عليه»^(٦).

(١) ما بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ: ليس بعد الموت استرضاء وطلب للعذر؛ فما بعد الموت دار جزاء لا دار عمل. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣١١.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٥٢.

(٣) ينظر: بحث: من بلاغة القسم في قصة نوح عليه السلام، مرجع سابق، ص ٩٢، ١٠٩-١١٠، ١١٢.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٩٣. وبحث: بلاغة القسم في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢١٨.

(٦) بحث: عمل القسم وبنيته الإخبارية، مرجع سابق، ص ١٠٦.

ولا تخفى دلالة القسم بـ(الذي بعث محمدًا بالحق) وأثرها في إقناع المتلقين وإلزامهم بالتصديق؛ فإن كنتم لا تشكّون في نبوة محمد ﷺ ولا تمارون فيها، فهكذا ما أخبرتكم به من أمر خشيتي وتحرّجي من السؤال؛ فهو حقٌّ لا مرأى فيه، ولا شكٌ يقدر في صدق حقيقته^(١).

وحين يستفتح ﷺ خطبته المكثفة بهذا المقسم به، فإنه إنما يستعيض به عن كلّ ما تستدعيه مقدّمة الخطبة من الاستفتاح بالثناء على الله والصلاة على نبيه ﷺ، ولا سيما إذا عرفنا أنّ القسم من جوامع الكلم وطرق الإيجاز واللفت والتنبيه^(٢)، وتلك مرحلة فُصوى من التركيز والتكثيف كفيلاً بحفظ هذا العهد وانتشاره، وكأنّه ﷺ قصد أن يرسّخ هذا العهد الذي سيكون أصلاً في سياسته ومحاسبته لهم.

ونحوه أيضاً، ما ورد في خطبة ((الضحّاك بن قيس الفهري على منبر الكوفة وقد كان بلّغَه أنّ قومًا من أهلها يشتمون عثمان ويبرؤون منه، فقال: بلغني أنّ رجالاً منكم ضلّالاً يشتمون أئمة الهدى، ويعيبون أسلافنا الصالحين، أما والذي ليس له نِدٌّ ولا شريكٌ لئن لم تنتهوا عما يبلغني عنكم لأضعنّ فيكم سيف زياد، ثم لا تجدوني ضعيف السورة^(٣)، ولا كليل الشفرة^(٤)).

حين يُقسم الضحّاك على وعده بهذا القسم فإنّ غرضه الحجاجي إقامة الحجّة على المتلقين وتأكيدها، والقضاء على شكّهم وترددهم في تحقّق هذا الوعد، وإقامة الحجّة فإنّها تتحقّق الغاية المقصودة من الانتهاء والالتزام والإعذار؛ بارتهاّن كلّ نفس بكسبها، وأخذها باقترافها ذنبها^(٥).

وفي قَسَم الضحّاك بـ(والذي ليس له نِدٌّ ولا شريكٌ) اعتدادٌ بشدّته، وإشادةٌ بقوّته في الأخذ على أيدي السفهاء، فلئن استكثر المعنيّون أنفسهم وانخدعوا بمنعّتهم وقوّتهم، فإنّ الخطيب قويٌّ بالذي ليس له نِدٌّ ولا شريكٌ في قوته وبأسه، هو معتمده ومصدر قوّته عليهم فلا قبيلَ لهم به.

(١) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، مرجع سابق، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٢) ينظر: بحث: من بلاغة القسم في قصة نوح عليه السلام، مرجع سابق، ص ٨٦، ١٠٠.

(٣) سورة السلطان: أخذه وسَطُوته واعتداؤه وبطشّه. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٢، ص ٩٩.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٧٨.

(٥) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، مرجع سابق، ص ٢٩٠. ومعتزك الأقران في إعجاز القرآن، عبد الرحمن أبي بكر السيوطي،

تحقيق: أحمد شمس الدين، ط ١، ج ١، ص ٣٤١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ).

وتجدر الإشارة إلى أنّ المقسم به وإن كان-من الناحية النحويّة-(فضلةً) أو شبيهاً بها؛ لاكتمال المعنى دونه، إلا أنّه جزء رئيس في العملية الحجاجية، ذلك من جهة أهميته في إنتاج الإقناع؛ إذ هو بمثابة المقدّمة أو الدليل أو الشاهد للإقناع بالدعوى^(١)؛ فكأنّ المقسم إذا أقسم «يقول: أشهد على أنّ هذا الأمر سيحدث لا محالة، إذ جعلوا الله أو المعبود عندهم شاهداً على قولهم وكفيلاً»^(٢).

وبالوقوف على علّة القسم وأسباب اختيار مُقسمٍ به دون غيره في الخطب السالفة، فإنّها تظهر القيمة الإقناعية للقسم والدور البالغ للمقسم به، ذلك من جهة أثره في القطع بصحة الدعوى وتعظيم شأنها ونفي كلّ ما سواها، ومن جهة ما ينطوي عليه من معنى زائدٍ مُكتفٍ، مُكَمِّلٍ للدعوى ومنسجمٍ مع موضوع الخطبة برمّتها.

(١) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٣٢٢.

(٢) بحث: بلاغة القسم في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص ٨٢.

٣- التوكيد بـ(إنَّ):

ويؤتى بـ(إنَّ) لتوكيد الخبر وتقريره، ونفي الشكِّ والإنكار عنه^(١)، ولقوّتها في الدلالة على هذه المعاني فإنَّها قد عُدَّتْ بمثابة تكرار الجملة مرتين^(٢)، ومن المحقِّق أنَّ المتلقي لو «استقرى وتصفَّح وتتبَّع مواقع (إنَّ)، ثم أطف النظر وأكثر التدبُّر، لعلم علم ضرورة أن ليس سواءً دخولها وأن لا تدخل»^(٣).

ويمكن أن يكون لـ(إنَّ) دورٌ في الربط العَلِّي بين الجملتين، من جهة عملها على الرجوع بالجملة الثانية إلى الأولى لتتجه الجملتان نحو تحقيق نتيجة واحدة، كقولك: (أفشِ السلام؛ إنَّ ذلك من صفات المؤمنين)^(٤)، وهي في عمّامة مواضعها لا تخلو من قيمة التماسك وحسن السبب، لأنَّك «تري الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها وتأتلف معه وتتحد به، حتى كأنَّ الكلامين قد أفرغا إفراغًا واحدًا، وكأنَّ أحدهما قد سُبِكَ في الآخر»^(٥).

وقد كثُرت شواهد هذا العامل في المدونة المدروسة بحيث أصبحت إحدى ظواهرها الحجاجية البارزة، ولعلَّ من خير شواهد، ما ورد في خطبة هانئ بن قبيصة الشيباني؛ إذ يقول محرِّضًا قومه يوم ذي قارٍ: ((يا معشر بكر، هالكٌ معذور خيرٌ من ناجٍ فرور، إنَّ الحذر لا ينجي من القدر، وإنَّ الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر، قاتلوا فما للمنايا من بُدِّ))^(٦).

إذ وردتْ (إنَّ) في الموضوعين لُتْرِسَخَ معنيين جوهريين ينبغي للمقاتل الإيمان بهما قبل خوض أيِّ معركة؛ فكلُّ حذرٍ مهما طال أو أنه فإنَّه لن يُنْجِي صاحبه من قدرٍ قدره الله عليه، وكلُّ صبرٍ مهما صعبَ وطالت مُكابدته فإنَّه سيؤدِّي حتمًا إلى النصر والظفر.

(١) ينظر: شرح قطر الندى وبل الصدى، عبد الله بن هشام الأنصاري، ومعه: كتاب: سبيل الهدى بتحقيق شرح قطر

الندى، محمد محي الدين عبد الحميد، ط٧، ص١٤٨ (المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٧٤هـ).

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج٢، ص٤٠٨.

(٣) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص٣١٥.

(٤) ينظر: جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، محمد عبد المطلب، ط١، ص١٧٩ (شركة أبو الهول للنشر، القاهرة، ١٩٩٥م).

(٥) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص٣١٦.

(٦) جمهرة خطب العرب، ج١، ص٣٧.

وبالنظر في الجملة الأولى المؤكدة بـ(إِنَّ) فَإِنَّ الناظر لا يمكن أن يغفل عن أثر تعريف اسمها بـ(أَل) ودوره في مضاعفة معناها، وهي مضاعفة حاصلة بفعل ما يحمله التعريف بـ(أَل) من استغراق واستيفاء، ومتى شمل التوكيد جميع معاني الحذر وصوره فَإِنَّ الخطيب يكون قد نجح في إلزام المتلقي بالإقدام وعدم التردد والتراجع^(١).

وإن كان الصبر أساس النصر وقوامه، فَإِنَّ الخطيب قد عمَد إلى تعريفه بـ(أَل) تعظيمًا لشأنه وإلحاحًا على دوره، ولكأنه بهذه الإشادة حصر كل أسباب النصر في الصبر؛ إذ لا يمكن الاستهانة به، أو التقليل من دوره في تحقيق النصر^(٢).

ومنها، قوله ﷺ في إحدى خطبه: ((إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَبَّاهُ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَدْخَلَهُ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْكُفْرِ، وَاخْتَارَهُ عَلَى مَا سِوَاهُ مِنْ أَحَادِيثِ النَّاسِ، إِنَّهُ أَصْدَقُ الْحَدِيثِ وَأَبْلَغُهُ))^(٣).

فحيث إنَّ القرآن الكريم هو الهدى القويم والنور المبين والحجة البالغة، فَإِنَّه ﷺ قد قصدَ بـ(إِنَّ) تحقيق مكانة هذا الكتاب السماوي، وبيان علوه على سائر الأحاديث، ليأخذه المتلقون بالقوة والاهتمام.

ومتى عُلِمَ أَنَّ المتلقين هم في الأصل صحابته ﷺ من أهل التصديق والإيمان ﷺ، تأكد بأنَّ «هناك ضروريًا من التوكيد لا يُنظر فيها إلى حال المخاطب، وإنما يُنظر فيها المتكلم إلى حال نفسه ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها وتقريبها في النفوس كما أحسنها مقررًا أكيدة في نفسه»^(٤).

وإلى ذلك فَإِنَّ هذا العدول لا يخلو من قيمة موضوعية عقلية يمكن التماسها فيما يحمله القطع بالأفضلية من تحدي المنكرين وتعجيزهم؛ فإمَّا أَنْ يأتوا بمثل هذا القرآن أو بأحسن منه،

(١) ينظر: معاني النحو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٠٨.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٢٩٠.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٥٢.

(٤) خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد محمد أبو موسى، ط ٤، ص ٩١ (مكتبة وهبة، القاهرة،

وإمّا أن يؤمنوا به تمام الإيمان، الأمر الذي يجعل الحجاج بهذا المعنى قابلاً لأن يُصدّق به من قبل أيّ كائنٍ عاقل، وذلك مما يُحيل الخطاب إلى خطابٍ كونيٍّ موجّهٍ إلى كلّ منكرٍ لهذا الكتاب مدى الدهر^(١).

ومنها أيضاً، قول عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في إحدى خطبه الوعظية: ((أيّها الناس، إنكم ميّتون، ثم إنكم مبعوثون، ثم إنكم محاسبون، فلعمري لئن كنتم صادقين لقد قصّرتم، ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم، أيّها الناس، إنّه من يقدر له رزق برأس جبل أو بحضيض أرضٍ يأتيه، فأجملوا في الطلب))^(٢).

ففي هذا المقام الوعظي يؤكّد عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كلامه بـ(إنّ)؛ ليزيد المتلقين يقيناً بتلك المراحل الثلاث؛ فكُلهم صائرون إلى يومٍ مهيب، وحسابٍ دقيق، لا تُظلم فيه نفسٌ شيئاً، ومن أجل أن يقطع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على المتلقين ما قد تذهب إليه ظنّوهم من أنّ السعي للآخرة قد يفوّتهم طلب نصيبهم من الدنيا، فإنّه قد عدل إلى توجيه المعنى بـ(إنّ) مؤكداً على أنّ أرزاق العباد محفوظة-ولو كانت برأس جبل أو بحضيض أرضٍ-لا يُنقص منها طلب الآخرة شيئاً، ولا يزيد منها سعي الدنيا شيئاً.

وحين يُنزل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ متلقّيه من المسلمين منزلة المتردّدين الشاكّين في قوله: (إنكم ميّتون، ثم إنكم مبعوثون، ثم إنكم محاسبون)، فإنّه إنّما يُعرّض بإهمالهم وتراخيهم، ولكأّهم لطلول غفلتهم ممن يتردّد في هذا الأمر ويشكّ فيه^(٣). ولا تخفى-أيضاً-علّة عدوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى القطع بالتوكيد بـ(إنّ) في قوله: (إنّه من يقدر له رزق برأس جبل أو بحضيض أرضٍ يأتيه)؛ فإنه لمّا كانت نفس الإنسان مجبولة على الحرص والطلب، أراد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بهذا العدول أن يستأصل ما قد يسري إلى نفس المسلم-بسبب هذه الجبلة-من اعتقاد بأنّ الرزق موكولٌ بالطلب قائمٌ عليه^(٤).

(١) الإمبراطوريّة الحطّابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٨.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٣) ينظر: بحث: تقنيات الحجاج في خطاب عمر بن عبد العزيز: دراسة نصية تداولية، مرجع سابق، ص ٤٥٢.

(٤) ينظر: خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مرجع سابق، ص ٨٣.

ومما جرى مجراه، أنَّ خالد بن عبد الله القسري خطب الناس بمكة يدعوهم إلى الطاعة ولزوم الجماعة، فقال: ((يا أيها الناس، إنَّكم بأعظم بلاد الله حرمةً، وهي التي اختار الله من البلدان فوضع بها بيته، ثم كتب على عباده حَجَّه من استطاع إليه سبيلاً، أيها الناس: فعليكم بالطاعة، ولزوم الجماعة، وإيَّاكم والشبهات؛ فإنِّي والله ما أوتى بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته في الحرم، إنَّ الله جعل الخلافة منه بالموضع الذي جعلها، فسَلِّموا وأطيعوا، ولا تقولوا: كَيْتَ وكَيْتَ^(١)، إنَّه لا رأي فيما كتب به الخليفة أو رآه إلا إمضاؤه، واعلموا أنَّه بلغني أن قومًا من أهل الخلاف يقدِّمون عليكم، ويقىمون في بلادكم؛ فإنَّيأكم أن تُنزلوا أحدًا ممن تعلمون أنَّه زائغٌ عن الجماعة، فإنَّي لا أجد أحدًا منهم في منزل أحد منكم إلا هدمت منزله، فانظروا من تُنزلون في منازلكم، وعليكم بالجماعة والطاعة، فإنَّ الفرقة هو البلاء العظيم))^(٢).

فقد اتَّخذ خالد من (إنَّ) طريقًا إلى إرساء عدد من المعاني وتأكيدھا تأكيدًا ينفى الظنون، ويزيل الشكوك، ويقطع الطريق على المغرضين والمتربِّصين؛ فمتى تحقَّق المتلقِّون هذه المعاني وصادقوا عليها، فإنَّها تنغلق أهمّ منافذ التشعُّب وأبوابه.

ويظهر في قوله: (وعليكم بالجماعة والطاعة، فإنَّ الفرقة هو البلاء العظيم) فاعلية (إنَّ) في أداء معنى العلة وتأكيدھا، ذلك أنَّ تلك العلة أصلٌ من الأصول التي تكفل الأمن وتجلب السلامة، فمتى شقَّ عصا الطاعة- في كلِّ زمانٍ أو مكانٍ- فليس ثمة إلا الفرقة وهي البلاء العظيم.

وقد تكون (إنَّ) أيضًا «صلةً للقسم؛ لأنَّك لا تقول: (والله زيد منطلق)؛ لانقطاع المحلوف عليه من القسم، فإن قلت: (والله إنَّ زيدًا منطلق)؛ اتَّصل بالقسم وصارت (إنَّ) بمنزلة اللام التي تدخل في قولك: (والله لزيد خير منك))^(٣)، وفي اجتماع (إنَّ) إلى جانب القسم مضاعفةٌ ظاهرةٌ للتأكيد، كما أنَّ في اصطفاف اللام إلى جانب (إنَّ) و(القسم) مضاعفةٌ قصوى؛ فهي «مماثلة» أن تتكرر جملة الخبر الابتدائي أربع مرات أو أكثر^(٤).

وأمثلة هذا النوع المضعف متعدِّدة في المدونة، فمنها ما ورد في أوَّل خطبة خطبها النبي

(١) كَيْتَ وكَيْتَ: كناية عن القصة أو الأحدثة. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٥، ص ٧٢.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣٢١.

(٣) المقتضب، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٠٧.

(٤) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٢٥٦.

ﷺ بمكة، إذ يقول: ((والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصةً، وإلى الناس كافةً))^(١).

فإذ جاء مبعثه ﷺ على فترة من الرسل، ولأنَّ المقصودين أهل شِرْكٍ وضلالٍ وإنكارٍ لكلِّ ما يمكن أن يطرأ عليهم، فإنَّه قد حرص صلوات ربي وسلامه عليه أن يُقدِّم إليهم هذه الحقيقة مدعومةً بالمؤكِّدات التي توازي حالهم في الإنكار.

ويقودنا هذا الشاهد إلى القول بأنَّه إن كانت المقامات الإنكارية متفاوتة ومُتغايرة، فإنَّ درجة تقرير الدعوى تتكاثر بقدر تصاعد أحوال الإنكار، فكلمًا ازداد الإنكارُ وترسَّخ احتياج الخطيب إلى مضاعفة التقرير بكلِّ ما يمكن من عواملٍ وطرق؛ لتكون حدَّة التصديق بالدعوى أعلى من كلِّ الحواجز أو الاعتراضات، فيحدث الفعل المقصود (الاستجابة والإيمان)^(٢).

ومنها أيضًا، أنَّه لما أمر عليٌّ رضي الله عنه أتباعه بالمسير إلى الشام أبدى بعض أتباعه رأيهم بشأن مكاتبة معاوية رضي الله عنه، فخطبهم منكرًا هذا الرأي، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: ((أما بعد، فإنَّ الله وارث العباد والبلاد، ورب السموات السبع والأرضين السبع، وإليه ترجعون، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعزُّ من يشاء، ويذلُّ من يشاء، أمَّا الدَّبرَةُ^(٣)، فإنَّها على الضَّالِّين العاصين، ظفروا أو ظُفروا بهم، وإيم الله إني لأسمع كلام قوم ما أراهم يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا))^(٤).

فلخبرته رضي الله عنه بما تحتاجه النفوس من تثبيت في مثل هذا المقام، فإنَّه قد عمَدَ إلى مضاعفة حقيقة واحدة، وهي: ضلالٍ وخطلٍ مصدر هذا الرأي؛ ليستأصل بذلك بوادر الفرقة والتخاذل، وليتجنَّب ما قد يحصل للجيش من فشل بفعل تعدُّد الآراء واختلافها.

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٤٧.

(٢) ينظر: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، مرجع سابق، ص ١٨٨. وخصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مرجع سابق، ص ٨٢. والإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ٣٣.

(٣) الدَّبرَةُ: نقيض (الدَّوْلَةُ)، فالدَّوْلَةُ في الخير، والدَّبرَةُ في الشَّرِّ. يقال: جعل الله عليك الدَّبرَةَ. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١١، ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣١٦.

وحين يُلح عليّ ﷺ على تقرير هذه الحقيقة فإنه إنما أراد أن يخطئ هذا الرأي على وجه الاستدلال العقلي القاطع، من جهة أن من ثبت ثبوتاً قاطعاً أنه لا يعرف المعروف ولا ينكر المنكر فإنه لا يمكن أن ينطق بالرأي السديد.

ويتجلى ذلك-أيضاً-في كلام الأحنف بن قيس رَحِمَهُ اللهُ لَمَّا ذَكَرَهُ معاويةُ ﷺ بموقعة (صِيفِينَ)؛ حيث يقول: ((يا أمير المؤمنين، لِمَ تَرُدُّ الأمور على أعقابها؟ أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا، والسيوف التي قاتلناك بها لَعَلَى عواتقنا))^(١).

لَمَّا كان طول العهد مظنةً للتبدل والتغير والنسيان، جاء الأحنف رَحِمَهُ اللهُ بالحقيقة مُقَرَّرَةً بكلِّ هذه المؤكِّدات، ليُوقف بها كلَّ ما يُمكن أن يُقال عن نصرتهم لعليٍّ ﷺ، فهُم على ما كانوا عليه من قوَّة ووقوف إلى جانب الحق وأهله، إلا أنهم آثروا-لحكمتهم-وحدَّة الأمة وحقن دماؤها.

وحين يختص الأحنف رَحِمَهُ اللهُ هذه المعاني بكلِّ هذه المؤكِّدات-من غير إنكار من معاوية ﷺ-فإنه إنما أراد أن تأخذ هذه المؤكِّدات مساحتها ويُحسب لها حسابها؛ ذلك أن من شأن رواج هذه المعاني لدى معاوية ﷺ أن يوقف إثارة هذا الأمر ويمنع إحياءه^(٢).

وعلى سبيله، ما ورد في موعظة أحدهم لوالي (أرمينية)، إذ يقول: ((والله إني لأعرف أقواماً لو علموا أن سفَّ التراب يُقيم من أود أصلابهم لجعلوه مُسكَّةً^(٣) لازماً فيهم، إيثاراً للتَّنْزُّه عن عيشٍ رقيقٍ الحواشي^(٤)))^(٥).

فالواعظ إنما يُقرِّر بهذا التوكيد وجود صنفٍ عزيزٍ من الناس عرفهم ووقف على حقيقتهم؛ يئنون بأنفسهم عن كلِّ ما ينقصهم ولو أدى بهم نأيهم إلى سفِّ التراب من الجوع والحاجة

(١) السابق، ج ٢، ص ٣٥٦.

(٢) ينظر: حاشية الشهاب المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط ١، ج ١، ص ٥٣٢ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ).

(٣) المُسكَّةُ: ما يُمسكُ الأبدانَ من الغداءِ والشَّرابِ، أو ما يُتبلَّغُ ويُكتفى بهِ منهما. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٧، ص ٣٣٤.

(٤) عَيْشٌ رَقِيقٌ الحواشي: ناعم في دعة ورخاء. ينظر: السابق، ج ٣٧، ص ٤٣٩.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٣٤.

والافتقار.

ولمَّا كان الغالب على الناس إثارةهم العيش الرغيد والقرب من أهل الدنيا، وإذ كان الناس - عادةً - يفتدون إلى الولاة رغبة فيما عندهم، فإنَّ الواعظ قد عمد إلى المبالغة في تأكيد تلك الحقيقة احتياطاً من أن يظنَّ به الوالي طمعاً أو رغبة في المنح والعطاء^(١).

وحاصل ما مضى من شواهد ودراسة: اختصاصُ (إنَّ) بتأييد المعاني وتحقيقها، ودفع كافة الشكوك والاحتمالات، وكثرة ورودها في الخطاب الحجاجي؛ إذ تتعدَّد تراكيبها بحسب حال المتلقي؛ فتأتي منفردة، وتأتي مع (اللام)، وتأتي مع ضمير الفصل، وتأتي مع القسم، وتأتي مع اللام والقسم، ولكلِّ تركيبٍ من هذه التراكيب مرتبته ودرجته في التوكيد.

(١) الخصائص، عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، ج ٣، ص ١١١ (دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م).

٤- التوكيد بـ(أَنَّ):

وهي كـ(إِنَّ) من حيث الإثبات والتقرير، «إلا أنّها لا بد أن يسبقها كلام؛ كقولك: بلغني، أو أعجبني ونحو ذلك»^(١)، وقد تكرر استعمالها في العديد من خطب المدونة، ومن ذلك قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته يوم قبض النبي صلى الله عليه وسلم: ((أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وأشهد أن الكتاب كما نزل، وأن الدين كما شرع، وأن الحديث كما حدث، وأن القول كما قال، وأن الله هو الحق المبين))^(٢).

فحين أحدث موته صلى الله عليه وسلم وسلم هزة في قلوب الناس، ساق أبو بكر رضي الله عنه خطبته تلك، وعزز فاتحتها بتكرار (أَنَّ) ليثبت المتلقين ويردّهم إلى ما كانوا عليه من اليقين والإيمان بالله صلى الله عليه وسلم وبرسوله صلى الله عليه وسلم.

ولمّا كان الإيمان اعتقاداً بالقلب-قبل أن يكون عملاً بالجوارح وقولاً باللسان-ناسب أن يكون تأكيده رضي الله عنه لهذه الإيمانيات بـ(أَنَّ)؛ ذلك أنّها حرفٌ مصدرِيٌّ، ومعلومٌ أنّ الحرف المصدرِيّ «يجعل ما بعده في حكم المصدر، والمصدر معنى ذهني غير متشخص، ف(أَنَّ) على هذا تجعل الأمر معنوياً ذهنياً، فثمة فرق بين قولك: (أرى محمداً واقفاً) و(أرى أنّ محمداً واقف)؛ فالأول موقف متشخص ورأي بصيرة، والثاني موقف عقلي ورأي عقليّة، أي أرى أنّه فاعل ذلك وأحسبه...، ف(أَنَّ) إذن تحوّل المحسوس إلى معقول والمتشخص إلى ذهني»^(٣)، وبموجبه فإنّ الشهادة قد تحوّلت في هذا الشاهد إلى انعقاد قلبيٍّ مُحكمٍ.

ومن ذلك، قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ إذ خطب الناس بـ(صِيقِينَ): ((والله إنّنا لنعلم أنّكم لعلّى حقّ، وأنّ القوم لعلّى باطل، فلا يكوننّ أولى بالجِدِّ على باطلهم منكم في حقّكم، وإنّا لنعلم أنّ الله سيعذبهم بأيديكم أو بأيدي غيركم))^(٤).

فلأنّ المقام مما يُحتاج فيه إلى استفزاز الناس وتحريضهم وشحنهم بالمعاني المُعينة على الثبات

(١) شرح قطر الندى وبل الصدى ومعه: كتاب: سبيل الهدى بتحقيق شرح قطر الندى، مرجع سابق، ص ١٤٨.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٨٠.

(٣) معاني النحو، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩٥.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٥١.

عند اللقاء، فإنَّ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قد عدل إلى التأكيد المضاعف بكلِّ هذه المؤكِّدات: (أَنَّ، القسم، إِنَّ، اللام، أَنَّ، السين)؛ ذلك أَنَّ تحقُّق هذه المعاني مما يحرك النفوس ويُعينها على تحمُّل مشقَّة القتال ومكابדתه.

وفي التأكيد ب(أَنَّ) في هذا الشاهد معنى رواج تلك المؤكِّدات وذيوع خبرها، من جهة أَنَّ تأويلها مع ما بعدها بتأويل مصدر «يجعل الكلام شأنًا وقصة وحديثًا، ألا ترى أنَّك إذا قلت: (علمت أنَّك منطلق) فإنَّما هو علمت انطلاقك، فكأنَّك قلت: علمت الحديث، ويقول القائل: ما الخبر؟ فيجيب المجيب: الخبر أَنَّ الأمير قادم»^(١).

لئن كان فقدان المتلقين للاهتمام بالأمر يجعله مُبهمًا ومنعدمًا تقريبًا، فإنَّ مجهود الخطيب يكون محالًّا للتقدير حين يتمكن -بفضل براعته في العرض- من جعل الأمر -الذي لم يكن له دون تدخله أن يحظى بالاهتمام- يحتلَّ مركز اهتمام المتلقين وعنايتهم^(٢).

ونحوه، قول عمر بن عبد العزيز رحمته الله إذ خطب الناس يوم عيدٍ، فكان مما قال في خطبته تلك: ((وَدِدْتُ أَنْ أَغْنِيَاءَ النَّاسِ اجْتَمَعُوا، فَرُدُّوا عَلَيَّ فِقْرَانِهِمْ، حَتَّى نَسْتَوِي نَحْنُ بِهِمْ، وَأَكُونَ أَنَا أَوْهُمْ))^(٣).

لِما انطوت عليه نفس عمر بن عبد العزيز رحمته الله من رِقَّة ورحمة ورافة بحال المسلمين، فإنَّه تقدَّم إلى متلقيه بهذه الأمنية، مُضاعفًا توكيد رغبته فيها من خلال حرف التوكيد (أَنَّ)؛ لتكون رسالته أبلغ في الوصول إلى الأغنياء وأرباب الأموال، فتحصل منهم الاستجابة والمبادرة بتفقد مَنْ حولهم من الفقراء والمساكين.

ولمَّا كانت الصدقة من الأمور التي لا يمكن إلزام الناس بها وأطهرهم عليها، عدل رحمته الله إلى التأكيد ب(أَنَّ) على سبيل التلطف والالتماس؛ ذلك من جهة افتقار (أَنَّ) إلى عاملها (وددت)

(١) الأصول في النحو، محمد بن سهل بن السراج، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، ط ١، ج ١، ص ٢٦٥ (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ).

(٢) ينظر: الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٠٨.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢١١.

وتقاصرها عن مقام المباشرة والابتداء والأمر^(١).

ومن قبيله، قول الضحاك بن قيس الفهري-أنف الذكر-: ((بلغني أن رجلاً منكم ضللاً يشتمون أئمة الهدى، ويعيبون أسلافنا الصالحين، أما والذي ليس له نذ ولا شريك، لئن لم تنتهوا عما يبلغني عنكم؛ لأضعن فيكم سيف زياد، ثم لا تجدوني ضعيف السؤرة، ولا كليل الشفرة))^(٢).

أكد الخطيب هذه الجريرة ب(أن)؛ للدلالة على أنها لم تكن شائعة من الشائعات، بل هي خبرٌ ذائعٌ مؤكّدٌ، يستدعي تحرك الوالي وانتقامه، كما لا يخفى ما في هذا التأكيد-أيضاً-من دلالة مُبطنّة على قوّة الضحاك بصفته والياً عليهم؛ فهو لهيئته وسطوته مطّلعٌ على جميع شؤونهم، بحيث إن أقوالهم تصله من أقوى الطرق وأوفاهها، فلا يعزّب عنه منها شيء.

وإن كان في التأكيد ب(أن) معنى الإخبار^(٣)، فإنّ الخطيب إنّما عدل إليها في فاتحة خطبته ليبرز بها شدّته وغضبه عليهم، ذلك من حيث ورودها على جهة الإخبار عن استخبارٍ مُقدّر، تقديره: (ماذا بلغ الخطيب عنا حتى يخطبنا؟).

وبهذا الطرح تظهر خصوصية (أن) وغرضيتها في الإقناع، فعلى الرغم من أنّها أختٌ ل(إن) تعمل عملها وتتفق معها في التوكيد، إلّا أنّها تختلف عنها من حيث المعنى التوكيدي الدقيق، مما يُجرّض على استكناهاها وبحث السبب المقامي الداعي إلى عدول الخطيب إليها وتفضيلها على أختها.

(١) ينظر: الأصول في النحو، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٧٨.

(٣) ينظر: الأصول في النحو، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦٥.

٥- التوكيد بـ(كأن):

وتأتي: «للتشبيه المؤكّد ولهذا جاء: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾^(١) دون غيرها من أدوات التشبيه، ولليقين - كما في قوله تعالى: ﴿وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾^(٢) - على ما سيأتي، وقد تُخَفَّفُ، قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّةٍ﴾^(٣)»^(٤).

ولدور هذه الأداة في التّحقيق والتّشبيث عدّها ابن جني من إصلاح اللفظ؛ إذ يقول عن جملة: (كأنّ زيداً عمرو): «اعلم أنّ أصل هذا الكلام: زيد كعمرو، ثم أرادوا توكيد الخبر فزادوا فيه (إنّ) فقالوا: (إنّ زيداً كعمرو)، ثم إنهم بالغوا في توكيد التشبيه فقدموا حرفه إلى أوّل الكلام عناية به وإعلاماً أنّ عقد الكلام عليه، فلمّا تقدّمت الكاف، وهي جازّة، لم يجز أن تباشر (إنّ)، لأنّها ينقطع عنها ما قبلها من العوامل، فوجب لذلك فتحها فقالوا: كأنّ زيداً عمرو»^(٥).

وحاصلُه أنّ في هذه الأداة من الدلالة على التشابه والتقارب ما لا يوجد في غيرها من أدوات التشبيه؛ وذلك ظاهرٌ في «نحو أنّ تقصد تشبيه الرجل بالأسد فتقول (زيدٌ كالأسد)، ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول: (كأنّ زيداً الأسد)، فتفيد تشبيهه أيضاً بالأسد، إلّا أنّك تزيد في معنى تشبيهه به زيادةً لم تكن في الأول، وهي أنّ تجعله من فرط شجاعته، وقوّة قلبه، وأنّه لا يروعه شيء، بحيث لا يتميّز عن الأسد ولا يُقصر عنه، حتى يُتوهّم أنّه أسد في صورة آدمي»^(٦).

ولتلك الطاقة الإقناعية فقد وردت (كأنّ) في عدة مواضع مهمّة من المدونة، نحو ورودها في قوله ﷺ في إحدى خطبه: ((أيها الناس كأنّ الموت فيها على غيرنا قد كتب، وكأنّ الحق فيها على غيرنا قد وجب، وكأنّ الذي نشيع من الأموات سفر عمّا قليل إلينا راجعون، نبؤئهم أجداتهم ونأكل من تراثهم؛ كأنّا مخلدون بعدهم، ونسينا كلّ واعظة، وأمّنا كل جائحة))^(٧).

(١) سورة: النمل، الآية: ٤٢.

(٢) سورة: القصص، الآية: ٨٢.

(٣) سورة: يونس، الآية: ١٢.

(٤) البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٤، ص ٣١١.

(٥) الخصائص، مرجع سابق، ج ١، ص ٣١٧.

(٦) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

(٧) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٥٣.

يُبرزُ هذا القولُ منه ﷺ القيمةَ الحجاجيةَ لـ(كأنَّ) من حيثُ دورها في تقرير الشبهِ الحاصل بفعل ما اتفقت عليه الحالان من الأمن وعدم التأثر والاعتَاض؛ إذ إنَّ الأحياء في كلِّ مكانٍ وزمانٍ «كالنِّيام من شدَّة غفلتهم عن مصيرهم، حتى كأنَّ الموت قد كُتِبَ على غيرهم، فإذا طرقتهم المنيةُ أفاقوا من نومهم وعرفوا مقدارَ تقصيرهم وأيقنوا أنهم كانوا في غرورٍ»^(١).

ولا شكَّ أنَّه متى تحقَّق هذا الشبه على هذا الوجه من القوة فإنَّه يحصل المقصود من إيقاظ المتلقين وزجرهم، وتنبههم إلى ما يجب عليهم من الإدِّكار والاستعداد بالعمل والمصارعة في الخيرات واستدراك الأوقات قبل ذهابها.

وإن التبس معنى الظنِّ بمعنى (كأنَّ) في هذا الشاهد وأشباهه، «فإنَّ هناك فرقاً بين الظنِّ والتشبيه؛ فإنَّ الظَّنَّ وقع في نفسه هذا الأمر وتصوره على ما ذكر، والمشبِّه يعلم حقيقة الأمر؛ فعندما تقول: (كأنَّ زيداً يمشي) أنت تعلم أنه لا يمشي وإنَّما هو مُشَبَّه لشخص يمشي، وأنَّ حالته تشبه حالة شخص يمشي، بخلاف قولك: (ظننت زيداً يمشي)؛ فإنَّ المتكلم ظن ذلك واعتقده في قلبه وتصوره حقيقة، وليس كذلك المشبِّه وإلا لم يقل: (كأنَّ)»^(٢).

ومما جرى مجراه، قول عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في خطبة له يلوم فيها أصحابه: ((عباد الله: ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلاً، وبالذِّلِّ والهوان من العزِّ حَلْفًا؟ أو كُلِّمًا ندبتكم إلى الجهاد دارت أعينكم؛ كأنكم من الموت في سكرة، وكأنَّ قلوبكم مألوسة^(٣)، فأنتم لا تعقلون، وكأنَّ أبصاركم كُمَّة^(٤) فأنتم لا تُبصرون))^(٥).

طالَ تناقلُ أصحاب عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فجاء بـ(كأنَّ)؛ لتأكيد وتحقيق تشبيههم بما فيه «مذمَّةٌ ظاهرة، وتهجين لحالهم بيِّن، وشهادةٌ عليهم بالبله وقِلَّةِ العقل»^(٦)؛ لعلهم ينتهون ويثوبون إلى

(١) حِكْم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مرتبة حسب المواضيع والمطالب، إبراهيم شمس الدين، ط ١، ص ٣٧١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦م).

(٢) معاني النحو، مرجع سابق، ج ١، ص ٣١٢.

(٣) الألس: الجنون وفقدان العقل. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٥، ص ٤٠٣.

(٤) كُمَّة: مصابة بالعمى. ينظر: السابق، ج ٣٦، ص ٤٨٨.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٤٢٠.

(٦) تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص ١١٥٩.

رشدِهِم.

وقد كرّر ﷺ «التشبيه لتقويته، مع اختلاف الكيفية»^(١) في كل تشبيه؛ فهُمْ مرّة كَمَن هُمْ من الموت في سكرة، ومرّة كَمَن قلوبهم مألوسة، ومرّة كَمَن أبصارهم مطموسة، ولا شك أن تعدد التشبيهات، وتحقيقها ب(كأن) في كل مرّة، مما يزيد المعنى قوةً ويجعله أجدى نفعاً وأبقى أثراً في المتلقين.

وعلى منواله، قول الحجاج في إحدى خطبه الوعظية: ((أيها الناس، قد أصبحتم في أجلٍ منقوصٍ وعملٍ محفوظٍ، رُبّ دائبٍ مضبّعٍ، وساعٍ غيرهِ، والموتُ في أعناقكم، والنازُ بين أيديكم، والجنةُ أمامكم، خذوا من أنفسكم لأنفسكم، ومن غناكم لفقركم، ومما في أيديكم لِمَا بين أيديكم؛ فكأنَّ ما قد مضى من الدنيا لم يكن، وكأنَّ الأموات لم يكونوا أحياء، وكلَّ ما ترونه فإنَّه ذاهبٌ))^(٢).

فحيث يقتضي مقام الوعظ التنبيه والتذكير، فإنَّ الحجاج قد استعان بهذين التشبيهين المؤكِّدين ب(كأن)؛ ليُرسِّخ من خلالهما معنى سرعة زوال الدنيا وانقضاء نعيمها؛ ذلك أن في تأكيد التشابه بين الطرفين: (الكائن والعدم الصِّرف)^(٣) مبالغةً قصوى في ذمِّ الدنيا، والنصِّ على مهانتها. وإنَّ ذهب بعض المحققين إلى مجيء (كأن) بمعنى التحقيق لا التشبيه؛ فإنَّ هذا المعنى ظاهرٌ جليٌّ في هذا الشاهد؛ من جهة أنَّ الموت هو اليقين الذي لا شكَّ فيه، والحقيقة الغائبة التي هي أقرب إلى الإنسان من حبل وريده^(٤).

ومما هو في عداده، قول الحسن البصري في موعظته لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وقد طلبه أن يعظه ويختصر: ((أمَّا بعد يا أمير المؤمنين: فكأنَّ الذي كان لم يكن، وكأنَّ الذي هو كائنٌ قد نزل))^(٥).

(١) تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢١، ١٤٤.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣٠١.

(٣) ينظر: البحر المحيط في التفسير، مرجع سابق، ج ٧، ص ٢٨٦.

(٤) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني، مرجع سابق، ص ٥٧١، ٥٧٣.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٤٩٧.

فلَمَّا كانت الخطبة إجابةً على طلبٍ خاصٍّ من لدن الخليفة رَحِمَهُ اللهُ يَنْصُ على الوعظ والاختصار، فَإِنَّه لم يكن أمام الحسن رَحِمَهُ اللهُ من خيار سوى انتهاج أقصر الأساليب وأكثرها نفعًا وتأثيرًا، ولقيمة (كأنَّ) الحجاجية اختار الحسن رَحِمَهُ اللهُ أن يجعلها أول ما يقرع أذن المتلقي بعد إجابته النداء، لِيُوقِفَهُ على حقارة الحياة الدنيا وقصرها؛ فما هو كائنٌ موجودٌ من هذه الحياة الدنيا سيزول حتمًا؛ بانقضاء الأجل وحضور الموت، ولِوُشُوكِ تحوُّل الأحياء إلى أموات فإنَّ ما يُرى بعيدًا من أمور الآخرة هُوَ أشدُّ الأمور شبهًا بالأمر الذي كان وتَحَقَّق وقوعه؛ لِقرب الحيِّ من الموت، وقرب الموت من الحيِّ.

وبتأملِ الشواهد الماضية يعي المتأمل دور (كأنَّ) في توجيه المتلقي نحو النتيجة المقصودة وإقناعه بها، ذلك لما تستدعيه المبالغة في قرب الطرفين، وقوَّة وجه الشبه بينهما، من تفكُّرٍ وتأملٍ مؤدِّ إلى الإذعان للمقصود والتنبُّ إليه.

٦- التوكيد بلام الابتداء:

لام الابتداء «هي اللام المفتوحة، في نحو: لَزِيدٌ قائمٌ، وفائدتها توكيد مضمون الجملة، قال (الزمخشري) وغيره: ولا تدخل إلا على الاسم والفعل المضارع، ومثلوا دخولها على المضارع، بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾^(١)، وهو صحيح؛ لأنَّ اللام الداخلة في خبر (إنَّ) هي في الأصل لام الابتداء»^(٢).

ولقوة هذه الأداة في الدلالة على التحقيق، فإنَّ الكوفيين قد ذهبوا إلى أنَّها «هي لام القسم، وليس عندهم لام ابتداء، فقولك: (لمحمدٌ قائمٌ) إنما هو جواب قَسَمٍ مقدرٍ؛ كأنتك قلت: (والله لمحمدٌ قائمٌ)»^(٣)؛ لذا فإنه يُؤتى بهذه اللام «في مواطن الردِّ والإنكار وفي مواطن الجواب، أو ما ينزل منزلة ذلك»^(٤).

وقد تكررت هذه اللام في المدونة بما يشكِّل ظاهرة تستدعي التتبع والدراسة، نحو قول أبي زينب بن عوف لعليِّ رضي الله عنه عندما أراد المسير إلى الشام، وقد اختلف الناس في أمر المسير: ((يا أمير المؤمنين، لئن كنَّا على الحق لأنت أهدانا سبيلاً وأعظمتنا في الخير نصيباً، ولئن كنَّا على ضلال إنك لأثقلنا ظهراً وأعظمتنا وزراً))^(٥).

حيث يُسائر الخطيبُ عليًّا رضي الله عنه فيما ارتآه من التحرك إلى الشام مؤكداً اكتمال الخيرية والثواب له رضي الله عنه إنَّ هو سار بهم في الحقِّ، ومضاعفاً التوكيد على أنه رضي الله عنه أكثر الناس عُزماً، إنَّ هو سار بهم في الباطل.

وباجتماع (إنَّ) مع اللام في قوله: (إنَّك لأثقلنا ظهراً) تقوى القيمة التأكيدية للقول؛ ذلك أنَّ اجتماعهما «بمنزلة تكرار الجملة ثلاث مرَّاتٍ؛ لأنَّ (إنَّ) أفادت التكرير مرتين، فإذا دخلت

(١) سورة: النحل، الآية: ١٢٤.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني، مرجع سابق، ص ١٢٤.

(٣) معاني النحو، مرجع سابق، ج ١، ص ٣١٧.

(٤) السابق، ج ١، ص ٣٢١.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣١٨.

اللام صارت ثلاثاً»^(١)، فضلاً عما ذهب إليه بعض أهل العلم من أن (إن) لتأكيد الاسم و(اللام) لتأكيد الخبر^(٢)، ومؤدَى هذا الإلحاح في التوكيد هو الشدُّ من أزرِ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مع طمأننة الأتباع بأنهم على الحقِّ، فحاشا عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يسير بهم إلى الباطل، فتقع عليه تبعته ويوئى بوزره.

ونحوه، قول داود بن عليٍّ بعد أن ارتجَّ على أبي العباس السَّقَّاح في أول خلافته: ((أيها الناس، إنَّ أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قوله فعله، ولأثر الفاعل أجدى عليكم من تشقيق المقال، وحسبكم بكتاب الله مُمْتَثَلًا فيكم، وابن عمِّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليفةً عليكم))^(٣).

فلحساسةً هذا المقام وتأثيره من جهة تكوّن صورة مشوّهة للخليفة ومن ثمَّ الخلافه، بادر الخطيب المتلقين ولم يدع لهم فرصةً يمكنهم بها الانتقال من الخليفة أو استصغاره؛ ذلك أنَّ الخليفة إنَّما قصد بهذا الصنيع البدء بالفعال قبل المقال، ولا شكَّ أنَّ الفاعل أنفع لهم من المقال.

وإذا حصل الاتفاق مع الكوفيين على القول بأنَّ تقدير القول: (والله لأثر الفاعل أجدى عليكم من تشقيق المقال)، فإنَّه يتجلّى الدور الاقتصادي للام في دلالتها القاطعة على تحقيق هذا المعنى وترسيخه في نفوس الجماهير؛ فما قد يروونه نقصاً إنَّما هو-دون أدنى شكٍّ- غايةً في الكمال، اقتضتها حكمة الخليفة وإصابته في التقدير؛ فالناس في حاجة إلى الفاعل، وليسوا في حاجة إلى المقال^(٤).

ونحوه أيضاً، ما ورد في خطبة داود بن عيسى -والي مكة والمدينة- التي دعا فيها إلى خلع (الأميين) ومبايعة (المأمون)، إذ كان مما قال فيها: ((وقد علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هارون -رحمة الله عليه وصلاته- حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم من العهد والميثاق: لَنَنْصُرَنَّ المظلومَ منهما على الظالم، والمبغِّيَّ عليه على الباغي، والمغدورَ به على الغادر، ألا وقد علمتم وعلمنا أنَّ محمد بن هارون قد بدأ بالظلم والبغي والغدر، وخالف الشروط التي أعطاهَا من نفسه في بطن البيت الحرام، وقد حلَّ لنا ولكم خلعه من الخلافة، وتصييرها إلى المظلومِ المبغيِّ عليه

(١) البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٠٨.

(٢) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، ج ٢، ص ١٧٧ (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ).

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١١.

(٤) ينظر: شرح الرضي على الكافية، مرجع سابق، ج ٤، ص ٣٠٩.

المغدور به))^(١).

لقد كان هذا الوالي على قدرٍ من الخطابة، بحيث جعل من أطروحته تلك عذراً منطقيًا لخلع (الأمين) ومبايعة (المأمون)؛ فهم وإن كانوا قد بايعوا الأوّل إلا أنّ تلك البيعة مقرونة بعهد هارون الرشيد المؤكّد إليهم، ووصيته الثابتة لهم؛ فلئن سبقهم (الأمين) إلى نقض هذا العهد فإنّ عليهم الوفاء بعهد أبيه الموثق إليهم من قبل: (لَتَنْصُرَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْهُمَا عَلَى الظَّالِمِ، وَالْمُبَغْيِيِّ عَلَيْهِ عَلَى الْبَاغِي، وَالْمَغْدُورَ بِهِ عَلَى الْغَادِرِ).

وفي عدول الخطيب إلى التأكيد باللام، معنى طلب المبادرة وعدم التريث في خلع (الأمين) ومبايعة (المأمون)؛ ذلك أنّ اللام- كما يقول أكثر النحاة- «إذا دخلت على الفعل المضارع خلصته للحال بعد أن كان يحتمل الحال والاستقبال»^(٢).

ومما ينتظم في سلكه، أنّه لمّا عبّر مسلم بن عبيس جسر البصرة في طريقه إلى حرب الأزارقة^(٣): ((أقبل على الناس فقال: إني ما خرجت لامتيار^(٤) ذهب ولا فضة، وإني لأحارب قومًا إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا سيوفهم ورماحهم، فمن كان شأنه الجهاد فلينهض، ومن أحب الحياة فليرجع))^(٥).

جاءت هذه الخطبة في مقام تصحيح نوايا الجيش وتمحيص جنوده، ولكنيلا يؤثى الجيش من قبل أهل الطمع فإنّ الخطيب قد ضاعف التأكيد على حقيقة ثابتة، وهي أنّ أنداده ليس وراءهم ما يُطمع فيه أو يؤمّل به، وما كان هذا التأكيد من الخطيب إلا لعلمه ويقينه بأنّ أهل الطمع لن يُغنوا عن الجيش شيئًا، وأنّ في انصرافهم سلامة لهم، وأمنًا للجيش من تخذيلهم وزعزعتهم.

ومادام الخطيب لم يدخل في الحرب بعد، وفي حين سبق القول بأنّ في اللام الداخلة على

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١١٦.

(٢) معاني النحو، مرجع سابق، ج ١، ص ٣١٨.

(٣) وهم الخوارج من أصحاب نافع بن الأزرق، وكان من شأنه أن استفحل أمره وأقبل نحو البصرة فانتدب عبدالله بن الحارث مسلم بن عبيس لقتال الأزارقة. ينظر: تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، ج ٥، ص ٥٦٨ - ٥٦٩ (دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٩م).

(٤) الامتيار: الجلب، يقول لم أخرج لأجل ذهب ولا فضة. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٤، ص ١٦٢.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٤٤٧.

الفعل المضارع معنى نقل الفعل من المستقبل إلى الحالية، فإنَّ من اللافت عدوله عن التأكيد بالسين: (سأحارب) إلى التأكيد باللام: (لأحارب)؛ ويظهر أنَّ السبب في ذلك راجعٌ إلى عزم الخطيب ومُضِيَّه وإصراره على خوض القتال وإقدامه عليه، ولكأنَّه حينَّ يقول: (لأحارب) قد دخلَ فعلاً في سياق الحرب والمواجهة، غير آبهٍ بمن يبقى معه أو ينسحب.

وإنَّ كان في التأكيد باللام معنى الردِّ والجواب، أو ما ينزل منزلة ذلك، فإنَّ عدول الخطيب إلى التأكيد باللام متضمنٌ معنى الإجابة عن سؤال المتلقين-المقدِّر-عن سبب امتناعه من امتياري الذهب والفضة (إني ما خرجت لامتيار ذهبٍ ولا فضةٍ)، أو أنَّه متضمنٌ معنى الردِّ على من يظن أنَّه إنما امتنع عن الامتياز زهداً أو تحرجاً؛ بحيث يُمثَّل قوله: (وإني لأحارب قومًا إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا سيوفهم ورماحهم) ردًّا على هذا الظن خاصة^(١).

وبمجموع هذه الأمثلة وهذا التحليل، فإنَّها تظهر الجدوى الإقناعية للام الابتداء؛ من جهة تقريرها المعاني وترسيخها مع الاقتصاد في القول، ومن جهة حملها لبعض المعاني الدقيقة التي تمَّ الوقوف على شيء منها؛ مما يُبرِّر دراسة أثرها وسبب عدول الخطيب إليها، وتفضيله لها على ما سواها من المؤكِّدات الأخرى التي تقوم مقامها في الظاهر.

(١) ينظر: معاني النحو، مرجع سابق، ج١، ص٣٢١.

٧- التوكيد بـ(النون):

ونون التوكيد «قسمان: ثقيلة وخفيفة، وقد جمعها قوله تعالى: ﴿لِيَسْجَنَنَّ وَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾^(١)، وهما أصلان عند البصريين؛ لِتخالف بعض أحكامهما، ولأنَّ التوكيد بالثقيلة أشدُّ- قاله الخليل- ومذهب الكوفيين أنَّ الخفيفة فرع الثقيلة، وكلاهما مختصُّ بـ: الفعل»^(٢)، من وزن «يُفَعِّلُ، وافَعَّلَ غالبًا، وبـ: فاعِلٍ نادرًا»^(٣).

وتُعَدُّ نون التوكيد الثقيلة «بمنزلة ذكر الفعل ثلاث مرَّات، [أَمَّا] الخفيفة فهي بمنزلة ذكره مرتين، قيل: وهذان التَّونان لتأكيد الفعل في مقابلة تأكيد الاسم بـ(إِنَّ) و(اللَّام)»^(٤).

وفي حين أنَّ البحث معنيٌّ بظواهر المدونة، وإذ إنَّ النون الثقيلة أو المشدَّدة هي الأكثر تداولًا واستعمالًا في الخطابات عامة^(٥)، فإنَّ الدِّراسة ستقتصر على دراسة شواهد نون التوكيد الثقيلة؛ ذلك لتكرَّر ورودها في المدونة بما يُشكِّلُ ظاهرةً تستحقُّ الدراسة؛ نحو قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقد خطب الناس يومًا: ((أَلَا وَإِنِّي إِنَّمَا أَبْعَثُ عَمَّالِي لِيَعْلَمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسَنَّتَكُمْ، وَلَا أْبْعَثُهُمْ لِيَضْرِبُوا ظَهْرَكُمْ وَيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ، أَلَا مَنْ رَابَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ؛ فوالذي نفسي بيده لأَقْصِنَكُمْ مِنْهُ))^(٦).

كان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في جميع أحوال سياسته متحرِّيًا للعدل، مبادرًا إلى الإنصاف؛ لذا فقد أتت خطبته تلك على سبيل قطع الطريق على كلِّ ظالمٍ أو متظلمٍ، وكان لُبُّ قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كامنًا في وعيده المُحقِّق بالقسم المُعزِّز بالنون الثقيلة: (فوالذي نفسي بيده لأَقْصِنَكُمْ مِنْهُ)، وتلك غايةٌ قصوى في التأكيد، لا تدع مجالًا للشكِّ، أو التكذيب أو الاستهانة، بأيِّ جهةٍ من جهات المعنى

(١) سورة: يوسف، الآية: ٣٢.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني، مرجع سابق، ص ١٤١.

(٣) في النحو العربي: نقد وتوجيه، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

(٤) البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤١٩.

(٥) ينظر: نماذج من أساليب التوكيد في القرآن الكريم: ترجمة المفعول المطلق المؤكد لعامله ونون التوكيد من اللغة العربية إلى اللغتين الفرنسية والإنكليزية (دراسة تحليلية مقارنة)، دليلة مسلوب، رسالة ماجستير، ص ٦١، جامعة الجزائر، (٢٠٠٦-٢٠٠٧م).

(٦) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢١٩.

المقصود.

وإذا كان من المتقرر أنّ نون التوكيد تحلّص الفعل للاستقبال بعد أن كان يصلح للحال والاستقبال^(١)، فإنّه يُدرِك سبب عدوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إليها وتأكيد بها، حيث تقتضي الريبة تقصيصاً يُخرج فعل الوعيد من الحال إلى الاستقبال، ولكأنّه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُشير بها إلى أنّ القصاص لن يكون إلا بعد استكمال إجراءات البحث والتحري في أمر الريبة.

ومنه، قول جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في خطبته التي يُخَرِّض فيها قومه على قتال الفُرْس: ((يا معشر بجيلة: إنَّكم وجميع من شهد هذا اليوم في السابقة والفضيلة والبلاء سواء، وليس لأحد منهم في هذا الحُمس غداً من النفل مثل الذي لكم منه، ولكم ربع خمسه نفلاً من أمير المؤمنين، فلا يكوننَّ أحدٌ أسرع إلى هذا العدو، ولا أشدَّ عليه منكم للذي لكم منه، وثبَّةً إلى ما ترجون؛ فإنَّما تنتظرون إحدى الحسينين: الشهادة والجنة، أو الغنيمة والجنة))^(٢).

فلئن كان مقام التحريض والتحريك يستدعي وسم الخطاب بعلامات التشديد والتأكيد، فإنّه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عدل إلى نون التوكيد المشدَّدة؛ مبالغةً في التحريض على طلب الأعداء والمثابرة في تتبعهم وتقصيصهم.

وإلى ذلك، فإنَّ في اختياره رَضِيَ اللهُ عَنْهُ التأكيد بالنون المشدَّدة وعدوله عن التأكيد بالنون المخففة دلالةً على ثقته بقومه واطمئنانه لهم؛ فهو يدرك حجم قوتهم وقدرتهم على صدِّ عدوهم والانتصار عليه، ذلك إلى جانب مُشاكلة تشديد النون لمقام النهي الصريح^(٣).

ونحوه قول عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في خطبته التي أعطى فيها الناس من نفسه التوبة: ((أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه، فمثلي نزع وتاب، فإذا نزلت فليأتني أشرافكم، فليزوني رأيهم، فوالله لئن

(١) شرح المفصل للزمخشري، مرجع سابق، ج ٥، ص ١٦٣

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٢٩.

(٣) ينظر: سيميائية الصائت الواقع قبل نون التوكيد في القرآن الكريم، نجاه سعة محمد البكوش، مجلة جامعة بنغازي العلمية،

المجلد ٣٥، العدد ١، ص ٩ (٢٠٢٢م).

رَدَّني الحَقُّ عبداً لَأَسْتَنَّ بسنة العبد، ولَأَذِلَّن ذُلَّ العبد، ولَأَكُونَنَّ كالمرقوق^(١)؛ إِنْ مُلِكَ صبر وإِنْ عُنِقَ شكر، وما عن الله مذهب إلا إليه، فلا يعجزَنَّ عنكم خياركم أَنْ يدنوا إليَّ^(٢).

لَمَّا نَقِمَ الناس على عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ما نَقَمُوا، بادرهم بما يبرد حشاشات نفوسهم، ويرسخ ثقتهم به، ويوثق حبال طاعتهم له، فأقسم وأكَّد بنون التوكيد الثقيلة بما لا يدعُ لذي ريبة مجالاً ولا لذي شكٍ مقالاً، ولم يكن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ليحشد هذه المؤكِّدات لولا عِلْمُه بعِظَم خطر دعوى الخصم وأثرها على حاضر الأمة ومستقبلها.

والمُتَأَمِّلُ في هذا الشاهد يجدُ أَنَّ في عدوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى التوكيد بالنون الثقيلة معنى التعهّد والتعاقد الذي يُعَيِّن حدوداً واضحة لما سيلتزم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ به من إصلاحات إضافية جديدة تُشكِّل استجابةً كافيةً-منه-لِما استحدثه المناوئون من نقمة عليه، وذلك أَنَّ «الفعل إِنْ كان قد وقع وحلفت عليه لم تزد على اللام، وذلك قولك: (والله لفعلت)...، فالنون لا تدخل على فعل قد وقع، وإِنَّمَا تدخل على غير الواجب»^(٣).

وعلى هذا النهج التأكيدي سارت زينب بنت علي رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في معرضِ ردِّها على يزيد بن معاوية، إذ كان مما قالت: ((أقول: (لَيْتَ أشياخي بيدرٍ شَهِدُوا) غير متأمِّم ولا مستعظم، وأنت تنكُّت^(٤) ثنايا أبي عبد الله بمخصرتك^(٥)؟ ولم لا تكون كذلك وقد نكأت القرحَةَ واستأصلت الشأفة بإهراقك دماء ذرية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونجوم الأرض من آل عبد المطلب، ولترِدَنَّ على الله وشيكاً موردهم، ولتودِّدَنَّ أَنَّك عميت وبكمت وأَنَّك لم تقل: فاستهلُّوا وأهلُّوا فرحاً))^(٦).

حيث اعترضت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ليزيد ولم تسمح له أَنْ ينال من آله الأَطهار، فواجهته بما لا قبل له

(١) المرقوق: المملوك. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٥، ص ٣٦٢.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٧٤.

(٣) الكتاب: كتاب سيبويه، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٠٥.

(٤) التَّكَّت: الضرب بطرف القضيبي. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٥، ص ١٢٧.

(٥) المِخْصَرَة: كل ما اختصر الإنسان فقبضه بيده، من عصاً أو مقرعة، أو عنزة أو عُكَّازَة، أو قضيبي أو ما شابهها. ينظر: السابق، ج ٥، ص ١٢٧.

(٦) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٣٧.

من وعد الله الحق الذي لا شكَّ فيه ولا مراء: (لتردَنَّ.. لتودَنَّ)؛ فإن كنت يا يزيد قد مضيت في فعل كلِّ ذلك، فإنه قد بقي لك أمورٌ محتمَّةٌ لن تجد لك عليها نصيراً، وستردها وخذك.

وبالاصطلاح على أنَّ اللغة بجلِّ عقليٍّ وعاطفيٍّ، فإنَّ الرنين الصوتي الحاصل بنون التوكيد الثقيلة يدلُّ على طاقة تعبيرية تناسبُ مقام الردِّ والاعتراض والنقض، ذلك أنَّ الكثافة النغمية تزيد مع زيادة التردد الحاصل بفعل تشديد النون، مما يوحي بمستوى من العمق الانفعالي، والتهديد الرادع الحاسم الذي قد تتفاصر عنه طرق التوكيد الأخرى وعوامله^(١).

وبما تقدَّم يتَّضح دورُ نون التوكيد الثقيلة في مضاعفة المعاني وتثبيتها، كما يظهر-أيضاً- دورها في الاقتصاد بالقول (الإيجاز) مع تمام الإبلاغ، فهي وإن كانت حرفاً واحداً مُضَعَّفاً إلا أنَّها في الأداء بمثابة عدة حروف، ذلك إلى جانب معانيها المقامية الأخرى التي أفصح التحليل عنها.

(١) ينظر: بنية التشكيل الصوتي لـ(النون) الإيقاعية المشددة في القرآن الكريم، نوزاد حسن أحمد خوشناو، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، الجامعة الإسلامية، الجزء ١، العدد ٦٤، ص ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٧ (٢٠٢٢م).

٨- التوكيد بـ(السين وسوف):

وتختصُّ السين بالدخول على الفعل المضارع^(١)، مُفيدةٌ تحقيق «الوعد بحصول الفعل، فدخلوها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتضى لتوكيده وتثبيت معناه»^(٢)، والجزم بوقوعه مستقبلاً مع معنى التراخي (التنفيس) في حصوله؛ إذ تنقل (السين) المضارع من حصوله في الحال إلى حصوله في الاستقبال، فعندما يقول القائل -مثلاً-: سأنتقم منك، أو سأسأحك؛ فإنه إنما يفيد تأكيد حصول الانتقام والمسامحة حتى وإن تأخر حصولهما^(٣)، وهو تأكيدٌ «ناشئٌ عن جعل علامة الاستقبال كناية عن تجدد الفعل في أزمنة المستقبل تحقيقاً لتحصيله»^(٤).

ويشكّل هذا الحرف ظاهرة من ظواهر المدونة المدروسة، فقد تعددت شواهد ما يُبرّر دراسته والوقوف على معانيه الحجاجية، وذلك من قبيل قول أكرم بن صيفي مُعزّياً ملك العرب (عمرو بن هند) في موت أخيه: ((إنَّ أهل هذه الدار سفر لا يجلّون عقد الرحال إلا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك من سيّظعن عنك ويدعك، واعلم أنّ الدنيا ثلاثة أيام: فأمس عِظّة وشاهد عدل فجَعَكَ بنفسه وأبقى لك وعليك حكمته، واليوم غنيمةٌ وصديق أتاك ولم تأته؛ طالت عليك غيبته وستسرع عنك رحلته، وغد لا تدري من أهله وسيأتيك إن وجدك))^(٥).

ففي مقام تخفيف مُصاب المَلِك وتسليته يأتي الخطيب بهذه الخطبة مضمناً إيّاها بعض الوعود المؤكدة بـ(السين)؛ ليذكّر المُعزّي بما جُبلت عليه الدنيا من حتمية وقوع هذه الأحداث وحصولها، فيخلص به إلى نتيجة كليّة حتمية مفادها أنّ وجودك أيها الملك ووجود الناس والأشياء من حولك صائرٌ -لا محالة- إلى الزوال وإن تأخّر هذا الزوال، فسَلِّم الأمر لله، ودع الجزع على ما الأصل فيه الفقد، ووطن نفسك وتأهب لِمَا أنت قادم عليه^(٦).

(١) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعراب، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٤١.

(٢) السابق، ج ٢، ص ٣٤٥.

(٣) ينظر: تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص ٤٤١. وتعليق الفرائد على تسهيل الفوائد، بدر الدماميني، تحقيق: عبد الرحمن

المغدي، ط ١، ج ١، ص ١٠٥ (المؤلف، ١٤٠٣هـ).

(٤) تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢٨، ص ٣٣٠.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٧.

(٦) ينظر: تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص ٩٩. والبحر المحيط في التفسير، مرجع سابق، ج ٢، ص ٩.

وحين يُدخل الخطيب السين على هذه الأفعال (سيظعن، ستسرع، سيأتيك) في سياق الحديث عن طبيعة الحياة الدنيا، فإنَّ هذا السياق يُكسب (السين) معنى استمرار تكرر الحدث؛ فالمستقبل-مع الملك ومع غيره-مستمرٌّ دائمٌ؛ لا يتغيّر طبعه ولا يتراخى ولا ينقطع^(١).

ومن الشواهد أيضاً، قول الحسن بن عليٍّ رضي الله عنه في خطبة له يحرّض فيها الناس على إجابة دعوة أبيه إلى القتال: ((أيها الناس: أجيئوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنّه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأنّ يليه أولو النهى أمثل في العاجلة، وخير في العاقبة، فأجيئوا دعوتنا، وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتكم))^(٢).

جاء الحسن رضي الله عنه بهذه الخطبة في مقام استنجاز الناس وتحريضهم على القتال مع أبيه رضي الله عنه، فكان للسين في قوله: (سيوجد) دورها البارز في التأكيد والتوجيه إلى النتيجة المقصودة؛ حيث عملت على إنزال المستقبل-غير الواقع-«منزلة الواقع الذي لا شكّ فيه»^(٣)؛ فإنّ لم يقم المعنيون إلى هذا الأمر فسيقوم إليه غيرهم حتماً.

وفي تحقيق هذا الأمر وإزالة الشكّ عنه كنايةً عن وثوق الحسن رضي الله عنه بأنّ أباه مُحقّقٌ يدافع دون حقّه، وأنّ الأعداء مخالفون معتدون^(٤)، وبالإشارة إلى هذا المعنى الضمني فإنّه يتقرّر أنّ «إنتاج التأكيد لمفهوم لا قولي يسمح للمتلقي أن يُنتج خطاباً موازياً لخطاب المتكلم، لكنّه خطاب ضمنيّ يتشكل وفق استنتاجات محكمة بثقافة المتلقي وعقيدته تجاه الأحكام المطروحة عليه؛ مما يسلمه في النهاية إلى الإذعان والتسليم»^(٥).

ومن شواهد أيضاً، قول الحسن بن عليٍّ رضي الله عنه في خطبته التي يردّ فيها على مستنكري

(١) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعراب، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٤٣. والسين وسوف في القرآن الكريم، مجدي مصطفى ياقوت، مجلة التربية، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، المجلد ٤٤، العدد ١٨٦، ص ١٩٧ (٢٠١٥م).

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٩٩.

(٣) المعاني البلاغية لحرّفي التنفيس في النظم القرآني، ظافر غرمان العمري، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، السنة ٧، العدد ١٤، ص ٥٧٣ (١٤٣٩هـ).

(٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٨-١، ص ٩٢.

(٥) بحث: آليات الحجاج في خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، مرجع سابق، ص ٥٠.

الصلح: ((مع أن أبي كان يحدثني أن معاوية سيّلي الأمر، فوالله لو سرنا إليه بالجمال والشجر ما شككت أنه سيظهر، إن الله لا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه))^(١).

فإذ لم يتقبّل بعضهم هذا الصلح ولم يسهل عليهم، فإنّه لم يكن أمام الحسن رضي الله عنه إلا أن يبرّره بالاستشهاد بما أخبره به أبوه رضي الله عنه من يقينه بأنّ الأمر آيلٌ إلى معاوية رضي الله عنه، وقد أتت (السين) في الموضوعين قطعاً منه وجزماً بأنّ ولاية معاوية أمرٌ «كائنٌ لا محالة وإن تأخر إلى حين»^(٢)، ومادام الأمر على هذا القدر من التّحقّق والحتميّة، فلا شكّ أنّ الصواب هو ما استنكره الناس وخطّوه من أمر مبادرة الحسن رضي الله عنه معاوية رضي الله عنه بالمصالحة.

وإن كانت (سوف) أختاً ل(السين) فإنّ لاختياره رضي الله عنه (السين) وعدوله عن (سوف) معنى إقناعياً لا يمكن إغفاله، ذلك من جهة دلالة (السين) على المستقبل القريب^(٣)، ولكأنّ الحسن رضي الله عنه يبرّر بها مُبادرته معاوية رضي الله عنه إلى المصالحة؛ إذ الأمر صائرٌ إليه قريباً، وليس ثمة سوى العجلة بالصلح حقناً للدماء وحفظاً للأرواح.

وبهذا النهج التأكيديّ أخذ الحجاج في خطبته عندما أراد الحجّ؛ إذ استخلف محمداً ولده على أهل العراق، ثم خطب فكان من قوله: ((ألا وإنّكم ستقولون بعدي مقالة ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتي، ألا وإنّكم ستقولون بعدي: لا أحسن الله له الصّحابة، ألا وإني معجل لكم الإجابة: لا أحسن الله الخلافة عليكم))^(٤).

حيث لم يكتفِ الحجاج بتتبّع أهل العراق في ظواهرهم، فأصبح يتتبع نواياهم وخفاياهم، وكان لطولِ منازلته لهم أعلمَ الناس بهم وبما تكتنُّ صدورهم، فأرادَ بالسين في قوله: (ستقولون) سبقهم إلى الشّرِّ قبل أن يسبقوه إليه، مؤكّداً مقالتهم تلك قبل وقوعها لـ«أنّ مفاجأة المكروه أشدُّ، والعلمَ به قبل وقوعه أبعدُ من الاضطراب إذا وقع لِمَا يتقدّمه من توطين النفس، وأنّ الجواب

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٦.

(٢) تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص ٩٩.

(٣) ينظر: شرح المفصل للزمخشري، مرجع سابق، ج ٥، ص ٩٥.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٩٩.

العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأردُّ لشغبه، وقبل الرمي يُرَاشُ السهم^(١)»^(٢).

لقد وظَّف الحجاج التأكيد بـ(السين) بوصفه نوعاً من الاستباق الحجاجي الذي يُعلن من خلاله الأمر الواقع ويُفشل به قبلياً مفعول أقوال المناوئين؛ لِيُؤمِّن سلفاً الردَّ الرادع الكافي لإبطال كلِّ ما يمكن أن ينبني عن تلك الأقوال من شغبٍ وتشعُّب^(٣).

وتُلحِقُ (سوف) بالسين من حيث إنَّها «حرف تنفيس، يختص بالفعل المضارع، ويحلِّصه للاستقبال، كالسين»^(٤)، فهي من جهة المعنى «مرادفة للسين أو أوسع منها -على الخلاف- وكأنَّ القائل بذلك نظر إلى أن كثرة الحروف تدلُّ على كثرة المعنى»^(٥).

وعلى الرِّغم من قُرب (سوف) من (السين) إلا أنَّها لا تشكل ظاهرة في المدونة المدروسة؛ فلم تَرِدْ إلا في مواضع قليلة جداً منها، ولندرة ورودها فإنَّ الباحث سيكتفي بمثالٍ واحدٍ من أمثلتها، وهو قول يوسف بن عمر الثقفي في إحدى حُطبه: ((اتقوا الله عباد الله، فكم من مؤمِّلٍ أملاً لا يبلغه، وجامعٍ مآلاً لا يأكله، ومانعٍ عمماً سوف يتركه، ولعله من باطلٍ جمعه، ومن حقِّ منعه، أصابه حراماً، وأورثه عدوًّا، فاحتمل إصره^(٦)، وباء بوزره، وورد على ربه أسقاً لاهقاً^(٧)، قد خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين))^(٨).

استفتح الخطيب موعظته تلك بمفارقاتٍ ثلاث لا تترك لذي لُبِّ جواباً ولا لذي حجرٍ مقالاً غير الإذعان والامتثال بالرجوع إلى الله وطاعته، والتَّخفُّف من متاع الدنيا الزائل، وإيثار الباقي من صالحات الأعمال، وإنَّما أتت (سوف) في سياق تلك المفارقات لتتوكَّد زوال هذه المتع

(١) يُضْرَب مثلاً في الاستعداد للأمر قبل خُلُوله، ويُراش يُرَكَّب عَلَيْهِ الريش، يُقَال رشته أريشه ريشاً، فأنا راش والسهم مريش؛ يُقُول: ينبغي أن تُصلح السهم قبل وقت الرمي. ينظر: جمهرة الأمثال، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري،

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، ط ٢، ج ٢، ص ١٢٢ (دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ).

(٢) تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٣) ينظر: الحجاج في الخطاب: مقاربات تطبيقية، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٤) الجنى الداني في حروف المعاني، مرجع سابق، ص ٤٥٨.

(٥) مغني اللبيب عن كتب الأعراب، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٤٧.

(٦) الإصرُّ: التَّثْقُلُ، سُمِّيَ به لأَنَّهُ يَأْصِرُ صاحِبَهُ، أي يمنع من الحراك. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٠، ص ٥٧.

(٧) هَفَّ فلان نفسه وأُمَّةً تُلْهِفُها: إذا دعا بقوله: وا نفساه، وا أُمِّياهُ، وا لهفاه وا لهفتاه وا لهفتياه. ينظر: السابق، ج ٢٤،

ص ٣٨٢.

(٨) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣٢٤.

الدينية مهما طال أوانها.

وفي اختيار الخطيب لـ(سوف) وعدوله عن (السين) نكتةٌ حجاجيةٌ تُلمس في اتّساع زمن (سوف) وإمكانية إحاطتها بعمر الإنسان مهما كان امتداده^(١)؛ ذلك ليبقى المتلقي مستشعرًا هذا المعنى طوال حياته، ولا يغترّ بإمهال الله له فيطمع أو يتواني.

هذا وإنّه يمكن القول بعد هذا العدد من الأمثلة: إنّ الخطيب إنّما يعدل إلى (السين) أو (سوف) على سبيل القطع بتحقيق الفعل والثقة بوقوعه والجزم بحصوله؛ إذ يكتسب الفعل بفضل هذين المؤكدين قوةً لا تنفك عنه بتغيّر الزمن المستقبلي أو تبدّله؛ فمعنى تحقّقه متجدّد لا يُبليه الزمان ولا يُخفّف من وطأته طول الليالي والأيام، مما يُهيئ لإذعان المتلقي وقبوله، ويبرّر العمل بلازمه والاستعداد له مادام في عداد الواقع المحتوم.

(١) ينظر: معاني النحو، مرجع سابق، ج٤، ص٢٥.

٩- التوكيد بـ(قد):

وهي: «حرف إخبار، تكون مع الماضي للتحقيق، ومع المضارع للتوقع تارة-وهو الكثير فيها-وقد تكون معه للتحقيق، وهو قليل»^(١)، ومما ورد في المدونة مؤكِّدًا بـ(قد)، قول حذيفة بن بدر الفِزاري بين يدي كسرى: ((قد علمت العرب أنَّ فينا الشَّرَفَ الأَقْدَمَ، والأَعزَّ الأَعْظَمَ، ومأثرة^(٢) للصنيع الأكرم))^(٣).

ففي هذا المقام الفخريّ يعدل الخطيب إلى تحقيق الفعل الماضي بـ(قد) ويُتبعه بـ(أنَّ) وبالاختصاص (تقديم شبه الجملة: فينا)؛ إمعانًا في مضاعفة المعاني التالية وتقريرها، وإشارة إلى تجدُّرها وامتدادها في قومه، إذ هي من المُحَقَّق الثابت الذي سبق علمه وشاع خبره بين الأنداد، بحيث لا يمكن نفيه أو إنكاره.

وفي عدول الخطيب إلى التأكيد بـ(قد) معنى التنازل عن النديّة في حضرة كسرى، مع الإشارة إلى أنَّ هذا المعلوم قريبٌ من الحال وليس من الماضي المنقطع^(٤)، ذلك أنَّه إلى جانب اختصاص (قد) بالتحقيق فإنَّها «حرفٌ معناه التقريب، وذلك أنَّك تقول: (قام زيد) فتخبر بقيامه فيما مضى من الزمن، إلَّا أنَّ ذلك الزمان قد يكون بعيدًا، وقد يكون قريبًا من الزمان الذي أنت فيه، فإذا قرنته بـ(قد) فقد قرَّبته مما أنت فيه، ولذلك قال المؤذن: (قد قامت الصلاة)، أي قد حان وقتها في هذا الزمان»^(٥).

ومنه قول النبي ﷺ سالف الذكر: ((إنَّ أحسنَ الحديث كتابُ الله، قد أفلح من زَيَّنه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سِواه من أحاديث الناس))^(٦).

حيث يُبيِّن ﷺ في هذا الشاهد قدر القرآن وتساميه، وعلوه على غيره من الأحاديث، مؤكِّدًا

(١) الجنى الداني في حروف المعاني، مرجع سابق، ص ٢٥٦.

(٢) مأثرة ومأثر: وهي القدمُ الراسخ في الحسب. ومأثر العرب: مكارمها ومفاخرها التي تُؤثِّر عنها وتنقل، أي تُذكر وتروى. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٠، ص ١٨.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٤٦.

(٤) ينظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٣.

(٥) شرح المفصل للزمخشري، مرجع سابق، ج ٥، ص ٩٢.

(٦) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٥٢.

عَلَيْهِ السَّلَامُ)؛ (قد) حصول الفلاح - لا محالة^(١) - لكلِّ من تمسَّك به وأخذ، وبهذا التحقيق والتقرير فإنَّه ﷺ يكون قد أثار الهمم وحفَّزها إلى الالتحاق بركب هؤلاء المفلحين ممن أخذ القرآن بقوة^(٢).

وفي هذا العدول منه ﷺ مُراعاة لحال المتلقي، ذلك أنَّه «لا يُقال: (قد فعل) إلا لمن ينتظر الفعل أو يسأل عنه»^(٣)، ولكأنَّه بعدوله عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى (قد) قدَّر سؤال المتلقين عن أثر القرآن والعائد الحاصل من التمسك به، فضلاً عمَّا في تحقيقه ﷺ للفعل (أفلح) خاصةً من الدلالة والتكثيف؛ لأنَّ (الفلاح) من جوامع الكَلِمِ الشاملة لكلِّ ما يرجوه المسلم من الفوز والنجاح، ومتى أُكِّدَ هذا الفعل الشامل دون ذكر متعلق به فإنَّه يكون أكثر شمولاً وأوفى عمومًا^(٤).

ونحوه، قول أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في خطبته إثر تَلْقِيهِ خِبر الجموع الكثيرة التي أعدَّها ملك الروم لقتال جيش المسلمين: ((أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مَعَاْفُونَ مَكْلُؤُونَ^(٥)، مَدْفُوعٌ عَنْهُمْ، مَصْنُوعٌ لَهُمْ، وَقَدْ أَلْقَى اللهُ الرَّعْبَ فِي قُلُوبِ عَدُوِّهِمْ مِنْهُمْ، وَقَدْ اعْتَصَمُوا بِحَصُونِهِمْ، وَأَغْلَقُوا أَبْوَابَهَا دُونَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ جَاءَتْنِي رِسَالُهُمْ يَخْبِرُونَنِي بِهَرَقْلِ مَلِكِ الرُّومِ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، حَتَّى نَزَلَ قَرْيَةً مِنْ قُرَى الشَّامِ فِي أَقْصَى الشَّامِ، وَقَدْ بَعَثُوا إِلَيَّ يَخْبِرُونَنِي أَنَّهُ قَدْ وَجَّهَ إِلَيْهِمْ هَرَقْلُ جُنْدًا مِنْ مَكَانِهِ ذَلِكَ، فَرَأَيْتُ أَنْ أَمِدَّ إِخْوَانَكُمْ الْمُسْلِمِينَ بِجَنْدٍ مِنْكُمْ يَشُدُّ اللهُ بِكُمْ ظُهُورَهُمْ، وَيَكْبِتُ بِهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَيَلْقِي بِهِمُ الرَّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ))^(٦).

فلمَّا كان المسلمون متشوّفين لأخبار جيشهم، وإذ كانت هذه الأخبارُ عظيمةً وغيرَ مسبوقه، ولأنَّ (قد) ترد في معرض «الكلام لقوم ينتظرون الخبر»^(٧)، فإنَّه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بادر إلى الإعلان عن تلك الأخبار محققة بـ(قد) لِيُطْمَئِنُّ المتلقين ويبشّره بما يزرع الثقة في نفوسهم.

(١) ينظر: تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص ١٨٦.

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٣٠، ص ٢٨٧.

(٣) شرح المفصل للزمخشري، مرجع سابق، ج ٥، ص ٩٢.

(٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١٨، ص ٨.

(٥) مكلؤون: محروسون. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٠٣.

(٦) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٠١.

(٧) شرح المفصل للزمخشري، مرجع سابق، ج ٥، ص ٩٢.

وفي تحقيقه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لهذا القول: (وقد بعثوا إليَّ يخبرونني أنَّه قد وجه إليهم هرقل جنداً من مكانه ذلك) تحريضٌ ظاهرٌ للمتلقين؛ ليجدوا في النَّفير، حفاظاً ومدافعةً على ما تمَّ فتحه من البلدان؛ إذ تأكَّد ب(قد) استعداد الروم، وتعبثهم الجيوش؛ لخوض معركة أخرى.

ومما جرى مجراه، أنَّ سائلاً وقف يسأل في شهر رمضان فقال: ((يا قوم: لقد ختمت هذه الفريضة على أفواهنا من صُبْحِ أمس، ومعني بنتان لي، والله ما عَلِمْتُهُمَا تحللتنا بجلال، فهل رجل كريم يرحم اليوم مقامنا، ويردُّ حُشاشَتَنَا^(١)؟ مَنْعَهُ اللهُ أَنْ يقوم مقامه، فإنَّه مقام ذلِّ وعار (وصغار))^(٢).

فإنَّما عدل السائل إلى التحقيق ب(لقد)، ليقطع بها الطريق على كلِّ من يشكُّ في صدق حاجته ومسكنته، مؤكداً أنَّه لم يقف هذا الموقف إلا بعد أن بلغ به الجوع ما بلغ، ولا شكَّ أنَّ الاستفتاح بهذا التأكيد مما يلفت المتلقين ويدعوهم إلى تلقي الأطروحة وأخذها مأخذ الجد^(٣).

وإلى ما مضى، فإنَّ في عدول هذا السائل إلى (لقد) زيادة في التكتيف والتركيز، ذلك من جهة دلالتها على قسَمٍ محذوف؛ إذ إنَّ أصل القول: (والله لقد ختمت هذه الفريضة على أفواهنا من صبحِ أمس)، فحذَف الخطيب (أداة القسم) و(المقسَم به) على سبيل الإيجاز وإبراز الفكرة، لأنَّ اللفظ إذا قلَّ يتراءى المعنى مجرداً عن حُجبه، فيزيد تنويراً وتأثيراً^(٤).

وظاهرٌ بهذا التناول أثر (قد) ودورها في تحقيق معاني الشواهد السابقة والتنبيه عليها، فلو خلت الشواهد منها لأفصح الكلام عن أخبارٍ رتيبةٍ، خاليةٍ من اللفت والتنبيه، عاريةٍ من التثبيت والترسيخ في الذهن.

(١) الحُشاشَةُ: ما بقي من الروح. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج١٧، ص١٤٩.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج٣، ص٢٧٠.

(٣) ينظر: معاني الحرف (قد)، محمود أحمد الصغير، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، جامعة الأزهر، المجلد ٣، العدد ٢٩، ص٣٣٩ (٢٠١٠م).

(٤) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، مرجع سابق، ج٦، ص٥١٣. وإمعان في أقسام القرآن، عبد الحميد الفراهي، ص٤١ (ملتقى أهل التفسير، www.tafsir.org، ١٤٢٤هـ).

١٠- التوكيد ب(ضمير الفصل):

ضمير الفصل هو «ضميرٌ بصيغة المرفوع، مطابقٌ لما قبله تكلمًا وخطابًا وغيبةً وإفرادًا وغيره، وإنما يقع: بعد مبتدأٍ أو ما أصله المبتدأ، وقبل خبرٍ كذلك»^(١)، وقد «سُمِّيَ (فصلاً) لأنه يجمع أنواعًا من التبيين، فيؤكد الخبر للمخبر عنه، ويُفصل الخبر من الصفة»^(٢)، ومن هذا الوجه فقد استحقَّ ضمير الفصل أن يُعدَّ ضمن المؤكِّدات التي تُضاعف المعاني وتزيدها تركيزًا، وتجعلها أكثر ثباتًا وتخصيصًا^(٣)؛ «فإذا قيل لك: (زيدٌ المنطلق)، صار الذي كان معلومًا على جهة الجواز معلومًا على جهة الوجوب، ثم إنَّهم إذا أرادوا تأكيدَ هذا الوجوبِ أدخلوا الضمير المُسمَّى (فصلاً) بين الجزأين فقالوا: (زيدٌ هو المنطلق)»^(٤).

ولاختصاص ضمير الفصل بهذا المعنى فقد «سمَّاه بعضهم دُعامةً؛ لأنه يُدعمُ به الكلام؛ أي: يُقوِّى، ولهذا قالوا: لا يُجاءُ مع التَّوكيد؛ فلا يُقالُ: زيدٌ نَفْسُهُ هو الفاضل»^(٥)؛ ولهذا الدلالة فقد عدَّه بعضهم بمثابة تكرار الاسم قبله^(٦)، كما عدَّه بعضهم ضمن عوامل السبك والقوَّة في التماسك؛ من جهة «اتصاله دلاليًّا وتركيبًا بما قبله (المبتدأ أو ما أصله المبتدأ) وقوَّة اتِّصاله دلاليًّا بما بعده (الخبر أو ما أصله كذلك)»^(٧).

وقد وقف الباحث على عددٍ من أمثلة هذا المؤكِّد في المدونة، ومنها قول أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إحدى خطبه: ((أَلَا إِنَّ الْفُقَرَاءَ هُمُ الْمَرْحُومُونَ، وَخَيْرُ الْمُلُوكِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ، وَحَكَمَ بِكِتَابِ اللَّهِ

(١) الإتيان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٣٩.

(٢) اللباب في علل البناء والإعراب، عبد الله بن الحسين العكبري، تحقيق: غازي مختار طليمات، ط ١، ج ١، ص ٤٩٦ (دار الفكر، دمشق، ١٤١٦هـ).

(٣) ينظر: التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، أبو حيان: محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: حسن هنداوي، ط ١، ج ٢، ص ٢٨٧ (دار القلم، دمشق، ١٩٩٨م). ومغني اللبيب عن كتب الأعراب، مرجع سابق، ج ٥، ص ٥٧٠.

(٤) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ١٧٨.

(٥) البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٠٩.

(٦) ينظر: معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري (الزجاج)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلي، ط ١، ج ١، ص ٧٤ (علم الكتب، بيروت، ١٤٠٨هـ).

(٧) ضمير الفصل في العربية ودوره في أداء المعنى: (سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام) نموذجًا، خلود إبراهيم العموش، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد ٦، العدد ٣، ص ١٤ (رجب ١٤٣١هـ).

وسنة نبيه ﷺ^(١).

فحيث ألفت عيون العامة اقتحامَ الفقراء وازدراءهم، ولما يحتاجه الفقراء من مزيد عطف واهتمامٍ وتعزيةٍ، فإنَّ الصديقَ ﷺ أراد بهذا القول أن يُواسيهم ويَجْبِرُهُمْ؛ فجاء بهذه الحقيقة المهمة مؤكدة بعدة مؤكدات (اسمية الجملة، ألا، إنَّ، هم، أل الاستغراق في الخبر).

ولمَّا كان اختصاص الفقراء بهذا الفضل مُخالفًا لما عهداه أهل الدنيا من تأخّر مرتبة الفقير وضعفه وحاجته، أراد ﷺ بعدوله إلى ضمير الفصل (هم) أن تكون النسبة جليّة مكشوفة؛ غير قابلة للتأويل أو الشك أو الالتباس؛ لأنَّ هذا الضمير «يفصل في الأمر حين الشك؛ فيرفع الإبهام، ويزيل اللبس؛ بسبب دلالته على أنَّ الاسم بعده خبر لما قبله-من مبتدأ، أو ما أصله المبتدأ-وليس صفة، ولا بدلًا، ولا غيرها من التوابع والمكملات التي ليست أصيلة في المعنى الأساسي، كما يدل على أنَّ الاسم السابق مستغنٍ عنها، لا عن الخبر، وفوق ذلك كله يفيد في الكلام معنى الحصر والتخصيص»^(٢).

وقريب منه، أنه لما قُتل الحسين بن عليٍّ ﷺ قام عبد الله بن الزبير ﷺ في أهل مكة خطيبًا، فكان من قوله: ((إنَّ أهل العراق عُذْرٌ فُجِرَ إلا قليلاً، وإنَّ أهل الكوفة شرار أهل العراق، وإثمهم دعوا حسينًا لينصروه ويولّوه عليهم، فلمَّا قَدِم عليهم ثاروا إليه، فقالوا له: إمَّا أن تضع يدك في أيدينا، فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سلّمًا، فيمضي فيك حكمه، وإمَّا أن تحارب، فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير))^(٣).

فلأنَّ من تمام توقيره ﷺ والإيمان به تقدير أهل بيته وتعظيم شأنهم، فإنَّه ﷺ قد أراد بعدوله إلى ضمير الفصل (هو) تأكيد نسبة خبر القلة والضعف إلى الحسين ﷺ، وأيّ امرئٍ مُسلمٍ يرضى أن يتعرّض سبط النبي ﷺ لهذا الاستضعاف والضييق!^(٤).

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٨٣.

(٢) ينظر: النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢٠.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٦٨.

(٤) ينظر: البحر المحيط في التفسير، مرجع سابق، ج ١، ص ٧٤.

وإن كان «توجيه السياق خالصاً للمتلقى يخلُ بالمتقضى؛ لأنَّ ضعف القرينة قد يكون راجعاً إلى عدم تنبّه المتلقي»^(١)، فإنَّ في العدول إلى ذكر هذا الضمير استفزازاً للمتلقين وتحريضاً لهم؛ من جهة التنبيه على أنَّ المقصود بالتسمية مرتين ليس من العموم الذين قد يُتراخى عن الثأر لهم والدفاع عن حرمتهم.

وفي حين أنَّه لا وجود للبس مُحتملٍ في التركيب المستشهد به (أنَّه هو وأصحابه قليل في كثير) من جهة أنَّ «المضمرات لا تُنعت»^(٢)، ف«إنَّ دور ضمير الفصل في أداء المعنى في مثل هذه السياقات يتجاوز ما نصَّ عليه النحاة من أنَّ دوره في الجملة هو الفصل بين الخبر والتابع؛ إنَّ هذا الذي ذكره لا يتعدَّى أبسط مهامه في الجملة، وهذا يفسّر أيضاً هذا التوسّع في استعماله فيما لا لبس فيه بين الخبر والتابع عند الكثير من النحاة، على سبيل الاتساع في النظر إلى طبيعة وظيفة هذا الضمير في الجملة العربية»^(٣).

ومما هو على منوال المثالين السابقين، قول عامر بن واثلة الكناني في خطبته في فتنه ابن الأشعث: ((إنَّ الحجاجَ والله ما يبالي أن يُخاطر بكم، فيقحمكم بلاداً كثيرة اللُّهوب^(٤) واللُّصوب^(٥)؛ فإنَّ ظفرتم فغنمتم أكل البلاد، وحاز المال، وكان ذلك زيادة في سلطانه، وإنَّ ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عنَتهم ولا يُبقي عليهم، اخلعوا عدو الله الحجاج، وبايعوا عبد الرحمن؛ فإني أشهدكم أيُّ أوَّل خالع))^(٦).

حيث قصد الخطيب بضمير الفصل (أنتم) إيقاظ المتلقين وتحريكهم؛ ذلك لما في هذا الضمير من إفادة معنى التخصيص؛ وهو تخصيص ادّعائي، غايته المبالغة في وصف الحجاج بالبغي على كلِّ حال، فهم لن يفلتوا من بغيه في حال انتصارهم وحال هزيمتهم^(٧).

وإنَّ كان الضمير المتصل في قوله: (كنتم) وضمير الفصل (أنتم) مستويين في الإحالة إلى

(١) البلاغة العربية قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، ط ١، ص ٢٢٥ (الشركة المصرية العالمية للنشر، الجيزة، ١٩٩٧م).

(٢) شرح المفصل للزمخشري، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٣١.

(٣) بحث: ضمير الفصل في العربية ودوره في أداء المعنى: (سورة يوسف ﷺ) نموذجاً، مرجع سابق، ص ٣٢.

(٤) اللُّهوب: الصَّدْعُ في الجبل، أو الشَّعْبُ الضيق فيه. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٢٨.

(٥) اللُّصوب: شَقُّ في الجبل أكثر ضيقاً من اللُّهوب. وأوسع من الشَّعْب. ينظر: السابق، ص ٢٠٧.

(٦) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣٤١.

(٧) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢٥، ص ٤٠، وج ٢٨، ص ١١٤.

بؤرة دلالية واحدة (جنود جيش الحجاج)، فإنّ الثاني منهما (ضمير الفصل) يُفضّل الأول بقيمته التأكيدية التوضيحية^(١)؛ ذلك أنّ «الأصل في الخبر أنّ يكون مُباينًا للمبتدأ من جهة التعريف... [و] مجيء الخبر معرفة محليّ ب(أل) مطابقًا للمبتدأ في التعريف، قد يجعل المتلقي يتوهم أنّه نعت لا خبر، فيأتي ضمير الفصل؛ ليقرر أنّ (اللفظ) خبرٌ، وليس نعتًا، ولا بدلًا، ولا غيرها من التوابع»^(٢).

وعلى طريقه، قول منذر بن سعيد البلوطي؛ إذ وعظ الناس يومًا فكان مما قال: ((حتى متى، وإلى متى، أعظُ ولا أتعظ، وأزجر ولا أنزجر، أدلُّ الطريق إلى المستدلّين، وأبقى مُقيمًا مع الحائرين! كلاً، إنّ هذا هو البلاء المبين))^(٣).

يعاتبُ الخطيب نفسه في هذا الشاهد ويوبّخها مؤكّداً أنّ ما هو فيه من التراخي والتمادي لا يمكن أن يكون إلا اختبارًا وابتلاءً جليًا، ولطول حسرته وعظم خوفه وزجره نفسه وإشفاقه عليها، فإنّه قد عمد إلى كلّ هذا التثبيت وهذا التحقيق.

ولا شك أنّ تكوثر المؤكّدات (اسمية الجملة، إنّ، اللام، ضمير الفصل (هو)، التعريف بأل، الوصف) لتأكيد حقيقة واحدة، «يعمل على مضاعفة التركيز على الفكرة/ الغرض/ البؤرة، ويضخمها؛ ليزيد مساحة الطّرق عليها»^(٤)؛ مبالغةً في التّدلّل والاعتراف؛ فمتى أتت الموعظة من مُقصرٍ مُعترفٍ، خاضعٍ متدلّلٍ، كان لها من الأثر ما تعجز عنه موعظة المتعالي المزكّي نفسه.

لقد أسفرت الأمثلة السابقة عن الأهمية الحجاجية لضمير الفصل، بوصفه أداة داعمة تضطلع بالعديد من الدلالات المقامية الناتجة عن دوره في تثبيت المعنى المقصود وتحقيقه في نفس متلقيه، ومنع التباسه بغيره من المعاني غير المقصودة.

(١) ينظر: بحث: ضمير الفصل في العربية ودوره في أداء المعنى: (سورة يوسف ﷺ) نموذجًا، مرجع سابق، ص ١٤.

(٢) السابق، ص ٣٣.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٧٣.

(٤) بحث: ضمير الفصل في العربية ودوره في أداء المعنى: (سورة يوسف ﷺ) نموذجًا، مرجع سابق، ص ١٢-١٣.

١١- التوكيد بـ(المفعول المطلق):

ويُقصدُ بالمفعول المطلق: «المصدر المنتصب؛ توكيداً لعامله أو بياناً لنوعه أو عدده، نحو: ضربت ضرباً، وسرت سيرَ زيد، وضربت ضربتين، وسُمِّيَ مفعولاً مطلقاً لصدق المفعول عليه غير مقيد بحرف جر ونحوه، بخلاف غيره من المفعولات؛ فإنه لا يقع عليه اسم المفعول إلا مقيداً ك: المفعول به، والمفعول فيه، والمفعول معه، والمفعول له»^(١).

وإن كان هذا المبحث معنياً بالمفعول المطلق المؤكِّد لعامله، فإنَّ حجاجية هذا المفعول ناتجة عن دوره التأكيدي من حيث إنَّه «عَوَضٌ عن تَكَرُّر الفعل مرَّتين؛ فقولك: (ضربتُ ضرباً) بمنزلة قولك: (ضربتُ ضربتُ)، ثُمَّ عَدَلُوا عن ذلك واعتاضوا عن الجملة بالمفرد»^(٢).

ولم تكن المدوَّنة المدروسة لتخلو من هذا النوع المهم من التوكيد؛ إذ تكرر وروده في عددٍ من الخطب، من قبيل قول سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في خطبته يوم الشورى: ((إيَّاكم أيها النَّفر وقول الزور، وأمنية أهل الغرور؛ فقد سَلَبت الأمانى قومًا قبلكم، ورثوا ما ورثتم ونالوا ما نلتهم، فاتخذهم الله عدوًّا ولعنهم لعناً كبيراً))^(٣).

ففي العدول إلى هذا التركيب (لعنهم لعناً كبيراً) معنى تأكيد مضمون الفعل والتركيز عليه؛ فقوله: (لعنهم) بمعنى: أحدث لعناً، فلمَّا ذكر بعده (لعناً) صار بمنزلة قوله: (أحدث لعناً لعناً)؛ فالخطيب- بهذا العدول- لا يقصد تأكيد خير حلول لعنة الله بالقوم المقصودين في الزمن الماضي؛ وإمَّا يقصد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تنبيه المتلقين-رضوان الله عليهم- إلى هذه النقمة الحتمية الواقعة-لا محالة- بكلِّ من أتى هذه المحذورات وزاول تلك المحظورات^(٤).

وإلى ما في المفعول المطلق من تكثيف وتركيز، فإنَّ الخطيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد عدل إلى الزيادة بوصف هذا اللعن بـ(الكبير)؛ ليمنحه مزيداً من الحضور والتأثير، فهو لعنٌ بالغ ومهول، لا يمكن

(١) شرح ابن عقيل، عبد الله بن عقيل، ومعه كتاب: منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٢٠٠، ج ٢، ص ١٦٩ (دار التراث، القاهرة، ١٤٠٠هـ).

(٢) البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٩٢.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٦٨.

(٤) ينظر: شرح الرضي على الكافية، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٩٨. والبحر المحيط في التفسير، ج ١٠، ص ٢٨٤.

الاستهانة به أو التغاضي عنه^(١).

ومن قبيله، أن معاوية رضي الله عنه ((قدم المدينة عام الجماعة (سنة ٤١هـ) فتلقاه رجال قريش، فقالوا: الحمد لله الذي أعز نصرك وأعلى كعبك. فما رد عليهم شيئاً حتى صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد فإنّي والله ما وليتها بمحبّة علمتها منكم، ولا مسرّة بولايتي، ولكي جالديكم بسيفي هذا مجالدةً، ولقد رُضتُ لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة، وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً، وأردتها على سنيّات عثمان، فأبت عليّ، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة: مؤاكلة حسنة، ومُشاربة جميلة))^(٢).

حيث بيّن رضي الله عنه بالمفعول المطلق (مجالدةً) طولَ منازلته ومكابدته لهم، إلى أن استوى إليه هذا الأمر، ثم إنّه رضي الله عنه تحوّل إلى تحديد منهج سياسته في الخلافة مبرراً عدم مناسبة استنساخ أيّ من السياسات السابقة، ومؤكداً بالمفعول المطلق المقرون بالنعته شدة نفور نفسه من سياسيّ: أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما.

إنّ في عدوله رضي الله عنه إلى ذكر المفعول المطلق (نفاراً) دلالةً زائدة تُفوّقُ دلالة المبالغة؛ فالفعل: (نفرت) كافٍ في الدلالة على المبالغة في بيان عدم التوافق، ولكنّه رضي الله عنه عدل إلى مفعوله المطلق؛ لإفادة معنى النفور المفرط والشديد الخارج عن السيطرة^(٣)، وهو رضي الله عنه إذ يأتي بالمعنى على هذا القدر من التشديد والتّركيز إنما يرُدُّ به على كلّ من يرى تطبيق سياسيّ: أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أو يقترحهما، أو يشكُّ في رفضهما، فضلاً عمّا في هذا العدول من معنى رفع توهم المجاز؛ الأمر الذي زاد معنى نفور نفسه ثباتاً وتجسيدا، واعتباره حقيقة لا خيالاً^(٤).

ومن قبيله أيضاً، قول عبد الله بن حنظلة الأنصاري رضي الله عنه لمّا علم بتحرك جيش يزيد بن

(١) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٣١٢.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٨٢.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٥، ص ٢٠٩.

(٤) ينظر: مفهوم المفعول المطلق أنموذج لتكامل علمي النحو والبلاغة، لطيفة الوارثي، مجلة مصطلحيات، العدد ١٢،

معاوية إليه^(١): ((أيها الناس، إنما خرجتم غضباً لدينكم، فأبْلُوا إلى الله بلاءً حسناً، ليجب لكم به الجنة ومغفرته، ويحلّ بكم رضوانه، واستعدوا بأحسن عدتكم، وتأهبوا بأكمل أهبتكم))^(٢).

فلكلّ ما يستدعيه مقام التّعبد والتّحريض من الاقتصاد في اللفظ مع الوفاء بحقّ المعنى، ولأهمّ في مواجهة جيش جرّار، فإنّ الخطيب رضي الله عنه قد اتخذ من المفعول المطلق (بلاءً) المقترن بالنعت طريقاً إلى التّشديد في الحثّ على صدّ الخصوم وقتالهم قتالاً مُضاعفاً يفوق المعتاد.

وإلى ذلك، فإنّ «الجناس الحاصل بين الفعل ومصدره المؤكّد يُضفي نوعاً من الرنّة الموسيقية»^(٣)، التي تعمل على «خلق جرسٍ قويّ، يتّصل مفعوله الحجاجي بأسر السامع وتنبهه اللاهية وتذكير الناسي، فتكون الأعناق إلى الخطيب أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع، وتتسرّب معانيه إلى السامع من حيث لا يحتسب، فيتّهيأ لقبول الدعوى ويتحفّز للعمل بأوامرها ونواهيها»^(٤).

ومما هو في عداده، قول العباس بن موسى ل(المأمون)- وكان قد بعثه (الأمين) إليه بكتاب زمن الفتنة بينهما-: ((أيها الأمير: إنّ أخاك قد تحمّل من الخلافة ثقلاً عظيماً، ومن النّظر في أمور الناس عبئاً جليلاً، وقد صدقت نيته في الخير، فأعوزّه الوزراء والأعوان والكفّاءة على العدل، وقليل ما يأنسُ بأهل بيته، وأنت أخوه وشقيقه وقد فزع إليك في أموره))^(٥).

فما يستدعيه مقام التودّد والاستعطاف من الإلحاح واللفت والتوثيق، فإنّ الخطيب عدل إلى المفعول المطلق المدعّم بالصفة في الموضوعين، ليكون ذلك أدعى إلى اقتناع المأمون، وأقرب إلى تحقّق استجابته؛ ذلك «أنّ المتلقين يدركون الواقع بشكل متأثر بارتباطاتهم العاطفية»^(٦).

(١) وكان من شأن عبد الله أن يبايع أهل المدينة بعد خلعهم ليزيد، فسيرّ يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة جيشه فحدثت إثر ذلك الموقعة المشهورة ب(وقعة الحرّة) سنة ثلاث وستين. ينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير؛ محمد بن محمد الشيباني، ط ١، ج ٣، ص ٤٥٥ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ).

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ٣٢٦.

(٣) مفهوم المفعول المطلق أنموذج لتكامل علمي النحو والبلاغة، مرجع سابق، ص ١٨٩.

(٤) بلاغة الإقناع في صور الخطاب: (المقامة الجرجانية للهمداني) أنموذجاً، محمد الناصر كحولي، مجلة أنساق، المجلد ١، العدد ٢، ص ٢٣٢ (٢٠١٧م).

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٠١.

(٦) الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٠٩.

ولئن كانت «القاعدة أنه متى اختلف لفظ الفعل عن لفظ المفعول المطلق فإنَّ المراد زيادة المعنى؛ بجمع معنيين أو أكثر، ما وسعت ذلك اللغة واتسع المقام»^(١)، فإنَّ لعدول الخطيب عن (جملاً) إلى (ثقلاً) و(عبئاً) دلالةً مقاميةً إضافيةً لا يمكن إغفالها، ذلك من جهة تضمّن الكلام معنى الفعل مع النصّ على ثقل الجمل وفداحته.

ولعلَّ في الأمثلة السالفة ما يكفي لردّ القول بأنَّ المفعول المطلق مصدرٌ زائدٌ أو فضله، فقد أفصح الدرس عن أهميّة تأكيدية للمفعول المطلق لا يمكن تجاوزها أو التغاضي عنها؛ فما إنَّ يعدل إليه الخطيب حتى يكتسب القول قوةً في ذاته، ترفع الوهم عنه، وتحصّنه من الشكّ، وتحوّل بين معناه وبين النفي أو الاعتراض.

(١) معاني النحو، مرجع سابق، ج٢، ص١٦٤.

١٢- التوكيد المعنوي:

ويحصلُ التوكيد المعنوي بـ«إيراد ألفاظ التوكيد المألوفة للنحاة: النفس، والعين، وكلا، وكتنا، وأمثالها»^(١)، كأنْ تقول: (جاءني زيد نفسه، أو عينه)، وكأنْ تقول: (جاءني الزيدان كلاهما)؛ إذ تُستعمل تلك الألفاظ مفردة وغير مفردة^(٢)، ولا يخفى دور هذا التوكيد في الإلحاح على الفكرة المقصودة وتقصيها وإزالة الشكِّ عنها.

وقد وقف الباحث على عددٍ من شواهد هذا التوكيد، نحو قوله ﷺ في حجّة الوداع: ((من ادّعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرفٌ ولا عدلٌ^(٣)، والسلام عليكم ورحمة الله))^(٤).

فلما في ادّعاء المرء غير أبيه أو تولّيه غير مواليه من التّعدي وإثارة الفتن والضغائن بين الأسر^(٥)، فإنّه ﷺ لم يكتف بعموم معنى لفظ (الناس) ودلالته على الجمع^(٦)؛ إذ عدل إلى مضاعفته بالتوكيد (أجمعين) زيادة في معنى الوعيد والتهويل على أولئك المعتدين.

إنَّ في تحقيق لعن جميع الناس تخويفًا بالغًا، وترهيبًا ظاهرًا من إتيان هذه الأمور، ذلك من جهة حصول اللعن من كافة أجزاء العموم على اختلافه وتفرّقه وتعدّده، فهي أمورٌ مقطوعٌ برفضها مرفوع احتمال قبولها؛ إذ لا يوجد أبدًا من يميل إليها أو يسندها.

ونحوه، خطبة شداد بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في أهل حمص، إذ يقول: ((أمّا بعد، أيّها الناس راجعوا كتاب الله وإنْ تركه كثير من الناس، فإنّكم لم تروا من الخير إلا أسبابه، ولا من الشر إلا أسبابه،

(١) في النحو العربي: نقد وتوجيه، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

(٢) ينظر: شرح جمل الزجاجي، علي بن محمد بن علي بن خروف، تحقيق: سلوى محمد عمر عرب، ج ١، ص ٣٣٤ (معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٩هـ).

(٣) لا يقبل منه صرفٌ ولا عدلٌ: الصرف: التوبة، والعدل: الفدية. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٤، ص ١١.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٥٨.

(٥) ينظر: حماية الكرامة الإنسانية في السنة النبوية، خديجة بنت عبد الخليم تُركستاني، مجلة البحوث الإسلامية، هيئة كبار العلماء، المملكة العربية السعودية، العدد ١٠٠، ص ٢٢٦ (١٤٣٤هـ).

(٦) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٣.

وإنَّ الله جمع الخير كُله بحذافيره فجعله في الجنة، وجمع الشر بحذافيره، فجعله في النار))^(١).

في مقام وعظ المتلقين وترغيبهم وترهيبهم، فإنه ﷺ عدل إلى مضاعفة المعنى بـ(كلّ) للتنصيص على العموم، ثمّ ثنّى بكلمة (حذافيره)؛ لزيادة رفع احتمال العموم، فأصبح القول تأكيداً على تأكيد^(٢).

وبتحقق معنى استقلال الجنة بجميع الخير فإنّه ليس ثمّة وجهة أخرى يمكن للمتلقّي التوجّه إليها، الأمر الذي يحصل به المقصود من سعي المتلقين إلى الجنة والرغبة فيها؛ رجاء الفوز بها (الخير) والنجاة من النار (الشر)؛ فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز. ولا تخفى القيمة التكوينية التركيبية لهذا التوكيد؛ من جهة أنّ حصر الخير بالجنة فقط كافٍ عن كلّ عبارات نفي ونقض وجوده في غيرها.

ونحوه أيضاً، ما ورد في خطبة عمار بن ياسر ﷺ لما أظهر عليّ ﷺ قبول التحكيم، إذ كان من قوله في تلك الخطبة: ((فإنّ كان القوم كفاراً مشركين فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، وإنّ كانوا أهل فتنة فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كُله لله))^(٣).

حيث عدل ﷺ إلى التأكيد المعنوي (كُله)؛ ليقطع الطريق على كلّ من رأى قبول هذا التحكيم أو برّره أو شكّ في بطلانه؛ ذلك أنّ الدّين لا يُؤخذ بالاجتزاء، ولا يقبل المشاطرة والتبعيض^(٤).

ولئن كانت الفتنة تردّد واضطراب وتشتت، فإنّ هذا التنصيص منه ﷺ إنّما جاء على سبيل القضاء المشروع على كلّ ما يهين للفتنة ويقضي الفرقة من أمر التحكيم، فحقيقة الدين واحدة وكلّ ما سواها فهو باطل مرفوض ابتداء.

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٦١.

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١١، ص ٢٩٢، وج ١٤، ص ٤٥.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٨٤.

(٤) ينظر: القيمة الدلالية للتوكيد، إسحاق محمد الجعبري، مجلة فكر وإبداع، الجزء ١٠٤، ص ٢٤٨ (٢٠١٦م).

ومَّا يَعُدُّ فِي عِدَادِهِ، قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثُمُورَةَ (مُؤَسِّسِ دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ) فِي خُطْبَتِهِ بِأَصْحَابِهِ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَسْتَخْلَفَ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ، إِذْ كَانَ مِنْ قَوْلِهِ: ((وَقَدْ اخْتَرْنَا لَكُمْ رَجُلًا مِنْكُمْ، وَجَعَلْنَاهُ أَمِيرًا عَلَيْكُمْ، هَذَا بَعْدَ أَنْ بَلَّوْنَاهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، مِنْ لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَمَدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ، وَاخْتَبَرْنَا سِرِّيَّتَهُ وَعِلَانِيَّتَهُ، فَرَأَيْنَاهُ فِي ذَلِكَ كَلِّهَ ثَبْتًا^(١)) فِي دِينِهِ، مُتَبَصِّرًا فِي أَمْرِهِ، وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ لَا يُخْلِفَ الظَّنَّ فِيهِ، وَهَذَا الْمَشَارُ إِلَى هُوَ: (عَبْدُ الْمُؤْمِنِ)، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا مَا دَامَ سَامِعًا مَطِيعًا لِرَبِّهِ))^(٢).

فَعُدُولُ الْخُطِيبِ إِلَى التَّأْكِيدِ الْمَعْنَوِيِّ فِي قَوْلِهِ: (فَرَأَيْنَاهُ فِي ذَلِكَ كَلِّهَ ثَبْتًا)، إِنَّمَا هُوَ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّثَبُّتِ مِنْ أَحَقِّيَّةِ الْمَعْنِيِّ بِالْوِلَايَةِ، وَإِزَالَةِ جَمِيعِ أَمَارَاتِ الشُّكِّ وَالتَّرَدُّدِ فِي أَمْرِ أَفْضَلِيَّتِهِ وَصِلَاحِهِ فِي كَافَّةِ أَحْوَالِهِ.

وغير خفيٍّ أثر هذه المبالغة في إثارة المتلقين، من جهة إغرائهم بالمعنيِّ وحثهم على طاعته والتسليم له، كيف لا وهو الثبُّت في كافة أحواله بلا استثناء، وبضغط الخطيب على هذا المعنى فإنه يكون قد نجح في توجيه سلوك المتلقين نحو القبول بـ(عبد المؤمن)، والاعتراف بأحقيته وأفضليته.

وبعد، فقد ظهر جليًّا من هذه الشواهد دور هذا الوجه من التأكيد، في النصِّ على المعنى وتقريره، ورفع الشكِّ والاحتمال عنه، كما ظهر أيضًا أثر هذا التأكيد في المحافظة على حيوية الشاهد ووضوح الغرض منه؛ ذلك بفعل ما ينطوي عليه من تكثيف وتركيز.

*** **

بهذا القدر من الدرس والاستقراء يتبيَّن الدور الحجاجي البالغ للتوكيد في خطب المدونة؛ فبخلو الخطبة من تلك الوسائل والطرق التوكيدية فإنَّها تفقد قدرًا مهمًّا من الإقناع والترسيخ، فتتحوَّل إلى جُمْلٍ إخباريةٍ بحتةٍ خاويةٍ من معاني التوجيه والتحريك والإثارة والتثبيت في الذهن.

ولئن ظهر بالدرس أنَّ التوكيد ليس شيئًا واحدًا، فإنَّها تتضح القيمة الإقناعية لكلِّ مؤكِّدٍ من المؤكِّدات المدروسة؛ فلكلِّ منها معناه الخاص الذي يميِّزه عن غيره، مما يُبرِّر البحث وتقصِّي سبب

(١) رجلٌ ثبَّت: عاقل متماسك. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج٤، ص٤٧٣.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٥٤.

عدول الخطيب إلى اختيار أحدها دون الآخر، ويجعل دراسة التوكيد جزءاً من معالم دقة الخطيب، ومقياساً من مقاييس النجاح في تحقيق الإقناع.

وإلى جانب اختلاف معاني المؤكّدات، فإنّ التوكيد يأتي بدرجات متفاوتة؛ إذ يجري وفق سلمية تصاعدية معروفة؛ من التجريد إلى زيادة مؤكّد ثم مؤكدين ثم ثلاثة ثم أربعة، وهكذا، ولكلّ درجة من هذه الدرجات قيمتها في الإقناع.

وقد أفصح هذا المبحث عن دور التوكيد في تحفيز المتلقين على المشاركة في عملية إنتاج خطابٍ موازٍ؛ من خلال استنطاق كوامن القول التأكيديّ، وتفعيل ضمنيّاته، والبحث في مبرراته وعلله.

ولا يخطئ من يذهب إلى أنّ التوكيد أساسٌ في العملية الحجاجية في الخطبة خاصةً، بوصفه سلوكاً إقناعياً موجزاً ومكثفاً، يلجأ إليه الخطيب بغية التركيز والترسيخ، ودفع المتلقي إلى المصادقة، ومن ثمّ الاستجابة والفعل.

وإذا كان التوكيد سمةً من سمات الإطناب التي تحقّق المعاني وتزيدها ثباتاً، فإنّه يحسنُ إتباعه بدراسة (التكرار)؛ فليس التكرار في حقيقته سوى أسلوبٍ إطنابيٍّ تحقيقيٍّ داخلٍ في باب التوكيد، إلّا أنّ تنوّعه وامتداده قد اقتضيا إفراده بمبحثٍ مستقلٍّ يوفّيه حقه من الدراسة والتفصيل.

المبحث الرابع: التكرار:

وهو: أسلوبٌ من أساليب الإقناع بالإطناب، وسُنَّةٌ من سنن العرب المأثورة، تناوله البلاغيون القدامى بالعناية والدَّرس، فبيَّنوا فوائده، وعدَّدوا وظائفه، وبدلوا جهداً لاكتشاف جوانبه، وفي العصر الحديث فإنَّ التَّكرار قد لَقِيَ اهتماماً واسعاً من قِبَل اللسانيين عموماً، ومنظِّري الحجاج على وجه الخصوص؛ إذ يُعدُّ رافداً أساسياً وموجِّهاً رئيساً في العملية الإقناعية؛ ذلك أنَّ الكلام إذا تكرر تكرر (١).

وإذا ما تكرر الكلام بالتَّكرار فإنه يُعَيَّن على عدَّة أمورٍ، منها: التبليغ والإفهام؛ الناتجين عن دور التَّكرار في إلف المعاني والتهيئة لقبولها، وترسيخ المبادئ والثوابت وتأكيدهما؛ فإذا كرَّر المتكلِّم معنًى ما تغلغل في الذهن وتبوَّأ من الذاكرة مكاناً أثيراً، والعناية بالمُكرَّر وتعيينه؛ ذلك بفعل ما يحصل بالتَّكرار من تشييد ومبالغة وتنبيه ولفت، ومن لطيف ما يُعَيَّن التَّكرار عليه أيضاً: السِّبْك والتَّماسك؛ إذ يحصل بالتَّكرار عامةً، وبتكرار الروابط خاصةً، ائتلافٌ بيِّنٌ بين أجزاء الخطاب وتركيزٌ على وحدة عناصره وترابطٌ جُمَلِه وأقواله (٢).

وإلى جانب تلك المعاني الذهنية، فإنَّ التَّكرار يسعى إلى إثارة العواطف فيتَّجه إلى الوجدان مُمَثِّلاً انبعاثاً وجدانياً يفيض على السَّماع حرارة، ويزيد النصَّ تدفقاً وحيوية؛ إذ يطرق اللفظ المرذُء أبواب القلب، موحياً بالاهتمام الخاص بمدلوله وتعظيم شأنه، ومحركاً شعور المخاطب وعاطفته إلى هذا المدلول المهمِّ والعزيز، الذي يراه المُلقِّي عرضة للغلط أو الاستهانة أو النسيان (٣).

(١) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: أحمد حسن بسج، ط ١، ص ١٥٨ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ). والبرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٠. والتكرير بين المثير والتأثير، عز الدين علي السيد، ط ٢، ص ٨٥ (عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦ م). والخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص ٥٠. والإحالة التكرارية ودورها في التماسك النصي بين القدامى والمحدثين، ميلود نزار، مجلة علوم إنسانية، السنة ٧، العدد ٤٤، ص ١٦ (شتاء ٢٠١٠ م).

(٢) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤. وبلاغة الإقناع: دراسة نظرية وتطبيقية، عبد العالي قادا، ط ١، ص ٢٣٩ (دار كنوز المعرفة، عمان، ٢٠١٦ م). والمصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب: دراسة معجمية، نعمان بو قره، ط ١، ص ١٠٠ (عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٩ م). والحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ١٦٨. ونحو آجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية، سعد مصلوح، مجلة فصول، المجلد ١٠، عدد ١ و ٢، ص ١٥٧ (يوليو-أغسطس ١٩٩١ م).

(٣) ينظر: التكرير بين المثير والتأثير، مرجع سابق، ص ٢١٢.

ولتلك المعاني والحمولات التكرارية ذهب بعض أهل البلاغة إلى إعلاء شأن التكرار ورفعته عن درجة التوكيد؛ إذ يتسع معناه إلى التأسيس لمعنى إقناعيٍّ جديدٍ فيه من القوة ما يكفل الإقناع والإثارة، في حين يقتصر التوكيد في أدائه على تقرير المعنى وترسيخه، بل إنه ليتمكن القول بأنَّ التوكيد دلالةٌ من الدلالات المتعدّدة لظاهرة التكرار، ولئن كان من الضرورة ارتباط التوكيد بالكلام القريب منه المتصل به فإنّه لا يُشترط في التكرار الاتصال بينه وبين المكرّر؛ إذ يصحُّ انفصاله عن سياقه الأول الذي هو تكرارٌ له^(١).

وكما يُشكّل التكرار سمة من سمات عامّة الخطابات والحوارات، فإنّه يُعدُّ سمةً أساسيةً ولصيقةً بجنس الخطبة؛ ذلك أنّ من شأنه في الخطبة أن يشدّ انتباه المتلقي إلى الفكرة التي تشغل الخطيب، كما أنّ من شأنه ترسيخ المكرّر وطبعه في تجاويف ملكات المتلقي اللاشعورية، فإذا ما مضى على القول مدّة من الزمن نسي المتلقي المكرّر وانتهى إلى تصديق المكرّر^(٢)، ولهذا الصلة الوثيقة بين التكرار والخطابة والإقناع، فإنّه ما سُمع - كما يقول الجاحظ - «بأحد من الخطباء كان يرى إعادة الألفاظ وترداد المعاني عيًّا»^(٣).

وفي الدرس الحجاجي فإنّه لا يُقصد بالتكرار التكرار المولّد للرتابة والملل، أو المؤدّي إلى هلهلة النص وخلخلة بنائه، وإنّما يُقصد به التكرار النفعيُّ التوجيهيُّ الحامل للقيمة، المعدودُ ضمن عملية بناء النص وإحكامه وانسجامه؛ الذي يتم من خلال وضع الأداة أو العبارة أو اللفظة المكرّرة في موضع لا يثقلها، أو يميل بوزنها إلى جهةٍ ما^(٤).

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٣، ص ١١. والإنتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٢٤. ومن مظاهر التكرار في القرآن الكريم، محمد زوين، مجلة دراسات نجفية، مركز دراسات الكوفة، جامعة الكوفة، المجلد ١، العدد ٣، ص ٢٠٧ (٢٠٠٤م).

(٢) ينظر: الخطابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مرجع سابق، ص ٨٨. والخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص ٥٠. وأسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، مرجع سابق، ص ١٥٣. والحجاج في الخطاب: مقاربات تطبيقية، مرجع سابق، ص ٤٢. والخصائص الأسلوبية لشر الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة، سعد محمد علي جاسم، أطروحة دكتوراه، ص ١٠٥، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان (١٩٩٧م).

(٣) البيان والتبيين، مرجع سابق، ج ١، ص ١٠٥.

(٤) ينظر: وقضايا الشعر المعاصر، نازك صادق الملائكة، ط ٥، ص ٢٦٤ (دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٨م). والتكرير بين المثبر والتأثير، مرجع سابق، ص ٢٨١. والخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص ٤٩. والحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ١٦٨.

ويمكن القول: إنَّ التَّكرار الإيجابيَّ هو التَّكرار الحجاجي الذي يأتي في الكلام لغاية إبلاغية إقناعية، ذلك أنَّ التَّرديد الذي يحدثه المرسل في خطابه يقوِّي الكلام ويمدِّه بطاقة حجاجية إضافية تؤدِّي بالمتلقي إلى قبول الفكرة والافتناع بها، فضلاً عن تبيينها والدفاع عنها^(١).

وتجدرُ الإشارة- في هذا الموضوع- إلى أنَّه ليس ثمة ضابطٌ محدَّد لحاجة المعنى إلى التَّرداد والتَّكرار، وإنَّما ذلك- كما يشير الجاحظ- على قدر المستمعين ومن يحضر الخطبة من العوامِّ والخواصِّ^(٢)؛ فعلى المُحاجِّ الحاذق والمُقنع البصير، أنَّ يحذف من الكلام «بقدر ما لا يكون سبباً لإغلاقه، ولا يردِّد وهو يكتفي في الإفهام بشطره، فما فضَّل على المقدار فهو الخطُّ»^(٣).

ومتى علِّمَ الفرق بين (الإطناب) و(الإسهاب) فإنَّه يسهل معرفة هويَّة التَّكرار وقيمتها، ذلك أنَّ بين (الإطناب) و(الإسهاب) فروقاً ظاهرة وملموسة، فالإطناب- على حدِّ قول أبي هلال العسكري في فروقه- «هو: بسط الكلام لتكثير الفائدة، والإسهاب: بسطه مع قلة الفائدة، فالإطناب بلاغة، والإسهاب عيٌّ، والإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيدة تحتوي على زيادة فائدة، والإسهاب بمنزلة سلوك ما يبتعد جهلاً بما يقرب»^(٤).

ومتى تُحقِّق التَّكرار وعُرفت أهميته، فإنَّ الباحث سيُدرسه بالاعتماد على أشهر تقسيماته وأكثرها قيمةً:

(١) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، مرجع سابق، ص ١٥٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ. ورسالة: الحجاج في كتاب: المثل السائر لابن الأثير، مرجع سابق، ص ٨١. وبحث: الحجاج

أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال (مصنف في الحجاج- الخطابة الجديدة) لبييرمان وتيتيكان، مرجع سابق، ص ٣١٨. (٢) ينظر: البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٧، ج ١، ص ١٠٥ (مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨ هـ).

(٣) الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٢، ج ١، ص ٩١ (مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٦ م).

(٤) الفروق اللغوية، مرجع سابق، ص ٤٠.

أقسام التكرار:

سيعتمد الباحثُ في تقسيم هذا المبحث تقسيمَ ابن الأثير للتكرار؛ إذ يُقسِّمه إلى قسمين: «أحدهما يوجد في اللفظ والمعنى، والآخر يوجد في المعنى دون اللفظ، فأما الذي يوجد في اللفظ والمعنى فكقولك لمن تستدعيه: (أسرع أسرع)...، وأما الذي يوجد في المعنى دون اللفظ فكقولك: (أطعني ولا تعصني)؛ فإنَّ الأمر بالطاعة نهي عن المعصية»^(١)، وعليه فسيكون هذا المبحث في مستويين: مستوى اللفظ، ومستوى المعنى:

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣.

١- التكرار اللفظي:

وهو مستوًى متضمنٌ جميع مظاهر التكرار المُتطابق/ التام، وإذا كان هدف البحث الكشف عمّا للتكرار اللفظي من قيمة إقناعية في المدونة المدروسة، فإنّ الباحث يرى ضرورة بيان هذا الهدف من خلال دراسة ثلاثة وجوه من التكرار اللفظي، وهي: تكرار (الأداة) وتكرار (اللفظ) وتكرار (العبرة).

١-أ- تكرار الأداة:

قبل الدخول إلى دراسة هذا النوع من التكرار فإنّه ينبغي القول بأنّ «الأدوات النحوية- وأغلبها حروف- ليس لأيّ منها معنى عند الاستقلال، ولكنّ كلّاً منها يكتسب معناه من السياق، ويربط بين الجمل بألقابها المختلفة، ويحدّد نوع العلاقة بينها، بل يمنح كلّ جملة الاسم أو الوصف الذي تستحقه فضلاً عن لقبها الأصلي»^(١).

وكثيراً ما يقتضي الحجاج تكرار أداة بعينها، يفقد الكلام دونها ترابطه وترتيبه ومنطقيته، وغالباً ما يكون الحرف المكرّر أحد روابط الحجاج وأدوات تسلسله؛ ذلك أنّ هذه الأحرف «تسهم بشكل كبير وفعلّال في تنامي النص وتوالده وانسجامه، فالعلاقات الحجاجية تقوم بينها علاقات تسلسل وترابط، وفق المبدأ السيميائي المعروف، مبدأ ارتباط اللاحق بالسّابق، ثم إنّ العلاقة الحجاجية الجديدة تُضيف عناصر دلالية وحجاجية جديدة إلى العلاقة السابقة»^(٢).

وتظهر بلاغة الخطيب وخبرته الحجاجية من خلال توزيع الأداة على مستوى النصّ، ولا يتأتّى ذلك إلا للمحاجّ البليغ، نحو أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذ يقول في إحدى خطبه: ((اعتبروا عباد الله بمن مات منكم، وتفكروا فيمن كان قبلكم؛ أين كانوا أمس؟ وأين هم اليوم؟ أين الجبارون؟ وأين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب؟ قد تضعضع بهم الدهر، وصاروا رميماً، قد تركت عليهم القالات^(٣) الخبيثات، وإمّا الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات، وأين الملوك

(١) علم النحو: رؤية جديدة وعرض نقدي مفاهيم المصطلحات، صبري المتولي، ط ١، ص ١٤ (مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠١٣م).

(٢) الخطاب والحجاج، مرجع سابق، ص ٥٠.

(٣) القالات: جمع قالة، والقالة في الشرّ خاصّة. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٠، ص ٢٩٣.

الذين أثاروا الأرض وعمروها؟ قد بَعُدُوا ونُسي ذكرهم وصاروا كَلَا شيء!!^(١).

فعلى الرغم من اكتفاء (أين) عن العطف وإمكانية إيرادها على جهة القطع في كلِّ مرّة إلا أنّه تكرر عطفها بـ(الواو) في أكثر من موضع، وذلك على سبيل تضخيم الفكرة والتمكين لها في ذهن السامع؛ بفعل دور تكرر العاطف (الواو) في تعديل مسار القول «إلى شكل رأسي، يتمثل في عملية جذب لمفردات التركيب لتتمحور في عمق رأسي يساعد بدوره على إفراز دلالة فريدة لا تقل في أهميتها عن الدلالة الناتجة من الحركة الأفقية...، فإذا كانت الحركة الأفقية تتمثل في انتقال عنصر لغوي من مكانه إلى مكان جديد، فإنّ الحركة الرأسية تتمثل في انضمام عنصرين أو أكثر إلى بعضهما، بحيث تتمحور الدلالة في نقطة معينة، ثم تزداد أبعادها»^(٢).

ومتى ظهرت المعاني بشكلٍ متناسلٍ ومتراپٍ فإنّه يسهل على المتلقي فهم الفكرة واستيعابها، في حين يحيل الفصل بين بعض المعاني الفكرة إلى فكرة متفككة وملتبسة^(٣)، وإلى ما سبق فإنّ في اجتماع الاستفهام بـ(أين) والعطف بـ(الواو) مضاعفة للقيمة الإقناعية للقول؛ حيث إنّ «تكرار العامل مع حرف العطف لا يكون إلا للتأكيد»^(٤) على حدّ قول الكرمانيّ.

ومن هذا الوجه من التكرار، تكرر شدّاد بن أوس رضي الله عنه لحرف التنبيه (ألا) في خطبته -سألفة الذكر- حيث يقول: ((إنّ الله جمع الخير كلّه بحذافيره فجعله في الجنة وجمع الشر بحذافيره فجعله في النار، ألا وإنّ الجنة وعرة حزنة^(٥)، ألا وإنّ النار سهلة ليّنة، ألا وإنّ الجنة حُفّت بالكزّه والصبر، ألا وإنّ النّار حُفّت بالهوى والشهوة، ألا فمن كشف حجاب الكزّه والصبر أشفى^(٦) على الجنّة، ومن أشفى على الجنة كان من أهلها، ألا ومن كشف حجاب الهوى والشهوة أشفى

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٨٢.

(٢) جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، مرجع سابق، ص ١٧٣-١٧٤.

(٣) ينظر: البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، تمام حسان، ط ١، ص ١٠٩ (عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٣م).

(٤) أسرار التكرار في القرآن الكريم، محمود بن حمزة الكرمانيّ، تحقيق: خيرى سعيد، ص ١٢ (دار التوفيقية للتراث، القاهرة، د. ت.).

(٥) حزنة: صعبة غير سهلة. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٤، ص ٤١٦.

(٦) أشفى على كذا: أشرف عليه وقاربه. ينظر: السابق، ج ٣٨، ص ٣٨٣.

على النار وكان من أهلها، فاعملوا بالحقِّ تنزلوا منازل أهل الحق يوم لا يقضى إلا بالحق))^(١).

لئن كان القول في أصله غنيًّا عن تكرار (ألا) فإنَّ لعدوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى تكراره دورًا ظاهرًا في القضاء على غفلة المتلقين وتنبههم وإيقاظهم في كلِّ مرة، ولم يكن التنبيه على هذا المستوى من الإلحاح والطَّرْق لولا جدِّية هذه المعاني وخطورتها؛ إذ تُمثِّل هذه الخطبة مقابلة كاشفة بين غايتين مصيريتين لا مناص للمتلقين من الانتهاء إلى إحداهما، والفائز من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى.

وفي حين ذهب بعض الدارسين إلى أنَّ (المقابلة) نوعٌ من التنبيه، فإنَّه يُدرك مدى حرص الخطيب على المتلقين، ورأفته بهم وحرصه على سلامتهم، إذ إنَّ في الجمع بين هذين النوعين من التنبيه مبالغةً ظاهرة في الحثِّ والتحريك^(٢).

ومن قبيله، ما ورد في خطبة الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ التي يستفز بها أهل الكوفة، إذ يقول: ((أيها الناس إنَّا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنة رسوله، وإلى أفقه من تفقه من المسلمين وأعدل من تعدلون وأفضل من تفضلون وأوفى من تبايعون، من لم يعبه القرآن، ولم تجهله السنة، ولم تقعد به السابقة))^(٣).

فقد كان بوسع الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يكتفي بالعطف عن تكرار (لم)، إلا أنَّ الاقتضاء المقاميَّ حثَّم عليه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الإلحاح والتشديد في إبراز مناقب أبيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وتأكيد استمرار سلامته من هذه البوائق؛ فهو لهذه المناقب، ولذلك السبق، أحقُّ بالاتباع وأولى بالنصرة.

إنَّ في النصِّ على النَّفي في كلِّ مرة اهتمامًا ظاهرًا بالمعنى، وحيطةً في تبليغه، واحتراسًا من سوء فهمه، ودقَّةً قصوى في تحقيق معناه، لا يبلغها انسحاب النَّفي بالعطف فقط؛ ذلك أنَّ في

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٦١.

(٢) ينظر: من مظاهر التنبيه في القرآن الكريم: دراسة نظرية تطبيقية، جابر علي السيد سليم، مجلة حوليات كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، الجزء ٥، العدد ١٦، ص ٣٥٣١ (١٤٣٣هـ).

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٩٣.

تكرار أداة النفي عمداً إلى لِيّ الوثاق، مرةً بعد مرةً، على القصد نفسه الذي يتوخّاه الخطيب^(١)، وكما يقول الزمخشري: «إِنَّكَ إِذَا كَرَّرْتَ فَقَدْ قَرَّرْتَ الْمُؤَكَّدَ، وَمَا عُلِّقَ، فِي نَفْسِ السَّامِعِ وَمَكْنَتِهِ مِنْ قَلْبِهِ وَأَمُطَتْ شَبْهَةً رُبَّمَا خَالَجَتْهُ، أَوْ تَوَهَّمَتْ غَفْلَتَهُ عَمَّا أَنْتَ بِصَدَدِهِ فَأَزَلْتَهُ»^(٢).

وَمِنْ أَمْثَلْتَهُ أَيْضًا، مَا وَرَدَ فِي خُطْبَةِ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ بَعْدَ قَتْلِهِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ^(٣)؛ إِذْ قَامَ فِي النَّاسِ فَخَطَبَهُمْ فَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ: ((أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ لَكُمْ عَلَيَّ أَلَا أُضَعُ حَجْرًا عَلَى حَجْرٍ وَلَا لَبِنَةً عَلَى لَبِنَةٍ، وَلَا أَكْرِي نَهْرًا^(٤)، وَلَا أَكْنُزُ مَالًا وَلَا أُعْطِيهِ زَوْجًا وَلَا وَلَدًا وَلَا أَنْقُلُهُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ حَتَّى أَسُدَّ فَقْرَ ذَلِكَ الْبَلَدِ وَخِصَاصَةَ^(٥) أَهْلِهِ، فَإِنْ فَضَّلَ فَضْلًا نَقَلْتَهُ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي يَلِيهِ، وَلَا أُجْمِرُكُمْ^(٦) فِي بَعْوَتِكُمْ فَأَفْتِنَكُمْ وَأَفْتِنَ أَهْلِيكُمْ، وَلَا أُغْلِقُ بَابِي دُونَكُمْ فَيَأْكُلُ قَوْيُكُمْ ضَعِيفَكُمْ، وَلَا أَحْمِلُ عَلَى أَهْلِ جَزِينَتِكُمْ مَا أَجْلِيهِمْ بِهِ عَنْ بِلَادِهِمْ وَأَقْطَعُ بِهِ نَسْلَهُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ إِذْرَارُ الْعَطَاءِ فِي كُلِّ سَنَةٍ، وَالرِّزْقُ فِي كُلِّ شَهْرٍ حَتَّى يَسْتَوِيَ بِكُمْ الْحَالُ))^(٧).

لَمَّا كَانَ مَقَامَ الْخُطْبِ مَقَامَ تَهْمَةٍ بِالْإِسْتِثْنَاءِ وَالْإِسْتِبْدَادِ، فَإِنَّهُ قَدْ كَرَّرَ النَّفْيَ الْقَاطِعَ بِ(لَا) لِيَتِمَّكَانَ مِنَ الْقَضَاءِ عَلَى كُلِّ تِلْكَ التَّأْوِيلَاتِ وَالتَّهْمِ وَالظُّنُونِ، فَضْلًا عَمَّا فِي تَكَرُّرِ (لَا) مِنْ مَعْنَى انْتِفَاءِ الْمُنْفِيَّاتِ عَلَى كُلِّ حَالٍ؛ فَلَوْ أُسْقِطَتْ (لَا): لَأَحْتَمَلُ انْتِفَاءُهَا بِقَيْدِ الْاجْتِمَاعِ^(٨).

وَفِي هَذَا التَّكَرُّارِ مَعْنَى الْمُبَالَغَةِ فِي الرَّدِّ وَالتَّصْرِيحِ بِالنَّقْضِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ، مِنْ جِهَةٍ مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ

(١) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: للرومي والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، ط ٣، ص ٥٢ (دار المعارف بمصر، مصر، ١٩٧٦م). والواحد المتعدد: النص الأدبي بين الترجمة والتعريب، حبيب مؤنسي، ص ٦٥ (دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ٢٠٠٥م).

(٢) شرح المفصل للزمخشري، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٢١.

(٣) بويق الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بالخلافة بعد عمته هشام، وكان من الفسق والفجور بحث لم يهن أمره على يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، فأعدَّ العدة للقضاء عليه وكفَّ شرَّه عن الناس، وبعد أن استوثق لنفسه استمرَّ في طلبه حتى قتلَه، فبويق بعد قتله بالخلافة، وكان ذلك سنة ست وعشرين ومائة للهجرة. ينظر: تاريخ الرسل والملوك، مرجع سابق، ج ٧، ص ٢٣١-٢٤٧.

(٤) كريت النهر: حفرتَه. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٩، ص ٣٨٩.

(٥) الخِصَاصَةُ: الْفَقْرُ وَالشُّظْفُ وَسُوءُ الْحَالِ. ينظر: السابق، ج ١٧، ص ٥٥٢.

(٦) تَجْمِيرُ الْجَيْشِ: جَمْعُهُمْ فِي التَّغَوُّرِ وَحَبْسُهُمْ عَنِ الرَّجُوعِ إِلَى أَهْلِيهِمْ. ينظر: السابق، ج ١٠، ص ٤٦٤.

(٧) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢١٨.

(٨) ينظر: البحر المحيط في التفسير، مرجع سابق، ج ٢، ص ٦١٠.

نفي المضارع بـ(لا) من الدلالة على المعارضة والسلب، فإذا ما قال المتكلم: «(هو يفعل) ولم يكن الفعل واقعاً منه فنفيه (لا يفعل)، وإذا قال (ليفعلن) فنفيه (لا يفعل) كأنه قال: (والله ليفعلن) فقلت: (والله لا يفعل)»^(١).

ولعلّ في تنوع الأدوات المكررة فيما مضى من أمثلة وتناول دلالة كافية على حضور هذا الصنف من التكرار في المدونة بصفته أسلوباً إقناعياً محملاً بالقصد والغرض، ومتى تحقّق أنّ الأصل في تكرار الأداة أنّ يكون محملاً بالمعنى الإقناعي فإنّه يُعلم أنّه لا يمكن الاكتفاء بالمعنى النحوي عن المعنى التداولي المقامي.

١-ب- تكرار اللفظ:

ويعدّ هذا النوع من التكرار ضمن أفانين القول وطرقه الرافدة لعملية الإقناع، المدعّمة للحجج والبراهين، إذ إنّ من شأن معاودة اسم ما أو فعل ما الإشادة بالمُعاد وتفخيمه، وتأسيسه والإلحاح عليه^(٢).

ومتى وُضع هذا النوع من التكرار موضعه من الخطاب فإنّه يشكّل «استهدافاً مسترسلاً لأفق انتظار المتلقي^(٣)، حتى يتكيّف ويتلاءم مع ما يعرضه عليه الخطيب، إنّ هذه التهيئة ضرورية لاجتذاب المتلقي وإقحامه ضمن الأفق الإقناعي الذي ينشده الخطيب»^(٤).

ومن مظاهر حضور هذا النوع من التكرار التكرار الوارد في قوله ﷺ في إحدى خطبه: ((طوبى^(٥) لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية وجالس أهل الفقه والحكمة وخالط أهل الذل والمسكنة، طوبى لمن زكّت وحسنت خليقته وطابت سريرته وعزّل عن الناس شرّه، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم

(١) الكتاب: كتاب سيويه، مرجع سابق، ج ٣، ص ١١٧.

(٢) ينظر: الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ١٦٨.

(٣) أفق انتظار المتلقي: مفهوم جماليّ يؤدّي دوراً مؤثراً في عملية بناء العمل الفنيّ والأدبي، وفي نوعية الاستقبال التي يلقاها ذلك العمل، انطلاقاً من فكرة أنّ المتلقي يُقبل على العمل وهو يتوقّع أو ينتظر شيئاً ما. ينظر: أفق التوقع: جذوره وامتداده عند هانز روبير ياوس: عرضٌ وتحليلٌ، محمد السماعنة، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد ١٠٨، ص ٢٢٤ (٢٠١٧م).

(٤) الحجاج في الخطاب: مقاربات تطبيقية، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٥) طوبى: اسم الجنة، وقيل شجرة فيها. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٨٣.

تَسْتَهْوِهُ الْبِدْعَةَ»^(١).

ففي معاودته ﷺ لكلمة (طوبى) إذكاءٌ لهمم المتلقين في سبيل سلوك طرق الخير، وإصلاح النفس، واكتساب الرزق الطيب، واجتناب المحرم، والتمسك بالسنة؛ ذلك أن من شأن النفس الحيّة أن تزداد تحقّراً وطلباً مع إعادة المكافأة (طوبى) في كلّ مرة، وبتكرار (طوبى) فإنّه لا يتجلّى معنى تجدد الجزاء والمكافأة فحسب، ولكنّه «يُعاد إخراجُه مرة أخرى في ثوب جديد؛ إذ ليست مهمته-حين التّردّد-التنبية أو الإخبار، بل مهمته حفر الاعتقاد الجديد في عمق النفس وتمكين الأثر المتوخى فيها»^(٢).

ويحمل هذا التّكرار-أيضاً-معنى التهيئة والتمهيد، ذلك أن لإلف المعاني والألفاظ دوراً في الإقناع والتأثير، و«لن يتحصّل الإلف مع الشيء إلا بتكرّره على النفس، ولو كان التّكرار يورث الكراهة لكان المألوف أكره شيء عند النفس، وامتنع إذ ذاك نزعها إلى مألوف، والوجدان يكذب ذلك»^(٣). ولئن كان لفظ (طوبى) في واقعه شيئاً واحداً لمسمّى واحداً، إلا أنّه لا يخطئ من يلتمس التّعديّة في معاني هذا اللفظ مع كلّ تكرار^(٤).

وفي تكرار هذا اللفظ معنى الموازنة بين ثنائية: التكليف والجزاء؛ فلو اقتصر ﷺ على ذكر الجزاء (طوبى) مرةً واحدةً، ثم أتبعه بالتكليف معطوفاً بعضها على بعض لَوَقَعَ بعض المتلقين في مأزق تناسي الجزاء؛ لطول العهد به أو استكثار التكليف والمتطلبات مقابل جزاء واحدٍ منفرد^(٥). ومنها، أن عليّاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خطب الناس في بعض أيام (صقيين) فكان من قوله: ((واعلموا أنّكم بعين الله، ومع ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فعاودوا الكفر، واستحيوا من الفرّ؛ فإنّه عار في الأعقاب^(٦)، ونار يوم الحساب، وطيبوا عن أنفسكم نفساً، وامشوا إلى الموت مشياً

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٥٣.

(٢) الواحد المتعدد: النص الأدبي بين الترجمة والتعريب، مرجع سابق، ص ٦٠.

(٣) مفتاح العلوم، مرجع سابق، ص ٣٥٠.

(٤) ينظر: بحث: الإحالة التكرارية ودورها في التماسك النصي بين القدامى والمحدثين، مرجع سابق، ص ٢٣.

(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٠.

(٦) الأعقاب: جمع عقب وهو الذكر من الأولاد، وقول العرب: لا عقب له، أي لم يبق له ولد ذكر. ينظر: تاج العروس،

مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٩٦.

سُجْحًا^(١)، وعليكم بهذا السَّواد الأعظم والرُّواق^(٢) المطنَّب^(٣)، فاضربوا ثَبَجَه^(٤)؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي كِسْرِهِ^(٥)، قَدْ قَدَّمَ لِلوُثْبَةِ يَدًا وَأَخَّرَ لِلنَّكُوصِ رِجْلًا، فَصَمَدًا صَمَدًا، حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودَ الْحَقِّ، وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُكُمْ^(٦) أَعْمَالَكُمْ^(٧).

فِيمَا أَنَّ مَحْوَرَ الْخُطْبَةِ هُوَ الصَّمُودُ فِي أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ، فَقَدْ عَدَلَ ﷺ إِلَى تَكَرُّرِ (صَمَدًا)؛ مَضَاعِفَةً فِي الْأَمْرِ بِالصَّبْرِ وَامْتِثَالِ التَّجَلُّدِ وَالثَّبَاتِ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ، مَهْمَا كَانَتِ الْعَوَاقِبُ وَالتَّبَعَاتُ، ذَلِكَ إِلَى مَا فِي تَكَرُّرِ هَذِهِ الصَّيْغَةِ الْأَمْرِيَّةِ مِنْ مَعْنَى طَلْبِ الْمُبَادَرَةِ وَالْحَثِّ عَلَى الْمَسَارَعَةِ وَالْإِلْحَاحِ عَلَى التَّحْقِيقِ؛ حَيْثُ إِنَّهُ مَتَى «صَدَرَ الْأَمْرُ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى الْمَأْمُورِ بِلَفْظِ التَّكْرِيرِ مَجْرَدًا مِنْ قَرِينَةٍ تَخْرُجُهُ عَنْ وَصْفِهِ، وَلَمْ يَكُنْ مُؤَقَّتًا بِوَقْتٍ مَعَيَّنٍ، كَانَ ذَلِكَ حَثًّا لَهُ عَلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى امْتِثَالِ الْأَمْرِ عَلَى الْفُورِ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قَلْتَ لِمَنْ تَأْمُرُهُ بِالْقِيَامِ: (قُمْ قُمْ)، فَإِنَّمَا تَرِيدُ بِهَذَا اللَّفْظِ الْمَكْرُرِ أَنْ يُبَادَرَ إِلَى الْقِيَامِ فِي تِلْكَ الْحَالِ الْحَاضِرَةِ»^(٨)، وَإِنَّ مِنْ «عَادَةِ الْعَرَبِ فِي خُطَابَاتِهَا إِذَا أَبْهَمَتْ [كَذَا!] بِشَيْءٍ إِرَادَةَ لَتَحْقِيقِهِ وَقَرْبَ وَقُوعِهِ، أَوْ قَصَدَتْ الدَّعَاءَ عَلَيْهِ، كَرَّرْتَهُ تَوْكِيدًا، وَكَأَنَّهَا تَقِيمُ تَكَرُّرِهِ مَقَامَ الْمَقْسَمِ عَلَيْهِ»^(٩).

وَالْمَتَأَمَّلُ فِي هَذَا الشَّاهِدِ مِنَ الْخُطْبَةِ يَجِدُهُ مُشْتَمَلًا عَلَى عَدَدٍ مِنَ الْأَوَامِرِ الْمُفْرَدَةِ، بَيْنَمَا اخْتَصَّ - مِنْ بَيْنِهَا - الْأَمْرَ (صَمَدًا) بِالتَّكْرَارِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الصَّمُودَ مَفْتَاخَ النُّصْرَةِ وَأَسَاسُهُ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ وَطَرِيقُهُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَيْهِ.

ومنها، قول عمرو بن سعيد بن العاص الوارد في خطبته بمكة وقد استعمله أبوه واليًا عليها:

(١) مِشِيَّةٌ سُجْحٌ: سَهْلَةٌ مَنَسَاقَةٌ. يَنْظُرُ: السَّابِقُ، ج ٦، ص ٤٥٤.

(٢) الرُّوِاقُ: مُقَدَّمُ الشَّيْءِ وَأَطْرَافُهُ. يَنْظُرُ: السَّابِقُ، ج ٢٥، ص ٣٧٦.

(٣) المَطْنَبُ: المَشْدُودُ. يَنْظُرُ: السَّابِقُ، ج ٣، ص ٢٧٨.

(٤) ثَبَجَه: وَسَطُهُ. يَنْظُرُ: السَّابِقُ، ج ٥، ص ٤٤٢.

(٥) الكِسْرُ: نَاحِيَةُ الشَّيْءِ. يَنْظُرُ: السَّابِقُ، ج ١٤، ص ٣٩.

(٦) لَنْ يَتَرَكُكُمْ أَعْمَالَكُمْ: لَنْ يَنْقُصَكُمْ مِنْ جَزَائِكُمْ شَيْئًا. يَنْظُرُ: السَّابِقُ، ج ١٤، ص ٣٣٧.

(٧) جَمَهْرَةٌ خُطِبَ الْعَرَبُ، ج ١، ص ٣٤٧.

(٨) المَثَلُ السَّائِرُ فِي أَدَبِ الْكَاتِبِ وَالشَّاعِرِ، مَرْجِعُ سَابِقِ، ج ٣، ص ٣٠.

(٩) البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٣، ص ٩.

((ثم شَرَحَ^(١) أمر بين أمرين فَقَتَلْنَا وَقُتِلْنَا، فوالله ما نَزَعْنَا ولا نُزِعَ عَنَا^(٢)، حتى شرب الدَّمُ دَمًا، وأكل اللحمَ لحمًا، وقرع العظمَ عظمًا، وعاد الحرامَ حلالًا، وأُسكِتَ كلُّ ذي حَسَنٍ عن ضربِ مُهَنْدٍ، عَزَّكَ^(٣) عَزَّكَ، وَعَسَفًا^(٤) عَسَفًا، وَحَزًّا^(٥) وَهَسًّا^(٦)، حتى طابوا عن حقنا نفسًا، والله ما أعطوه عن هواده^(٧)) ولا رضوا فيه بالقضاء، أصبحوا يقولون: حَقَّنَا عَلْبِنَا عَلَيْهِ، فجزيناه هذا بهذا وهذا في هذا، يا أهل مكة: أَنْفَسِكُمْ أَنْفَسِكُمْ، وَسَفَهَاءِكُمْ سَفَهَاءِكُمْ، فَإِنَّ مَعِيَ سَوْطًا نِكَالًا، وَسِيْفًا وَبَالًا، وَكُلُّ مَنْصُوبٌ عَلَى أَهْلِهِ^(٨).

فلا يخفى ما يحمله التكرار في قوله: (عَزَّكَ عَزَّكَ، وَعَسَفًا عَسَفًا) من تفخيم لقوة بني أمية وتعظيم لسطوتهم وخطرهم ومدى تجلدهم ومجالدتهم وإصرارهم ومكابدتهم في سبيل هذا الحق، كما لا تخفى القيمة الحجاجية للتوازي الظاهر في هذا التكرار؛ من جهة تشكيل التكرار على ما يُشبهه الضربات المنتظمة التي تطرق آذان المتلقين فتضاعف التأثير فيهم^(٩).

وظاهر الدور الإقناعي للتكرار في قوله: (أَنْفَسِكُمْ أَنْفَسِكُمْ، وَسَفَهَاءِكُمْ سَفَهَاءِكُمْ) من جهة المُبالغة في الحثِّ على الالتزام والتحذير من الخروج عمدًا يلزم من الانضباط والانصياع؛ فمتى لَزِمَ كلُّ إنسانٍ حدَّه، وأخذ على يدِ سفيهه، فقد أَمِنَ الشرَّ وعُدِمَ العصيان.

ويكشف التكرار في هذه الخطبة تأثر الخطبة بمشاعر الخطيب وحالته النفسانية؛ إذ جاء التكرار استجابةً مباشرةً لما لدى الخطيب من بواعث نفسية قوية نتجت بفعل اهتمامه ببعض

(١) والشَّرْحُ: الفُرْقَةُ، يقال: أصبحوا في هذا الأمر شرجين، أي: مفترقين فرقتين. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج٦، ص٥٨.

(٢) نَزَعٌ عن الأمر: انتهى عنه وكفَّ وتوقَّف. ينظر: السابق، ج٢٢، ص٢٣٩.

(٣) عازَّكَ: قاتله وصارعه. ينظر: السابق، ج٢٧، ص٢٧٠.

(٤) العَسْفُ: أن يأخذ المسافر على غير طريق ولا جادة، ولا عَلم ولا هُدًى، فنقل إلى الظلم والجور. ينظر: السابق، ج٢٤، ص١٥٧.

(٥) الوخز: الطعن بالرمح ونحوه مما يكون طعنه غير نافذ. ينظر: السابق، ج١٥، ص٣٦٩.

(٦) هَسَّ اللحم: أخذه بمُقَدَّم أسنانه وبتفنه. ينظر: السابق، ج١٦، ص٥٨٦.

(٧) الهَوَادَةُ: اللَّيْلُ. ينظر: السابق، ج٩، ص٣٥٤.

(٨) جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٢٣٠.

(٩) ينظر: أطروحة: الخصائص الأسلوبية لنشر الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة، مرجع سابق، ص١١٢.

المعاني؛ فمتى كان «الباعث قوياً كان صداه تكرير اللفظ المنبئ بالخطر»^(١).

وإلى تلك المعاني، فإنَّ التَّكرار في الموضوعين يُوَسِّرُ على أنَّ الخطيب يُصِرُّ على مواقفه ويقفُّ دون المساس بها، فقناعاته ليست رخوة أو عابرة، وإمَّا هي قناعات قويَّة ومشدَّدة جديرة بالمصادقة والمجارة، وبهذه الدلالة فإنَّ الخطيب يكون قد نجح في منح نفسه القوة والسلطة التي تدفع المتلقين إلى موافقة قوله والأخذ به والإذعان له^(٢).

ومما هو في عداده، قول الحجاج في إحدى خطبه الوعظية: ((امرؤ حاسب نفسه، امرؤ راقب ربه، امرؤ زور عمله، امرؤ فكر فيما يقرؤه غداً في صحيفته ويراه في ميزانه، امرؤ كان عند همِّه أمرًا وعند هواه زاجراً، امرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام^(٣) جملة، فإنَّ قاده إلى حقِّ تبعه وإنَّ قاده إلى معصية الله كفه، إننا والله ما خلقنا للفناء، وإمَّا خلقنا للبقاء، وإمَّا نتقل من دارٍ إلى دارٍ))^(٤).

لقد نسج الحجاج خطبته تلك على معنى الشرط والجزاء الضمني؛ وكأنَّه يقول: (من يتق الله يسعد)، وكان من براعته وإبداعه في أداء هذا المعنى والوفاء بحقه تكرار كلمة (امرؤ)؛ إذ حمل هذا التَّكرار معنى جذب انتباه المتلقين وإيقاظ أسماعهم؛ ترفُّباً لِمَا سيعقبُ هذا اللفظ في كلِّ مرَّة من عملٍ مشروع^(٥).

ولا يخلو هذا التَّكرار من معنى التطرية وتجديد العهد مع كلِّ عملٍ من تلك الأعمال المُهمِّة والمشروعة^(٦)، ولعلَّ ممَّا يُثبت العائد التأثيري الفوري لهذا التَّكرار ويدلُّ على أهميته في الإقناع: ما نُقل عن مالك بن دينار إثر تلقيه لهذه الخطبة، حيث يقول: «فما زال يقول: (امرؤ امرؤ) حتى

(١) التكرير بين المثير والتأثير، مرجع سابق، ص ١٢١.

(٢) ينظر: الحجاج في الخطاب: مقاربات تطبيقية، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٣) الخطام: كلُّ ما وضع في أنف البعير ليقتاد به. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٢، ص ١١٥.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣٠٢.

(٥) ينظر: نسيج النص: بحث فيما يكون به الملفوظ نصًّا، الأزهر الزناد، ط ١، ص ١١٩ (المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٣م). خطب الحجاج بن يوسف الثقفي الوعظية: دراسة في ضوء نظرية الاتصال الأدبي، محمد أرشد الحسن، مجلة التجديد، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، المجلد ٢٠، العدد ٤٠، ص ١٥٧ (١٤٣٨هـ).

(٦) ينظر: البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٤. وأطروحة: الخصائص الأسلوبية لنثر الإمام علي رضي الله عنه في نهج البلاغة، مرجع سابق، ص ١١٠.

أبكاني»^(١).

ومن خلال ما استعرض من مظاهر تكرار اللفظ في المدونة المدروسة، وبفعل ما وقف عليه من معاني دلالية ناتجة عن هذا التكرار، فإنه يمكن القول: إن تكرار الكلمات والألفاظ أساس في إقناع المدونة، ولا يمكن جعله ضمن فوائض القول وزياداته.

١-ج-تكرار العبارة:

إذا كان لتكرار الحرف والكلمة المفردة أثر واضح في إثراء المعنى وتعميق دلالاته وتبعده الحجاجي، فإن تكرار العبارة-أيضاً-دوره في أداء المعنى وتماسك النص وحيويته، حيث يُضفي على الخطاب سمة دلالية تُرسخ المعاني في كل مرة، وتزيد النص لُحمةً واتساقاً، فضلاً عن دوره في إثارة دهشة المتلقي ولفت انتباهه؛ وذلك من خلال مخالفة أفق انتظاره ومفاجأته بإعادة التركيب نفسه.

ومما استحسنته الباحث من شواهد هذا النوع من التكرار، قول هاشم بن عبد مناف، وقد كان ((يقوم أول نهار اليوم الأول من ذي الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء باهما، فيخطب قريشاً، فيقول: يا معشر قريش، أنتم سادة العرب؛ أحسنها وجوهاً، وأعظمها أحلاماً، وأوسطها أنساباً، وأقربها أرحاماً. يا معشر قريش، أنتم جيران بيت الله، أكرمكم بولايته، وخصكم بجواره دون بني إسماعيل، وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره، فأكرموا ضيفه وزوار بيته؛ فإنهم يأتونكم شعثاً غبراً من كل بلد، فورب هذه البنية^(٢)، لو كان لي مالٌ يحمل ذلك لكفيتكموه))^(٣).

حيث حمل التكرار (يا معشر قريش.. يا معشر قريش) معنى التلطف لقريش واستدراجهم والتجيب إليهم في سبيل أداء حق الله عليهم والقيام بحق قاصدي بيته الحرام، وقد عدل الخطيب إلى تكرار تخصيص قريش بالنداء على سبيل الضغط عليهم وإيقاظهم واستحضار أذهانهم؛ لتقع المعاني المنادى لها موقعها من أذهانهم، فيحصل المقصود من المبادرة والامتثال؛ فهم أحق الناس

(١) تاريخ دمشق، علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمري، ج١٢، ص١٤١ (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٥هـ).

(٢) الكعبة.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج١، ص٧٤.

بهذه المهمة وأولى العرب بها.

وإلى ذلك، فإنَّ تكرار نداء قريش خاصة لا يخلو من معنى التقرب والترغيب^(١)، إنَّ التَّكرار «يقوم في الخطاب الحجاجي بألية يوظفها المرسل مستهدفاً التأثير في المتلقي وإقناعه، أي أنَّه يساعد على أداء الوظيفة الاتصالية؛ بأن يعبّر المكرّر عن الحالة الانفعالية للمرسل، ويؤثر في الحالة الانفعالية للمتلقي»^(٢).

ومن قبيل هذا التَّكرار، تكراره ﷺ لعبارة (ألا هل بلغت اللهم فاشهد) في خطبة حجة الوداع^(٣)، فلطول هذه الخطبة وشمولها العديد من الأحكام والحدود الأساسية في حياة الإنسان المسلم، فإنَّه ﷺ قد عدل إلى تكرار هذه العبارة التقريرية خمس مرات؛ استيثاقاً من المتلقين وتحققاً من تجاوزهم؛ لتتخذ تلك الأحكام والحدود موقعها من أنفسهم، فضلاً عن الدور الترتيبي لهذه العبارة، إذ مثَّلت - في كلِّ مرة - قفلاً جزئياً معلناً عن الختم والانتقال إلى بيانٍ جديد.

وغيرُ خفيٍّ أنَّ «الإلحاح في بثِّ الرسالة يجعلها لا تمَّحي من الذهن بسهولة في حين أنَّ المعلومة التي تناقضها وليس لها سند من المتابعة والإلحاح قابلةٌ للنسيان بسهولة، ونسيانها هذا هو الذي يجعل المعلومة الأخرى ذات حظٍّ أعظم في الديمومة والاستمرار»^(٤).

ومما هو في عداد هذا النوع من التَّكرار، ما ورد في خطبة عليٍّ رضي الله عنه بأصحابه بعد أن أغار سفيان بن عوف الغامدي على الأنبار، حيث كان مما قال في خطبته تلك: ((وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان؛ حتى لقد قالت قريش: إنَّ ابنَ أبي طالب رجلٌ شجاعٌ ولكن لا رأي له في الحرب! لله درهم!! ومن ذا يكون أعلم بها مني أو أشد لها مراساً؟ فوالله لقد نهضت فيها وما

(١) ينظر: التكرير بين المثير والتأثير، مرجع سابق، ص ١٩١.

(٢) دلائل الحجاج والإقناع في الخطاب النبوي الشريف: حديث الشفاعة نموذجاً، رشا عبد الرؤوف عبد الفتاح الحبشي، مجلة الجامعة الإسلامية للغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤، ص ٢٤٤ (٢٠٢٢م).

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٥٥-١٥٨.

(٤) ثلاثية اللسانيات التواصلية، سمير شريف إستيتية، مجلة عالم الفكر، المجلد ٣٤، العدد ٣، ص ٢٥، (يناير-مارس

بلغت العشرين، ولقد نَيْفَتْ^(١) اليوم على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع (يقولها ثلاثاً))^(٢).
فلحفظ الأمور من الالتباس، فإنه ﷺ قد قطع بتكرار هذه العبارة (ولكن لا رأي لمن لا يطاع) على كل من يظنّ به سوءاً، ويجهل حقّه وقدره، مؤكداً على شجاعته وصحّة رأيه في الحرب غير أنّ مخالفة أصحابه وخورهم وعصيانهم له قد أورثته هذه الحسرة، وجرّأت قريشاً ومن ذهب مذهبها إلى هذا القول.

وبهذا الإلحاح فإنّ التّكرار يكون قد حقّق الغرض المقصود؛ من جهة كشف تنكّب المتلقين عن الرأي الصحيح وإعراضهم عنه وإفسادهم له؛ عسى أن يُدركوا خطأهم ويثوبوا إلى رشدهم، فيحقّقوا ما يجب عليهم من طاعة إمامهم ومساندة رأيه وما يذهب إليه.

وإلى ذلك فقد أفصح هذا التّكرار عن مدى تحسّره ﷺ، وتجّرع مرارة هذا العصيان وألمه؛ ذلك أنّ التّكرار «إحدى المرايا العاكسة لكثافة الشعور المتراكم زمنياً عند الذات المتكلمة، يتجمع في بؤرة واحدة؛ ليؤدّي أغراضاً كثيرة»^(٣).

ويتّخذ جعفر بن يحيى البرمكي من تكرار عبارة (كيف بشكري) مساحة للتعبير عن جميل صنع الخليفة هارون الرشيد له؛ مُعدّداً أياديّه الطُّولى عليه فيقول: ((ولكّي أعرف من أيديك عندي، ما لا أعرف مثلها عند غيري، فكيف بشكري وقد أصبحت واحد أهل دهري فيما صنعته فيّ وبّي؟ أم كيف بشكري وإمّا أقوى على شكرك بإكرامك إياي؟ وكيف بشكري ولو جعل الله شكري في إحصاء ما أوليتني لم يأت على ذلك عدي؟ وكيف بشكري وأنت كهفي دون كل كهف لي؟ وكيف بشكري وأنت لا ترضى لي ما أرضاه لي؟ وكيف بشكري وأنت تجدّد من نعمتك عندي ما يستغرق كل ما سلف عندك لي؟ أم كيف بشكري وأنت تُنسيني ما تقدم من إحسانك إليّ بما تجدّده لي؟ أم كيف بشكري وأنت تقدّمني بطولك^(٤) على جميع أكفائي؟

(١) كلّ ما زاد على العقد فهو نَيْفٌ إلى أن يبلغ العقد. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٤، ص ٤٤٤.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٤٢٩.

(٣) أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، مرجع سابق، ص ١٥٤.

(٤) الطُّول: المَنُّ والفضل. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٩، ص ٣٩٦.

أم كيف بشكري وأنت وليّبي؟ أم كيف بشكري وأنت المكرم لي؟^(١).

فمقام خطبة جعفر البرمكي مقام اعتراف بأفضال الخليفة، وإقرار بالتقصير في شكره له، بله مكافأته؛ فهو وإن أدّى في سبيل الخلافة ما أدّى إلا أنّه لن يبلغ حقّ شكر الخليفة على جزيل نعمائه وعظيم امتنانه وعميم أفضاله، وقد كان لتكرار تركيب الاستفهام (كيف بشكري؟) مع كلّ نعمة من هذه النعم والأفضال معناه الحجاجي المؤثّر؛ من جهة المبالغة والتناهي في الاعتراف بالتقصير، والعجز عن أداء شكر اليسير، فالخطيب-هنا-عاجزٌ عن شكر جزءٍ بسيطٍ من هذه النعم، فكيف بها جميعاً.

كما أنّ في تجديد الاعتراف مع كلّ نعمة دليلاً تافهاً على تقدير المنّة وحسن النية بالبقاء على الإخلاص في خدمة الخليفة والخلافة، فضلاً عن أنّ هذه الاستفهامات المتلاحقة-التي لا ينتظر الخطيب جوابها من الخليفة- تُعبّر عن كثافة عاطفية يريزح الخطيب تحت وطأتها، فكأنّه يحاول-بهذا التكرار-إعذار نفسه والتنفيس عن مشاعره المختلطة حيال هذا الطوق من النعم والأفضال^(٢).

ولئن طالّت هذه الخطبة واتّسعت، فإنّ لاستعادة هذا التركيب عشر مراتٍ دوره البارز في شدّ أجزائها، وإحكامها والمحافظة على حيويّتها، مما يضمن تركيز انتباه الخليفة ولفت نظره إلى ما يعدّه الخطيب فكرة خطبته الرئيسة^(٣).

إنّ المتأمل في التراكيب المكرّرة في الأمثلة السالفة لا تخفى عليه القيمة المعنوية لهذا التكرار؛ إذ حضر في تلك الأمثلة بصفته آلية إقناعية تحمل في طيّتها العديد من معاني التأكيد والتأثير والتركيز والتنفيس، وأياً كان الشأن في هذا النوع من التكرار، فإنّ تكرار العبارات يُكسبها دلالات إضافية إقناعية، ذلك إلى كونها-في الغالب-روابط إحالية شكلية تهبّ القول قوّة وتماسكاً وحيويّةً واتساقاً.

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٨٧.

(٢) ينظر: التكرير بين المثير والتأثير، مرجع سابق، ص ١٢٧.

(٣) ينظر الحجاج في الخطاب: مقاربات تطبيقية، مرجع سابق، ص ٤٢.

٢- التكرار المعنوي:

ويكون هذا التكرار بإعادة المعنى دون لفظه، ويُعدُّ حيلة من الحيل الإقناعية، وأسلوبًا من الأساليب الحجاجية المهمة التي تُمكن المتكلم من إعادة الفكرة نفسها مع إيهاام المتلقي بتقدّم الخطاب الحجاجي وتوزيع المعاني، وبالموازنة المبدئية بين التكرارين: اللفظي والمعنوي، فإنّ الموازن يُلحظ أنّ التكرار المعنوي أُدخل في باب الحجاج وأقرب نسبًا؛ ذلك لما تحمله المكررات من معانٍ دقيقة يقصُر التكرار اللفظي عنها؛ إذ إنّ كشف دلالات المضمون وبيانها أوسع وأشمل من كشف دلالات الشكل (اللفظ)^(١).

وقد وقف الباحث على جملة من شواهد هذا النوع من التكرار في المدونة، ولعلّ من أصدقها دلالة عليه قوله ﷺ في إحدى خطبه: ((من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضلّ ضلالًا بعيدًا))^(٢).

إنّ «النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرر عليها عودًا عن بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله»^(٣)، لذا فإنّ المتأمل في هذا الشاهد يجد أنّه ﷺ قد عدل في قوله: (غوى وفرط وضلّ ضلالًا بعيدًا) إلى تكرار ألفاظ تشترك في خدمة حقل دلالي واحد؛ من جهة اتفاتها في الدلالة على: مجانبة الصواب ومقابلة معنى الرّشاد، ولعلّ الدافع وراء إفراده ﷺ نتيجة الطاعة بالرشد وتعداد نتائج المعصية هو بيان شؤم المعصية ووعورتها وتداعي تبعاتها وتشنتت سالكها بين مجاهل هذه المعاني المُمعنة في الدلالة على الانحراف.

وإذا كان التكرار يُمثّل «انبعاثًا وجدانيًا يفيض على المتلقي حرارة يتحرك لها قلبه»^(٤)، فتنشط نفسه إلى تحقيق هذه الأمور وأداء حقّها، فإنّ تكراره ﷺ يتغيّا الإلهاب وتحريك نفوس المتلقين

(١) ينظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ط ٢، ج ٢، ص ١٩٣ (دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٤هـ).
والحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٣٣٩. والحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ١٧٢. وأطروحة: التكرار المعنوي في القرآن الكريم: دراسة أسلوبية دلالية، مرجع سابق، ص ٣٠.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٤٨.

(٣) ينظر: تفسير الكشاف، ص ٩٣٨-٩٣٩.

(٤) التكرير بين المثير والتأثير، مرجع سابق، ص ٩٠.

إلى الطاعة وتبغيضها بالعصيان؛ فإن كنتم تطلبون الرشد وتكرهون الغواية والتفريط والضلال، فعليكم بطاعة الله ورسوله.

ومن شواهد هذا التكرار، قول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في خطبته يوم (أرمات)^(١): ((إنَّ الله هو الحق لا شريك له في الملك، وليس لقوله خُلفٌ، قال جلّ ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٢)، إنَّ هذا ميراثكم وموعد ربكم، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج؛ فأنتم تطعمون منها وتأكلون منها وتقتلون أهلها وتحبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب الأيَّام منكم))^(٣).

فقد تضمن قوله: (تطعمون منها وتأكلون منها) تكراراً عاماً لمعنى الأكل يُضاعف التوجيه نحو النتيجة المقصودة: (وجوب التمسك بهذه الأرض الثرية والمحافظة عليها والدود عنها). وبإنعام النظر في هذا التكرار تجده يجمع بين خصوصية المعنى الجزئي، وتكامل المعنى الكلبي؛ فلئن كان الاستطعام دالاً في جهة من معانيه على تنوع مذاقات الطعام وتعدّد أصنافه، فإنَّ الأكل دالٌّ على كثرة هذا الطعام وشموله جميع المأكولات: الآدمية وغير الآدمية، بطعمٍ أو بغيرِ طعمٍ^(٤)، فهذه البلاد من خير بلاد الله نباتاً وأكثرها ثراءً.

إنَّ المتأمل في هذا التكرار خاصةً وفي ظاهرة التكرار المعنوي عامةً «لا يجد تكراراً إلا في المعنى العام، أمّا الذي سيجمده بالفعل فإنّما هو تنويع بارع»^(٥) مُحمّل بالمعاني، يسلكه الخطيب لغرضٍ حجاجيٍّ متعمّد ومقصود.

ومعدودٌ من هذا التكرار، قول الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما في خطبته التي يعنى فيها أباه رضي الله عنه:

(١) وهو اليوم الأول من أيام معركة القادسية، ينظر: تاريخ الرسل والملوك، مرجع سابق، ج ٣، ص ٥٤٠.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ١٠٥.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٢٩.

(٤) ينظر: الموسوعة القرآنية: خصائص السور، جعفر شرف الدين، ط ١، ج ١، ص ٢٧٣ (دار التقريب بين المذاهب

الإسلامية، بيروت، ١٤٢٠هـ). والموسوعة القرآنية، إبراهيم بن إسماعيل الأبياري، ج ٨، ص ٢٠٣ (مؤسسة سجل

العرب، القاهرة، ١٤٠٥هـ). وأطروحة: التكرار المعنوي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ١٣٠.

(٥) التكرار المعنوي في القرآن الكريم: دراسة أسلوبية دلالية، يحيى بن محمد المهدي، ص ٧٧، رسالة دكتوراه، جامعة أم

درمان الإسلامية، جمهورية السودان، (١٤٢٦هـ).

((أيها الناس: مَنْ عرفني فقد عرفني، وَمَنْ لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، أنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، والذين افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾^(١)، فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت))^(٢).

فالحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وإن كان غنياً عن التعريف، إلا أنَّ المقتضى المقامي يُحتم الاستقصاء في أداء هذا المعنى وتكراره والإلحاح عليه بطرق مختلفة تؤكد حقه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الخلافة من بعد أبيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وتجنُّبه كلَّ مَنْ يذهب إلى غير ذلك.

وإن كانت النتيجة المقصودة هي: (وجوب التسليم للحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالخلافة)، فإنَّ كلَّ معنى من هذه المعاني المكررة يعدُّ مفتاحاً لتلك النتيجة، وحجةً إقناعية قائمة عليها، ولاشكَّ أنَّ اتفاق المعاني في تحقيق نتيجة واحدة مما يفي بقدر النتيجة ويضمن سلامة الوصول إليها؛ ذلك أنَّ الجمع بين معاني الفكرة الواحدة يُعدُّ سبيلاً لشغل فضاء تلك الفكرة، فحيثما قصر أحد المعاني المكررة في أداء حقِّ تلك النتيجة، فإنَّ مرادفه ينوب عنه، وغيرُ خفيٍّ أنَّ الإلحاح في بثِّ الفكرة من عدَّة وجوه يبيّئها من الذاكرة موقعاً منيعاً، ويجعلها محلاً للتأييد والمصادقة والرسوخ^(٣).

وحين يُكرِّر الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذلك المعنى من وجوه مختلفة، فإنه إنما ينطلق من أمرٍ وبيني عليه أمراً آخر؛ فما كان مقدّمة يصبح حجة، وما كان حجة يصبح مقدّمة لحجة أخرى، وهكذا، مما يتجلّى به دقّة هذا المسلك وبراعته^(٤).

ومما ينتظم في سلوكه، قول عيسى بن علي -عمِّ السفاح- في خطبته لما قُتل مروان بن محمد:

(١) سورة: الشورى، الآية: ٢٣.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٧.

(٣) ينظر: الخطاب الإقناعي في ضوء التواصل اللغوي: (الحجاج بن يوسف الثقفي) نموذجاً، عمارة حاكم، ص ١٩٧، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، تلمسان (١٤٢٧-١٤٢٨ هـ). وبحث: الإحالة التكرارية ودورها في التماسك النصي بين القدامى والمحدثين، مرجع سابق، ص ١.

(٤) ينظر: الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ١٧٢.

((الحمد لله الذي لا يفوته من طلب، ولا يعجزه من هرب، خدعت والله الأشقر نفسه إذ ظن أن الله ممهله، ﴿وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُتَمَّ نُورُهُ وَوَكَّرَهُ الْكُفْرُونَ﴾^(١)، فحتى متى، وإلى متى؟))^(٢).

إذ يُمَثِّلُ التَّكْرَارِ المضموني في قول الخطيب: (فحتى متى، وإلى متى؟) مظهرًا حجاجيًا فائق الأداء؛ ذلك لدوره في توزيع الحالة الشعورية على مدى واسع يكشف حالة التملل القصوى التي بلغها العباسيون إثر تمادي الأمويين وتجاوزهم وطول ليلهم، ودون هذا التكرار فإنَّ الخطبة تفقد جزءًا من حيويتها ونبضها؛ ذلك أنَّ التكرار إنما يقع على ما يهّم الخطيب ويُسيطر على مشاعره وأفكاره^(٣).

إنَّ أهميّة هذا التكرار المعنوي تتجلى بقدرته على الجمع بين «إشباع المعنى والانتساع في الألفاظ»^(٤)؛ فبالإشباع والانتساع تتضاعف القيمة الحجاجية للفكرة ويزداد حضورها في الذهن، مع إيهام المتلقي بتقدّم الخطاب وتحوّله وانتقاله.

ولئن كانت الأنواع التكرارية اللفظية أكثر لفتًا وتنبهًا للمتلقي من التكرار بالمعنى، فإنَّ التكرار بالمعنى يُفضّل التكرار اللفظي بثرائه الدلالي وتنوّع جهاته، فقول الأداة نفسها أو اللفظ نفسه أو العبارة نفسها مرات متعدّدة، يقلّ قيمة معنويّة عن قول المعنى مراتٍ متعدّدة بألفاظ مختلفة، ذلك من جهة ما ينطوي عليه الاختلاف من خصوصية وتميّز.

*** **

ومهما تنوع التكرار وتعددت مقاصده، فإنّه يُعدُّ أسلوبًا إقناعيًا من أساليب الخطبة الشفاهية، فيه يترسّخ المقصود ويتقرّر المطلوب، ومن خلاله يُسلط الضوء على أهم نقاط الخطبة وعناصرها الحساسة، وهو إلى ذلك طريقٌ من الطرق التركيزية التي تمنح المعنى قوّة وتأثيرًا وتحمي متلقّيه من الغفلة والتشتت، ولئن كان الإلف مدعاةً للقبول والارتياح، فإنَّ في التكرار إلّا لا يوجد في بقيّة

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٢.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٣.

(٣) ينظر: أسرار الفصل والوصل في البلاغة القرآنية، صبحاح عبيد دراز، ط ١، ص ١١٣ (مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٤٠٦ هـ).

(٤) تأويل مشكل القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط ٢، ص ١٥٢ (دار الكتب

العلمية، بيروت، ٢٠٠٧ م).

الأساليب.

ويُعدُّ التَّكرارُ أحدَ طرقِ كشفِ مشاعرِ المتكلِّمِ ودواخله؛ فالخطيبُ إنَّما يُكرِّزُ ذكرَ ما يُسيطرُ على تفكيره ويغزو مشاعره ويشغل اهتمامه، وهو يُحبُّ في الوقتِ نفسه أن ينقله إلى نفوسِ متلقيه.

وإلى تلكِ المقاصدِ المُهمِّةِ، فإنَّ للتكرارِ بنوعيه -اللفظي والمعنوي- دورهَ المشهودِ وأثره الظاهر في تماسكِ نصِّ الخطبةِ وربطِ الأداءِ بالمضمون، ومعلومٌ أنَّه كلما ازداد القولُ تماسكًا وترابطًا كان أكثرَ إقناعًا وأشدَّ تأثيرًا.

خاتمة الفصل:

لقد أفصح هذا المبحث عن الحضور الكثيف للحجاج داخل النسق اللغوي، إذ حرص الخطباء على توظيف أساليب لغوية محملة بالقيمة الإقناعية التأثيرية التي تحفز المتلقي على الاقتناع والإذعان، وكسب تأييده وتعبئته، بما يسمو بها عن التقريرات النحوية المسجّلة، ويبرزّ الجزم بأنّ الحجاج مؤشّر له بوضوح في اللغة، وبأنّ اللغة ملازمة للصفة التوجيهية الذاتية ولا وجود للغة حجاجية خالصة أو مُحايدة.

وبتلك الرؤية الحجاجية فقد تجلّت روابط الحجاج في المدونة بوصفها طاقاتٍ إقناعية إضافية مُهمّةٌ في تحقيق المعنى المقصود، في حين شكّلت العوامل اللغوية مؤشرات وعلامات دقيقة في سوق المتلقين نحو الجهة المقصودة من الحجاج، ولم يكن التوكيد مجرد عامل من العوامل؛ إذ مثّل - بشتى عوامله وطرقه - حضورًا بارزًا ومؤثرًا في تأسيس النتائج وإرسائها وحفظها، وإلى ذلك فقد ظهر التكرار بأشكاله المختلفة باعتباره أداة حازمة في تعيين المقصود وتقريره وحمايته من الظن والوهم والغلط.

ولئن بدت تلك الظواهر اللغوية فوائض أو زوائد يمكن الاكتفاء بأصل الكلام عنها، إلا أنّ الخطيب حين يختار زيادة عنصر لغويٍّ ما عن أصل الكلام، فإنّه إنّما يفعل ذلك بوعيٍّ وقصد يجعل اللغة لا تنفكّ عن التلبّس بالقصدية والغرضية الإقناعية.

ولعلّ ما وصلت إليه الدراسة في هذا المبحث يكون كافيًا في بيان أهمية الاستنارة بمعطيات كافة المدارس الحجاجية، ولا سيما (المدرسة اللغوية)؛ حيث تجلّى بهذا المبحث أهمية الدراسة اللغوية النحوية ودورها في استنطاق المعنى الحجاجي المقاميّ.

وإنّ كانت (البلاغة) صِنوًا ل(التّحو)؛ تبدأ من حيث ينتهي فتكتمل بها الرؤية النظمية في نسج الكلام وترتيبه، فإنّه لا يمكن فصل دراسة حجاجية الأساليب اللغوية عن دراسة حجاجية الأساليب البلاغية.

الفصل الثاني

الأساليب البلاغية

ويشتمل على ما يلي:

المبحث الأول: في الكلمة.

المبحث الثاني: في التركيب.

المبحث الثالث: في الصورة.

للأساليب البلاغية أهميتها القصوى، ودورها المؤثر في تحقيق الغاية الحجاجية، فكثيراً ما تُحضر الأشكال والظواهر البلاغية في البناء الحجاجي؛ بغرض استمالة المتلقي، وشدّ انتباهه، واستثارة عاطفته، وتوجيه سلوكه، ومن شأن تلك الأهداف-الرئيسة في الإقناع-أن تجعل البلاغة صفةً من الصفات الملازمة للخطاب الحجاجي المؤثر والناجح^(١).

وقد تنبّه العلماء-العرب وغير العرب، المحدثون وغير المحدثين-لارتباط البلاغة بالاستمالة والإقناع، فتقاطعت دراساتهم عند حقيقة واحدة، وهي: أنه لا غنى للحجاج عن البلاغة^(٢)؛ «قد يكون الشيء مُتَّفَعًا مُحْكَمًا ولا يكون حُلُومًا مَقْبُولًا»^(٣)-على حدّ قول القاضي الجرجاني- إذ يفتقر المعنى المُفْنَع إلى طراوة تكسوه وتوشّيه، ورقّة تحفظ له رونقه وتُحَرِّض على قبوله وإنجاز فعله.

ويمكن القول بأنّ الحجاج لا يستقيم إلا للحجاجِ بارِعٍ في المجالين: مجال البلاغة، ومجال الإقناع؛ فالبلاغة (فنّ الإيصال) عتادُ بنائيٍّ لا بدّ أن يتوسّله الخطيب إلى جانب أدوات ترجيح الرأي وتسويغه عقلياً (مجال الإقناع)^(٤).

وإذا كانت العقول تتأثر بالحجج والبراهين وتستجيب لها، فإنّ القلوب تهيم بالجمال وتركن إليه، وعند تلبية المُحاجِّ لمُتَطَلِّبات العقل واستيفائه لرغبات القلب، فإنّها تتحقّق الغاية المرجوة من الحجاج، بل إنّ بعض المتلقين- كما يذهب إليه أرسطو-«يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم، فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجّة، فلا يكفي إذن أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقوله كما ينبغي»^(٥)، وقد يكون الانجذاب إلى الجمال والمتعة طريقاً مُيسراً للانقياد والإذعان.

ويذهب حازم القرطاجني إلى أنّ المراوحة بين التخيل والإقناع هي السبيل الأوفى للتأثير، إذ

(١) ينظر: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ط ٢، ص ٦٣ (دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧١م).

(٢) ينظر: الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، ط ١، ص ٩١ (المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٧هـ).

(٤) ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته، مرجع سابق، ج ١، ص ١١.

(٥) في بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ص ٩٧.

«يجب أن تؤنس النفوس- عند استجمامها من توالي المعاني التي من شأنها أن تقبضها- بمعان يُناسِب بينها وبين تلك، مما شأنه أن يبسطها، وكذلك لا ينبغي أن يُنحى بالمعاني-أبدًا-منحى واحدًا من التخييل أو الإقناع؛ ولكن تُردف التخيلية في الطريقة الشعرية بالإقناعية، والإقناعية في الخطابة بالشعرية؛ فبالصرف في المعاني على هذه الأنحاء يحسن موقع الأساليب من النفوس. فمن لنا هذا النحو وحمل كلتا الصناعتين من الأخرى ما تحتمله، وسلك في الطرق والأساليب المسالك المؤثرة، وذهب بها المذاهب الملائمة للأغراض، وآنس بعض المعاني ببعض وراوح بينها على النحو المشار إليه، كان جديرًا أن ترتاح النفوس لأسلوبه وأن يحسن موقعه منها»^(١).

ولسرمدية التلازم بين البلاغة والحجاج، فقد ذهب بعضهم إلى القول بتطابقهما؛ فليست البلاغة-عندهم- شيئًا يمكن فصله أو تنحيته عن الحجاج، بل إنهما وُلدت وترعرعت في أحضان الحجاج ولتحقيق أهدافه، مما يحول دون الفصل بينهما وتجاوز هذا الارتباط والتلازم التكاملي الأرتلي، وبذلك فإنه لا يخطئ من يذهب إلى أن وراء كل حجاج بلاغة، وخلف كل بلاغة حجاجًا؛ فسبيل ذلك ومداره هو التأثير والاستدراج قصد الإمتاع والإقناع^(٢).

ولاشك أن في تجاوز مألوف الكلام إلى غير المألوف منه مفاجأة ومخالفة لأفق انتظار المتلقي تزيادانه تحفزًا وارتباطًا بالأطروحة؛ فكلما كانت الأساليب مخالفة وغير متوقعة كان وقعها في النفس أشد، وأثرها أعمق^(٣).

وإلى جانب الدور الجمالي والإمتاع، فإنه يمكن دراسة كثير من الآليات والطرق البلاغية من جهة ما تحمله في طبيعتها من طاقات إقناعية ظاهرة، كما تجدر الإشارة- في هذا الصدد- إلى ما امتازت به بعض الأساليب البلاغية من حملها معاني عقلية ظاهرة تجعلها- إلى جانب جماليتها-

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط ٤، ص ٣٥٨ (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٧م).

(٢) ينظر: مفهوم الحجاج عند (بيرلمان) وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم محمد الأمين الطلبة، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٩٥. وبجث: الحجاج والاستدلال الحجاجي: عناصر استقصاء نظري، مرجع سابق، ص ٦٣٧.

(٣) ينظر: الأسلوبية والأسلوب، مرجع سابق، ص ٨٦.

في مصافِّ وسائل الاستدلال الحجاجي، ومن أشهر هذه الأساليب البلاغية، أسلوبًا: التشبيه والاستعارة؛ إذ يتأسسان على علاقة المشابهة، وهي علاقة عقلية بحتة^(١).

ويفوق حضور الأشكال البلاغية في النص الشفاهي حضورها في النص الحجاجي المكتوب؛ ذلك أنَّ الحجاج بالمشافهة يستلزم القضاء على آفتين من آفات الإقناع، هما: آفة النسيان، وآفة عدم التركيز؛ فللقضاء على هاتين الآفتين فإنَّ المحاجَّ مُلزَمٌ بتوظيف عدد من الآليات والاستراتيجيات البلاغية^(٢).

ولأنَّ خطب المدونة نصوصٌ شفاهية بامتياز، فإنَّه لا يمكن تصوُّر خلوها من أيِّ من الأساليب البلاغية؛ فالبلاغة مرتكزة في الخطبة باعتبارها زادًا مؤثرًا يُغني الخطيب البليغ عن حمل الورق، ويُعين المتلقي على الاستحضار والتمثُّل، وهذا ما لا يحتاج النص المكتوب إلى كثيرٍ منه عادةً؛ إذ يسهل تناوله وإعادة قراءته في كلِّ وقتٍ وعلى كلِّ حالٍ^(٣).

وإذا كان الأسلوب-عند بعضهم- هو «طريقة الكتابة، أو طريقة الإنشاء، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير»^(٤)، فإنَّ الأصل أن يختار الخطيب من الأساليب البلاغية أكثرها تأثيرًا وأجدرها نفعًا وأوفاهها إقناعًا، وعليه فإنَّ الاختيار البلاغي اختيارٌ مقاميٌّ، واعٍ ومقصودٌ، مبنيٌّ على العدول عمَّا لا يصبُّ تمامًا في مصلحة الأطروحة إلى ما يُؤيِّد فكرتها ويرسخ معناها. ولئن كانت هناك طرقٌ عدةٌ لقول الفكرة الواحدة، فإنَّ هنالك طريقًا واحدًا فقط يُشكِّل أقرب الطرق وأحسنها إلى تلك الفكرة^(٥).

(١) ينظر: حجاجية الاستعارة في الشعر العربي: (ديوان المتنبي) أمودجًا، البشير عزوزي، رسالة ماجستير، ص ١٩، جامعة أكلي محمد أولحاج، الجزائر، البويرة (٢٠١٣-٢٠١٤م).

(٢) ينظر: هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي، أوليفي روبول، ترجمة: محمد العمري، ملحق بكتاب: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

(٣) ينظر: السابق، ص ٢٢٣-٢٢٤. والإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٠٨.

(٤) الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، أحمد الشايب، ط ٨، ص ٤٤ (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٤١١هـ).

(٥) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ١٧٠. وحرية النفي وممكنات الإثبات: بحث في أسلوبية الاختيار، أحمد محمد ويس، مجلة فصول، المجلد ٢٦ / ١، العدد ١٠١، ص ٢٩٣، ٢٩٦ (خريف ٢٠١٧م).

وتأسيساً على ما سبق، فإنَّ الخطاب الحجاجيَّ عموماً وخطاب الخطبة على وجه الخصوص خطابٌ موجَّهٌ ينماز عن درجة مستوى أصل الكلام المؤلف (درجة الصفر)، وينحرف عنها إلى غير المؤلف؛ تحقيقاً للغاية الإقناعية، وإصابةً للسامع بضربٍ من العدوى الخلاقية، وهو ما يُبرز اهتمام البحث الحجاجي بدراسة العدول البلاغي وتقييم دوره في التأثير^(١).

وإذا كانت البلاغة تعني- عند بعض علمائنا الأوائل- تقرير المعنى في الأفهام من أقرب وجوه الكلام؛ فكلٌّ من أفهمك قصده فهو بليغ، وإن كان بإمكان المتكلم التجوُّز- في جميع مستويات الكلام- بعنصر أو طريق لغوي عن آخر؛ على سبيل الاختيار الأنفع في تحقيق الإفهام المؤثر واستدراك الخصم إلى الإذعان والتسليم، فإنَّ دراسة الأساليب البلاغية تتجاوز (الكلمة) إلى (التركيب) و(الصورة)^(٢)؛ مما يجعلُ البحث يدرس الاختيارات البلاغية في المدونة في مستوياتها الثلاثة: الكلمة، التركيب، الصورة:

(١) ينظر: الأسلوبية والأسلوب، مرجع سابق، ص ٤١. والبلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، ط ١، ص ٥٩ (مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٤م).

(٢) ينظر: البيان والتبيين، مرجع سابق، ص ١١٤، ١٦١. وزهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي الحصري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٤، ج ١، ص ١٥٩ (دار الجيل، بيروت، د. ت). والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٠٥. والحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ١٧٢.

المبحث الأول: في الكلمة:

الكلمة: «صيغة ذات وظيفة لغوية مُعَيَّنة في تركيب الجملة، تقوم بدور وحدةٍ من وحدات المعجم، وتصلح لأن تُفرد أو تُحذف أو تُحشى أو يُغَيَّر موضعها أو يُستبدل بها غيرها في السياق، وترجع مادّتها-غالبًا- إلى أصول ثلاثة، وقد تُلحق بها زوائد»^(١). وتعدُّ (الكلمة) اللبنة الأولى في إنشاء الكلام، ومفتاح النص، وزمام ما فيه من خفيِّ المعاني ودقيق الإشارات^(٢).

ويهتمُّ البحث الحجاجي بدراسة الكلمة في جانبها الإقناعي التأثيري؛ من حيث خصوصيتها المعجمية، ومن حيث قيمتها الشكلية في إنتاج دلالة إضافية مرتبطة بسياق القول ومقامه الذي استعملت فيه، مما يعني أنّ الدارس الحجاجي للكلمة معنيٌّ بـ:

١- الأثر الحجاجي النَّاجم عن معناها المعجمي.

٢- الأثر الحجاجي الناتج عن دلالة بنيتها أو جرس أصواتها ونغمها^(٣).

وحين يُربط بين الكلمة وسياقها ومقامها في الدراسة الحجاجية، فإنّه يُستند في ذلك إلى تعدُّر عزل أيّ كلمة مقصودةٍ عن مقامها وسياقها القولي؛ فهي-دائمًا- مؤثرة ومتأثرة، أيًا كان مقامها وموضعها من السياق، فالكلمات وهي منعزلةٌ في المعجم لا يمكن أن تُوحى بمثل هذه الدلالات الإضافية السياقية والمقامية^(٤).

وإذا كانت اللغة قائمةً متَّسعةً، وغير محدودة، من الإمكانيات المتاحة للقول، فإنَّ كلّ مُحاجِّ لابدَّ أن يجد نفسه إزاء معجمٍ ممتدِّ، من المترادفات أو المتشابهات، يُحْتَم عليه تفضيلُ ألفاظٍ وبنى بعينها تفضيلًا حجاجيًا نفعيًا، ولعل المترادفات هي أكثر الظواهر اللغوية ارتباطًا بالاختيار، ممَّا جعل بعضهم يذهب إلى أنّها المظهر الأكبر لعملية الاختيار^(٥).

والتمكن من فهم الوجه الحجاجي لوضع كلمة موضعها من الخطبة، مبنئٌ على التماس علة

(١) مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص ٢٣٢ (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م).

(٢) ينظر: البحث البلاغي عند ابن تيمية رحمه الله: دراسة وتقويمًا، مرجع سابق، ص ٦٤.

(٣) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٦٨.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٣٤-٣٦. ودلالة السياق، ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، ط ١،

ص ٣٦٧ (معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٣هـ).

(٥) ينظر: بحث: حرية النفي وممكنات الإثبات، مرجع سابق، ص ٢٩٩.

هذا الإجراء الأسلوبي (العدول والاختيار) ووجه النفع الحجاجي الحاصل بموجبه؛ مما يجعل دراسة هذا المبحث مرتبهةً بتتبع علّة الاختيار في مستوى الكلمة من خلال جوانبها الثلاثة، وهي: المعجمي، النبوي، الصوتي:

١- الاختيار المعجمي:

ويعني به الباحث اختيار المُحاجِّ لكلمة ذات معنى معجمي يُفضّله سياق القول، ويتطلبه مقام الأطروحة، ولاستيضاح حجاجية هذا الاختيار فإنه يلزم توقّع أو تخمين الكلمات البديلة المعدول عنها؛ ذلك أنّ المحاجِّ ينتقي من (محور الاستبدال) ما يراه الأصلح للسياق والأجدر بالمقام، فعلى سبيل المثال: فإنّ بإمكان المتكلم-وفقاً لمقاصده وأغراضه التخاطبية-أنّ يختار: (مناهضو) بدلاً من (مناوئو) أو (معارضو) أو (مناصرو)، وكما يتّضح، فإنّ اللفظ (مناهضو) يتداخل مع الخيارات الأخرى في علاقة تغاير؛ إذ يختلف كلّ لفظٍ من الألفاظ المذكورة عن معنى لفظ (مناهضو) من جهةٍ ما، مما يعني استحالة تطابق معاني الألفاظ تطابقاً تامّاً، فلكلّ لفظٍ خصوصيته التي يمتاز بها عن جميع مرادفاته^(١).

وبناء على ما بين المترادفات من تغاير وتمايز، فإنّ الاختيار المعجمي الحجاجي للكلمة يتأسّس على قصدية إحداث مزيدٍ من التأثير في نفوس المتلقين؛ انطلاقاً من أنّ الكلمة المُختارة أكثرُ علاقة بالخطاب وعالمه، وأجدى أثراً من الكلمات الأخرى المعدول عنها؛ ذلك بما لها من خصائص معنوية (معجمية) تمنحها حقّ إقصاء غيرها والحلول محلّه؛ تلمساً للأنفع وتحريماً للآكد في الإقناع، وتُسمى تلك الخصائص المعنوية: (خصائص الكلمة الحجاجية المعجمية)، في حين تُسمّى عملية الإقصاء والإحلال: (حركة الكلمة الحجاجية)^(٢).

وإذا كان هناك مستويان من المعاني: المستوى النمطي (المعنى المعهود) والمستوى الحجاجي (المعنى الإضافي الناتج عن براعة الاختيار)، فإنّ الذي يميّز المُحاجِّ الناجح عن غيره هو قدرته على التمييز بين الكلمات ومراعاة الشروط الحجاجية التي ينبغي أن تتوفر في الكلمة محلّ الاختيار؛ ذلك أنّ من مهامّه (المُحاجِّ): إخراج ما يراه مهمّاً-بالنسبة إلى حجاجه-من حيز الغياب إلى

(١) ينظر: تحليل الخطاب وتجاوز المعنى، مرجع سابق، ص ١١٠. وبحث: البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو (الحجاج)، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٤.

(٢) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٧٣-٧٤.

حيز الظهور أو الحضور، فيختار من الكلمات أكثرها مناسبة لذلك الموضوع من الخطاب بالذات^(١).

ولئن تحدت معالم أسلوبية اختيار الكلمة في العصر الحديث، فإنها قد شغلت علماءنا القدامى وأهمهم أمرها، فقد نقل الجاحظ تعريف أحدهم للبلاغة بأنها: «تخيّر اللفظ في حسن الإفهام»^(٢)، كما تفتن الجاحظ-أيضاً- إلى حسن اختيار القرآن لألفاظه وبراعته في توظيفها، حيث يقول: «ألا ترى أنّ الله ﷻ لم يذكر في القرآن (الجوع) إلا في موضع العقاب، أو في موقع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون (السغب) ويذكرون (الجوع) في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر (المطر)؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامّة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر (المطر) وذكر (الغيث)»^(٣).

وإلى قول الجاحظ، فقد انتهى الشيخ عبد القاهر عند تحقيق القول في البلاغة والفصاحة إلى أنه «لا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشّف عنه وأتم له، وأحرى بأن يكسبه ثبلاً، ويظهر فيه مزية، وإذا كان هذا كذلك فينبغي أن يُنظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف»^(٤).

في حين ذهب ابن الأثير إلى أن كل متكلم يحتاج «في تأليفه إلى ثلاثة أشياء:

الأوّل منها: اختيار الألفاظ المفردة، وحكم ذلك حكم اللالئ المبدّدة، فإنها تُتخير وتُنْتقى قبل النظم.

الثاني: نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها؛ لئلا يجيء الكلام قلقاً نافرًا عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منها بأختها المشاكلة لها.

(١) ينظر: الخطابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مرجع سابق، ص ١٤٥. وفي نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٣١. والإعجاز الصربي في القرآن الكريم: دراسة نظرية تطبيقية (التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة)، عبد الحميد أحمد هنداي، ط ١، ص ٦٣، ٦٥ (عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٨م). وبلاغة الخطاب الإقناعي: نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، مرجع سابق، ص ١٤٩.

(٢) البيان والتبيين، مرجع سابق، ج ١، ص ١١٤.

(٣) السابق، ج ١، ص ٢٠.

(٤) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٤٣.

الثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه»^(١).

وكما هو معلوم، فإنَّه يستحيل الوقوفُ على كلِّ كلمة من كلمات المدونة، وحسب الباحث دراسة أهم الأوجه التي تُثبت عناية خطباء المدونة باختيار الكلمات المعززة للحجاج، والمؤكدة لمعناه:

١-أ- اختيار الصفة بدلاً من التسمية:

ويتمثل في عدول الخطيب عن اسم المعنيِّ إلى صفة من صفاته، ومؤدَّى ذلك أنَّ الصفة -بمعناها العام؛ لا التَّحوي- أكثر إفادة وأكد توجيهاً من الاسم؛ فمهما استوى الاسم مع الصفة- من جهة الإحالة إلى المعنيِّ- إلا أنَّهما يظَّان مختلفين من الناحية الحجاجية؛ فلا يؤدِّي الاسم الدور نفسه الذي يؤديه محتواه الوصفي؛ ودليل ذلك أنَّ قول الناصح لك: (أطع زيداً)- على افتراض أنَّ زيداً شيخُك- لا يساوي قوله: (أطع شيخك)؛ لاختلاف نتائج القولين اختلافاً جوهرياً؛ فالإحالة إلى المعنيِّ باسمه الصريح (زيد) قد تجعل القول محلاً للرّد وعدم التقدير، في حين تُسهّم الصفة في نجاح القول وتحقيق غايته؛ من جهة أنَّ الشيخ مطاع عادةً، فهي (الصفة) من هذا الوجه بمنزلة المقتضى المشترك الموجّه للأعمال والأفكار^(٢).

إنَّ الأسماء الصريحة- كما يقول ابن يعيش- «لا تُفيد معنى؛ ألا ترى أنَّها تقع على الشيء ومخالفه وقوعاً واحداً؛ نحو (زيد) فإنَّه يقع على الأسود كما يقع على الأبيض، وعلى القصير كما يقع على الطويل»^(٣).

ولدور هذا العدول في الإقناع والتوجيه، فإنَّه شكَّل ظاهرة بارزة في المدونة تستدعي الدراسة والاستنطاق، ومن مواضع تلك الظاهرة، قول سقانة بنت حاتم الطائي رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم وقد أُتي بها في سبايا طيِّء: ((يا محمد، هلك الوالد وغاب الوافد، فإن رأيت أن تُخَلِّي عني، فلا تُشمت بي أحياء العرب))^(٤).

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ج ١، ص ١٦٣.

(٢) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ١٧٤، ١٧٧.

(٣) شرح المفصل، مرجع سابق، ج ١، ص ٩٣.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٦٩.

إذ يُلاحظ في هذا القول لسقانة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا خرقًا لمنالية الوضع أو المعيار؛ ذلك أنّها لو جرت على أصل الكلام لقلت: (هلك حاتم/ أبي، وغاب عدي/ أخي)، غير أنّها كانت في مقام تدلّل يستلزم العدول عن الاسم الصريح إلى الصفة؛ على سبيل الاستعطاف والترقيق، إذ يترتب على مقتضى الدلالي لهذين الوصفين فقداؤها لأهمّ ركنين في حياتها: الوالد الذي يرضى شؤونها، والوفاة الذي يفدّ عليها ويسبق الناس إلى تلمّس حاجاتها وإعانتها والسعي في شؤونها.

وتنطوي الصفتان-أيضًا-على عملٍ قوليّ غير مباشرٍ تقديره: اخلفني يا رسول الله في هذا الفقد الكبير ولا تترك لأحدٍ طريقًا ينال به مئّي. إنّهما صفتان محمّلتان بدلالات كبرى تتقاصر عنها الإحالات الصريحة (حاتم/ أبي، عدي/ أخي)؛ إذ لا غرابة في فقد الأب أو الأخ، ولكنّ الانكسار والانخزال في فقد الراعي العطوف والمُتفقد المُعين.

ومما يدور في الفلك نفسه، قول الحسن بن عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مستوثقًا من أهل الكوفة: ((أيّها الناس، إنا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنة رسوله، وإلى أفقه من تفقه من المسلمين، وأعدل من تعدلون، وأفضل من تفضلون، وأوفى من تبايعون))^(١).

فلو أنّ المقام مقام إخبار وأداء لاكتفى الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقوله: جئنا ندعوكم إلى عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أو إلى الخليفة، غير أنّ المقام مقام تمكّن من النفوس يستدعي اختيار أبرز صفات المعنيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ليوقّره المتلقون ويعزّروه.

إنّ الصفات (أفقه، أعدل، أفضل، أوفى) تُشكّل صفات حجاجية فاعلة، بعيدة عن الحشو، سامية عن الاستطراد؛ ذلك أنّ من أهم خصائص الصفة في الحجاج: تعيين موقع الموصوف من قضية ما^(٢).

وعلى الرّغم من أنّ المتلقين لا يجهلون عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، إلا أنّ لتلك الصفات دورها وسبيلها المتفرّد إلى الإقناع؛ فهي صفات مخصوصة بعليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كفيلاً بدفع المتلقين إلى الاقتناع والثبات،

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٩٣.

(٢) ينظر: الحجاج الخطابي: أسسه وتقنياته (من خلال ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي)، مرجع سابق، ص ١٧٩.

فعلِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لا يُمكن أن يُساوَى به غيره أو يستهان بحِقِّه؛ لِمَا له من صفاتٍ مؤهِّلة تُحْتَمُّ الطاعة والانتقياد^(١).

ونحوه، ما ورد في خطبة الوليد بن عبد الملك-سالفة الذكر-وقد فرغ من دفن أبيه، حيث يقول: ((أيها الناس، إنه لا مؤخَّر لما قدَّم الله، ولا مقدِّم لما أحرَّ الله، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحمله عرشه من الموت موتٌ وليّ هذه الأمة، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار))^(٢).

لقد كان بوسع الوليد بن عبد الملك الإحالة إلى المؤيَّن بـ(أبي) أو بـ(الخليفة) أو بـ(عبد الملك)، إلَّا أنَّ الإحالة بهذه الأسماء قد تؤثر في أمر تحوُّل الخلافة إلى الخطيب من بعد أبيه، في حين يستلزم كون المؤيَّن وليًّا للأمة تنزيهه وصواب مذهبه في كلِّ ما عهدَ به قبل وفاته؛ استنادًا إلى أنَّ من حقوق وليِّ الأمة الشرعية: طاعته وإنفاذ ما دعا إليه، وهي حقوقٌ شاملةٌ في حكمها للجميع؛ ذلك أنَّ صفة (ولي) تقتضي علم الناس كافة بمقام هذا الولي، وصواب رأيه ولزوم الاستجابة له؛ فهو وليُّهم العطوف عليهم، الرؤوف بهم، الملتمس لمصالحهم^(٣).

إنَّ لكلِّ صفةٍ معنًى معجميًا ظاهرًا متصلاً بالمنطوق (المعطى)، ومعنى مقاميًّا حجاجيًا مسكوتًا عنه؛ مما يُبرِّز القول بأنَّ الصفة المستشهد بها (ولي) صفةٌ تقويمية تنغيًا فرض علاقة جديدة مع الخطيب تنتهي بالمتلقين إلى الإذعان والسمع والطاعة، وقبول انتقال الخلافة قبولًا مُطلقًا، وليس الاسم في شيء من ذلك كله^(٤).

إنَّ الوصف-مهما بدا الوصف محايِّدًا أو موضوعيًا-لا بدَّ أن يحمل مضمونه تحيُّر الخطيب من جهة ما، فلئن كان بوسع الخطيب الوصف الإحالة إلى المقصود باسمه، أو بأيِّ صفة من

(١) ينظر: شرح المفصل، مرجع سابق، ج ١، ص ٩٢.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٩٩.

(٣) ينظر: الخطاب الحجاجي في الشعر السياسي في القرن الثاني الهجري، صلاح الدين أحمد دراوشة، مجلة جامعة النجاح للأبحاث-العلوم الإنسانية، المجلد ٣٥، العدد ٩، ص ١٤١٦ (٢٠٢١م).

(٤) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ١٧٨. والحجاج بالوصف: (هنشير اليهودية) لعبد القادر الحاج نصر أنموذجًا، محمد الناصر كحولي، مجلة الجمعية التونسية للدراسات الأدبية والإنسانية، العدد ٧-٨، ص ٣١، ٣٥، ٣٦ (٢٠١٩م).

صفاته الأخرى، فإنَّ عدوله عن التسمية وعن الصفات الأخرى واختياره لصفة مُعَيَّنة لا بدَّ أن يكون ناجماً عن غرضٍ حجاجيٍّ مقصود^(١).

ومن خلال المقتضى الدلالي المسكوت عنه في اختيار هذه الصفة (ولي)، فإنه يتضح أنَّ خطبة الوليد ليست عزاءً أو تأييماً بقدر ما هي مهادٌ تحوّلي، وتشريع لتسلّم السلطة تسلّماً مُبرّراً. وممَّا جرى مجراه، قول أحد فقراء الأعراب يشكو بلوى دهره ووطأة زمانه: ((اعتورتني^(٢) جدّائده^(٣) بنبل مصائبه عن قسي^(٤) نوابه، فما تركا لي ثاغيةً اجتدي ضرعها، ولا راغيةً أرتحي نفعها))^(٥).

توالت المصائب على هذا الأعرابي فلم تترك له شاةً تنغي، ولا ناقةً ترغي، وهو إذ يُعرض عن الإحالة بالأسماء الصريحة ويختار الإحالة بالوصف (ثاغية، راغية)، إنّما يسعى إلى تحقيق مقصدٍ من المقاصد الحجاجية؛ ذلك أنّ في الوصف مزيداً من كشف حالة العوز والفاقة لا يظهر بالاسم الصريح، إذ يُعدُّ الثغاء والرغاء علامةً من العلامات الحيويّة المهمة التي يُمثّلُ فقدان الأعرابي لها- في ذلك العصر- فقدان الحياة بأسرها.

وإلى ما سبق فإنَّ في الإحالة الصريحة (ليس لدي شاة ولا بعير) إيهاً للمتلقين بنفي الملكية الشخصية فقط، في حين تدلُّ الصفتان (ثاغية، راغية) على النفي التامّ لسماعه صوتهما بله امتلاكه لهما، فليس عنده ولا حوله منها شيء؛ لا على ملكه، ولا على ملك غيره.

إنَّ هذه الصفات الواردة على سبيل الاستعطاف والاستمناح، لا بدَّ أن تزيد الحجاج قوة وفاعليةً، من جهة رسوخ معنى الفقر، وتناهي المصيبة وتداعي تبعاتها، ومتى استوعب المتلقي تلك المعاني فإنَّ نفسه لا بدَّ أن تهتز لمنح الأعرابي؛ إذ تقتضي هذه الصفات-تداولياً-وجود حالة حرجة تستدعي تدخلاً سريعاً، وبذلك فإنَّ اختيار الصفة يعدُّ ممارسةً خطابيةً لا يمكن أن تخلو من معنى

(١) ينظر: الإمبراطوريّة الحطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٢) اعتورتني: اختلفت عليّ وتناوبت وتكررت؛ كلّما مضت واحدة خلفتها وتلتها أخرى. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٣، ص ١٦٤.

(٣) سنة جداء: محلّة قاحلة. ينظر: السابق، ج ٧، ص ٤٨٥.

(٤) قسيّ: جمع قوس وهو قوس الرمي. ينظر: السابق، ج ١٦، ص ٤٠٧.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٢٦٨.

التوجيه، بل إنَّ هذا المعنى هو أوَّل المقدمات الاستلزامية للصفة^(١).

لقد أظهر تناول الأمثلة السالفة ما تحمله الصفات من دلالاتٍ حجاجيةٍ توازُرُ معنى الأطروحة وتُلحُّ عليه، كما أظهر التناول الاختلاف الجوهري بين الاسم الصريح وبين الصفة؛ إذ تقتصر الأسماء على مجرّد الإحالة على المسمّى المعنويّ، في حين أنّ الصفات تحضر وفي طياتها العديد من المعاني الحجاجية الخاصة بالمعنيّ دون غيره. وبعد أن وقف البحث على هذا الوجه من وجوه اختيار الكلمة في مستوى الاسم، فإنّه يتحوّل إلى دراسة حجاجية اختيار الكلمة في مستوى الفعل.

١-ب- اختيار الفعل:

ويعني به الباحث اختيار الخطيب لفعلٍ ما يكون أكد معنى، وأعمق تأثيراً، وأكثر تماساً مع موضوع الأطروحة، مقارنةً بغيره من الأفعال المرادفة، ويُعدُّ هذا النوع من الاختيار مظهرًا من مظاهر الحجاج المهمة التي تتجلّى بها خبرة المحاجّ ودقته في الاختيار^(٢).

وسيتجاوز الباحث الأفعال المألوفة مقتصرًا على ما يمكن الاستشهاد به من الأفعال اللافتة في المدونة، في محاولةٍ منه للإجابة عن السبب الحجاجي الداعي إلى اختيار لفظ فعل بعينه والعدول عن أفعالٍ أخرى من الحقل المعجمي نفسه، ولعلّ من خير أمثله: الفعل الوارد في خطبة طهفة بن أبي زهير النهدي رضي الله عنه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ يقول: ((يا رسول الله، أتيناك من غورى تامة^(٣) بأكوار^(٤) الميس^(٥)، ترمي بنا العيس))^(٦).

فمتى عاد المتلقي إلى الفعل: (ترمي)، فإنّه سيجد ما يرادفه من الأفعال مرادفةً ظاهرية، نحو: (تمشي، تُسرع، تجري، تهذب)، غير أنّ جميع هذه الأفعال-على الرغم من قرب معناها- لا تبلغ

(١) ينظر: التشكيل الحجاجي في الخطاب السيرذاتي القديم: الوصف أمودجًا، عائشة بنت دالش العنزي، حولية: كلية اللغة العربية بالرقازيق، جامعة الأزهر، المجلد ١، العدد ٣٨، ص ٢٢٢ (٢٠١٨م).

(٢) ينظر: العدول في المفردة القرآنية وأثره في تأويل السياق القرآني: مقارنة تداولية، خدير المغيلي، مجلة الذاكرة، العدد ٩، ص ٨٧ (جوان ٢٠١٧م).

(٣) غورى كسكرى، والغور: فعر الشبيء، وغور تامة: ما بين ذات عرق إلى البحر. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٣، ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٤) الكور: الجماعة الكثيرة من الإبل، والقطيع الضخم منها. ينظر: السابق، ج ١٤، ص ٧٤.

(٥) الميس: الرّحل. ينظر: السابق، ج ١٦، ص ٥٣٠.

(٦) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٩.

في دلالتها دلالة الفعل (ترمي)؛ لأنَّ هذا الفعل هو الأقوى دلاليًّا؛ من جهة جمعه بين معنى المشي السريع والدلالة على وجود هدفٍ مُحدَّدٍ يسير إليه أهل تلك العيس، في شوقٍ لإصابته، ولهفة للحصول عليه.

وإنَّ في هذا الاختيارِ تحديدًا دقيقًا لمُهَمَّةِ هذا الوفدِ وجدَّيته؛ فلم يَشُبْ توجيههم السَّريعِ إليه ﷺ أيُّ أهدافٍ دنيويةٍ أخرى، وهو معنًى كافٍ في إثبات حجاجية هذا الاختيار ومقصديته.

ومن أمثله، ما ورد في خطبة عثمان بن حيان المريّ في المدينة- وكان وليها زمن الوليد بن عبد الملك- حيث كان مما قال في خطبته تلك: ((وقد ضوى إليكم من يزيدكم خبالاً^(١)): أهل العراق، هم أهل الشقاق والنفاق، هم والله عشُّ النفاق وبيضته))^(٢).

فتقديم الخطيب للفعل (ضوى) على غيره من الأفعال (لجأ، انضم، أتى) التي تُشاركه أصل المعنى وتسُدُّ مسدّه^(٣)، ليس اختيارًا ساذجًا، ذلك أنَّ في مخالفة اللفظ للمألوف وغرابته ملاءمةً شديدة لنكارة مخالفة المتلقين، وإلى ذلك فإنَّ غرابة هذا اللفظ وندرة استعماله تتماهى مع خصائص المقدمة؛ من جهة الإثارة والتنبيه والتشويق.

ومما يزيد الاطمئنان إلى ما ذهب إليه الباحث هنا قول سهل بن هارون -فيما نقله عنه الجاحظ-: «إنَّ الشيء من غير معدنه أغرب، وكلِّما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلِّما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلِّما كان أطرف كان أعجب، وكلِّما كان أعجب كان أبعد...، والناس موكلون بتعظيم الغريب، واستطراف البعيد، وليس لهم في الموجود الراهن، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى، مثل الذي زهد الجيران في عالمهم، والأصحاب في الفائدة من صاحبهم، وعلى هذا السبيل يستطرفون القادم عليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم، ويتركون من هو أعم نفعًا وأكثر في وجوه العلم تصرفًا، وأخفّ مؤونة وأكثر فائدة، ولذلك قدّم بعض الناس الخارجي على العريق، والطارف على التّليد»^(٤).

(١) الحبال: الفساد والنقصان والهلاك. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٨، ص ٣٨٨.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣١٦.

(٣) ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٨، ص ٤٧٥.

(٤) البيان والتبيين، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٩.

ومن شواهد حجاجية اختيار الفعل أيضاً، قول عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ فِي إِحْدَى مَوَاعِظِهِ: ((ثم أنتم في كلِّ يوم تُشَيِّعُونَ غَادِيًّا وَرَائِحًا إِلَى اللهِ، قَدْ قَضَى نَجْبَهُ وَبَلَغَ أَجْلَهُ، ثُمَّ تُعَيِّبُونَهُ فِي صَدْعٍ مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ تَدَعُونَهُ غَيْرَ مُوسَّدٍ وَلَا مُمَهَّدٍ، قَدْ خَلَعَ الْأَسْبَابَ، وَفَارَقَ الْأَحْبَابَ، وَوَاجَهَ الْحِسَابَ، مَرَكَّنًا بِعَمَلِهِ، غَنِيًّا عَمَّا تَرَكَ، فَقَبِيرًا إِلَى مَا قَدَّمَ))^(١).

من المعلوم أنَّ عموم المتكلمين يخضعون إلى ما يُسَمَّى بـ(قانون الضغط)؛ الحاصل بسبب تزامم الرصيد المعجمي وتنافس الألفاظ عند القول، وهو ما يستلزم تفضيل فعلٍ بعينه تنسحب بحضوره كلُّ الأفعال الأخرى-من الحقل نفسه-غير المنسجمة مع السياق والمقام^(٢).

ومن دَرَسَ الفعل: (تعيبونه)، في هذا الموضع من الشاهد، وفي ظلِّ هذا المقام، فإنه لا يجد فعلاً يؤدي أداءه الحجاجي نفسه؛ إذ إنَّ في هذا الفعل استثارةً للمتلقي، وتكثيفاً للمعنى، لا يوجد في الأفعال القريبة في معناها منه؛ ذلك من جهة كسره لتوقع المتلقي من ناحية تجاوزه للكلام العادي الذي اعتاد المتلقي سماعه، ومن جهة حملته لمعنى زائدٍ عن الأفعال القريبة منه (تقبرونه، توارونه، تدفونونه، تتركونه)؛ فهو وإنَّ أتى بمعنى دُفِنَ جثمان الميت، إلاَّ أنَّ فيه معنى غياب الميت عن الأنظار فقط، مع بقاء رسمه وحضوره في الأذهان^(٣)، ولا شكَّ أنَّ في دوام حضور رسم الميت في الأذهان إثارةً مستمرةً لمعنى الموت، من شأنها أن تجعل المتلقين على أهبة الاستعداد الدائم للقاء الله عزَّ وجلَّ.

وعلى منواله، الفعل الوارد في خطبة استجداء إحدى الأعرابيات لعبد الله بن أبي بكرة بالبصرة، حيث تقول: ((أصلح الله الأمير وأمنع به، حَدَرْنَا إِلَيْكَ سَنَةَ اشْتَدَّ بِلَاؤُهَا، وَانْكَشَفَ غَطَاؤُهَا))^(٤).

قد يبدو الفعل (حَدَرَ) مألوفاً في ذاته، إلاَّ أنَّ من غير المألوف وروده في مستهلِّ سياقٍ حجاجيٍّ استنفذت فيه الخطيبة جهدها لتحظى بما يسدُّ رمقها ويقيم أودها، ولئن كان الفعل (حَطَّ)-مثلاً-يقوم مقام (حدر) في الظاهر، فإنَّ في (حدر) معنى إضافياً مرتبطاً بمقام الخطبة،

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢١٢.

(٢) ينظر: الأسلوبية والأسلوب، مرجع سابق، ص ١٤٠-١٤١.

(٣) ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣، ص ٥٠٢.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٢٦٢.

وهو: التحوُّل بإسراع من مكانٍ إلى مكانٍ؛ طلبًا لأمر من الأمور^(١)، فالخطيبة غريبة عن مكان ابن أبي بكرة، وقد دفعته الشدَّة دفعًا مسرعًا وألجأتها إليه؛ على سبيل الاستغاثة التي توجب تقديم حلِّ طارئٍ وسريع لها.

ويمكنُ الإشارة هنا إلى أنَّ الإغراب ليس محكًّا مطردًا لاختبار الخطاب الحجاجي، ذلك أنَّ مهمة المحاجِّ تكمن في اختيار أكثر الألفاظ دقة في: نقل الفكرة، وتصوير العاطفة^(٢)، مما يعني أنَّه لا يوجد «اختيار معجمي محايد، وإنما هناك اختيار يبدو أنه محايد»^(٣).

وإذ ثبت بما مضى أنَّ الأفعال المتقاربة ذات دلالاتٍ سلِّمية متفاوتة في معانيها، مترتبة في تعبيرها عن عموم المعنى المقصود، فإنَّه لا بد من القول بالأهمية الحجاجية التأثيرية لاختيار الفعل، وهو ما ينفي فكرة الترادف في اللغة، ويُبرِّز البحث فيما وراء اختيار الفعل من قيمة إقناعية، إذ هو اختيار تأثيريٍّ حجاجيٍّ مُحمَّلٌ بالقصدية والذاتية.

وإذا كانت كلمات الجذر الواحد تجري على تصاريف مُتغايرة في مبانها متفاوتة في معانيها، فإنَّ للباحث أن يتحوَّل إلى دراسة بعض أهمِّ أشكال العدول الصرفي في المدونة؛ تتبَّعًا للأثر الحجاجي الناتج عن فعل اختيار هذه البنية أو تلك.

(١) ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٠، ص ٥٥٤، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨.

(٢) ينظر: بحث: حرية النفي وممكنات الإثبات، مرجع سابق، ص ٢٩٨، ٢٩٩.

(٣) الحجاج الخطابي: أسسه وتقنياته (من خلال ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي)، مرجع سابق، ص ١٧٧.

٢- الاختيار الصرفي:

والصَّرْفُ مِنَ التَّصْرِيفِ، وهو: «تغيير الكلمة عن أصل وضعها؛ إمَّا لغرضٍ معنويٍّ وإمَّا لغرضٍ لفظيٍّ؛ فالأوَّلُ: تحويل الكلمة إلى أبنيةٍ مختلفةٍ لتدلَّ على ضروبٍ من المعاني؛ كتحويل (المصدر) إلى (اسم الفاعل) و(اسم المفعول) وغير ذلك من المشتقات، وكتحويل إلى (التثنية) و(الجمع) و(التصغير) و(التَّسْبِ)، والثاني: لقصد التخفيف أو الإلحاق أو التخلُّص من التقاء الساكنين، وذلك التغيير يكون ب(الزيادة) و(الحذف) و(الإعلال) و(الإدغام) و(الإبدال) و(تخفيف الهمزة)»^(١).

وسيقترن الباحث فيما يلي على دراسة الغرض (المعنوي)؛ الدافع إلى الانحراف عن أصل الصيغة المحايد وتفضيل بنية مُعَيَّنة؛ بناءً على ما تكتنفه (البنية) من معنى إقناعيٍّ خاصٍّ بها، لا يكاد يوجد في البنى الأخرى للجذر اللغوي نفسه^(٢).

وللأبنية/ الصيغ في اللغة العربية دلالات مرصودة غير خافية؛ فالجذر (كَتَبَ) -مثلاً- يمكن استعماله في عدَّة أبنية صرفية، نحو: (كاتب، مكتوب، كتاب، كَتَّاب)، وهكذا، وتحمل كلُّ بنية من هذه البنى معنى خاصًّا بها يجعل للوزن دورًا مُهمًّا في تحديد الدلالة المقامية، ولولا تلك البنى لالتبست معاني الجذر اللغوي الواحد أو تساوت^(٣).

ومادام أنَّه يصعب تناول كافة البنى الصرفية في المدونة، فإنَّ الدراسة ستكون مختصة ببعض أهمِّ بنى الصفات؛ ذلك أنَّ الصفات -عمومًا- تنهض بدورٍ إقناعيٍّ فعَّال؛ من حيث تضمَّنها لموقف المتكلم ووجهة نظره من الموصوف؛ فالمتكلم حين يصف إمَّا يرمي إلى سوق المتلقي سوقًا دقيقًا نحو الموقف الذي ينبغي أخذه من الموصوف، فإذا ما وُصِفَ أحدهم بأنَّه (سارق) فإنَّ هذا اللفظ يتجاوز مجرد الوصف إلى مشروعية عقاب هذا السارق، بل وتحديد نوع هذا العقاب، ومن

(١) شذا العرف في فن الصرف، أحمد بن محمد الحملاوي، تخريج وفهرسة: أبو الأشبال أحمد بن سالم المصري، ص ٤٢ (دار الكيان، الرياض، د. ت).

(٢) ينظر: البحث البلاغي عند ابن تيمية رحمه الله: دراسة وتقويمًا، مرجع سابق، ص ٩٨.

(٣) ينظر: لغة القرآن الكريم: دراسة لسانية للمشتقات في الربع الأول، بلقاسم بلعرج، ص ٣٤ (دار العلوم للنشر، القاهرة، د. ت).

شأن ذلك أن تتحقَّق به النتيجة المقصودة من الحجاج^(١).

وبناء على ما سبق، فإنَّ عدول المتكلم عن استعمال الفعل، أو الاسم غير المشتق، إلى الصفة، يعدُّ دليل وعيِّ حجاجيِّ، من حيث إنَّ المُحاجَّ يهدف من خلال هذا الإجراء إلى وضع الصفة في مرتبةٍ ما، من مراتب السِّلْم الحجاجي، تعلق بها عن مرتبة البنية المعدول عنها^(٢)، وفيما يلي عدد من أهمِّ الأوزان الوصفية التي وقف عليها الباحث في المدونة:

٢-أ- اختيار اسم الفاعل:

ويأتي اسم الفاعل من: الثلاثي المجرد على بنية (فَاعِل) ك(ضارب)، في حين يأتي من: غير الثلاثي على لفظ مضارعه بعد كسر ما قبل الآخر وإبدال حرف المضارعة بميم مضمومة، ك(مُنطَلِق، مُسْتَخْرَج)^(٣).

ويفضَّل اسم الفاعل غيره من الأبنية بحمله دلالاتٍ متعدِّدة؛ إذ يدلُّ على «الحدث والحدوث وفاعله»^(٤)، «ويُقصد بالحدث: معنى المصدر، وبالحدوث: ما يُقابل الثبوت؛ ف(قائم)-مثلاً-اسم فاعل يدل على القيام وهو الحدث، وعلى الحدوث أي التغيير؛ فالقيام ليس ملازمًا لصاحبه، ويدلُّ على ذات الفاعل، أي: صاحب القيام»^(٥)، ويمكن القول بأنَّ «اسم الفاعل هو اسمٌ؛ لتلويحاته بمختلف علامات الاسم، وهو فعل؛ لأنَّه يشبه في دلالاته الفعل المضارع»^(٦).

وبهذا الحدِّ والتعريف، فإنَّ اسم الفاعل يمثِّل أحد نماذج الوصف التي يدرجها المتكلم في خطابه بصفتها حجة يسوِّغ لنفسه بها إصدار الحكم الذي يريد، لتبني عليه النتيجة المقصودة من الأطروحة^(٧).

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٤٨٨. وفي نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٣٢.

(٢) الحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ١٨٤.

(٣) ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، عبد الله بن يوسف بن هشام، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، ج ٣، ص ٢٤٣، ٢٤٥ (المكتبة العصرية، بيروت، د. ت).

(٤) السابق، ج ٣، ص ٢١٦.

(٥) معاني الأبنية في العربية، فاضل السامرائي، ط ٢، ص ٤١ (دار عمار، عمّان، ٢٠٠٧م).

(٦) دلالة المشتقات في الشعر الجزائري خلال العهد التركي: (محمد بن علي، وأحمد بن عمار) نموذجًا-دراسة وصفية تحليلية، محمد عجوط، رسالة ماجستير، ص ٦٢، جامعة حسينية بن بو علي، الجزائر، الشلف (٢٠٠٧-٢٠٠٨م).

(٧) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٤٨٨.

وإن كان الاسم الجامد دالاً على التوكيد في أصل وضعه؛ من حيث اسمية الكلمة ودلالاتها على الثبوت، فإنَّ دلالة التوكيد في اسم الفاعل وسائر المشتقات حاصلة بموجب العدول عن الفعل قصد إرادة التوكيد^(١).

ومما وقف عليه الباحث من مواضع أبنية اسم الفاعل في المدونة، قول هانئ بن قبيصة الشيباني سالف الذكر: ((يا معشر بكر، هالكٌ معذور؛ خير من ناجٍ فرور، إنَّ الحذر لا يُنجي من القدر، وإنَّ الصبر من أسباب الظفر))^(٢).

آثر الخطيب اسمي الفاعل: (هالك، ناجي)؛ بناءً على ما حملاه من معنى الاستمرار والدوام، وبناءً على شمولهما جميع الأزمنة؛ فالهالك معذورٌ أبداً كما أنَّ النَّاجي الفَرور مَلومٌ دائماً، وبذلك فإنَّ الفكرة قد اكتسبت بفضل بناء اسم الفاعل معنى تحقُّقها وتقرُّرها ألبتة، فهي قاعدةٌ ثابتة لا تختل، وحكمٌ مطرَّد لا يختلف، مهما تقلَّبت الأحوال وتغيرت أو تبدَّلت^(٣).

وإلى ما دلَّ عليه هذان الاسمان من الدوام والثبوت، فإنَّ فيهما-أيضاً-معنى الحدوث والتَّجَدُّد، ذلك من جهة شَبَه اسم الفاعل بالفعل وحمله لمعنى الحدوث المستمر، وأنت متى نظرت في هاتين الصفتين فإنَّك تجدهما مقترنتين بالحدوث حاصلتين به، إلا أنَّهما لا يخلُصان بالفعل الذاتي كفعل الأكل والشرب مثلاً؛ فالهالك والنجاة من المقدَّرات التي لا يُجدي الفعل منها شيئاً، ذلك إلى ما في اسم الفاعل من معنى طروء هذه الأفعال وحدثانها، فالهالك والناجي لم يُخلقا بهذه الصفات، وإتما هي صفات حادثة-غير ثابتة-نتجت بفعل ظروفٍ معيَّنة^(٤).

ومن المواضع، قول عبد الملك بن مروان في بعض خطبه: ((استديموا النعمة التي ابتدأتكم

(١) ينظر: التوكيد بالجملة الاسمية: دراسة بلاغية، بليغ بن إدريس بكر، مجلة العلوم الشرعية والعربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ٦، ص ٣٦١ (٢٠٠٩م).

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٧.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، ج ٢، ص ١٤٢. وج ٣، ص ٢٥٨ (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت). ولمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، ط ٧، ص ١٣٩ (دار عمار، عمان، ١٤٣٢هـ).

(٤) ينظر: معاني الأبنية، مرجع سابق، ص ٤٣. والحجاج اللغوي في الحديث النبوي الشريف: حجاجة الكلمة أمودجاً-مقاربة تداولية، فريدة رمضاني، مجلة دراسات لسانية، المجلد ٣، العدد ١، ص ٥٩ (٢٠١٩م).

برغيد عيشها ونفيس زينتها؛ فإنكم من ذلك بين فضيلتين: عاجل الخفض^(١) والدعة، وآجل الجزءاء والمثوبة^(٢).

فإذا كانت غاية عبد الملك هي إقناع المتلقين بفضيلة السمع والطاعة ومردوديتهما وضرورتهما لصالح الحال في الدارين، فإن في اختياره لاسمي الفاعل: (عاجل، آجل) زيادة في التحفيز على الطاعة والتزغيب بالالتزام، ولكأن الخفض والدعة لا ينقطعان ولا يفتران عن الإسراع إلى كل من أحسن الاستجابة وبادر بالطاعة، ولكأن الجزءاء والمثوبة دائماً في حال انتظارهم والاستعداد لهم^(٣).

وتهدينا صيغة اسم الفاعل-هنا- إلى أن هذه المثوبات لا تفتقر لمحدث يحدثها أو محفز خارجي يحرّكها، وإنما تتم بفعل محرك ذاتي؛ فالخفض يسرع ويعجل بنفسه إليهم، والمثوبة تنتظرهم من تلقاء نفسها، وذلك معنى توجيهي مهم لا يوجد في معنى الفعل المفتقر إلى وجود فاعل ما^(٤).

ولئن ورد اسما الفاعل في هذا الشاهد على سبيل الوعود غير الآتية، فإن في عدول الخطيب عن الفعل إلى اسم الفاعل معنى حصول تلك الوعود لا محالة، فكأنها لصدقتها قد تمت وثبتت واستقرت^(٥).

ومن قبيله، ما ورد في قول يوسف بن القاسم للقيّاد؛ إذ خطبهم في أول خلافة هارون الرشيد، فكان مما قال: ((فأعزكم الله وكان الله قوياً عزيزاً، فكنتم أنصار دين الله المرتضى، والذابين بسيفه المنتضى^(٦) عن أهل بيت نبيه ﷺ، وبكم استنقدهم من أيدي الظلمة أئمة الجور والناقضين عهد الله والسافكين الدم الحرام والآكلين الفيء والمستأثرين به، فاذكروا ما أعطاكم الله من هذه النعمة، واحذروا أن تغيروا فيغيّر بكم، وإن الله-جل وعز- استأثر بخليفته موسى الهادي الإمام،

(١) الخفض: العيش الهنيء. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٨، ص ٣١٨.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٩٤.

(٣) ينظر: الحجاج في خطب عبد الملك بن مروان، رواية حسين جابر خليل، ضمن كتاب: المؤتمر الدولي الثاني: المؤسسات العلمية ودورها في النهوض بالفكر اللغوي والحضاري، ص ١٠٦١ (كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، إيتاي البارود، ٢٠١٦م).

(٤) ينظر: السابق.

(٥) ينظر: التعبير القرآني بالجملة الاسمية والفعلية بين علماء النحو والبيان، حمدية موحان حمود، مجلة الجامعة العراقية، الجزء ٣، العدد ٤٢، ص ٨٥ (٢٠١٨م).

(٦) السيف المُنْتَضَى: المسلول من غمده. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٤٠، ص ٧٩.

فقبضه إليه، وولى بعده رشيداً مرضياً، أمير المؤمنين بكم رؤوفاً رحيمًا، من محسنكم قَبولًا، وعلى مسيئكم بالعفو عَطوفًا))^(١).

جاءت هذه الخطبة في مستهلّ خلافة هارون الرشيد، لتؤكد جملةً من الأمور التي ينبغي على القادة استيعابها والإحاطة بها، وإنك لتلاحظ في هذا الجزء المستشهد به من الخطبة تكرّر اسم الفاعل في أكثر من موضع (ذاب، ناقض، سافك، آكل، محسن، مسيء)، وهو تكرارٌ حجاجيٌ لافت يتجاوز مجرّد الوصف أو الإخبار؛ ذلك أنّ مقام هذه الخطبة مقام تقرير وتثبيت وتحديد لأساسات خلافة هارون الرشيد.

إنّما أوصافٌ جادةٌ أنت لتضعاف معنى الثبات والملازمة، وعلى سبيل المثال فإنّ ثمة فروقاً واضحة بين: ذبتم وذابّين، ونقضوا وناقضين، وسفكوا وسافكين، وأكلوا وآكلين؛ ذلك أنّ «اسم الفاعل يدلُّ على ثبوت الوصف في الزمن الماضي ودوامه فيه، بخلاف الفعل الماضي الذي يدلُّ على وقوع الفعل في الزمان الماضي لا على ثبوته ودوامه»^(٢).

وإلى ذلك فإنّ في اسم الفاعل معنى النسبة، ومتى اجتمعت النسبة إلى تعريف الألفاظ الأربعة ب(أل): (الذابّين، الناقضين، السافكين، الآكلين) فإنّه يحصل بذلك دلالة مضاعفة على اختصاص المقصودين بهذه الأوصاف دون غيرهم^(٣).

وعلى سبيل المثال أيضاً، فإنّك إذا ما قارنت بين: يُحسِن ومُحسِن، ويسِيء ومُسيء، فإنّك ستجد أنّ بنية الفعل المضارع تُجرّد المعنى من دلالة الثبوت والدوام؛ إذ تقتضي المضارعة مزاوله وتجدّد الصفة في الوقت الحاضر والمقبل فقط، بينما يقتضي اسم الفاعل ثبوت الصفة وحصولها في جميع الأوقات، وفي الثبوت معنى امتداح الخليفة والتنويه بسعة حلمه واحتماله؛ ذلك أنّه لا يسأم تعاهد الملازم للإحسان بالقبول والاعتراف، ولا يملّ من الصفح عن دائم الإساءة والعطف عليه^(٤).

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٨١.

(٢) معاني الأنبياء في العربية، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٣) ينظر: الإعجاز الصربي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ١٧٥. ولمسات بيانية في نصوص من التنزيل، مرجع سابق، ص ١٧١.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ١١٨.

ومَّا جرى مجراه، قول أحد الوعَّاظ: ((إِنِّي لأَعْظِمُكُمْ، وَإِنِّي لكثير الذنوب مُسْرِفٌ على نفسي، غير حامد لها، ولا حاملها على المكروه في طاعة الله عز وجل، قد بَلَوْتَهَا فلم أجد لها شكرًا في الرِّخاء، ولا صبرًا على البلاء، ولو أَنَّ المرءَ لا يَعِظُ أخاه حتى يُحَكِّمَ أمر نفسه لَثُرَّ الأمر بالخير والنهي عن المنكر))^(١).

عاود الخطيب في هذا القول المحدود استعمال اسم الفاعل أكثر من مرة (مسرف، حامد، حامل)؛ مبالغةً منه في إظهار تواضعه وبيان رغبته في إصلاح نفسه ومجتمعه؛ فهو منهم وفي عدادهم، إلا أَنَّهُ يُحِبُّ لهم الخير ويرغب في فوزهم وفلاحهم.

وقد عدل الخطيب عن الفعل إلى اسم الفاعل في الألفاظ الثلاثة؛ لأنَّه ليس بصدد مجرد إثبات أو نفي وقوع الأحداث، وإمَّا هو بصدد المبالغة في إثبات اتصافه بها واستمراره عليها مهما تنصَّل منها أو ظهر اجتنابه لها؛ فهو دائماً مسرفٌ على نفسه ولم يكُ قطَّ حامداً لها، ولا حاملها على المكروه في طاعة الله^(٢).

وحين يقرّ الخطيب بملازمته لتلك الصفات ويعرّف نفسه بها، فإنَّه إِنَّمَا يسعى إلى مقصدٍ حجاجيٍّ يهيئ به متلقيه إلى تلقي الموعدة بالقبول والاحتفال بمعانيها، ذلك أنَّ تركية الخطيب لنفسه والتظاهر بصلاحتها، أو إظهارها بصورة تنزّها من ملازمة تلك الصفات، قد تُخرجه (الخطيب) من جنس المتلقين وتُحيل المتلقين من القبول والانقياد إلى النفور والاعتراض، والله تعالى يقول في ذمِّ بني إسرائيل: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٣).

ولعلَّ ما ذُكر يكون كافياً للتدليل على أهمية اسم الفاعل في الحجاج؛ من حيث حمل بنيته لعددٍ من المعاني التي تعمل على تقوية الفكرة وتأييد معناها، وبهذه التعددية المعنوية لاسم الفاعل فإنَّ بنيته تتماشى مع ما يقتضيه نصُّ الخطبة الشفاهي من التركيز والتكثيف؛ لذا فإنَّه لا يُجانب

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٢٣٣.

(٢) ينظر: تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص ٥٢٤. والدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم؛ المعروف بالسمين الحلي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، ج ٢، ص ١٦٦ (دار القلم، دمشق، د. ت). والإعجاز الصربي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٩٩.

(٣) سورة: المائدة، الآية: ٧٩.

الصواب من يذهب إلى أنّ هذه البنية بنية حجاجية مقصودة؛ وُجدت بقصد الإقناع والتأثير.

٢-ب- اختيار اسم المفعول:

ويُصاغ اسم المفعول «من الثلاثي المجرد على زنة (مفعول)، ك(مضروب)...ومن غيره بلفظ مضارعه، بشرط الإتيان بميم مضمومة مكان حرف المضارعة، وإن شئت فقل: بلفظ اسم فاعله بشرط فتح ما قبل الآخر، نحو: المألُ مُسْتَخْرَجٌ، وزيدٌ مُنْطَلَقٌ به»^(١).

ويدلُّ اسم المفعول على الحدث ومفعوله؛ فإذا كان اسم الفاعل يدلُّ على ذات الفاعل ك(قاتل)، فإنَّ اسم المفعول يدلُّ على ذات المفعول ك(مقتول)، ويُقال عنه ما قد قيل عن اسم الفاعل؛ من حيث دلالاته على الحدوث (الفعلية)، والثبوت (الاسمية)^(٢)، وكما سيأتي فإنَّ أهمية اسم المفعول لا تقلُّ عن أهمية اسم الفاعل في التأثير والإقناع.

ومما وقف عليه الباحث من شواهد اسم المفعول في المدونة، قول حاجب بن زرارة التيمي بين يدي كسرى- وكان أحد وفد العرب الذين بعثهم النعمان إلى كسرى-: ((نحن وفودها إليك، وألستها لديك، ذمّتنا محفوظة، وأحسابنا ممنوعة، وعشائرننا فينا سامعة مطيعة))^(٣).

فوصف الخطيب لدمهم بأنها (محفوظة) وأحسابهم بأنها (ممنوعة)-على زنة المفعول-إنما هو اختيارٌ حجاجيٌّ صاغه الخطيب ليَهَبَ الموصوف صفةً الثبات والتجدد على الدوام، فهم لا يزالون أبد الدهر مستمسكين بهذه الحال من حفظ الدّم ومنع الأحساب، دون احتمال حصول أيّ توقّف أو انقطاع، وهي دلالة يفتقدها الفعل، إذ يقتضي الفعل الحدوث دون معنى الثبات والملازمة والتمكّن^(٤).

وإلى ذلك فإنَّ بنية اسم المفعول لا تخلو من الدلالة على معنى العموم، وهو معنى واضحٌ في الصّفتين: (محفوظة، ممنوعة)؛ فهما صفتان عامّتان لا تختصّان بحافظ بعينه أو مانعٍ بشخصه، فدم العرب محفوظة قاطبةً، وأحسابهم ممنوعة كافةً، وبذلك فإنَّها مناقب شاملة ومآثر مطلقة لا

(١) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٤٥.

(٢) ينظر: السابق، ج ٣، ص ٢٣٢. ومعاني الأبنية في العربية، مرجع سابق، ص ٥٢.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٥٧.

(٤) ينظر: تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص ٤٩٧.

تخضع للتصنيف ولا تقبل المفاضلة والترتيب، وأفضل الحجاج ما جعله المحاجُّ عامًّا يفتح دائرة الخطاب ويوسِّع قاعدة التلقي، فيُصبح الحكم شاملاً للجميع، بعيداً عن إمكانية تلقّيه بالاختصار والحصْر على فئة بعينها^(١).

ومن الشواهد الدالة، قول أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في خطبته سالفه الذكر: ((أما بعد فإنَّ إخوانكم المسلمين معافون مكلّون^(٢)، مدفوع عنهم، مصنوع لهم، وقد ألقى الله الرعب في قلوب عدوهم منهم، وقد اعتصموا بحصونهم وأغلقوا أبوابها دونهم عليهم، وقد جاءني رسلهم يخبروني بهرب هرقل ملك الروم من بين أيديهم، حتى نزل قرية من قرى الشام في أقصى الشام، وقد بعثوا إليَّ يخبروني أنَّه قد وجَّه إليهم هرقل جنداً من مكانه ذلك، فرأيت أن أمدَّ إخوانكم المسلمين بجند منكم))^(٣).

إنَّ من أهمِّ دواعي طلب المدد والنجدة، إخبار المتلقين وطمأننتهم بأنهم إنَّما سيلتحقون بإخوانٍ لهم حالفهم النصر ولم يجد عنهم التوفيق في جميع أحوالهم وأزمنتهم؛ لذا فقد اختار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اسم المفعول (معافون، مكلّون، مدفوع عنهم، مصنوع لهم) المقترنة بنيته بالدلالة على الحصول والملازمة، وذلك على سبيل تحريك المتلقين وتحفيزهم على الإسراع والمبادرة؛ فأَيُّ إنسان لا يتمنى الالتحاق بمن هذه صفته الدائمة والثابتة.

ومن ناحيةٍ أخرى، فإنَّ من شأن اشتغال اسم المفعول على معنى الحدوث والثبوت، أن يزيد المتلقين تحفيزاً وتحريضاً؛ فالجيش قد كان ولن/ ولا يزال مقترناً بهذه الصفات مهما كانت قوَّة العدو أو كثر عدده أو تنوّعت محاولاته، إنَّها صفات حليفة، لا ينبغي أن تُخرم أو تُنتهك ولو لمرة واحدة^(٤).

وإلى ذلك فإنَّ في العدول عن اسم المفعول إشعاراً بوجود فاعل لا يُغلب تتحقق به تلك

(١) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، مرجع سابق، ص ٦١-٦٢. وآليات الحجاج في خطبة النبي في حجة الوداع، مرجع سابق، ص ٥٥.

(٢) مكلّون: محروسون محفوظون. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١، ص ١٠٢.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٠١.

(٤) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، مرجع سابق، ص ١٣٥.

الأحداث، وليس ذلك إلا الله عز وجل، فهو وحده الذي يحوط هذا الجيش بتوفيقه ونصره^(١).

ومن الشواهد أيضاً، قول عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ فِي إِحْدَى مَوَاعِظِهِ: ((قد رأيتم حالات الميت وهو يسوق^(٢))، وبعد فراغه وقد ذاق الموت، والقوم حوله يقولون: قد فرغ رَحِمَهُ اللهُ، وعايتم تعجيل إخراجهم وقسمة تراثه، ووجهه مفقود، وذكره منسي، وبابه مهجور كأن لم يخالط إخوان الحفاظ^(٣))، ولم يَعْمُرِ الديار، فاتقوا هول يوم لا يُحْقَرُ فِيهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْمَوَازِينِ))^(٤).

تُشَكِّلُ مفارقة الحياة والموت أهمّ أساسات ترفيق القلوب وإيقاظ شعورها واستحثاثها لاغتنام فرصة الحياة؛ فما كان بالأمس ممكناً فإنه سينقطع بحلول الموت، وإمعاناً من الخطيب رَحِمَهُ اللهُ فِي كشف معالم هذه المفارقة، فإنه قد عدل إلى التعبير عن صفات الميت بصيغة اسم المفعول (وجهه مفقود، وذكره منسي، وبابه مهجور)؛ لتكون آكد في أثرها ووقعها على المتلقين؛ عسى أن تستيقظ قلوبهم لاستدراك ما بقي من أعمارهم، وتلك معانٍ إقناعية قيّمة يتقاصر عنها الفعل، فلو أبدل الخطيب اسم المفعول بالمضارع (وجهه يُفقد، وذكره يُنسى، وبابه يُهجر) لانتفت الملازمة واقترن الفقدان والنسيان والمهجران بزمنٍ دون زمن^(٥).

وفي العدول عن الفعل المضارع إلى اسم المفعول -أيضاً- معنى سرعة وقوع الأحداث وحصولها جملةً، إذ لا تحدث شيئاً فشيئاً كما يُجِيلُ إليه الفعل، وهو معنيٌّ مقامياً مقصوداً، من جهة هوان الميت الناتج عن سرعة نسيانه وانشغال الناس بأنفسهم عنه^(٦).

وشأن ملازمة هذه الصفات وثباتها وتجديدها أبد الدهر أن يقطع على المتلقين سبيل الأمل، وينفي عن أذهانهم فكرة الانغماس في دنيا ينتهي حال جامعها إلى المفارقة الأبدية، مهما كان عليه من الحسن والوجاهة والمكانة.

(١) تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص ٦٤.

(٢) ساق المريض يسوق سوقاً وسيافاً: إذا شرع في نزع الروح. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٥، ص ٤٧٥.

(٣) الحِقَاطُ: المحافظة على العهد، والوفاء بالعقد، والتمسك بالود. ينظر: السابق، ج ٢٠، ص ٢٢١.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢١٠.

(٥) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، مرجع سابق، ص ٦٣.

(٦) ينظر: تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص ٩٢١.

وقريبٌ منه ما ورد في عظةٍ لقطري بن الفجاءة، إذ يقول في ذمّ الدنيا: ((مليکہا مسلوب، وعزیزها مغلوب، وسليمها منكوب، وجامعها محزوب^(١))).^(٢)

فحتى لا يركن المتلقون إلى الدنيا ويغتروا بها ويطمئنوا إليها، فإنَّ قطرياً قد صاغ تلك الصفات على بنية اسم المفعول؛ لما في هذه البنية من معاني تأكيد هذه المثالب الدنيوية وثباتها؛ فتلك حال الدنيا فيما مضى وفيما بقي، والسعيد من وعظ بغيره وعمل لما بعد موته.

ولعلَّ في خلوّ اسم المفعول من الدلالة على الفاعل، إشعاراً بمهانة هؤلاء الموصوفين، وتحقيراً لهم وتصغيراً لشأنهم، إذ هي أوصافٌ تلقائيةٌ تحصل لهم جميعاً، مهما بلغوا من السلامة، ومهما كانوا عليه من القوّة والمنعة، وهو معنى دقيقٌ غائب في اسم الفاعل^(٣).

ومن براعة قطريّ وخبرته في الحجاج، أن قرن بين تلك الصفات وبين أكثر الناس فألاً بالسلامة من غائلة الدنيا (الملك، العزيز، السليم، الجامع)؛ ليكون المعنى أكثر جزماً وأكد قطعاً، فإنَّ كان هذا حال الدنيا الثابت الدائم مع هؤلاء المبخوتين فإنَّه لن يسلم منها أحدٌ مهما كانت قوّته ومنعته.

إنَّ تناول الأمثلة السابقة يكشف بوضوح الأثر الحجاجي الفاعل الناتج عن اختيار الخطيب لاسم المفعول، وبذلك فإنَّ هذه البنية تُشكِّلُ آلية من آليات الإقناع المشهورة والمعروفة، وليس لأبيّ خطيب أن يعدل عن مألوف الكلام إلى صيغة اسم المفعول دون أن يكون مدفوعاً بدوافع إقناعية حجاجية مقصودة.

٢-ج-اختيار بنية من بني المبالغة:

وبني المبالغة: «صِيغ مشتقّة من الفعل، للدلالة على الحدث وفاعله دلالةً تفيد التكثير والمبالغة»^(٤)، وذلك بـ«أن يكون للشيء صفةً ثابتة، فتزيد في التعريف بمقدار شدّته أو ضعفه،

(١) محزوب: مسلوبٌ ماله الذي يعتاش به. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٥١.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٤٥٦.

(٣) ينظر: التفسير القيم، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، ص ١٣ (دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت).

(٤) المشتقات الدالة على الفاعلية والمفعولية: دراسة صرفية إحصائية، سيف الدين طه الفقراء، أطروحة دكتوراه، ص ٢٢، الجامعة الأردنية (٢٠٠٢م).

فيُدعى له من الزيادة في تلك الصفة ما يُستبعد عند السماع أو يُجِيل عقله ثبوته»^(١).

وتأتي المبالغة على أوزان مختلفة، منها: (فَعَّال) نحو: تَوَّاب، و(مِفْعَال) نحو: مِقْدَام، و(فَعُول) نحو: شَكُور، و(فَعِل) نحو: حَذِر، و(فَاعُول) نحو: فاروق، و(فَعِيل) نحو: شهيد، وغيرها^(٢). وتشمل دلالتها معنى الزيادة الكميَّة والكيفيَّة.

ولم يقف أحد على فرقٍ واضح بين أبنية المبالغة من حيث القوَّة أو الضعف، سوى ما ذهب إليه بعضهم من أنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة في المعنى؛ فالمبالغة في نحو (فَعَّال) و(مِفْعَال) تفوق المبالغة في (فَعُول) وهكذا^(٣).

وإذا كانت (السُّلْمِيَّة) شيئاً أساساً في بناء الخطاب الحجاجي، فإنَّ بنى المبالغة تعلق غيرها من بنى الأوصاف من جهة إفادة معنى المضاعفة الذي يتطلب مستوى معيناً من الفعل، فلو نظرت-مثلاً- في الوصف في قول أحدهم: (هذا سَكِير فعاقبوه)؛ فإنَّك ستجد أنَّ المضاعفة الحاصلة عن (فَعِيل) تتطلب مستوى من الفعل (العقاب) لا يتطلَّبه الوصف (سكران)، وبذلك فإنَّ حجاجية المبالغة ناتجة عن تجاوزها وصف الفعل إلى فرض مستوى مُعيَّن من مستويات ردِّ الفعل^(٤).

وقد تكرر استعمال خطباء المدونة لصيغ المبالغة بصفاتها موجَّهاتٍ تستلزم مستوى من التَّحْرُك والأداء والفعل، ومن ذلك أنَّ عليّاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرَّ بأهل راية في يومٍ من أيَّام (صفين) فرآهم ثابتين لا يتراجعون فأخذ يجرِّض أنصاره، فكان من قوله: «إِنَّ هَؤُلَاءِ لَن يَزُولُوا عَن مَوْقِفِهِمْ دُونَ

(١) البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج٣، ص٥١.

(٢) ينظر: معاني الأبنية في العربية، مرجع سابق، ص٩٢. وأسلوب صيغ المبالغة في القرآن الكريم واللغة، عبد المجيد محمد أبو سعيد، مجلة الزرقاء، المجلد ٦، العدد ١، ص١٢٣-١٢٩ (حزيران ٢٠٠٤م).

(٣) ينظر: سر صناعة الإعراب، عثمان بن جني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد رشدي شحاته عامر، ط١، ج١، ص٢٨١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ). والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ج٢، ص١٩٧. وحاشية الصبان: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ج٢، ص٤٤٨ (المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت).

(٤) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص٥٢٩. وآليات الحجاج وأدواته، عبد الهادي الشهري، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، مرجع سابق، ج١، ص١١٩.

طعن دَرَاكٍ، يُخْرَجُ مِنْهُمْ النَّسَمَ^(١)»^(٢).

فبالمقارنة بين دلالة صيغة المبالغة (دَرَاكٍ) وموقف هذه الفئة المستبسلة في دفاعها وثباتها على القتال، فإنه يُدْرِكُ أَنَّ بينهما تناسبًا وتناظرًا لا يُمكن تأديته بغير المبالغة؛ لذا فقد صاغ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصفة على زنة المبالغة؛ لئتناسب شدَّة هَوْلَاء وإصرارهم في الثبات على القتال^(٣).

ومتى عُرف حرج مقام الخطبة وضيقه وخطورته الشديدة، فإنها تظهر الأهميَّة الحجاجية للاختيار الصرفي في التوجيه وتحقيق النتيجة المقصودة من طريقٍ لغويٍّ بالغ الكثافة والدقَّة، فإذا لم يتأثر المعنيون بالضرب والقتال المألوف، فإنه قد لزم الأمر مواجهتهم بقوةٍ قتاليةٍ فائقة عالية في مستواها وتركيزها، وذلك -تمامًا- ما تُفِيده صيغة المبالغة (دَرَاكٍ).

وفي عداده، قول عبد الملك بن مروان في الحثِّ على السمع والطاعة: ((انظروا لأنفسكم، وأقبلوا على حظوظكم، وليكن أهل الطاعة يدًا على أهل الجهل من سفهائكم، واستديموا النعمة التي ابتدأتكم برغيد عيشها ونفيس زينتها))^(٤).

لم تكن النعمة التي قصد عبد الملك التنبيه عليها كأبي نعمة من النِّعم؛ فقد تناهت وامتدَّت وتعاقبت على المتلقين حتى صار من طبيعتها وسجيتها الثابتة: الرغد في عيشها والنفاسة في زينتها^(٥)، مما يُحْتِمُّ على المتلقين تقديرها وبذل ما يوفِّيها حثها من الشكر وما يضارعها من العرفان والامتنان.

ولا يخفى ما تحمله صيغتنا المبالغة في هذا الشاهد من معنى حصول الصفتين على أكمل وجوههما^(٦)، وفي ذلك امتداح ظاهر للخلافة وقطع على كلِّ من تسوَّل له نفسه الخروج عن أماراتها، إذ أغلقت هذه النعمة بتتاليها وتعاقبها وسعتها جميع خيارات المُطالبَة والمنازعة.

ومما ينتظم في سلكه، قول سليمان بن عبد الملك في إحدى مواعظه: ((الحمد لله، ألا إنَّ

(١) النَّسَمُ: نَفْسُ الرُّوح. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٣، ص ٤٨٨.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٥٠.

(٣) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، مرجع سابق، ص ١٩٤.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٩٤.

(٥) ينظر: بحث: أسلوب صيغ المبالغة في القرآن الكريم واللغة، مرجع سابق، ص ١٢٧-١٢٨.

(٦) ينظر: معاني الأبنية في العربية، مرجع سابق، ص ٥٥.

الدنيا دار غرور ومنزل باطل؛ تُضحك باكيًا، وتُبكي ضاحكًا، وتُخيف آمنًا، وتؤمن خائفًا، وتُفقر مثريةً، وتُثري مُقترةً، مَيَّالَةٌ، غَرَّارَةٌ، لَعَّابَةٌ بأهلها^(١).

فقد اختار سليمان صيغة المبالغة (فَعَّالَةٌ) في الألفاظ: (مَيَّالَةٌ، غَرَّارَةٌ، لَعَّابَةٌ)؛ للدلالة على تناهي الكثرة والإفراط في ملازمة الدنيا لهذه الصفات، وفي هذا المعنى من الاستقصاء والاستيفاء ما يحصل به توجيه المتلقين نحو نتيجة ضمنية مفادها: لا تطمئنوا إلى الدنيا؛ فليست مقامًا للركون ولا دارًا للقرار.

وتجاور بنية (فَعَّالٌ) ثلاث مراتٍ فإنه يظهر مدى اهتمام الخطيب بتهويل تلك الفكرة واستقصائه في التنبيه والتحذير والتركيز الذي يستدعي مُضاعفة السعي لآخرة والتخفيف من الدنيا، إنه نوع من التكرار والإلحاح الذي يُجَلِّي فكرة خداع الدنيا ويفضح سبيلها في الإغواء، وبذلك فإنَّ الخطيب يكون قد بلغ الغاية في تنفير المتلقين من الركون إلى الدنيا والميل إليها^(٢).

وعلى منواله، قول معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند طلبه البيعة لابنه يزيد: ((أيها الناس: إنَّ لإبليس من الناس إخوانًا وخلانًا، بهم يستعد، وإياهم يستعين، وعلى ألسنتهم ينطق، إن رجوا طمعًا أوجفوا، وإن استغني عنهم أرجفوا، ثم يُلْقِحُونَ الفتن بالفجور ويشققون لها حطب النفاق، عِيَابُونَ مرتابون^(٣))).

فمحيء صيغة المبالغة (عِيَابُونَ) بعد هذه الجملة من الأفعال يَمَثِّلُ خرقًا أسلوبياً لافتًا، غاية التركيز والتنبيه إلى كثرة إتيانهم هذه الخصلة وارتدادهم لها؛ إذ لا تجيء هذه الصيغة من المبالغة إلا في الدلالة على كثرة مزاوله ذلك الشيء وطول معالجته، واستمرار ملازمته بوجه من الوجوه، وكأنَّ فعل العيب لكثرة صدوره منهم أصبح حرفتهم وصناعتهم التي لا يفرغون منها، وذلك معنى متناهٍ غير حاصلٍ بالفعل^(٤).

ولا تقتصر هذه المبالغة هنا على إفادة معنى التكتير فقط، إذ يكمن خلفها معني حجاجي

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٠٠.

(٢) ينظر: الإعجاز الصربي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٢٤٣.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٤٤.

(٤) صيغ المبالغة في الاستعمال القرآني: دراسة في دلالة البنية الصرفية، فاخر هاشم الياسري، حولية: المنتدى للدراسات الإنسانية، المجلد ٢، العدد ٣، ص ٣٧-٣٨ (٢٠٠٩م).

آخر؛ حيث إنَّ بيان صفة حال المعنيين وإظهارها بهذا المستوى من الإكثار يسوّغ اختيار إجراء حازم متوافقٍ في حدّته مع هذا المستوى من المبالغة، ومن جهة أخرى فإنَّ في هذه المبالغة معنى إغذار معاوية رضي الله عنه وبيان سعة حلمه وطول احتماله، على الرغم من تمادي الموصوفين وتجاوزهم الحدّ.

وتُسفر هذه الجملة من الشواهد عن حجاجية صيغ المبالغة وتأثيرها النَّاجم عن دلالة المضاعفة؛ نتيجة نقلها الاسم من معنى الثبات والدوام إلى إفادة معنى ملازمة الكثرة والتكرار، وهي إفادةٌ غايةٌ في التوجيه والتقويم؛ من حيث اقتضاؤها فعلاً يوازي في قوته درجة الكثرة والمضاعفة التي تُحيل عليها البنية، لذا فقد استحكمت بنى المبالغة أن تُعدَّ إحدى الاستراتيجيات التوجيهية الدقيقة في تحقيق نتائج الحجاج.

٢-٥-اختيار بنية من بنى التّصغير:

وأوزان التصغير ثلاثة: (فُعَيْل) و(فُعَيْعِل) و(فُعَيْعِيل). فوزن (فُعَيْل) لما كان على ثلاثة أحرف، نحو: كعب وكُعَيْب، ووزن (فُعَيْعِل) لما كان على أربعة أحرف، نحو: جدول وجُدَيْوِل، ووزن (فُعَيْعِيل) لما كان على خمسة أحرف رابعها ألف أو ياء أو واو زوائد، نحو: مفتاح ومُفَيْتِيحٌ وقنديل وقُنَيْدِيل وعصفور وعُصَيْفِير، فإنَّ كان في الاسم تاء التأنيث صغرت ما قبلها ثمَّ جئت بها بعد فتح ما قبلها؛ تقول في طلحة: طَلِيْحَةٌ وَفِي حمزة: حُمَيْرَةٌ، وإن كان فيه ألف التأنيث الممدودة فإنَّك تأتي بها بعد تصغير ما قبلها؛ تقول في خضراء: حُضَيْرَاءُ^(١) وهكذا.

وحجاجية هذه البنى ناتجةٌ: عن تقليل ذات الشيء أو كميّته، نحو: كُلب ودُرَيْهَمَات، أو تحقير شأنه نحو: رُجَيْل، أو تقريب زمانه أو مكانه، نحو: قُبَيْل العصر، وبُعَيْد المغرب، وقُويق الفَرَسَخ، وتُحَيْت البرِيد، أو عن أيّ معنى من المعاني الأخرى، مثل: التمليح، والترحم، والتعظيم، والذم^(٢).

ولم تخلُ المدوّنة من صيغة التصغير، حيث كانت زاد الخطيب الإقناعي في عددٍ من الأقوال،

(١) ينظر: اللع في العربية، عثمان بن جني، تحقيق: سميح أبو مغلي، ص ١٣٩ (دار مجدلاوي للنشر، عمان، ١٩٨٨م).

(٢) ينظر: شذا العرف في فن الصرف، مرجع سابق، ص ١٧٢. والتصغير في اللغة العربية: نظرة في الدلالة والتحليل الصوتي،

محمد أمين الروابدة، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، المجلد ٣٤، العدد ٧٩، ص ١٤ (تموز-كانون الأول ٢٠١٠م).

وقد شمل التصغير فيها (المدونة) عددًا من المعاني، ومن بين تلك المعاني: معنى (تقليل ما يجوز أن يتوهم كثيرًا)^(١)؛ نحو قول عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُلوم أنصاره: ((تثاقلتم إلى الأرض تثاقل من ليس له نية في جهاد العدو ولا اكتساب الأجر، ثم خرج إليَّ منكم جُنَيْد متذائب كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، فأفِّ لكم))^(٢).

أراد عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذا التصغير، تصوير ضعف استجابة جنده وانكشافهم وتقاصرهم؛ ذلك أنه بعد استنجاهه لهم وفزعه إليهم لم يستجب له سوى عدد قليل لا تُنال بهم الحاجة ولا يتحقق بهم النصر، وبالاستعاضة بالنعته عن التصغير (جندٌ قليلون)، فإنه يُلاحظ اختفاء جزءٍ مهمٍّ من المعنى الحجاجي؛ ذلك من جهة ما في بنية التصغير من التكتيف والدلالة على معنى انتفاء الكثرة انتفاءً تامًّا.

وعن أثر الدقة في اختيار اللفظ يقول الخطابي: «اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات، هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به؛ الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة؛ ذلك أن في الكلام ألفاظًا متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب...، والأمر فيها وترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة خاصية تتميز بها عن صاحبته في بعض معانيها، وإن كانا يشتركان في بعضها»^(٣).

وقد يحمل التصغير في المدونة معنى (الترحم)^(٤)، نحو قول الحرِّ بن يزيد لأهل الكوفة وقد حصروا الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ((أحطتم به من كلِّ جانب، فمنعتموه التوجّه في بلاد الله العريضة، حتى يأمن ويأمن أهل بيته، وأصبح في أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعًا، ولا يدفع

(١) ينظر: التصغير: أحكامه ودلالته في القرآن الكريم، إبراهيم فرج الحويج، مجلة العلوم الإنسانية بجامعة المرقب، العدد ٢٣، ص ٧٢٩ (٢٠٢١م).

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٤٠٠.

(٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، مرجع سابق، ص ٢٩.

(٤) ينظر: التصغير: أحكامه ودلالته في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٧٣٠.

ضراً، وحَلَّأْتُمُوهُ^(١) ونساءهُ وَأُصَيَّبِيَّتَهُ وأصحابه عن ماء الفرات الجاري، الذي يشربه اليهودي والمجوسي والنصراني، وتمرَّغُ فيه خنازير السواد وكلابه، وهاهم قد صرعهم العطش، بئسما خلفتم محمداً في ذريته^(٢).

لئن كانت «الغاية من أيّ حجاج هي الدفع إلى تصديق العقول للدعاوى المعروضة عليها من أجل أن تقبلها، أو تقويتها؛ فالحجاج الناجع هو الحجاج الذي ينجح في تقوية حدّة التصديق هذه بشكل يُثير لدى المستمعين الفعل المتوخى -قيامًا به أو إحجامًا عنه- أو على الأقل يخلق لديهم استعدادًا للفعل يتجلّى في الوقت المناسب»^(٣)، فإنّما أراد الخطيب بهذه الخطبة أن يستدرك الأمر عسى أن تُحقن دماء العترة وترتفع الفتنة، فكان التصغير أحد آليات الحجاج التي سلكها لإقناع المتلقين والتأثير عليهم؛ ذلك أنّ في عدوله عن (صبيته) إلى (أُصَيَّبِيَّتَهُ) تحريكًا ظاهرًا لشفقة المتلقين، وإيقاظًا لمشاعرهم، لعلّ قلوبهم أن تلين فيخلُّوا دونهم ودون الماء.

وعلى الرغم من حمل لفظ (صبيته) لمعنى الضعف وقلة الحيلة، إلا أنّ الخطيب لم يكتفِ به عن التّصغير؛ ذلك لما آلت إليه الأمور من كربٍ وضميمٍ يستدعي الإلحاح وزيادة التأثير، وهذا - بلا شكٍ - مما يُبرهن على أثر المقام والسياق الحجاجي في اختيار البنية الصرفية الملائمة.

ويحصل أنّ يأتي التصغير في المدونة بمعنى (تضعيف ما يُتوهم أن يكون قويًا)، من قبيل قول قتيبة بن مسلم الباهلي في إحدى خطبه، حين خلع سليمان بن عبد الملك: ((يا أهل خراسان، قد جربتم الولاة قبلي، أتاكم أمية؛ فكان كاسمه أُمِيَّة^(٤) الرأي، وأُمِيَّة الدين، فكتب إلى خليفته: إنّ خراج (خراسان) و(سجستان) لو كان في مطبخه لم يكفه^(٥)).

اختار الخطيب أنّ يُحيل إلى المذموم بصيغة التصغير (أُمِيَّة)؛ تضعيفًا لشأنه في نفوس المتلقين، وإعلاءً من شأن نفسه (الخطيب)، فهو حُلُق للولاية والإمارة، في حين أنّ البديل ليس خليفًا بذلك؛ ذلك أنّه إنّما يَصْدُر عن رأي أمةٍ صغيرةٍ ودينها.

(١) حَلَّأَهُ عَنِ الْمَاءِ: طَرَدَهُ عَنْهُ. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١، ص ١٩٩.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٥٦.

(٣) الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٦.

(٤) أُمِيَّة: مُصَغَّرُ أُمَّة. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٧، ص ١٠٣.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣١١.

ولا يخفى أثر المجانسة بين اسم المعني وصفته المصغرة، حيث وظّف الخطيب تلك المجانسة اللفظية لصالح قلب صورة هذا الوالي وهدم شخصه من أقصر الطرق، وذلك بالاستناد إلى ألقاب الأشياء به وأكثرها دلالة عليه (اسمه). ولئن كان التضعيف واقعاً على المعني إلا أنّ قصد الخطيب هو سوق المتلقين إلى نتيجة كبرى مفادها (ضعف الخليفة ومجاورته الحق)، إذ يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ومما وقف الباحث عليه من معاني التصغير في المدونة، مجيئه بقصد (تحقير ما يجوز أن يُتوهم عظيماً)^(١)، نحو قول أبي بكر بن عبد الله، إذ خطب الناس بالمدينة، فكان مما قال: ((إيّاكم وبُنيّاتِ الطّريق، فعندها التّزنيق^(٢) والرّهق^(٣)، وعليكم بالجادة، فهي أسدٌ وأورد، ودعوا الأماي فقد أزدت من كان قبلكم، وليس للإنسان إلا ما سعى، والله الآخرة والأولى))^(٤).

فلئن كان طريق الحقّ واحداً تشدُّ عنه طرق الباطل وتتفرّع منه، فإنّ الخطيب إنّما قصد بالعدول إلى التصغير (بُنيّات) تحذير المتلقين من تلك الطّرق الحقيرة المتشعبة الواهنة الحائدة عن جادة الحقّ ومنهجه الأصيل، فهي وإن سلكها السّالكون فإنّها تبقى طرّقاً ضعيفة واهية تؤدّي إلى الخسران والخذلان.

ومتى وازن المتلقي العاقل بين: بُنيّات الطريق التي تؤدّي إلى التّزنيق والرّهق والجادة التي تؤدّي إلى السداد والورد، فإنّه سيجد نفسه ملزماً باجتناّب الطّرق الصغيرة الحقيرة، واتّخاذ الجادة (الأمّ) طريقاً واضحاً ومنهجاً صالحاً يؤدي به إلى الفوز والفلاح.

وإليه، فإنّ مفاجأة المتلقي، بالعدول عن المألوف إلى اللامألوف، لتتجاوز مجرد العدول القريب إلى مجال أكثر منه بُعداً، وهو مجال الانحراف الحادّ؛ الذي يشدّ المتلقي ويجعله في حالة من التوتّر والاستفزاز، تُبقيه يقظاً في تلقيه للفكرة المقصودة^(٥).

(١) ينظر: التصغير: أحكامه ودلالته في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٧٢٩.

(٢) التّزنيق: كسر جناح الطائر الحاصل عن رميه، أو أنه داء يصيب جناح الطائر حتى يسقط. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٥، ص ٣٧٠.

(٣) الرّهق: الموت والهلاك. ينظر: السابق، ج ٢٥، ص ٣٨٤.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٢٣٠.

(٥) ينظر: بحث: حرية النفي وممكنات الإثبات، مرجع سابق، ص ٣٠٠.

ومهما تعددت معاني التصغير أو تفاوتت، فإنَّها تبقى مُحمَّلةً بمعنى حجاجيٍّ ظاهرٍ يمكن تؤوله بتتبع السياق ومعرفة المقام، وتشير دراسة كافَّةِ البني السالفة إلى دور البنية-عامة- وأهميتها في تصوير المعاني ودقَّة التعبير عن الفكرة الحجاجية، فالخطيب لا يختار صيغه اعتباطاً، وإنما ينتخب منها ما يراه أكد دلالةً وأشد تأثيراً من غيره، كما تشير الدراسة إلى أهمية الصفات عامةً في التأثير والإقناع؛ من جهة دلالتها على وجهة نظر الخطيب تجاه الموصوف، وفرضها الموقف الذي ينبغي اتخاذه من الموصوف.

وإلى جانب اختيارات خطباء المدونة (المعجمية) و(الصرفية)، فإنَّ من بين ألفاظ المدونة ما يكون اختياره مبنياً على تفضيل صوتيٍّ مُعتبرٍ؛ إذ توحى أصواتٌ بعض الألفاظ بدلالة زائدة تستدعي النظر والتأمل.

٣- الاختيار الصوتي:

ويعني الباحث بالاختيار الصوتي: الاختيار المبني على ما تثيره الأصوات- إلى جانب دورها المعروف- من معانٍ جانبية تُؤيد مذهب القول وتؤكدُ معناه^(١)، وتتأسس دراسة هذا الاختيار الحجاجي على التفريق ما بين: الدالتين: المعجمية والصرفية، والدلالة الصوتية.

إنَّ لأحرف بعض الألفاظ- من حيث هي أصواتٌ- وقعًا موسيقيًا خاصًا يوحى إلى السمع بدلالةٍ إضافية مُهمَّة؛ حيث تُضفي بعض الأصوات على المعنى الأصلي دلالةً مقامية تثيرُ في النفس جوًّا يوحى بالمعنى، ويوجِّه إليه، ويهيئ قبوله^(٢).

ويمكن القول- بناء عليه-: إنَّ الكلمة ذات القيمة الصوتية هي التي تحيل أصواتها إلى معنيين: معنىً عرفيًّا مرصودٍ في المعاجم، ومعنىً آخرَ طبيعيًّا تستوحيه النفس من أصوات الحروف، وهو ما يُكسب اللفظ إichاء تحسُّه النفس ولا تتمكن من وصفه؛ مما يدلُّ على أنَّ القوة التعبيرية للكلمة لا تقتصر على معناها وحده، بل تتجاوزها- أحيانًا- إلى أثرها الصوتي، فترتبط بذلك أصوات الكلمة بالمعنى الحجاجي المقصود^(٣).

ولدور الجانب الصوتي للكلمة وأهميته؛ فإنَّه قد كان محلَّ اهتمام عددٍ من علمائنا الأوائل؛ فكثيرًا ما وصَّفوا الألفاظ «بالجزالة والسلاسة والطلاوة وغير ذلك من الأوصاف، حيث وجدوا أنَّ في الألفاظ قيمًا تأثيريةً جماليةً ترتبطُ بجرس الكلمات»^(٤).

وحاصله، أنَّه لا يمكن للدارس الحجاجي تجاوز الأثر الناتج عن الاختيار الصوتي؛ إذ هو ركنٌ ركين في الإقناع وأساسٌ مهمُّ في التوجيه والتقويم؛ وكما يقول أبو عثمان: فإنَّ «أمر الصوت عجيب، وتصرفه في الوجوه عجبٌ، فمن ذلك أنَّ منه ما يقتل، كصوت الصاعقة، ومنها ما يسرّ

(١) ينظر: النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابق الهجري، نعمة رحيم العزاوي، ص ٢٣١ (دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م).

(٢) ينظر: التوجيه الأدبي، طه حسين، وأحمد أمين، وعبد الوهاب عزام، ومحمد عوض محمد، ص ١٣٨ (المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٢م). وفقه اللغة وخصائص العربية: دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد، محمد المبارك، ط ٢، ص ٢٦١ (دار الفكر، دمشق، د. ت).

(٣) ينظر: البيان في روائع القرآن، مرجع سابق، ص ٢٩٣. والأفكار والأسلوب، أ: ف. تشيتشرين، ترجمة: حياة شرارة، ص ٤٥-٤٧ (دار الشؤون الثقافية العامة-وزارة الثقافة والإعلام بالعراق، بغداد، د. ت).

(٤) أبنية المشتقات في نهج البلاغة، ميثاق علي الصيمري، ص ٦٢، رسالة ماجستير، جامعة البصرة (٢٠٠٢م).

النفوس حتى يفرط عليها السرور...، ومن ذلك ما يكمد، ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يُغشى على صاحبه؛ كنعو هذه الأصوات الشجية والقراءات الملحّنة، وليس يعترهم ذلك من قبل المعاني»^(١).

وسيركز الباحث-فيما يلي-على دراسة دور الصوت في حجاج المدونة من جهتين: من جهة مشكلة الصوت للمعنى الحجاجي، ومن جهة ما تستثيره الأصوات من مشاعر تأثيرية تُسهم في تحقيق النتيجة الحجاجية المقصودة.

٣-أ- حجاجية أصوات الكلمة:

ويتأسس هذا الاختيار اللفظي على وجود ارتباط ملحوظ بين أصوات الكلمة الواحدة ومعناها؛ فليست الألفاظ في مستوى واحد من جهة مناسبة أصواتها لمعانيها، ممّا يُقوّض القول بدوام العلاقة الاعتبارية بين الشكل والمعنى^(٢).

وترجع العلاقة بين الصوت والمعنى إلى ملاءمة الأصوات للمعاني ومشاكلتها لها، أو ارتباط الشكل بالموضوع، أو إتيان أصوات اللفظ على حذو محسوس الحدث، ومتى وُجدت هذه العلاقة فإنّ الكلمة لا بدّ أن تكتسب معنى إضافيًا إلى جانب معناها الدلالي الأصلي، وبهذا التضافر-الصوتي والدلالي- فإنّ المعنى يتضاعف في النفس ويزداد تمكّنًا منها^(٣).

إنّما علاقة ظاهرة تُفصح عن نفسها، وتُبيّن أهمية علاقة المحاكاة في عملية الاختيار، مما جعل ابن الأثير يُقسّم الألفاظ-من حيث الاستعمال-إلى: «جزلة ورقيقة؛ ولكلّ منهما موضع يحسن استعماله فيه؛ فالجزل منها يُستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، وأشباه ذلك، وأمّا الرقيقُ منها فإنّه يستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد، وفي استجلاب المودّات، ومُلاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك»^(٤).

(١) الحيوان، مرجع سابق، ج٤، ص١٩١.

(٢) ينظر: البحث البلاغي عند ابن تيمية رحمه الله: دراسة وتقويمًا، مرجع سابق، ص٦٦.

(٣) ينظر: البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، محمد إبراهيم شادي، ط١، ص٢٨ (الرسالة، ميدان المساحة-الدقي، ١٤٠٩هـ). واستراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص١٧٧. والحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، مرجع سابق، ص١٧٤.

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ج١، ص١٨٥.

وإلى هذا القول لابن الأثير، فإنه قد أشار- في موضع آخر- إلى أن للصوت تأثيره من جهة تجسيم المعاني وإثارة الخيال، حيث يقول: «إنَّ الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر؛ فالألفاظ الجزلة تُتَحَيَّلُ في السمع كأشخاص عليها مهابةٌ ووقارٌ، والألفاظ الرقيقة تُتَخِيلُ كأشخاص ذوي دماثةٍ ولينٍ أخلاقٍ ولطافةٍ مزاجٍ»^(١).

وليس هذا السبق حكرًا على ابن الأثير وحده، حيث سبقه ابن جني- أيضًا- إلى القول بأنَّ كثيراً من ألفاظ العربية يأتي «مضاهياً بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها؛ ألا تراهم قالوا: (قضم) في اليابس، و(خضم) في الرطب؛ ذلك لقوة القاف وضعف الخاء؛ فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى، والصوت الأضعف للفعل الأضعف»^(٢)؛ مما جعله (ابن جني) يتوسّع في دراسة عددٍ من وجوه تلك العلاقة؛ مثبتاً مصابغة الألفاظ للمعاني وإساسها بها^(٣).

وفي الدرس الحجاجي الحديث، فإنَّ المحاجَّ النَّاجح هو الذي يعتني باختيار الألفاظ المتماشية في أصواتها مع الموضوع، فيستعمل الألفاظ ذات الأصوات الموسيقية الناعمة السلسلة في مواضع اللين والرفق والبهجة، ويستعمل الألفاظ ذات الأصوات الموسيقية القوية الثقيلة الفخمة في مواضع القوة والشدة، وهكذا^(٤).

وقد وقف الباحث على عددٍ من أدلةٍ عناية خطباء المدونة بهذا الاختيار، نحو الألفاظ الواردة في خطبة المأمون الحارثي إذ قعد في نادي قومه، ((فنظر إلى السماء والنجوم، ثم أفكر طويلاً، ثم قال: أروعني أسماعكم وأصغوا إليَّ قلوبكم يبلغ الوعظ منكم حيث أريد، طمّح بالأهواء الأشرُّ، ورانَ على القلوب الكدر، وطَخَطَخَ الجهلُ النَّظر، إنَّ فيما ترى لمعتبراً لمن اعتبر))^(٥).

يمكن أن يحمل اللفظ عنقاً في ذاته، ولكنّه يكون أكثر عنقاً وقوةً بالرجوع إلى طبيعة الأصوات المؤلفة له؛ مما يؤكد القول بالتجانس والتلاؤم بين أصوات الكلمة ومعناها المقصود^(٦)، وتأسيساً

(١) السابق، ص ١٩٥.

(٢) الخصائص، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٥.

(٣) ينظر: السابق، ج ٢، ص ١٤٥، ١٥٢.

(٤) ينظر: الحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ١٧٥.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٩.

(٦) ينظر: الحجاج في النص الخطابي من فترة ما قبل الإسلام إلى أواخر العصر العباسي الأول: أساليبه ووظائفه، سراب

الرحموني، ص ٢٨٧ (دار سحر للنشر، تونس، ٢٠١٨م).

عليه فإنه متى عاد المتلقي إلى الألفاظ الواردة في هذا الشاهد: (طمح، الأشر، ران، الكدر، طخطح)، فإنه لن يعدم من الألفاظ ما يرادفها مرادفةً ظاهرية، غير أن هذه المرادفة لا تبلغ في دلالتها مستوى الدلالة الصوتية للألفاظ التي اختارها الخطيب، فعلى سبيل المثال لا الحصر، فإنه يمكن الاكتفاء عن: (طمح) بـ(ذهب) أو (رمى)^(١)، وعن: (الأشر) بـ(الغرور)^(٢)، وعن: (ران) بـ(عَلَب) أو (غَطَّى)^(٣)، وعن: (طخطح) بـ(غَيِّم) أو (أظلم)^(٤)، إلا أن الخطيب أعرض عن هذه الألفاظ كلها وعمّا يندرج في حقل معناها، ووقع اختياره على هذه الألفاظ بالذات؛ لما تحمله من معنى حجاجيٍّ زائدٍ.

ويمكن استبانة المعنى الحجاجي الصوتي لتلك الألفاظ المختارة، من خلال ما لأصواتها من خصائص معروفة؛ فحرفُ (الطاء) حرفٌ فخمٌ وسامٌ مُتَّصِدٌ، وهو إلى ذلك أكثر حصرًا للصوت وأسرع قطعًا له؛ مما يُبرِّز استعماله في الدلالة على اللفت والتنبيه، كما أن حرف (الراء) حرفٌ تكراريٌّ مجهورٌ يلائم في صوته معنى الشدة والإلحاح، وأمَّا: (الهمزة) و(الميم) و(النون) فإنَّها أحرفٌ انسدادية يعطي انسدادها المعنى المقصود قوةً تُشعر المتلقي بالشدَّة والحرج، ولا يخلو حرف (الحاء) -أيضًا- من معنى القوة والغلظة^(٥).

وبفضل هذه الخصائص لتلك الأصوات، فإنَّ ألفاظها جاءت مشاكلة في دلالتها الصوتية لمعنى المفاجأة والتصعيد، والجزم والإنذار التي يتطلبها المقام التقريعي التنبيهي، ويتطلبها سياق المقدمة؛ إذ تُعدّ مقدمة الخطبة محلاً للإثارة والتشويق والاستيثاق من المتلقين؛ مما يُبرِّز الجزم بأنَّ اختيار الخطيب لتلك الألفاظ -تحديدًا- أبعد ما يكون عن السداجة أو الاعتباطية، إذ هو اختيارٌ

(١) ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج٦، ص٥٨٨.

(٢) ينظر: السابق، ج١٠، ص٥٣.

(٣) ينظر: السابق، ج٣٥، ص١٣٠.

(٤) ينظر: السابق، ج٧، ص٣٠١.

(٥) ينظر: الخصائص، مرجع سابق، ج٢، ص١٤٦، ١٥٨، ١٦٢. والبيان في روائع القرآن، مرجع سابق، ص٢٨٩. وفقه اللغة وخصائص العربية، مرجع سابق، ص٥٠، ٥٢. وعلم الأصوات العام: أصوات اللغة العربية، بسام بركة، ص١١٧-١١٩ (مركز الإنماء القومي، بيروت، د. ت). والجرس الصوتي: دراسة جمالية في ألفاظ غريب القرآن، ياسر علي عبد الخالدي، وكاظم صافي حسين الطائي، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية بجامعة أربيل، العدد ١٨، ص٤٥٦ (كانون أول/ ٢٠١٤م).

مقصودٌ غرضه مُضاعفة معنى: التفریع والانتباه والإثارة.

إنَّ أصوات الكلمة «قادرةٌ على إثارة المشاعر، واستجاشة الانفعالات التي يتولد عنها نوع من الاستجابة السلوكية أو العقلية أو الانفعالية، ثم إنَّ الصوت له القدرة بحسب وقعه في الأذن على إثارة الخيال ورسم صورة ذهنية أو حسية للمعنى»^(١).

وعند تأمل اللفظ (طخطح) خاصةً، فإنك تجده يتكون من مقطعين (طخ/ طخ) يُشاكل كلُّ منهما حدث الانفجار أو الصاعقة، وهو صوت نشازٌ يؤيد معنى شدة تحبُّط المقصودين وخروجهم السافر من ربة العقل، وهذا بلا شكٍّ مما يزيد اللفظ قوة ويجعله أكد تقريبًا وأوفى تنبيهاً وتحذيرًا، وأحسن الكلام كما يقول الجاحظ: «ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه»^(٢).

ونحوه، قول عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لائمًا أنصاره في إحدى خطبه: ((دعوتكم إلى نصر إخوانكم فَجْرَجْرْمُ جَرْجِرَةٌ^(٣) الجمل الأسر^(٤) وتناقلتم تناقل النضو^(٥) الأذبر^(٦)))^(٧).

لئن كان تمام المعنى ناتجًا عن اختيار أقرب الألفاظ إليه، فإنَّ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنما عمد إلى لفظ (الجرجرة) خاصةً؛ لكونه أوضح في الدلالة على معنى تردّد المقصودين وتراجعهم، ولكونه أقرب في تصوير تحبُّطهم وتمرّدهم، ذلك لما اختصّت به ألفاظ المصادر الرباعية المضعّفة من تردّد صوتي يدلُّ على معنى تكرير الشيء والتّرّد فيه^(٨).

إنَّ في الجرجرة تعاقبًا وتكرارًا وتردّدًا لا يوجد في الألفاظ المقاربة له في المعنى؛ إذ شمل هذا

(١) الحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ١٧٣.

(٢) البيان والتبيين، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٣.

(٣) الجَرْجِرَةُ: تَرَدَّد هدير الفحل، وهو صوت يعاوده البعير في حنجرتة عند الضجر. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٠، ص ٤٠٦، ٤١٢.

(٤) جملٌ أسرٌ: من السَّرر، والسَّررُ ألمٌ يأخذ البعير في مؤخر كركته من دَبْرَة، أو جرح يكاد يَنْقُبُ إلى جوفه. ينظر: السابق، ج ١٢، ص ١٦.

(٥) التَّضُّو: المهزول من الدوابِّ، وهو الذي أهزله السفر وأذهب لحمه. ينظر: السابق، ج ٤٠، ص ٩٨.

(٦) الأذبر: من الدَبْرَة، وهي قرحة البعير. ينظر: السابق، ج ١١، ص ٢٥٦.

(٧) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٤٢٥.

(٨) ينظر: الخصائص، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٥٣.

اللفظ - بفعل تردّد حروفه (جر / جر) - معنى الضجر والتلكؤ والتباطؤ والتملل؛ فكلّما دعاهم عليٌّ رضي الله عنه تباطؤوا في الخروج وبقيت استجابتهم تتلجج في حلوقهم دون أن تخرج منها، ولا يخفى - أيضاً - دور المفعول المطلق (جرجرة) في تركيز المعنى ومضاعفته والتشديد عليه.

وبدراسة كلّ صوتٍ على حدة، فإنّ (الجيم) أحد أصوات القلقلّة المجهورة الانفجارية، و(الراء) صوت تكراري مجهور، ومعلوم أنّ صفات الجهر والانفجار والتكرار تُشاكل - إلى حدّ ما - شدّة حشرجة الاستجابة وتردّدها في الحلق.

ويرصد هذا الاختيار، جدّية العلاقة بين شكل اللفظ ودلالته؛ من حيث إيجاء أصوات الحروف والإحساس المنبعث منها؛ مما جعل اللفظ يمثّل قيمة صوتية توجيهية مكنتزة بالدلالة الدقيقة التي تصور حال المعنّين^(١).

وعلى منواله، أنّه لمّا طلب معاوية رضي الله عنه البيعة لابنه يزيد آزره عبد الرحمن بن عثمان الثقفي بخطبةٍ منها قوله: ((أصلح الله أمير المؤمنين، إنّنا قد أصبحنا في زمانٍ مختلفةٍ أهواؤه، قد احدودبت^(٢) علينا سيّسأؤه^(٣) واقطوطبت^(٤) علينا أدواؤه وأناخت علينا أنباؤه، ونحن نشير عليك بالرشاد، وندعوك إلى السداد، وأنت يا أمير المؤمنين أحسننا نظراً وأثبتنا بصراً))^(٥).

أراد الخطيب تأييد معاوية رضي الله عنه فيما ذهب إليه من العهد بالخلافة ليزيد من بعده، فأتى بألفاظ تُصوّر خطورة الأمر وحساسيته، وتفتّح بأهمية العهد بالخلافة، فهُمّ في زمانٍ صعبٍ تُخشى فيه الفتنة ولا يؤمن التفرّق.

ولقد تجلّت براعة الخطيب في اختيار اللفظين: (احدودبت، واقطوطبت)؛ ذلك لما فيهما

(١) ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية، مرجع سابق، ص ٥٠، ٥٢، ٢٦١. وبحث: الجرس الصوتي: دراسة جمالية في ألفاظ غريب القرآن، مرجع سابق، ص ٤٥٢.

(٢) الحدّب: هو خروج الظهر ودخول الصدر والبطن. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٤٣.

(٣) سيّسأؤه الظّهْر من الدّوّابِّ: مُجْتَمِعٌ وَسَطُهُ، وهو موضع الركوب، وفيه معنى صعوبة الثبات، ينظر: السابق، ج ١٦، ص ١٦٠.

(٤) قَطَّبَ الشّيءَ، يَقْطِطُهُ قَطْطًا: جَمَعَهُ، وَقَطَّبَ ما بين عينيهِ: أي جمع كذلك، وَقَطَّبَ بين عينيهِ: أي جمع العُضْوَنَ، ينظر: السابق، ج ٤، ص ٥٥.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٣٨.

من دلالة صوتية ظاهرة، إذ إنَّ من صفة حرف (الذال) وحرف (الطاء): الإطباق الموحى باستحكام الأمر وبلوغه الغاية من الحرج^(١)، في حين تحمل حروف: (الباء، الذال، والقاف والطاء)، معنى الشدة والقوة التي تتطلبها الأطروحة^(٢)، أمَّا (الواو)، فإنَّك لتحتاج في نطقه إلى أن تضم فاك وكأنَّك تهوّل أو تتوجّع، وهو معنى يتوافق مع عِظَم وقع الأحداث المعنيّة وشدّة وطأتها. ولئن جهل بعض المتلقين المعاني المعجمية لهذين اللفظين فإنَّ معانيهما ستتسلل إليهم من جهة أصوات حروفهما^(٣).

ويقودنا هذا التحليل الصوتي إلى القول بأنَّ جرس اللفظ ووقع تأليف أصواته من أهمّ الموحيات المثيرة للانفعال النفسي عند المتلقي، ولا سيما في تحفيز مخيلته على رسم صورة معبرة عن الحدث أو الفعل^(٤)؛ لذا فقد شكّل اختيار الألفاظ ذات الأصوات الموحية سنّة ماثورة عند العرب؛ حيث إنَّهم - كما يقول ابن جني - «كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها»^(٥).

ومما ينتظم في سلكه، ما جاء في معرض خطبة الخليفة (الأمين) لمّا رأى الأمر قد تولى عنه، حيث يقول: ((خلعتموني وشتتموني، وانتهبتموني وحبستموني وقيدتموني، وأشياء منعمتموني من ذكرها، حَقَّد قلوبكم وتلَكِّي طاعتكم أكبر وأكثر، فالحمد لله حمد من أسلم لأمره، ورضي بقدره، والسلام))^(٦).

فالتلَكُّو الحاصل للسان عند نطق حرف (الكاف)، لا بد أن يزيد في الدلالة على حال هؤلاء المخالفين وترددهم في الاستجابة، وانحسارهم دونها، فهم منحسبون في هذا الحال كانباس مجرى الهواء الخارج من الرئتين باللسان عند نطق هذا الحرف الانغلاقي^(٧).

(١) ينظر: بحث: الجرس الصوتي: دراسة جمالية في ألفاظ غريب القرآن، مرجع سابق، ص ٤٥٩.

(٢) ينظر: الخصائص، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٥٨. وفقه اللغة وخصائص العربية، مرجع سابق، ص ٥٠-٥١.

(٣) ينظر: البحث البلاغي عند ابن تيمية رحمه الله: دراسة وتقويمًا، مرجع سابق، ص ٦٨.

(٤) ينظر: بحث: الجرس الصوتي: دراسة جمالية في ألفاظ غريب القرآن، مرجع سابق، ص ٤٥١.

(٥) الخصائص، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٥٧.

(٦) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١١٨.

(٧) ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية، مرجع سابق، ص ٥٢. وعلم الأصوات العام، مرجع سابق، ص ٨٦، ١١٣. والتصوير

الفني في القرآن، سيد قطب، ط ١٧، ص ٩٢ (دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤م).

وإذ يُمَثَّلُ التَّضْعِيفُ ضَغْطًا زَائِدًا عَلَى الحَرْفِ، فَإِنَّ لَتَضْعِيفِ حَرْفِ الكَافِ دَوْرًا فِي مَضَاعِفَةِ المعْنَى وَتَرْكِيزِهِ وَتَضْخِيمِهِ وَالضَّغْطِ عَلَيْهِ، عِلاوَةً عَلَى مَا اخْتَصَّ بِهِ تَضْعِيفِ عَيْنِ الفِعْلِ -خَاصَّةً- مِنْ مَعْنَى التَّكْرَارِ وَالتَّرْكِيزِ؛ حَيْثُ إِهْمَمَ -عَلَى حَدِّ قَوْلِ ابْنِ جَنِّي- «جَعَلُوا تَكَرِيرَ العَيْنِ فِي المِثَالِ دَلِيلًا عَلَى تَكَرِيرِ الفِعْلِ: فَقَالُوا: كَسَّرَ وَقَطَّعَ وَفَتَّحَ وَغَلَّقَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا جَعَلُوا الأَلْفَاظَ دَلِيلَةَ المعَانِي فَأَقْوَى اللفْظُ يَنْبَغِي أَنْ يُقَابَلَ بِهِ قُوَّةُ الفِعْلِ، وَالعَيْنُ أَقْوَى مِنَ الفَاءِ وَاللامِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا وَاسِطَةٌ لَهَا وَمَكْنُوفَةٌ بِهَا...، فَلَمَّا كَانَتِ الأَفْعَالُ دَلِيلَةَ المعَانِي كَرَرُوا أَقْوَاهَا وَجَعَلُوهُ دَلِيلًا عَلَى قُوَّةِ المعْنَى المَحْدَثِ بِهِ»^(١).

وَدُونَ الوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَةِ مَعْنَى اللفْظِ فِي المَعْجَمِ، فَإِنَّ المِثْلَ لَيْسْتَطِيعُ اسْتِبَانَةَ هَذَا اللفْظِ وَأَشْبَاهِهِ؛ ذَلِكَ بِفِعْلِ بَرَاعَةِ الخَطِيبِ فِي اخْتِيَارِ لَفْظٍ ذِي دَلَالَةٍ صَوْتِيَّةٍ مَشْتَرَكَةٍ، وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ أَقْصَى دَرَجَاتِ القُوَّةِ تَكْمُنُ فِي اتِّحَادِ المعْنِيَيْنِ -المَعْجَمِيِّ وَالصَوْتِيِّ- عَلَى الإِحَالَةِ إِلَى الدَلَالَةِ الحِجَاجِيَّةِ المَقْصُودَةِ.

إِنَّ الاخْتِيَارَاتِ الصَوْتِيَّةِ اخْتِيَارَاتٍ حِجَاجِيَّةٍ وَوُجِدَتْ بِمَهْدَفِ تَحْقِيقِ غَرَضٍ حِجَاجِيٍّ إِقْنَاعِيٍّ يُمْكِنُ تَلْمُسُهُ وَالوُقُوفِ عَلَيْهِ، مِمَّا يَقُودُ إِلَى القَوْلِ -بِلا تَرَدُّدٍ- بِأَنَّهُ يُمْكِنُ لِلْكَلِمَةِ أَنْ تَحْمِلَ قُوَّةَ دَلَالِيَّةٍ فِي ذَاتِهَا، وَلَكِنهَا قَدْ تَكُونُ أَكْثَرَ دَلَالَةً بِالرُّجُوعِ إِلَى تَأْلِيفِهَا الصَوْتِيِّ.

وَبِذَلِكَ يَتَّضِحُ الدَّورُ الضَّلِيعُ لِلأَصْوَاتِ فِي أَدَاءِ المعْنَى الحِجَاجِيِّ وَالتَّأْكِيدِ عَلَيْهِ، وَيَتَّضِحُ -أَيْضًا- أَنَّ لِمَعْجَمِ الخَطِيبِ اللفْظِيِّ أَثْرَهُ الوَاضِحَ فِي إِنتِاجِ الخِطَابِ الإِقْنَاعِيِّ النَاجِحِ، إِذْ تَمُرُّ العَمَلِيَّةُ الإِقْنَاعِيَّةُ بِعَمَلِيَّةٍ مُعَقَّدَةٍ مِنَ العَدُولِ وَالاخْتِيَارِ تَنْتَهِي بِالخَطِيبِ إِلَى اخْتِيَارِ أَقْرَبِ الأَلْفَاظِ إِلَى المعْنَى وَأَكْثَرِهَا تَمَاسًّا مَعَهُ وَإِحَالَةً عَلَيْهِ.

٣-ب- التنغيم:

إِنَّ مِمَّا لَا يُمْكِنُ تَجَاوُزَهُ تَعَاضِدَ أَصْوَاتٍ عِدَدٍ مِنَ الكَلِمَاتِ عَلَى أَدَاءِ مَعْنَى شَعُورِيٍّ زَائِدٍ عَنِ المعْنَى المَعْجَمِيِّ؛ إِذْ يُشَكِّلُ تَكَرَّرَ النَّعْمِ الصَوْتِيِّ قُوَّةً نَاعِمَةً مُحْمَلَةً بِالمَقْصِدِ الحِجَاجِيِّ؛ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ اسْتِيلَاءِ إِيقَاعِ تَكَرَّرِ بَعْضِ حُرُوفِ الكَلِمَاتِ عَلَى النَفُوسِ، وَامْتِلَاكِهَا أَنْغَامَهَا لِلأَسْمَاعِ؛ وَمَا

(١) الخصائص، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٥٥.

كان أملك للأسماع كان أفعل بالألباب^(١).

وهي معانٍ طبيعية «لا توصف آثارها بأنها عرفية ولا ذهنية؛ لأنها في الواقع مؤثرات سمعية انطباعية ذات وقع على الوجدان (تدركها المعرفة ولا تحيط بها الصفة)، فمثل تأثيرها في وجدان السامع مثل النعمة الموسيقية تطرب لها، ثم لا تستطيع أن تقول لم طربت»^(٢).

ولا تخفى تلك الأنعام على المتلقين؛ فمن له أدنى بصيرة- كما يقول ابن الأثير- «يعلم أن للألفاظ في الأذن نعمةً لذيذةً كنعمة أوتار، وصوتاً منكراً كصوت حمار، وأن لها في الفم أيضاً حلاوةً كحلاوة العسل، ومرارةً كمرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النعمات والطعوم»^(٣).

وبما أن خطب المدونة في أصلها خطابات شفاهية غير مُقَيِّدَةٍ (غير مكتوبة)، فإن الأصل في إنتاج الخطابات الشفاهية مراعاة الجانب الصوتي عند اختيار الألفاظ؛ استثماراً لقدرة الأصوات وطاقاتها الحجاجية على حمل الدلالات ومضاعفتها؛ بحيث تشترك أنعام الكلمات مع معانيها المعجمية لتنتهي بالمتلقي نحو النتيجة المقصودة من أقصر الطرق وأوفاهها^(٤).

ومن مواضع المدونة المُعزَّزة بهذا النوع من العدول، قول عمرو بن معديكرب الزبيدي في خطبته- وكان في وفد النعمان إلى كسرى-: ((ألن لنا كنفك^(٥) يَسْلَس لك قيادنا، فإننا أناس لم يُوقَّس^(٦) صفاتنا قراع مناقير^(٧) من أراد لنا قضمًا، ولكن منغنا جمانا من كل من رام لنا هضمًا))^(٨).

(١) الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ١٢٧. وروافد البلاغة: بحث في أصول التفكير البلاغي، سمير

استيتية، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي بجدة، المجلد ٢، الجزء ٦، ص ٢٧٩ (رجب ١٤٢٢هـ).

(٢) البيان في روائع القرآن، مرجع سابق، ص ٢٥٧.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧١.

(٤) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٥) الكنف: الجانب. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٤، ص ٣٣٤.

(٦) إبلٌ موقَّسة: أي مصابة متأثرة بالجرب، والمعنى هنا لم يُصب صفاتنا، ولم يؤثر فيها قراع مناقير من أراد لنا قضمًا. ينظر:

تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٧، ص ١٧.

(٧) مناقير: جمع منقار والمنقار: حديدة كالفأس مُشكَّكة مستديرة لها خلف، يُنفر بها ويُقطع بها الحجارة والأرض الصُّلبة.

ينظر: السابق، ج ١٤، ص ٢٧٤.

(٨) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٦٣.

تجد في هذا القول تكرارًا متقاربًا ولافتًا لحرف السين، وذلك في الألفاظ: (يسئلس، أناس، يُوقَّس)، ويدركُ متمعن تلك الألفاظ أنَّ يوسع الخطيب العدول عنها إلى ألفاظٍ أكثر تداولًا وأكثر ألفة، إلا أنَّ الاستراتيجية الحجاجية اقتضت اختيار هذه الألفاظ دون غيرها؛ ذلك لِمَا يحمله حرف (السين) من دلالة شعورية يستدعيها المقام، «وليس هذا غريبًا إذا علمنا أنَّ الانفعال قوة محفزة تتطلب الاستجابة الشعورية، ويتجلى ذلك من خلال إيقاع الصوت؛ ذلك أنَّ مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي»^(١).

ومن يتتبع علاقة هذه الألفاظ (السينية) بالمعنى الحجاجي المقصود في هذا القول، يجد أنَّ (السين) أحد أصوات الصفير ذوات النغم الصارم، والتردد العالي، والجرس الصارخ، التي تمتاز بوقعها الخاص من بين الأصوات الصوامت؛ ذلك بفعل أثرها الناتج عن التصاقها في مخرج الصوت واصطكاكها في جهاز السمع لدى المتلقين، وهو ما يؤهلها إلى تأدية مهمة الرفض والامتعاض، مع تأكيد حقيقة هذا الشعور والتشديد عليه والعناية به^(٢).

ومما رأى الباحث أنَّه في عداده، قوله ﷺ سالف الذكر: ((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية وجالس أهل الفقه والحكمة وخالط أهل الذلِّ والمسكنة، طوبى لمن زكت وحسنت خليقته وطابت سريرته وعزل عن الناس شره، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم تستهوه البدعة))^(٣).

أتى هذا القول من خطبته ﷺ في سياق التَّريغ والتَّحبيب، وقد اختار ﷺ اللفظ (طوبى) وعدل عمدًا يؤدِّي معناه من الألفاظ؛ لِمَا في هذا اللفظ من دلالة زائدة متولدة عن تأليفه النغمي المتسق مع سياق الاغتباط بالفضل بعد كلفة الأداء.

وبتدقيق النظر في اللفظ (طوبى) فإنَّه يظهر تكوُّنه من مقطعين صوتيين تأسس كلُّ واحدٍ منهما على حرف قلقله وإطباقٍ انفجاريٍّ شديدٍ مُحَرِّكٍ (ط، ب)، وعلى حرف لين وإطلاق (و، ي)^(٤)، وهما حرفان مُفترقان تمامًا في مخارجهما؛ ف(الطاء) مختلفة عن (الواو) و(الباء) مختلفة عن

(١) بحث: بنية التشكيل الصوتي ل(النون) الإيقاعية المشددة في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٢٢٠.

(٢) ينظر: الصوت اللغوي في القرآن، محمد حسين الصَّعْغِيْر، ط ١، ص ١٧٩ (دار المؤرخ العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ).

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٥٣.

(٤) ينظر: علم الأصوات العام: أصوات اللغة العربية، مرجع سابق، ص ٩٩.

(الألف)، ويوحى هذا الافتراق بين الحرفين في كلِّ من المقطعين بحالة من الضيق المتبوع بالانشراح، أو التقييد والحبس المُردَّف بالإطلاق والإرخاء، أو الحركة والكُلفة المتبوعة بالراحة والسكون، وكلُّها معانٍ شعورية تتلاءم مع ثنائية (الفعل والجزاء) التي تحكم هذا الشاهد (مَنْ فعلَ كذا فلهُ طوبى).

إنَّ للأصوات دلالات شعورية توجيهية خفيّة لا تقلُّ في دورها وأهميتها عن الدلالة المعجمية للفظ، ولا شكَّ أنَّ أهمية اللفظ تزيد وتتضاعف بقدر ملاءمة أصواته للشعور والإحساس^(١)، وبذلك فإنَّ تكرار هذا اللفظ يخلق جوًّا نغميًّا لا يخلو من «وظيفة مزدوجة الأداء؛ تحمل مع التوثيق للمعنى ودفع المساهلة في القصد إليه قيمةً صوتيةً وفنيةً تزيد القلب له قبولاً، والوجدان به تعلقاً»^(٢).

ومن قبيله، أنَّه لمَّا حظي المختار الثقفي بشيء من تأييد محمد بن الحنفية رَحِمَهُ اللهُ فرح فخطب أصحابه قائلاً: ((إنَّ نفرًا منكم أحبُّوا أن يعلموا مصداق ما جئتُ به، فرحلوا إلى إمام الهدى، والنجيب المرتضى، ابن خير من طشى ومشى، حاشا النبي المجتبي، فسألوه عمَّا قدمت به عليكم، فنبأهم أبيّ وزيره وظهيره، ورسوله وخليله))^(٣).

إنَّ متلقِّي هذا الشاهد لا يُمكن بحالٍ من الأحوال أن يغفل عن معناه الانفراجي الفرائحي، وقد وردت الألفاظ المطلقة بالألف (الهدى، المرتضى، طشى، مشى، مجتبي) مُجسِّدةً لحظة الشعور بالفرح بهذا التأييد؛ فكما أنَّ النَّفس عند النطق بالألف يمتدُّ فيخرج دون أيِّ عائق، فإنَّ الفرح شعورٌ مطلق يتسامى عن الكَبْت، ويعلو عن التقييد^(٤).

ومن جانبٍ آخر فإنَّ في صوت مدِّ الألف معنى الإعلان والتبليغ الملائم لمقام الخطبة المتضمن إعلان الفوز بهذا التأييد، وهو معنى ناتج عمَّا يتَّصف به حرف الألف من علوِّ نسبيٍّ ناتج عن

(١) ينظر: بحث: روافد البلاغة: بحث في أصول التفكير البلاغي، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

(٢) التكرير بين المنير والتأثير، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٨٠.

(٤) ينظر: دراسات في علم اللغة، كمال بشر، ص ٩٠ (دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٨م).

قوة الإسماع فيه^(١).

ويمكن القول بأنَّ العلاقة بين الصوت وموضوع الحجاج تُعدُّ آلية من آليات الاستشارة والإيحاء الذي يجعل المتلقي في إقبالٍ وانشداد كبيرين للقول، بفعل ما يُضفيه النغم الصوتي من قيمة إضافية تربط المتلقي به انفعاليًا من خلال الاعتياد عليه والاستئناس به^(٢).

ولعلَّ من قبيله، قول عليٍّ في خطبته يوم زواجه من فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ((الحمد لله الذي قَرَّبَ من حامديه، ودنا من سائله، ووعد بالجنة من يتَّقيه، وقطع بالنار عدد من يعصيه، أحمده بجميع محامده وأياديه، وأشكره شكر مَنْ يعلم أنه خالقه وباريه، ومصوِّره ومُنشِيه، وممِّته ومحبيه، ومقرِّبه ومنجيه، ومُثَبِّئِه ومجازيه، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تبلغه وترضيه، وأن محمدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عبده ورسوله، صلاة تُزَلِّفه وتُذنيه، وتعزِّه وتُعَلِّيه، وتشرفه وتحتبئه))^(٣).

إنَّ من عادة اللغة أن تستعمل أصواتًا بقصد التعبير عن حاجات الناطقين وأغراضهم، وتأتي هذه الحاجات وتلك الأغراض مرتحنة بانفعالات الناطقين النفسية؛ حزنًا أو فرحًا أو غضبًا أو أي نوع من أنواع الانفعالات النفسية؛ مما يؤدِّي بالخطيب إلى اختيار الكلمات ذات الأصوات المطابقة في نغمها للمعنى العام^(٤).

وإذا ما عدتَ إلى مقام هذه الخطبة لعلِّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنَّك ستجده مقام تعبيرٍ عن الفرح والسرور والامتنان لنسبه من النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو ما جعل ألفاظ الخطبة تأتي مقترنة بنغمٍ مُبَلِّغٍ لتلك المشاعر ومُشَبِّعٍ لها، وهو نغمٌ ملحوظٌ يُلحُّ عليه: تكرار (الميم) و(التاء) الخفيفتين نطقًا، وتكرار (الهاء) منفردة وتكرارها مع الياء (يه)، إذ يتَّفَق الحرفان على صفة الجهر، كما يتَّفَقان على صفات الخفَّة

(١) ينظر: شعر إبراهيم الدامغ: دراسة أسلوبية، نَهْلَاء الفلاج، ط ١، ص ٥٧ (نادي القصيم الأدبي، بريدة، ١٤٣٨هـ).

وبحث: روافد البلاغة: بحث في أصول التفكير البلاغي، مرجع سابق، ص ٢٧٧.

(٢) ينظر: البلاغة الصوتية في الأحاديث النبوية، مدحت حسيني ليمونه، مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر-إيتاي البارود، المجلد ٢٥، العدد ٢، ص ١٧٤٦ (٢٠١٢م).

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٣٤٥.

(٤) ينظر: الجرس الصوتي: دراسة جمالية في ألفاظ غريب القرآن، مرجع سابق، ص ٤٤٨.

والرخاوة والانفراج؛ التي تبعدهما عن الشدّة في النطق^(١)، ولا شكّ في مُشاكلَة هذه الصفات لحال إعلان البهجة والشكر، والانبساط وانفراج الأسارير.

إنّ «جمالية الصوت هي القيمة التي يكمن فيها التعبير عن اختلاجات النفس، وارتعاشات اللاشعور»^(٢)، وكما يُقرر الرافعي فإنّه «ليس يخفى أنّ مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأنّ هذا الانفعال بطبيعته إنّما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرج فيه؛ مدّاً أو غنّةً أو ليناً أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها»^(٣).

والاستنتاج الذي يمكن الخروج به بعد الوقوف على أسلوب اختيار الكلمات ذات النغم الصوتي، هو قيمة الجانب التّعمي في الكلمة، ودوره في إثراء الخطاب وتحقيق معانٍ زائدة، إذ يشي تكرار بعض الأصوات بالحالة الشعورية المقامية، وهو ما يلحّ على الإقرار بأنّ للنغم الصوتي أثره في الإقناع، ذلك من جهة ما يتولّد عن المشاركة الوجدانية من تحريك وإثارة تؤدي إلى الاستجابة والفعل.

*** **

ولئن قَصُر هذا المبحث عن تناول جميع الوجوه الحجاجية لاختيار الكلمة، فإنّه قد حاول الإبانة عن القيمة الحجاجية للاختيار المعجمي للكلمة، فمهما اشتركت كلمات الحقل الواحد واتّفقت على أداء معنى من المعاني، إلّا أنّ هنالك فروقاً دقيقة تؤسّس تفاضلها في الدلالة على المعنى ذاته، وهو ما يُبرّر الوقوف على هذا المستوى ويؤكد أهميته.

وفي حين تدعم اللغة حضور الجذر اللغوي الواحد في عدة صيغ صرفية؛ متغايرة في جهة الدلالة مستوية في أصل المعنى، فإنّ الحجاج- كما ظهر- لا ينفكّ يعبأ بهذا التغاير والتّمايز بين تلك الصيغ الصرفية، متّخذاً من بُناه قيماً توجيهية تزيد المتلقي انجذاباً نحو تحقيق النتيجة المرجوة من القول.

(١) ينظر: المختصر في أصوات اللغة العربية: دراسة نظرية وتطبيقية، محمد حسن حسن جبل، ط٤، ص٨٠-٨١، ١٠١، ١٢٤، ١٣٦ (مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٢٧هـ).

(٢) بنية التشكيل الصوتي ل(النون) الإيقاعية المشددة في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص٢٢٤.

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ط٩، ص٢١٥ (دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٣هـ).

وإذا كانت الكلمة في أساسها مجموعة من الأصوات، فإنَّ الدراسة في هذا المبحث قد أثبتت أنَّ من بين الكلمات ما يكون صوتها أكثر تماسًا مع معناه، مما يحصل به التأزر بين اللفظ والمعنى، أو الشكل والمضمون، في خدمة المقصد الحجاجي، كما أنَّ من بين الكلمات ما تتَّفَق على تكرار صوتٍ أو أصوات بعينها، مُعَيَّنَةً- بهذا الاتفاق- على نقل مشاعر الخطيب وتحقيق المشاركة الوجدانية المُحَفِّزَة على الاستجابة والأداء.

وبعد، فإنَّ اختيار الكلمات- على الرغم من أهميته الكبرى- لا يكفي وحده لإنتاج الحجاج، إذ تتطلب تلك الكلمات ضروريًا من النِّظْم النحوي والتركيب والتأليفي التي لا يتفَوَّى الحجاج ولا يستقيم إلا بها، مما يستدعي تحوُّل البحث إلى دراسة الحجاج في (مستوى التركيب).

المبحث الثاني: في التركيب:

حين يُعرّف أحدهم الأسلوب بأنه «طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير»^(١)، فإنه يدلّل بوضوح على أنّ عملية (العدول) و(الاختيار) لا تقتصر على اختيار الكلمات فقط، إذ يقوم الأسلوب في جزء كبير منه على طريقة التركيب والتأليف، ذلك أنّ الكلمات تُمثّل المادّة الأولى التي تفتقر إلى التّركيب والترتيب، وتركيبها وترتيبها هو أهمّ ما يصنع الأسلوب^(٢).

وإذا كانت اللغة العربية غنيّة بالقواعد التحويلية، فإنّ دراسة (العدول) و(الاختيار) في هذا المستوى تستند إلى أنّ كلّ معنى مفيد لا بدّ أن يشترك في تأديته طريقتان نظميّان أو أكثر، مما يستدعي ترجيح أقرب تلك الطرق دلالة على المعنى المقصود، وأكثرها دقّة وإقناعاً وتأثيراً؛ الأمر الذي يجعل الدراسة الحجاجية للتركيب لا تقف عند حدود المعاني الأولى (النحوية)، بل تتجاوزها إلى حيث المعاني الثواني^(٣).

إنّ حسن الترتيب والتأليف أساسٌ في الاستمالة والإقناع؛ فالكلمات-على حدّ قول عبد القاهر الجرجاني-: «لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصّاً من التأليف، ويُعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب؛ فلو أنّك عمدت إلى بيت شعريّ، أو فصل نثرٍ فعددت كلماته عدداً كيف جاء واتّفق، وأبطلت قصده ونظامه الذي عليه بُني وفيه أُفرغ المعنى وأُجري، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبَنَسَقَه المخصوص أبان المراد...، أخرجته من كمال البيان، إلى مجال الهديان»^(٤).

وتُعنى البلاغة العربية في هذا المستوى بدراسة أحوال الكلام من جهة مطابقته للمقام، فقد يعدل المتكلم إلى هذا التركيب أو ذاك؛ مُراعاهً للملابسات والظروف والأحوال، فمقام التّعزية مُنافٍ لمقام التهنة، وخطاب الأمير ليس كخطاب المأمور، وكلام الضعيف مُغايرٌ لكلام القوي،

(١) الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٢) ينظر: بحث: حرية النفي وممكنات الإثبات، مرجع سابق، ص ٣٠١.

(٣) ينظر: الإعجاز الصربي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٨٢-٨٣. والبحث البلاغي عند ابن تيمية رحمه الله: دراسة وتقويماً، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٤) أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص ٤.

وهكذا^(١).

وتأسيساً عليه، فإنَّ مهمة الدرس الحجاجي هي محاولة استكناه الاختيار التركيبي ومعرفة دوره في الإقناع والتأثير، وانطلاقاً من تكامل البلاغتين-القديمة والجديدة-وتلازمهما، فإنَّ البحث سيُعنى-فيما يلي- بدراسة عدد من أهمِّ التراكيب البلاغية الوظيفية وأشهرها.

وفي حين أنَّ الدراسة الحجاجية للتركيب لا تقتصر على التركيب داخل الجملة الواحدة؛ بل تتجاوزها إلى دراسة حجاجية الجملة مع أختها أيضاً، فإنَّ هذا المبحث سيكون مختصاً بدراسة العدول التركيبي، سواء أكان هذا العدول ظاهراً في جملة واحدة أم مجموعة من الجمل^(٢).

ومادام أنَّ هذا المستوى صريحٌ في غرضيته ووظيفيته؛ من جهة أنَّ الوظيفة هي التي تحدّد اختيار التركيب^(٣)، فإنَّ الباحث يكتفي بالتمهيد السابق متحوّلاً إلى دراسة خمسة من أهمِّ الأساليب البلاغية التركيبية:

(١) ينظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مرجع سابق، ج ١، ص ١١.

(٢) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٢٤٠. والحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٢١٨.

(٣) ينظر: علم المعاني: علم المقاصد التداولية، عبد الإله بوغابة، مجلة فكر-العلوم الإنسانية والاجتماعية، ١٤، ص ٨٦ (٢٠٠٥م).

١-تركيبًا: الأمر والنهي:

إذا كان (الأمر) يعني: «طلب تحقيق شيءٍ ماديٍّ أو معنويٍّ»^(١)، فإنَّ (النهي) يفيدُ: «طلب الكفِّ عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام»^(٢)، وعليه فإنَّ «الطلب من (النهي) بمنزلة من (الأمر)؛ يجري على لفظه كما جرى على لفظ الأمر»^(٣)، ويمكن القول بأنَّ كلَّ نهيٍّ يُمثِّلُ أمرًا؛ من جهة طلب الكفِّ والتَّرك، مما يعني اتفاقهما (الأمر والنهي) من حيث طلب الفعل والأداء والإنجاز^(٤).

ويتفق التركيبان أيضًا، في جواز خروجهما عن أصل معنهما إلى أحد المعاني الفرعية (البلاغية) المدركة بقرائن المقام والسياق؛ فقد يخرج الأمر عن أصل معناه (طلب الفعل) إلى معنى الدعاء، أو الإباحة، أو التهديد، أو التعجيز، أو التسوية، أو الاحتقار، كما أنَّ النهي قد يخرج عن معناه الأصلي (طلب الكفِّ أو التَّرك) إلى معنى الدعاء، أو التهديد، أو التنبيه، أو الحثِّ، وهكذا^(٥). وستكون دراسة الباحث لهذين التركيبين مختصة بالجانب الحجاجي منهما، من جهة أنهما «فعالان كلاميان يحمل كلُّ منهما قوةً إنجازيةً تحدِّدها إرادة المتكلم وقصدُه، وهي إرادة متعلقة بطلب إيقاع المأمور به وعدم إيقاع المنهيِّ عنه»^(٦).

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ (الأمر) قد يحضر بصيغة من صيغه الأصلية (فعل الأمر، المضارع المسبوق بلام الأمر، المصدر النائب عن فعل الأمر، اسم فعل الأمر)، وقد يحضر بغير هذه الصيغ، بحيث يُستفاد (الأمر) من متضمن القول ومقتضاه، نحو قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢٨.

(٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، ج ٣، ص ٣٤٤ (مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٧م).

(٣) المقتضب، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٣٣.

(٤) ينظر: التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي، مسعود صحراوي، ط ١، ص ١٠٨ (دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٥م). وتحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة: دراسة تطبيقية لأساليب التأثير والإقناع الحجاجي في الخطاب النسوي في القرآن، محمود عكاشة، ط ١، ص ١٣١ (دار النشر للجامعات، القاهرة، ١٤٣٥هـ).

(٥) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع، الخطيب القزويني، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط ١، ص ١١٦-١١٧ (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م).

(٦) رسالة: الأبعاد التداولية في الخطاب القرآني: (سورة البقرة) أنموذجًا، مرجع سابق، ص ٤٣.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴿١﴾، ومثله (النهي)، فإنه قد يرد بصيغته الأصلية (لا تفعل)، وقد يُستفاد معناه من مقتضى القول، نحو قول أحدهم: (شُرِّبَكَ الدخانَ يوردك المهالك)^(٢).

وبدراسة (الأمر) و(النهي) في المدونة فإنَّ الباحث قد وقع على ما يُثبت تراثيَّة (سُلَمِيَّة) هذين التركيبين وتفاوتهما من جهة المباشرة، إذ جاء بصيغتهما الصريحة في مواضع عديدة من مواضع المدونة، نحو ما ورد في موعظة سحبان بن زفر الوائلي، إذ خطب الناس فكان مما قال: ((إنَّ الدنيا دار بلاغ والآخرة دار قرار، أيها الناس: فخذوا من دار ممركم لدار ممركم، ولا تهتكوا أسراركم عند من لا تحفى عليه أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم؛ ففيها حبيتم ولغيرها خلقتم، إنَّ الرجل إذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قدم لله؟ قدِّموا بعضًا يكون لكم، ولا تُخلفوا كلاً يكون عليكم))^(٣).

يعدل الخطيب -عادةً- إلى فعلي الأمر والنهي المباشرين الجازمين «عندما يؤلِّي عنايته لتبليغ قصده، وتحقيق هدفه الخطابي، ورغبته في أن يكلف المتلقي بعملٍ ما، أو يوجهه لمصلحته من جهة وإبعاده عن الضرر من جهة أخرى، أو توجيهه لفعل مستقبلي معيَّن»^(٤)، وإذ تقرَّر بذلك أنَّ الأمر والنهي الصريحين يستلزمان موضوعاً مُهمًّا ينطوي على مصلحة مستقبلية للمتلقي، فإنَّ الانشغال بالآخرة هو الأمر الذي ينبغي أن يتعاهده المسلم في كلِّ ساعاته وأيامه؛ ليصلح به مستقبله الحقيقي.

ولأنَّ مقام هذه الخطبة مقام حثٍّ وترغيب وترهيب يستلزم الوضوح والمباشرة والقضاء على الاحتمال، فإنَّ الخطيب رَحِمَ اللهُ قد انتحى المباشرة في أمره ونهيه؛ ليبلغ الحاجة من قوله، وليقطع بهذه الدلالة الواضحة على كلِّ من يروم التراخي والتسويق بعدم جدية الأمر وأهميته.

وقد يرد الأسلوبان -الأمر والنهي- في المدونة بصيغةٍ خارجة عن الصيغة الأصلية (المباشرة)، من قبيل قول معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في إحدى خطبه وقد حَصِرَ: ((أيها الناس: إني كنت أعددتُ مقالاً

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٨٣.

(٢) ينظر: الحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٢٤٧.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٤٨٢. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ١٥٢. وج ٢، ص ٣٩. ج ٣، ص ٢٤٤.

(٤) دراسة الأفعال الكلامية في القرآن، حكيمة بوفرفة، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب بجامعة مولود معمري،

أقوم به فيكم، فَحُجِبْتُ عَنْهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحَوِّلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، كَمَا قَالَ فِي كِتَابِهِ، وَأَنْتُمْ إِلَى إِمَامٍ عَدَلٍ أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ خَطِيبٍ، وَإِنِّي أَمْرُكُمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَأَنْهَاكُمْ عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ^(١).

بفعل ما يقتضيه ضيق مقام الحصر من التخفيف والتغاضي فإن معاوية رضي الله عنه قد تحوّل إلى صيغة أكثر اختصاراً وأوفى تعميماً: (أمركم بما أمر الله به ورسوله، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه ورسوله)؛ ذلك لما في اجتناب مباشرة الأمر والنهي في هذا المقام من مراعاة ظاهرة للتراتبية الحجاجية؛ فمتى كان مقام الخطبة مقام تمكين واستعلاء وإبلاغ ناسب أن يرد (الأمر) و(النهي) بصيغتهما المباشرة الجازمة، في حين يقتضي مقام الضيق والجرح العدول إلى صيغة أقلّ جرماً وأخفّ ثقلاً من الصيغة الأصلية (المباشرة) للأمر والنهي.

وعلى حدّ قول ابن الأثير ف«إن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارها، وفتّش عن دفتنها، ولا تجد ذلك في كل كلام»^(٢).

وقد تحتفي أمارات الأمر والنهي -تماماً- لتصبح الدلالة عليهما دلالة قضيوية/ ضمنية، نحو قول أحد الأعراب بين يدي هشام بن عبد الملك: «يا أمير المؤمنين، إنَّ الله ﷻ جعل العطاء محبةً والمنع مَبْغَضَةً، فَلَأَنْ نَحْبَكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ نُبْغِضَكَ»^(٣).

فعلى الرغم من التفاوت الكبير بين منزلة الأعرابي ومنزلة الخليفة، إلا أنَّ الأعرابي لم يمنع نفسه من التوجّه إلى الخليفة بالأمر والنهي، حيث نجح -بفعل براعته الحجاجية- في توجيه الخليفة إلى الغاية المقصودة والطّلبة المنشودة من أبلغ الوجوه وأكثرها لطافة، دون الإخلال بما يتطلبه مقام الخلافة من الأدب والتقدير والإيجاز، وذلك من خلال صيغة الخبر القضيوية التي تُفيد الطلب؛ المتضمن معناه: الأمر بالعطاء، والنهي عن المنع^(٤).

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٣٥١. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ١٢٨. ج ٣، ص ٥٦، ٨٥.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٤٥.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٢٦٠. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ١٤٨. ج ٢، ص ٣١٦. ج ٣، ص ١٦٨.

(٤) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٤٣٧.

ويعدُّ العدول عن مباشرة (الأمر والنهي) إلى الطريق الخبري من أوفى الطرق الإقناعية المولدة للمعاني الجديدة، ذلك أنَّ دلالة الطلب الحاصل بالصيغة الخبرية ناتجة عمَّا فيه من لزوم فكريٍّ محفوفٍ بالقرائن؛ فلو لم يكن العطاء من الصفات التي أمر الله بها لما كان محبَّةً، ولو لم يكن المنع من الصفات التي نهى الله عنها لما كان مبغضة، علاوة على ما في اجتناب الصراحة من اعتدادٍ بذكاء المتلقي وتعويلٍ على معرفته وفهمه^(١).

وإلى ما سبق، فإنَّ للعدول عن مباشرة (الأمر والنهي) إلى الخبر وظيفةً حجاجيةً مهمَّةً؛ ذلك من جهة أنَّ التعبير بالجملة الاسمية يجعل ما يقال خارج دورة الزمان؛ فلا تُلابسه ذاتية ولا يُداخله انحياز، فيكون القول بذلك بمنزلة الحقائق والمسلمات المشتركة^(٢)، وكأنَّ الخطيب إنَّما عدل عن الإنشاء إلى الخبر ليضفي على طلبه نوعًا من الموضوعية والدوام، فهو بمثابة قاعدة ثابتة لا تتغير ولا تبدل.

وإذا كانت بنية (الأمر والنهي) «لا تقتصر على كونها بنية إنشائية طلبية، وإنَّما تتجاوزه إلى كونها بنية توليدية، كغيرها من بني الإنشاء، لأنَّها لا تُعرف الالتزام بأصل المعنى، بل تحاول أن تُنتج ما لم تتعوَّد اللغة على إنتاجه، وهذا المنتج يعتمد على تحوُّلٍ مقصودٍ يخرج البنية عن أصل معناها»^(٣)، فإنَّه كثيرًا ما يكون معنى (الأمر والنهي) مجازيًّا في المدونة؛ فيخرجان عن ظاهر معنهما إلى أحد المعاني الجانبية، وهي معانٍ تُعرفُ بسياق القول ومقامه^(٤).

ومما وجده الباحث من خروج أسلوب (الأمر) عن معناه، ما ورد في خطبة عائشة في الانتصار لأبيها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حيث ذكرت جملةً من مآثره ثم ختمت بقولها: ((فأروني ماذا ترتؤون، وأيُّ يومٍ أبي تنقمون، أيوم إقامته إذا عدل فيكم أم يوم ظعنه إذ نظر لكم؟ أقول قولي هذا وأستغفر

(١) ينظر: السابق، ص ٤٣٨. والحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٢٥٢. والكف بين النهي والنفي في القرآن الكريم: رؤية دلالية معاصرة، إسماعيل الكعبي، مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع بكلية الإمارات للعلوم التربوية، العدد ٣٤، ص ٩ (٢٠١٩م).

(٢) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٤٤٠.

(٣) البلاغة العربية: قراءة أخرى، مرجع سابق، ص ٢٩٣.

(٤) ينظر: دلالات التراكيب، مرجع سابق، ص ٢٥١، ٢٥٧.

الله لي ولكم))^(١).

فعائشة-رضي الله عنها وعن أبيها- لا تقصد بقولها: (فأروني) حقيقة الأمر: أنبئوني، وإنما تقصد بذلك: الاستحالة والتعجيز؛ إذ يتعدّر على المتلقين أن يجدوا ما يمكن أن يُتربّوا به على أيها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وإن زعموا أن في وسعهم ذلك^(٢)، ويدلُّ على هذا المعنى: موضع فعل الأمر من السياق؛ إذ ذيلت به رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قائمة طويلة من المآثر والمكارم، كما يدلُّ عليه-أيضًا-مقام القول؛ ذلك أن مقام الخطبة مقامُ انتصار وبيانٍ، وليس مقام طلبٍ أو استعانة^(٣).

ولا يخفى ما يحمله معنى التعجيز من الإشادة بأبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ والقطع بفضله وسابقته، إذ يمثّلُ عجزُ المتلقين عن إجابة هذا الطلب (أروني) إقرارًا منهم واعترافًا بفضل أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وسابقته^(٤).

ومّا وقف الباحث عليه من خروج أسلوب (النهي) عن أصل معناه إلى معنى آخر، قول شبيب بن شيبه في عظته للمهدي: ((يا أمير المؤمنين، إنَّ الله إذ قَسَمَ الأقسام في الدنيا، جعل لك أسنأها وأعلاها، فلا ترضَ لنفسك من الآخرة إلا مثل ما رضِيَ لك به من الدنيا، فأوصيك بتقوى الله، فعليكم نزلت، ومنكم أُخذت، وإليكم تُرد))^(٥).

إذا كانت «منزلة المتكلم، مقارنة بمنزلة المخاطب، هي التي تصبغ الطلب بصبغة خاصة، ويؤدي بها اللفظ غرضًا خطابيًا خاصًا ووظيفية تواصلية معينة»^(٦)، فإنَّك لا تتردّد في القول بخروج هذا النهي عن أصل معناه، من حيث إنَّه نهيٌ ليس على جهة الاستعلاء^(٧)؛ إذ إنَّ مرتبة شبيب تقتضي تقاصره عن مقام نهي الخليفة ومباشرته بالطلب.

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٠٩. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ١٠. وج ٢، ص ٣٢٥. ج ٣، ص ٤٣.

(٢) ينظر: البلاغة العربية: قراءة أخرى، مرجع سابق، ص ٢٩٤.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢١، ص ١٤٧.

(٤) ينظر: السابق، ج ١٧، ص ٤٧.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٨٠. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ١٢، ٣٥٦. ج ٢، ص ٣٤٩-٣٥٠.

(٦) التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي، مرجع سابق، ص ١٠٦.

(٧) ينظر: البلاغة العربية: قراءة أخرى، مرجع سابق، ص ٢٩٨.

ولئن جاء هذا النهي بصيغة النهي المباشر والصريح، فإنَّ غرض الواعظ منه: الندب والحثُّ على إصلاح الآخرة والسموِّ في طلبها؛ لأنَّ «(الكفَّ) فعلٌ يحصل بشغل النفس بضد المنهي عنه»^(١)، وغير خافٍ ما في العدول عن أصل الكلام إلى أسلوب النهي المباشر من الإثارة والتنبيه والتَّركيز، إذ يقتضي النهي المباشر تخصيصَ المنهي عنه وحصره والدلالة الصريحة عليه.

وإنَّ ظهر أداء فعل الأمر: (ارضَ لنفسك من الآخرة مثل ما رضيَ لك به من الدنيا) مساوياً لأداء النهي الذي اختاره الخطيب، إلَّا أنَّ في عدول الخطيب إلى النهي معنى لطيفاً يوجد في شمول النهي لجميع أنواع الرضا ومظاهره وصوره ومراحلها، في حين أنَّ الأمر يقتصر في اتجاهه على صورة الرضا المُثلى^(٢).

إنَّ المطلَّع على الأمثلة اليسيرة الماضية يُدرك بجلاء صلة الحجاج الوثيقة بمهذين الأسلوبين، من جهة دورهما في الإثارة والتَّحريك، وإشراك المتلقي في الإنتاج والفعل، ذلك أنَّ كلَّ أمرٍ أو نهيٍّ لابدَّ أن يستدعي استجابة من نوع ما، كما يُدرك المطلَّع أهمية السياق والمقام، ودورهما في اختيار صيغة من صيغهما (الأمر والنهي) وفي معرفة المقصود منهما.

وإذ وقف البحث على حجاجية هذين الأسلوبين الطليبين، فإنَّه سيُتبعهما بدراسة أسلوبٍ طلبيّ آخر مُساوٍ لهما في الطلبية، ومختلفٍ عنهما في مستوى مباشرة التوجيه وصراحته.

(١) البلاغة العربية: قراءة أخرى، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

(٢) ينظر: البحث البلاغي عند ابن تيمية رحمه الله: دراسة وتقويمًا، مرجع سابق، ص ١٣٤.

٢- التركيب الاستفهامي:

وينقسم الاستفهام- من حيث الجهالة والعلم- إلى قسمين: حقيقي؛ يجهل السائل إجابته، وغير حقيقي؛ خارج في مقتضاه عن أصل معناه الحقيقي (الاستعلام)، ولأنَّ البحث معنيٌّ بدراسة العدول الحجاجي، فإنه سيقنصر على دراسة الاستفهام غير الحقيقي^(١)؛ الخارج عن أصل معناه أو المكتفي عن الإجابة؛ ذلك لما ينطوي عليه هذا الاستفهام من معنى حجاجيٍّ مقصودٍ، فهو وإن كان استفهامًا في ظاهره إلا أنه صادرٌ عن عارفٍ عالمٍ بالمستفهم عنه^(٢).

وبقدر نجاح المتكلم في استثارة المتلقي وإقحامه وإشراكه في بحث علة الاستفهام ودواعيه يكون نجاحه في السيطرة على ذهن المتلقي وإقناعه وإجباره على اقتراح النتيجة المقصودة وفق ما يقتضيه الاستفهام ويتطلبه، وكما يُقال فإنَّ أكد الحجج وأشدّها إلزامًا للمتلقي وأكثرها إفحامًا له: ما نطق بها (المتلقي) بنفسه، وأسهم في صنعها وإنتاجها^(٣).

«إنَّ السؤال هو دائمًا تجلٍّ لمشكلٍ مطروحٍ تجب معالجته، ومن ثمَّ فهو يقتضي تفاعلًا بين الذات المعنيّة به، أي: انخراطها التخاطبي في التفاوض حوله. يكون السؤال بذلك إطلاقًا للمفاوضة، وهو بهذه الصفة يصبح محرّكًا للتّجال والاستدلال، أي: منتجًا للعديد من الأقوال التي تُقدّم نفسها (حسنًا) للسؤال، أو على الأقلّ الجواب المناسب عنه»^(٤).

ولهذا الدور فإنَّ الباحثين، قديمًا وحديثًا، قد أجمعوا على أنَّ المهمة الأساسية للاستفهام غير الحقيقي هي مهمة إقناعية تأثيرية في الأساس، وعليه فليس الاستفهام تركيبًا طارئًا على الحجاج، بل هو أصلٌ فيه وركيزةٌ من ركائزه، وأسلوبٌ مُهمٌّ من أساليب إثارة المتلقي، وهو إلى ذلك موقفٌ مُحدّدٌ يختاره المتكلم ويهتدي إليه المتلقي وفقًا لقرائن مقامية وموادّ سياقية. ويبقى الاستفهام غير المباشر حجةً موجهةً فاعلةً ومؤثرةً؛ من جهة جدواها في إلزام المتلقي وحصره في نطاقٍ ضيقٍ؛

(١) ويمكن أيضًا تسميته بالاستفهام: غير المباشر، أو المجازي، أو الحجاجي.

(٢) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٤٢٥. والسؤال البلاغي: الإنشاء والتأويل، بسمة بلحاج رحومة الشكيلي، ط ١، ص ١٢-١٣ (دار محمد علي للنشر، صفاقس، ٢٠٠٧م).

(٣) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٣٥٢. والحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٤٢٧، ٤٢٩. والحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٢٥٣. وأطروحة: الخطاب

الحجاجي السياسي في كتاب: (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة-دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٣٠٤.

(٤) بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

فإمّا أن يقتنع، أو يتكلف الردّ بحجة أقوى^(١).

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ العلماء قد أحصوا المعاني التي يخرج بها الاستفهام عن حقيقته، فوجدوا أنّها تتراوح بين عدّة معانٍ، منها: «١- الإنكار. ٢- التوبيخ. ٣- التقرير. ٤- التعجب أو التعجيب. ٥- العتاب. ٦- التذكير. ٧- الافتخار. ٨- التفخيم والتعظيم. ٩- التهويل والتخويف. ١٠- التسهيل والتخفيف. ١١- التهديد والوعيد. ١٢- التكثر. ١٣- التسوية. ١٤- الأمر. ١٥- التنبيه. ١٦- الترغيب. ١٧- النهي. ١٨- الدعاء. ١٩- الاسترشاد. ٢٠- التّمّي والترجّي. ٢١- الاستبطاء. ٢٢- العرض. ٢٣- التحضيض. ٢٤- التجاهل. ٢٥- التحقير والاستهانة. ٢٦- المدح والذّم. ٢٧- الاكتفاء. ٢٨- الاستبعاد. ٢٩- الإيناس. ٣٠- التهكم والسخرية. ٣١- الإخبار. ٣٢- التأكيد»^(٢)، وهي معانٍ محكومة بالسياق والمقام، وقرائن الأحوال.

وسيدرس الباحث-فيما يلي-أظهر ما وقف عليه في المدونة من جملة هذه المعاني، مبتدئاً بدراسة أهمّ استفهامين حجاجيين، وهما الاستفهام التقريري، والاستفهام الإنكاري.

ومما وقف الباحث عليه من معنى (التقرير) في المدونة، الاستفهام الوارد في خطبة مُفاخرة عطارد بن حاجب بن زرارة رضي الله عنه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وقد وفد إليه مع أشرف بني تميم؛ إذ يقول: ((الحمد لله الذي له علينا الفضل، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالًا عظامًا نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزّ أهل المشرق وأكثره عددًا وأيسره عدة؛ فمن مثلنا في الناس، ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟))^(٣).

إذا كانت الغاية من الاستفهام التقريري، هي «حَمْلُ المخاطَب على الإقرار والاعتراف بأمر

(١) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٤٢٥. والسؤال البلاغي: الإنشاء والتأويل، مرجع سابق، ط ١، ص ٣٠٢. والحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ١٤١. وبلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٢١٥. وفن المناظرة في الأدب العربي: دراسة أسلوبية-تداولية، مرجع سابق، ص ٤٣١. والبنية الحجاجية في شعر المتنبي: (السيفيات) أنموذجًا-مقاربة تداولية، فضيلة فلاتي، رسالة ماجستير، ص ٥٦، جامعة أم البواقي، الجزائر (٢٠١٥-٢٠١٦م).

(٢) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٧٠.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٦٣. ولمزيد أمثلة، ينظر: ٣٨. وج ٢: ص ٤٥٦. وج ٣: ص ١٧١.

قد استقرّ عنده العلم به»^(١)، فقد اختار الخطيب أن يذيل بهذا الاستفهام عددًا من المسلّمات؛ لتحظى تلك المسلّمات بالإقرار والمتابعة والتأييد، فضلًا عمّا ينتج عن أسلوب الاستفهام من ترسيخ تلك المسلّمات والتذكير بها^(٢).

لقد شكّل هذا الاستفهام فعلًا حجاجيًا إقناعيًا بحثًا، يتجاوز مجرد السؤال عن مجهول إلى طلب المصادقة والإقرار المشفوع بالقرائن والبيّنات؛ فإذا كان قوم الخطيب: (رؤوس الناس وأولي فضلهم؛ لأنّ الله جعلهم ملوكًا، ووهب لهم أموالًا عظامًا يفعلون فيها المعروف، وجعلهم أعز أهل المشرق وأكثره عددًا وأيسره عدّة)، فإنّه ليس أمام المتلقي سوى الإجابة بالإقرار والاعتراف والمصادقة^(٣).

وإنّ استشكّل عدول الخطيب عن التوكيد إلى الاستفهام التقريري، ف«إنّ العدول عن الإخبار إلى الاستفهام يحمل المتلقي على الاعتراف بعد التدبّر والأناة، فهو سؤال ثابت بغرض إقراره والاعتراف به»^(٤)، وبالاعتراف والمُصادقة، فإنّ المتلقي يكون قد انخرط في عملية خطابية مُلزّمة بكافة التبعات، ومن غير شكّ أنّ ذلك أكد للمعنى، وأكثر إثباتًا وثباتًا له، وأظهر لتفوّق المُحاجّ وغلبته في الحجاج^(٥).

أمّا الاستفهام (الإنكاري)، فإنّه قد تكرّر استعماله في عدة مواضع من خطب المدونة، ولعلّ من أوضحها دلالة: الاستفهام الوارد في موعظة أبي الدرداء رضي الله عنه لأهل دمشق، إذ خطبهم فكان مما قال: ((أمّا بعد، يا أهل دمشق، اسمعوا مقالة أخ لكم ناصح، فما بالكم تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون؟ وقد كان من كان قبلكم جمعوا كثيرًا، وبنوا شديدًا، وأمّلوا بعيدًا، وماتوا قريبًا، فأصبحت أعمالهم بورًا، ومساكنهم قبورًا، وأمّلهم

(١) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٧٥.

(٢) ينظر: الحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

(٣) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٤٨٥. والحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٤٣١.

(٤) بحث: دلائل الحجاج والإقناع في الخطاب النبوي الشريف (حديث الشفاعة) نموذجًا، مرجع سابق، ص ٢٢٧.

(٥) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٤٢٩. وبلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٢١٧. وأطروحة: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب: (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة-دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٣٠٨.

غورًا))^(١).

ومتى عَلِمَ أَنَّ الاستفهام الإنكاري استفهامٌ يتأسَّس على إنكار قضيةٍ ما يرى المستفهم بُطلانها وانتفاءها^(٢)، فإنَّ الاستفهام في هذا الشاهد قد وَرَدَ على سبيل إنكار هذا الصَّنِيع من المتلقِّين وبُطلانه ونفي صوابه.

وتكمن حجاجية هذا الاستفهام الإنكاري في غناه عن الإجابة، وحصره للمتلقى واستثارته؛ ذلك «أَنَّ مسلك المعنى فيه مسلك الاقتضاء واللزوم، وهو أبعث لحركة النفس وأكثر إنهاضًا للفكر وتنشيطًا له؛ لأنَّه يفيد نفي الفعل بطريق الكناية»^(٣)، فضلًا عمَّا في الإنكار من معنى تعظيم الأخطاء والتشهير بها، وهو معنى بالغ الأهمية الحجاجية؛ من جهة تسرُّب الارتياب إلى المتلقِّين وتقاصر نفوسهم عن الردِّ، أو الاعتراض أو التبرير^(٤).

والمتأمل لهذا الشاهد يجد أنَّ تحوُّل الخطيب إلى الاستفهام الإنكاري لا يخلو من مفاجأة المتلقى ومبادرته بالإنكار؛ ذلك ليخجل ويرتدع وَيَعْيَى بالردِّ والجواب؛ لأنَّه فَعَلَ، أو همَّ بفعل، ما لا يُستصوبُ فعله^(٥).

وكثيرًا ما تقترن دلالات اللوم والتعجب والتفريع والتوبيخ مع دلالة هذا الاستفهام؛ إذ ينصبُّ على واقع فعليٍّ جدير بأن يُنفى ويُنكر؛ لخروجه عن حدود المعقول ومسار الصواب، والمتأمل في استفهام أبي الدرداء رضي الله عنه يجد أنَّه لا ينفك عن جميع المعاني المذكورة، وإنَّ كان معنى الإنكار أولًا وأقواها^(٦).

وقد يخرج الاستفهام في المدونة عن حقيقة معناه إلى معنى (الإفحام)^(٧)، نحو استفهام قس

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٦٢. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٧٣. ج ٢، ص ١٣٦-١٣٧. وج ٣، ص ١٩.

(٢) ينظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٧١.

(٣) دلالات التراكيب، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

(٤) بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٢١٢.

(٥) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ١١٩.

(٦) ينظر: المستويات الفنية في خطب معاوية بن أبي سفيان: دراسة أسلوبية، أحمد اليحيى، مجلة كلية الآداب بجامعة بورسعيد، العدد ٧، ص ١٨٥ (يناير ٢٠١٦م).

(٧) ينظر: فن المناظرة في الأدب العربي: دراسة أسلوبية-تداولية، مرجع سابق، ص ٤٣١.

بن ساعدة الإياديّ الوارد في خطبته المشهورة في سوق عكاظ، حيث يقول: ((إنَّ في السماء لخبراً، وإنَّ في الأرض لعبراً، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم تزكوا فناموا؟ يقسم قس بالله قسمًا لا إثم فيه: إنَّ لله دينًا هو أرضى له، وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنَّكم لتأتون من الأمر منكراً))^(١).

في حين يؤدّي معنى الإفحام إلى زجّ المتلقي في حالة ذهنية حرجة يصعب عليه التخلُّص منها، فإنَّ متلقي الاستفهام في هذا الشاهد لا يمكنه أن يتنصَّل من ذلك الحرج أو يسلم منه، ولئن حاول ذلك وقصده فإنَّه لن ينفكَّ عن الخروج بمظهر السيئ الضعيف؛ لذا فإنَّه لا يبعد عن الصواب من يرى أنَّ هذا النوع من الاستفهامات يمثِّل مصائد تجرف المتلقي المخالف إلى سياق مناهض لاعتقاده؛ بحيث يتحوَّل بفعل هذا المجهود الذهني-ومن دون أن يشعر- إلى محاجِّ مجادلٍ ضد أفكاره^(٢).

وتتبع الشحنة الحجاجية في استفهام (الإفحام) من مدى ذكاء السؤال المطروح وعمقه، ولا يعني العمق والذكاء التعجيز أو الإسكات قدر ما يعني استدراج المتلقي وحبسه في مأزق الاقتناع وإغلاق سبيل المواجهة عليه، فمهما بلغ متلقي هذا الشاهد من الذكاء والقدرة فإنَّه لن يجد ما يمكنه أن يواجه به قس بن ساعدة حيال هذا الاستفهام، وعليه فإنَّه سيكون مرتهنًا بالخضوع والاقتناع بجمية الموت وزوال الفرصة بحلوله، ومتى اقتنع المتلقي بذلك فليس أمامه سوى تغنم الحياة الدنيا في سبيل الفوز بالحياة الآخرة^(٣).

وإلى ذلك، فإنَّ في استفهام (الإفحام) تأدّبًا مع المتلقي، واحترامًا ظاهرًا له؛ من جهة إيراد الخطيب لاستفهامه على سبيل الاستشكال والتساؤل والتشكيك، تاركًا للمتلقي حرية اختيار الإجابة والوصول إلى النتيجة، بعيدًا عن المباشرة والمواجهة^(٤).

ويحصلُ أن يخرج الاستفهام في المدونة عن كونه استفهامًا حقيقيًا إلى كونه عتبةً استفزازية

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٨. ولزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٣٣٣. وج ٢: ص ٥٣. ج ٣، ص ٢٦٠.

(٢) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٢١٨.

(٣) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة، مرجع سابق، ص ١١٦.

(٤) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، ط ١، ص ٢٤١ (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،

استشاريةً، ومدخلاً تمهيدياً^(١)، كما عليه الاستفهام الوارد في خطبة طارق بن زياد المشهورة: ((أيها الناس: أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم))^(٢).

فإن كان لا يُتصوّر من هذا القائد الفذّ الجهلُ بطريق الدفاع والقتال، فإنّ من غير المنطقي أن يكون استهلاله الخطبة بهذا الاستفهام من قبيل طلب الفهم أو الإجابة، وأما هو آلية حجاجية أراد بها أن ينفذ إلى نفوس المتلقين ليثيرهم ويستحثّهم إلى بذل نفوسهم في سبيل الله، فليس ثمة مهربٌ أو ملجأ سوى الدفع والمدافعة^(٣).

وإلى ما سبق، فإنّه لا يخفى ما في الاستفتاح بالاستفهام من تنبيه المتلقين وشدهم وإيقافهم على حقيقة الأمر ومقطّعه، كما يمكن القول بأنّ الاستفتاح بالاستفهام يجعل منه عتبةً تبريرية تُهيئ المتلقين لتلقي الأطروحة بالاهتمام، فمتى علّموا استحكام الأمر وعسره فإنّهم سيأخذون الوصايا التالية بالجدية والقبول.

ولئن حاول بعض الدارسين تحديد معاني الاستفهام، فإنّه كثيراً ما تتداخل معاني الاستفهام الواحد وتتعدّد، بحيث يصعب الجزم بانفراد استفهامٍ ما بهذا المعنى أو ذلك، مما يُبرِّز القول بانفتاح الاستفهام الواحد على عدّة معانٍ ضمنية لا تنفك في جملتها عن معنى الإثارة والتنبيه، والتشويق والترسيخ، ذلك أنّ النفس تتوق دائماً إلى معرفة الإجابة وتأنف الإلغاز، ولكلّ ما سبق، فإنّه لا يبعد من يرى أنّ الاستفهام يمثّل أيسر آليات بثّ الأفكار، مع ضمان سلامة المقصد من الردّ أو التحريف.

وإذ فرغ الباحث من دراسة هذين الأسلوبين الإنشائيين الطلييين المُهمّين في الاستراتيجية الحجاجية، فإنّه سيتحول إلى دراسة الأثر الحجاجي الناتج عن عدول الخطيب عن أصل ترتيب عناصر الجملة.

(١) ينظر: فن المناظرة في الأدب العربي: دراسة أسلوبية-تداولية، مرجع سابق، ص ٤٣٢. والحجاج في الحديث النبوي:

دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٢٥٧.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣١٦. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٣٦٤، ج ٢، ص ٢٨٧، ج ٣، ص ١١٤.

(٣) ينظر: الحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٢٥٣.

٣- التقديم والتأخير:

ويُقصد به العدول عن أصل ترتيب الجملة، بـ«تقديم ما ينال عناية المتكلم على غيره من العناصر اللغوية المستعملة»^(١). وهو عادةً بلاغية قِيمة ذات أسرار دقيقة، يتوخَّأها العرب بفعل ما للمُقَدَّم عندهم من حظوة وأهمية^(٢).

ولعلَّ فيما يلي من قول الشيخ عبد القاهر كفاية في الدلالة على أهمية هذا العدول وعمق معناه، إذ وصف هذا الأسلوب بأنّه: «باب كثير الفوائد، جُمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفترّ لك عن بدیعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قُدِّم فيه شيء، وحول اللفظ من مكان إلى مكان»^(٣).

ويمثِّلُ هذا العدول مقياسًا دقيقًا من مقاييس كفاية المتكلم اللغوية وقدرته على التأثير والإقناع، وقد عدّه ابن جني-لذلك-شجاعة من شجاعات اللغة العربية^(٤)، كما تظهر بهذا العدول سعة اللغة العربية وطواعيتها ودقتها في التعبير؛ فهي لا تخضع لقواعد حادّة في ترتيب مفرداتها؛ إذ تُتيح خياراتها الجوازية الحريّة للمتكلم في الابتعاد النسبي، أو التحوّل عن أصل القاعدة النحوية (الترتيب الأساسي)؛ مجاراةً لظروف القول وملايساته، واستجابة لدوافع المتكلم النفسية؛ مما يجعل (التقديم) حجةً واضحةً على دور المقام في إنشاء المقال وتأليف عناصره^(٥).

وإنّ تنبّه القدامى إلى هذا العدول التركيبي وعُنُوا به، فقد أظهر المحدثون اهتماماً واسعاً به، فأطلقوا عليه مسميات عديدة، منها: (التقديم والتأخير، الترتيب، الزحلقة في البنية السطحية، الانتهاك)، ويمكن احتساب هذا العدول -أيضاً- آليّة من آليات التّبئير (التّعيين)؛ ذلك من جهة

(١) تحليل الخطاب وتجاوز المعنى، مرجع سابق، ص ١٠٨.

(٢) ينظر: الكتاب: كتاب سيبويه، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٤.

(٣) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ١٠٦.

(٤) ينظر: الخصائص، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٦٠. وتحليل الخطاب وتجاوز المعنى، مرجع سابق، ص ١٠٧.

(٥) ينظر: جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، مرجع سابق، ص ١٦١. واستراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ١٤٠، ١٦٩. والوظائف التداولية في اللغة العربي، أحمد المتوكل، ط ١، ص ٢٨ (دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٤٠٥هـ). وشعر أحمد الصالح: دراسة أسلوبية، مرجع سابق، ص ١٦١. وبحث: آليات الحجاج في خطبة ﷺ في

حجة الوداع، مرجع سابق، ص ٦١.

أنَّ التركيز يقع على العنصر الحامل للمعلومة الأكثر أهميةً، أو الأكثر بروزًا في الجملة^(١).

وعلى حدِّ قول (جاكسون) فإنَّ «كلَّ تغيير في المقولات النحوية، وبالتالي في الأبنية اللغوية، هو تغييرٌ حاملٌ لمعلومات دلالية؛ فالتغيير في المقولات النحوية هو لبُّ عملية التوجيه التي تكون بالعوامل الحجاجية، والمعلومات الدلالية هي في اعتبارنا المفهوم أو النتيجة»^(٢).

وإذا كان التقديم والتأخير يظهر من خلال تقديم عنصر لغويٍّ على آخر مع احتفاظ كلِّ من العنصرين بحُكمه ومحلِّه الإعرابي^(٣)، فإنَّ من أهمِّ وجوه التقديم والتأخير في المدونة: تقديم الخبر على المبتدأ، إذ وقف الباحث على عددٍ من مواضعه، نحو قول داود بن علي في خطبته لمَّا بويع أبو العباس السَّقَّاح بالخلافة: ((لكم ذمة الله ﷻ وذمة رسوله ﷺ وذمة العباس رَحِمَهُ اللهُ، أنْ نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ))^(٤).

يظهر الخبر في قوله: (لكم ذمة الله ﷻ وذمة رسوله ﷺ وذمة العباس رَحِمَهُ اللهُ) متقدِّمًا على المبتدأ؛ وذلك عنايةً من الخطيب به، وتحقيقًا له وإبرازًا لشأنه؛ فالمتلقون حديثو عهدٍ بخلافة، وهم أكثر ما يكونون ترقُّبًا لمثل هذه المواثيق، ذلك بالإضافة إلى معنى التشويق الحاصل بفعل تقديم إثبات الاستحقاق (لكم)، فمن شأن تقديم ذلك أن يجعل نفوس المتلقين متلهِّفَةً إلى سماع ومعرفة ما لها (ذمة الله ﷻ وذمة رسوله ﷺ وذمة العباس رَحِمَهُ اللهُ)، وغنيٌّ عن القول بأنَّ ما جاء بعد ترقُّب وتلهِّف فإنه يكون أشدَّ وقعًا في النفوس، وأكثر تأثيرًا عليها، وأقوى تحفيزًا على السمع والطاعة والإذعان^(٥).

ولو رُدَّ الكلام إلى أصله فتأخَّر الخبر عن مبتدئه في هذا الشاهد، فإنَّ الخبر سيبقى في حيِّز

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ١٤٣.

(٢) العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مرجع سابق، ص ٦٣.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ١٠٦-١٠٧. والإيضاح في علوم البلاغة، مرجع سابق، ص ٦٦. واستراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ١٤١.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٩. ولزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٢٨٦. ج ٢، ص ٢٤٤. ج ٣، ص ٢٤٤.

(٥) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ١٠٧. وبحث: بلاغة الإقناع في صور الخطاب: (المقامة الجرجانية للهمداني) أنموذجًا، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

الإخبار المجرد من أي معنى من المعاني المقامية الإقناعية، في حين يقتضي التقديم جميع المعاني السابقة، علاوة على معنى اختصاص المبتدأ بالحكم، والرد على منكر الخبر والقضاء على شك المرتاب فيه؛ ذلك أن في تقديم الحكم مواجهةً للمنكر والشاك لا تنهيها بالتأخير^(١).

وإلى ذلك فإن في مخالفة العادة، أو كسر سكون الأصول القاعدية التي تُبنى عليها الجمل، شحنًا للقول بالمعنى، ولفتنًا وتقريرًا لا تجدهما في جريان الكلام على أصله^(٢)، إذ «ليس إعلامك الشيء بغتةً غفلاً، مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له، لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام»^(٣).

ومن وجوه التقديم في المدونة: تقديم المفعول على الفاعل، ومنه التقديم الوارد في قول زياد بن أبيه- وكان في وفد أهل العراق إلى معاوية رضي الله عنه -: ((يا أمير المؤمنين: أشخصت إليك أقوامًا الرغبة، وأقعدت عنك آخرين العذر؛ فقد جعل الله تعالى في سعة فضلك ما يُجبر به المتخلف، ويُكافأ به الشاخص))^(٤).

فمتى علمت أن العرب في لغتهم «إنما يقدمون الذي بيانه أهمُّ لهم، وهم بيانه أعنى، وإن كانا جميعًا يهملانهم ويعنيانهم»^(٥)، فإن الخطيب قد قدّم المفعولين: (أقوامًا، آخرين) على فاعليهما (الرغبة، العذر)؛ على سبيل التركيز المعزز لحضور أهل العراق والمضاعف لشأنهم لدى الخليفة؛ حيث إنَّ المقام مقام وفادة وتمثيل لأهل العراق؛ فالمهم هو ذات أهل العراق وليس التبرير (الرغبة) أو (العذر)؛ إذ الخلافة في غنى عن رغبتهم وعذرهم^(٦).

إنَّه تقديم حجاجي مقصود بعيد عن المخالفة والسداجة؛ غايته تخصيص المقدم وإبرازه والعناية به وتقوية حضوره في ذهن السامع، بُغية إحداث مزيد من التأثير عليه، وتوجيهه نحو

(١) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ١٢٩-١٣٠. والطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مرجع سابق، ج ٢، ص ٦٨.

(٢) ينظر: البحث البلاغي عند ابن تيمية رحمه الله: دراسة وتقويمًا، مرجع سابق، ص ١٤٦.

(٣) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣٦٤. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ١٦٣. وج ٢، ص ٢٧١. وج ٣، ص ١٠٣.

(٥) الكتاب: كتاب سيبويه، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٤.

(٦) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ١٠٧-١٠٨.

الوجهة المعنية.

ومما وقف عليه الباحث من وجوه التقديم الشائعة في المدونة: حلول شبه جملة (الجار والمجرور) بين متلازمين وإقحامها لنفسها بينهما^(١)، من قبيل قول إحدى الأعرابيات في عزائها للمنصور في وفاة أبي العباس السفاح: ((يا أمير المؤمنين، احتسب الصبر، وقدم الشكر، فقد أجزل الله لك الثواب في الحالين، وأعظم عليك المنّة في الحادّين، وسلبك خليفة الله، وأفادك خلافة الله، فسلمّ فيما سلبك، واشكّر فيما منحك، وتجاوز الله عن أمير المؤمنين، وخار لك فيما ملكت من أمر الدنيا والدين))^(٢).

تتمتع شبه جملة الجار والمجرور بالمرونة وسهولة التحرك، مما يكثر به تقديمها على مرتبتها الأصلية؛ لإفادة معنى زائد عن المعنى الحاصل بالترتيب المثالي؛ ذلك أنّ كلّ تغيير في النظام التركيبي في الجملة لا بدّ أن يتبعه تغيير مقصود في المعنى^(٣).

وقد عدلت الأعرابية في هذا الشاهد عن أصل التركيب (أجزل الله الثواب لك في الحالين، وأعظم المنّة عليك في الحادّين)؛ لتفيد معنى التخصيص والقصر، ولكأنّ الثواب لم يُجزل إلا للمنصور، ولكأنّ المنّة لم تعظم إلا عليه، كما لا يخلو هذا التقديم من تقدير الخليفة ومراعاة عظم منزلته، إذ تلا ذكره ذكر الله جلّ في علاه^(٤).

وبوجوه التقديم البنائي السالفة فإنّما تتضح أهمية الخاصية الإعرابية في اللغة وأثرها في تحديد الدلالة، فاللغة العربية لغةٌ مُعربةٌ ولها من المرونة وإمكانات التصرف ما لها، ولا سيما في مجال التقديم والتأخير.

إنّ ما سبق كافٍ في الدلالة على أنّ العدول عن أصل التركيب النحوي ليس مجرد خرقٍ زائدٍ عن الحاجة، أو انتهاكٍ طائشٍ لحُرمة القاعدة النحويّة، بل هو استراتيجية حجاجية مقصودة؛ فكلُّ ترتيبٍ ينطوي على قصد معين يتجاوز به المتكلم مجرد النظم الذي تقتضيه القاعدة النحوية،

(١) ينظر: البحث البلاغي عند ابن تيمية رحمه الله: دراسة وتقويمًا، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٥٣. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٣٠٢. وج ٢، ص ٤٥١. وج ٣، ص ٨٤.

(٣) ينظر: التفاضل في القرآن الكريم: دراسة أسلوبية، لولوة بنت عبد الرحمن العويس، ط ١، ص ١٧٠ (نادي القصيم الأدبي، بريدة، ١٤٣٨هـ).

(٤) ينظر: خصائص التراكيب، مرجع سابق، ص ٣١٣. ومعاني النحو، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٠٩.

إلى النظم على طريقة مخصوصة وفق ما يستدعيه المقام وتتطلبه الحال.

وفي حين وقف الباحث على هذه الجملة من وجوه التقديم والتأخير (البنائي)، فإنه لا يمكن له تجاوز نوع من التقديم والتأخير تكرر وروده في المدونة بما يستلزم التتبع والتأمل، ألا وهو التقديم (المعنوي)؛ الذي يظهر من خلال تقديم بعض الألفاظ المتتالية المتفككة إعرابياً على بعضها الآخر^(١)، على هيئة تقديم السارق على السارقة في قول الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(٢)؛ فقد قدم الله تعالى الرجل على المرأة لأنه أجرأ على السرقة من المرأة؛ فالسرقة تحتاج إلى ما ليس لدى المرأة غالباً من قوة الجسم والحاجة إلى المال^(٣).

وإن لم يكن هذا الوجه من التقديم معدوداً في العدول عن أصل التركيب، إلا أنه يعدُّ عدولاً إقناعياً مقصوداً؛ من جهة تفضيل المتكلم لترتيب معين وعدوله عن الترتيب المعهود، وإذا كانت المعمولات لا تترتب جزافاً، فإنَّ الدرس الحجاجي معنيٌّ يبحث سبب مخالفة المعهود؛ بتقديم معمولٍ على أخيه^(٤).

ولعل من أوفى أمثلة هذا النوع من التقديم والتأخير في المدونة، التقديم الوارد في قول الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ في إحدى مواعظه: ((الناس ثلاثة: مؤمن، وكافر، ومنافق؛ فأما المؤمن: فقد أجمه الخوف وقومه ذكر العرض. وأما الكافر: فقد قمعه السيف وشرده الخوف، فأذعن بالجزية وسمح بالضريبة. وأما المنافق: ففي الحُجرات والطُرقات، يُسرون غير ما يعلنون، ويضمرون غير ما يُظهرون))^(٥).

فبتتبع هذه المعدودات الثلاثة، يجد المتتبع أنَّ التَّفَاق وسطٌ بين الإيمان والكفر، إلا أنَّ الحسن

(١) ينظر: البحث البلاغي عند ابن تيمية رحمه الله: دراسة وتقويمًا، مرجع سابق، ص ١٤٣.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ٣٨.

(٣) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٤٤٤، ٤٤٧. والعدول في البنية التركيبية: قراءة في التراث البلاغي، إبراهيم بن منصور التركي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، المجلد ١٩، العدد ٤٠، ص ٥٤٧ (ربيع الأول ١٤٢٨هـ).

(٤) ينظر: نتائج الفكر في النحو، عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، ط ١، ص ٢٠٩ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ).

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٤٨٧. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ١٥١. وج ٢، ص ١٨٦. وج ٣، ص ١٨٥.

رَحِمَهُ اللهُ قَدْ عَمِدَ إِلَى تَقْدِيمِ الْكُفْرِ عَلَى النِّفَاقِ؛ لِاتِّفَاقِ الْإِيمَانِ مَعَ الْكُفْرِ مِنْ جِهَةِ الصَّرَاحَةِ وَالظُّهُورِ، وَأَخَّرَ النِّفَاقَ؛ لِاخْتِلَافِهِ عَنْهُمَا مِنْ جِهَةِ التَّبَاسُهِ وَخَفَائِهِ. وَبِذَلِكَ فَإِنَّهُ يُمْكِنُ الْقَوْلُ بِأَنَّ مَغْزَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ يَتَجَاوَزُ أَمْرَ إِبْرَازِ الْفَائِدَةِ إِلَى تَمْيِيزِ الْمَعَانِي الْمَخْتَلِفَةِ تَمْيِيزًا دَقِيقًا يَحْفَظُ لَهَا خُصُوصِيَّتَهَا وَاخْتِلَافَهَا، فِي حِينِ يَفُوتُ جَرِيَانَهَا عَلَى الْأَصْلِ هَذِهِ الدَّقَّةُ فِي التَّحْدِيدِ وَالْفَصْلِ^(١). وَيَحْمِلُ هَذَا الْعَدُولُ-أَيْضًا-مَعْنَى تَرْسِيخِ صِفَةِ الْمُنَافِقِ؛ ذَلِكَ أَنَّ التَّأخِيرَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ تَفْصِيلُ هَذَا الصَّنْفِ هُوَ آخِرُ مَا يَقَعُ فِي أُذُنِ الْمُتَلَقِّي مِنَ الْخُطْبَةِ: (وَأَمَّا الْمُنَافِقُ: فَفِي الْحُجْرَاتِ وَالطَّرِيقَاتِ، يُسِرُّونَ غَيْرَ مَا يَعلَنُونَ، وَيُضْمِرُونَ غَيْرَ مَا يُظْهِرُونَ).

وَإِنَّ لَمْ يُحِطِ الْبَاحِثُ بِجَمِيعِ وَجُوهِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ فِي الْمَدُونَةِ، فَإِنَّ فِيهَا سَبْقَ مِنْ اسْتِشْهَادِ وَتَنَاوُلِ كَشْفًا لِحُضُورِ هَذَا الْأَسْلُوبِ وَبَيَانًا لِمُدَى حِجَاجِيَّتِهِ؛ مِنْ حَيْثُ تَلْبِيَّتُهُ لِاحْتِيَاجَاتِ الْفِكْرَةِ وَوَضْعُهَا فِي مَوْضِعِ الْإِهْتِمَامِ وَالِاخْتِصَاصِ، فَاخْتِيَارِ الْخُطِيبِ تَقْدِيمَ عُنْصُرٍ عَلَى آخِرٍ لِأَبَدِّ أَنْ يَحْمَلَ فِي طَيَّاتِهِ هَدَفًا إِقْنَاعِيًّا مَقْصُودًا لِدَاتِهِ، كَمَا يُعَدُّ هَذَا الْأَسْلُوبُ آيَةً مِنْ آيَاتِ الْخُطْبَةِ الْمَعِينَةِ عَلَى التَّرْكِيزِ وَالتَّكْثِيفِ، إِذْ يُمْكِنُ بِهِ زِيَادَةُ الْمَعْنَى دُونَ الْحَاجَةِ إِلَى التَّوَسُّعِ فِي الْقَوْلِ.

وَإِذَا كَانَ الْبَاحِثُ قَدْ تَنَاوَلَ أُسْلُوبَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ بِاعْتِبَارِهِ عَدُولًا يَتَأَسَّسُ عَلَى تَغْيِيرِ أَصْلِ بَنِيَةِ الْجُمْلَةِ، فَإِنَّ هُنَالِكَ عَدُولًا بِنَائِيًّا آخَرَ، تَنَاوَلَهُ عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ فِي بَابِ (الْمَعَانِي)، كَمَا لَمْ يَغْفَلَ عَنْهُ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ، وَهُوَ الْعَدُولُ عَنِ الذِّكْرِ إِلَى الْحَذْفِ.

(١) ينظر: عندما نتواصل نغير، مرجع سابق، ص ٧٥.

٤- الحذف:

وأصل الحذف: «إسقاط كلمة للاجتزاء عنها؛ بدلالة غيرها من الحال، أو فحوى الكلام»^(١)، فهو إجراءٌ بنائي نسقيٌّ ظاهر، يُدرك من خلال النقص الناتج عن اكتفاء التركيب عن عنصرٍ من عناصره الأصلية^(٢).

وكثيراً ما يُخالف الأصل بالعدول عن الذِّكر؛ بغرض التّركيز والتّكثيف والإثارة وزيادة فاعلية الاندماج بين طرفي عملية التخاطب؛ وذلك بإشراك المتلقي والاعتداد بحضوره وتفعيل دوره في إنتاج الخطاب، من خلال تحريكه إلى الاستعانة بالقرائن السياقية والمقامية المصاحبة؛ لإكمال النقص وسدّ الفجوة^(٣).

ولئن كان الحذف في ظاهره نقصاً إلا إنّه من حيث طاقته الإقناعية يُعدُّ عنصراً بنائياً أساساً، أو وجهاً من أوجه البناء؛ إذ تتحوّل ثغرات الحذف إلى لغة حجاجية ثانية لا تُفصح عن كلّ شيء، بل تدعو المتلقين إلى المشاركة بالمساءلة والتأويل للوصول إلى المعنى المقصود، إنّه: بنية تقوم على تقنية الخفاء المُعينة على الإقناع؛ من جهة شدّ انتباه المتلقين وتحريكهم وتفعيل دورهم في إنتاج المعاني واكتشافها^(٤).

وليس الحذف أسلوباً يسيراً أو عفويّاً؛ إذ يُشكّل مظهرًا من مظاهر القوّة الحجاجية في اللغة العربية^(٥)؛ ذلك لما يستدعيه من خبرة وتقدير ومراعاة لحال جمهور المتلقين، ولو نظرت في القرآن الكريم- مثلاً- فإنّك ستجد الله تعالى وتبارك- كما يقول الجاحظ- «إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مُخرَج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً، وزاد في الكلام»^(٦).

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٢) ينظر: مقاربات سردية، علي عبّيد، ط ١، ص ٩٩ (نادي الباحة الأدبي، الباحة، ٢٠١٤م).

(٣) ينظر: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، طاهر سليمان حمودة، ط ٢، ص ٤ (الدار الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٨م).

(٤) ينظر: لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطايي، ط ١، ص ٩٥ (المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١م). وبلاغة الخطاب الإقناعي: نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، مرجع سابق، ص ٢٣٣-٢٣٤.

(٥) ينظر: الخصائص، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٦٠.

(٦) الحيوان، مرجع سابق، ج ١، ص ٩٤.

وبما سبق فإنه يُفهم سرّ ذهاب الشيخ عبد القاهر إلى أنّ الحذف «باب دقيق المسلك، لطيف المآخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتحدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بياناً إذا لم تُبَيِّن»^(١).

ولعلّ من أهمّ مظاهر المدوّنة التي يُمكن إدراجها في هذا المطلب: حذف الفاعل ببناء الفعل للمجهول، إذ وقف الباحث على مواضع عديدة تُثبت ظاهرتَه وأهميته، نحو قول علي رضي الله عنه في التّشريب على المتراخين من أنصاره: ((ما أنتم بركب يُصَال بكم، ولا ذي عزٍّ يُعْتَصَم إليه، لعمر الله لبئس حشاش الحرب^(٢) أنتم، إنكم تُكادون ولا تُكيدون، وتُنقص أطرافكم ولا تتحاشون))^(٣).

يُعدّ العدول عن بناء الفعل للمعلوم إلى بنائه للمجهول إحدى استراتيجيات التعيين (التبئير) المُهمّة في الحجاج؛ ذلك أنّ الفاعل لا يُترك للجهل به، بل لأنّ العناية تقتضي تعزيز حضور الفعل؛ مضاعفة في الدلالة عليه والإحالة إليه؛ لكونه العنصر الأساس المقصود بالقول^(٤)، ومن نظر في هذا الشاهد، فإنه سيجد أنّ عليّاً رضي الله عنه قد قصد ببناء الفعل للمجهول الإمعان في التركيز على الفعل، وفرض الاستشكال فيه، بغض النظر عن تلبّس الفاعل بالفعل؛ ذلك أنّ التّشريب يقتضي تعيين المقصود؛ للوقوف عليه تحديداً، والتّفكّر فيه خصوصاً^(٥).

ولا يخلو بناء الفعل للمجهول-أيضاً-من أغراضٍ معنوية أخرى، من قبيل التحقير والتوبيخ، وهي معانٍ مقصودة في هذا الشاهد، إذ إنّ في إعراضه رضي الله عنه عن الفاعلين في الفعلين: (تُكادون، تُنقص) توبيخاً بيّناً للمتلقين وتضعيفاً ظاهراً لهم؛ من حيث تلقائية وقوع الفعلين عليهم وسرعة

(١) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ١٤٦.

(٢) حشّ الحرب يحشّها حشّاً: أشعلها وهيّجها، وهو مجاز تشبيهاً بالنار. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٧، ص ١٥٢.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٤٢٠. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٢٦٩. وج ٢، ص ٢٥٠. وج ٣، ص ١٠٧.

(٤) ينظر: المحتسب في تبين شواذ القراءات والإيضاح عنها، عثمان بن جني، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٨٤. والمبني للمجهول بين اختزال البنية واسترسال المعنى، دليّة مزور، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد ٥، ص ٤ (جوان ٢٠٠٩م).

(٥) ينظر: البلاغة العربية قراءة أخرى، ص ٢٤٥.

انهزامهم، ويُسر أمرهم على كلِّ من شاء أن يكيدهم أو ينتقصهم، كما لا يخلو الإعلان: (يُصال، يُعتصم) من معنى التوبيخ والتحقير؛ ذلك من جهة تعذُّر وجود مَنْ قد يثق بهم، فيصول بهم أو يعتصم إليهم^(١).

وإلى تلك المعاني فإنَّ تكرار الفعل المبني للمجهول أربع مرات في هذا الجزء اليسير من الخطبة يحمل دلالات وإيحاءات معبّرة عن الجوّ النفس السّلي الذي استولى على عليّ رضي الله عنه جراء طول مناكفة أنصاره وعصيانهم له، فقد ضاقت نفسه بحيث لم يحتمل مقامه التوسّع بذكر الفاعلين^(٢).

ومن وجوه حذف المدوّنة القريبة من الوجه السابق: حذف المفعول به، فقد تردّد هذا الوجه في عدد من الخطب، من قبيل قول الحجاج في إحدى خطبه في البصرة: ((إني أنذر ثم لا أنظر، وأحذر ثم لا أعذر، وأتوعد ثم لا أعفو))^(٣).

يعدل الحجاج إلى حذف المفعول به حين يرى أنّ الفعل أمسّ صلةً بالأطروحة من مفعوله، وأنَّ الغاية الحجاجية تكتمل بذكر الفعل وحده وإثباته لفاعله، وقد اكتفى الحجاج بن يوسف في هذا الشاهد بالأفعال عن المفاعيل، لأنَّ غايته تتحقّق بتأكيد حصول الفعل منه، بعيداً عمّن يحلّ به هذا الفعل أو يقع عليه^(٤).

وفي حذف المفعول أيضاً، دلالة على معنى الشمول والإطلاق؛ فقد عُيِّت المفاعيل لئلاً يُفهم اقتصار الأفعال على مفعولٍ بهم بعينهم؛ فهي أفعال تطال الجميع وتقع عليهم بلا استثناء، ذلك إلى ما في هذا التواتر الحذقيّ من مضاعفة للمعنى الحجاجي؛ بفعل ما ينتج عن موالات الأفعال وتتابعها من ضغط وتوتر^(٥).

(١) ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، مرجع سابق، ج٢، ص١٣٥-١٣٦، ٢٤٥. وخصائص التراكب، مرجع سابق، ص١٧٨. والحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، مرجع سابق، ص٢٣١.

(٢) ينظر: الإعجاز الصربي في القرآن الكريم، ص٢٣٠-٢٣١.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٢٩٢. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج١، ص٣١٦. وج٢، ص١٨٣. وج٣، ص٢٠٢.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص١٥٣، ١٦١. وتفسير الكشاف، مرجع سابق، ص٧٩٧.

(٥) ينظر: إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: أحمد صقر، ط٣، ص٢٦٢ (دار المعارف بمصر،

القاهرة، ١٩٧١م). ودلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص١٥٤. وأساليب بلاغية: الفصاحة-البلاغة-المعاني، أحمد

مطلوب، ط١، ص١٦٧ (دار غريب للطباعة، القاهرة، ١٩٨٠م).

وُمَثِّلُ حذف المبتدأ صورة من صور الحذف في المدونة، إذ وقف الباحث على جملة من شواهد، نحو قول أحد فقراء الأعراب بين يدي عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ((رجلٌ من أهل البادية، ساقته إليك الحاجة، وبلغت به الغاية، والله سائلك عن مقامي غدًا))^(١).

فحيث إنَّ مقام الطلب والاستعطاف مقامٌ ذلٌّ وخضوع وضعف يمنع من عزِّ الانتساب وشرفه، ولأنَّ مقام الفقير بين يدي المانح مقامٌ ضيقٍ وتضجّر وتوتّر يحوّل دون الإطالة ويحفّز على شدّة تركيز الصياغة، فقد عدل هذا الأعرابي عن الأصل: (أنا رجل من أهل البادية) إلى الحذف: (رجل من أهل البادية)؛ ليكون الأسلوب أشبه بحاله؛ حيث إنّه قد خنقه الفقر وغلبه وضيق عليه صدره حتى أشغله عن البسط والتعريف التامّ بنفسه والإحالة عليها^(٢).

وإلى تلك المعاني، فإنَّ في العدول إلى الحذف ضغطاً وتعييناً لا يوجد في الذكر؛ ذلك:

١- بفعل ما حصل عن الحذف من تحديد توجيه عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نحو الفكرة المقصودة (الحاجة الماسّة)؛ بعيداً عن شغل ذهنه بالتسمية والنسب.

٢- وبفعل اللفت والتنبيه الناتجين عن مجاوزة المؤلف، ومخالفة أفق الانتظار^(٣).

ويكشّف هذا الحذف أيضاً معنى قصد الأعرابي ورغبته في أن يُلغى عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذكره من نفسه ويتحاشاه فينساه ولا يخطر على باله؛ ذلك أنك- كما يقول الشيخ عبد القاهر- «تري نضبة الكلام وهيئته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ، وتباعده عن وهمك، وتجتهد ألا يدور في خلدك، ولا يعرض لحاطرك، وتراك كأنك تتوقّاه توقّي الشّيء تكره مكانه، والثقيل تخشى هجومه»^(٤)، وأيُّ إنسان شريف يرضى أن يبقى اسمه مرتبطاً بهذا الموقف الحرج، أو يُقرن ذكره بهذه الحال البائسة.

ولعلَّ فيما سبق من شواهد واستقراء كفاية في الدلالة على الصلة الوثيقة بين الحذف (البنائي) والمقام الحجاجي؛ ذلك أنه ناتجٌ عمّا يُعايشه الخطيب من شعورٍ دافعٍ إلى الإعراض عن

(١) جمهرة خطب العرب، ج٣، ص٢٦٠. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج١، ص١٦٩. ج٢، ص٣٧١. وج٣، ص٢٧.

(٢) ينظر: خصائص التراكيب، مرجع سابق، ص١٥٤، ١٦٤، ١٧٥.

(٣) ينظر: السابق، ص١٦٦.

(٤) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص١٥١.

ذكر بعض أجزاء الجملة؛ رجاء أن يُعمل المتلقي عقله في سبيل الوقوف على كنه هذا الحذف ومعرفة سببه، واستشعار علته.

وقد وقف الباحث- في المدونة- على نوع من الحذف ليس من قبيل الحذف (البنائي)، وإنما هو من قبيل الحذف (المعنوي) الذي يُفصح عنه المعنى ولا يتأثر به التركيب، كأن يقول المُحاج: (إذا أمرتكم بأمر قلتم: كيت وكيت)، أو يقول: (ولست بحاجة إلى ذكر ما سلف من أمركم)، أو غير ذلك من الإشارات اللغوية التي يُفيد معناها الحذف والسّتر.

ومن هذا النوع في المدونة، قول مؤسس دولة الموحدين (ابن تومرت) في خطبته عندما أراد أن يستخلف على الناس من يتولى أمرهم من بعده: ((ثم إنَّ الله سبحانه- له الحمد- منَّ عليكم أيها الطائفة بتأييده، وخصَّكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده، وقَيَّض لكم من ألقام ضلَّالاً لا تهتدون، وعمياً لا تبصرون، لا تعرفون معروفاً، ولا تنكرون منكراً، وقد فَشَّت فيكم البدع، واستهوتكم الأباطيل، وزين لكم الشيطان أضاليل وتُرَّهات، أنزَّهُ لساني عن النطق بها، وأرَبُّاً بلفظي عن ذكرها، فهداكم الله به بعد الضلالة، وبصرَّكم بعد العمى، وجمعكم بعد الفرقة، وأعزكم بعد الذلة))^(١).

إنَّ كان الباطل يموت بالسكوت عنه، فإنَّ ابن تومرت قد رامَّ بتنزيه لسانه والتَّرَفَع عن النطق بتلك الأضاليل والترَّهات: إِمَاتَتَهَا وتَحْقِيرَهَا، فهي أعمال خسيصة خاسرة لا تستحق شرف الذكر وفضيلة الإطراء، ولئن كان المتلقون قد تجاوزوا هذه الأعمال المنكرة، فإنَّ من غير الحكمة اجترارها وطول الوقوف عليها، وتفصيلها، وتعبير المتلقين بها، وإنما الحكمة في سترها وتجاوزها والصفح عنها، وإحياء وذكر ما تحيا به النفوس من أمور المعروف.

وإلى ذلك فإنَّ تحفُّظ الخطيب عن تسمية تلك الأضاليل والترَّهات يُشكِّل ضرباً من الإيجاز المكتفى به عن ذكر التفاصيل الثانوية، فليس المقام مقام تنبيه على هذه الأشياء أو امتداح لها، وليس الأهمُّ هو ما حدث، بل إنَّ الأهمُّ هو المأمول أن يحدث، ولعلَّ من نافلة الحديث، القول بأنَّ الإفراط في تفصيل ما هو ثانويّ يقود إلى التَّفْرِيط فيما هو أساسيٌّ وما هو وثيق الصلة بالأطروحة وبنيتها المقصودة.

(١) جمهرة خطب العرب، ج٣، ص١٨١. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج١، ص٤٢٥. وج٢، ص٤٣٩. وج٣، ص٣٤٦.

وبما سلف فإنه يظهر جلياً أثر الحذف في التركيز على المقصود، وشدّ عقول المتلقين وإثارتهم وإشراكهم في إنتاج المعنى الحجاجي، وما من شكّ في أنّ إدراك الطّلبة والعثور على العلة مستدعٍ لثبات الفكرة ورسوخها في الذهن وتمكنها من النفس.

وإنّ كان العدول إلى الأساليب السالفة يعدُّ في جانبه لوناً من ألوان المفاوطة والمغايرة، فإنّه يمكن التحوُّل إلى دراسة أسلوب (الالتفات)، بصفته أبرز ألوان المفاوطة في مستوى التركيب.

٥- الالتفات:

وهو عدول عن طريق في الكلام إلى طريق آخر؛ كأن يتحوّل المتكلم من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية، أو من الماضي إلى المضارع، أو من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب، أو من الجمع إلى المفرد، أو من معنى إلى معنى آخر، ونحو ذلك مما يصعبُ ضبطه والإحاطة به^(١).

ويعدُّ الالتفات آليّةً من آليات الإقناع؛ إذ يُمثّل حضوره استجابةً لفعلٍ داخليٍّ يرغب المتكلم في نقله إلى المتلقي، مما يبرز القول بأنَّ كلّ التفاتٍ في الخطاب الحجاجي لا بدَّ أن ينطوي على معنى إقناعيٍّ يقصده منشئ الخطاب الحجاجي ويُحيل إليه^(٢).

وإلى ذلك فإنَّ الالتفات يُشكّل مقياسًا من المقاييس الدقيقة التي يُعرف بها تفوّق المتكلم وقدرته؛ لذا فهو معدودٌ في (شجاعة العربية)؛ من جهة «أنَّ الشجاعة هي الإقدام، وذاك أنَّ الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورّد ما لا يتورّد سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام»^(٣).

وإذ تقرر في تعريف الالتفات تنوّعه واختلاف مظاهره، فإنَّ الباحث سيقف على ما رآه في المدونة من أهم مظاهر الالتفات؛ محاولاً تلمّس القيمة الإقناعية وأثرها على معنى الشاهد، ومما وقف الباحث عليه من تلك المظاهر: الالتفات في مستوى الاسمية والفعلية؛ بأن يتحوّل الخطيب من الاسمية إلى الفعلية أو من الفعلية إلى الاسمية، نحو قول هاشم بن عبد مناف في خطبته عندما تنافرت (قريش) و(خزاعة): ((أيها الناس: الحلم شرف، والصبر ظفر، والمعروف كنز، والجود سؤدد، والجهل سفه، والأيام دول، والدهر غير، والمرء منسوب إلى فعله، ومأخوذ بعمله، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد، ودعوا الفضول تُجانبكم السفهاء، وأكرموا المجلس يعمُر

(١) البديع في البديع، عبد الله بن المعتز، إغناطيوس كراتشكوفسكي، ط ٣، ص ٥٨ (دار المسيرة، بيروت، ١٤٠٢هـ).
والحجاج في كلام الإمام الحسين، عايد جدوع حنون، ط ١، ص ١٦١ (مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية، النجف، ١٤٣٨هـ).

(٢) ينظر: جماليات الالتفات، عز الدين إسماعيل، ضمن كتاب: قراءة جديدة لتراثنا النقدي، ندوة تمام حسان وآخرين، ج ٢، ص ٨٨٩ (نادي جدة الأدبي، جدة، ١٤١٠هـ).

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٦٨.

ناديكم، وحاموا الخليط^(١) يُرغب في جواركم، وأنصفوا من أنفسكم يُوثق بكم، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة، وإياكم والأخلاق الدنية فإنها تضع الشرف وتهدم المجد^(٢).

إذا كانت القواعد الكليّة تُثبت بالاسمية، فإنّ الخطيب قد عمّد إلى البدء بتلك الجمل الاسمية المتوالية إثباتاً وتقريباً لعددٍ من الكليّات، ثمّ إنّه عدل عن الاسمية إلى الفعلية، وذلك على سبيل التحوّل من التنظير إلى التطبيق؛ عملاً بتلك الكليّات المُقرّرة وسيراً على مقتضاها وإتماماً لها، وبذلك فإنّ هذا الالتفات يكون قد ساعد الخطيب على الانتقال السلس من معنى التقرير والإملاء والجمود إلى معنى التفاعل والتحفيز والتحرّك.

وإلى هذا التعليل، فإنّ في التحوّل من الاسمية إلى الفعلية إيقاظاً وتببيهاً لا يوجد في مجيء القول بالاسمية فقط؛ مما يجعل الالتفات والمغايرة بين الاسمية والفعلية «أدخل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأملأ باستدرار إصغائه»^(٣).

إنّ العدول عن الاسمية إلى الفعلية، وعن الفعلية إلى الاسمية، ليس ترفاً كلامياً أو تلاعباً أسلوبياً أو انحرافاً فارغاً، بل هو عدول مقصود لذاته، واختيار واعٍ يمنح الخطاب دفقة دلالية مكثّفة، تزيد المتلقي انشداداً للمعنى المقصود وتجعله أكثر ارتباطاً به^(٤).

ومن مظاهر الالتفات في المدونة، التحوّل في مستوى الزمن؛ بالانتقال عن فعلٍ من الأفعال الثلاثة (الماضي، المضارع، الأمر) إلى فعلٍ آخر، كأنّ يتحوّل المتكلم من الماضي إلى المضارع، أو من المضارع إلى الماضي، وهكذا^(٥)، ومن أمثله في المدونة، ما ورد في استعطاف الكميّ بن زيد الأُسدي لهشام بن عبد الملك، حيث كان مما قال: ((أما بعد: فإنّي كنت أتهدى^(٦) في غمرة^(٧)،

(١) الخليط: أبناء العمومة والقوم الذين أمرهم واحد مجتمع، ويُطلق أيضاً على الشريك، وشتى القبائل التي تجتمع أيام الكلاء في مكان واحد. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٩، ص ٢٥٩، ٢٦١.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٧٥. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٢٨٠. ج ٢، ص ٣٠١. ج ٣، ص ١٢٠.

(٣) مفتاح العلوم، مرجع سابق، ص ١٩٩.

(٤) ينظر: أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، مرجع سابق، ص ١٩٠.

(٥) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٧٩-١٨١.

(٦) دَهْدَة الحجر: دحرجه من فوق إلى تحت فتدحرج. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٦، ص ٣٧٩.

(٧) غمرة الشيء: شدته ومزدهمه. ينظر: السابق، ج ١٣، ص ٢٦١.

وأعوم في بحر غواية، أخنى^(١) علي خطلها، واستنقزني^(٢) وهلها^(٣)، فتحيّرت في الضلالة، وتسكّعت^(٤) في الجهالة، مُهرعاً^(٥) عن الحقّ، جائراً عن القصد، أقول الباطل ضلالاً، وأفوه بالبهتان وبالآل^(٦).

يُمثّل الاعتراف الصريح بالذنب مقدّمة مهمّة من مقدّمات العفو ومقتضى رئيساً من مقتضيات الصّح، وهو ما قصده الخطيب في عدوله عن الماضي إلى المضارع؛ فعلى الرّغم من مُضَيّ الأحداث وسبقها، إلّا أنّ الخطيب قد جنح إلى روايتها بلفظ المضارع في أكثر من موضع؛ مُبالغة منه في الوضوح، وتناهيًا في الاعتراف بالذنب، واستغراباً من جرأة نفسه على هذه الأفعال؛ ذلك أنّه متى كان في الفعل الماضي نوعٌ تمييز وخصوصية- كحالٍ تُستغرب أو تُهمُّ المخاطب- فإنّ من البلاغة الإخبار عنه بالمضارع^(٧).

وينطوي هذا العدول-أيضاً-على معنى الوضوح في تصوير الكُميت لحاله تلك الفترة؛ ذلك أنّ «الفعل المضارع إذا أُتي به في حالة الإخبار عن وجود، كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي؛ وذلك لأنّ الفعل المضارع يوضّح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة حتى كأنّ السامع يسمعها ويشاهدها، وليس ذلك في الفعل الماضي»^(٨).

وتُحيل هذه المخالفة بين أزمان الفعل، إلى القول بصلاحيّة خرق مطابقة الاتجاه الزمني لمحكيّ القول؛ وذلك من خلال التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل أو الحاضر، والتعبير عن المستقبل أو الحاضر بلفظ الماضي، وهكذا، على أنّ ينطوي هذا الخرق على أهداف ومقاصد حجاجية يمكن

(١) أخنى عليّ خطلها: طال علي خطلها وامتدّ. ينظر: السابق، ج ٣٨، ص ٢٠.

(٢) استنقزّه: أخرجه من داره وأزعجه. ينظر: السابق، ج ١٥، ص ٢٧١.

(٣) وهلها: فرعها. ينظر: السابق، ج ٣١، ص ١٠١.

(٤) سكّع الرّجل: مشى على غير هدى. ينظر: السابق، ج ٢١، ص ٢٠٩.

(٥) الهرع: المشي في اضطراب وسرعة. ينظر: السابق، ج ٢٢، ص ٣٩١.

(٦) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٤٣١. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٣٦٢. ج ٢، ص ٩٠. ج ٣، ص ٢٦٤.

(٧) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٨٢.

(٨) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن القيم الجوزية، إشراف لجنة تحقيق التراث، ص ١٠٢ (دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت).

تلمّسها والوقوف عليها^(١).

ويُعدُّ العدول الواقع بين طرق الكلام الثلاثة: (التكلم، الغيبة، الخطاب)^(٢)، أحد أشهر أنواع الالتفات في الخطابات عامةً، وفي خطابات المدونة على وجه الخصوص، فكثيراً ما ينتقل الخطيب من طريقٍ إلى طريقٍ آخر من هذه الطرق الثلاثة، على شاكلة ما تراه في خطبة عمر رضي الله عنه حين وليّ الخلافة، حيث يقول: ((يأيها الناس: إنّي قد وُلّيت عليكم، ولولا رجاءُ أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم استضلاعاً^(٣) بما ينوب من مُهمّ أموركم، ما توليت ذلك منكم، ولكفّي عمر مُهمّاً مُحزناً انتظارُ موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها، ووضعها أين أضعها، وبالسير فيكم كيف أسير، فريّ المستعان، فإنّ عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله- عز وجل- برحمته وعونه وتأيدته))^(٤).

فلئن كان الأصل السياقي والظاهر المقامي يقتضي استمرار صيغة المتكلم (ولكفاني مهمّاً محزناً انتظارُ موافقة الحساب... فإنّي أصبحت لا أثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركني الله) فإنّ في مخالفة عمر رضي الله عنه لهذا المقتضى، وتجريده نفسه من أقلّ درجات الحضور، معنى إقناعياً مقصوداً يوجد في استيفاء هذا الالتفات لمعنى المبالغة في التواضع وتما الافتقار إلى الله صلى الله عليه وآله^(٥)، وهو معنى دقيق لا يوجد في صيغة المتكلم الموافقة لمقتضى الظاهر؛ ذلك أنّها صيغة لا تنفك على الاتصاف بالذاتية والاستقلال.

وفي هذا العدول-أيضاً- معنى شعوريّ نفسانيّ لطيف، ذلك أنّ في الانتقال من الحضور إلى الغيبة تقويةً للشعور بعظم اهتمامه رضي الله عنه لأمر الخلافة، وتخرجه من مغبتها وتبرمه منها، وضيق احتمالها لها، ولكأنما فارق رضي الله عنه نفسه من هول أمرها وثقل احتمالها، أو كأنها تركته-لثقلها-

(١) ينظر: بحث: جماليات الالتفات، مرجع سابق، ص ٩٠٣.

(٢) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٣) الاستضلاع من الضلاعة وهي البأس، تقول ضلّع الرجل فهو ضليع: أي قويّ شديد ذو بأس. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢١، ص ٤١٨.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢١٢. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٤٢٥. ج ٢، ص ١٧. ج ٣، ص ٢٦٠.

(٥) ينظر: تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص ٤٦٠.

حائراً ذاهلاً عمّاً يلزمه من مراعاة مقتضى ظاهر الحال، كما لا يخلو تحرّره رَضْوَعَهُ من الحضور من معنى تسليّة نفسه والتخفيف عنها؛ من جهة إحالة هذه التكاليف إلى شخصٍ خارجيّ، غير حاضرٍ في مستوى اللغة^(١).

وإلى ما سبق فإنّ في تشطّي الذات وانقسامها-إلى: (أنا) و(هو)-تسويغاً للمحاسبة، وفتحاً لباب الحوار الداخلي مع الذات؛ فهو رَضْوَعَهُ إنّما استلّ نفسه من نفسه؛ ليجعلها محلاً للنظر والمراجعة والمساءلة^(٢).

ومن صور الالتفات التي استعملها خطباء المدونة: العدول في مستوى الأفراد والجمع، من قبيل ما ورد في خطبة أحد الأعراب المستجدين، حيث يقول: ((يا قوم: تتابعت علينا سنون جماد^(٣) شداد، لم يكن للسماء فيها رجع^(٤)، ولا للأرض فيها صدع^(٥)، فنضب العُدُّ^(٦)، ونشفت الوشَلُ^(٧)، وأمحل الخصب، وكَلَحَ الجُدب، وشَفَّ المال، وكَسَفَ البال، وشَطَفَ المعاش، وذهب الرِّياش^(٨)، وطرحني الأيام إليكم غريب الدار، نائي المحلّ، ليس لي مال أرجع إليه ولا عشيرة أحمق بها، فرحم الله امرأ رجم اغترابي، وجعل المعروف جوأي))^(٩).

لمّا كان الالتفات طريقاً من الطرق الحجاجية التي تُضاعف التخصيص وتزيد الضغط على ذهن المتلقي وتلفت انتباهه تجاه المعنى المقصود، فإنّ في عدول هذا الأعرابي عن التّكلم بصيغة الجمع إلى التّكلم بصيغة المفرد مزيد تنبيه وإبرازٍ وتعيينٍ للفكرة الأساسية التي قام في الناس من

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، مرجع سابق، ص ٤٥. والحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص ٤٥٧.

(٢) ينظر: بحث: جماليات الالتفات، مرجع سابق، ص ٨٩٨.

(٣) سنة جامدة: لا نبت فيها ولا مطر. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٧، ص ٥١٨.

(٤) الرجوع: المطر. ينظر: السابق، ج ٢١، ص ٧٠.

(٥) الصّدع: النبات، سمي بذلك لأنه يصدعها أي يشقّها فتصدع. ينظر: السابق، ج ٢١، ص ٣٢٠.

(٦) العُدُّ: كلّ ما نبع من الأرض فهو عدّ. ينظر: السابق، ج ٨، ص ٣٥٤.

(٧) الوشَل: الماء القليل يستخرج من جبل أو صخرة. ينظر: السابق، ج ٣١، ص ٧٦.

(٨) الرِّياش: هو الأثاث من المتاع. ينظر: السابق، ج ١٧، ص ٢٢٩.

(٩) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٢٦٩. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ١٤٨. ج ٢، ص ٥٠٣. ج ٣، ص ١٧٤-١٧٥.

أجلها^(١)، كما أنّ فيه تخفيفاً عن المتلقين وإعفاءً لهم؛ فهو لا يسألهم لقومه كافةً وإنما يسألهم لنفسه فقط؛ على سبيل نقل الحكم من العام إلى الخاص، أو من الجماعة إلى المفرد.

ولئن كان البدء بصيغة الإفراد قد يفتح لمتلقي خطبة هذا الأعرابي مشروعياً الاعتراض بالقول: (ابدأ بعشيرتك الأقربين، فأنت أولى الناس بصدقتهم وركاتهم)، فإنّ في استفتاح الأعرابي لخطبته بصيغة الجمع قطعاً على كلّ من يذهب إلى ذلك؛ إذ إنّها نازلة عامّة وبلاء شاملٌ لم يسلم منه أحد من أهل بلده والمحيطين به.

ومن خلال هذا العرض اليسير لبعض صور الالتفات، فإنّه يتّضح أنّ الالتفات بمعناه العام-العدول عن صيغة إلى صيغة أو عن نسق إلى نسق-بابٌ متعدّد الوجوه، واسع الدلالة بحيث لا يمكن الإحاطة به أو التغاضي عنه، ولعلّ فيما وقف عليه البحث من الدلالات الخاصة-السياقية والمقامية-بكلّ التفات، نفيّاً لجميع الأقوال التي ترى اقتصار هذا الأسلوب على وظائفه العامة المنحصرة في التّطرية والتّنبية وكسر الرّتبة.

*** **

لقد حاول هذا المبحث الكشف عن الدور الإقناعي والأهمية التّأثيرية لعدد من التراكيب البلاغية، فتبين بالدراسة أنّ عدول الخطيب في مستوى التركيب البلاغي إنّما هو عدولٌ مقصودٌ محمّل بالوظائف الإقناعية التي تؤيّد الأطروحة وتقوي جانب الخطيب فيها، أو تُعين على تقبّل الأطروحة والتّسليم بما تتضمنه من رؤى وأفكار.

وفي حين اقتصر عدد من الدراسات على الجانب البنائي الصريح للتراكيب، فإنّ بعض مطالب هذا المبحث قد شملت-أيضاً-دراسة العدول المعنوي؛ بصفته انحرفاً أسلوبياً قصده إحداث مزيد من التّأثير والإقناع.

ولعلّ فيما اعتمد في هذا المبحث من مقولات تراثية بلاغية دلالة كافيةً على الاقتران الوثيق بين البلاغيتين: القديمة والجديدة؛ مما يؤكّد صعوبة الفصل بينهما، أو الاكتفاء بمعطيات إحداها عن معطيات الأخرى، بل إنّّه لا يبعد عن الصواب من يذهب إلى أنّ البلاغة الجديدة إنّما نشأت

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج٣، ص٤٢٨-٣٣٠. والحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص٤٥٩.

مكمّلة للبلاغة القديمة وفي خدمتها.

وبعد أن تناول البحث بعض الأساليب الحجاجية البلاغية البسيطة في تركيبها وتأليفها، فإنّه سيتحوّل إلى دراسة مستوى أكبر من الأساليب البلاغية، وذلك بدراسة الحجاج في مستوى (الصورة).

المبحث الثالث: في الصورة:

سيكون هذا المبحث مختصاً بدراسة حجاجية الصورة البلاغية^(١) التي تناولها علماء البلاغة العربية في مباحث علم البيان الثلاثة: (التشبيه) و(المجاز) و(الكناية)، مما يعني أنّ الدراسة الحجاجية للصورة تشمل: «كلّ ما يترتب عن التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية مقروءةً في ضوء الدراسات اللسانية الحديثة»^(٢)، وبذلك فإنّ الصورة الحجاجية شيء أساسيّ في البلاغة العربية، اهتمّ بها أوائلنا، وصنّفوا في أنواعها ومظاهرها.

وإذا كانت الصورة البلاغية متعددة في جوانبها وزوايا النظر إليها، فإنّ هذا المبحث سيكون مختصاً بدراسة وظيفتها الحجاجية والإقناعية، وذلك انطلاقاً من أنّ الكلام-حسب تصنيف الشيخ عبد القاهر- ضربان: ضربٌ مكتفٍ بالمعنى الظاهر (الصريح) للفظه، وضربٌ آخر لا تكتمل غايته إلا بما يحمله معناه الظاهر من معنى ضمني (مجازي)، كما عليه الحال في (التشبيه، والاستعارة، والكناية)؛ فإنّك لا تصل إلى معناها المقصود دون الاستدلال بمعناها الظاهر، فعلى سبيل المثال فإنّ قول أحدهم: (زيدٌ أسدٌ)، لا بدّ أن يحمل معنيين: **ظاهر** (زيد يشبه الأسد) و**ضمني** (زيدٌ شجاع)؛ وجهة الاستدلال في ذلك أنّ الأسد حيوانٌ شجاعٌ، ولا بدّ لتشبيهه أن يكون شجاعاً مثله^(٣).

وتُشكّل الصورة بهذا المعنى «استدلالاً بلاغياً مكثفاً»^(٤) يكشف قمّة التمازج بين: التخيل والإقناع؛ من جهة أنّ التخيل في الصورة يمثّل طريقاً من الطرق الإقناعية المدعّمة بالاستدلال. ولئن كان من الممكن الاكتفاء عن الصورة بقولٍ من الأقوال الصريحة ذات اللغة المعيارية، فإنّ الصورة البلاغية لا تعدو كونها عدولاً عن الأصل اللغوي المجرد إلى طريقٍ من الطرق المجازية الثلاثة^(٥)؛ مما جعل بعضهم يذهب إلى تعيين الصورة بأنّها: «الوحدة اللسانية التي تُشكّل

(١) وتُسمى أيضاً ب: (الصورة البيانية) و(الصورة المجازية). ينظر: حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي (خطب الإمام علي) أمّودجاً، علي عمران، ص ٧٢ (دار نينوى، دمشق، ٢٠٠٩م).

(٢) البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، مرجع سابق، ص ٢٠٤.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ١١٩.

(٤) البلاغة، ميشيل مايير، ترجمة: محمد أسيداه، ط ١، ص ٨٥ (دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠٢١م).

(٥) ينظر: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، مرجع سابق، ص ٢٣.

انزياحًا»^(١).

إنَّ الصورة البلاغية-على الرغم مما تحمله من سمات الإمتاع والتزيين-لا تنفك عن وظيفة التقريب والمواءمة التي تُقيم العلاقات بين الأشياء المتغايرة وَلَكَّأَنَّهَا عناصر متألّفة مترابطة؛ سعيًا إلى تحقيق النتيجة المقصودة، من حيث منطقيّة الفكرة ورسوخها في ذهن المتلقي، واستمالتها له وتأثيرها فيه، ذلك إلى ما يحصل بالتصوير من اللفت والشّد، وكسر الرتابة الناتج عن المرواحة بين درجات الكلام، الأمر الذي يجعل من المشروع دراسة جميع الصور دراسة إقناعية^(٢)، دون تكلف تقسيمها إلى صور حجاجية وصور زُخرفية^(٣).

وفرّق بين أن تُفصح الألفاظ المباشرة عن المعاني والمقاصد، وأن تُفصح عنها الصور، ذلك أنّ المعاني التي تفيض بها الصور: أغزر بيانًا وأوفى إبلاغًا وأمدُّ أثرًا؛ فحين تُحيل الألفاظ الصريحة (الدلالة الوضعية) إلى الإخبار الخالص بشجاعة أحدهم، فإنّ الدلالة الإحساسية التي تثيرها صورة الأسد ببطشه وإقدامه وبأسه أكد في الدلالة على الشجاعة والبأس والظَّفَر^(٤).

ومن الناحية المجازية للصورة، فقد شغَلَ الجانب الإقناعي للمجاز مساحة كبرى من اهتمام علمائنا الأوائل، فذهب ابن جني إلى أنّ المجاز «إمّا يقع ويُعدل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة، وهي: الاتّساع، والتّوكيد، والتّشبيه»^(٥)؛ فقول أحدهم عن فلانٍ إنّه بحرٌ، لا بدّ أن يتضمّن هذه المعاني الثلاثة؛ فالإتساع من جهة زيادة القائل اسمًا للممدوح ليس له من قبل، وأمّا التوكيد فإنّه ناشئ عن اقتران الطارئ بالأصل؛ ذلك أنّ المعنى الأصليّ معنّى لا يقبل الرّدّ أو الاعتراض؛ لتمكّنه من النفوس واتفاق الناس على حكمه، وإلى ذلك فإنّه لا يخفى المعنى التشبيهي الناتج بفعل دلالة

(١) البلاغة والأسلوبية: نموذج سيميائي لتحليل النص، هنريش لبيث، ترجمة: محمد العمري، ص ٦٦ (أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩٩م).

(٢) لا يعدُّ (بيرلمان) الصورة حجاجيةً إلا إذا استتبع تغييرًا في المنظور، وأمّا ما خلا ذلك فإنّ الصورة عنده مجرد زخرفة شكلية. ينظر: الإمبراطورية الخطّابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ٦٦.

(٣) ينظر: عندما نتواصل نغيّر، مرجع سابق، ص ١٢٢. والحجاج في كلام الإمام الحسين، مرجع سابق، ص ١٦٥. والإمبراطورية الخطّابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ٦٥-٦٦.

(٤) ينظر: المثل السائر، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٩. والتصوير البياني: دراسة تحليلية لمسائل البيان، محمد أبو موسى، ط ٣، ص ٧ (مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٣هـ). والاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، محمد الولي، ط ١، ص ٢٩ (دار الأمان، الرباط، ١٤٢٦هـ).

(٥) الخصائص، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٤٢.

هذا القول على اشتراك الطرفين في السعة والعظم^(١).

أمّا ابن الأثير، فإنّه قد رأى- في هذا السياق- أنّ المجاز «أولى بالاستعمال من الحقيقة في باب الفصاحة والبلاغة؛ لأنّه لو لم يكن كذلك لكانت الحقيقة- التي هي الأصل- أولى منه؛ حيث هو فرع عليها، وليس الأمر كذلك؛ لأنّه قد ثبت وتحقّق أنّ فائدة الكلام الخطابيّ هو إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير، حتى يكاد ينظر إليه عياناً...، وأعجب ما في العبارة المجازية أنّها تنقل السامع عن خُلُقهِ الطبيعي في بعض الأحوال؛ حتى ليسمخُ بها البخيل ويشجّع بها الجبان ويحكّم بها الطائش المتسرع، ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر»^(٢).

وقد خلص صاحب (الطراز) إلى أنّه متى ما عبّر المتكلم «عن المعنى باللفظ الدال على الحقيقة، حصل كمال العلم به من جميع وجوهه، وإذا عبر عنه بمجازه لم يُعرف على جهة الكمال، فيحصل مع المجاز تشوّق إلى تحصيل الكمال، فلا جرم كانت العبارة بالمجازات أقرب إلى تحسين الكلام وتلطيفه»^(٣).

ومتى ما تحققت تلك الأقوال عن الأسلاف، فإنّك لا تستغرب ما ذهب إليه ابن رشيق من أنّ «المجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع»^(٤)، كما أنّك ستفهم علّة ما تقرّر لدى بعض المحدثين، إذ ذهب أحدهم إلى أنّ «كلّ كلام مجازي حجاجي بطبيعته»^(٥)، في حين ذهب الآخر إلى أنّه «لا يمكن لأيّ نصّ أن ينجو من المجاز»^(٦).

وبما مضى، فإنّ الصورة البلاغية تُشكّل طريقاً لافتاً ومسلماً دقيقاً، يتجاوز معالم اللغة المثالية ويخرج عن حدود الواقع، فلا يتجلّى للمتلقّي كنهه إلا بعد التفكير وتحريك الخاطر والهمة في طلب

(١) ينظر: السابق، ج ٢، ص ٤٤٢-٤٤٣.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٨-٨٩.

(٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٢.

(٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٥، ج ١، ص ٢٦٦ (دار الجليل، بيروت، ١٤٠١هـ).

(٥) الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٥٧٨.

(٦) الاستعارة المرفوضة في الموروث البلاغي والنقدي، أحمد يوسف علي، ط ١، ص ١٠ (دار كنوز، عمان، ٢٠١٥م).

المعنى، وكلّما كانت الصورة أكثر خفاءً وألطف مناسبةً كان أثرها أنفع وأجدى^(١).

وإن كان العدول إلى الصورة البلاغية يُمثّلُ طرح إشكالٍ يستلزم الحلّ، فإنّه ليس للحلّ واحدٍ الإحاطةً بجميع إشكالات الصورة؛ ذلك أنّ الحلّ الواحد لا يحدّد سوى وجهٍ واحدٍ من وجوه القول، بينما تبقى الوجوه الأخرى متعلقة بإشكالات مُغايرة قابلة للطرح والتداول^(٢).

ومن حيث المشاركة الشعورية والتأثير الوجداني، فإنّ الصورة البلاغية تُعدُّ أحد الجسور المهمة في نقل دواخل المتكلم وكوامنه؛ ذلك أنّها طريقة دقيقة في التعبير عن الأهواء والانفعالات والمشاعر والميول، فالعلاقات التي ينشئها المتكلم بين الطارئ والأصل إنّما هي علاقات ذاتية يصوغها كلّ متكلم وفق نظريته وتجربته وظرفه، فهي أقرب إلى عالم الوجدان من عالم الواقع^(٣).

وإذا كان الخطيب مكلفاً بمحاربة الشتات والنسيان لدى المتلقين، فإنّ في استعمال الصورة البلاغية تكثيفاً للمعاني وترسيخاً لها لا يوجد في المعاني الصريحة الظاهرة، مما يبرّر القول بأنّ التصوير البلاغي عنصرٌ مهمٌّ من عناصر الخطبة الناجحة^(٤).

وفي حين تُمثّلُ الأساليب الثلاثة: (التشبيه) و(الاستعارة) و(الكناية) دعاوى مثبتة بالبيّنات والاستدلالات، وأصولاً كبيرة تدور عليها المعاني وتُحيط بها ويضمها محور المشابهة والمجازية والعدول^(٥)، وإذ تُشكّلُ هذه الأساليب ظواهر لافتة في المدونة، فإنّ هذا المبحث سيكون مختصاً بدراسة ما وقف عليه الباحث في المدونة من أهمّ أمثلتها، وليس الباحث بحاجة إلى تعليل البدء

(١) ينظر: أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص ٢٠، ١٣٩. وعندما نتواصل نغيّر، مرجع سابق، ص ٩٨.

(٢) ينظر: البلاغة، ميشيل ماير، مرجع سابق، ص ٦٥، ٨٣، ٨٦. ومبحث: البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، مرجع سابق، ص ٣٩٦.

(٣) ينظر: الشعر العربي المعاصر: قضايا وظواهره الفنية والمعنوية، عز الدين إسماعيل، ص ١٢٧ (دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت). ومبحث: البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، مرجع سابق، ص ٣٩٥.

(٤) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، مرجع سابق، ص ٢١٣. وحجاجية الحكمة في الشعر الجزائري الحديث، خديجة بوخشة، أطروحة دكتوراه، ص ١٣٩، جامعة وهران، الجزائر (٢٠١٣-٢٠١٤م).

(٥) ينظر: أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص ٢٧. ومفتاح العلوم، مرجع سابق، ص ٤٣٥. والإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: عبد القادر حسين، ص ٢٢٦ (مكتبة الآداب، ميدان الأوبرا، ١٤١٨هـ).

بدراسة (التشبيه)؛ ذلك أنه أصلٌ في بناء علاقة المشابهة، وأقرب الصور البلاغية إلى الحسن^(١).

١- التشبيه:

وهو: بيان وجود صفةٍ أو أكثر في المشبّه مُشَابِهَةً لِمَا يظهر في المشبّه به من صفاتٍ حسيّةٍ أو معنويّةٍ (عقليّة)^(٢)، ويمثّل التشبيه بهذا المعنى: مقارنة ومقايسة بين طرفين منفصلين متغايرين؛ بُغية الوقوف على ما بينهما من خصائص مشتركة تُثبت تشابههما مع مراعاة استقلاليتهما، الأمر الذي يُميّز التشبيه عن الاستعارة؛ إذ تتجاوز الاستعارة- كما سيأتي- حدود الواقع، فتلتغي الفواصل العملية بين الأشياء (أداة التشبيه+المشبّه+وجه الشبه)؛ إيهامًا بأنّ المستعار له قد أصبح هو المستعار منه عينه^(٣).

والمجازيّة في التشبيه ناشئة عن أنّ الطرفين «المتشابهين في أكثر الأشياء، إنّما يتشابهان بالمقاربة على المسامحة والاصطلاح، لا على الحقيقة»^(٤)؛ فمهما حصل بينهما من اشتراكٍ واتّفاق، فإنّه لا يمكن إلغاء الاختلاف الذي يُفرّقهما ويمنع اتحادهما.

ويُعَدُّ التشبيه أحد الأساليب المحببة للنفوس؛ ف«نزوع الأنفس إلى التشبيه هو إحدى فطرها التي فطرها الله عليها، مع قصور التعبيرات ذوات الدلالات المباشرة عن أداء المعاني المرادة أحيانًا كثيرة، ولهذا نجد التشبيه موجودًا لدى كل الأمم والشعوب، وفي كل لغات الناس، فصيحها وعاميتها»^(٥).

أمّا من حيث القيمة الحجاجية المباشرة، فإنّ التشبيه عملٌ إقناعيٌّ يتأسس على عقد العلاقة بين طارئٍ (المشبّه) محتلفٍ فيه وأصلٍ (المشبّه به) متّفقٍ عليه؛ فالمتلقون-على اختلافهم- يشتركون في الاعتراف بصفات المشبّه به وإثباتها له، فحين يشبّه المتكلم شيئًا بشيءٍ فإنّه إنّما يفترض ضمنيًا

(١) ينظر: الحجاج بين الدرس البلاغي العربي والدرس اللساني الغربي: دراسة تقابلية مقارنة، نور الدين بوزناشة، أطروحة دكتوراه، ص ٣٣٦، جامعة محمد لمين دباغين، الجزائر (٢٠١٥-٢٠١٦م).

(٢) ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، ط ٣، ص ١٧٢ (المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢م). والبلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٦١.

(٣) ينظر: أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص ٢٠. والصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، مرجع سابق، ص ١٧٢، ١٧٥.

(٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦٨.

(٥) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٦٥.

أنَّ المتلقين يؤيِّدون إسناد الصفة إلى المشبه به، ولا يُعارضونها أو يتردّدون فيها^(١).

وإلى ذلك، فإنَّ التشبيه أسلوبٌ عالٍ في كثافته، وطريقٌ من طرق المبالغة الرائجة، ووجه من وجوه الإيضاح المشهورة؛ يصيِّر الغائب كالحاضر المائل، والمتخيَّل كالمُعَايِن المتحقق، والبعيد كالقريب المحسوس؛ لذا فقد تكرر استعماله في القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى، وعرفه القدامى واستوعبوه وأكثروا من استعماله، حتى استحقَّ أن يُعدَّ أبرز أنواع التصوير^(٢).

وكثيراً ما يجد المتكلم نفسه بحاجة إلى التشبيه؛ من أجل تقويم بعض الأشياء عن طريق مقارنتها بأشياء أخرى تُجَلِّبها وتبيِّن خوافيها بشكلٍ واقعيٍّ مُبرهن، كما قد يضطرُّ المتكلم إلى التشبيه بفعل غرابة المشبه أو جهالة المتلقين به، أو نحو ذلك مما يستدعي وصله بالمشبه به الواضح والمعلوم، وهو (التشبيه) إلى كلِّ ما مضى: طريقٌ من الطُّرق الفاعلة في الترغيب أو التنفير؛ ذلك بفعل نتيجة اقتران المشبه بما يستقبحه المتلقون أو يستحسنونه^(٣).

وُحِقُّ مَنْ يذهب إلى أنَّ التشبيه يمثِّل أحد معالم المشاركة الوجدانية في الخطاب، من حيث إنَّ المتلقي يجد في نفسه-عند وقوع المشبه به في سمعه- حالةً شبيهةً بحالة المتكلم الذاتية التي نشأ بموجبها التشبيه، ففي حين يرى الجائع أنَّ البدر يشبه الرغيف في استدارته، فإنَّ الصَّبَّ يرى أنَّ البدر يشبه وجه محبوبته دقَّةً وسلامةً وجمالاً؛ مما يرر القول بأنَّ وظيفة التشبيه تتجاوز مجرد التوضيح والتقريب والتوكيد، إلى التأثير والتأثير المؤدِّي الإذعان والاستجابة^(٤).

(١) ينظر: التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية، مرجع سابق، ص ١١٥.

(٢) ينظر: الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: محمد أحمد الدالي، ط ٣، ج ٢، ص ١٠٣٧ (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٨هـ). والإنتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، مرجع سابق، ج ٤، ص ٤٥. وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، السيّد أحمد الهاشمي، تدقيق: يوسف الصميلي، ص ٢١٩ (المكتبة العصرية، بيروت، د. ت). وخصائص الأسلوب في الشوقيات، محمد الهادي الطرابلسي، ص ١٤٢ (منشورات الجامعة التونسية، تونس، ١٩٨١م).

(٣) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٢٣. ورسالة: البنية الحجاجية في شعر المتنبي: (السيفيات) أمودجاً-مقاربة تداولية، مرجع سابق، ص ٣٣-٣٤.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٩٨. والديوان في الأدب والنقد، عباس العقاد، وإبراهيم المازني، ص ٢٣-٢٤ (مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، هاي ستريت وندسور، ٢٠١٨م). وبلاغة الخطاب الهزلي، سليمان الطالي، ضمن كتاب: البلاغة وأنواع الخطاب، إشراف محمد مشبال، ط ١، ص ٢٥٩ (رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٧م).

وعلاوةً على ما ذكر، فإنَّه لا يخفى دور متلقي التشبيه، من جهة إنتاج الخطاب واستنباط الحجَّة، ذلك أنَّ كلَّ تشبيه يستدعي البحث في العلاقات الرابطة بين الأشياء، والمؤسَّسة لتقاربها، وفحصها ذهنياً ثم المصادقة على نتيجتها؛ باعتبارها نتيجة مدعَّمة بما يقوِّمها من الأدلة (علاقات التشابه)^(١).

وإنَّ كان الأصل في التشبيه اشتماله على أربعة أركان: (المشبَّه، والمشبَّه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه)، فإنَّ تشبيهات المدوَّنة كثيراً ما أتت متفاوتة من جهة التزامها بهذا الأصل، وذلك لاعتبارات حجاجية وإبلاغية مقصودة، وتأسيساً عليه فإنَّ الباحث سيدرس فيما يلي جميع الوجوه التركيبية لتشبيهات المدوَّنة؛ متحوِّلاً من البنية الأضعف إلى البنية الأقوى مرَّتبةً، آخذاً بعين الاعتبار الغرض من توظيف تركيبٍ بعينه؛ إذ قد يكون الذكر في بعض المقامات أقوى من الحذف إقناعاً^(٢).

وفي حين يمثِّلُ اشتمال التشبيه على (وجه الشبه) و(أداة التشبيه) أكمل تراكيب التشبيه، فإنَّ الباحث قد وقف على عدد من الشواهد التي تؤكد حضور هذا التركيب في المدونة وتبرر دراسته، ومنها قول زياد ابن أبيه في الناس لَمَّا آثر مُصالحَةَ معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ((أيها الناس، ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم، فقد نظرتُ في أمور الناس منذ قتل عثمان، وفكرت فيهم، فوجدتهم كالأضاحي في كلِّ عيد يُذبحون))^(٣).

فبموجب طبيعة التشبيه الاستشكالية والإثارية الناتجة عن مُفارقته الصراحة ومجانبته المباشرة، ولأنَّ المتلقي مسؤولٌ عن التأويل وإنتاج الدلالة، فإنَّه يتحتَّم البحث عمَّا وراء هذا التشبيه من معانٍ ضمنية تُبرِّر حضوره وتُعلِّل ربط المشبَّه بالمشبَّه به.

لقد اتَّخذ زيادٌ من هذه التركيب التشبيهي التامَّ طريقاً إلى بيان خطر هذه الفتنة-من خلال

(١) ينظر: الحجاج في: (الإمتاع والمؤانسة)، حسين بويلوط، رسالة ماجستير، ص ٨٤، جامعة الحاج لخضر-باتنة، الجمهورية الجزائرية، باتنة (٢٠٠٩-٢٠١٠م).

(٢) ينظر: الإشارات والتشبيهات في علم البلاغة، مرجع سابق، ص ١٨٠. والتصوير البياني: دراسة تحليلية لمسائل البيان، مرجع سابق، ص ٢٨٤. وبلاغة الصورة: نحو قراءة حجاجية لعلم البيان، سعيد العوادي، ط ١، ص ٦١ (دار أوكسجين للنشر، المغرب، ٢٠٢١م).

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٦٨. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٣٧١. وج ٢، ص ٤٧٨. ج ٣، ص ١٧٠.

إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها، ورفع الأدنى وضوحًا (المشبه) إلى درجة الأعلى (المشبه به)^(١) - فحال المفتونين بها كحال الأضحاحي؛ من جهة تكرار تعرّضها للذبح عامًا بعد عام، دون أن يكون لها أدنى اختيار، أو أقلّ وعيٍ بالمصير وسببه.

وإذا كان التشبيه إنما يعمل وفق (قانون العبور) المتمثّل في عبور المتلقين من المعطى إلى النتيجة، فلا بدّ لمتلقي هذا التشبيه أن يمرّ بالخطاطة التالية:

التشبيه (المعطى): المفتونون كالأضحاحي ← النتيجة: المفتونون يسرون إلى حتفهم
 نقطة العبور: الأضحاحي تتعرض للذبح بشكلٍ متكرر دون أدنى رأي أو دراية.

وبوصول المتلقي إلى هذه النتيجة، فإنّه يصعب عليه الرّد أو التنصّل من الإذعان، وهي صعوبة ناشئة عن اضطراره إلى التحرك الذاتي للوصول إلى النتيجة، ثم تورّطه بها (النتيجة) من جهة تعذّر الشكّ بها أو الرجوع عنها؛ إذ وصل إليها بنفسه واستيقننها بجهد^(٢).

ومن جهة مزية اكتمال عناصر التركيب في هذا المقام، فإنّ في اكتمال عناصر هذا التشبيه نكتة إقناعية غير خافية، يجدها المتأمل في دلالة التركيب على وجوب الصراحة ولزوم المكاشفة، وطلب المسارعة في الكفّ؛ فالأمر بالغ الخطر بحيث لا يحتمل الإخفاء أو التراخي في الاستيعاب أو الخلوص إلى نتيجة غير مقصودة، كما أنّ في تقييد وجه الشبه أدبًا ظاهرًا مع المقصودين؛ ذلك بفعل تقييد المشابهة وإلغاء فكرة اشتراك المشبه مع المشبه به (الأضحاحي) في جميع الصفات، الأمر الذي يتعيّن به إثبات آدميتهم والاعتراف بإنسانيتهم^(٣).

وإلى جانب هذا الوجه المكتمل في تركيبه، فقد وردت بعض تشبيهات المدونة مثبتة (الأداة) مع خلوّها من (وجه الشبه)، نحو قول داود بن عليّ لمّا ارتجّ عليه في إحدى خطبه: ((أمّا بعد، فقد يجدّ المعسرّ، ويُعسرّ الموسرّ، ويُقلّ الحديد^(٤)، ويُقطّع الكليل^(٥)، وإنّما الكلام بعد الإفحام،

(١) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص ٨٥. والصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، مرجع سابق، ص ٣٣٩.

(٢) ينظر: في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٩٢. والبلاغة، ميشيل ماير، مرجع سابق، ص ٨٥، ٧٥.

(٣) ينظر: بلاغة الصورة: نحو قراءة حجاجية لعلم البيان، مرجع سابق، ص ٦٠، ٦٣، ٧٨.

(٤) يُقلّ الحديد: يُنلم السيف المرهف الحدّ. تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٠، ص ١٨٩، وج ٨، ص ١٢.

(٥) الكليل: السيف الذي لا حدّ له. السابق، ج ٣٠، ص ٣٤١.

كالإشراق بعد الإظلام))^(١).

ففي حين يُعدُّ التشبيه طريقًا إلى المعاني المحتجبة في الأستار^(٢)، فإنَّ الخطيب إنما استدعى هذه الصورة التشبيهية الوافية في وضوحها وبيانها (إنَّما الكلام بعد الإفحام، كالإشراق بعد الإظلام)؛ ليُجلِّي بها هذه الحالة من الانفراج بعد الضيق، وليقرِّبها إلى عقول المتلقين.

ولئن كان الخطيب أكثرَ الحاضرين شعورًا بهذا الحرج وأشدَّهم فرحًا بانكشافه، فإنَّ هذه الصورة قد جاءت دقيقة في كشف هذا الشعور النفساني وبثِّه في روع المتلقين، وهي دقَّة ناشئة عمَّا اشتملت عليه هذه الصورة من معانٍ حسِّيَّة ظاهرة (الإشراق، الإظلام) مكَّنت الخطيب من إخراج ما لا يُعلم بالبديهة إلى ما يُعلم بها؛ ذلك باتخاذ حاسَّة النظر بابًا موفِّيًا إلى فهم المعنى المعقول^(٣).

وغير خافٍ أثر غرابة هذا التشبيه في تحقيق المعنى المقصود وتثبيتته ودقَّة الدلالة عليه، ذلك أنَّ العلاقة الجامعة بين طرفيه «مما لا يتسرَّع إليه الخاطر، ولا يقع في الوهم عند بديهة النظر إلى نظيره الذي يُشبهه به، بل بعد تثبُّتٍ وتذكرٍ وفلِّي للنفس عن الصور التي تعرفها، وتحريكٍ للوهم في استعراض ذلك واستحضار ما غاب منه»^(٤).

وإذا كانت العلاقة الجامعة بين الطرفين بعيدةً بحيث لا يهتدي إليها السامع ولا يسبق الخاطر إليها، فإنَّ التصريح بالأداة يشكِّل ضابطًا حجاجيًا ظاهرًا لتلك العلاقة؛ يضمن اهتداء المخاطب إلى أنَّ العلاقة بين الطرفين علاقة تشبيهية بحتة، ويكفل -أيضًا- عدم زيغ المخاطب عن النتيجة المستهدفة^(٥).

وإلى ما سبق، فإنَّه لا يخفى ما في حذف (وجه الشبه) من استثارة المتلقين ودفعهم إلى المشاركة في عملية إنتاج الخطاب واستخلاص الحجَّة، ذلك أنَّه يتعدَّر على المتلقي تجاوز هذا

(١) جمهرة خطب العرب، ج٣، ص١٧. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج١، ص٣٠٥. وج٢، ص١٣٥، ٥١٥.

(٢) ينظر: تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص٨٢٠.

(٣) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص٨٤. وأسرار البلاغة، مرجع سابق، ص١٢٩.

(٤) أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص١٥٧.

(٥) ينظر: بلاغة الصورة: نحو قراءة حجاجية لعلم البيان، مرجع سابق، ص٧٢.

التشبيه دون ملء فجوته بوجه شبه مقنعٍ وصالحٍ للربط بين (المشبه) و(المشبه به)، وهو: التلازم والتعاقب في كلٍّ، فكما أنَّ لكلِّ ظلامٍ إشراقًا، فإنَّه لا بدَّ أن يتلو الكلامُ الإفحامَ^(١).

ومما وقف الباحث عليه في المدونة من منزوع (الأداة) مع بقاء (وجه الشبه)، تشبيهُ حاجب بن زرارة في خطبته بين يدي كسرى، إذ يقول عن أمة العرب: ((وهي العلقم^(٢) مرارة، والصاب^(٣) غضاضة^(٤)، والعسل حلاوة، والماء الزلال سلاسة))^(٥).

إنَّ في العدول عن التصريح بالحقيقة (أمة العرب صعبة على من عاسرها، هيئة على من لاينها) إلى التشبيه زيادةً ظاهرةً في مستوى الدلالة والإيجاء وإثبات الغرض المقصود في نفس السامع؛ إذ ترتسم بالتشبيه عدَّة معانٍ إقناعية ناتجة عن استحضار المتلقي لكلِّ ما يتعلَّق بالموادَّ المشبه بها، وعن كلِّ ما يستدعيه هذا الاستحضار من تمثُّل الفكرة بشكلٍ واضح ودقيقٍ^(٦).

وظاهر ما في الربط بين أمة العرب والأشياء المكروهة (العلقم)، والمحبوبة (العسل، الماء الزلال)، من أدبٍ جمِّ ومراعاة لمقام كسرى؛ فتجنَّبًا لمباشرته الأمر والنهي، أو الإغراء والتحذير، فإنَّ الخطيب قد عدل إلى طريقٍ مُهدَّبٍ مدعَّمٍ بالأدلة التي يصل بها المتلقي إلى النتيجة (أمة العرب ذات وجهين: وجه طيِّع محبوب، ووجه عصيٍّ مكروه) من تلقاء نفسه بعد الاحتكام إلى ذائقته وإحساسه؛ حيث تنتقل -بفضل هذا الربط- الصفاتُ المستقبحة والمستحسنة فتقع على المشبه؛ تحقيقًا للمبدأ المشترك الذي يرى أنَّ ما يسري على أحد المتماثلين يسري على الآخر^(٧).

ويشكِّلُ البعد بين طرفي التشبيه في هذا الشاهد طريقًا مُهمًّا من طرق ترسيخ المعنى وتثبيتته، ذلك أنَّه كلِّما بُعدت المسافة بين طرفي التشبيه كانت الصورة -كما يقول عبد القاهر- «إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب، وكان مكانها إلى أن تُحدث الأريجية أقرب، وذلك أنَّ

(١) ينظر: الحجاج في كلام الإمام الحسين، مرجع سابق، ص ١٦٥.

(٢) العلقم: شجرٌ مرٌّ. تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٣، ص ١٤١.

(٣) الصابُ: شجرٌ إذا اعتُصر خرج منه عصارة كهيئة اللبن. ينظر: السابق، ج ٣، ص ٢١٦.

(٤) غضاضة: نعومة وطراوة ونضارة. ينظر: السابق، ج ١٨، ص ٤٦٠-٤٦١.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٥٧. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٣٠٢. وج ٢، ص ٢٠٢، ٤٢٢.

(٦) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٨.

(٧) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص ٨٢. والصورة الفنية

في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، مرجع سابق، ص ٣٥٣.

وإذا كان المتلقون متفاوتين في فهمهم للمشبه، كلٌّ بحسب فهمه وتجربته، فإنَّ (الغيث) و(العُضد) من المشتركات، أو المسلّمات العامّة، التي يتّحد المتلقون في فهم معناها واستيعابها، وهو ما يحدّد معنى (المشبه) وبمكّنه من نفوس المتلقين، ومتى عُرف (المشبه) بهذه الصفات، المُكتسبة بالمنطق والاستدلال المكثّف، فإنّها تحصل النتيجة المرجوة من الاحترام والتقدير والودّ، دون أدنى فرصة للردّ أو الاعتراض، مما يجعلك لا تبالغ إذا رأيت أنّ: المنطقية والتدليل وتحديد الوجهة بعدّ حجاجي أساسٌ في بنية التشبيه^(١).

إنّ كلّ صورة من صور التشبيه السالفة كلام بعضه (المصرح به) من صنع الخطيب، يُتوصّل إليه من خلال الحرف، وبعضه الآخر (الضمني/ معنى المعنى) متوقّفٌ على ما يستنتجه المتلقي من المعاني الضمنية، وتلك المعاني الضمنية فإنّها تظهر حجاجية التشبيه وأهميته في توضيح المعنى وتأكيده.

وعلى إثر ما سلف من تناول وتحليل، فإنّه يمكن القول: إنّ التشبيه يُمثّل إحدى الطرق الإقناعية المهمّة التي تفوق في طاقتها الإمتاع والتجميل، فكثيراً ما عدل إليه خطباء المدونة بقصد حصر المتلقين وتوجيههم من خلال فاعليته في كشف الحقائق المستترة، وجلاء الأفكار الدقيقة، وتقريب المعاني البعيدة، وهو إلى ذلك إحدى الطرق النفسانية الشفيفة التي تعمل على نقل إحساس المُلقّي ومشاعره، وتحريك وجدان المتلقي واستمالته.

ولئن كان التشبيه أصلاً في علاقة المشابهة، فإنّ الباحث سيتحوّل إلى دراسة الاستعارة باعتبارها فرعاً عن التشبيه أو صورة مختصرة/ مكثّفة من صورته (تشبيه ناقص)؛ من جهة أنّها: تشبيه حالةٍ بحالةٍ أخرى حُذف فيها (المشبه) وأثبت (المشبه به)^(٢).

(١) ينظر: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي، محمد الولي، ط ١، ص ١٨٦ (المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠م). والحجاج في الخطاب: مقاربات تطبيقية، مرجع سابق، ص ٨١. والبلاغة، ميشيل ماير، ص ٨٥. وبحث:

آليات الحجاج في خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، مرجع سابق، ص ٦٧.

(٢) ينظر: أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص ٢٩.

٢- الاستعارة:

وهي «أن تُريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تُفصح بالتشبيه وتُظهره، وتُحيء إلى اسم (المشبه به) فتُعبره (المشبه) وتُحرّيه عليه، تُريد أن تقول: رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء، فتدع ذلك وتقول: (رأيت أسداً)»^(١)؛ على سبيل المبالغة في تشابه الطرفين المختلفين واتحادهما؛ «بحيث لا يُلاحظ معنى التشبيه صورةً ولا حكماً»^(٢)، وظاهر أن المجازية في مثل هذا القول الاستعاري ناشئة عن حمله لمعنيين: معنى حرفي غير مقصود (أسد)، ومعنى مجازي مقصود (شجاع جداً).

وإن كانت الاستعارة فرعاً عن التشبيه، فإنها ألصق بمعنى الحجاج منه، ذلك أنها تفوقه من جهة اتساعها في تسمية المقصود بغير اسمه، كما تفوقه -أيضاً- في الرتبة؛ من حيث إنها بنية تدليلية تتجاوز مستوى المشابهة السطحي إلى مستوى ادعاء الاتحاد بين الطرفين وإثبات أن (المشبه) هو (المشبه به) نفسه؛ فاستعارتك (النهر) للإنسان الكريم، إنما هو على سبيل إثبات ادعائك مساواة هذا الإنسان لـ(النهر)؛ إذ يتفق معه في: تتابع عطاءه واستمراره، واتساع مداه واستيعابه^(٣).

ومن جانب المبالغة، فإنه متى عقل المتلقي المعاني المتضمنة في تشبيه الكريم بالنهر، فإنه لا بد أن يعلم أن الإنسان المقصود بتلك المعاني قد بلغ منها مبلغاً بحيث يُتوهم أنه (نهر) في الحقيقة، وجلي أنك لم تُطلق اسم النهر على المقصود إلا بعد أن أعرته معنى النهرية وأدخلته في جنس الأنهار، وبذلك فإن إعارة اللفظ تالية لإعارة المعنى، وبديهي -أيضاً- أنك لم تنح ذلك على سبيل الحقيقية، بل على سبيل الادعاء، لأنه لا معنى لذلك مادام المقصود إنساناً^(٤).

وإذ تفوق الاستعارة التشبيه، فإنها تعلقو (القياس) قيمة وقدرًا، إذ هي أكثر منه إقناعًا وأكد

(١) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٦٧.

(٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٠٢.

(٣) ينظر: الخصائص، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٤٢. ودلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٧٠. واللسان والميزان، مرجع سابق، ص ٣٠٦. وتحليل الخطاب وتجاوز المعنى، مرجع سابق، ص ١٤٠. والاستعارة التمثيلية في الحكم العطائية بين الأنماط التعبيرية والبنى التركيبية، محمد سيد سلطان عبد الرحيم، حولية: كلية اللغة العربية بـجرجا، الجزء ٤، العدد ٢١، ص ٢٩٩٩-٣٠٠٠ (١٤٣٨هـ).

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٤٣١-٤٣٢. والصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، مرجع سابق، ص ٢٢٤.

إبلاغاً؛ بفعل ما يحصل بها من مزج للأطراف وتوحيد لها. كما تفضّل الاستعارة الحقيقية؛ ذلك أنّ الكلمات تبدو بالاستعمالات الاستعارية أقوى مما تبدو بالاستعمالات الحقيقية؛ فالمعنى المباشر لكلمة (ثعلب)-مثلاً-مُغايّر للمعنى عندما نطلق الكلمة نفسها على إنسانٍ ما؛ إذ يتضمن الاستعمال الأخير معنى الذمّ والهجاء، في حين يقتصر الاستعمال الأول على الإحالة إلى الحيوان المعروف، ذلك إلى ما في الاستعارة من اللفت والتنبيه والإثارة والتشكّل في الذهن؛ نتيجة مخالفتها الواقع وبعدها عن المباشرة^(١).

وإذا كان من السهل دحض قول: (جاء المراوغ) مثلاً، فإنّه يصعب دحض قولك: (جاء الثعلب)؛ لأنّ إعارتك لفظ (الثعلب) للمقصود متضمنٌ معنى إنكار أنّ يكون المقصود شيئاً آخر غير الثعلب، ولأنّ الحكم في القول الأول حكم ذاتي تلقائي صريح، بينما هو في الآخر حكم مشترك (مجمع عليه/ سابق التصديق) مستنتج بالتحليل والتأويل، ومن الصعوبة بمكان ردّ حكم استنتجه المتلقي بجهده وتوصل إليه بالعقل والمنطق^(٢).

وإذا ما تقرّر أنّ مهمّة المتكلم في الحجاج هي إقناع الآخرين وتوجيههم، وأنّ عملية الشرح والتوضيح من اللوازم الأولية لإنجاز هذه المهمة، فإنّ الاستعارة خير مُعينٍ على إيصال الفكرة وجلائها؛ ذلك أنّ (الإبانة) تعدّ صفة من صفاتها الملازمة؛ من حيث نقلها المعاني من دائرة المجرّدات إلى دائرة المحسوسات والعكس، ومن حيث كشفها الدقيق عن غوامض الفكرة وخوافيها، إذ يستلزم تلقّيها المرور بعملية واسعة من التفاصيل والعناصر والعلاقات^(٣).

ومن الوجهة النفسانية والشعورية، فإنّ للبناء الاستعاري دوراً كبيراً في نقل المشاعر وكشف الشعور، وذلك بفعل الرؤية من الزاوية نفسها التي ينظر المتكلم من خلالها إلى المقصود؛ إذ تترجم

(١) ينظر: أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص ٢٤٢. والحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢٥٤. والصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، مرجع سابق، ص ٣٢٧. والاستعارة والحجاج، ميشيل لوجيرن، ترجمة: الطاهر وعزيز، مجلة المناظرة، العدد ٤، ص ٨٧-٨٨ (مايو ١٩٩١م).

(٢) ينظر: مفتاح العلوم، مرجع سابق، ص ٣٦٩. وبحث: الاستعارة والحجاج، مرجع سابق، ص ٨٧-٨٨. وبحث: البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو (الحجاج)، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٣.

(٣) ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، مرجع سابق، ص ٣٣٢. والإعجاز البلاغي: دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، محمد محمد أبو موسى، ط ٢، ص ١١٨ (مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٨هـ). وحجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي (خطب الإمام علي) أمودجًا، مرجع سابق، ص ١٠١.

الصورة الاستعارية تجربة المستعير مع المستعار له؛ فقول أحدهم: (جاء الهزير) إنما يحكي ما خبره واستيقنه هذا المستعير من شجاعة الرجل الآتي (المستعار له)، وإليه فإنَّ في البناء الاستعاري من الاستثارة والتحريك ما لا يوجد في الحقيقة؛ وذلك بحكم ما يحصل به من حَلْق تصوّرات مثيرة وعلاقات غير معهودة^(١).

أمَّا من حيث حاجة جنس الخطبة إلى التركيز وافتقاره إلى الاختصار، فإنَّ الاستعارة تمثِّلُ أحد أهمِّ الأساليب التي تتحقَّق بها هاتان الصفتان، إذ إنَّها- كما يقول عبد القاهر- «تُعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تُخرِّج من الصدفَة الواحدة عدَّة من الدُّرر، وتُجني من العُصن الواحد أنواعًا من الثَّمر»^(٢).

وبما تقدَّم من مزايا وخصائص، فإنَّك تُدرك سبب ما ذهب إليه بعضهم من أنَّ الاستعارة تعدُّ: أميرة عائلة المجاز، ومركز الحجاج، وأدلَّ الضروب المجازية على ماهيته، والأسلوب الأكثر قدرة على إمداد الخطاب بالتكاثر وقوَّة التفرُّع، وعلى تقريب المعنى إلى ذهن المتلقي^(٣).

ولكون الغاية من الدراسة غاية حجاجية صرفة، فإنَّ الباحث سيُعنى بالجانب الحجاجي للاستعارة من خلال أبرز تراكيبها التي ظهرت بها في المدوَّنة، إذ جاءت على وجوه متعددة، ولعلَّ من أهمِّ تلك الوجوه: الاستعارة المصرَّح فيها بلفظ المستعار (المشبه به)^(٤)؛ حيث وقف الباحث على جُملة منها، نحو قول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في إحدى خطبه: ((إنَّ الله قد أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته، فانصبوا أنفسكم في أداء حقه، وتنجزوا موعوده، واعلموا أنَّ الله جعل

(١) ينظر: التصوير البياني: دراسة تحليلية لمسائل البيان، مرجع سابق، ص ٧. وحجاجية المجاز والاستعارة، حسن المودن، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، مرجع سابق، ج ١، ص ٧٢٥. وبحث: آليات الحجاج وأدواته، مرجع سابق، ص ١٣٥. وبحث: آليات الحجاج في خطبة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٢) أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٣) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، مرجع سابق، ص ٢٣٣، ٢٩٥. والاستعارة المرفوضة في الموروث البلاغي والنقدي، مرجع سابق، ص ١٠. ورسالة: الحجاج في كتاب المثل السائر لابن الأثير، مرجع سابق، ص ٥٩. والبلاغة والاستعارة من خلال كتاب: (فلسفة البلاغة) لريتشاردز، سعاد أنقار، ضمن كتاب، الحجاج مفهومه ومجالاته، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٦٧.

(٤) ينظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٤٢، ٢٤٣.

أمراس^(١) الإسلام متينة، وعراه^(٢) وثيقة^(٣).

متى عُرِفَ أَنَّ في التصريح بـ(المشبه به) مزيد وضوح ودلالة، وأنَّ «المفروضات تُتَّخِيلُ في ذهن كما المُحَقَّقَات»^(٤) -على حدِّ قول الزمخشري- فإنَّ فَرْضَهُ رَضُوهُ -من خلال هذه الاستعارة التصريحية- أَنَّ حَقَائِقَ الإسلام وعقائده حبالٌ شديدة ومقابضٌ محكمة، إنما هو على سبيل التأكيد المضاعف على عظمة هذه الحقائق والعقائد والأصول، وتفخيم أمرها وبيان حصانتها؛ ذلك أَنَّ المطابقة الصريحة بينها وبين (الأمراس) و(العري) تفتح باباً حسيّاً مُثَبِّراً تنفذ من خلاله المعاني إلى العقل بصفة مشدّدة ومؤثّرة، وَلَكِنَّ الملتقي يتحقّقها بعينه ويمسّها بيده^(٥).

وبفعل الاختلاف والتغاير الشديد بين أطراف هذه الفرضية الاستعارية، فإنَّ الملتقي لا بدَّ أن يجد نفسه منصرفةً إليها، مشدودة إلى فكِّ رموزها واستخلاص معناها الجديد النابع من تفاعل السياق القديم (في الواقع) مع السياق الحديث (في الخطاب)؛ مما يجعل الاستعارة تتجاوز مجرد النقل الخالص، أو التشبيه البريء، إلى دمجٍ بين فكرتين وتوحيدٍ لهما يقتضي حمل الفكرة الغائبة (حقائق الإسلام وعقائده) لمعنى الفكرة الحاضرة (الأمراس، العري)؛ ذلك أنَّه متى كانت حقائق الدين وعقائده أمراً وعرياً فإنه لَمَن المستحيل والممتنع عزلها عن معاني المتانة والضبط والقوة والإحكام التي تُلازم (الأمراس) و(العري)^(٦).

إنَّ الصورة الاستعارية عملٌ ذهنيٌّ خالصٌ يتجاوز مجرد المقارنة أو التشبيه إلى التقريب بين واقعيتين متباينتين- قليلاً أو كثيراً- وذلك بالنظر إلى إحداها من خلال الأخرى، إذ إنَّ الاقتصار على إحداها دون الأخرى يحيل الكلام إلى قولٍ مجزوءٍ ومتنافرٍ، ويقدر ما بين الواقعتين من بُعد

(١) الأمراس: الحبال. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق ج ١٦، ص ٥٠٢.

(٢) العري: جمع عُزْوَةٌ وهي المقبض. ينظر: السابق، ج ٣٩، ص ٢٥.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٢٤. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٢٣٢. وج ٢، ص ١٢٣. وج ٣، ص ١٧.

(٤) تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص ٨٦٧.

(٥) ينظر: أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص ١٢١، ٢٤٢، ٢٥٠. وتفسير الكشاف، مرجع سابق، ص ١٤٦.

(٦) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٧١. وأسرار البلاغة، مرجع سابق، ص ١٣٠. والصورة الشعرية في الخطاب

البلاغي النقدي، مرجع سابق، ص ٨٤. وبحث: الاستعارة والحجاج، مرجع سابق، ص ٩٠.

واختلاف فإنه يحصل المقصود من التأثير والتنبيه والتأكيد^(١).

وإذ تحمل هذه الصورة الاستعارية معنيين: الأول ظاهر معلوم، والثاني متضمن خفي، فإنَّ القدر المعلوم من المعنى لا بدَّ أن يشوّق نفس المتلقي «إلى تحصيل العلم بما ليس بمعلوم، فيحصل لها بسبب علمها بالقدر الذي علمته لذّة وبسبب حرمانها من الباقي أَلَم، فتحصل هناك لذات وآلام متعاقبة، واللذة إذا حصلت عقيب الألم كانت أقوى وشعور النفس بها أتم، إذا عرفت هذا، فنقول: إذا عُبر عن الشيء باللفظ الدال عليه على سبيل الحقيقة، حصل كمال العلم به، فلا تحصل اللذة القوية، أمّا إذا عُبر عنه بلوازمه الخارجية وعرف لا على سبيل الكمال، فتحصل الحالة المذكورة التي هي كالدغدغة النفسانية، فلأجل هذا كان التعبير عن المعاني بالعبارات المجازية ألدَّ من التعبير عنها بالألفاظ الحقيقية»^(٢).

ولو زعم أحدهم أنّ الاستعارة الثانية (عراه وثيقة) استعارة زائدة عن الحاجة، فإنه يمكن ردّ زعمه بقول الشيخ عبد القاهر مُعلّقاً على أحد مواضع الاستعارات الشعرية المتعدّدة: إنّ «مما هو أصلٌ في شرف الاستعارة، أن ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات، قصدًا إلى أن يلحق الشكل بالشكل، وأن يُتمَّ المعنى والشبّه فيما يريد»^(٣)، وأنت ترى أنّ في استدعاء العرى إلى جانب ما يُشاكلها (الجمال) زيادة ظاهرة في استيفاء معنى المتانة والإحكام.

وإلى جانب التصريح، فقد كثر استغناء خطباء المدونة عن ذكر المستعار (المشبه به) بالرمز له بشيء من صفاته أو خصائصه أو لوازمه^(٤)، على غرار قول خطيب الأزد بين يدي عبد الملك بن مروان: ((قد علمت العرب أنّا حيّ فعّال، ولسنا بحيّ مَقال، وأنّا نجزي بفعلنا عند أحسن قولهم، إنّ السيوف لتعرف أكفّنا، وإنّ الموت ليستعذب أرواحنا))^(٥).

(١) ينظر: بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ط١، ص١٠٩ (دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٦م). والصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، مرجع سابق، ص٢٣٧. ورسالة: الحجاج في النص القرآني: (سورة الحواميم) أنموذجًا، مرجع سابق، ص٧٨.

(٢) المحصول، محمد بن عمر الرازي، تحقيق: طه جابر فياض العلواني، ط٢، ج١، ص٣٣٦ (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ).

(٣) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص٧٩.

(٤) ينظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، مرجع سابق، ج١، ص٢٤٢، ٢٤٣.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٣٩٨. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج١، ص٢١٤. وج٢، ص١٩٣. وج٣، ص٢٦٨.

لم يشأ هذا الخطيب الأزدي أن تكون دلالاته على المعنى المقصود دلالة عامة، إذ عدل إلى تخصيصه من خلال ما في الاستعارة (المكنية) من طاقة معنوية؛ ذلك أن (المعرفة) و(الاستعذاب) أمران مقصودان لا يمكن للاستعارة (التصريحية) أن تُحِيلَ عليهما بالذات، كما أن اختصاص هذين الأمرين بالذكر متضمنٌ معنى تجاوز مجرد الشبه الظاهري إلى الشبه العميق؛ من حيث اشتراك الطرفين-المشبه والمشبه به- في الخصائص الفرعية (اللوازم)، وهو ما يزيد مستوى إيضاح المعنى والمبالغة في تحقيقه^(١).

وبفضل ما في هاتين الاستعارتين من طاقة تشخيصية، فقد تجلّت الفكرة المقصودة بصورة حسّية صادمة ومُفارقة؛ فالجماد (السيوف) ناطق، والمعقول (الموت) محسوس، ذلك إلى ما تضمّنته هاتان الاستعارتان من التفصيل والإثبات بالتعليل والتدليل المنطقي؛ فسيوفهم ليست كسيوف غيرهم؛ ذلك أنّها ألفتهم حتى بادلتهم شعور الألفة والمعرفة، وحال الموت معهم ليس مثل حاله مع غيرهم، ذلك أنّه استطابهم حتى صار يُفضّلهم على غيرهم^(٢).

وإلى ما سبق، فإنّ تغييب معالم المرجعية الذاتية، ودعوى الموضوعية والحيادية، أمرٌ ظاهر في هاتين الاستعارتين؛ من جهة البُعد عن مباشرة المعنى وعن التصريح بالحكم؛ فمتى اندمج المتلقي مع هذا القول فإنّه سيجد أنّ السيوف هي التي تعرف، والموت هو الذي يستعذب، دون إدلاءٍ عليهما بذلك أو توصية من قبل الخطيب^(٣).

إنّ الاستعارة تصوغ من الوسائل اللغوية كلامًا يفوق مستوى الكلام المثالي أو العادي، إنّها تصنع لغة داخل اللغة، منشئةً بذلك تصورًا ذهنيًا واضحًا وثيق الصلة بالمشارك الإنساني (القيم المشتركة)، مما يُبرِّز قبولها وبُحْث مسوغاتها باعتبارها آليةً حجاجية لا تقتصر على الجمع بين فكرتين (المستعار له والمستعار منه) وإلغاء المسافة بينهما، بل تتعدّى ذلك إلى خلق رابطٍ مناسبٍ بين تلك الفكرتين، وبمشاركة المتلقي في اكتشاف هذا الرابط المناسب، فإنّه لا بدّ أن ينتهي إلى

(١) ينظر: مفتاح العلوم، مرجع سابق، ص ٣٦٩.

(٢) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٤٩٠. ورسالة: أبنية المشتقات في نوح البلاغة، مرجع سابق، ص ٩٦. والحجاج في النص القرآني: (سور الحواميم) أنموذجًا، هاني يوسف أبو غليون، رسالة ماجستير، ص ١٠١، جامعة مؤتة، الأردن (٢٠١٨م). والاستعارة بوصفها حجة، ستيف أوزوالد، وآلان ريهس، ترجمة: معتز سلامة، مجلة فصول، المجلد ٢٦ / ١، العدد ١٠١، ص ٤٦٣ (خريف ٢٠١٧م).

(٣) ينظر: أطروحة: حجاجية الحكمة في الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص ١٤٢.

الاقتناع والإذعان؛ من جهة لزوم مصادقته على النتائج التي وصل إليها بنفسه بعد التحليل والتركيب، بينما يسهل نفي ورد حقيقة القول الصريح^(١).

وإن كان الباحث قد ألمح إلى كثرة ورود هذا التركيب الاستعاري في المدونة، فإنه يرجع السبب إلى أن هذا التركيب من أكثر تراكيب الاستعارة مناسبة لجنس الخطبة؛ بفعل: إلغازه المستفز والدافع إلى المشاركة والإنتاج، وبفعل تكثيفه وتركيزه على لازم مُعَيَّنٍ من لوازم المشبه به، وتلك معانٍ إقناعية قيّمة لا تجتمع في تراكيب الاستعارة الأخرى.

كما كشفت المدونة عن نوع لطيف من الاستعارة ناشئ عن توجه الفعل إلى غير مفعوله^(٢)، من قبيل قول أحد السائلين: ((أعينوني من عطية ما آتاكم الله، وارحموا أبا أيتام ورضو^(٣) زمان، فلقد خلّفت أوقامًا يمرضون ولا يكفنون ميتهم، ولا ينتقلون من منزل وإن كرهوه، ولقد مشيت حتى انتعلت الدماء، وجعت حتى أكلت الثرى))^(٤).

لما أراد هذا السائل أن يبيّن للمتلقين مدى فقره ومبلغ عُسرهِ، اختار أن تتأسس إبانته على هاتين الاستعارتين البالغتين في الإثارة والتحفيز، من جهة مفارقة مفعوليهما (الدماء) و(الثرى)، لإطار التصاحب المعجمي مع الفعلين (انتعل) و(أكل)، إذ عهد المتلقون أن يقول المتكلم: انتعلت (الجلد) أو (الحذاء) ونحوهما مما يُحتذى، وأكلت (الثريد) أو (القثاء) ونحوهما مما يؤكل^(٥).

إنّ في مخالفة توقع المتلقين، من خلال هذا الإسناد غير المعهود، شدًا وتنبهًا يفتقر إليه أصل القول، كما أنّ في هذه المخالفة كشفًا جليًا لمعنى الفاقة والفقر وزيادة في تغلغله وثباته في الذهن؛ إذ إنّ من الثابت في الأذهان أنّ الفهم المتولد عن لغز الاستعارة أكثر جلاءً وأمكن رسوخًا من

(١) ينظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، محمد بن عمر الرازي، تحقيق: نصر الله حاجي مفتي أوغلي، ط ١، ص ٨٨ (دار صادر، بيروت، ١٤٢٤هـ). والحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢٦٩. وأسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي: تنظير وتطبيق على السور المكية، مرجع سابق، ص ١٧٩-١٨٠. والحجاج في كلام الإمام الحسين، مرجع سابق، ص ١٧٨-١٧٩.

(٢) ينظر: أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص ٥٣.

(٣) رضو: مهزول. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٤٠، ص ٩٨.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٢٦٧. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٤٣٧. وج ٢، ص ٣٠٢. وج ٣، ص ١٨٤.

(٥) ينظر: أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص ٥٣. وشعر إبراهيم الدامغ: دراسة أسلوبية، مرجع سابق، ص ١٨٦.

الفهم المُباشر؛ الناتج عن خروج الكلام على حقيقته المعهودة والمألوفة^(١).

ولئن كانت هاتان الاستعارتان من الغرابة والتجديد بحيث لا يسبق إليهما الفكر، فإنَّه يمكن القول: إنَّ المستعير الناجح هو الذي يتمكن من تحويل الطرفين البعيدين المتنافرين إلى حالة من التوافق والانسجام، حيث تَظهر بهذا التوفيق وبذلك الانسجام القيمة الحجاجية للاستعارة؛ من جهة قدرتها على تحقيق نقلة هائلة، ومفاجئة ومدهشة، من معنى مألوف متكرَّر إلى معنى شعوريَّ طارئٍ ومُفارق^(٢).

ومتى أخذ المتلقي في بحث مُبررات هاتين الاستعارتين ودراسة سبب العدول إليهما وتفضيل المجاز على الحقيقة، فإنَّه لن يعدم مبررًا منطقيًا يُبرِّرها ويسوّغ اختيارهما؛ فطول إملاق هذا الفقير وشدة ملازمته للفقير أفقدها حذائه وغذائه، وأبدلاه بهما دمًا وترابًا! وحسبنا هذه الصورة الحسية الدالَّة على تحرر الاستعارة من تهمة الإيهام، ومن سبِّة الخداع والمغالطة^(٣).

وبفضل طاقة هاتين الاستعارتين الإقناعيتين فقد تحوَّل (الفقر) إلى ماديٍّ مرئيٍّ ناطقٍ بالحال والمال، ومن شأن ذلك أن يؤدي بالمتلقي إلى تمثُّل الحال البائسة لهذا الأعرابي، ومن ثمَّ تحفيزه على المنح والعتاء، وبتحويل الانفعال إلى فعل فإنَّ الخطيب يكون قد نجح في تحقيق غرضه المقصود دون حاجة إلى تفصيل وطول تعليل، و«أنجح الحجاج ما وقَّع في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه»^(٤).

وإذ أثبتت الدلالات السابقة سعة معنى الاستعارة، فإنَّ ورود لفظيٍّ: (الدم) و(الشرى) في سياق الاستعارة يستدعي جملةً من المعاني الرمزية المثيرة والمحفزة؛ ف(الدم) مستدعٍ لمعنى: القُطع

(١) ينظر: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، مرجع سابق، ص ٢٧٩. وتفسير الكشاف، ص ٦٤، ٢٩٩. ورسالة: حجاجية الاستعارة في الشعر العربي: (ديوان المتنبي) أمودجًا، مرجع سابق، ص ٤٤. والأبعاد النصية والتداولية في التراث البلاغي العربي، إبراهيم بشار، أطروحة دكتوراه، ص ١٧٦، جامعة محمد خيضر، الجزائر، بسكرة (١٤٣٦هـ-١٤٣٧هـ).

(٢) ينظر: الخيال: مفهومه ووظائفه، عاطف جوده نصر، ص ٢٨١ (مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م). والاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، مرجع سابق، ص ٩٣-٩٤. وتأصيل الأسلوبية في الموروث النقدي والبلاغي كتاب: (مفتاح العلوم للسكاكي) نموذجًا، ميس خليل محمد عودة، رسالة ماجستير، ص ١١١، جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين (٢٠٠٦م).

(٣) ينظر: أطروحة: حجاجية الحكمة في الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص ١٣٤.

(٤) في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ١٣.

والجرح والنزف والموت، كما أنّ (الثرى) مستدعٍ لمعنى: العدم والضعف والتفكك والدفن، وهي معانٍ مقصودة؛ يصعب تخليص اللفظين منهما^(١).

وإلى ما مضى من وجوه، فقد وقف الباحث على عددٍ من الاستعارات- في المدونة- تأسست على مجيء «اللفظ المستعار فيها لفظاً مُرَكَّباً مستعملاً في غير ما وُضِعَ له في اصطلاح التخاطب؛ لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي والمعنى المسوق للدلالة عليه، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي»^(٢)؛ نحو قول الصادق المصدوق عليه السلام في خطبته يوم فتح مكة: ((لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كلُّ مأثرةٍ^(٣) أو دمٍ أو مالٍ يُدعى؛ فهو تحت قدميَّ هاتين، إلا سدانة البيت^(٤) وسقاية الحاج))^(٥).

يشكل هذا الوجه الاستعاري أوفى الوجوه الاستعارية تأثيراً وأكدها تمثلاً للمقصود؛ ذلك لتواتر تركيبه، ولما فيه من إبراز المعقول في صورة المشهد المرئي المحسوس، ولأنَّ قيمة المركب المتعدد تفوق قيمة الواحد؛ بفعل ما يحمله المركب من التنويع والدعوة إلى التأمل والربط والتحليل^(٦)، مما جعله عليه السلام يعدل إلى استعارة هذا التركيب الدمي المأثور (تحت قدمي) ويوجهه إلى غير ما وضع له.

وإذ يُسَوِّي عليه السلام المكارم والحقوق الجاهلية ويُمائلها بالأموال المحترقة والمزدرأة- من غير ذوات القيمة- التي لا يأبه الإنسان بأن يطأها ويدوسها بقدميه، فإنه إنما يَحْمَل- بذلك- المتلقين على امتهان هذه الأمور والنفور منها، إذ يستلزم هذا التشخيص ردّة فعلٍ سلبيةٍ تدفع المتلقي بشدّة

(١) ينظر: العمدة، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٧٤.

(٢) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٦٥.

(٣) مآثر العرب: مكارمها ومفاخرها التي تؤثر عنها، أي تُذكر وتُروى. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٠، ص ١٨.

(٤) سدانة الكعبة: خدمتها وتولي أمرها وفتح بابها وإغلاقه. ينظر: السابق، ج ٣٥، ص ١٨٠.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٥٤. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٣٠٢. وج ٢، ص ٣١٠. وج ٣، ص ١٠٧.

(٦) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص ٨٦. وفي نظرية

الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٣١. وبحث: الاستعارة التمثيلية في الحكم العطائية بين الأنماط التعبيرية

والبنى التركيبية، مرجع سابق، ص ٣٠١. والاستعارة التمثيلية عند الإمام الطيبي: دراسة نظرية تطبيقية، عمر عبد الكريم

خليل الزعبي، وسليمان الدقور، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون بالجامعة الأردنية، المجلد ٤٥، العدد ١، ص ٢٩٦

(١٨٠٢٠م). وبلاغة الخطاب الحجاجي في القرآن الكريم: الاستعارة التمثيلية نموذجاً، آلاء عبد الغفار هلال، حولية:

كلية اللغة العربية بجزء، الجزء ١٣، العدد ٢٤، ص ١٣٠٣١ (١٤٤٢هـ).

إلى ترك هذه الأشياء ومحاربتها، وذلك مستوى رفيع من البيان الإقناعي لا تعوضه الحقيقة ولا تنوب منابه^(١).

ومن حيث ارتباط الاستعارة ب(الاستنزام الحواري) المبني على تعاون المتخاطبين في تحقيق النتيجة، فإنَّ عدوله ﷺ إلى الاستعارة التمثيلية يستوجب مرور المتلقين بعددٍ من الوسائط التي تكثف المعنى وتزيده إثباتاً وثباتاً، ويمكن رصد تلك الوسائط بما يلي من مقتضيات مترتبة:

١- نصّ الاستعارة: (كلُّ مَأْتِرَة أو دم أو مال يُدَّعى؛ فهو تحت قدمي هاتين).

٢- موقفه ﷺ السليبي من تلك الجاهليات.

٣- مخالفة هذه الأمور للإسلام.

٤- ضرورة تجنّب تلك المخالفات وإبطالها^(٢).

وحرّيٌّ بما مضى من استشهاد واستنطاق أن يكون كافيًا في تيقن أهمية الاستعارة وأصالتها في الحجاج وخطأ رفضها أو التوجّس منها، ولا سيما في خطاب الخطبة الشفاهي، إذ بها (الاستعارة) يتمكّن الخطيب من تقديم ملخص واضح ودقيقٍ للفكرة مع ضمان جذب انتباه المتلقين واستثارتهم، ذلك إلى ما في التركيب الاستعاري من جمالٍ وتلوين.

ولما اجتمع في الاستعارة من مراعاة وتلبيةٍ للحس والعقل، والشعور والفتن، فإنّه لا يُبالغ من يذهب إلى أنّها تمثّل أعلى درجات السّلم الحجاجي وأكثر الطرق والأساليب دلالة على القيمة الإقناعية للعدول عن الحقيقة، وهو ما يؤكّد-أيضاً-خطأ الذهاب إلى حصرها في القيمة الزخرفية والتنميقية.

وإذ عُرف ما في هذين الأسلوبين المجازيين التصويريين-التشبيهي والاستعارة- من قيمة حجاجية، فإنَّ الباحث سيتحول إلى دراسة أسلوبٍ مجازيٍّ تصويريٍّ آخر، لا يبعد عنهما قيمة

(١) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص ٨٧. والعمدة، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٧٢. وبحث: آليات الحجاج في خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، مرجع سابق، ص ٧٠.

(٢) ينظر: الحجاج في كتاب: (البيان والتبيين) للجاحظ، ليلي جغام، أطروحة دكتوراه، ص ١٥٢، جامعة محمد خيضر، الجزائر، بسكرة (٢٠١٢-٢٠١٣م). وبحث: آليات الحجاج في خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، مرجع سابق، ص ٧٠-

ولا ينقصهما أهمية.

٣- الكناية:

وهي كلُّ «لفظٍ أُطلق وأُريد به لازم معناه؛ لا معناه الأصلي، مع قرينة تُجَوِّزُ إرادة المعنى الأصلي»^(١)، وبهذا الحدِّ فإنَّ مجازية الكناية غير ملازمة دائماً، فقد يكون الكرم الموصوف به (كثير الرماد)-مثلاً- كثير الرماد فعلاً، مما يعني جواز حمل القول على جانبي: الحقيقة (كثرة الرماد الفعلية) والمجاز (الكرم)، وبإرادة المعنى المقاميِّ اللازم (الكرم) فإنَّها تتعين مجازية الكناية وتحدّد أهميتها^(٢).

وتقوم الكناية بالوظائف عينها التي تقوم بها الاستعارة من: حركة وتشخيص وأنسنة وإيحاء، إلا أنَّها تختلف عنها من جهة طريق الإحالة إلى المعنى المقصود، فإذا كان المعنى في الاستعارة ناتجاً عن اختيار شيء ووضعه في موضع شيء آخر (محور الاستبدال)، فإنَّ المعنى الإقناعي في الكناية ناشئ عن المجاورة (التتالي أو الاستلزام)^(٣)، إذ إنَّ العلاقة بين القول ومعناه في الصورة الكنائية ليست علاقةً ظاهرٍ يُحيل إلى باطن، بل هي علاقة تتالٍ واستلزام تستدعي الانتقال من اللازم إلى الملزوم، ف(كثرة الرماد) يتبعها كثرة الضيافة المقترنة بكثرة الضيوف التي تدلُّ بدورها على الكرم^(٤).

إنَّ المعنى الكنائي معنى مؤكِّد ومقرونٌ-دائماً- بما يفتح له باب القبول والافتناع، فحين تقول: (زيدٌ كثير الرماد)، فإنَّك إنَّما تُحيل المتلقي إلى شاهدٍ قائم على كرم زيد، وكأنَّك تقول: انظر إلى هذه الكومة من الرماد تجدها برهاناً على كرم هذا الرجل وأثراً دالاً عليه، وبذلك فإنَّ الفكرة تبقى ملتبسة بالدليل ملازمةً له، ولا خلاف في أنَّ تلقي المعاني بهذا التأصيل داعٍ إلى تصديقها والوثوق بها، ومن ثمَّ تمكينها في النفوس^(٥).

(١) المبسط في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبدیع، محمد طاهر اللادقي، ص ١٩٣ (المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٦هـ).

(٢) ينظر: المثل السائر، مرجع سابق، ج ٣، ص ٥٢. والبلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٣٥-١٣٦. والمبسط في علوم البلاغة، مرجع سابق، ص ١٩٠.

(٣) ينظر: الأسلوبية ونظرية النص، إبراهيم خليل، ط ١، ص ٩٨ (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٧م). والاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، مرجع سابق، ص ١٤٩. وحجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي (خطب الإمام علي) أمودجًا، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٦٦، ٤٣١. ومفتاح العلوم، مرجع سابق، ص ٤٠٣.

(٥) ينظر: التصوير البياني: دراسة تحليلية لمسائل البيان، مرجع سابق، ص ٤٣٨. والاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، مرجع سابق، ص ١٤٧.

وبفضل ما تحمله الكناية من تدليل فإنه يمكن القول بأن الأهمية الحجاجية للكناية تكمن في قطع طريق الإنكار على المتلقين، فمتى أنكر أحدهم الحكم على المقصود بأنه كريم-مثلاً-فإنه لن يستطيع إنكار كون الكريم كثير الرماد، مما جعل بعضهم يذهب إلى أن الكناية ليست من قبيل الصور، بل هي حجة قائمة بذاتها، ودليل على المراد من طريق أوفى^(١).

وإلى ما مضى، فإن الكناية أحد طرق الاقتصاد في الكلام التي تختصر التعبير عن المعاني، كما أنها أحد مظاهر إشراك المتلقي في إنتاج الحجاج، إذ تنبئ صيغتها عن فجوة ظاهرة-يُدرِكها المتلقي بمجرد ربط المعنى بسياق القول ومقامه-تتطلب سداً بلازم قولياً يكتمل به المعنى ويحصل به المقصود، وليس الباحث بحاجة إلى القول بأنه متى أسهم المتلقي في صنع الحجة وَقَعَ عليه عبء تصديقها والعمل بموجبها^(٢).

وإن كانت الكناية على هذا المستوى من القدر والأهمية، فقد وقف الباحث على عدد كبير من شواهداها في المدونة، ومنها قول حاجب بن زرارمة التميمي لكسرى في خطبته بين يديه: ((ورى زندق^(٣)، وعلت يدك))^(٤).

إذا عُرف أن مقام هذا القول مقام وفادة واعتراف بعلو (كسرى) ونشاط مملكته وعز سلطانه وهيمنته، فإنه يُعلم ضرورة بأن قصد الخطيب يتجاوز المعنى القريب إلى المعنى البعيد (معنى المعنى)؛ حيث إن المعنى الأوّلي لظهور النار وعلو اليد ليس مما يُمدح به شخص أو يذم، وبناء عليه فإن المتلقي لا بد أن يفتح على عدد من ملزومات هاتين الكنائيتين ومعروضاتهما، فينفي واحداً منها بعد واحد حتى ينتهي-بعد هذا الجهد التجريبي الممنهج-إلى معنى العطاء والنشاط والقوة^(٥).

وحين يتفادى الخطيب المباشرة ويعتمد التجاوز، فإنه إنما يُقر في الآن ذاته بدكاء (كسرى)

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٠١. وتاريخ نظريات الحجاج، فيليب بروتون، وجيل جوتيه، ترجمة: محمد بن صالح الغامدي، ط ١، ص ٥٦ (مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبد العزيز، جدة، ٢٠١١م). وفي نظرية الحجاج، مرجع سابق، ص ٩٣.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٤٣١.

(٣) وري الزندق: خرجت ناره. والزندق: العود الذي يُقدح به النار، وإنه لواري الزندق يضرب في الكرم وغيره من الخصال الحميدة. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٤٠، ص ١٨٩. وج ٨، ص ١٤٦.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٥٧.

(٥) ينظر: الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، مرجع سابق، ص ٢١٦.

وحدّة ذهنه وسرعة بديهته في فهمه للمعنى الضمّني المقصود؛ فهو يتكئ على الفجوة الشاغرة (فرضية المعنى الضمني)؛ ليحرّك من خلالها متلقيه اللبيب إلى ملء تلك الفجوة بمعنى مقاميّ لائق^(١).

وبخلاف المعنى المباشر، فإنّ التقاط المعنى الكنائي الخفي (معنى المعنى) يفتقر إلى مزيد عناء وتحقيق؛ ذلك من جهة ضرورة موافقته للسياق والمقام، ومن جهة حاجته-خصوصاً-إلى معارف أخرى تتصل بأحوال المتكلمين وعاداتهم وعرفهم البياني، حيث لا يمكن للمتلقي بغير ذلك التقاط الصلّة بين: خروج النار والعطاء والنشاط، وعلو اليد والهيمنة والسّلطة، ولا شكّ في أنّ المعاني المستحصلة بالجهد والبحث، وبالربط والاستدلال، أكثر إقناعاً وأكد إلزاماً من المعاني القريبة والمباشرة^(٢).

وغير بعيد عن الشاهد السابق، ما ورد في خطبة عمر بن سعيد الأشدق عند طلب معاوية رضي الله عنه البيعة لابنه يزيد، إذ يقول مؤيداً هذا الطلب: ((أما بعد: فإنّ يزيد بن معاوية أملٌ تأملونه وأجلٌ تأملونه، طويل الباع^(٣)، رحب الذراع^(٤)؛ إن استضفتُم إلى حلمه وسِعكم، وإن احتجتم إلى رأيه أرشدكم، وإن افتقرتم إلى ذات يده أغناكم))^(٥).

فقوله: (طويل الباع، رحب الذراع)، عدولٌ ظاهر عن مباشرة الوصف بالكرم والفضل والقوة، إلى الدلالة على هذه الصفات من طريق أكثر إبلاغاً؛ حيث يحمل هذا العدول معنى التشديد على اتّصاف يزيد بهذه الصفات؛ ذلك «أنّ الصفة إذا لم تأتْ مُصرّحاً بذكرها، مكشوفاً عن وجهها، ولكن مدلولاً عليها بغيرها، كان ذلك أفخم لشأنها، وألطف لمكانها، وكذلك إثباتك الصفة للشيء تُثبتها له، إذا لم تُلقه إلى السامع صريحاً، وجئت إليه من جانب التعريض والكنائية، والرمز والإشارة، كان له من الفضل والمزيّة، ومن الحسن والرونق، ما لا يقلّ قليلاً، ولا يُجْهَل

(١) ينظر: أطروحة: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب: (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة-دراسة تداولية، مرجع سابق، ص٣٣٦.

(٢) ينظر: التصوير البياني، مرجع سابق، ص٤٤١. والاستعارة في محطّات يونانية وعربية وغربية، مرجع سابق، ص٩٤-٩٥.

(٣) طويل الباع: طويل الجسم، وهو مجاز في الدلالة على السعة في الكرم. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج٢٠، ص٣٦٤.

(٤) رَحْبُ الذَّرَاعِ: مجاز عن الدلالة على سعة القوة والقدرة والمتعة والبطش. ينظر: السابق، ج٢١، ص١٨.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٢٤١.

موضع الفضيلة فيه»^(١).

وإلى ما سبق فإنَّها تظهر أهمية هذه الكناية في الإقناع؛ من جهة جعلها المعنوي (الكرم، القوة) معقولاً محسوساً، وكما هو متقرَّرُ فإنَّه متى نفذ المعنى إلى العقل من طريق العين والحواسِّ عموماً كان ذلك أجدى نفعاً وأبقى أثراً، وبذلك ف«ليس المعنى إذا قلنا: (إنَّ الكناية أبلغ من التَّصريح)، أنَّك لَمَّا كُنَّيت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى أنَّك زدت في إثباته، فجعلته أبلغ وأكد وأشدَّ»^(٢).

ومما ينتظم في سلوكه، قول لسان الدين بن الخطيب في الحضِّ على الجهاد: ((أيها الناس -رحمكم الله تعالى- إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دَهَمَ العدو- قصمه الله تعالى- ساحَتَهُم، ورام الكفر- خذله الله تعالى- استباحتهم، وزحفت أحزاب الطَّوَاعِيت إليهم، ومدَّ الصليب ذراعيه عليهم))^(٣).

في سبيل الحجاج فإنَّ الخطيب كثيراً ما يستعملُ طرقاً خارجة عن المؤلف من أجل خلق الإقناع، وبإعراض الخطيب في هذا الشاهد عن الحقيقة: (هيمن النصراني على بلاد المسلمين)، وتجاوزها إلى الكناية: (مدَّ ذراعيه عليهم)، فإنَّه يكون قد بلغ الغاية في الخروج عن المؤلف بفعل هذا الوصف الكنائي الحي الذي يعرض الأمر بشكلٍ مهيبٍ، وكأنَّه يجري أمام أعين المتلقين^(٤).

لقد بدت هذه الصورة الكنائية غاية في الإقناع؛ من جهة تقديم المعنى من طريقٍ حسِّيِّ استدلائيٍّ عالٍ في كثافته وتركيزه، إذ يجد الناظر في هذه الصورة أنَّ لفظ (مدَّ) الحسِّي يمثِّلُ العنصر المركزي الذي يستلزم الدلالة على هيمنة النصراني وتمكُّنهم من النواحي الإسلامية؛ فإحاطة الصليب بتلك النواحي دليلٌ عقليٌّ يستلزم الدلالة على هيمنة أهل الصليب وسيطرتهم، وهي دلالة كافية لإقناع المتلقين بمدى خطورة هذا المدَّ، وضرورة التحرك والتصدي له^(٥).

وكما يقرر الشيخ عبد القاهر الجرجاني ف«إنَّ كلَّ عاقلٍ يعلم إذا رجع إلى نفسه، أنَّ إثبات

(١) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٣٠٦.

(٢) السابق، ص ٧١.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٨٣.

(٤) ينظر: الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٥) ينظر: دروس البلاغة العربية نحو رؤية جديدة، مرجع سابق، ص ٨٥. والتصوير البياني، مرجع سابق، ص ٣٦٦.

الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فثبتها هكذا سادجًا عُفلاً، وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف، وبحيث لا يُشكُّ فيه، ولا يُظنُّ بالمُخبر التجوُّز والغلط»^(١).

وإلى جملة هذه المعاني، فإنَّ هذه الكناية لا تخلو من معنى استصغار النصارى والتقليل من شأنهم، فالأمر لا يتجاوز هذه الصورة من مدِّ الذراع فقط، ومتى فهمَ المتلقون هذا المعنى أدركوا أنَّ أمر استعادة سلطانهم مقتصرٌ على قطع هذين الذراعين أو كَفَّهما.

ومما يندرج في بابه، أنَّ أحد الأعراب وقف يسأل قومًا فكان مما قال: ((أعينوني من عطية ما آتاكم الله، وارحموا أبا أيتام ونضو زمان، فلقد خلّفت أوقامًا يمرضون ولا يكفنون ميّتهم، ولا ينتقلون من منزل وإن كرهوه))^(٢).

لَمَّا كانت دعوى الفقر والإملاق موضعًا من مواضع الاعتراض والإنكار المحتمل، عدل الخطيب إلى الكناية بقوله: (لا يكفنون ميّتهم، ولا ينتقلون من منزل وإن كرهوه)؛ ذلك أنَّ لازم هذه الكناية يحيل المتلقين ضرورة إلى معنى: الفاقة والعوز والضعف، حيث إنَّ ترك الواجبات الفطريّة (تكفين الميت، والانتقال من المنزل المكروه) ليس إلا دليلًا منطقيًا قاطعًا على حال الضعف والفقر، والحاجة الماسّة لمدِّ يد العون والمساعدة.

وغير خافٍ ما بين الحقيقة والكناية من اختلاف في تأدية المعنى في هذا المقام؛ إذ إنَّ المعنى الكنائي أوفى دلالةً وأبقى أثرًا؛ لمعقوليته من جهة، ولكونه منتزعا من بيئة المتلقين المحسوسة من جهة أخرى، الأمر الذي يهبُّه صفة الإجماع أو الحكم المشترك والمتفق عليه^(٣).

كما تفوق الكناية الحقيقة في هذا الشاهد، من حيث تكوّنها «من عدّة حلقات تُسلّم خيط الفكرة وشعاع الإدراك إلى الأخرى، حتى تنتهي إلى المقصود»^(٤)؛ فعدم تكفين الميت مشير إلى عدم وجود الكفن، وعدم وجود الكفن دالٌّ على عدم امتلاك ثمنه، وعدم امتلاك الثمن مستلزمٌ للمعنى المقصود (الفقر)، ومثله إقامتهم في المنزل مع كرههم له؛ إذ إنَّ البقاء مع الكره يومئذٍ إلى

(١) دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٢٦٧.

(٣) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع سابق، ص ٥٠١.

(٤) التصوير البياني، مرجع سابق، ص ٣٩١.

فقدان وسائل الانتقال، وفقدان وسائل الانتقال آيةً على نُفُوق الدَّوَابِّ، ونُفُوق الدَّوَابِّ دليلٌ على الجذب، ومعنى الجذب مؤدِّ بالضرورة إلى معنى العوز والفاقة. وإلى جانب القيمة الإقناعية لهذا الاستلزام، فإنَّه «كلَّما تعددت الوسائط بين بين اللازم والملزوم زاد جمال الكناية»^(١).

وإنَّ تطلبت الكناية كلَّ هذا الجهد للوصول إلى المعنى المقصود، فإنَّه يظهر أنَّ انصراف الخطيب عن الحقيقة إلى الكناية ليس من قبيل التَّغيير الفارغ، بل هو صرفٌ للكلام عن ظاهره «إلى معنى خفي يقتضيه المقام، وهذا المعنى المصروف إليه يحصل بطريق الاستدلال من المعنى الظاهر ومن القرائن، وذلك بالذات ما عُيِّرَ عنه بـ(الاستلزام التخاطبي)»^(٢).

وإنَّ أشار الباحث إلى الكثرة اللافتة لشواهد الكناية في المدونة، فإنَّه لا غرو في ذلك؛ إذ إنَّ أمة العرب أمة لَمَّاحة تستغني بالإشارة عن العبارة، وبالقصير عن الكلام الكثير، وبالتلميح عن التصريح، ذلك إلى جانب ما كشفه التحليل السابق من أهمية الكناية في: تأكيد المعنى والتدليل عليه والتعليل له، وتحفيز المتلقين على الإنتاج والاندماج في عملية الإقناع.

ولعلَّ من نافلة القول الحديث عن أهمية الجانب التصويري في الكناية، فالصورة أولاً وآخرًا عنصرٌ مهمٌّ من العناصر الباعثة على التشويق والتعيين والترسيخ، وبذلك فإنَّه لا مجال لمقارنة القول المباشر الصريح بالقول التصويري البديع.

*** **

ولئن تجلَّى هذا المبحث مختصراً ومحدّداً في دراسته لهذه الأساليب التصويرية الثلاثة، إلا أنَّه بدا كافياً في إقامة الحجة على ما بين (التخييل) و(الإقناع) من تقاطع وتداخل والتقاء، فهما وإنَّ دُرِّسا منفصلين عند بعضهم إلا أنَّه يصعب فصلهما في الحقيقة؛ ذلك أنَّ عدول القائل إلى التخييل ليس إلا طريقاً إلى الإفادة والإبلاغ والترسيخ.

وبعيداً عن تفرعات علم البيان وجموده وتشعباته الشكلية، فقد ظهر بالدراسة الأثر الحيوي لهذه الأساليب البيانية؛ من جهة كونها تُمثِّلُ عوامل حيَّة وفاعلة في التحريك والإثارة والتأثير، ولئن توجَّس عدد من العلماء من القول بالمجاز فإنَّ ما مضى من تناول واستنطاق يُشكِّلُ بُرْهاناً كافياً

(١) البحث البلاغي عند ابن تيمية رحمه الله: دراسة وتقويمًا، مرجع سابق، ص ٦٢.

(٢) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، ط ٢، ص ١٠٤ (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م).

على حجّية تجاوز الحقيقة إلى المجاز، وعلى أهمية هذا المسلك في الإقناع.

وإن كان التفاوت شيئاً أساساً في جمهور متلقي الخطبة، فإنّ الأساليب الثلاثة المدروسة قد أثبتت قدرتها على معالجة هذا الإشكال، وذلك من جهة اعتمادها المشتركات وتأسيسها عليها، فمهما تفاوت المتلقون في تلقيهم لمعنى الشجاعة-مثلاً-فإنهم متفقون على أنّ الأسد رمز الشجاعة والإقدام، ومهما اختلف المتلقون في تقييم الكريم فإنهم مشتركون في معرفة مظاهر الكرم من كثرة الرماد ونحوه.

وإذا كانت الخطبة التراثية نصّاً شفاهياً يعتمد الإيجاز والتكثيف، فإنّ في الصورة من مراعاة هذا الجانب ما لا يُجهل وما لا يُقاربه أسلوبٌ من الأساليب، ذلك أنّ اشتغال الحواسّ بالمعنى المصوّر وانشغال المخيلة به كفيلاً بمضاعفة الدلالة وتركيزها وتمكينها من الذهن.

أخيراً، في حين أنّه لا يُشكّ في جدية النصّ الخطابي وانتحائه الغرضية والبعد عن التتميق والحشو والتكلف، فإنّه يمكن القول بأنّ الصورة في الخطبة-خاصةً-أسلوبٌ حجاجيٌّ إقناعيٌّ أولاً، وفنيٌّ جماليٌّ إمتاعيٌّ ثانياً.

خاتمة الفصل:

تناول هذا الفصل في مبحثه الأول عددًا من المفردات البلاغية في مستوى (الكلمة)، فجاءت تلك المفردات البلاغية شاهدًا على قصدية اختيار اللفظ وغرضيته، إذ إنَّ كلَّ اختيارٍ من اختيارات الخطباء في هذا المستوى مرَّتهنُّ بالعدول عن عددٍ من المترادفات والأشباه، وهو عدول حجاجيٍّ محكومٌ بمدى تأثير اللفظ وقوّته في الإقناع وقربه من المعنى المقصود.

ولقد جاء المبحث الثاني من هذا الفصل واضحًا في تحديد الغاية الحجاجية الكامنة وراء التفضيل في مستوى (التركيب)، فقد انطوت التراكيب البلاغية المدروسة على معانٍ إقناعية تُثبت دقّة الخطباء في تأليف كلامهم ونظمه بغرض تحقيق نتائج محدّدة، مما يسوّغ دراسة تلك الاختيارات التركيبية دراسة حجاجية بحتة.

أما ثالث مباحث هذا الفصل وآخرها، فإنّه تجلّى غايةً في الرّدّ على كلّ من يذهب إلى توقّف (الصورة) البلاغية عند تحقيق الغاية الإمتاعية، حيث كشف هذا المبحث عمّا انطوت عليه أشكال الصورة البلاغية الثلاثة من قيمة إقناعية ظاهرة بحيث تُشكّل مسلكًا من مسالك الحجاج المهمة من جهة تأسيسها على المشتركات المجمع عليها، ومن جهة تحويرها المتلقي إلى إنتاج معناها الخفي (معنى المعنى).

ويمكن القول في نهاية هذا الفصل بأنّ البلاغة العربية القديمة في كثيرٍ من جوانبها قد قامت على معايير حجاجية محسوبة، وهو ما قطعت به كثيرٌ من الأقوال البلاغية التراثية التي استند إليها هذا المبحث في كثيرٍ من مواضعه، انطلاقًا من تعريف البلاغة بالإفهام والاستدراك، ومرورًا بعدد من التعليقات والإمحاء الواضحة في الدلالة على القيمة الإقناعية والتأثيرية.

وعلى الرّغم من أهمية الأساليب (اللغوية) و(البلاغية) ودورها في تعزيز الإقناع، وتقوية الإفهام، وزيادة التأثير والإثارة، وفاعلية الاتصال بين الخطيب والمتلقي، فإنّها تُعدُّ وسائلٌ ممّهدة غير قادرةٍ على الاستقلال والاكتفاء بأنفسها، مما يدعو الخطباء إلى تعزيز خطبهم بعددٍ من الأساليب (العقلية) المتنوعة التي تعمل على إخضاع المتلقي والتأثير فيه وإقناعه، وهي ما سيدرسه الباحث في الفصل التالي.

الفصل الثالث

الأساليب المنطقية

ويشتمل على ما يلي:

المبحث الأول: الحجج شبه المنطقية.

المبحث الثاني: الحجج بالسبب.

المبحث الثالث: الحجج بالسلطة.

المبحث الرابع: ترتيب الحجج.

أفنى البحث صفحات فصليه السابقين في دراسة عدد من أهم الأساليب (اللغوية) و(البلاغية) المتداولة في المدونة، وسيكون هذا الفصل-بعون الله ومدده-مختصاً بدراسة عددٍ من الأساليب العقلية أو المنطقية؛ ذلك أنّ هذا النوع من الأساليب هو أسُّ العملية الحجاجية، وقوامها الفكري الذي تعتمد عليه؛ فيها يمكن للمحاج الاستدلال على صحّة أطروحته، ودحض الأطروحة المضادة ومعارضتها، أو التشكيك فيها على الأقلّ.

وإذا كانت الأساليب المنطقية متعددة وذات وجوه مختلفة، فإنّ عمليتي: الاختيار والترتيب هما المعيار الفاعل والأساس في قياس مدى الإصابة في تحقيق الغرض؛ فمدارُ نجاح خطابٍ ما وفشله عائدٌ-كما نقل الجاحظ-إلى «البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة»^(١).

وفي حين أنّه من الممكن التعبير عن الأفكار وتسويغها بعدد من الحجج المتنوعة والمختلفة، فإنّ ذلك يستدعي-حتمًا-قيام المحاج بإجراء عملية ذهنية تفاضلية تنتهي به إلى العدول عن أصل الكلام المجرد واختيار أقرب الحجج إلى تحقيق المعنى المقصود، ويمثّل هذا الاختيار الواعي في مجمله نظرة معرفية، أو أسلوبًا من أساليب إدراك العالم الممكن الذي يتناوله المُحاج^(٢).

ولا يُمكن الاستغناء عن ذلك النوع من الأساليب أو الحجج؛ ذلك أنّه لإقناع جميع المتلقين-بمختلف مشاربهم-فإنّه ينبغي على المحاج انتقاء أقوى الحجج والآليات العقلية التي يمكنها أن تحظى بقبول المتلقين ومصادقتهم، إذ إنّ الانسجام الإيجابي مع الفروض والمواقف المطروحة هو محور الحجاج؛ فليست الغاية من الحجاج سوى إحداث التأثير العملي الذي يمهد له التأثير الذهني^(٣).

وليس الترتيب أقلّ شأنًا من الاختيار؛ إذ يقتضي إدراج الحجج الاعتناء بإيرادها وفق نظام معينٍ يضمن لها نجاحتها، ويبرز قيمتها التأثيرية والإقناعية لدى المتلقين^(٤)، وإذا كان الترتيب سمةً

(١) البيان والتبيين، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٨.

(٢) ينظر: التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية، مرجع سابق، ص ٩٥. والإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٢٣.

(٣) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٨٥. والإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٠٥-١٠٦.

(٤) ينظر: رسائل الإمام علي في نهج البلاغة: دراسة حجاجية، مرجع سابق، ص ٨٢.

من سمات بناء العلاقات بين الأفكار داخل الخطاب، فإنَّ تنظيم الخطاب يستند إلى مبدأ الترتيب القائم على مراعاة المقتضى الترتيبي والأساس التفاضلي، ففي كلِّ ثقافةٍ من الثقافات أو مذهبٍ من المذاهب الفكرية فإنَّ المخاطبين يربِّون آراءهم وأفكارهم مستندين إلى ثقافة متلقيهم وعرفهم في ترتيب الأشياء والنظر إلى الموجودات^(١).

ولمَّا كانت الحجج تمثل صُلب الحجاج ومادته الأساسيَّة، فقد اعتنى منظِّرو الحجاج بحصر أكثر الحجج المشتركة، فانتهوا بهذا الحصر إلى إمكانية عزو كلِّ حجةٍ من الحجج إلى شكلٍ مُعيَّنٍ يحفظ لها خصوصيَّتها وسماتها الأساسية، وكان أهم اتجاهات هذا الحصر^(٢):

١- تصنيف (بيرلمان) و(تيتكاه)، الذي أطلقا عليه: تقنيات الحجاج؛ فقد خصَّصا له فصلاً كاملاً في مصنَّفهما: (الخطابة الجديدة)، ودرسا في هذا الفصل الحجاج من حيث قيامها على زوج: (الوصل) و(الفصل)، ولكلٍّ منهما طرائق؛ فطرائق الوصل هي التي تعمل على تقريب العناصر المتباينة؛ من خلال إقامة ضروبٍ من التَّضامن بينها، لإبرازها في بنيةٍ واضحةٍ مُتماسكة، أو تقويم أحد هذه العناصر بواسطة عنصرٍ آخر تقويمياً إيجابياً أو سلبياً، أمَّا طرائق الفصل؛ فإنَّها التقنيات المستعملة بقصد إحداث الفصل بين العناصر من خلال إفساد انسجامها وإذابة اللُّحمة بينها؛ لتحقيق غرضٍ حجاجيٍّ. وقد تجلَّى الاتصال الحجاجي عندهما في «ثلاثة مظاهر، هي: الحجاج شبه المنطقية، والحجاج المؤسَّسة على بني الواقع، والحجاج المؤسَّسة لبني الواقع»^(٣).

٢- تصنيف (تولمين) و(جانيك)، ويقوم على التمييز بين تسعة أنماطٍ من الحجاج؛ هي: الحجاج بالتمائل، أو بالتعميم، أو بالعلامة، أو بالسبب، أو بالسلطة، أو بالمأزق، أو بالتصنيف، أو بالمتعارضات، أو بالدَّرَجَة.

٣- تصنيف (فان إمران) و(قروتندورست)؛ ويعتمد هذا التصنيف على عشر قواعد يقوم عليها التَّقاش التَّقدي، وتحدِّد هذه القواعد العشر عقد التواصل لحجاجٍ منطقيٍّ مُعقَّلنٍ، وقد يؤدي الإخلال بأيِّ عنصرٍ من عناصر هذا العقد التواصل إلى تحوُّل الخطاب إلى حجاجٍ مُغالطي.

(١) ينظر: التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية، مرجع سابق، ص ٩١.

(٢) ينظر: الحجاج في قصص الأمثال القديمة، عادل بن علي الغامدي، ط ١، ص ١٤٣-١٤٤ (كنوز المعرفة، عمَّان، ١٤٣٧هـ).

(٣) بلاغة الإقناع: دراسة نظرية وتطبيقية، مرجع سابق، ص ١٦٧.

وقد أفاد الباحث- في صياغة مباحث ومتطلبات هذا الفصل- من الاتجاهين: الأول والثاني، مُراعياً في ذلك الأهمية والتوافق مع المدونة المدروسة، وكان الدافع إلى الاختصار على هذين التصنيفين هو: ما يحصل بالجمع بينهما من الدقة والشمولية؛ فبهما معاً تظهر الفوارق الخفية والدقيقة بين الحجج، كما تظهر شموليتهما من حيث إنه يندر أن يُصادف المستعين بهما حجة لا يمكن ردّها إلى أحد أصنافهما المُسمّاة^(١).

وإذا كان من المُفترض أن تتوجه الخطب إلى إثبات أو نفي أطروحة ما، أو التشكيك فيها، فإنّ على كلّ خطيب أن يعرض ويبيّن استدلالاً كاملاً وكافياً لتأكيد ما يذهب إليه من الإثبات أو النفي أو التشكيك، ولتباين المتلقين فقد تنوعت الحجج وتعدّدت في سبيل إقناع جمهور الخطبة على اختلاف ثقافتهم ومشاربهم وأهوائهم^(٢).

ويجدر بالباحث- قبل البدء بدراسة الحجج- التمييز بين (المنطق) و(الحجاج)؛ فلئن كان المنطق يتأسس على مسلمّات مقبولة؛ لا تخضع لأيّ طعنٍ ومناقشةٍ، فإنّ الحجاج يعتمد على منهج الشكّ في كلّ شيءٍ؛ فحينما يقال- مثلاً-: إنّ زوايا المثلث تساوي ١٨٠ درجة، فإنّه يُسلّم بتلك القاعدة الثابتة والمطرّدة، دون الحاجة إلى نقاشٍ في الهندسة، في حين أنّ الأمر في الحجاج/ البلاغة مختلفٌ تماماً؛ من جهة اتّصاف المعطيات الحجاجية ب(النسبية)؛ إذ قد يشمل الشكّ بعض المبادئ المُجمع عليها، فعلى سبيل المثال فإنّك لو انطلقت من القاعدة التي تقول: (احترام الآباء ضرورة لازمة)، فإنّك ستواجه في الواقع ما يقتضي عدم التسليم المطلق لتلك القاعدة؛ فماذا لو كان الأب مُرْتَشِياً- مثلاً- فهل يجب احترامه؟.

ولما سبق فإنّ (بيرلمان) يذهب إلى أنّه- خلافاً للمنطق- لا يوجد في البلاغة (الجديدة) أيّ إلزامٍ بالاعتناع بقضيةٍ أو بالتخلي عنها؛ بسبب احتمال وجود تناقض يمكن أن يلغي صلاحية هذا الإلزام، وعليه فإنّه يصحّ القول بأنّ الحجاج بهذا المعنى مخالفٌ للمنطق ويسير خلاف

(١) ينظر: الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ١٩٠.

(٢) ينظر: الحجاج في الفلسفة وفي تدريسها، حميد اعبيدة، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، مرجع سابق، ج ١،

اتجاهه^(١)، الأمر الذي يجعل «مجال الحجاج هو التّسبي المحتمل؛ فلا يكون التّقاش إلا في موضع الشكّ، وقد يبدأ المحتجّ بمقدماتٍ متّفقٍ عليها، ولكنّها ليست بالضرورة صادقةً لتُفضي إلى نتائج ملزمة؛ بل هي مُمكنةُ الوقوع؛ لذلك يمكن للمحاجّ أن ينطلق من وقائع مواضع تشكّل محلّ اتفاقٍ مبدئيٍّ»^(٢).

ويشكّل هذا المجال التّسبي الذي يتحرك فيه الحجاج حوارًا مبنياً على الحرّيّة والمعقول والمحمّل؛ من أجل الوصول إلى وفاق بين الأطراف المتحاورّة، بعيداً كلّ البعد عن الصّرامة والاعتباطية واللامعقولية أو التلاعب، وبعيداً عن الإلزام والاستلاب اللذين يطبعان المنطق^(٣).

وتتراوح الحجج-غالبًا-بين:

- ١- حجج عقلية (شبه منطقية) ترمي إلى صحّة الفكرة ومشروعيتها؛ بفعل ما تحمله من بُعد عقلاي تستمدّه من علاقتها ببعض الصيغ المنطقية والرياضية.
- ٢- وحجج واقعية تُبرّر الفكرة بالاستناد إلى واقع معترف به ومسلّم له (الحجاج بالسبب، الحجاج بالسلطة)^(٤).

وعلى هذا الأساس التفاوتيّ سار الباحث في دراسته لحجج المدونة في هذا الفصل:

(١) ينظر: الإمبراطوريّة الحطّابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٢٣-١٢٤. والحجاج في الدرس اللغوي الغربي، بوزناشة نور الدين، مجلة علوم إنسانية، السنة ٧، العدد ٤٤، ص ٨ (شتاء ٢٠١٠م).

(٢) الروابط الحجاجية في شعر أبي الطيب المتنبي: مقارنة تداولية، خديجة بوخشرة، رسالة ماجستير، ص ٧٩، جامعة وهران، الجزائر (٢٠٠٩-٢٠١٠م).

(٣) ينظر: بلاغة الإقناع: دراسة نظرية وتطبيقية، مرجع سابق، ص ١٥٧. ورسائل الإمام علي في نصح البلاغة: دراسة حجاجية، مرجع سابق، ص ٧٠.

(٤) ينظر: في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٤٩. والحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٨٧.

المبحث الأول: الحجج شبه المنطقية:

وهي الحجج التي تتمثل الحُطاطات والشكليات المنطقية الصارمة؛ مثل: (التناقض) و(العدل)، أو العلاقات الرياضية؛ مثل: (التعددية) و(التقسيم)، وتوصف تلك الحجج بأنها الأكثر قُرباً للبرهان والاستدلال الصوري، إلا أنها ومع هذا القرب تبقى شبيهة بالمنطق غير مطابقة له؛ ذلك من جهة قبولها النقاش وبعدها عن الإلزام وانفتاحها على شتى التأويلات والتقديرية؛ إذ لا يمكن إخضاع أيٍّ من هذه الحجج لمعيار الخطأ والصواب، فلئن كانت البرهنة تتبلور داخل نسق منضبط ومحدد، فإنَّ هذا النوع من الحجج يُعرف بخروجه عن هذا النسق الدقيق^(١).

ولتقريب ما سبق فإنه يُستعان دائماً بالتمثيل بالمقولة المشهورة: (صديق صديقي صديقي)؛ فهذه المقولة صلة واضحة بقانون التعددية الذي يقول: إنه إذا كانت (أ) تتضمن (ب) وكانت (ب) تتضمن (ج) فإنَّ (أ) لا بُدَّ أن تتضمن (ج)، إنَّ هذا المثال للدليل واضح على منطقيَّة هذه الحجج ولا منطقيَّتها، وعلى قوتها وضعفها، وعلى ميزتها وعيبها؛ فالقول بأنَّ (صديق صديقي صديقي) لا يلزم منه أن يكون جميع أصدقاء أصدقائي أصدقاء لي بالفعل وبلا جدال؛ فقد يكون صديق الصديق عدوًّا من جهة ما، كما يقتضي هذا القول-قياساً- أن يكون (عدوُّ عدوي عدوي)، وليس هذا وارداً على الإطلاق؛ إذ الوارد أن يكون عدوُّ العدو صديقاً؛ بموجب الاشتراك في العداوة^(٢).

إنَّ في حصر الحجج في النسبيِّ والمحتمل نفياً ظاهراً لتمام منطقيَّة هذه الحجج مهما كان توصلها بالمنطق وادعائها إيَّاه؛ فهي، وفي أقصى حالاتها قرباً للمنطق، تبقى في منزلة بين منزلتين، إلا أنَّ هذه المنزلة المتأرجحة تُعدُّ سرَّ قوتها وسبب فاعليتها في الإقناع^(٣).

أمَّا من حيث التركيب، فإنَّ الحجج شبه المنطقية تنقسم إلى فرعين رئيسين: فرعٍ يستند إلى

(١) ينظر: الحجج، كريستيان بلانتان، ترجمة: عبد القادر المهيري، ص ٦٦ (دار سيناترا، تونس، ٢٠٠٨م). وفي نظرية الحجج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٤٢. والإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٢٤-١٢٥.

(٢) ينظر: تاريخ نظريات الحجج، مرجع سابق، ص ٤٧. والإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٤٩.

(٣) ينظر: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، مرجع سابق، ص ٣٧٦. وبلاغة الإقناع: دراسة نظرية وتطبيقية، مرجع سابق، ص ١٦٧.

البنى المنطقية، وفرع آخر يعتمد العلاقات الرياضية^(١):

١- الحجج شبه المنطقية:

وهي الحجج التي تستلهم في تكوينها بعض البنى والأشكال المنطقية البعيدة في تكوينها عن الأشكال الرياضية، وتأتي هذه الحجج على أشكال متعددة، من أهمها:

١-أ- التعارض أو عدم الاتفاق:

وينشأ هذا النوع من الحجج عمّا لدى الخصم من تعارض وعدم اتفاق؛ ذلك أنّه (الخصم) قد يقصد إثبات قاعدة ما، أو يؤكّد أطروحة أو موقفًا ما، فيؤدّي به ذلك إلى المفارقة والمخالفة مع موقف سابق أو قاعدة أو أطروحة مثبتة سابقًا، ويكثر استعمال هذا النوع من الحجج في الردّ على خطاب الخصم أو موقفه المشتمل على متعارضين يمنع المقام اتفاهما؛ كأنّ يحذّر أحدهم من مغبة الرشوة وهو في الحقيقة من أهلها^(٢).

والحقيقة أنّ «التناقض هنا ليس ظاهرًا أو صوريًا منفصلاً عن إرادتنا، فهو لا ينتمي إلى لغة منطقية صورية أحادية المعنى، وإنّما ينتمي إلى لغتنا الطبيعية التي تقبل مستويات مختلفة من المعاني والتفسيرات، لأجل ذلك يقوم المتكلم بإبراز ما يراه غير متوافق في خطاب خصمه؛ في شكل علاقة منطقية هي التناقض؛ التي من شأنها تقويض الخطاب وهدم حججه، ولذلك كانت هذه حجة شبه منطقية؛ لتوسلها بالشكل المنطقي في قوة أدواته، بينما الأمر لا يعدو في حقيقته أن يكون وجهة نظر المتكلم ووجهاته الحجاجية»^(٣).

وعلى الرغم من أنّ اللغة الطبيعية لغة واسعة وفضفاضة؛ تحتمل الكثير من التأويلات وتسمح بشيء من عدم التوافق، إلا أنّه بإمكان المحاجّ البصير استغلال هذه الثغرة (التناقض في الظاهر) باتخاذها حجةً تُبين تعارض وجهة نظر الخصم وتخلخل نظامها المنطقي، وتُحيلها إلى نقطة ضعفٍ

(١) ينظر: الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ١٩٢.

(٢) ينظر: في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٤٢-٤٣. وبلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق،

ص ٩٢. وبلاغة الإقناع: دراسة نظرية وتطبيقية، مرجع سابق، ص ١٦٨. والحجاج الخطابي: أسسه وتقنياته من خلال

(ثمرات الأوراق) لابن حجة الحموي، مرجع سابق، ص ١٣١.

(٣) الحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٤٦.

تُكشف المعنى وتجعله محلاً للسخرية والاستهزاء^(١)، وذلك مما يجعل مهمّة المحاجّ المتمكّن فضح هذا التناقض والضغط على الخصم «بواسطة النتائج الناجمة عن مبادئه الخاصّة، أو عمّا يوافق عليه هو نفسه»^(٢).

وفيما يلي فإنّ الباحث سيحاول الاستشهاد بأوضح شواهد المدوّنة التي تكشف أهمية هذه الحجّة وتدلّ على قيمتها وأصالتها، مبتدئاً بما ورد في خطبة عبد الله بن بديل الخزاعي رضي الله عنه (صقّين)؛ إذ كان مما قال: ((إنّ معاوية ادّعى ما ليس له، ونازع الأمر أهله، ومن ليس مثله، وجادل بالباطل، ليدحض به الحق))^(٣).

فقد أراد الخطيب رضي الله عنه بهذا القول كشف ما لدى معاوية رضي الله عنه من تعارض وعدم اتفاق؛ لأنّه بادعائه ما ليس له ومنازعتة الأمر أهله وجداله بالباطل، إنّما يقذف بباطله على حقّ عليّ رضي الله عنه، فكيف يسوغ اتّخاذ الباطل طريقاً إلى الحقّ؟.

إنّ هذا الشاهد ينتهج-بشكل واضح-حجّة (التعارض)؛ ذلك أنّ فعل معاوية رضي الله عنه يُخالف-صراحةً-القاعدة المشتركة التي تتأسّس على أنّ الحقّ لا يمكن أن يُسعى إليه إلا بالحقّ، ومن شأن هذا التعارض المنطقي أن ينتهي بالملتقي إلى نتيجة ظاهرة مفادها أنّ الغاية من سعي معاوية رضي الله عنه هي إبطال الحقّ وإزالته^(٤).

ولئن وُجد من يصوّب فعل معاوية رضي الله عنه ويذهب إلى صحّة دعواه، فإنّه يقال: «إنّ الملفوظات في اللغة الطبيعية-بما تحيل عليه من قضايا-قابلة لتأويلاتٍ مختلفة، وهذا الاختلاف لا يعني العبث أو عدم الانسجام، لأنّ كلّ تأويل ينزع نحو اختيارٍ معيّن يبرّره ويُقصي بوعي الاختيارات الأخرى؛ ولذلك فعدم الاتفاق في الحجاج مصدره: ظروف الخطاب، وطبيعة الأشياء موضوع هذا الخطاب، وقرارات المشاركين فيه. والقرار الإنساني محمّلٌ دومًا بالإمكان والتعدّد

(١) ينظر: السابق، ص ١٤٧.

(٢) الحجاج، كريستيان بلانتان، مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٥٢.

(٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١٥، ص ٣٥٢.

وعدم التوقع، لكنّه على الدوام مبنيٌّ ومبررٌ، وإلا تحول إلى هزء»^(١).

وقد تكون حجة (التعارض) السبيل الأوفى لإظهار الفشل وخطل الدعوى؛ ذلك من خلال إبراز التعارض بين أفعال الخصم نفسه، نحو ما ورد في خطبة النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه إذ وقف بين الصقيين بـ(صقيين) فقال: ((يا قيس بن سعد: أما أنصفكم من دعاكم إلى ما رضي لنفسه؟ إنكم يا معشر الأنصار، أخطأتم في خذل عثمان يوم الدار، وقتلكم أنصاره يوم الجمل، وإقحامكم على أهل الشام بصقيين، فلو كنتم إذ خذلتهم عثمان خذلتهم علياً، كان هذا بهذا، ولكنكم خذلتهم حقاً، ونصرتهم باطلاً... فضحك قيس بن سعد وقال: والله ما كنت أراك يا نعمان تجترئ على هذا المقام، أما المنصف المحق فلا ينصح أخاه من غشٍ نفسه، وأنت والله الغاش لنفسه، المبطل فيما نصح غيره))^(٢).

إذ يتضح جلياً من هاتين المقاتلتين اعتماد النعمان وقيس رضي الله عنهما على حجة الاختلاف وعدم الاتفاق؛ ذلك أنه يجب على من رام الحق أن تتفق أفعاله وتتحد أقواله، وأما السعي إلى الحق بالاختلاف والمناقضة فهو عين الباطل ولبه وأساسه.

ولاعتماد قيس رضي الله عنه الحجة نفسها دورٌ حجاجيٌّ ظاهر في الردّ والإبطال؛ ذلك من جهة نسخ حجة النعمان رضي الله عنه؛ إذ إن اتحاد الحجتين في الجنس يجعل المتلقي مرهناً بالناسخ عن المنسوخ، وإلى ذلك فإن في قول سعد رضي الله عنه: (أما المنصف المحق فلا ينصح أخاه من غشٍ نفسه) مفارقةً سافرةً، بين دعوى (الإنصاف) والنتيجة السلبية لتلك الدعوى (الغش)، مكنت الخطيب من إثبات صحّة مذهبه في دحضه الأطروحة ودفعه إيّاها^(٣).

ولئلا يكون الخطيب محلاً للتناقض والتضاد، فإنه مطالبٌ دومًا بتدقيق ألفاظه وترتيب أفكاره، كما أن عليه استثمار هذه الحجج في سبيل كشف الخصم وفضحه؛ فمجال الحجاج إمطة اللثام

(١) بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٩٢.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٦٦.

(٣) ينظر: الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ١٩٤.

عن التعارض في أطروحات الخصم^(١).

ويُمكن لحجة (التعارض) أن تكون طريقاً إلى تقويض الأطروحة المضادة؛ من حيث عدم الاتفاق بين فعل الخصم وقوله، من قبيل ما ورد في خطبة عبد الملك بن مروان وقد خطب الناس مرةً ((فلمّا بلغ الغلظة، قام إليه رجل من آل صوحان، فقال: مهلاً مهلاً يا بني مروان، تأمرون ولا تأمرون، وتنهون ولا تنهون، وتعظون ولا تتعظون، أفنقتدي بسيرتكم في أنفسكم، أم نطيع أمركم بألسنتكم؟ فإن قلت: اقتدوا بسيرتنا، فأنتى وكيف؟ وما الحجة؟ وما المصير من الله؟ أفنقتدي بسيرة الظلمة الفسقة، الجورة الخونة، الذين اتخذوا مال الله دواً وعبيده خولاً؟ وإن قلت: اسمعوا نصيحتنا وأطيعوا أمرنا، فكيف ينصح لغيره من يغش نفسه؟))^(٢).

فإذ لم يهّن على هذا الرجل أن يعاملهم الخليفة بهذه الغلظة وبهذا المستوى من الجفاء، فإنه قد عارضه بما يكشف سبق الخلافة إلى المجاوزة والمخالفة، فبنو مروان بهذه الازدواجية كمن يُجرّض الناس على فعل الصواب ويرضى لنفسه بالخطأ، وكمن يأمر الناس بالبرّ وينسى نفسه. إن في إظهار الخصم بهذا المظهر الحرج تضييقاً لمقامه واستخفافاً به، ورداً جلياً على حقه في الغلظة، ونفيًا لحقه في التّطاول؛ إذ كيف يحقّ له أن يطلب ويلحّ وهو أول من قصّر في أداء ما عليه من حقوق.

وحين يتخذ الخطيب من هذه الحجّة طريقاً إلى الانتقاد، فإنه إنّما يسعى إلى المقارنة بين الواقع المتناقض وبين الواقع المتكامل الذي يطمح إليه، ففضلاً عما تحمله هذه الحجّة من معنى ظاهري، فإنّها تنطوي أيضاً على اقتراح واقِعٍ إيجابيٍّ منسجمٍ وخالٍ من المخالفة والتعارض^(٣).

ومن هذا النوع من الحجج، أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كتب ((إلى أخيه عتبة بمصر أن قبلك قوماً يطعنون على الولاية، ويعيبون السلف، فخطبهم فقال: يا أهل مصر: خفّ على ألسنتكم مدح الحق ولا تفعلونه، وذم الباطل وأنتم تأتونّه، كالحمار يحمل أسفارا، أثقله حملها،

(١) ينظر: في نظرية الحجج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٥٥.

(٣) ينظر: تمثيلات حجج الاتصال شبه المنطقية في نثر العصر العباسي الأول، محمد صبري تومان، مجلة بحوث الشرق

الأوسط، العدد ٥٦، ص ٢٨٠-٢٨١ (٢٠٢٠م).

ولم ينفعه علمها))^(١).

ففي هذا القول لعتبة توييح لأهل مصر، وتبكيث لهم وسخرية بهم، إذ يقولون ما لا يفعلون ويأتون ما عنه ينهون، فأقوالهم غير المترجمة إلى أفعال، إنما هي إفك وكذب يجب أن يؤخذوا به، كما أن إتيان المنكر مع علم حرمة وإدراك مخالفته أعظم جريرة وأحق بالاستنكار والهزء؛ إذ إن في ذلك جمعاً مقيماً بين الكذب والتزوير والבלاهة والمعاداة، وبناء عليه فإن دعوى أهل مصر في ذمّ الولاة والطعن عليهم وعيب السلف، إنما هي دعوى متناقضة غير صالحة للاستعمال^(٢).

والواقع أن الحجج القائمة على التناقض وعدم الاتفاق كثيراً ما تقود إلى (الإضحاك)؛ ذلك أنّها تُوقّع الخصم في الحرج وتقوّض ما يبينه، بل إنّها تجعل الدعوى المضادة مصدرًا للسخرية؛ إذ تُبرز عبثية الخصم، وتوغّل في تصوير المفارقة الصارخة لديه^(٣)، وإذا كانت السخرية ليست شيئاً محبوباً أو مطلوباً، فإنّ «الخوف من إثارة السخرية، ومما تؤدي إليه من فقدانٍ للاعتبار وسيلة ناجعة للحجاج والتربية، ومن أراد أن يحفظ تقدير الآخرين له فإنّه سيعمل على تجنبها بأيّ ثمن»^(٤).

بهذا التوسّل المنطقي تتجلى حجج التناقض وعدم الاتفاق سلاحاً مجدياً وطريقاً مُقنِعاً إلى نقض الأطروحة وردّها، وإفحام الخصم وإماطة اللثام عنه؛ بإظهاره مظهر المزدوج العابت والمُدان المخطئ، ويعدُّ هذا النوع من الحجج مظهرًا من مظاهر قوّة الخطيب وتمكّنه من الحجاج، ذلك من جهة قدرته على إبراز المتفق بمظهر المختلف المتناقض.

١-ب- التماثل والحدّ^(٥):

ومدارُ هذه الحجة: التعريف؛ من جهة أنّه تعبيرٌ عن التماثل بين (المعرّف) و(المعرّف)، وغنيٌّ

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٢٢.

(٢) ينظر: الحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٤٦.

(٣) ينظر: الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ١٩٨.

(٤) الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٣١.

(٥) اعتمدت هذا المصطلح وتركت تسميات استعمالها آخرون مثل: المطابقة والتعريف والتحليل وتحصيل الحاصل، استعمالها محمد الناصر كحولي، ينظر: الحجاج الخطابي: أسسه وتقنياته من خلال (ثمرات الأوراق) لابن حجة الحموي، مرجع سابق، ص ١٣٤. الهوية والتحديد والدور، استعمالها محمد الولي، ينظر: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، مرجع سابق، ص ٣٧٨.

عن القول بأنه لا يُمكن قصر معرّفٍ ما على تعريفٍ/حدٍّ واحدٍ فقط؛ ذلك أنّ لكلِّ كلمةٍ أو مصطلحٍ تحديداتٍ متنوّعةٍ وأخرى مُمكنةٍ، وشبهه منطقيّة هذه الحجّة حاصلٌ عن ادعاء التماثل بين: المُعرّف والمعرّف، ذلك أنّك لو أخضعتهما إلى الدراسة الدقيقة فإنّك ستنتهي إلى ما ينقض تطابقهما مطابقة تامّة^(١).

وتعدُّ حجج هذا النوع إحدى الظواهر الأسلوبية في الخطابات عامّة؛ ذلك أنّه يُفترض -دائمًا- تعدُّد المعاني وتعرضها للاحتمال، مما يجعل المتكلم مضطرًّا إلى حدّ المقصود واختزاله بتعريفٍ ذاتيٍّ مُحَمَّلٍ بالمعنى الحجاجي^(٢).

ويجد المتأمل أنّ هذه الحجّة شائعة ومطروقة في شتّى خطاباتنا اليومية، من قبيل القول: (الدنيا هي الدنيا) أو: (الأُمُّ تبقى دائما أمًّا)؛ فمعلومٌ أنّ الدنيا عوالمٌ متناهيةٌ ومعانٍ متعددةٌ لا يمكن حصرها في حدٍّ واحدٍ، ومثلها الأُمُّ، وبسبب افتقار التعريف في هذين المثالين إلى الدقة والوضوح فإنّه يمكن القول: إنّهُ مهما تظاهر التعريف بالدقّة فإنّه يظل في حيز الشبه بالمنطق الذي لا يتجاوز مجرّد ادعاء الضبط والتحديد، وعلى الرغم من مخالفة (التعريف) للمنطق إلّا أنّ معناه يبقى مفهومًا ومقبولًا، بحيث لا يمكن رده، مهما وُصفَ بالتكرار أو الاعتباطية^(٣).

وفي الحجاج فإنّ الباحث الحجاجي معنيٌّ بهذه الحجّة؛ من جهة أنّ (المعرّف) غير مطابقٍ تمامًا لـ(المعرّف)، مما يبرّر القول: إنّ التكرار الذي يحمله (المعرّف) تكرارٌ ظاهريٌّ لا يمكن أن يخلو من معنى إقناعيٍّ إضافيٍّ مقصود، ذلك أنّه لا بدّ أن يحيل إلى معنى مختلفٍ عن المعنى الأول من جهةٍ ما^(٤).

ولكثره ما يُطرق هذا النوع من الحجج فقد أصبحت بعض صيغته من قبيل الحُكْم المتداولة

(١) ينظر: في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٤٥. والحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢٠١.

(٢) ينظر: تاريخ نظريات الحجاج، مرجع سابق، ص ٤٨. ورسالة: الحجاج في النص القرآني: (سور الحواميم) أنموذجًا، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٣) ينظر: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، مرجع سابق، ص ٣٧٨. والحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، مرجع سابق، ص ١٢٨. وفي نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٤٥. والإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٣٨.

(٤) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، مرجع سابق، ص ١٢٨.

والمشتركة؛ نحو قولهم: (المرأة هي المرأة) أو (الباطل باطل)، إلا أنه ينبغي التنبيه إلى أن هذه الصيغ الحجاجية لا يمكن أن تكتسب دلالتها الحجاجية المخصوصة إلا بعد ربطها بمقامٍ معيّن^(١).

ولئن كانت «خاصية اللغة الطبيعية البارزة هي التنوع المدهش للتحديدات التي يمكن أن تُقدّم للفظ نفسه»^(٢)، فإنّ حجة التعريف تُعدّ مؤشراً على قوّة المحاجّ وتمرسه بالحجاج، ذلك من جهة خبرته في اختيار أكثر التعريفات تماساً مع أطروحاته وأقربها إلى تحقيق النتيجة.

ولكشف أصالة هذا النوع وأهميته في المدونة، فقد اعتنى الباحث باختيار أوفى الشواهد الدالة، ومنها قول أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في بعض خطبه: ((أيها الناس: إنّ أصحاب النبي صلى الله عليه وآله الذين صحبوه في المواطن، أعلم بالله-جل وعز- وبرسوله صلى الله عليه وآله ممن لم يصحبه))^(٣).

فإذا كانت الصُحبةُ صفةً تستلزم المُصاحبة ابتداءً، فإنّ قول أبي موسى رضي الله عنه: (الذين صحبوه في المواطن) لا يمكن أن يُحمل على الحشو والزيادة غير المقصودة، إذ إنّ في ورودهِ زيادةً حجاجيةً تهدفُ إلى تعظيم أمر الصحابة وأهمية الاسترشاد بهم، فهم أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وآله وأحقّ الناس بعده بالاتباع.

وإلى هذا المعنى، فإنّ في هذا التّعريف مُحاصرةً للمتلقين المستهينين بأمر الصحابة رضوان الله عليهم؛ فقد اختصّ الله هؤلاء الصحابة-دون غيرهم- بفضل صحبة نبيّه وتلقّي سنّته صلى الله عليه وآله، وتلك منقبةٌ عالية لا يمكن لغيرهم أن يساموها أو يدعيها، ومؤهلٌ ثابتٌ يجعل هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم أقدر على إدراك كلامه صلى الله عليه وآله.

وبتلك المعاني فإنّه يمكن القول بأنّ التعريف الحجاجي استراتيجية مثلى من استراتيجيات الكشف والتبوير، إذ يُشكّل التعريف إبرازاً لبعض مظاهر المعرفّ وإعادة تأطير له؛ بحلّة جديدة مقاميةً تنغيّاً سوق المتلقي إلى معنى لم يعتده ولم يسبق له التفكير به^(٤).

(١) ينظر: في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٤٤. والحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢٠٠. ورسالة: الروابط الحجاجية في شعر أبي الطيب المتنبي: مقارنة تداولية، مرجع سابق، ص ٨١.

(٢) الاستعارة في محطّات يونانية وعربية وغربية، مرجع سابق، ص ٣٧٨.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٩٦.

(٤) ينظر: بحث: تقنيات الحجاج في كتاب: (حوار مع صديقي الملحد) للدكتور مصطفى محمود، مرجع سابق، ص ٤١٣.

إنَّ من المفيد للخطيب - كما يقول (بيرلمان) - «أنَّ يُلحَّ طويلاً على بعض العناصر غير المرئية، لكي يخلق الحضور؛ فبتمديد الاهتمام الذي يُؤلَّى لها يقوى حضورها في وعي المستمعين، فالتوسع في موضوع ما هو وحده الكفيل بخلق الانفعال المنشود»^(١).

ومما استحسنته الباحث من شواهد هذا النوع، ما جاء في معرض خطبة الحسين بن عليٍّ رضي الله عنهما في معترضيه طريقه إلى الكوفة من أتباع عمر بن سعد بن أبي وقاص، إذ يقول: ((أيها الناس: إذ كرهتموني، فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض، فقال له قيس بن الأشعث: أو لا تنزل على حكم بني عمك؟ فإنهم لن يُزوك إلا ما تحبُّ، ولن يصل إليك منهم مكروه، فقال له الحسين: أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل^(٢)؟ لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرُّ إقرار العبيد))^(٣).

فالتأمل في قول الحسين رضي الله عنه: (أخو أخيك) في هذا المقام تحديداً، لا يمكن أن يحمله على اللغو أو الزيادة غير المحمودة، إذ يُشكّل هذا القول حجة تعريفية عاملة تكشف مخادعة المعنى ولؤمه؛ فهو اليوم مع الحسين رضي الله عنه مثل ما كان أخوه أمس مع مسلم بن عقيل رضي الله عنه.

وإذ اختار الحسين رضي الله عنه مواجهة قيس بن الأشعث بهذا التعريف فإنما أراد بذلك أن يجعله في موقفٍ حرجٍ لا يمكنه إنكاره أو الانفكاك عنه؛ حيث إنَّ التماثل الظاهر مما يصعب دفعه أو التغافل عنه؛ وأتَّى لعاقلي أن ينكر أنه أخو أخيه أو ابن أبيه، وبذلك فإنه يتضح أنَّ الطَّاقة الحجاجية لهذه الخطبة كامنة في المعنى الإضافي الذي ينطوي عليه هذا التعريف؛ فكيف يثقُّ الحسين رضي الله عنه به؟ وكيف يُجيبه إلى طلبه وقد فعلها أخوه قبل مع ابن عمه رضي الله عنه؟^(٤).

وتكمن أهمية مثل هذا التعريف في إقحام المتلقي على المشاركة في إنتاج الحجاج؛ إذ إنَّ كلَّ

(١) الإمبراطورية الحطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٢) حيث إنَّ محمداً بن الأشعث هو الذي اقتاد بن عقيل رضي الله عنه من محبته وقدمه لابن زياد. ينظر: جمل من أنساب

الأشراف، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٣٩.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٥٣.

(٤) ينظر: الحجاج في الشعر العربي: بنيتة وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢٠٠. والحجاج في كلام الإمام الحسين، مرجع سابق،

من يتلقى هذا التعريف لابد أن يبذل جهده في سبيل استنتاج سبب وروده وتسويغ عدول الخطيب إليه في هذا المقام، وبهذه المساءلة المقامية فإنَّ المتلقي لابد أن يكون عرضة للتأثر والانفعال^(١).

ومن هذا النوع أيضاً، أنَّ معاوية رضي الله عنه جمع (عبادلة) قريش فخطبهم بشأن ولاية يزيد من بعده، فكان من جملة قوله: ((ولم يمنعني أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أنَّهما أولاد أبيهما، على حسن رأيي فيهما، وشديد محبتي لهما))^(٢).

فلئن كان اختيار معاوية رضي الله عنه تعريف الحسن والحسين رضي الله عنهما بقوله: (أولاد أبيهما) فضلةً في ظاهره وزيادةً مطابقةً، من حيث الإحالة العامة إلى المعنيين رضي الله عنهما، إلا أنَّه في حقيقته الحجاجية اختيارٌ موفقٌ وواعٍ ومقصودٌ؛ ذلك من جهة اعترافه رضي الله عنه وإقراره بفضلهما رضي الله عنهما، وإعلاء شأنهما، وإظهار قناعته بأنَّهما لا يمكن أن يجيباه إلى مبايعة يزيد وهما على ما هما عليه من القدر والفضل والعلو.

وبموجب هذا التماثل فإنَّ معاوية رضي الله عنه يكون قد تمكَّن من تحقيق نتيجتين:

- ١- تبرئة نفسه من معبَّة اهتزامهما رضي الله عنهما، والتقصير في حقِّهما.
 - ٢- تبرير إعراضه عن دعوتهما وطلبهما للمبايعة؛ ذلك أنَّ التعريف ب(أولاد أبيهما)، يقتضي عدم تنازلهما عن حقِّهما إلا إذا تخلَّى الأب عن ابنه والابن عن أبيه، وهذا ضربٌ من المستحيل.
- ولئن بدا هذا التعريف في ظاهره نوعاً من الترادف، فإنَّ التحليل قد كشف عن نوعٍ من «الترادف التصاعدي»؛ حيث تُكرَّر الفكرة نفسها بواسطة ألفاظ مختلفة تبدو كأنها تصحِّح التفكير نحو معنى معيَّن»^(٣).

ومما يُحمل عليه، قول قتيبة بن مسلم الخراساني الوارد في معرض خطبته في أهل خراسان حين خَلَع سليمان بن عبد الملك: ((والأعراب، وما الأعراب؟ لعنة الله على الأعراب، يا كُنَّاسة

(١) الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٤١-١٤٢.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٤٦.

(٣) الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١١١.

المصريين، جمعتم من منابت الشيخ^(١) والقيصوم^(٢)، ومنابت القلقل^(٣)، تركبون البقر والحمر في جزيرة ابن كاوان^(٤)؛ حتى إذا جمعتم كما يُجمع قَزَع الخريف^(٥) قلتُم: كيت وكيت، أما والله إنِّي لابن أبيه، وأخو أخيه^(٦).

إنَّ أشدَّ المتلقين بلاهةً، وأكثرهم غباءً وسداجةً، لا يمكن أن يجهل أن الخطيب ابنٌ لأبيه وأخٌ لأخيه، غير أن قتيبة بن مسلم لم يقل ذلك في هذا المقام إلا لغاية حجاجية تتجلى في حمولة هذا القول الضمنيَّة؛ ف(قتيبة) حين يختزل نفسه في هذا التعريف، إنما يُبالغ في الاكتفاء بذاته بعد أن يُيس من مؤازرتهم، فهو من القوَّة بحيث لا يحتاج إلى غيره، وهو من الكثرة والمنعة بحيث لا يطمع في أحدٍ.

وتظهر أهميَّة هذه الحجَّة في قوَّتھا وصعوبة نقضها أو دحضها، فلئن رام أحد المتلقين ذلك فإنَّه لن يجد ما يسعفه في إنكار هذا التعريف أو الردِّ عليه، وبذلك فليس التعريف إلا طريقاً شكلياً مُحصَّناً يتوخَّاه الخطيب بُغية سوق المتلقين نحو نتيجة معينة^(٧)، مما يُبرِّر القول بأنَّ «تحديد الموجودات والأحداث والمفاهيم لا يقوم على الاعتبار أو البداهة؛ بل هو قائم على التبرير الحجاجي؛ ذلك لأنَّ التعريف يحرك العملية الاستدلالية، ويقدم اختيارات دون أخرى، كما يشكّل حُكماً على الأشياء أو تقويماً لها»^(٨)

ويبدو هذا النوع من الحجج كافياً في الدلالة على اختلاف المنطق عن الحجاج، ذلك أنَّه

(١) الشيخ: نبت سُهلِيّ يُتخذ منه المكانس، له رائحة طيبة وطعمٌ مُرٌّ، ومنابته القيعان والرياض. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج٦، ص٥١١.

(٢) القَيْصُومُ: نبت من نباتات السهل ذات الرائحة الزكيَّة، وورقه هَدَبٌ نورة صفراء. ينظر: السابق، ج٣٣، ص٢٨٢.

(٣) القِلْقَلُ: شجرٌ حسن الرائحة له حبٌّ عِظَامٌ ويؤكل. ينظر: السابق، ج٣٠، ص٢٧٧، ٢٧٨.

(٤) جزيرة ابن كاوان: جزيرة عظيمة بين عُمان والبحرين، افتتحت أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت من أجلّ الجزائر البحرية، عامرة أهلة وفيها قرى ومزارع. ينظر: معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، ج٢، ص١٣٩ (دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ).

(٥) قَزَعُ الخَرِيفِ: قطع السحاب في أول الشتاء، والسحاب فيه ينشأ متفرقاً غير متراكم ولا مُطبَّق، ثم يجتمع بعضه إلى بعض بعد ذلك. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج٢٢، ص٥.

(٦) جمهرة خطب العرب، ج٢، ص٣٠٨.

(٧) ينظر: في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص٤٥.

(٨) بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص٩٢.

مهما تظاهر التعريف بالدقة والمحايدة فإنه يبقى غير مطابق للمعرف، إذ لم تخلُ التعريفات المدروسة من الاختلاف أو النقص من جهة ما، غير أن عدم المطابقة يُمثل سرّ الطاقة التوجيهية الكامن في تلك التعريفات.

١-ج-الحجج القائمة على قاعدة العدل والتبادلية^(١):

وهي الحجج التي تقوم على «حفظ نسبة الاستحقاق لطرفين متماثلين»^(٢)؛ استناداً إلى مبدأ العدل والمعاملة بالمثل، وهو مبدأ منطقي خالص؛ إذ لا يوجد أيّ سبب يُبيح التعامل مع الطرفين بشكل مختلف^(٣).

وإذا كان الأصل معاملة الأصناف التي تنتمي إلى فئة واحدة بالطريقة نفسها، فإنّ الأمر يختلف في الحجاج؛ إذ يظلُّ المتكلم هو صاحب القرار في جعل الأشياء المختلفة تتشابه وتتساوى دون فروقات بينها؛ ليسوّج بذلك تمرير الأحكام بينها استناداً إلى قاعدة العدل المنطقية، وهو ما يُجمل الحجج القائمة على هذا المبدأ إلى حجج شبه منطقية^(٤).

ويمكن استبانة سبيل هذا النوع من الحجج بالاستعانة بالواقعة الآتية: وهي أنّ أحد الآباء سمح لابنه الكبير (زيد) بالخروج معه، ومنع ابنه الأصغر (محمدًا)، مما دفع أمّهما إلى الاعتراض قائلةً: (لا يمكن أن يخرج زيد دون محمد)؛ فلو تأملت هذا الاعتراض فإنّك ستجد أنّ الأمّ تتناسى فيه جميع الفروق والامتيازات بين الابنين ناظرةً إليهما بعين التساوي وعدم الاختلاف، وبهذا المنطق فإنّ الأمّ تكون قد اتخذت من حجة العدل طريقاً إلى إقناع الأب بضرورة المساواة في التعامل بين الابنين؛ فمادام أنّهما أخوان فلماذا يُفرّق الأب بينهما في المعاملة؟ ولماذا يسمح لزيد ويمنع محمدًا؟ إنّ هذا ظلمٌ ينافي العدل ويستدعي الإبطال والردّ^(٥).

ومهما تظاهرت به حجج هذا النوع من الشكلية والمنطقية فإنّها لا تتجاوز كونها إسناداً

(١) اعتمدت هذه التسمية وتجاوزت تسميات أخرى، مثل: التسوية والتناظر، استعملهما محمد الولي، ينظر: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، مرجع سابق، ص ٣٨٠.

(٢) بحث: آليات الحجاج في خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٣) ينظر: الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٤٣.

(٤) ينظر: الحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٥١.

(٥) ينظر: السابق، ص ١٥٢.

للحكم ذاته إلى أمرين غير متساويين تمامًا؛ ذلك أنه بإخضاعهما إلى الدراسة الدقيقة فإنها لا بد أن تنكشف الفروق المتعددة بينهما^(١).

وبالنظر في المدونة فقد توصل الباحث إلى عددٍ من شواهد وجود هذا الصنف من الحجج، نحو ما ورد في خطبة الحُبَاب بن المنذر بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم (السقيفة) حيث يقول: ((يا معشر الأنصار: املكوا عليكم أمركم؛ فإنَّ الناس في فيئكم وفي ظلِّكم، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم، أنتم أهل العز والثروة، وأولو العدد والمنعة والتجربة، وذوو البأس والنجدة؛ وإمَّا ينظر الناس إلى ما تصنعون، ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، ويُنْتَقَضَ عليكم أمركم، فإنَّ أبا هؤلاء إلا ما سمعتم، فمِنَّا أمير ومِنهم أمير))^(٢).

إذا كانت قاعدة العدل المنطقيَّة تنبني على «أنَّ الكائنات المنتمية لصنفٍ أساسيٍّ واحدٍ يجب أن يتمَّ معاملتها بطريقة واحدة»^(٣)، فإنَّ الحُبَاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد بنى فكرة ضرورة الاشتراك في الإمارة (منا أمير، ومنهم أمير) على مبدأ العدل في التعامل مع المثليين: (المهاجرين) و(الأنصار)؛ فهُم في هذا الحقِّ سواء؛ من جهة إسلامهم وصُحبتهم للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقربهم منه.

وبهذه الحجَّة فإنَّها تظهر أهمية خبرة الخطيب في الحجاج؛ ذلك من حيث قدرته على إظهار الحجَّة في قالبٍ منطقيٍّ لا يقبل المُعارضة أو الردَّ، بينما الأمر في حقيقته جهد إقناعيٍّ تأثيريٍّ يسعى الخطيب من خلاله إلى أطراح الفروق بين الأشياء المختلفة وإخفائها؛ لإثبات تساويها ومن ثمَّ ضرورة معاملتها بالمثل^(٤).

وقريبٌ منه قول عليِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذ خطب الناس بشأن طلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فكان مما قال: ((ويا عجا لاستقامتهما لأبي بكر وعمر وبغيهما عليٍّ، وهما يعلمان أنني لست دون أحدهما، ولو شئت أن أقول لقلت))^(٥).

(١) ينظر: الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢٠١.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٧٦.

(٣) تاريخ نظريات الحجاج، مرجع سابق، ص ٤٨.

(٤) ينظر: الحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٥١.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٠٣.

فعليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إنما ينطلق في بيان حقه وأفضليته- في هذا الشاهد- من مبدأ العدل والمساواة؛ فمقداره وفضله لا ينقص عن مقدار أبي بكرٍ وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وفضلهما، ومادام أنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مساوٍ لأبي بكرٍ وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في الفضل والأحقية فإنَّ على طلحة والزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا معاملته بالمثل؛ بالسمع والطاعة والإذعان والاستجابة، كفعلهما معهما- رضي الله عن الصحابة أجمعين-.

إنَّ أحدًا لا يمكنه إنكار اختلاف عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن العُمَريْن رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا من عدَّة وجوه، إلا أنَّ سبيل هذه الحجَّة في الإقناع «لا يتعلَّق بمطابقة تامَّة، بل جزئية مبرِّرة بكون الاختلافات يُنظر إليها باعتبارها قابلة للإهمال، في حين أنَّ التماثلات يُنظر إليها باعتبارها جوهرية، وما هو جدير بالإهمال أو لا، رهينٌ بالهدف المنشود»^(١).

وإنَّ كان الباحث قد وقف على حجة (العدل) فإنَّه ينتقل إلى دراسة حجَّة (التبادل)؛ «التي تُماثل بين كائنين، أو وضعيتين، ببيان أنَّهما يجب أن يعاملا بالمثل ما دام حدَّين مترابطين في علاقة»^(٢)، وهي- بهذا التعريف- حجَّة قائمة على التسوية المُستحقة بموجب التناظر؛ فإذا كانت علاقة (أ) تجاه (ب) صحيحة، فإنَّ عكسها صحيح، ولا خلاف في صعوبة حصول التناظر التام، وإتِّما هو تناظر يفرضه المتكلم، الأمر الذي يقصر هذه الحجَّة على الشبه بالمنطق^(٣).

ومما رأى الباحث أنَّه في عداد هذه الحجَّة، أنَّه لَمَّا وافى عبد الله بن عامر الحضرمي البصرة ووقعت الفتنة^(٤) استنفر أحدُ الأزد قومه لمؤازرة أميرهم زياد بن أبيه فكان مما قال: ((يا معشر الأزد: ما أبقت عواقب (الجمل) عليكم إلا سوء الذِّكر، وقد كنتم أمس على علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فكونوا اليوم له، واعلموا أنَّ إسلامكم له ذلٌّ، وخذلانكم إيَّاه عار، وأنتم حيٌّ مضماركم الصبر، وعاقبتكم

(١) الإمبراطورية الحطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٤٣.

(٢) السابق، ص ١٤٥.

(٣) ينظر: الحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٥٣.

(٤) وكان من شأن تلك الفتنة أن سيَّر معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عبد الله بن عامر الحضرمي إلى البصرة سنة ٣٨هـ، وكان على البصرة

إذ ذاك عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فوافاها ابن الحضرمي وقد خرج ابن العباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إلى عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالكوفة واستخلف

زياد بن أبيه على البصرة، وحين دخلها اختلف عليه الناس فانتهى الأمر بقتله واستقامة الأمر لزياد بن أبيه. ينظر:

الكامل في التاريخ، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٣٢-٢٣٤.

الوفاء، فإن سار القوم بصاحبهم فسيروا بصاحبكم، وإن استمدوا معاوية فاستمدوا علياً عليه السلام وإن وادعوكم فوادعوهم))^(١).

فلئلا تتهاوى البصرة وتختلّ في ظلّ غياب الوالي وانشغال الخليفة، فإنّ الخطيب قد أخذ من حجة التبادلية طريقاً إلى تحديد التصرف اللازم، وذلك انطلاقاً مما بين الفريقين من تناظر جوهري؛ إذ يقتضي هذا التناظر المماثلة - بين الفريقين - التي تستلزم المعاملة بالتساوي^(٢).

ولئن بدت هذه الحجّة في ظاهرها مسوّغاً أو مبرّراً للردّ والمباشرة، إلا أنّها شكّلت طريقاً منطقيّاً يمكن به حقن الدماء والمحافظة على التوازن إلى حين رجوع الوالي أو ورود التوجيه من الخلافة.

ومن شواهد الحجّة التبادلية، قول زياد ابن أبيه في خطبته (البترء) حين ولي البصرة زمن خلافة معاوية رضي الله عنه: ((وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكلّ ذنب عقوبة، فمن غرّق قومًا غرقناه، ومن أحرق قومًا أحرقناه، ومن نكب بيتًا نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبرًا دفناه حيًّا فيه، فكفّوا عني أيديكم وألسنتكم أكفّف عنكم يدي ولساني))^(٣).

فقد استند زياد في تأسيس عقوباته على شريعة (العين بالعين) التي تطبّق قاعدة التبادل، ويُشكّل اللجوء إلى تلك الحجّة في موضع العقوبات قاعدةً ذهبيّة تتأسس عليها الكثير من التصرفات الأخلاقية ويتحقق بها الأمن، وتبدو الحجّة من هذا الوجه قاعدة عامّة كثيراً ما تُستعمل بشأن ضبط المجتمعات وحمل الناس على سلوكٍ معيّن، من جهة أنّها لا بد أن تسوق متلقّيها إلى نتيجة واحدة مفادها: (لا تفعل ما لا ترغب أن يُفعل بك)^(٤).

إنّ المتلقّي متى أخلّ بتلك القاعدة التماثلية التبادليّة فإنّه لن ينجو من ردّة فعل مساوية في المقدار، كما أنّه متى حافظ عليها وأقام حدودها فإنّه يكون بذلك قد حفظ نفسه وحصنها؛

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٤٣٦.

(٢) ينظر: الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٧٢.

(٤) ينظر: الحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٥٣. والإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج،

مرجع سابق، ص ١٤٦، ١٤٨.

فالذي لا يضُرُّ جديراً بالألَّا يُضَرُّ. ولئن وردت هذه القاعدة في ظلِّ مقامٍ مُعَيَّنٍ إلا أنَّ التوسلَ بها يوفر الأساس المنطقي الذي يسوّغ تمرير الأحكام من حالات حاضرة إلى حالات مستقبلية، فهي بذلك أشبه ما تكون بعقد سياسي متبادل بين الراعي والرعيّة^(١).

وإنَّ اتَّفقت حجج التساوي مع سابقاتها في التظاهر بالجدية والصرامة الحاصل بفعل التوسل بالبناء المنطقي اليقيني، فإنَّ الباحث سيتحوّل إلى دراسة نوع آخر من الحجج أكثر صرامةً وأقوى شبهةً بالمنطق.

(١) ينظر: الحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٥١-١٥٢.

٢- الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية:

وهي الحجج التي تتأسس على قواعد رياضية تُشكّل خلفيتها العميقة ونسيجها الداخلي، وبفضل هذا البعد المنطقي الرياضي فإنّ تلك الحجج تكتسب قوّتها الإقناعية وقدرتها على التأثير والإلزام. وعلى الرّغم من تمثّل تلك الحجج للمنطق الرياضي إلّا أنّ منطقيتها تنحصر في حدودٍ معيّنة خاضعة لحاجات المتكلم ومقاصده الحجاجية؛ لذا فإنّها تبقى في حيز الشّبه بالمنطق مُتقاصرةً عن بلوغ مرتبة المنطق الرياضي الخالص^(١)، وتأتي حجج هذا النوع في مظاهر متنوعة ومختلفة، أهمها:

٢-أ- حجج التّعديّة^(٢):

والتّعديّة سمّة من السّمات المنطقيّة الصّوريّة أساسها وجوهرها المعادلة الرياضية التالية^(٣):

$$\begin{array}{l} \text{أ} \times \text{ب} \\ \text{أ} \times \text{ج} = \\ \text{ب} \times \text{ج} \end{array}$$

فإذا كان العنصر الأول (أ) في علاقة مع العنصر (ب) الذي تربطه العلاقة نفسها بالعنصر الثالث (ج) فإنّ العنصر (أ) -أيضاً- تربطه العلاقة ذاتها بالعنصر (ج)، ويمكن تبسيط هذه الحجة بالقول بأنّه: إذا كان (أ) = (ب) و(ب) = (ج) فإنّ الاستنتاج المنطقيّ اللازم يقتضي أنّ (أ) = (ج)، وبذلك فإنّ هذه القاعدة تُتيح للمحتجّ «إثبات أنّ العلاقة الموجودة -مثلاً- بين (أ) و(ب) من ناحية و(ب) و(ج) من ناحية أخرى، هي علاقةٌ واحدةٌ تؤدّي إلى الاستنتاج بأنّ هذه العلاقة

(١) ينظر: والحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢٠٣. والحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٦٥. وأطروحة: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب: (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة -دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٩٣.

(٢) افترق الدارسون في أمر تلك الحجة؛ فقد أدرجها بعضهم ضمن الحجج شبه المنطقية المؤسسة على البنى المنطقية، بينما ذهب بعضهم إلى جعلها في عداد الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية، ولقرب هذه الحجة من الشكليات الرياضية فقد اختار الباحث وضعها ضمن المنطقيات الرياضية. ينظر على سبيل المثال لا الحصر: في نظرية الحجج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٤٦. والحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢٠٣.

(٣) ينظر: تاريخ نظريات الحجج، مرجع سابق، ص ٤٩. والحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢٠٣. والحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٥٨.

نفسها موجودةً بالتالي بين (أ) و(ج)»^(١).

ولبيان ما سبق، فإنَّ الباحث يستعيد المثال المذكور في بداية هذا الفصل: (صديق صديقي صديقي)؛ فالعنصر الأول (أ=صديق) في علاقة صداقة مع العنصر (ب=صديقي) الذي تربطه العلاقة ذاتها بالعنصر الثالث (ج=صديقي)، ووفق مبدأ التعدية فإنَّ العنصر (أ=صديق) تربطه العلاقة نفسها بالعنصر الثالث (ج=صديقي) وذلك بانسحاب حكم الصداقة عليه^(٢).

وشبه منطقية المثال السابق وأشباهه نابغ من إمكانية تكذيبه؛ إذ لا تخلو قاعدته - كما مرَّ في مطلع هذا الفصل - من استثناءات ومخالفات تُفقدُها منطقيَّتها وتُبقِيها في حيز الشبه بالمنطق^(٣)، وحين تتخذ التعدية شكل برهان معزول أو متوالية منطقية، فإنَّها تسمح بتعيين وترسيخ أقوال مختصرة ذات مظهر منطقي شديد القوَّة والتأثير^(٤).

ولا تخلو المدونة المدروسة من حججٍ تعود في أصل بنيتها إلى هذا المبدأ المنطقيِّ الرياضيِّ، ومنها قول عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في موعظته سالفة الذكر: ((إِنَّمَا نَحْنُ مِنْ أَصُولٍ قَدْ مَضَتْ وَبَقِيَتْ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فِرْعٍ بَعْدَ أَصْلِهِ؟))^(٥).

إنَّ المتأمل في هذا القول يجده متضمناً معنى التعدية؛ فالمتلقون ليسوا سوى أبناء لآباءٍ سبقوهم إلى الفناء، ولا بقاء لفرع بعد ذهاب أصله، وإذا ما تتبَّع المتلقي البنية العميقة الناظمة لهذا القول فإنه يجدها ظاهرة في عناصر التعدية التالية: (أ=الماضون أصول فانية)، (ب=الحاضرون فروع عن أصولهم الفانية)، (ج=الفرع يفنى بفناء أصله).

ولهذا البعد المنطقي الرياضي الاستلزامي في هذه الحجة، فإنَّ المتلقي المُدرك سينتهي إلى حتمية الموت ووشوكة، وبهذا المعنى فإنه (المتلقي) لن يجد لنفسه مقالاً ولا مجالاً سوى تغنم ما بقي من عمره، والعمل والرغبة إلى الله وما عند الله تعالى.

(١) بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٩٣.

(٢) ينظر: السابق.

(٣) ينظر: في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٤٧.

(٤) ينظر: الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢٠٤.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٠٢.

وقريبٌ منه قول ابن أبي رندقة الطُّرُوشِي^(١) في عظته للأفضل بن أمير الجيوش^(٢): ((إنَّ الأَمْرَ الَّذِي أَصْبَحَتْ فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ، إِذَا صَارَ إِلَيْكَ بِمَوْتِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، وَهُوَ خَارِجٌ عَنِ يَدِكَ بِمِثْلِ مَا صَارَ إِلَيْكَ))^(٣).

فقد استند ابن أبي رندقة في صياغة هذا القول إلى قاعدة (التعددية)؛ لِيُمرَّرَ من خلالها الحكم وينقله إلى كافة الأجزاء التالية التي يكتنفها هذا القول؛ فإن كنت أيها الأمير لم تتمكن من الإمارة إلا بموت سلفك وخروج الأمر من يده، فلا بدَّ أن يخرج الأمر من يدك بموتك أنت أيضًا، وإذا ما رددت هذه الحجّة إلى أصلها المنطقي الرياضيِّ فَإِنَّكَ ستجد أنَّها تتجلى في العناصر التالية: أ=(الإمارة ولاية تزول بالموت) ب=(المخاطب أمير معرّضٌ للموت) ج=(إمرتك أيها الأمير زائلة مهما طال أمدها)، وبهذا الترتيب فإنَّ العنصر (ج) يُشكِّلُ ترسيخًا فاعلاً للفكرة المستفادة من العنصرين: (أ) و(ب).

إنَّ من شأن ما تحمله هذه الحجّة من استلزامٍ أن يُقرَّبَ إلى المتلقي ما يظنُّ أنَّه في مَنَعَةٍ منه؛ فقد تجاوز المتلقي (الأمير) جميع المراحل، ولم يبقَ بينه وبين الآخرة سوى مرحلة واحدة فقط. ولدور تلك الحجّة في تمرير الحكم في شكل معادلةٍ رياضية غير قابلة للنقض أو الردِّ، فإنَّ الخطيب يكون قد نجح في فرض النتيجة المقصود وترسيخها وحمايتها، مع عدم المساس بجرمة الأمير أو الاستهانة بمنزلته.

(١) الفقيه المالكي والشيخ الفاضل والإمام العالم والقُدوة الزاهد، أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان الفهري الأندلسي الطرطوشي، المعروف بأبي رندقة، و(طُرُوشَة): هي آخر حدّ المسلمين من شمالي الأندلس. لازم القاضي أبا الوليد الباجي ب(سَرَفُوسَة) وأخذ عنه، وسمع من علماء البصرة وبغداد، ونزل بيت المقدس ثم تحوّل إلى الثغر وانتهى به المطاف بالإسكندرية، تتلمذ على يديه عددٌ غفير من الفقهاء، له من الكتب: (سراج الملوك)، وقد توفي سنة عشرين وخمسائة. ينظر: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط١، ج١٩، ص٤٩٠-٤٩٦ (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ).

(٢) الملك الأفضل، أبو القاسم شاهنشاه ابن الملك أمير الجيوش بدر الجمالي. كان أبوه نائبًا ب(عكّا)، فسعى في ترميم دولة المستنصر العبيدي، فاستولى على الإقليم، ودانت له الممالك إلى أن مات، فقام بعده ابنه هذا، وعظم شأنه، ثم انتهت ولايته بقتله سنة خمس عشرة وخمسائة. ينظر: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٩، ص٥٠٧-٥٠٨.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج٣، ص١٧٩.

ولئن شكّلت التعديّة من هذا الوجه قياساً^(١) ظاهراً؛ بفعل دورها في «الربط بين شيئين [أ، ب] على أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما، للوصول إلى استنتاج [ج]، بألفاظ فيها شيء من الالتباس والاشتراك»^(٢)، فإنّ الباحث قد وقف في المدوّنة على شواهد شكّلت بنيتها قياساً حجاجياً مضمراً^(٣)؛ يتضمّنه القول ولا يُفصّح عنه^{(٤)*}. ولاستبانة هذا النوع من القياس فإنّ الباحث يضرب مثلاً على ذلك بتحريم الخمر؛ لأنّه مسكر، إذ يقود هذا الحكم-ضرورة- إلى نتيجة قياسية مضمرة:

- الخمر حرامٌ لأنّه مسكرٌ

← (النتيجة القياسية المضمرة: كلُّ مسكرٍ مُحَرَّم).

ويمكنُ أيضاً قلبُ هذه الحجّة بإعلان النتيجة مع إحدى المقدمتين (لا يجوز شرب الخمر لأنّ كلَّ مسكرٍ حرام) وإضمار المقدمة الأخرى:

- الخمر مسكر (مقدمة مضمرة)

- الخمر محرّم (مقدمة مُعلنة)

← (النتيجة: كلُّ مسكرٍ مُحَرَّم).

فيُلاحظ في هذين القياسين تطابق المقدمة مع النتيجة على طريقة حجّة التعديّة في تمرير

(١) القياس: قول مؤلّف من قضايا متى سلّمث لزم عنها لذاتها قول آخر، كقول: (العالم متغيّر، وكلّ متغيّر حادث)، فإنّه

مؤلّف من قضيتين لزم عنهما أنّ العالم حادث. كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٣٤٨.

(٢) عندما تتواصل نغيتّ، مرجع سابق، ص ٩١.

(٣) القياس المضمّر: القياس الذي تُحذف منه النتيجة أو إحدى المقدمات. ينظر: المنطق، محمد رضا المظفر، ط ١، ص ٢٩٥

(مؤسسة النشر الإسلامي، قم، د. ت).

*إذا كان الإضمار (الحذف) سمةً من سمات الأسلوب الجمالي الرفيع، فهو-أيضاً-وارد في البنى الاستدلالية الحجاجية. ولئن كان الأصل في الحجّة التصريح بجميع أجزائها، فإنّ الإضمار يستمد مشروعيته الحجاجية من مفهومه العامّ وفحواه؛ ذلك أنّ إخفاء لبعض أجزاء الدليل بعد التأكّد من ثبوت ما يحيل إليها؛ أي: إسقاط الكلام لفظاً لا معنًى، أو ترك اللفظ مع بقاء أثره، ولعل داعي الحذف من الحجّة عائدٌ إلى أنّ في ذكر المحذوف إيضاحاً لما هو جليّ، وبياناً لما هو بيّنٌ أساساً، ذلك إلى ما في السياق الدلالي من إحالة واضحة وصرّوحة إلى المحذوف. ينظر: بلاغة الحجّة في خطاب الخلفاء الراشدين: دراسة وصفية لنماذج خطابية، هناء حلاسة، ط ١، ص ١٣١ (مركز الكتاب الأكاديمي، عمّان، ٢٠١٦م).

(٤) ينظر: الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢٠٤.

الأحكام^(١).

ويكثر هذا النوع من القياس في جنس الخطبة-عمومًا- بوصفها جنسًا مرتحلًا يميل إلى الإيجاز والتكثيف^(٢)، وبالنظر في عاثة الخطابات فإن الناظر يجد «أننا نستعمل الأقيسة، وقد لا نشعر بها، ولكن على الغالب لا نلتزم بالصورة المنطقية للقياس؛ فقد نحذف إحدى المقدمات أو النتيجة؛ اعتمادًا على وضوحها أو ذكاء المخاطب أو لغفلة، كما أننا قد نذكر النتيجة أولاً قبل المقدمات أو نخالف الترتيب الطبيعي للمقدمات، ولذا يصعب علينا أحيانًا أن نردّ كلامنا إلى صورة قياس كاملة»^(٣).

ومن قبيل القياس المضمّر، ما ورد في خطبة عزاء أكنم بن صيفي لعمر بن هند-سالفه الذكر- حيث يقول: ((إنّ أهل هذه الدار سفر لا يخلّون عقْد الرّحال إلا في غيرها))^(٤).

فبإعادة هذا القول إلى أصله المنطقي فإنه يمكن إدراك القياس المضمّر:

- حال أهل الدنيا كحال المسافر الذي يترك بلده إلى بلدٍ آخر

← كلُّ إنسانٍ لابدُّ أن يرحل عن الحياة (نتيجة مضمرة مبنية على القياس).

وبهذا الاستدلال القياسي المنطقي فإن المتلقي يكون قد فهم المعنى من طريقٍ تجريبيٍّ عصيّ على النسيان سامٍ عن الغلط، فمادام أنّ الإنسان يطوي هذه الحياة كما يطوي المسافر المسافة بين بلدٍ وبلدٍ، فإنه لابدُّ أن يرحل مهما امتدَّ عمره أو قوي بأسه، فليس من الموت مهرب، ولا شك في كفاءة تلك النتيجة المعقّنة في إيصال المقصود إلى الملك من أوفى الطرق أدبًا وأبلغها اقتصادًا في القول.

ومن قبيله، قول عبادة بن الصامت رضي الله عنه في إحدى خطبه الوعظية: ((ألا إنّ الدنيا

(١) ينظر: بحث: الحجاج في الدرس اللغوي الغربي، مرجع سابق، ص ٨. وبحث: آليات الحجاج في خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، مرجع سابق، ص ٣٦.

(٢) ينظر: في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٤٧. وبحث: الحجاج في الدرس اللغوي الغربي، مرجع سابق، ص ٨. وبحث: آليات الحجاج في خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، مرجع سابق، ص ٣٦.

(٣) المنطق، مرجع سابق، ص ٢٩٥.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٧.

عَرَضُ (١) حاضر، يأكل منه البرُّ والفاجر)) (٢).

حيث حوى هذا القول قياسًا حجاجيًا مضمّرًا يمكن للمستقرئ إدراكه وكشف تعديته (٣):

مقدمة أولى (وهي مضمرة)	ما يأكل منه البرُّ والفاجر عرض حاضر
مقدمة ثانية	الدنيا يأكل منها البرُّ والفاجر
نتيجة	الدنيا عرض حاضر

وبفضل هذا القالب المنطقي، فإنَّ الخطيب يكون قد تمكَّن من تمرير فكرته عبر طريقٍ متينٍ يصعب تجاوزه أو الاستهانة به؛ ذلك من جهة انطلاق الحجَّة من مقدّمات مشتركة تتمتع بالصدق، و بانتقال التصديق بين عناصر هذا القياس فإنَّه يحصل المقصود من الترسّخ والتنبيه والاستشارة (٤).

إنَّ «على الخطيب إذا أراد التأثير بنجاعة بواسطة خطابه أن يتكَيَّف مع مُستمعه، على ماذا يقوم هذا التكيف الذي هو ضرورة نوعية في الحجاج؟ إنَّه يقوم بالأساس على كون الخطيب لا يَسَعُه أن يختار نقطة انطلاق استدلاله سوى من الدعاوى المسلَّم بها من قِبَل هؤلاء الذين يتوجَّه إليهم» (٥).

ومن خلال الأمثلة السالفة فإنَّها تظهر أهمية حجة التعدينية في الترسّخ والتأكيد القاطع، كما تظهر بتلك الحجَّة قدرة الخطباء على الاستنباط والتركيب من جهة أنَّ هذه الحجَّة لا تعدو كونها ترتيبًا وتركيبًا مقصودًا للعناصر؛ بعقد العلاقة بينها على الرِّغم من افتقادها لهذه العلاقة قِبَل القول.

٢-ب-إدماج الجزء في الكل:

وينبني هذا النوعُ من الحجج على أساسٍ رياضيٍّ واضحٍ؛ فُوائمه: انسحاب قيمة الكلِّ على كافة أجزاءه، ويمكنُ الاستشهاد على ذلك بالقاعدة الفقهية المشهورة: (ما أسكر كثيره فقليله

(١) عَرَضُ الدنيا: ما كان من مالٍ قلَّ أو كثر. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٨، ص ٤٠٢.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٦١.

(٣) ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٤) ينظر: الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ٩١.

(٥) السابق، ص ٩١.

حراماً)؛ فكما يحرم الكثير من كلِّ مُسكر فإنَّ الحرمة أيضاً تنسحب على الجزء القليل من هذا المسكر أو ذاك، وغالبًا ما يُنظر إلى علاقة الجزء بالكل من زاوية كميّة؛ فالكلُّ محتوٍ للجزء وهو لذلك أهمُّ حضورًا من الجزء^(١).

ولثراء المدوّنة المدروسة فقد شملت عددًا من شواهد هذه الحجة، ولعلّ من أوفى هذه الشواهد دلالة على ما ذكر، قول عمر رضي الله عنه وقد خطب الناس بعد تولّيه الخلافة: ((أئما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلّمة أو عتب علينا في حلقٍ فليؤذني؛ إئما أنا رجل منكم))^(٢).

فقول الفاروق رضي الله عنه: ((أئما أنا رجل منكم)) متأسّس على قاعدة إدماج الجزء في الكلّ، وقد حمل هذا القول معنى الردّ على ما قد يذهب إليه بعض العامّة من خصوصية الخليفة ومخوّلات الخلافة في مثل هذه الأمور؛ فالخليفة واحدٌ من جماعة المسلمين، وليس من جنسٍ مغايرٍ لهم حتى يكون بينه وبينهم حجابٌ وتباينٌ، إنّه جزءٌ من هذا المكوّن العام، ولا يمكن للجزء أن يفرط على الكلّ أو يعلو عليه^(٣).

وفي احتجاجه رضي الله عنه بهذه الحجّة تبرئة ظاهرة لذمته؛ من جهة فتح مجال الشكاية لأصحاب الحوائج والمظالم؛ ذلك أنّ الجزء (الفاروق رضي الله عنه) لا يملك أيّ قيمة إضافية-زائدة عن قيمة الكل- تحوّله الامتناع أو الاحتجاب عن بقية أجزاء الكلّ، وغنيّ عن القول بأنّه متى وصلت الشكاية إلى الخليفة من هذا الطريق المطلق والميسّر، فإنّ في ذلك ردعًا لمن تسوّّل له نفسه بالظلم أو الاعتداء، كما أنّ في ذلك أسوةً حسنةً لأمرء الأُمصار وأعوانهم.

وبهذه الحجّة أخذ عبيد الله بن زياد بن أبيه في قوله-سالف الذكر-: ((يا أهل البصرة، انسبوني؛ فوالله ما مهاجرٌ أبي إلا إليكم، وما مولدي إلا فيكم، وما أنا إلا رجلٌ منكم))^(٤).

يستغلُّ عبيد الله بن زياد موت يزيد بن معاوية ممهّدًا لنفسه ولاية أمر أهل العراق، ولإدراكه

(١) ينظر: في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٤٧-٤٨. والحجاج في الشعر العربي: بنيتة وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢١٠.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢١٣.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، مرجع سابق، ج ٨، ص ٣.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣٢٩.

بأنَّ المتلقين لا يمكن أن يغفلوا عن أمر طروئه أو حادثه وآل زياد على البصرة وعلى أهلها، فإنَّه يستعين بحجة إدماج الجزء في الكل في قوله: (وما أنا إلا رجلٌ منكم)؛ لتكون ردًّا عقليًّا على تلك الدعوى؛ فقد تقدّم له من المؤهّلات ما يجعله جزءًا لا يتجزأ من نسيج البصرة المجتمعي (الكل).

ومتى أيقن أهل البصرة أنّ عبيد الله جزءًا منهم، فإنَّهم لن يساووا به طرفًا طارئًا عليهم، ذلك إلى ما في هذه الحجّة المنطقيّة من طلب البرِّ والمبادرة إلى التسليم للخطيب؛ فهو أولى الناس بهم وأقربهم منهم.

وقريبٌ منه قول أبي العباس السّفّاح في خطبته حين بويع له بالخلافة: ((وخصّنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته، وأنشأنا من آبائه، وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعته^(١)))^(٢).

إذ يُعدُّ قوله: (وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعته) حجةً من حجج إدماج الجزء في الكل، وقد عدل أبو العباس إلى هذه الحجّة في هذا المقام ليؤيّد بها أحقيّته وأحقّيّة العباسيين بالخلافة دون غيرهم، وهذا ما لا يمكن للأمويين ادعاؤه أو زعمه.

وإذ يختار أبو العباس السّفّاح هذا الطريق المنطقي في الاحتجاج، فإنَّه إنّما يسلك بحجابه مسلکًا إقناعيًّا تجريبيًّا غير قابل للردّ أو الارتياب؛ فثبوت القول عقلاً مقتضٍ ثبوت معناه وكلّ ما يؤدّي إليه، ذلك إلى ما في هذه الحجّة من تصويرٍ بارعٍ وتجسيدٍ محفّز.

وعلى هذا الطريق في الاحتجاج سار أبو جعفر المنصور، في قوله سالف الذكر: ((أيها الناس: إنّما أنا سلطان الله في أرضه))^(٣).

إذ جعل أبو جعفر نفسه جزءًا ومظهرًا من مظاهر سلطان الله، اختصّه بسياسة أرضه وحكّمها والتصرّف فيها، ومادام الخليفة جزءًا من هذا السلطان الإلهي المطلق فإنَّه لا ينبغي أن يُردّ له طلب، أو يُنكر عليه عمل، أو يُظنّ بكافّة تصرفاته غير الهداية والتوفيق والصواب.

(١) النَّبْعُ: شجرٌ من الأشجار الجبلية، تتخذ منه القسيّ، ومن الحجاز: فلان من نَبَعَةٍ كريمة. ينظر: تاج العروس، مرجع

سابق، ج ٢٢، ص ٢٢٨، ٢٣٠.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٦.

(٣) السابق، ج ٣، ص ٢٧.

إنَّ اعتقاد المتلقي بوجوب الاستسلام للسلطة الإلهية (الكلّ) يوجب عليه الاستسلام للخليفة؛ لكونه جزءاً من هذه السلطة الكلّية؛ ولما في هذا الطريق في الاحتجاج من القوّة في الاستدلال فإنّه قد استحقّ أن يعدّ ضمن أقوى الحجج وأكثرها استدراجاً.

وبتلك الشواهد، فإنّها تتضح الأهمية القصوى لهذا النوع من الحجج القاطعة في دلالتها وإحالتها، فإنّ كان كلّ جزء يعدّ قيمةً مناسبةً داخل الكلّ، فإنّ الحكم الذي ينطبق على الكلّ لا بدّ أن يشمل الجزء؛ إذ لا يمكن -عقلاً- قصره على الكلّ دون الجزء.

٢-ج- تقسيم الكلّ إلى أجزائه المكوّنة له^(١):

ويقوم هذا النوع من الحجج على تفرّيع الكلّ إلى أجزائه المكوّنة له، لاستنتاج قيمة الكلّ من جميع أجزائه، وبتحقّق هذا النوع من الحجج فإنّ المتحقّق يجد أنّه لا يعدو أن يكون شبيهاً بالمنطق فحسب؛ إذ إنّ الأجزاء لا يمكن أن تعبّر بدقة عن الكلّ، علاوةً على صعوبة إحصاء جميع الأجزاء، مما يحدو بالمتكلّم -غالباً- إلى انتقاء الأجزاء التي تعمل على ترسيخ دعواه وتقوية حجته، دون الالتزام بذكر جميع الأجزاء المكوّنة للكلّ^(٢).

والهدف من استعمال هذه الحجة هو التّدليل على وجود الكلّ وتعزيز حضوره، من طريق إشعار المتلقي بوجود الشيء من خلال التصريح بموضوع أجزائه، كأنّ يُريد أحدهم أن يثبت لمنكر أنّ مدينةً ما هدمت، فيعدد الأحياء المتضررة تعداداً شاملاً لأجل إثبات خبر هدم المدينة^(٣).

وسيقف الباحث فيما يلي على أهمّ شواهد هذه الحجة ودلائل وجودها وأثرها في حجاج خطب المدوّنة، مُستهلاً بقول النعمان بن مقرّن رضي الله عنه في خطبته بين يدي (يزدجرد): ((إنّ الله

(١) اعتمدت هذا المصطلح وتركت تسميات اعتمدها آخرون، مثل: التجزئة، استعمالته كريمة شعبان، ينظر: الاتصال الخطابي وفن الإقناع، كريمة شعبان، ط ١، ص ١٧٨ (دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠١٥م). التفرّيع، استعماله مصطفى العطار، ينظر: لغة التخاطب الحجاجي: دراسة في آليات التناظر عند ابن حزم، مصطفى العطار، ط ١، ص ١٦٩ (دار كنوز المعرفة، عمّان، ٢٠١٧م). التوزيع، استعماله هاني علي سعيد، ينظر: بحث: آيات الحجاج في خطبة النبي صلى الله عليه وآله في حجة الوداع، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٢) ينظر: الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢٠٧. والحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٦٧.

(٣) ينظر: في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٤٨. والإمبراطورية الحطّابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١١٠.

رحمنا فأرسل إلينا رسولاً: يدُّنَّا على الخير ويأمرنا به، ويُعرِّفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة^(١).

فلَمَّا كانت بعثته ﷺ هي المُنقِذ للعرب والمُحرِّك والدافع إلى الدعوة والجهاد في سبيل الله، فإنَّ النعمان ﷺ قد أراد أن يُثبت لـ(يزدجرد) حقيقة رسالته ﷺ، فكانت حجَّة التقسيم والتجزئة هي الطريق الأقوى إلى الإثبات والتأكيد، وإبراز الفضيلة؛ فقد اختصَّهم الله بهذا الرسول الذي تجلَّت رسالته في مهمَّتين جامعتين لِمَا دوَّهما من مهمَّات الرسالة:

١- الدلالة على الخير والأمر به.

٢- والتعريف بالشر والنهي عنه.

وإن كانت «التجزئة أسلوباً خطائياً يعمد إليه الخطيب عندما يريد المبالغة في إثبات الحكم والحرص على تأكيده وتعزيزه في نفوس السامعين»^(٢)، فإنَّ تفصيل الخطيب لمهامَّ رسالة الرسول ﷺ إثباتٌ قاطعٌ على أنَّهم أُمَّةٌ خيرٌ لا يمكن أن تسير إلا في النفع وردَّ الشر عن الناس.

وإذا ما أعيد النظر في هذا التقسيم وُجد أنه يمثِّل ما يسمَّى بـ(البرهان ذي الحدَّين)، من حيث تناوله لفرضيتين متساويتين في دلالتهما؛ فمتى وقع الاختيار على إحداهما- (يدلنا على الخير ويأمرنا به) أو (يعرفنا الشر وينهانا عنه)- فإنَّ المُختار لا بدَّ أن يصل إلى الفكرة نفسها أو الموقف ذاته؛ لأنَّ الحجَّتين تقودان إلى النتيجة ذاتها، أو لأنَّهما تقودان إلى نتيجتين لهما القيمة نفسها^(٣).

ومما يُجمل عليه، ما ورد في خطبة عبد الملك بن مروان إثر قتل عمرو بن سعيد بن العاص؛ حيث يقول: ((ارموا بأبصاركم نحو أهل المعصية، واجعلوا سلفكم لمن غبَّر منكم عِظَةً، ولا تكونوا أغفلاً من حُسن الاعتبار، فتنزل بكم جائحة السطوات، وتجوس خلالكم بوادر التَّقمات، وتطأ رقابكم بثقلها العقوبة، فتجعلكم همداً رُفَاتاً، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتاً،

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٣٩.

(٢) الاتصال الخطابي وفن الإقناع، مرجع سابق، ص ١٧٨.

(٣) ينظر: الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢٠٩.

فَيَأَيَّ مِنْ قَوْلِ قَائِلٍ، وَرَشَقَةٌ جَاهِلٍ؛ فَإِنَّمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أَنْ أَسْمَعَ النَّغْوَةَ^(١) فَأُصَمِّمَ تَصْمِيمَ الْحَسَامِ الْمَطْرُورِ^(٢) وَأُصُولَ صِيَالِ الْحَنْقِ الْمُوتُورِ، وَإِنَّمَا هِيَ الْمَصَافِحَةُ وَالْمَكَافِحَةُ بِضَبَاتِ السِّيُوفِ^(٣) وَأَسْنَةَ الرَّمَاحِ^(٤)، وَالْمَعَاوِدَةَ لَكُمْ بِسُوءِ الصَّبَاحِ^(٥).

فكَلَّ مَا ذُكِرَ فِي هَذَا الشَّاهِدِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُرْتَبَةِ عَلَى الْغَفْلَةِ، يُشَكِّلُ حَجَجًا مُتَفَرِّقَةً مُتَلَحِّقَةً تُقَرَّرُ عَزْمَهُ عَلَى مُعَاقَبَةِ الْمُخَالَفِينَ وَالتَّنْكِيلِ بِهِمْ، وَإِذْ يَعْدِلُ الْخَطِيبُ إِلَى تَفْرِيعِ الْكَلِّ (العقوبة) إِلَى أَجْزَائِهِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَجْعَلُ التَّقْسِيمَ مَدْعَاةً إِلَى تَرْسِيخِ الْكَلِّ؛ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ الْعُقُوبَةَ كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ، مَا لَمْ يَعْتَبَرُوا بِمَا حَلَّ بِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ^(٦).

وَقَدْ جَاءَ هَذَا التَّقْسِيمَ مُتَعَاقِبًا مِنْ غَيْرِ تَرَخٍ -بِفِعْلِ الرِّبْطِ: بِ(الواو) و(الفاء)- لِبَيَانِ تَهَاوِيِ الْغَافِلِينَ عَنِ الْإِعْتِبَارِ وَالتَّحْدَارِهِمْ، وَسُرْعَةِ انْقِصَافِهِمْ جَزَاءَ مَا أَتَوْهُ مِنْ مَجَاوِزَةِ أَمْرِ الْخِلَافَةِ وَالخُرُوجِ عَنِ حُدُودِهَا.

وَلِئِنْ اسْتَشْكَلَ الْمُتَلَقِّي ابْتِدَاءً نَوْعَ عَقُوبَةِ الْغَفْلَةِ عَنِ حَسَنِ الْإِعْتِبَارِ وَطَرِيقَتِهَا، فَإِنَّ فِي حِجَّةِ التَّقْسِيمِ مَا يَكْفِي لِلْإِجَابَةِ عَنْ مِثْلِ هَذَا الْاسْتَشْكَالِ، ذَلِكَ أَنَّ حَجَجَ التَّقْسِيمِ تُعَدُّ «أَجُوبَةً» عَنِ أَسْئَلَةٍ تَنَارُ فِي ذَهْنِ الْمُتَلَقِّي عِنْدَ تَلْقِيهِ الْخُطَابِ مُوجَّهَةً إِيَّاهُ إِلَى الْإِذْعَانِ وَالتَّسْلِيمِ، أَوْ التَّأْمَلِ لِلْقَضِيَةِ الْمَطْرُوحَةِ بِشَكْلِ كَلٍّ^(٧).

وَإِذَا كَانَ الْعَقْلُ يَتَحَرَّكُ بِطَبِيعَةِ تَفْصِيلِيَّةٍ تَجْزِئِيَّةٍ، فَإِنَّ هَذِهِ الْحِجَّةَ تُعَدُّ شَكْلًا مِنَ الْأَشْكَالِ الْمُوَافِقَةِ لِلْعَقْلِ؛ مِنْ حَيْثُ عَمَلُهَا عَلَى تَحْلِيلِ الْفِكْرَةِ إِلَى عُنَاوِرِ جِزْئِيَّةٍ صَغِيرَةٍ مَكُونَةٍ لَهَا؛ زِيَادَةً فِي حُضُورِ الْفِكْرَةِ، وَمِنْ ثَمَّ مَضَاعَفَةٌ التَّنْبِيهِ عَلَيْهَا وَالتَّنْفِيرِ مِنْهَا^(٨).

(١) النَّغْوَةُ: الْكَلِمَةُ. يَنْظُرُ: تَاجُ الْعُرُوسِ، مَرْجِعُ سَابِقٍ، ج ٤٠، ص ١١٦.

(٢) سَيْفٌ مَطْرُورٌ: حَادٌّ صَقِيلٌ. يَنْظُرُ: السَّابِقُ، ج ١٢، ص ٤٢٢.

(٣) ضَبَّةُ السَّيْفِ: حِدَّةٌ. يَنْظُرُ: السَّابِقُ، ج ٣، ص ٢٣٥.

(٤) سِنَانُ الرُّمْحِ: حَدِيدَتُهُ؛ لَصِقَالَتِهَا وَمَلَا سِتِّهَا. يَنْظُرُ: السَّابِقُ، ج ٣٥، ص ٢٤١.

(٥) جَمْهَرَةٌ خُطْبِ الْعَرَبِ، ج ٢، ص ١٩٣.

(٦) يَنْظُرُ: لُغَةُ التَّخَاطَبِ الْحِجَاجِيِّ: دَرَاةٌ فِي آيَاتِ التَّنَاطُرِ عِنْدَ ابْنِ حَزْمٍ، مَرْجِعُ سَابِقٍ، ص ١٧٠. وَبَحْثُ: الْحِجَاجِ فِي

خُطْبِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، مَرْجِعُ سَابِقٍ، ص ١٠٦٣.

(٧) أُسْلُوبِيَّةُ الْحِجَاجِ التَّدَاوُلِيِّ وَالتَّبَلَاغِيِّ: تَنْظِيرٌ وَتَطْبِيقٌ عَلَى السُّورِ الْمَكِّيَّةِ، مَرْجِعُ سَابِقٍ، ص ٢٠٢.

(٨) يَنْظُرُ: السَّابِقُ، ص ٢٠١. وَالتَّبَلَاغِيَّةُ الْخُطَابِيَّةُ: صِنَاعَةُ الْخُطَابَةِ وَالتَّبَلَاغِيَّةِ، مَرْجِعُ سَابِقٍ، ص ١٥٢.

وعلى مجراه، قول قتيبة بن مسلم الباهلي في خطبته بعد أن خلع سليمان بن عبد الملك: ((يا أهل العراق، ألسنت أعلم الناس بكم؟ أمّا هذا الحي من أهل العالية^(١)؛ فنعم الصدقة، وأمّا هذا الحي من بكر بن وائل فعلجة^(٢) بظراء^(٣) لا تجمع رجليها^(٤)، وأمّا هذا الحي من عبد القيس فما ضرب العير بدنبيه^(٥)، وأمّا هذا الحي من الأزد فعلوج^(٦) خلق الله وأنباطه^(٧)، وإيم الله لو ملكت أمر الناس لنقشت أيديهم، وأمّا هذا الحي من تميم فإنهم كانوا يسمون الغدر في الجاهلية (كيسان))^(٨).

فحين خسر قتيبة تأييد من معه من أهل العراق في أمر خروجه على الخلافة، أخذ في انتقاصهم والتشريب عليهم، سالكا في إثبات ذلك سبيل التفريع والتجزئة؛ بعيب كل فريق على حدة؛ إثباتا لدعوى نقص كل العراقيين وتبريرا لليأس منهم^(٩).

والخطيب في تعداده لأجزاء هذا المكوّن المجتمعي، إنما يثبت دعوى علمه بحقيقتهم ويعزّزها؛ ذلك بإدراكه كلّ خوافي المقصودين وتفصيلهم الدقيقة، إذ تحتاج دعوى الإحاطة والمعرفة إلى دليل يؤيّدنها ويبرهن عليها.

ولئن كان من الصعوبة بمكان تعداد جميع أجزاء المكوّن العراقي، فإنها تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الخطيب قد لا يتمكن من استغراق كافة الأجزاء المتفرعة عن الكلّ، فيعمد إلى ذكر أهمّها

(١) العالية في المعنى ليست بأب ولا قبيلة، إنما هو نسب إلى العلو من الأرض، ويقال: على الرجل وأعلى إذا أتى عالية نجد. ينظر: معجم البلدان، مرجع سابق، ج ٤، ص ٧١.

(٢) العلجة: الأنتى من كفار العجم. ينظر: لسان العرب، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٢٦.

(٣) البظُر: ما بين أسكّي المرأة، وأمة بظراء: بيّنة البظُر طويلته. ينظر: السابق، ج ١٠، ص ٢١٦-٢١٧.

(٤) في هذا القول معنى الذمّ من جهة عدم التحقّظ وعدم التمتع.

(٥) العير: الإبل، والجمع: عيرات. وضربها: ركوبها، وفيه معنى نفي العروبة عنهم؛ لأنّ العرب هم ركاب الإبل. ينظر: لسان العرب، مرجع سابق، ج ٤، ص ٦٢٤. وتاج العروس، مرجع سابق، ج ١٣، ص ١٨٦.

(٦) العلج: الرجل من كفار العجم. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٦، ص ١٠٨.

(٧) التَّبَطُّ: أناسٌ ينزلون بالبطائح بين العراقيين، وتساق هذه التسمية في سبيل الاستنقاص والذمّ. ينظر: السابق، ج ٢٠، ص ١٣١.

(٨) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣١٠.

(٩) ينظر: أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي: تنظير وتطبيق على السور المكية، مرجع سابق، ص ٢٠١.

وأولاهما، على أن يكون للأجزاء المذكورة دورٌ بارز في دعم الخطاب وتأييد الفكرة المقصودة^(١).

ومما ينتظم في سلكه، قول يزيد بن المهلب في خطبته لمَّا أقبلت إليه جيوش يزيد بن عبد الملك إثرَّ خلعه إيَّاه^(٢): ((أيُّها الناس: إيَّيَّ أسمع قول الرعاع: قد جاء العباس، قد جاء مسلمة، قد جاء أهل الشام! وما أهل الشام إلا تسعة أسياف، منها سبعة معي، واثنان عليّ))^(٣).

يردُّ يزيد بمُخطبته تلك دعوى المخدِّلين والمخوِّفين الذين يريدون ثنَّيه وثنيَّ أتباعه، مُتَّخذًا في ردِّه ذلك سبيل التجزئة في أوضح صورته؛ فأهل الشام أقلُّ من أن يؤبه بهم، لأنَّ سبعة من هذه التسعة أسياف معه وفي صِفِّه، أمَّا الأعداء الحقيقيون فإنَّهم سيفان فقط.

وحين يتتبع الخطيب أجزاء جيش أهل الشام، فإنَّه إنَّما يقصد أن يتَّخذ من حالها حُكْمًا كليًّا منطقيًّا على ما في هذا الجيش من ضعف وخوَر^(٤)، وبفضل هذا التوجيه المنطقي الرياضي الاستقصائي فإنَّ المتلقي لا بد أن ينتهي إلى نتيجة حتمية مفادها: الاستهانة بهذا الجيش، وأنَّ أهل الشام أقلُّ خطرًا وأحطَّ شأنًا من أن ينهزم أمامهم أهل العراق أو يهابوهم.

ولعلَّ في الأمثلة السالفة ما يكفي للدلالة على أنَّ الكلَّ وإنَّ كان أهمَّ من أجزائه إلا أنَّ ذكر الأجزاء يُسهم، وبشكلٍ مباشرٍ، في التدليل على صحة حكم الكلِّ وتعزيز حضور هذا الحكم في الذهن بما لا يدع مجالًا للشك أو الارتياب.

٢-د-حجّة المقارنة (الموازنة):

وهي عمليةٌ قياسيةٌ مبنيةٌ على رصد التشابهات أو الاختلافات التي تُبرِّر اختيار أحد العنصرين واطِّراح الآخر، وشبَّهها بالمنطق الرياضي ناتجٌ عن اقتراحها من القياس الرياضي ومشابقتها له، دون أن تبلغه تمامًا. ولفاعليَّة هذه الحجج في الإقناع فإنَّه يكثر استعمالها في الخطابات الحجاجية

(١) ينظر: السابق، ص ٢٠٢.

(٢) بعد أن خلع يزيد بن المهلب الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة إحدى ومائة للهجرة سَيَّر الخليفة إليه العباس بن الوليد في أربعة آلاف فارس، ثم سَيَّر إليه مسلمة بن عبد الملك بجنود من أهل الشام، وانتهى الأمر بقتل يزيد بن المهلب سنة اثنتين ومائة للهجرة. ينظر: تاريخ الرسل والملوك، مرجع سابق، ج ٦، ص ٥٨٥.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣٥٣.

(٤) الاتصال الخطابي وفن الإقناع، مرجع سابق، ص ١٧٨.

عامّة؛ ذلك أنّه بالمقارنة تتكشف الميزات وتظهر العيوب، فيجد المتلقي نفسه مرتحنًا بإنجاز عمليّة ذهنيّة مثيرة للخيال تنتهي به-بعد الموازنة والتقييم- إلى اختيار أصوب المتقابلات وأفضلها^(١).

ولقيمة هذا النوع من الحجج، فقد تكرّر عدول خطباء المدونة إلى آلية المقارنة في عددٍ من المواضيع، منها قول أبي طالب-سالف الذكر- في خطبته عند زواج النبي ﷺ من خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ((ثم إنَّ محمد بن عبد الله ابن أخي مَنْ لا يُوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه: بِرًا وفضلاً، وكرمًا وعقلًا، ومجدًا ونبلاً))^(٢).

حيث بنى أبو طالب خطبته تلك على حجّة المقارنة؛ إعلاءً لشأنه عليه السلام وترغيبًا لخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأوليائها به، وتزهيّدًا لهم فيمن سواه؛ فكيف يساوى به غيره وقد برّ كلٌّ من يمكن أن يقارن به؛ بفضل أخلاقه وكرمه خصاله صلوات ربي وسلامه عليه.

إنّ في اعتماد هذه الآلية الرياضية في التفضيل إلزامًا لا يمكن النكوص عنه؛ فمتى سلّم بالوضع أنّ الرسول ﷺ أحد خيارين ممكنين لدى أولياء خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-فإمّا أن يختاروه عليه السلام وإمّا أن يختاروا غيره-فإنّ مقتضى هذه المقارنة التجريبية ينفي صحّة الاختيار الثاني نفيًا عقليًا ويقطع بصواب اختياره عليه السلام؛ بصفته الاختيار الأمثل والأصوب^(٣).

ومنّ انتهج هذه الحجّة من خطباء المدونة، الإمام عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ذلك أنّه لمّا رأى ميمنته بـ(صقّين) ((قد عادت إلى مواقفها ومصافّها، وكشفت من بإزائها من عدوها، حتى ضاربوهم في مواقفهم ومراكزهم، أقبل حتى انتهى إليهم فقال: إيّي قد رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم، يحوزكم الطغاة الجفاة وأعراب أهل الشام، وأنتم لهاميم العرب^(٤) والسّنم الأعظم، وعمّار

(١) ينظر: الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ٢٤٨. وبلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٩٣. وعدة الأدوات الحجاجية، ليونيل بلنجر، ترجمة: قوتال فضيلة، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، مرجع سابق،

ج ٢، ص ٣٩٨. وبحث: الحجاج في الدرس اللغوي العربي، مرجع سابق، ص ٩.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٧٧.

(٣) ينظر: الإمبراطوريّة الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٥٣.

(٤) لهاميم العرب: جمعٌ: هُمُومٌ: والهموم كلُّ جوادٍ من النَّاسِ والخيل. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٣، ص ٤٦٠.

الليل بتلاوة القرآن، وأهل دعوة الحق إذ ضلّ الخاطئون))^(١).

ففي قول رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: (يحوزكم الطغاة الجفافة وأعراب أهل الشام، وأنتم لهاميم العرب والسنام الأعظم، وعثمّار الليل بتلاوة القرآن، وأهل دعوة الحق إذ ضلّ الخاطئون) مقارنةً جليّةً بين أنصاره وأعدائه، وقد عمد رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى هذه المقارنة ليردّ الثّقة إلى أتباعه، ويهوّن من شأن أعدائه، تاركًا للمتلقين بذلك خيارًا واحدًا؛ فإمّا أن ينهزموا أمام ثلّةٍ من أهل البغي والباطل، وإمّا أن يؤازروا جماعة الأئمّة وخيرة العرب وذروتهم وأهل الحقّ وأتباعه.

ولهذه القيمة الإقناعية، فإنّ الحجاج بالمقارنة يعدّ وسيلة من أهمّ وسائل الحجاج الشائعة وأكثرها إقناعًا وتأثيرًا؛ ذلك أنّ الخطيب حين يُحاصر متلقيه بحجّة المقارنة ويُقحمهم بها إلى اختيار عُصْرٍ مُحدّدٍ، إمّا ينتهج بحجّاه طريقًا ميسرًا يقودُ جمهور المتلقين - باختلاف درجاتهم - إلى الاستنتاج والحكم^(٢).

وقريبٌ منه أيضًا، أنّه لمّا علّم عليّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بتسيير معاوية عمرو بن العاص رَسُولَهُمَا ﷺ إلى مصر، قام فخطب الناس فكان مما قال: ((عباد الله: إنّ مصر أعظم من الشام؛ أكثر خيرًا، وخير أهلاً، فلا تُغلبوا على مصر، فإنّ بقاء مصر في أيديكم عزٌّ لكم وكتبٌ لعدوكم))^(٣).

فحين أحسنّ عليّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تراخي أصحابه في الدّود عن مصر بسبب بُعدها عن مقام الخلافة، سعى من خلال المقارنة التجريبية بينها وبين (الشام) - التي أهمهم فقدها - إلى بيان فضل مصر على الشام؛ ليُقنع المتلقين بضرورة حمايتها والمحافظة عليها وردّ البغي عنها.

إنّ أقلّ الناس وعيًا ليدرك بهذه المقارنة أهمية مصر وفضلها ودورها في تكوين خلافة عليّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وما ذاك إلا بفعل منطقيّة هذه الحجّة وأساسها الرياضي الذي به استحقت أن تحمل

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٦٢.

(٢) ينظر: الاستعارة في محطات يونانية وعربية، مرجع سابق، ص ٣٨٢. ومبحث: عدة الأدوات الحجاجية، مرجع سابق، ص ٣٩٨-٤٠٠.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٩٩.

حكماً قاطعاً متبوعاً بدلالة صدقه وثبوتته^(١).

وبهذه الحجّة كذلك، أخذ عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في إحدى خطبه، حيث يقول: ((أيها الناس: الحقو ببلادكم، فإني أنساكم عندي وأذكركم ببلادكم، ألا وإيّي قد استعملت عليكم رجلاً، لا أقول هم خياركم، ولكنهم خيرٌ ممن هم شرٌّ منهم))^(٢).

إذا كانت الأشياء تبين بضدها، فإنّ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد عمد إلى هذه المقارنة المعقودة بين متباينين متضادين؛ لتكون ردّاً عقلياً على كلّ من ينتقص الولاية أو يُقلّل من شأنهم أو يقترح غيرهم، ومتى أيقن المتلقي خيرية هؤلاء الولاية وشرّ غيرهم فإنّه سيجد نفسه ملزماً بتقديرهم والسمع والطاعة لهم.

ومن شأن محاذاة هذه الحجّة بين عنصرين متضادين أن تضع المقارنين في مستوى من الوضوح يضيّق الاحتمال، ويقضي على حرية الاختيار؛ فكيف لعاقل أن يفضّل الخير على الشر، أو تتوقّف نفسه إلى الشر والخير بين يديه؟.

ويتبيّن بما سلف أنّ الحجاج بالمقارنة أداة رئيسة في إظهار وتشخيص معالم الطرفين، ومتى تحدّدت المعالم وتمايز الطرفان بالتجربة والمقايسة، فإنّ المتلقي يكون مسؤولاً عن اختيار أصوب الطرفين وأجدهما بالاختيار، وبهذا التحديد الإجرائي الواقعي فإنّه يصعب على المتلقي الإعراض أو الانفكاك عن التأثير بنتيجة المقارنة.

*** **

إنّ كلّ ما مرّ في هذا المبحث من شواهد وتحليل، يُثبت بوضوح تجذّر الحجج شبه المنطقية في المدوّنة ويُبرهن على أصالتها في الحجاج العربي، إذ تواتر ورود هذا النوع من الحجج في أقدم خطب المدوّنة؛ مما يؤكّد اهتمام الخطبة العربية بالجانب المنطقي واستنادها إليه في تحقيق كثيرٍ من أغراضها.

ولئن بدت حجج هذا المبحث أشكالاً منطقية محايّدة؛ بعيدة عن تدخّلات الخطيب، فإنّ الدراسة قد أظهرت ذاتية تلك الحجج وغرضيتها، فما إنّ يعدل إليها الخطيب حتى يطوّعها لصالح أطروحاته وهدفه من الحجاج، ومن هذا الوجه المنطقي الذاتي فإنّها تتحدّد الأهمية القصوى

(١) ينظر: الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٥٥.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢١٢.

لهذا النوع من الحجج.

ولقد كشفت الدراسة عن الأثر الواضح لتلك الحجج في الوصول إلى النتائج المقصودة من أقصر الطرق وأكثرها نفعاً، ذلك أنّ قرب تلك الحجج من المنطق وتلبّسها به يجعلها محلاً للتجريب والمساءلة العقلية، بعيداً عن الإلزام أو الفرض أو العنف، الأمر الذي يجعل المتلقي جزءاً لا يتجزأ من العملية الحجاجية، وبذلك التكامل فإنّ هذه الحجج تُمثّل قَمّة التفاعل بين الخطيب ومتلقيه. وفي حين استمدّت حجج هذا المبحث قوّتها من الخطاطات المنطقية المشتركة، فإنّ الباحث سيتحوّل إلى دراسة نوعين آخرين من الحجج يستمدّان قوّتهما من اتصاهما بالواقع وارتباطهما بالحدث والمقام.

المبحث الثاني: الحجاج بالسبب:

إذا كانت الحجج المؤسسة على بنية الواقع مختصةً بالربط بين العناصر الواقعية ذات العلاقة المعروفة^(١)، فإنَّ الحجاج بالسبب يُشكِّل مظهرًا من المظاهر المهمة لتلك الحجج؛ من جهة أنَّه حركة عقلية تعمل على ربط الأسباب بالمسببات، استدلالاً بالسبب على النتيجة، أو بالعلَّة على المعلول، أو بالوسيلة على الغاية^(٢)، وبذلك فإنه يمكن وصف الحجاج بالسبب بأنَّه: عمليةٌ ذهنيةٌ تقوم على البحث في الصِّلة بين الحدث ونتيجته؛ حيث إنَّ لكلِّ (حدثٍ) (سببًا) / مُثيرًا لا بدَّ أن يؤدِّي إلى (نتيجة) / أثرٍ ما^(٣).

وبناءً عليه، فإنَّ حجة السبب تتأسس في تكوينها على ملاحظة حدثٍ ما، والنَّظر إليه على أنه نتيجةٌ، أو أثرٌ لشيءٍ أو مجموعةٍ من الأشياء الأخرى المرتبطة به؛ التي ستصبح-فيما بعد-أسبابًا إذا استطاع الملاحظ إيجادها؛ مما يجعل البحث عن الأسباب هو قوام هذه العملية، وعمودها الذي تستند إليه^(٤).

إنَّ هذه الحجَّة أشبه ما تكون بقانون تفاعليٍّ يربط بعض الظواهر ببعضها؛ من خلال ردِّ المضامين إلى عواملها المحدثة لها، وبفضل هذه الصياغة القانونية فإنَّ المتكلم يتمكَّن من محاصرة مخاطبه وحمله على الاقتناع^(٥).

ويُعَدُّ الحجاج السببيُّ الأكثر تداولاً، والأقدر على التأثير من بين أصناف الحجج الأخرى؛ فكثيراً ما يستعين المتكلمون-بوعيٍّ أو دون وعيٍّ-بالحجاج السببي؛ تبريراً لأنفسهم وتأييداً لقراراتهم ولوجهات نظرهم، وذلك في صورة عقلية صارمة بعيدة عن الاعتباط أو التحيز الظاهر^(٦). وإذا ما درست حجاج هذا الصنف من جهة تركيبها وتأليفها، فإنَّك ستجدها تمتاز بطبيعتها

(١) ينظر: الإمبراطورية الحطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٦٠.

(٢) ينظر: الحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٣٣٣.

(٣) ينظر: الحجاج، كريستيان بلانتان، مرجع سابق، ص ٧١. وبحث: عدة الأدوات الحجاجية، مرجع سابق، ص ٤٠٩.

(٤) ينظر: بحث: عدة الأدوات الحجاجية، مرجع سابق، ص ٤٠٦. وبحث: الحجاج في الفلسفة وفي تدريسها، مرجع سابق، ص ٦٩١.

(٥) التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٦) ينظر: الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل: بحث في الأشكال والاستراتيجيات، علي الشبعان، ط ١، ص ٢٨٤-٢٨٥ (دار

الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١٠م). وبحث: عدة الأدوات الحجاجية، مرجع سابق، ص ٤٠٧، ٤٠٧.

«(التتابعية)؛ إذ يحرص فيها المتكلم على ربط الأفكار والوصل بين أجزاء الكلام، دون الاكتفاء بتلاحقٍ عاديٍّ بينها وتتابعٍ طبيعيٍّ يجعل الأحداث والأفعال، أو الأفكار والأحكام، متسلسلةً متجاوبةً، بل يعمد إلى مستوى أعمق من العلاقة؛ فيجعل بعض الأحداث أسبابًا لأحداثٍ أخرى، ويسمُّ فعلًا ما بأنه نتيجةٌ متوقَّعةٌ لفعلٍ سابقٍ، ويجعل موقفًا معيَّنًا سببًا مباشرًا لموقفٍ لاحقٍ»^(١).

إنَّ الحجج السببية «أقرب إلى المنطق، ومن ثم إلى الإقناع عمومًا؛ لأنَّ النتيجة فيها تكون مبنية على أسبابٍ ومؤثرات تكون عبارة عن نتيجة حتمية وطبيعية متوقَّعة؛ بالنظر إلى الأسباب أو المعطيات التي أدت إلى تلك النتيجة»^(٢).

وينبغي القول: إنَّ هذه الحجج مهما تظاهرت به من الحدِّ والضبط إلَّا أنَّها - كما سيأتي - قد تُستعمل بطريقةٍ مغالطيةٍ بعيدةٍ عن الحقيقة عاريةٍ من الصدق؛ إذ يمكن أن يكون وجود ظاهرتين أو تزامنهما أمرًا عفويًّا؛ بحيث لا يعود بالضرورة إلى وجود علاقةٍ سببيةٍ بينهما، كما أنَّها - مثل بقيةِ الحجج - لا تقود إلى الإلزام؛ فهي دائمًا قابلةٌ للنقاش وخاضعةٌ للمساءلة، فقد يكون السبب الصحيح مخالفًا للسبب المطروح، أو تكون النتيجة حادثةً بفعل تأثير أسبابٍ متكاملةٍ ومُترتبةٍ لا تنحصر فيما ذكره المتكلم فقط^(٣).

وسعيًا إلى تحديد وجوه هذا النوع من الحجج ورسم معالمه، فقد عمَّد بعض المختصين إلى حصره في ثلاثة وجوه، هي^(٤):

١- الحجج التي تسعى إلى الرِّبط بين حدثين متتابعين بواسطة علاقةٍ سببيةٍ تربط بينهما، نحو

(١) الحجج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ٣٢٧.

(٢) البنية الحجاجية في كتاب (المقابسات) لأبي حيان التوحيدي، آمال شيخ، رسالة ماجستير، ص ١٧٩، جامعة المسيلة، الجزائر (٢٠٠٩-٢٠١٠م).

(٣) ينظر: تاريخ نظريات الحجج، مرجع سابق، ص ٥٠-٥١. ولغة التخاطب الحجاجي: دراسة في آليات التناظر عند ابن حزم، مرجع سابق، ص ١٧٢. والأساليب المغالطية في المطارحات الحوارية التلفزيونية: برنامج (الاتجاه المعاكس) أنموذجًا، رائد مجيد جبار الزبيدي، مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع، كلية الإمارات للعلوم التربوية، العدد ٥٨، ص ١١١ (سبتمبر ٢٠٢٠م).

(٤) ينظر: في نظرية الحجج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٤٩-٥٠. والحجج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٧٠.

قول: اجتهد فنجح.

٢- الحجج التي تسعى إلى الكشف عن سبب وقوع حدثٍ معيّن، نحو قول: نجح لأنّه اجتهد.

٣- الحجج التي تسعى إلى استخلاص الأثر الناتج عن حدثٍ معيّن، نحو قول: هو يجتهد فسينجح.

وبدراسة هذه الوجوه الثلاثة فإنّه لا بدّ للدارس أن ينتهي إلى أنّ عملية الربط السببيّ تتمّ بالمرور في الاتجاهين: من السبب إلى النتيجة، ومن النتيجة إلى السبب؛ بُغية تبيين الأحداث والأشياء استنادًا إلى نتائجها الإيجابية أو السلبية.

وتعدُّ: (لام التعليل، لهذا، لأنّ، فاء السببية، من أجل، كي، كيما، لكيلا، لئلا، بسبب، إمّا، ونحوها) مُعلّلاتٍ ظاهرة عن حجج هذا الصنف، وروابط تربط بين السبب ونتيجته وتجيّب عن استفهامات المتلقين^(١). كما تجدر الإشارة-هنا- إلى أنّ النتيجة الواحدة قد تكون حصيلة أسبابٍ مُتعدّدة ومتنوّعة، وفي المقابل فإنّ السبب الواحد قد يؤدّي إلى أكثر من نتيجة واحدة^(٢).

ولحاجة الخطيب دومًا إلى التبرير وردّ الحقائق إلى أسبابها، ولأنّ النفوس لا تستجيب حتى تطمئن إلى النتيجة، فقد أكثر خطباء المدونة من هذا الصنف من الحجج، فجاءت حججهم متنوعة شاملة لجميع تلك الوجوه:

الوجه الأول:

وهو- كما ذكر آنفًا- مختصٌّ بالحجج التي تسعى إلى الربط بين حدثين متتابعين من خلال واسطة علاقة سببية، وقد يسوّغ هذا الوجه ربط عددٍ من الأحداث المتتابعة، في مواطن متتالية من الخطبة، بنتيجة واحدة يسعى الخطيب إلى ترسيخها وإقناع المتلقين بها^(٣).

ولعلّ من أوفى أمثلة هذا الوجه قول عثمان رضي الله عنه في خطبته حين نَقِم عليه بعضهم ما نقموا: ((لقد أقررت لابن الخطاب بأكثر مما نقمت علي، ولكنّه وطئكم برجله وضربكم بيده

(١) ينظر: بحث: عدة الأدوات الحجاجية، مرجع سابق، ص ٤٠٧.

(٢) ينظر: البنية الحجاجية للخطاب بين فنية الإيقاع ونصية الإقناع في كتاب: (هداية الحيارى) لابن القيم، يوسف بن سعدة، رسالة ماجستير، ص ٥٥، جامعة الجلفة، الجزائر (٢٠١٦-٢٠١٧م).

(٣) ينظر: الحجج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٧٠.

وَوَقَمَكُمْ^(١) ووقمكم وزجركم زجر النعام المخزّمة^(٢)، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتكم، ولنتُ لكم وأوطأت لكم كَنَفِي^(٣) وكَفَفْتُ يدي ولساني عنكم، فاجترأتم عليّ^(٤).

حيث أسس عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا القول على الربط بين الأحداث ونتائجها بواسطة علاقة سببية تتابعية ظاهرة؛ فقد كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جلدًا على المبطلين بالحقّ فدانوا له، في حين أنّهم قابلوا لين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولطفه بهم بالجرأة والنفور.

وعُثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذ بيني قوله على هذه العلاقة السببية التتابعية، إنّما يسعى إلى إدانة المتلقين وزجرهم والإنكار عليهم؛ من خلال وصفٍ موضوعيٍّ يعتمد على مُعطيات الواقع الظاهرة والمجرّبة التي لا تحتاج إلى توضيح أو مزيد تفسير^(٥).

وغيرُ خافٍ ما ينطوي عليه هذا التسبيب من رميٍّ للمعنيين بالشقاء والبلاهة، وعدم التّوفيق والسداد؛ حيث خالفوا العقل والمنطق، وجانبوا الصواب بأفعالهم تلك؛ ذلك أنّ الأصل في ردّة الفعل (النتيجة) أن تكون متوافقة مع الفعل، ولكنّهم خالفوا هذا الأصل بجرأتهم وتأنيبهم على من لأنّ لهم وكفّ عنهم.

كما أنّ من أمثله، قول حبيب بن مسلمة الفهري في خطبته لمّا أوفده معاوية إلى عليّ -رضي الله عن الصحابة أجمعين-: ((أمّا بعد فإنّ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان خليفة مهاديًا، يعمل بكتاب الله -عز وجل- ويُنيب إلى أمر الله تعالى، فاستثقلتكم حياته واستبطأتم وفاته، فعدوتم عليه فقتلتموه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فادفع إلينا قتلة عثمان -إنّ زعمت أنك لم تقتله- نقتلهم به))^(٦).

إنّ من المفروغ منه القول بأنّ لكل حدثٍ سببه المؤدّي إليه؛ ف«الأحداث على اختلاف

(١) الوَقَمُ: كسُر الرّجل وتَدْلِيلُهُ، يُقال: وَقَمَ اللهُ العَدُوَّ: إذا أدلَّهُ. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٤، ص ٥٩.

(٢) حَزَمَ البعير: جعل في جانب منخره الحِزَامَةَ (البُرّة)، وهي حلّقه من شَعَرٍ تُجَعَلُ في وَتْرَةِ أنفه يُشَدُّ بها الرِّمَام. ينظر: السابق، ج ٣٢، ص ٧٨.

(٣) الكَنَفُ: الظِّلُّ، يُقال: هو يعيش في كنف فلان: أي في ظلّه. ينظر: السابق، ج ٢٤، ص ٣٣٤.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٧٣.

(٥) ينظر: الحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٧١.

(٦) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٣٥.

أنواعها ينبغي أن تكون متسقة ضمن نظام يجمعها في علاقات محدّدة ويُرر وجود كلِّ منها»^(١)، لذا فإنَّ حبيب بن مسلمة قد عدل إلى هذه الحجّة، في هذا المقام المتبس، ليعيّن أسباب قتل عثمان رضي الله عنه.

وإذ يُدرج الخطيب هذه الحجّة بطريقةٍ مفصّلة متلازمة؛ تبدأ من أصل الحكاية وتنتهي بالنتيجة (القتل)، فإنّه إنّما يسعى بذلك التفصيل التلازمي إلى إظهار المعنيين مظهر المعاندين المحاربين للهدى المجانين للحقّ، في حين أنّه لو باشر الخطيب ربط السبب الأول بالنتيجة الكلية (القتل) لبدا التكلّف واضحًا، ولحقّ القول شيء من الريبة والظن^(٢).

ويظهر في هذا القول إقحام عليّ رضي الله عنه وتكليفه بدم عثمان رضي الله عنه وتوريثه به؛ ذلك بفعل دور هذا الرابط السببي في إظهار النتيجة على هيئة حقيقة مسلم بها، غير أنّ «الأمر في حقيقته ليس على هذا النحو؛ فالحاق الأسباب ووصلها بنتائج واقعية أو ظواهر مسلم بها، ليس إلا حيلًا حجاجية تحمل وجهة نظر مستخدمها، وتسعى لحمل المتلقي على الإذعان لها»^(٣).

وعلى هذا النهج في الاحتجاج سار الحسن البصري رحمته الله في سياق عظته لعمر بن هبيرة وقد ولّاه يزيد بن عبد الملك العراق، حيث يقول: ((اتق الله أيها الأمير، فإنّك لا تأمن أن ينظر الله إليك، وأنت على أقبح ما تكون عليه من طاعة يزيد، نظرةً يمقتك بها، فيغلق عنك باب الرحمة))^(٤).

إذا كان الربط بين الحدث ونتيجته يشكّل طريقًا من طرق التقويم وتعديل السلوك، بفعل ما تحمله النتائج من قيمة مرعّب فيها أو مُنفّر عنها، فإنّ الحسن رحمته الله قد استعان بحجة السبب -من هذا الوجه- بغرض تخويف الأمير من التفريط في جنب الله مُراعاةً للخلفية أو طلبًا لرضاه، فأبى الناس لا يحذر أن يُغلق عنه باب الرحمة؟.

(١) معجم السرديات، إشراف: محمد القاضي، ط ١، ص ٦٨ (دار محمد علي للنشر، تونس، ٢٠١٠م).

(٢) ينظر: الحجاج شبه المنطقي في رسالة: (الصاهل والشاحج) لأبي علاء المعري، مها العجلة، مجلة جذور، العدد ٦٠، ص ٢١٦-٢١٧ (٢٠٢١م).

(٣) الحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٧١.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٤٩١.

ولمّا كانت هذه النتيجة نتيجة مصيرية لا يُتصوّر قبولها أو الرضا بجزءٍ منها، فإنّ الأمر قد اقتضى تفصيل علّتها (ينظر الله إليك، وأنت على أقبح ما تكون عليه من طاعة يزيد، نظرة يمتك بها)؛ ليتنبه المتلقي إلى خطورتها ولتترسّخ في ذهنه، فتحصل الغاية المنشودة من خوف الله بعباده وتحرّي العدل والإنصاف.

وإنّ بدا هذا الخطاب موجّهاً إلى متلقٍ مسمّى، إلّا أنّه خطابٌ عامٌّ يُمكنُ توجيهه إلى «كلِّ كائنٍ عاقلٍ، كلِّ كائنٍ قابلٍ لأنّ يُصدّق بخطابٍ معقولٍ تُسنده حجج تحاطب العقل، بحيث يقبل بما كلِّ شخصٍ يُفكّر بشكلٍ طبيعيٍّ؛ باختصار: كلِّ كائنٍ يُسلّم بحجاج عقلائيٍّ»^(١).

وعلى نهجه، قول أحد الجنود إثر خلع (الأمين)^(٢) وحبسه: ((يا معشر الحرّيّة، هذا يومٌ له ما بعده، إنكم قد نتمّم وطال نومكم، وتأخرتم فقدم عليكم غيركم، وقد ذهب أقوام بذكر خلع محمد وأسرّه، فاذهبوا بذكر فكّه وإطلاقه))^(٣).

إنّ كان وصف الواقع وتثمينه يشكّل -في حقيقته- حُكماً حجاجياً موجّهاً للسلوك ودافعاً إلى العمل، فإنّ المتأمل في هذا الشاهد يجد أنّ الخطيب قد عمّد به إلى وصف الواقع من خلال ربط النتيجة بسببٍ مسوّغ لقبول الحجّة والتّسليم بها، ومتى صادق المتلقون على هذه الحجّة فإنهم لا بدّ أنّ يتحركوا إلى نصر (الأمين) وتلافي مغبة تخاذلهم عنه، عسى أن تعود الأمور إلى نصابها ويرجع الحقّ إلى أهله^(٤).

وتحمّل هذه الحجّة معنى (حجة التبديد)^(٥) المنذرة بفوات المصلحة؛ فإنّ لم يواظب هؤلاء

(١) الإمبراطوريّة الخطايبية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٣.

(٢) وكان من أحداث تفاقم الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون أنّ سيرّ الأمين عبد الملك بن صالح في جيشٍ لحرب طاهر بن الحسين، وذلك سنة ٩٦هـ، إلّا أنّ المقام لم يطل بعبد الملك بن صالح؛ إذ توفي في سنته تلك، فوَلِي بعده الحسين بن علي بن ماهان، واستهلّ ولايته بخلع الأمين ثمّ حبسه، ثمّ أخذ البيعة عليه لأخيه المأمون، وكان عاقبة ذلك أنّ هاج الناس على الحسين بن علي وسخطوا، فتوالت إثر ذلك الخطب في أمرٍ ردّ الأمين إلى الخلافة، وكان من بينها هذه الخطبة المذكورة. ثمّ نهض الناس في قتال الحسين بن عليٍّ ومن معه فهزموهم وردّوا الأمين إلى كرسيّ الخلافة. ينظر: تاريخ الرسل والملوك، مرجع سابق، ج ٨، ص ٤٢٤-٤٣٢.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١١٤.

(٤) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٩٤. والحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٧٣.

(٥) ويُقصد بحجة التبديد: الحجّة التي تنشأ مرتكزةً على القول: بما أنكم سبق أن بدأت عملاً تجشّمتم وتكبّدتم لأجل إنجازه تضحياتٍ ستذهب -إن استسلمتم وتراخيتم ولم تتداركوا وضعكم- هباءً، فينبغي إذن أن تواظبوا على العمل في الاتجاه

الجنود على الوقوف إلى جانب الخليفة والمدافعة عن مقامه فإنهم سيخسرون تقدّمهم وسيؤول الأمر إلى غيرهم.

إنّ الأمثلة السالفة لا تفتأ تتفق على إثبات حدثٍ ما بالاعتماد على حدثٍ سابقٍ، ولئن كانت الأحداث موجودةً مُسلّمًا بها سلفًا، فقد تجلّت براعة خطباء المدوّنة في إيجاد هذا الارتباط بين حدث السبب وحدث النتيجة؛ لينشأ عن هذا الارتباط التابعي حكمٌ مدعّم بما يكفيه من الدلائل الواقعية.

الوجه الثاني:

ويُعنى هذا الوجه - كما سلف تقريره - بتعليل وقوع حادثٍ معيّنٍ أو ظاهرةٍ معينةٍ، وذلك من خلال المرور من النتيجة إلى العلة أو السبب؛ فإذا كان لكلِّ حادثٍ علةٌ أو سببٌ ولكلِّ أثرٍ مُثيرٍ، فإنَّ حجاج هذا الوجه يتّخذ من علةِ الحدوث وسبب الظهور طريقًا عقليًا إلى تبرير المواقف وتحريك المتلقين والتأثير فيهم.

وقد تردّد هذا الوجه في عدد من مواضع المدونة، ومنها أنّه لمّا أرسل قائد جيش الفرس^(١) ((إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن ابعث إلينا رجالًا نكلمه ويكلمنا؛ بعث إليه: ربعي بن عامر، فلمّا انتهى إليه قال له الترجمان (واسمه عبود من أهل الحيرة): ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا، والله جاء بنا، لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام))^(٢).

فإذ تبدّل حال العرب - بعد أن كانوا أمةً مُتفرّقة متناحرة لا تكاد تجتمع لها كلمة، فأصبحوا أمةً واحدة، رايتها واحدة وكلمتها واحدة، تُجابه أقوى الأمم وأكثرها عتادًا ومنعةً - فقد أراد قائد جيش الفرس أن يقف على علةِ هذا التبدّل، فيعرف كنهه وسبب رده، ولكنّ ربعي بن عامر رضي الله عنه كان على قدرٍ عالٍ من الفطنة والخبرة بالحجاج؛ بحيث ضمّن إجابته عللاً يصعب على

نفسه. ينظر: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، الحسن بنو هاشم، ط ١، ص ٧٤ (دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١٤م).

(١) وكان ذلك ضمن أحداث معركة القادسية سنة ١٤ هـ. ينظر: تاريخ الرسل والملوك، مرجع سابق، ج ٣، ص ٥٢٠.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٤٢.

قائد الفرس رُدُّها أو التغاضي عنها؛ فهُم جنود الإنقاذ وُرُسل السلام والإسلام، اختصَّهم الله بمهمة إخراج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ويحْتُ قول الخطيب: (لُنُخرج مَنْ شاء من عبادة العباد، إلى عبادة الله، ومِن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام) على القول بأنَّ «الحجاج بوطأة الأشياء (الإكراهات الخارجية) يمثِّل حالة قصوى مهمة من الحجاج بالسبب، فإذا ما تعلق الأمر بتبرير قرار سياسيٍّ - مثلاً- فإنَّ وطأة الظروف يقدم على أنَّه هو الذي جعل اتِّخاذ القرار المعني أمرًا لازمًا»^(١).

وقريبٌ منه، ما جاء في معرض خطبة يزيد بن الوليد لَمَّا قَتَلَ ابن عمِّه الوليد بن يزيد، حيث يقول: ((أيُّها الناس: والله ما خرجت أشراً^(٢) ولا بطراً^(٣))، ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة في الملك، وما بي إطرء نفسي وإيَّ لظوم لها إنَّ لم يرحمني الله، ولكن خرجت غضباً لله ودينه، داعياً إلى الله وإلى سنة نبيه ودينه، لَمَّا هُدِمَت معالم الهدى، وأطفئ نور أهل التقوى، وظهر الجبار العنيد، المستحلُّ لكلِّ حُرمة، والركاب لكلِّ بدعة، الكافر بيوم الحساب))^(٤).

فقد عدل يزيد بن الوليد إلى هذا التعليل ليُخرج به نفسه من تبعات هذا الحدث العظيم، ومن بوائقه، خروجَ المُحسن المُشفق الحريص على سلامة الدين وسلامة أهله؛ فهو لم يخرج لطغيانٍ في ذاته، أو هوى في نفسه، أو لمصلحة يرجوها، بل خرج غضباً لله ودينه، داعياً إلى الله وإلى سنة نبيه؛ لَمَّا رأى انحراف ابن عمِّه الشديد عن هذا السنن. إنَّ خروج الخطيب على ابن عمِّه لا يعدو كونه ردّة فعلٍ لازمةً لفعلٍ سابقٍ كان أكثر جرأةً منه، وأكبر طغياناً وأعظم تعدياً.

ولئن كان «توفّر وسيلة ناجعة لتحقيق رغبةٍ ما، يُعطي لهذه الأخيرة زخمًا كافيًا لتحويلها إلى غاية»^(٥)، فإنَّ الخطيب قد مهّد بهذه الأسباب المقنعة لتكون وسائل شرعية كافية لحصول غايته (قتل الخليفة)، وإلى ذلك فإنَّ في هذا التعليل معنى أخذ العهد بإقامة العدل والالتزام بالحدود وإحياء السنة، وإلا فإنَّ الخطيب سيقع في مأزق التعارض.

(١) الحجاج، كريستيان بلانتان، مرجع سابق، ص ٧٨.

(٢) الأشتر: الغرور. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٠، ص ٥٣.

(٣) البَطْرُ: الطغيان بالنعمة. ينظر: السابق، ج ١٠، ص ٢١٢.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢١٨.

(٥) الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٦٨.

وعلى منواله، قول عبد الله بن حنظلة الأنصاري رضي الله عنه سالف الذكر: ((أيها الناس، إنما خرجتم غضباً لدينكم، فأبلوا إلى الله بلائاً حسناً، ليوجب لكم به الجنة ومغفرته، ويحلّ بكم رضوانه))^(١).

فحين خشى عبد الله رضي الله عنه أن يهتزّ أهل المدينة لخروج جيش يزيد اتّخذ من حجة السبب بيان علّة الحدث سبيلاً إلى تثبيتهم والإلحاح عليهم بالاستمرار في مقاومة يزيد وجيشه؛ فهم لم يخرجوا إلّا لشيء واحد وهو الغضب لدينهم، ومن اقتصرت علّة خروجه على الغضب لدين الله والمحاماة عن محارمه، فلا ينبغي أن يخشى أحداً إلا الله.

ولاشكّ أنّ وصل الطلّب (أبلوا إلى الله بلائاً حسناً) بالسبب مما يحفز على قبول الطلب والقيام به، فالخطيب إنّما استعان بهذه الحجة في هذا الموضع من السياق؛ لتكون طاقة تأثيرية، ووسيلة لإقناع متلقيه بإجابة هذا الطلب الصعب، دون النظر في مآلاته؛ ذلك أنّه خروجٌ لله وفي سبيل الله^(٢).

ومما يدور في فلك الشواهد السابقة، أنّ طاهر بن الحسين خطب أهل بغداد إثر مقتل (الأمين) فكان من قوله: ((إنّ ظهور غلبتنا لم يكن من أيدينا ولا كيدنا، بل اختار الله للخلافة؛ إذ جعلها عماداً لدينه، وقواماً لعباده، وضبط الأطراف، وسدّ الثغور، وإعداد العُدّة، وجمع الفياء، وإنفاذ الحكم، ونشر العدل، وإحياء السنة))^(٣).

فلئن كان إرفاق الحدث بما يستنتجه المتكلم من أسبابٍ يمدُّ خطاب المتكلم بقوة إقناعية تُظهر السبب بصفته جزءاً من الحقيقة المسلم بها^(٤)، فإنّ من براعة طاهر بن الحسين الإقناعية وتمكّنه أن عدل إلى حجة السبب-من هذا الوجه-ليجعل الخليفة (المأمون) ومن خرج مخرجه في حلٍّ من نقض البيعة والخروج على الخليفة؛ إذ حدث كلُّ هذا الانتهاك وذلك الخروج استجابة لاختيار الله الذي هو الأصلح والأأنفع للخلافة.

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣٢٦.

(٢) ينظر: الحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٧٣-١٧٤.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١١٩.

(٤) ينظر: الحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٧٣.

لقد أدرك الخطيب خضوع العباد لله ورضاهم به ربًّا، فاختر أن يكون هذا الخضوع طريقه إلى استسلامهم وإذعانهم والانقياد له، فإن كانوا يؤمنون بالله وبقضائه وقدره ومشيتته، فإن الله قد اختار للأمة من يُعيد إليها حقوقها، ويحفظ لها دينها.

وبذلك فإن هذا الوجه-من وجوه الحجاج بالسبب- يُشكّل حجةً عقليةً، واضحةً وصارمةً، تُحدّد إرهابات الحدث وتُبرر وقوعه؛ منطلقةً في ذلك من أن كلَّ حدثٍ إنما هو نتيجةٌ أو أثرٌ متولّد بالضرورة عن مُثيرٍ مُعيّنٍ أو عدّةٍ مُثيراتٍ يمكن للخطيب رصدتها وإعادة حدث النتيجة إليها، وأصدق الحقائق وأوثقها ما جاءت مرتبطةً بسببها وعلّة وجودها.

الوجه الثالث:

وهو وجهٌ مختصٌّ- كما ذكر سلفًا- باستنتاج الأثر الحاصل عن حدثٍ مُعيّنٍ، ومن هذه الناحية فإن هذا الوجه لا يخلو من معنى التكهن أو الاستطلاع^(١)، غير أن المتكلم قد لا يذكر السبب صراحةً، بحيث يبته على هيئة استنتاجٍ يُثبت من خلاله فكرةً ما باستناده إلى فكرةٍ أخرى، فتتوزع هاتان الفكرتان في مكانين متعايشين أو في زمانين متعاقبين، نحو: بما أن هناك محسنين فإنّ هناك معوزين مستفيدين من هذا الإحسان (توزيع مكاني)، ونحو: بما أن هذا ناجحٌ فقد سبق الاجتهاد (توزيع زمني)^(٢).

ومما استحسّنه الباحث من شواهد هذا الوجه في المدونة، قول عاصم بن عمرو التميمي رضي الله عنه يوم (أرمات): ((إن صبرتم وصدقتموهم الضرب والطعن فلکم أموالهم ونساؤهم وأبنائهم وبلادهم، وإن خرتم وفشلتم-والله لکم من ذلك جارٌ وحافظٌ-لم يُبقِ هذا الجمع منکم باقيةً))^(٣).

يظهر في هذا القول لعاصم رضي الله عنه اعتماده على الحجاج بالسبب من خلال استنتاج الأثر؛ فالصبر وصدق العدو عند الملاقاة أسبابٌ لا بُدَّ أن تورث المتلقين تلك البلاد وأهلها، في حين أن

(١) ينظر: السابق، ص ١٧٥.

(٢) ينظر: أطروحة: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب: (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة-دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٩٤-٩٥.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٣٠.

التنازع والتخاذل والتراجع أسبابٌ تنتهي بهم - لا محالة - إلى الزوال والأفول.

ولقيام هاتين الحجتين السببيتين على ثنائية: (الترغيب) و(الترهيب) دورٌ بارزٌ في إقناع المتلقين والتأثير فيهم، فالغُنى لمن صبر وكابد العدو، والهوان والخسران لمن تراجع وانخدل، إنَّ في رسم هذين المصيرين المتباينين مُحاصرةً للمتلقين، وتحريضًا لهم على القتال والصبر والمصابرة، وتكريهًا ظاهرًا لهم في الخور والتراجع والتشردم^(١).

ومما ينتظم في سلكه، ما ورد في خطبة عثمان رضي الله عنه في معرض ردِّه على الثَّوار، إذ كان من جملة ما قال: ((فإنكم مجتلبون بهذا الأمر إن قتلتموني دماً))^(٢).

فإذا كانت أنفع الحجج هي الحجة التي تسمح بتقييم فعلٍ ما بواسطة نتيجته، وإذا كانت الحقائق لا تُقيَّم إلا بواسطة آثارها^(٣)، فإنه رضي الله عنه قد اعتمد في صياغة هذا القول الحجاج بالسبب من خلال استخلاص الأثر؛ ليقمَّ خطورة ما يسعون إليه، ذلك أنَّ قتلَه رضي الله عنه سيكون سببًا في فُشُوِّ القتل فيهم، وانقطاع الأمن عنهم.

ولئن لم يكن النهي صريحًا في هذه الحجة، إلا أنَّ المتأمل يجد أنَّ عثمان رضي الله عنه قد وُقِّق - من خلال هذا الاستشراف القائم على الربط المنطقي بين السبب والنتيجة - إلى كشف ما قَصُرَتْ أذهانهم عن تصوُّره ومعرفته؛ ذلك أنَّهم بقتله يحيلون الأمة إلى فتنةٍ عظيمة لا تُنزع عنهم^(٤).

كما تظهر بهذه الحجة أهمية هذا الوجه في الرصد المستقبلي، وتحديد المآلات ومعرفة المصائر؛ إذ حدَّد عثمان رضي الله عنه بهذه الحجة مستقبل الأمة وما سيكون عليه حالها إثر مقتله رضي الله عنه، فلم يحدِّ واقع الأمة عن ذلك، ولكأنه رضي الله عنه ينظر إلى الغيب من وراء سترٍ رقيق^(٥).

(١) ينظر: بلاغة الموعظة الدينية، محمد مشبال، ضمن كتاب: البلاغة وأنواع الخطاب، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٧٥.

(٣) ينظر: نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، مرجع سابق، ص ٧٢. والإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٦٣.

(٤) ينظر: الحجاج في النص الخطابي من فترة ما قبل الإسلام إلى أواخر العصر العباسي الأول: أساليبه ووظائفه، مرجع سابق، ص ١٤٦.

(٥) ينظر: بحث: عدة الأدوات الحجاجية، مرجع سابق، ص ٤٠٨.

ونحوه أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَاطَبَ النَّاسَ يُحْتَمُّهُمُ عَلَى الْقِتَالِ، ثُمَّ أَعَقَبَهُ ابْنُهُ الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَكَانَ مِمَّا قَالَ: ((إِنَّهُ لَمْ يَجْتَمِعْ قَوْمٌ قَطُّ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ إِلَّا اشْتَدَّ أَمْرُهُمْ، وَاسْتَحْكَمَتْ عُقْدَتُهُمْ، فَاحْتَشَدُوا فِي قِتْلِ عَدُوِّكُمْ مَعَاوِيَةَ وَجُنُودَهُ، وَلَا تَخَازِلُوا، فَإِنَّ الْخِذْلَانَ يَقْطَعُ نِيَابِطَ الْقُلُوبِ، وَإِنَّ الْإِقْدَامَ عَلَى الْأَسِنَّةِ^(١) نَخْوَةٌ وَعَصْمَةٌ، لَمْ يَتَمَنَّعْ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا رَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْعَلَّةَ، وَكَفَاهُمْ جَوَائِحِ الذَّلَّةِ، وَهَدَاهُمْ إِلَى مَعَالِمِ الْمَلَّةِ^(٢))).

فقد عاود الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عدوله إلى هذا الوجه من الحجاج السببي؛ زيادةً في الاستفزاز والتحريض. ولايضاح ذلك فإنَّ الباحث يدرج في الجدول التالي الأسباب والنتائج بحسب ورودها في الخطبة:

السبب	نتيجته
لم يجتمع قوم قط على أمر واحد	إلا اشتد أمرهم، واستحكمت عقدتهم
فاحتشدوا في قتل عدوكم معاوية وجنوده، ولا تخاذلوا	فإنَّ الخذلان يقطع نياط القلوب
الإقدام على الأسنة	نخوة وعصمة
لم يتمنع قوم قط	إلا رفع الله عنهم العلة، وكفاهم جوائح الذلة، وهداهم إلى معالم الملة

ولاتكأ الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على هذه الحجّة في هذا المقام التحريضي، فإنّه يمكن القول بأنّه من أجل إكساب الحدث قيمةً معيّنة، فإنّه يكفي أن يُحكّم على آثاره السيئة أو الحسنة المترتبة عليه، فبهذا الربط النوعي بين الحدث ونتيجته فإنّه يمكن التحفيز على القيام بفعلٍ ما أو التنفير من إتيان فعلٍ ما؛ من جهة أنّ النفوس تقترب من الأحداث ذات النتائج المرغوب فيها وتنفر من ضدها، فضلاً عن أثر هذا الربط المنطقي الفاعل في تصويب أو تعظيم أو تبرير مذهبٍ ما، أو

(١) الأسنة: الرماح. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٥، ص ٢٢٤.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٢٥.

رأيي ما أو قرار ما، بناء على تبعاته (نتائجه) المقبولة أو المرفوضة المترتبة عليه^(١).

وعلى منواله، أنه ((لَمَّا اشْتَدَّ الكَرْبُ بَيْنَ يَدَيِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّخِلِ، يَوْمَ حَرْبِهِ مَعَ يَوْسُفَ الْفَهْرِيِّ (صَاحِبِ الأَنْدَلُسِ)، وَرَأَى شِدَّةَ مَقَاسَاةِ أَصْحَابِهِ، قَالَ: هَذَا الْيَوْمَ هُوَ أَسُّ مَا يُبْنَى عَلَيْهِ؛ إِمَّا ذَلَّ الدَّهْرَ وَإِمَّا عَزَّ الدَّهْرَ، فَاصْبِرُوا سَاعَةً فِيمَا لَا تَشْتَهُونَ، تَرْجُحُوا بِهَا بَقِيَّةَ أَعْمَارِكُمْ فِيمَا تَشْتَهُونَ))^(٢).

فبما أنَّ المقام لا يحتمل الإطالة ولا يقبل التّفنّن، فإنّه لم يكن بوسع عبد الرحمن إلا أن يحرض جيشه في كلمات معدودات تُعيد إليهم توازئهم وترسخ الثقة في نفوسهم، وعليه فقد أتت هذه الخطبة بالغة القصر جزيلة النفع. ولِعَظُمَ جَدْوَى حِجَّةِ السَّبَبِ بِاسْتِنْتِاجِ أَثَرِ الحَدِثِ، فَإِنَّ الخَطِيبَ قَدِ اخْتَارَ أَنْ تَشْغَلَ هَذِهِ الحِجَّةُ نِصْفَ هَذِهِ الخُطْبَةِ المَرْكَزَةَ؛ فمَتَلَقَّوه سِيرْجُونِ بِصَبْرِهِمْ هَذِهِ السَّاعَةَ عَلَى الجِلَادِ وَالمَطْعَانِ الرِّفَاءِ وَالأَمْنِ وَالأَمَانِ بِقِيَّةِ أَعْمَارِهِمْ.

وتُسَفِّرُ هَذِهِ الحِجَّةُ عَنِ ذَاتِيَةِ الحِجَاجِ وَأَهْمِيَّةِ اخْتِيَارَاتِ الخَطِيبِ وَخَطُورَتِهَا فِي اسْتَفْزَازِ المَتَلَقِّينَ وَإِثَارَتِهِمْ؛ فَإِذَا كَانَ لِكُلِّ قَرَارٍ نَتِيجَتَانِ: سَلْبِيَّةٌ وَإِجَابِيَّةٌ، فَإِنَّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَدِ اخْتَارَ لِهَذَا القَرَارِ نَتَائِجَ إِجَابِيَّةَ تُحَفِّزُ المَتَلَقِّينَ عَلَى الاستِيسَالِ فِي سَبِيلِ هَذَا الأَمْرِ، فِي حِينِ أَنَّهُ أَغْفَلَ -بِذَكَاءٍ- مَا قَدِ يَتَرْتَّبُ عَلَى هَذَا القَرَارِ مِنْ نَتَائِجٍ سَلْبِيَّةٍ؛ فَقَدِ يَنْتَهِي هَذَا الأَمْرُ بِأَحَدِهِمْ إِلَى القَتْلِ أَوِ الأَسْرِ أَوِ الجِرْحِ. إِنَّ مِنْ شَأْنِ الذِّكَاةِ فِي تَحْرِيزِ المَتَلَقِّينَ أَنْ يُكْسِبَهُمُ البَطُولَةَ، وَيُحْتَمِّمَهُمْ عَلَى التَّفَانِي فِي المَقَاوِمَةِ^(٣).

ومن خلال ما عُرض من تدليل وتحليل، فإنّه يُسْتَيَقِّنُ مَدَى أَهْمِيَّةِ هَذَا الوَجْهِ وَدَوْرِهِ فِي التَّحْرِيكِ وَالتَّحْفِيزِ، ذَلِكَ أَنَّ النُّفُوسَ تُقْبَلُ عَلَى مَا تَعْلَمُ أَنَّ أَثَرَهُ إِجَابِيٌّ، كَمَا أَنَّهَا تَتَجَنَّبُ الأَحْدَاثَ ذَاتِ الأَثَارِ السَّلْبِيَّةِ، وَبِفَضْلِ هَذِهِ الفَاعِلِيَّةِ فَقَدِ اسْتَحَقَّتْ هَذِهِ الحِجْجُ أَنْ تَرِدَ فِي أَكْثَرِ الخُطَبِ حَسَاسِيَّةً وَأَعْلَاهَا خَطُورَةً.

*** **

(١) ينظر: بحث: عدة الأدوات الحجاجية، مرجع سابق، ص ٤٠٧-٤٠٨.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٦٢.

(٣) ينظر: سيكولوجية الجماهير، غوستاف لوبون، ترجمة: هاشم صالح، ط ١، ص ٧٥ (دار الساقي، بيروت، ١٩٩١م).

والحجاج، كريستيان بلانتان، مرجع سابق، ص ٧٨.

لقد أبرز هذا المبحث أهمية الأدوار الإقناعية التي يمكن أن تؤدي بالحجاج بالسبب بأوجهه الثلاثة، ذلك أن من شأن وقوف المتلقي على حقيقة الأسباب ومعرفته بالنتائج أن يغير سلوكه وقناعاته، ويحركه ويؤثر فيه؛ بفعل ما تحمله النتائج من مكاسب أو خسائر مُعلنة.

وفي المقابل، فإنَّ ابتسار الأسباب والنتائج وإيرادها منفصلة لا بُدَّ أن يفقدها حقيقتها ويُحيلها إلى قيمة إخبارية خالية من التأثير والإقناع، ذلك بفعل ما لربط السبب بنتيجته من دورٍ حاسمٍ في التوجيه؛ من حيث رسم معالم الطريق إلى النتيجة المرغوب فيها أو المصروف عنها، فمتى كان المتلقي عارفاً بمقدّمات هذا الحدث أو ذاك، فإنَّه يكون مرهناً بتتبع مقدّماته للظفر بنتيجته المرغوب فيها، أو بتوجيهها لتجنب أثره المذموم.

ولا يُخطئ من يذهب إلى أن كلَّ ردِّ للحقائق إلى أسبابها إنما هو من قبيل الإقناع الموجّه والمقصود، وهو ما يجعل هذا النوع من الحجاج شائعاً ومطروحاً في كافّة النصوص والخطابات الهادفة.

وإلى ذلك فإنَّه لا يخفى دور الربط بين السبب ونتيجته في تماسك النص وتركيزه ومتانته؛ ذلك أن كلَّ سببٍ لا بدَّ أن يؤدي إلى نتيجةٍ ما، كما أن كلَّ نتيجةٍ لا بدَّ أن تكون وليدة سببٍ ما أو أكثر.

وإذا كان الحجاج بالسبب علامةً من علامات حضور الواقع في الحجاج، فإنَّ سلطة القائل وسلطة مصدر المنقول يمثّلان -أيضاً- إحدى السمات الواقعية المهمّة التي يمكن دراستها والتعرّف على أبعادها في حجاج المدونة، وهو ما سيتحوّل الباحث إليه في المبحث التالي.

المبحث الثالث: الحجاج بالسلطة:

على الرغم مما يتمتع به مصطلح (الحجاج بالسلطة) من معانٍ متفاوتة وفضفاضة، إلا أنه يمكن تعريف الحجاج بالسلطة بأنه: الحجاج الذي يتم إنجازُه بالاستناد إلى سلطة المتلقِّظ/ القائل السياسية أو التاريخية أو الدينية أو الاجتماعية أو العلمية أو القبليَّة، أو بالاستناد إلى سلطة مصدر المنقول النَّاجمة عن قدسيَّته، أو مكانة قائله، أو حظُّه من التداول والاشترك والاتِّفاق^(١). وإن كان هذا النوع من الحجاج يتأسَّس على مبدأ الإذعان والإلزام- في حين أن الإقناع يُعدُّ بالنسبة إليه أمرًا ثانويًّا- فإنَّ بين الحجاج بسلطة القائل والحجاج بسلطة المنقول فرقًا جوهريًّا من جهة علاقة المُلقِّي والمتلقِّي، ومن جهة سطحيَّة السلطة وعمقها، فالعلاقة في الأول (سلطة القائل) علاقة تابع بمتبوعه، تجعل السلطة سلطة ظاهرة على سطح النص، أمَّا في الثاني (سلطة المنقول) فإنَّ العلاقة علاقة متبادلة يسودها الاحترام ويحوطها الاعتراف والتقدير، الأمر الذي يجعل سلطة المنقول سلطةً مستترة في عمق الخطاب^(٢).

ويبدو الحجاج بالسلطة- بفعل ظروف مقامات التدافع- أمرًا ضروريًّا يستند إليه المتكلمون ويتسلَّحون به ويغلب عليهم، فخلوُّ الخطاب من أيِّ مظهرٍ من مظاهر السلطة يجعله عرضةً للتهميش والردِّ، وإذا ما قيل بإمكان وجود سلطةٍ دون بلاغة؛ فإنَّ البلاغة تفتقر إلى السلطة في كثيرٍ من مواطنها، بل إنَّ ميلاد بلاغة الإقناع مرتبطٌ بالسلطة ذاتها؛ لذا فقد اتَّفقت أغلب المدارس البلاغية على أنَّ النسبة العالية من قيمة القول، إنَّما يتمُّ اكتسابها من سلطة قائله، أو مكانة مصدره أو قيمته^(٣).

(١) ينظر: الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٧٦.

(٢) ينظر: من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، مرجع سابق، ص ٢٩. وأطروحة: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب: (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة- دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٣٦٣-٣٦٤. وبمبحث: الحجاج شبه المنطقي في رسالة: (الصاهل والشاحج) لأبي علاء المعري، مرجع سابق، ص ٢٣٠-٢٣١.

(٣) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، مرجع سابق، ص ١٣١. والأساليب المُغالطية مدخلا في نقد الحجاج، محمد النويري، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، مرجع سابق، ص ٤٢٢، ٤٢٤، ٤٢٦. وبمبحث: آليات الحجاج في خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، مرجع سابق، ص ٣١. والبلاغة والسلطة، ريتشارد أندروز، ترجمة: كرم أبو سحلي، مجلة فصول، المجلد ٢٦/ ١، العدد ١٠١، ص ٩٢، ١٠١ (خريف ٢٠١٧م).

والتأمل في عامّة الخطب، يلحظ أنّها كثيراً ما نشأت بدافع الرغبة في الإصلاح أو الإقصاء أو الإنكار أو المنع أو الهيمنة أو الاستغلال أو الاستعباد أو الاستعمار أو الانقياد أو الانتقاد أو التحريض أو التهوين أو التوضيح، وكلّ موقف من هذه المواقف يكشف عن مظهرٍ من مظاهرٍ مزاولة السلطة الخطابية^(١).

وبتتبع التاريخ السياسي لكثيرٍ من الدول والتنظيمات عامةً، فإنّه يظهر جلياً الارتباط الأزليّ بين الحجاج والسلطة؛ فقد كان للحجاج بالسلطة أثره الواضح في رسوخ كثيرٍ من الدول والممالك والفرق، والدفاع عنها، كما كان هذا النوع من الحجاج طريق الساسة والمنظّمين إلى تحقيق التوسع وتلبية الطموح؛ وذلك بفعل ما يحصل به من الإذعان الدافع إلى الإنجاز والانقياد^(٢).

ولاشكّ في أنّ كلّ تفاعلٍ مع أيّ مستوى من مستويات التنظيم السياسي المتعددة، يتطلّب تواصلًا مدعماً بالحجاج؛ من أجل الوصول إلى الإقناع بوصفه الأساس المولّد للفعل، إنّه أشبه ما يكون بعملية جدلية تتأسس على فكرتين متناقضتين ينتهي بهما الحجاج إلى التوفيق والانسجام؛ من خلال ممارسات سلطويّة متعددة تُنعش الحجاج وتُعزّزه^(٣).

وإذا كان تعريف السلطة يجعلها محصورة في مظهرين، فإنّه يمكن دراسة السلطة في خطاب المدونة من خلال مستويين، هما:

١- الحجاج بسلطة الخطب (سلطة القائل).

٢- الحجاج بالسلطة الغيريّة (سلطة المنقول):

(١) ينظر: تحليل الخطاب وتجاوز المعنى، مرجع سابق، ص ٦١.

(٢) ينظر: بحث: البلاغة والسلطة، مرجع سابق، ص ٩٢.

(٣) ينظر: السابق، ص ٩٣.

١- الحجاج بسلطة الخطيب:

وهو الحجاج الذي تغذوه مكانة الخطيب وهيئته وقوّته وقدرته الخطابية؛ فليس لخطبة الخطيب التّكرة أو المجهول ما لخطبة المسؤول أو السياسي أو العالم أو المتنفّذ أو المُصلح، كما أنّه ليس لخطبة الضعيف ما لخطبة القويّ المتمكّن السّليط؛ لذا فإنّ لسلطة الخطيب من القيمة ما يوازي قيمة الخطاب نفسه؛ ذلك أنّ صدور الخطبة عن غير ذي إرادة ونفوذ وهيبة قد يُسقطها في بؤرة من التهميش والرّد والإهمال؛ مما جعل بعض الدارسين يذهبون إلى أنّ القيمة الكبرى للقول إنّما تُكتسب من قيمة قائله ومكانته^(١).

وتأسيساً عليه، فإنّه يمكن القول بأنّ مكانة الخطيب المعترف بعلوّها سلفاً، تشكّل مقدّمةً حجاجيةً مهمّةً تُوظّف تلقائياً في تحقيق جملة من النتائج الحجاجية، في حين تبقى خطبة الخطيب ذي المكانة الوضيعة محلاً للرّد والاستهانة، ما لم يتمكّن الخطيب من سدّ هذه الخلة بما لديه من خبرات ومهارات إقناعية^(٢).

ولعلّ ما مضى يقود-حتماً- إلى السؤال الكبير: ما مصادر سلطة الخطيب؟ ومحاولة للإجابة عن هذا السؤال فإنّ الباحث يذهب إلى أنّ سلطة الخطيب حقٌّ مكتسب ناشئ عن صلة الخطيب بحقل من الحقول الاجتماعية أو الوظيفية أو غيرها؛ بحيث يستمدُّ كلُّ محاجّ سلطته من المؤسسة أو الدائرة التي ينتمي إليها؛ فالقاضي يستمدُّ سلطته من المحكمة، والشرطيّ من دائرة الأمن، والحرس البلدي من البلدية، والمعلّم من المدرسة، والرئيس من الشرعية الدستورية (أو ما يعدلها في دول العالم الثالث)^(٣)، والزوج من تعاليم الشرع أو العرف أو القانون، وهكذا، وتبلغ السلطة ذروتها في رأس النظام (الخليفة، أو الملك، أو الرئيس، أو ما يوازيها)^(٤).

والسلطة بهذه الصفة، صلاحيةٌ سابقةٌ لفعل التّلفظ بالخطبة؛ مما يجعل الأطروحة تنشأ متأثرةً

(١) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، مرجع سابق، ص ١٣١. وفي نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٥٢. وبحث: آليات الحجاج في خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، مرجع سابق، ص ٣١.

(٢) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، مرجع سابق، ص ١٣١. والحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢٣٥.

(٣) نحو: سلطة شيخ الشّمل المستمدة من القبيلة.

(٤) ينظر: تحليل الخطاب وتجاوز المعنى: نحو نظرية المسالك والغايات، مرجع سابق، ص ٦١.

بهيمنة الخطيب ومرتبته، وذلك بفعل ظهور بعض الأساليب اللغوية المتعالية؛ مثل أسلوب الأمر، أو النهي، أو الترغيب، أو التحذير، أو الوعد، أو الوعيد، أو الإنذار، أو الإعذار، أو غيرها من أساليب السلطة التي تعمل على مصادرة صلاحيات المتلقين وتُهب المُلقي الحرّية والأحقية في الإملاء^(١).

وبالوقوف على قول الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَذُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٢)، فإنّ الواقف لابد أن يخرج من هذه الآية الكريمة إلى أنّ السلطة السياسية-المؤصلة شرعيًا-أمرٌ مؤيّدٌ وحقٌّ مُبرّرٌ في الدّين الإسلامي؛ إذ لا يصلح القوم فوضى لا سِرة لهم، وعليه فإنّ وجوب الطاعة لولي الأمر هو المحرك الأساسي والدافع لكثيرٍ من حجاج سلطة الخطيب في مدونة الخطابة العربية، ويبقى مبدأ الطاعة لولي الأمر أمرًا مطلوبًا في الشرع والعرف، وهو ما قد يجعل بعض أصحاب النفوذ من ذوي النفوذ السياسي يذهبون إلى استعمال هذا المبدأ استعمالًا مغالطيًا بحتًا؛ مبنياً على طلب الإذعان والانقياد المطلق للأطروحة أيًا كانت مشروعيتها^(٣).

وبما أنّ المدونة المدروسة تمثّل تاريخًا سياسيًا حافلًا، فقد شملت على ما لا يمكن حصره من مظاهر سلطة الخطيب، إلا أنّ المنهجية تقتضي الاقتصار على عددٍ محدّدٍ من الشواهد، ولعلّ من خير الشواهد، أنّه عندما حدثت الأحداث بالمدينة زمن خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه خرج منها رجال إلى الأمصار ثمّ عادوا إلّا من كان في الشام، فلما أخبر عثمان رضي الله عنه بخبرهم قام خطيبًا فقال: ((يا أهل المدينة، أنتم أصل الإسلام، وإنّما يفسد الناس بفسادكم ويصلحون بصلاحكم، والله والله والله لا يبلغني عن أحد منكم حدث أحدثه إلا سيّرتّه، ألا فلا أعرفنّ أحدًا عرض دون أولئك بكلام ولا طلب، فإنّ من كان قبلكم كانت تُقطع أعضاؤهم دون أن يتكلم أحد منهم بما عليه ولا له، وإيم الله لا أخذنّ العفو من أخلاقكم، ولأبذلنّه لكم من خلقي، وقد

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٢٢١-٢٣٢. وبحث: البلاغة والسلطة، مرجع سابق، ص ١٠٢.

(٢) سورة: النساء، الآية: ٥٩.

(٣) ينظر: أطروحة: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب: (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة-دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٣٦٤، ٣٧٠. وبحث: أدوات الإقناع العقلي والعاطفي: خطبة عبد الله بن يحيى زعيم الإباضية لما استولى على

اليمن أمودجًا، مرجع سابق، ص ١٤٩.

دنت أمور، ولا أحب أن تحلّ بنا وبكم، وأنا على وجل وحذر، فاحذروا واعتبروا))^(١).

إذ اشتملت هذه الخطبة على عدد من مظاهر سلطة الخطيب؛ فالوعيد ظاهر في قوله: (والله والله لا يبلغني عن أحد منكم حدث أحدثه إلا سيّرتَه)، والنهي صريح في قوله: (ألا فلا أعرفنّ أحدًا عرض دون أولئك بكلام ولا طلب)، ذلك إلى ما في الخطبة من وعدٍ (وايم الله لاخذن العفو من أخلاقكم، ولأبذلنه لكم من خلقي)، وتحذيرٍ وأمرٍ (احذروا واعتبروا)، كما أنّ تأمل هذه الخطبة يكشف سرعة وتيرتها وتخفّفها من التعليل والشرح، والتفسير والتبرير؛ ذلك أنّهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إنّما اكتفى بحجّه الشرعي (خليفة المسلمين) في الإماء والتّشريع عن الحاجة إلى التفصيل والإطناب.

ولا يمكن أن تتسق هذه المظاهر السلطوية بأجمعها إلا بوجود مبررٍ مُسبقٍ لها، فعثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هو رأس السلطة السياسية والشرعية، ومأرز الأمر ومنتهاه، وعليه فإنّه يمكن القول بأنّ سلطة الخطيب السياسي تظهر «بطريقتين على أقلّ تقدير: اختيار اللغة، ثم سرعة الإلقاء وإيقاعه لإقناع الجمهور»^(٢).

ومن هذا المستوى الحجاجي، خطبة معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذ خرج عليه قوم من الخوارج بعد دخوله الكوفة وصلّحه مع الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال: ((يا أهل الكوفة، أتراني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج وقد علمت أنّكم تُصلُّون وتزكُّون وتَحْجُّون؟ ولكي قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون، ألا إنّ كل مالٍ أو دمٍ أصيب في هذه الفتنة فمطلولٌ^(٣)، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين، ولا يُصلح الناس إلا ثلاث: إخراج العطاء عند محبّله، وإقفال^(٤) الجنود لوقتها، وغزو العدو في داره؛ فإنّه إن لم تغزّوهم غزّوكم))^(٥).

إذ جاءت هذه الخطبة موازيةً في لغتها وأساليبها لمقام الخلافة والرئاسة؛ ذلك من خلال

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٧٢.

(٢) بحث: البلاغة والسلطة، مرجع سابق، ص ١٠٣.

(٣) مطلول: مُهدر. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٩، ص ٣٧٨.

(٤) القُفول: رجوع الجيش بعد الغزو. ينظر: السابق، ج ٣٠، ص ٢٦٤.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٤.

التصريح المباشر بامتلاك ناصية السُّلطة^(١)؛ بدءًا من السؤال والاكتفاء عن الإجابة، ثم الإرداف بالقول السلطوي الصريح: (قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون)، فضلًا عمّا اشتملت عليه الخطبة من إملاءات غير خاضعة للردّ ولا الاعتراض: (ألا إنّ كل مالٍ أو دمٍ أصيب في هذه الفتنة فمطلول، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين، ولا يصلح الناس إلا ثلاث: إخراج العطاء عند محلّه، وإقفال الجنود لوقتها، وغزو العدو في داره؛ فإنه إن لم تغزوهم غزؤكم)، وما من شكّ في أنّ هدف معاوية رضي الله عنه من هذه الشدّة هو توحيد الصفّ والحفاظ على الخلافة ومكانتها في نفوس المخالفين^(٢).

لقد ظهرت هذه الخطبة جليّة في الدلالة على أهمية سلطة الخطيب في توحيد الصفّ ونبذ الاختلاف؛ حيث تؤدي هيمنة الخطيب وسلطته إلى تقليص حرية المتلقي في المعارضة أو الردّ، وتتركه أمام خيارٍ واحدٍ وهو مسايرة تلك الأوامر وإجابتها من غير تردّدٍ، وذلك بفعل الاتكاء على أسلوب الإملاء الصارم المتعالي بنفسه عن المُجاراة أو النقاش أو التملُّص^(٣).

وتجدُر الإشارة هنا إلى أنّ الشدّة مع المخالفين تعدُّ مطلبًا ضروريًا للدفاع عن السلطة بشئى مظاهرها؛ لذا فإنّ الأصل أنّ يكون انتهاك محارم السياسة، أو انتقاص شيء منها، هو المحدّد لاستخدام القوة والشدّة؛ ذلك أنّ الصراع البشري يصعب -في بعض الأحيان- حلّه بوسائل سلمية خالصة، وهنا يتعدّد إنتاج سلامٍ لا يتأسس على القوّة، أو تقوم القوّة على حمايته، وعليه فإنّ وجود هذا الوجه من البلاغة يشارك في تعزيز السلطة، وتثبيت أركانها^(٤).

إنّ هذا النمط من الحجاج يمثّل -إذا ما نُظر إليه نظرة عامّة- عنصرًا مهمًّا من عناصر شخصية الحاكم، إذ يُنجزُ من خلاله الحكم ويُنفذ عن طريقه، ومن هذا الطريق فإنّ أغلب الساسة يجمعون في هذا المقام بين وضع وليّ الأمر ووضع الخطيب، وتكون خطبهم بذلك جزءًا لا يتجزأ من هذا

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

(٢) ينظر: بحث: البلاغة والسلطة، مرجع سابق، ص ١٠٣.

(٣) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٢٣٧.

(٤) ينظر: البلاغة والعنف، جيمس كروسوايت، ترجمة: أحمد الشيمي، مجلة فصول، المجلد ٢٦ / ١، العدد ١٠١، ص ١١٨-

الحجاج^(١).

ومما يُمكن إلحاقه بالشاهدين السالفين، قول الحجاج في خطبته بعد قتله عبد الله ابن الزبير **رَضِيَ اللهُ عَنْكُمْ**: ((مَوْجٌ لَيْلِ التَّطْمِ وَأَنْجَلَى بِضُوءِ صُبْحِهِ، يَا أَهْلَ الْحِجَازِ، كَيْفَ رَأَيْتُمُونِي؟ أَلَمْ أَكْشِفْ ظُلْمَةَ الْجُورِ وَطُخْيَةَ^(٢) الْبَاطِلِ بِنُورِ الْحَقِّ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ وَطَّئْتُكُمْ الْحِجَاجَ وَطَأَةَ مَشْفِقٍ، وَعَظْفَةَ^(٣) رَحِمٍ، وَوَصَلْتُ قَرَابَةَ؛ فَإِيَّاكُمْ أَنْ تَزَلُّوا عَن سَنَنِ^(٤) أَقْمَنَاكُمْ عَلَيْهِ، فَأَقْطَعُ عَنْكُمْ مَا وَصَلْتَهُ لَكُمْ بِالصَّارِمِ الْبَتَّارِ، وَأَقِيمُ مِنْ أَوْدِكُمْ^(٥) مَا يُقِيمُ الْمُثَقِّفَ^(٦) مِنْ أَوْدِ الْقَنَاةِ^(٧) بِالنَّارِ))^(٨).

لم يكن قتل عبد الله بن الزبير **رَضِيَ اللهُ عَنْكُمْ** بالحرم أمراً هيئاً يمكن تجاوزه بهذه الخطبة الوجيزة المتسارعة في إيقاعها، ولكنَّ نفوذ الحجاج السياسي قد أغناه عن كثير من العبارات والجمل؛ فهو صاحب قرارٍ لا يُناقش فيه، وأمرٍ لا يُفاوض عليه، وما على المتلقين إلاَّ السمع والطاعة، والخضوع والامتثال.

والحجاج حين يمارس نفوذه السياسي في الحجاج فإنه إنما يمارسه بصفته امتيازاً شخصياً يستلزم خضوع المتلقين واستسلامهم وطاعتهم المطلقة له، وهو إلى ذلك لا يتوانى عن مبادرة المخالفين بالوطء والقطع والتثقيف^(٩)، ولئن بدت بعض مقولات هذه الخطبة محلاً للردِّ والاعتراض، فإنَّ هيبة الخطيب ومكانته السياسية قد جعلت تلك المقولات مقولات يقينية لا يمكن خرقها أو ردُّها، ذلك أنَّه ليس بوسع المتلقين الجرأة على المعارضة ما داموا تابعين مرؤوسين،

(١) ينظر: بحث: مدخل إلى قراء النصوص الخطابية القديمة، مرجع سابق، ص ١٨٣.

(٢) من العطف بمعنى الشفقة. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٤، ص ١٦٥.

(٣) الطُّخْيَةُ: الظُّلْمَةُ. ينظر: السابق، ج ٣٨، ص ٤٨٦.

(٤) السنة: الطريقة المحمودة المستقيمة. ينظر: السابق، ج ٣٥، ص ٢٣١.

(٥) الأود: الانحناء والاعوجاج. ينظر: السابق، ج ٧، ص ٣٩٥.

(٦) المُثَقِّفُ: الذي يعمل على تسوية الرماح والقسي وتقويمها. ينظر: السابق، ج ٢٣، ص ٦١.

(٧) القَنَاةُ من الرِّمَاح: ما كان أجوف كالقصبه. ينظر: السابق، ج ٣٩، ص ٣٤٩.

(٨) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٨٧.

(٩) ينظر: أطروحة: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب: (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة-دراسة تداولية، مرجع سابق،

ص ٣٦٤-٣٦٦. وحجاج الإيهام والمغالطة في الخطابة العربية: (منتخبات من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي)،

عمارية حاكم، مجلة سياقات، المجلد ٢، العدد ٥، ص ٦٧ (أبريل ٢٠١٧م).

إذ إنَّ رفضهم وتأبيهم يعدُّ معارضة للسلطة ومناوأة لها^(١).

ومَّا يندرجُ في بابه، خطبة داود بن علي (عمّ السَّقَّاح) في الناس إذ يقول: ((أحرز لسان رأسه، اتَّعظ امرؤ بغيره، اعتبر عاقل قبل أن يُعتبر به، فأمسك الفضل من قوله وقَدِّم الفضل من عمله، ثم أخذ بقائم سيفه، فقال: إنَّ بكم داءٌ هذا دواؤه، وأنا زعيم لكم بشفائه، وما بعد الوعيد إلا الإيقاع))^(٢).

فإذا كانت هيبة الشخص كافية للدفع إلى التسليم بدعوى ما^(٣)، فإنَّ هذا الخطيب لم يكن بحاجة إلى اتِّساع قولٍ ومزيد تصريحٍ، فهو عمُّ الخليفة وواليه على الناس؛ لذا فقد جاءت خطبته مختصرة مصبوغة بلغة الوعد والوعيد، والتحذير والإنذار، كما صيغت جُمْلها على هيئة آمالٍ مُتعاقة تُسمع فتوعى، ولئن كان المتلقون قد ابتلوا بداءٍ مناكفة الولاية ومُشاقَّة الخلفاء، فإنَّ لدى هذا الوالي ما لا يمكنُ رُدُّه والمنعة منه (القوَّة والزعامة).

إنَّه حجاجٌ سلطويٌّ صريحٌ يتَّجه مباشرةً إلى سلوك المخاطبين؛ ليكيِّفه وفق رؤيةٍ مُعيَّنة يراها الخطيب، في حين أنَّ ما يرضاه المتلقون ويرغبون فيه ويميلون إليه يقع في درجةٍ ثانويَّةٍ مُتقاصرة عن حقِّ الخطيب، فالخطيب-مع هذه المكانة وبتلك السلطة- لا يهَمُّه الاقتناع بقَدْرٍ ما يهَمُّه التزام الرعية بالحدود السياسية، والتَّوقُّف عندها والانصياع لمقتضاها^(٤).

ويقود التهديد في نهاية هذه الخطبة إلى القول بأنَّه كثيراً ما يتحوَّل الحجاجُ بسلطة الخطيب إلى حجاجٍ مغالطيٍّ مزيفٍ ينقل المتلقين من الاقتناع إلى القبول خوفاً أو رهبة أو إثارةً للسلامة، إلا أنَّ تلك المشاعر التي تنتاب المتلقين ويتعرَّضون لها ليست محكِّماً لا اختبار ثبوت صدق القضية ومدى صحَّتْها؛ فهي لا تعدو كونها مشاعر فردية لا تُغيِّر من حقائق العقل الراسخة أو الشواهد

(١) ينظر: الإمبراطورية الحطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٣١-١٣٢، ١٧٦.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٥.

(٣) ينظر: الإمبراطورية الحطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٧٥.

(٤) ينظر: أطروحة: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب: (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة-دراسة تداولية، مرجع سابق،

الواقعية الثابتة^(١).

وبما سلف من تدليل وتناول، فإنه يتكشّف الدور الحجاجي الحاسم لسلطة الخطيب؛ من جهة استغلال النفوذ المُقرّ به سلفاً بغرض إخضاع المتلقين وإجبارهم على قبول الأطروحة والامتثال لها، دون الحاجة إلى الإطناب أو التفصيل والتعليل، مما يُحيل الحجاج إلى إلزام يُخرجه من دائرة التعاون والتضامن في إنتاج المعنى، إلى الأحادية المحكومة بمنطق القوّة والإجبار.

ولئن كان الخطيب المكتفي بسلطته معرّضاً لتهمة التعسف والقهر، وفي حين أنّ الخطيب غير ذي السلطة يفتقر إلى مصادر سلطويّة تقوي حضوره لدى متلقيه وتجعل أطروحته محلاً للتقدير والمصادقة والقبول، فإنه لا يمكن إغفال موارد السلطة الأخرى ومصادرها المشهورة؛ المتمثلة في: المقدّسات والمُشتركات والحجج الجاهزة؛ المشمولة بمصادقة المتلقين المسبقة.

(١) ينظر: بحث: البلاغة والعنف، مرجع سابق، ص ١٠٤. وبحث: الأساليب المغالطية في المطارحات الحوارية التلفزيونية:

برنامج (الاتجاه المعاكس) أنموذجاً، مرجع سابق، ص ١٢٥.

٢- الحجج بالسلطة الغيرية^(١):

ويعني الباحث بالسلطة الغيرية: السلطة اللاشخصية، أو السلطة الخارجية، أو السلطة المُستقطبة (المنقولة)؛ التي لا تعود في أصلها إلى ذات الخطيب، وإنما تعود إلى ما للحجة المدرجة في الخطاب من قيمة مكتسبة سلفاً، أو نفوذٍ مسبقٍ يمتلكه مصدرها، بحيث يكون الاحتجاج لفكرةٍ أو رأيٍ أو موقفٍ ما بالاعتماد على قولٍ ذي سلطة مرجعية معترفٍ بها - من جهة مصدرها أو من جهة كونيتها، أو من جهة شهرتها وتواترها والإطباق عليها - قادر على تجاوز المعارضة وانتزاع التسليم، كأن يحتج الخطيبُ بآية أو حديثٍ أو بيت شعرٍ متواتر أو حكمة مسموعة أو مثلٍ شعبيٍّ مشهور، أو يحتج بأحكامٍ أو أعمالٍ شخص أو عدة أشخاص لهم مكانتهم وسلطتهم عند المتلقين، وهكذا^(٢).

ولا يمكن - بأيِّ حالٍ من الأحوال - حصرُ مصادرِ سلطةِ هذه الحجج؛ فقد تكون (الوحي) أو (النبوة) أو (الخلافة) أو (العلم) أو (الخبرة) أو (العالمية) أو (البصر بالموضوع) أو (الإجماع) والاشتراك) أو غير ذلك مما اصطلح الناس على قيمته، وكثيراً ما يمهّد لتلك الحجج بذكر مصدرها صراحة، بل إنَّ بعضهم ليذهب إلى أكثر من ذلك؛ فيلحق مصدر الحجة بوصفٍ يزيده وقعاً ويجعله أكثر تأثيراً، من قبيل: ومما صحَّ عن رسول الله، أو: وهذا قول الذي لا ينطق عن الهوى، أو: وهذا قول الخليفة الراشد، إلى غير ذلك من الأوصاف السائدة^(٣).

وقد جعل بعضهم مُعظم تلك الحجج من قبيل الأدلة والشواهد والأقوال الحجاجية الجاهزة (المعترف بها مسبقاً)؛ ذلك أنَّها تُعدّ وجهاً من وجوه حجة الشاهد القوليّ المُسند إلى مصدرٍ

(١) تبرز الدراسة السلطوية لحجج هذا المطلب إدراجها ضمن الحجج المؤسسة على بنية الواقع، في حين لا يخطئ من يدرجها ضمن الحجج المؤسسة لبنية الواقع، من حيث إنّها حجج يجري تأسيس الواقع فيها بواسطة الاستشهاد بحالات خاصة توضّح الفكرة وتقوّي حضورها. ينظر: في نظرية الحجج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٥٢، ٥٤-٥٥.

(٢) ينظر: الحجج، كريستيان بلانتان، مرجع سابق، ص ١٥٥. وبلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٩٤، ٢٣٣. والحجج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢٣٢. وفن المناظرة في الأدب العربي: دراسة أسلوبية-تداولية، مرجع سابق، ص ٤٦٦. وبحث: الحجج في الفلسفة وفي تدريسيها، مرجع سابق، ص ٦٧٦.

(٣) ينظر: في نظرية الحجج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٥٢. والإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجج، مرجع سابق، ص ١٧٦. وبحث: حجج الإيهام والمغالطة في الخطابة العربية: (منتخبات من خطب الحجج بن يوسف الثقفي)، مرجع سابق، ص ٦٩.

مرجعياً متداولٍ يسلم له الجميع، وما من شكٍّ في أنّ الاستناد إلى هذا النوع من الحجج يُسهم في رفع ذات الخطيب ويمنحها القوة، ويهب خطبته مكانةً عُليا، فتصبح السلطة سلطةً خطابٍ ثابتٍ مؤصّلٍ يتوارى الخطيب من ورائه^(١).

إنّ الحجاج بحجج الشاهد والدليل حجاجٌ منتشرٌ وشائعٌ في الثقافة العربية؛ فهي بمثابة حجة النقل التي تقابل حجة العقل، كما أنّها تُمثّل سلطة المَقول المنقول المقابلة لسلطة القائل؛ فلئن كان للخطيب سلطته ونفوذه فإنّ لبعض المَقول سلطته ونفوذه أيضاً^(٢)، وإن كانت مصادر تلك الحجج متفاوتةً من حيث قوّتها وحظوتها والتّسليم لها، فإنّ سلطة أقوالها وقوّتها تتضاعف بحسب ما لمصدرها من سلطة وحظوة في نفوس المتلقين.

وعلى الرّغم من دور هذا الحجاج في مضاعفة سلطة الخطيب ومنح الخطاب قوةً ترفعه عن درجة غيره من الكلام العاديّ، إلّا أنّه لا يمكن الاكتفاء بها عن غيرها، إذ ينبغي أن تأتي هذه الحجج مكملّةً لخطابٍ غنيٍّ مؤصّلٍ بكفايات الخطيب وما إليها من الأساليب والحجج الأخرى. إنّ حجج السلطة المنقولة-من هذا الوجه-لا تعدو كونها دعامة أساسية وأصيلة من دعائم الإقناع في الخطابة العربية، وهي-أيضاً-معيّارٌ من معايير جودة الخطبة وقوّتها، وكفاءة الخطيب وبلاغته؛ فمتى أحسن الخطيب اختيار الشاهد وجعله في الموضوع المناسب من الخطبة، فقد برهن على كفاءته الخطابية، واستحقّق أن يوصف بالبلاغة^(٣).

وحين يشعر الخطيب بأنّ خطابه الذاتيّ لم يعد قادراً على مواصلة المسار التواصلي، فإنّ تلك الحجج ذات السلطة تحضر بصفقتها البديل المُنقذ، والخيار المناسب الذي يُعيد التوازن بين الملقّي والمتلقّي، كما أنّ في اللجوء إلى هذا البديل نوعاً من التلوين البلاغي؛ من جهة تعالق الخطبة

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٥٣٧. والحجاج الخطابي: أسسه وتقنياته من خلال (ثمرات الأوراق) لابن حجة الحموي، مرجع سابق، ص ١٦٦-١٦٧. وأطروحة: الحجاج في كتاب: (البيان والتبيين) للجاحظ، مرجع سابق، ص ٩١. وبحث: حجاج الإيهام والمغالطة في الخطابة العربية: (منتخبات من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي)، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٢) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٥٣٧. وأطروحة: الحجاج في كتاب: (البيان والتبيين) للجاحظ، مرجع سابق، ص ٩٢.

(٣) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٥٣٧. وفي نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٥٣. والحجاج الخطابي: أسسه وتقنياته من خلال (ثمرات الأوراق) لابن حجة الحموي، مرجع سابق، ص ١٦٦-١٦٧.

وتناصّها مع نصوص أخرى تسبقها حضوراً واعترافاً^(١).

وإن أتت هذه الحجج في درجاتٍ متفاوتةٍ من حيث قوّة مصدرها ومكانته، فإنّ القرآني منها يأتي في أعلى قمّتها وعلى رأس سلّمها، يتلوه الحديث النبوي، ثم ما أثار عن الصحابة والتابعين وسلفهم الصالح، ثم الشعر، ثم الأقوال المشهورة من الحكم والأمثال، وهكذا^(٢)، وسيقف الباحث عليها تباعاً فيما يلي:

٢-أ- الحجاج بسلطة القرآن:

إذا كان الشاهد- كما يُعرّفه بعضهم- هو: «لفظٌ أو عبارةٌ لها قُدسيّةٌ أو مكانةٌ تاريخيةٌ تجعلها محلّ القبول أو التقديس عند عموم الناس»^(٣)، فإنّ القرآن الكريم- دون ريبٍ- هو أصدق هذه الشواهد وأعلاها قيمةً وأكدها إقناعاً للعامة والخاصة؛ ذلك أنّه كلامٌ الله تعالى القويم، ووحيه المُجمع عليه، ورسالته إلى خير رُسله وخاتم أنبيائه، والمشكاة التي يرسخ بها الإيمان ويتقوى بها الاعتقاد، والكلام البليغ الذي تقصر عنه كلُّ بلاغات البشر، والقول الفصل، والحكم المُبين الذي تعجز عنه دساتير الأرض كلّها. وإذا كان الاستشهاد-عموماً- يمنح الأطروحة المصدقية، فإنّ الشاهد القرآني يتجاوز ذلك ليكسبها صبغة الإجماع العام أو النهائي^(٤).

وقد كان أهل النظر- كما يقول الجاحظ- «يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آيٌ من القرآن، فإنّ ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقّة وسلس الموقع»^(٥)، كما أنّهم كانوا- في المقابل- يستقبحون أن تخلو الخطبة من القرآن، وإذا ما خلّت منه فإنهم يعدّونها (شوهاء) ناقصة^(٦)؛ ذلك أنّه الحجة التي لا تُغلب، والبيّنة التي لا يُخامرها الشكّ،

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٥٣٧. وبحث: الحجاج في الدرس اللغوي الغربي، مرجع سابق، ص ٨. وبحث: حجاج الإيهام والمغالطة في الخطابة العربية: (منتخبات من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي)، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٢) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٥٤٤. والحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٣) الحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، مرجع سابق، ص ٦٨.

(٤) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

(٥) البيان والتبيين، مرجع سابق، ج ١، ص ١١٨.

(٦) ينظر: السابق، ج ٢، ص ٦.

والشاهد الذي لا يُعارض، ومن أعرض عنه أو كلّف نفسه مُعارضته أو أراد مُشاقّته أو شكّ في حقيقة هدايته وصوابه، فقد كلّف نفسه شططاً وحاولَ مُحالاً، وأورث نفسه هواناً وبؤأها معيشةً ضنكاً.

وليس الاحتجاج بالقرآن الكريم مقصوراً على الوُعَظ أو الخطباء الدينيين؛ بل هو- كما سيظهر- الموردُ الصافي والحجّة البالغة لجميع خطباء المسلمين، على تفاوتهم وتعدّد مشاربهم وتنوّع مواضع خطبهم.

وسيعنى الباحث فيما يلي بالاستشهاد بعددٍ من الخطب جاءت متفاوتةً في مستوى توظيف هذه الحجّة وأشكال إيرادها، ولعل من الأجدد ابتداء الشواهد بخطبة مصعب بن الزبير رَضِيَ اللهُ إِذْ صعد المنبر بعد ولايته للبصرة، ((فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣﴾﴾^(١) (وأشار بيده نحو الشام)، ﴿وَرِيدٌ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٢) (وأشار بيده نحو الحجاز)، ﴿وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾^(٣) (وأشار بيده نحو العراق) ((^(٤).

فهي قرآنٌ خالصٌ تخللته إشارات حركية إلى الجهات التي تتوجه إليها معاني الآيات القرآنية، ولم يكن لمصعب رَضِيَ اللهُ أَنْ يتوارى-تماماً- خلف هذه الآيات لولا ما يستدعيه حكم آل الزبير من تشريع وتأصيل؛ حيثُ تَوَسَّسُ هذه الآيات لمشروعية الربط بين مضمون الآيات في سياقها والغرض من استحضارها في هذا المقام خاصةً، وبانخراط المتلقي في عملية الربط والبحث في دواعي الاستحضار، فإنّه يشترك مع الخطيب في إنتاج الدلالة الحجاجية ليصل بنفسه إلى حُكْمٍ

(١) سورة: القصص، الآية: ٢-٤.

(٢) سورة: القصص، الآية: ٥.

(٣) سورة: القصص، الآية: ٦.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٨١.

مفاده أن تمكين الزبيريين وأتباعهم وعدّ مسطرّ في كتاب الله^(١).

إنّ هذه الخطبة تُمثّل احتكامًا ظاهرًا إلى كتاب الله ﷻ واهتداءً بتشريعه؛ من جهة عرض نصّ الآيات على الواقع وتسليطها على جميع جوانبه، ولا شكّ في أنّ الانسجام الظاهري بين السياقين (السياق القرآني وسياق الخطبة) يُخضع المتلقي لقبول الأطروحة والإذعان لها؛ ذلك أنّه متى ما «أيدّ الخطيب في جماعة متدينة قضاياه بالدين، وربط بينها وبين دينها صلة، ووثق عُرا الألفة بين ما يدعو إليه وبين ذلك الدين، أجابت نداءه ولبّته في حماسة وقوة وشعور دافق»^(٢).

وفي حين يذهب بعض الباحثين إلى ضرورة التّسوية بين الاتصاليين: اللفظي وغير اللفظي، والنظر إليهما على أنّهما وحدة غير قابلة للتفريق والانفصال، فإنّ هذه الخطبة تكشف بوضوح الدور المهمّ الذي يُمكن أن تؤدّيه كفايات الخطيب الأخرى (غير اللفظية)؛ فقد مثّلت إشارات مصعبٍ رَحِمَهُ اللهُ، وتنظيمه للآيات، مكملاتٍ خطابية فاعلة في سَوِّق المتلقي إلى حيث النتيجة المقصودة^(٣).

وقد تُشكّل الحجّة القرآنية عَصَب الخطبة الذي يشدُّ أجزاءها ويوازن بين جميع عناصرها وأركانها، نحو ما نَظَم عليه أبو العباس السّفّاح خطبته؛ إذ خطب الناس بعد مقتل مروان بن محمد -آخر خلفاء بني أمية- فقال: ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۗ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارُ ۗ))^(٤)، نَكَصَ^(٥) بكم يا أهل الشام آل حرب وآل مروان؛ يتسكعون بكم الظلم^(٦)، ويتهورون^(٧) بكم مداحض الرّلق^(٨)، يطؤون بكم حرم الله

(١) ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، مرجع سابق، ص ٩٢. وأساليب الحجاج في أدب القاضي الفاضل البيساني، عبد اللطيف الجفن، أطروحة دكتوراه، ص ١٠٠، جامعة الملك سعود (١٤٣٧هـ).

(٢) الاتصال الخطابي وفن الإقناع، مرجع سابق، ص ١٧٣.

(٣) ينظر: السابق، ص ١٦٥-١٦٦. وبحث: مدخل إلى قراء النصوص الخطابية القديمة، مرجع سابق، ص ١٨٢.

(٤) سورة: إبراهيم، الآية: ٢٨-٢٩.

(٥) نكص: بمعنى رجع عن الخير. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٨، ص ١٩٠.

(٦) سكَع بالظلماء: خبط بما. ينظر: السابق، ج ٢١، ص ٢٠٩.

(٧) التهور: الوقوف في الأمر بلا مبالاة. ينظر: السابق، ج ١٤، ص ٤٦٤.

(٨) مداحض الرّلق: المواضع التي لا تثبت فيها القدم. ينظر: السابق، ج ٢٥، ص ٤١٢.

وَحَرَمَ رَسُولُهُ، ماذا يقول زعماءكم غدًا؟ يقولون: ﴿رَبَّنَا هَلْؤَلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾^(١)، إذن يقول الله عز وجل: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنَّ لَا تَعْمُونَ﴾^(٢)، أمَّا أمير المؤمنين فقد ائتمنَ بكم التوبة^(٣)، واغتفر لكم الزَّلَّةَ، وبَسَطَ لكم الإقالة^(٤)، وعاد بفضلِهِ على نقصكم وبجلَمِهِ على جهلكم، فليُفْرَخِ^(٥) روعكم، ولتطمئننَّ به داركم، وليُقَطِّعْ مصارع^(٦) أوائلكم، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾^(٧) ((٨)).

حيث جاءت هذه الخطبة متماسكة مترابطة بفعل مركزيَّة الآيات المؤرَّدة وسلطتها، ومع ما لدى الخليفة أبي العباس السفَّاح من الغلبة والسلطنة، إلَّا أنَّه لم يكتفِ بنفسه عن القرآن، ذلك أنَّ «السلطة التي لا تقبل المنازعة هي السلطة الإلهية؛ إنَّها الحجة الأساس التي تبرر الخضوع»^(٩).

وإنَّ كان مقتل مروان بن محمد مؤذِنًا بزوال الدولة الأمويَّة، فإنَّ السفَّاح كان على علمٍ بما يجب أن تُستفتح به خلافتُهُ بعد هذا الزمن من الصراع والتدافع والمُطاردة والتتُّبع؛ فأيراده لهذه الآيات إعلانٌ صريحٌ عن أنَّ خلافتَهُ خلافةٌ إسلامية، لا تبرح القرآن في مبتدائها ومنتهاها، بعيدًا عن تجاوزات سابقين التي أورثهم تلك النهاية المحسومة بكتاب الله.

إنَّ في استدعاء هذه الآيات والمطابقة بين بني أميَّة وبين الضالين-الذين بدلوا نعمة الله- بيانًا مُفحِّمًا على بُطلان دعوى الخصوم، وُبرهانًا سابقًا على أحقيَّة المنصور في تقصِّي مظاهر الخلافة الأموية والقضاء على رأسهم؛ فقد جاءت تلك الآيات واضحةً في إثبات هذا المصير لكلِّ مَنْ طغى وبدل، كما أنَّ في المشابهة بين حال أتباع الضالين-في آية سورة الأعراف- وحال

(١) سورة: الأعراف، الآية: ٣٨.

(٢) سورة: الأعراف، الآية: ٣٨.

(٣) ائتمنَ بكم التوبة: استقبلكم بها، أو استفتح بها أو ابتدأكم بها. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٣، ص ٤٧.

(٤) الإقالة: الصفح. ينظر: السابق، ج ٣٠، ص ٣٠٦.

(٥) الإفراخ: الانكشاف، ومعنى الكلام: انكشف عنكم الفرع كما تُفْرَخُ البيضة إذا انفلقت عن الفرخ فخرج. ينظر:

السابق، ج ٧، ص ٣١٥.

(٦) مصارع القوم: مواضع قتلهم. ينظر: السابق، ج ٢١، ص ٣٣٥.

(٧) سورة: النمل، الآية: ٥٢.

(٨) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٢.

(٩) الإمبراطوريَّة الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٦٧.

انصار بني أمية تحذيرًا صارمًا لجميع أتباع بني أمية، وتخويفًا لهم من الوقوع في هذا المصير المخزي. وبالنظر في مجموع الحجج القرآنية الواردة في هذه الخطبة، فإن الناظر يجد أن الخطيب قد عدل بها إلى معانٍ أخرى جعلتها ذات دلالة مزدوجة؛ دلالة قرآنية عامة، ودلالة سياقية ذاتية مقامية، ذلك أن ذاكرة المسلم لا يمكن أن تكتفي بالمعنى الجديد عن مدلول الآيات في سياقها الأصلي الذي نزلت به، الأمر الذي يُعطي للحجة القرآنية أهمية قصوى في الخطابات عامة، والخطبة على وجه الخصوص^(١).

وقد تُمثّل الحجة القرآنية نواة خطبة المدونة وعمودها، كما عليه الحال في ردّ زيد بن صوحان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على خطبة أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ التي يدعو فيها الناس إلى اعتزال القتال مع علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ درءًا للفتنة، إذ يقول زيد: ((يا عبد الله بن قيس، رُدّ الفرات عن أدراجه، اردده من حيث يجيء، حتى يعود كما بدأ، فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد، فدع عنك ما لست مدركه، ثم قرأ: ﴿الْم ۝ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾^(٢)، سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين، وانفروا إليه أجمعين تصيبوا الحق))^(٣).

إن خير ما يُعتصم به في أيام الفتن والتباس الأمور وتداخلها هو كلامُ الله ﷻ، وهو ما فعله زيد بن صوحان؛ إذ استدللّ بهذه الآيات في هذا الموضع من الخطبة خصوصًا؛ ليردّ بها الناس إلى علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ولينسخ بها ما سبقهم إليه أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من التهذئة والتشبيط.

وإذا ما عُدت إلى السياق القرآني لهذه الآيات الكريمة، فإنك ستجده جليًا في بيان أزمّة الفتنة واستمرار وطأتها على عباد الله المؤمنين، فالله جلّ في علاه يُخبر أن المؤمنين ليسوا بمعزلٍ عن الفتن والمحن والتشويش؛ ذلك أنهم لو سلّموا ما عُرِفَ الصادق من الكاذب، والمحقّ من المبطل؛ فابتلاء المؤمنين بالأعداء وإدالتهم عليهم سنةٌ من سنن الله، ومن ثبت إيمانه عند نزول هذا البلاء

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٥٣٩. وأطروحة: أساليب الحجاج في أدب القاضي الفاضل البيساني،

مرجع سابق، ص ٧٣-٧٤.

(٢) سورة: العنكبوت، الآية: ٢.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٩٧.

ودافع الأعداء بما معه من الحق فهو الصادق في إيمانه، أمّا مَنْ شكَّ وارتاب ورجع فإنّه إنّما يُرهن على كذبه وبطلان إيمانه^(١).

إنّ الحجاج بسطة الحجة «نمط من الحجاج الموجز والفعال، فهي حجج لا تحاول إنشاء محاوره مع المخاطب، وإنّما تحاول حمله على الإذعان بإخضاعه لسلطة يقر بها سلفاً ويعترف بنفوذها»^(٢)؛ لذا فقد اختار ابن صوحان رَحِمَهُ اللهُ - في هذا المقام الحرج - أن تكون هذه الآيات تمهيداً ينفذ من خلاله إلى أوامره الصريحة (سيروا، انفروا) التي تُشكِّلُ أفعالاً توجيهيةً تتمثل قوتها الإنجازية في إيجاد الفعل من المتلقي، فمن شأن الاتِّكَاء على الحجة القرآنية أن يضاعف من سلطة الخطيب، ويرفع مستواها لتتوافق مع مستوى تلك الأوامر وصرامتها، فتتحقق بذلك الغاية المرجوة المتمثلة في التَّحْرُك والتلبية والمبادرة^(٣).

وقد تأتي الحجة القرآنية على هيئة اقتباسٍ غير ظاهر؛ وهو ما اصطلح عليه بعض الباحثين بـ(نثر القرآن) أو (حلّه)؛ المتمثل في استحضر القرآن الكريم والاستفادة من مادّته، وبثّ ألفاظه وجُمَله، دون الالتزام بنصّ آياته^(٤)، نحو ما صيغت عليه خطبة أبي جعفر المنصور؛ إذ قام خطيباً في موسم الحجِّ بمكة فكان من قوله: «﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾»^(٥)، أمر مبرم، وقول عدل، وقضاء فصل، والحمد لله الذي أفلج حجته، وبُعداً للقوم الظالمين، الذين اتخذوا الكعبة غرضاً، والفيء إرثاً، وجعلوا القرآن عضين، لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون، فكم ترى من بئر معطلة وقصر مشيد، أمهلهم الله حتى بدلوا السنة، واضطهدوا العترة، وعندوا^(٦) واعتدوا واستكبروا، وخاب كل جبار عنيد، ثم أخذهم

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، ط ١، ص ٦٢٦ (مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٢هـ).

(٢) الحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٨٧.

(٣) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٥٣٨. وبحث: الحجاج في خطب عبد الملك بن مروان، مرجع سابق، ص ١١٠٠-١١٠١.

(٤) ينظر: الحجاج في النص الخطابي من فترة ما قبل الإسلام إلى أواخر العصر العباسي الأول: أساليبه ووظائفه، مرجع سابق، ص ٢٢٦. وأطروحة: أساليب الحجاج في أدب القاضي الفاضل البيساني، مرجع سابق، ص ٧٣-٧٤.

(٥) سورة: الأنبياء، الآية: ١٠٥.

(٦) عنَد: مال وعدل وانحرف. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٨، ص ٤٢٣.

فهل تحسُّ منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزًا؟»^(١).

إذ يمكنُ المتلقي إرجاع عددٍ من جملِ هذه الخطبة إلى أصلها القرآني الذي أخذت منه، كما هو مُبيَّن في الجدول الآتي:

نص الخطبة	النص القرآني
أمر مبرم	﴿أَمْ أَدْرِمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ ^(٢) .
قضاء فصل	﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ ^(٣) .
بعدًا للقوم الظالمين	﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأِ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأُسْتَوْت عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٤) .
جعلوا القرآن عظيم	﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ ^(٥) .
لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون	﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ^(٦) .
فكم ترى من بئر معطلة وقصر مشيد	﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُ مُعَطَّلَةٌ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ ^(٧) .
خاب كل جبارٍ عنيد	﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ^(٨) .

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٢٧.

(٢) سورة: الزخرف، الآية: ٧٩.

(٣) سورة: الطارق، الآية: ١٣.

(٤) سورة: هود، الآية: ٤٤.

(٥) سورة: الحجر، الآية: ٩١.

(٦) سورة: الجاثية، الآية: ٣٣.

(٧) سورة: الحج، الآية: ٤٥.

(٨) سورة: إبراهيم، الآية: ١٥.

نص الخطبة	النص القرآني
ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً	﴿ وَكَرَّ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ ^(١) .

لقد شكّل فكُّ آيات القرآن وحلُّها وتمييزها في هذه الخطبة سمةً أسلوبية أسهمت بوضوح في مضاعفة قوّة الأطروحة وجعلها بمعزلٍ عن الاعتراض والرد؛ ذلك بفعل ما تُضفيه هذه التعلقات على النصّ من قداسة وقوّة مُستمدّة من سلطة القرآن المتمكّنة في نفوس المتلقين^(٢).

ومُشاركة المتلقي في بحث وشائج التعلقات وإنتاج الدلالة واستنباط المعنى، فإنّه يكون قد أوقع نفسه في فتح الاقتناع والتصديق؛ ذلك أنّه مُلزَمٌ بتصديق كلّ ما وصل إليه بنفسه من المعاني والدلالات، في حين أنّ إعراضه عنها يجعله متّهماً بالتلاعب وتكذيب نفسه والشكّ في مقدرتها على التلقّي.

إنّ استحضار أبي جعفر المنصور لهذا الكمّ من الآيات وتطويعها لمواكبة مقام الخطبة ومسايرته، حجةٌ دالّةٌ على صواب دعواه وصحّة أطروحته؛ من جهة أنّ هذا الانتصار وذلك الأقول لم يكن إلّا من لدنّ تأييدٍ إلهيٍّ مُسبقٍ اقتضته حكمة الله وهدايته.

ولئن كان من المفروغ منه أنّه لا يُمكن دراسة هذه الحجّة في ظلّ عددٍ محدودٍ من الأمثلة، فإنّ حسب الباحث أن يكون قد أبان عن شيءٍ من سلطتها المطلقة، ودورها الأساسي في تحويل أطروحة الخطيب الذاتية إلى أطروحة عامة ذات إجماعٍ عامّ، وحُكْمٍ إلهيٍّ نهائيّ؛ يرفع سلطة الخطيب، ويضعف حضوره، ويجعل إقراراته عصيّةً على الشكّ، متساميةً عن النفي والردّ؛ فكلّ سُلطة مناهضةٍ هي بلا شكّ أدنى من سُلطة القرآن.

وغنيّ عن البيان أنّ اغتراف الخطيب من معين خطاب القرآن وفصاحته، واستلهامه أسلوبه الرائق، يمنح الخطبة جزالةً وفخامةً يجعلانها أدعى قبولاً وأكثر تأثيراً وأكثر إقناعاً من كلّ ما دون كلام الله تعالى.

(١) سورة: مريم، الآية: ٩٨.

(٢) ينظر: الحجاج في النص الخطابي من فترة ما قبل الإسلام إلى أواخر العصر العباسي الأول: أساليبه ووظائفه، مرجع سابق، ص ٢٢٦-٢٢٧. وأطروحة: أساليب الحجاج في أدب القاضي الفاضل البيساني، مرجع سابق، ص ٧٧.

٢-ب-الحجاج بالحديث النبوي:

وهو المصدر التشريعي الثاني بعد كلام الله عزَّ وجلَّ؛ إذ قرن الله طاعته بطاعة رسوله ﷺ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَذُوقُوا إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(١)، وجعل طاعة الرسول ﷺ من طاعته، حيث يقول تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾^(٢)، كما جعل اتباعه شرطًا لاكتمال محبته؛ إذ يقول جلَّ وعزَّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾^(٤)، «وهكذا كلُّ أدلة القرآن تدل على أنَّ ما جاء به الرسول ﷺ وكلَّ ما أمر به ونهى عنه، فهو لاحق في الحكم بما جاء في القرآن»^(٥).

ويؤمن جميع المسلمين بحجية السنة النبوية؛ ذلك أنَّه «كما وجب على الصحابة -بأمر الله في القرآن- اتباع الرسول وطاعته في حياته، وجب عليهم وعلى من بعدهم من المسلمين اتباع سنته بعد وفاته، لأنَّ النصوص التي أوجبت طاعته -عامة- لم تُقيِّد ذلك بزمن حياته ولا بصحبته دون غيرهم، ولأنَّ العلة جامعة بينهم وبين من بعدهم؛ وهي أنهم أتباع لرسولٍ أمر الله باتباعه وطاعته، ولأنَّ العلة أيضًا جامعة بين حياته ووفاته، إذ كان قوله وحكمه وفعله ناشئًا عن مُشرِّعٍ معصوم، أمر الله بامتثال أمره، فلا يختلف الحال بين أن يكون حيًّا أو بعد وفاته»^(٥).

ولعلَّ فيما سبق كفايةً في الدلالة على «أنَّ ثبوت حُجِّيَّةِ السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورةً دينيةً، ولا يخالف في ذلك إلا مَنْ لا حظَّ له في دين الإسلام»^(٦)، مما يجعل

(١) سورة: النساء، الآية: ٥٩.

(٢) سورة: النساء، الآية: ٨٠.

(٣) سورة: آل عمران، الآية: ٣١-٣٢.

(٤) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى بن حسني السباعي، ط ٣، ص ٣٨٣ (المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٠٢هـ).

(٥) السابق، ص ٥٥.

(٦) إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: أحمد عزو عناية، ط ١، ج ١، ص ٩٢ (دار

الكتاب العربي، دمشق، ١٤١٩هـ).

الاحتجاج بالحديث النبوي قيمة إقناعية تزيد الأطروحة سلطَةً، وتجعلها في مرتبة رفيعة بعيدة عن الشكِّ، سامية عن الردِّ والمعارضة، إلى جانب ما في منقول السنة من بلاغةٍ وفصاحةٍ تُفوقُ كلَّ بلاغات البشر.

ولأهميَّة هذا المصدر وسلطته، فقد تكرر الاحتجاج به في عددٍ من خطب المدونة، ومنها ما ورد في أوَّل خطبة لعنبة بن غزوان رضي الله عنه في البصرة؛ إذ خطب الناس فقال: ((أمَّا بعد، فإنَّ الدنيا قد تولَّتْ حداءً^(١) مدبرةً، وقد آذنت أهلها بصرم؛ وإمَّا بقي منها صُبابةٌ كصُبابةِ الإناءِ يَصْطَبُّها صاحبها، ألا وإِنَّكم مفارقوها لا محالة، ففارقوها بأحسن ما يحضركم، ألا وإنَّ من العجب أئِّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: (إنَّ الحَجْرَ الضخْمَ يُلقى في النارِ من شفيرها، فيهوي فيها سبعين خريفًا، ولجِهنم سبعةُ أبواب؛ ما بين البابين منها مسيرة خمسمائة سنة، ولتأتين عليها ساعة وهي كظيظ بالزحام)^(٢))).^(٣)

فإذ خلص الخطيب رضي الله عنه بالمتلقين إلى وشوك مفارقتهم الدُّنيا وزوالهم عنها، فإنَّه لن يبقى لهم همٌّ إلاَّ أمر مصيرهم الأخرويِّ، ولئلا يتكلوا، فإنَّه قد تحوَّل بهم إلى ذكر هذه الصفة المخيفة للنار؛ فهي لم تُخلق بهذه الصفة إلاَّ لثملاً من أهلها الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا. لقد أراد الخطيب رضي الله عنه أن يحذِّر المتلقين بالآكد الذي لا يُنكر، والمسموع الذي لا يُردِّ، فكان هذا الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله حُجَّةً لا تُبقي لمتكلمٍ مقالاً ولا لمتراخٍ جواباً غير الاستعاذة من النار والنفور مما يُقرَّب إليها من قولٍ وعملٍ، وسؤال الجنة والإقبال على ما يقرب إليها من قولٍ وعملٍ.

«إنَّ الخطاب الحجاجي لا ينبغي له أن يأتي أحاديث اللغة والصوت، فالحجاج يقتضي أن

(١) الحداء: السريعة الماضية التي لا يتعلَّق بها شيءٌ. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٩، ص ٣٩٤.

(٢) ورد الحديث في كتاب (الجمع بين الصحيحين) بلفظ مشابه، نصّه: ((فإنَّه قد دُكر لنا أنَّ الحجر يلقى في شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عامًا لا يدرك لها قعرًا، والله لثملاًن، أفعجبتم؟ ولقد دُكر لنا أنَّ ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عامًا، وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام)). الجمع بين الصحيحين: البخاري ومسلم، محمد بن فتوح الحميدي، تحقيق: علي حسين البواب، ج ٣، ص ٥٤٩، ح ٣١٢٥ (دار ابن حزم، بيروت، د. ت).

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٣٢.

يستشهد بنصوص وأقوال من خطابات أخرى، وألاً يُسمع صوت المتكلم وحده، بل يدعمه بأصوات أخرى لها مصداقيتها وقوتها، وإمكانية تأثر الآخرين بها، وقدرتها على التأثير فيهم»^(١)، وأيُّ صوتٍ بشريٍّ أعلى من صوته-صلوات ربي وسلامه عليه- وأيُّ مصداقية يُمكنها أن تفوق مصداقيته، وأيُّ تأثيرٍ يُمكن أن يكون أكثر وقعاً من كلام رسول الأمة وقائدها وهاديها إلى النور؟.

وعلى منوال الاستشهاد السابق، قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إحدى خطبه: ((الحمد لله الحميد المستَحْمَدُ المجيد، الدَّفَاعُ الغفور الودود، الذي من أراد أن يهديه من عباده اهتدى، ومن يضل فلن تجد له وليًّا مرشدًا، أما بعد؛ فَإِنِّي سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (إنَّ خيار أمتي الذين يلونكم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل على الشهادة ولم يُستشهد عليها، وحتى يحلف على اليمين ولم يُسألها، فمن أراد بجموحة الجنة فليلزم الجماعة ولا يبالي الله شذوذ من شذ، ألا لا يخلونَّ رجل منكم بامرأةٍ إلا أن يكون لها محرماً؛ فَإِنَّ ثالثهما الشيطان)^(٢))).^(٣)

إذ اكتفى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذا الحديث عن مزيدٍ من القول والتفصيل؛ ذلك أنَّ المسلمين مجمعون- كما يقول الشافعي- على «أَنَّ مَنْ استبانت له سُنَّةُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس»^(٤).

ولا شكَّ أنَّ الحديث الشريف في المنزلة العالية لبلاغة البشر، كما أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأ نموذج الأعلى والأسمى والأمثل الذي يحتديه كلُّ مسلم، فمتى احتجَّ به الخطيب، احتجاجاً صادقاً، وقعت دعواه

(١) نظرية الحجاج ومستويات الخطاب اللسانية في النثر العربي القديم: التوحيدي نموذجاً، ابتسام محمد محفوظ، أطروحة دكتوراه، ص ٤٦٦، جامعة البعث، سوريا (١٤٤٠هـ).

(٢) عند أبي يعلى بلفظ مشابه، نصّه: ((أحسنوا إلى أصحابين ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل على الشهادة لا يُسألها، ويحلف على اليمين لا يُسألها، فمن أراد بجموحة الجنة فليلزم الجماعة؛ فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، فلا يخلونَّ أحدكم بامرأة؛ فإن الشيطان ثالثهما، مَنْ سرَّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن)). مسند أبي يعلى الموصلي، أحمد بن علي بن المثني التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، ط ١، ج ١، ص ١٣٢، ح ١٤١ (دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤٠٤هـ).

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٥٥.

(٤) أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، ج ٢، ص ٢٠١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ).

في القلب، فلا تُنتزع منه؛ لأنها تصبح أمراً من أوامر الدين والشرع ذات القيمة والقداسة^(١).
ومن مواطن هذه الحجة، خطبة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه التي يُنَبِّطُ بها أهل الكوفة عن علي رضي الله عنه ويأمرهم باعتزال الفتنة، إذ كان من جملة ما قال: ((إيَّ خائف عليكم أن يلتقي غاراً^(٢) منكم فيقتتلا، ثم يُتركا كالأحلاس^(٣) الملقاة بنجوة من الأرض^(٤))، لا يُدرى من أين تُؤتى، تترك الحلِيم حيران، كأبيّ أسمع رسول الله -صلى الله عليه وآله- بالأمس يذكر الفتن فيقول: (أنت فيها نائماً خير منك قاعداً، وأنت فيها جالساً خير منك قائماً، وأنت فيها قائماً خير منك ساعياً)^(٥))، فتَلَمَّوا سيوفكم^(٦))، وقصِّفوا رماحكم^(٧))، وأنصَلوا سهامكم^(٨))، وقطَّعوا أوتاركم^(٩))، وخلَّوا قريشاً ترتق^(١٠)) فتقها وترأب^(١١)) صدعها، فإن فعلت فلا لنفسها ما فعلت، وإن أبث فعلى أنفسها ما جنت، سمها في أديمها، واستنصحوني ولا تستغشوني، وأطيعوني ولا تعصوني، يتبين لكم رشدكم، وتصلى هذه الفتنة من جناها))^(١٢).

فلأنَّ أبا موسى رضي الله عنه يُدرِكُ تماماً ما تقتضيه صيغ الأمر والنهي من السلطة والعلوِّ، فإنَّه قد استعان بهذا القول الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ليكون خطابه في مرتبة تؤهله إلى إلقاء الأوامر وإملاء النواهي: (تَلَمَّوا، قصِّفوا، أنصَلوا، وقطَّعوا، وخلَّوا، استنصحوني، لا تستغشوني، وأطيعوني،

-
- (١) ينظر: الاتصال الخطابي وفن الإقناع، مرجع سابق، ١٧٣. والحجاج في كلام الإمام الحسين، مرجع سابق، ص ٢٧٠.
(٢) الغارُ: الغافل. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٣، ص ٢٢٤.
(٣) الحِلْسُ: كساء رقيق على ظهر البعير. ينظر: السابق، ج ١٥، ص ٥٤٦.
(٤) النَّجْوَةُ من الأرض: المكان المرتفع منها الذي تظنُّ أنه نجاؤك لأنه لا يعلوه السَّيْلُ. ينظر: السابق، ج ٤٠، ص ٢٥.
(٥) عند أبي يعلى بلفظ مشابه، نصّه: ((إنما ستكون فتنة في أمي أنت يا أبا موسى فيها نائمٌ خيرٌ منك قاعداً، وقاعدٌ خيرٌ منك قائماً، وقائمٌ خيرٌ منك ماشياً)). مسند أبي يعلى الموصلي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٠٣، ح ١٦٣٦.
(٦) تَلَمَّ السيف: كسر حدِّه وحرفه. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣١، ص ٣٥٧.
(٧) قَصِّفَ الرُّمْحُ: إذا انشَقَّ عرضاً. ينظر: السابق، ج ٢٤، ص ٢٦١.
(٨) أنصَلوا سهامكم: انزعوا نصالها. ينظر: السابق، ج ٣٠، ص ٤٩٥.
(٩) قطَّعوا أوتاركم: قطَّعوا أوتار قسيِّكم. ينظر: السابق، ج ١٤، ص ٣٤٣.
(١٠) الرَّتْقُ: إلحام الفتق. ينظر: السابق، ج ٢٥، ص ٣٣١.
(١١) رأب الشيء: جمعه وشدَّه برفق، وأصلح فساده. ينظر: السابق، ج ٢، ص ٤٥٨.
(١٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٩٥.

لا تعصوني؛ فيتحقق بذلك الغرض الحجاجي المقصود من حقن الدماء واجتناب الفتنة.

ولئن جاءت الآية: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١) صريحة في ضرورة احتكام المؤمنين إلى رسول الله ﷺ في كل نزاع بينهم، فإنَّ أبا موسى رضي الله عنه لم يُغفل هذا التقرير القرآني ولم يتجاوزَه؛ إذ جعل كلام رسول الله ﷺ فضلاً يجب أن يُحتكم إليه في هذا الأمر.

ومن هذه الشواهد أيضاً، ما ورد في ثنايا قول لسان الدين بن الخطيب في الحضِّ على الجهاد، إذ قال: ((صِلُوا رَحِمَ الْكَلِمَةِ، واسُوا بِأَنفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ تِلْكَ الطَّوَائِفُ الْمُسْلِمَةُ، كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ، وَالسَّنَّةُ الْآيَاتِ تُنَادِيكُمْ، وَسُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَائِمَةٌ فِيكُمْ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَقُولُ فِيهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرٌ عَلَىٰ تَجَرُّعِكُمْ مِّنْ عَذَابِ الْإِيبِرِ﴾^(٢)، وَمَا صَحَّ عَنْهُ قَوْلُهُ: (وَمَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ)^(٣)، (لَا يَجْتَمِعُ غِبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ)^(٤)، (مَنْ جَهَّزَ غَازِيًّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا)^(٥)، أَدْرَكُوا رَمَقَ^(٦) الدِّينِ قَبْلَ أَنْ يَفُوتَ، وَبَادِرُوا عَلِيلَ الْإِسْلَامِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، احْفَظُوا وَجُوهَكُمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ يَسْأَلُكُمْ عَنْ عِبَادِهِ، جَاهِدُوا فِي اللَّهِ بِاللِّسَنِ وَالْأَقْوَالِ حَقَّ جِهَادِهِ:

وماذا يكون جوابكم لنبيكم	وطريق هذا العذر غير مُهدد
إن قال: لِمَ فَرَطْتُمُو فِي أُمَّتِي	وتركتموهم للعدو المعتدي؟
تالله لو أنَّ العقوبة لم تُخَفْ	لكفى الحيا من وجه ذاك السيد) ^(٧)

(١) سورة: النساء، الآية: ٦٥.

(٢) سورة: الصف، الآية: ١٠.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود، وآخرين، ط ١، ج ٨، ص ١٩٨، ح ٩٠٧ (مكتب تحقيق دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٦هـ).

(٤) صحيح سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني، ط ١، ج ٢، ص ٣٧٣، ح ٣١١٠ (مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٩هـ).

(٥) الجامع الصحيح، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٧، ح ٢٨٤٣.

(٦) الرَّمَقُ: بَقِيَّةُ الْحَيَاةِ. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٥، ص ٣٦٣.

(٧) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٨٤.

لعلّ تراخي المسلمين في ذلك الوقت، عن الجهاد في سبيل الله والمُحاماة عن الدين، كان داعياً إلى مخاطبتهم بما تُدعن له قلوبهم وتنتفض له أبدانهم من معاني التحريض والتَّحريك؛ رجاء أن يعودوا إلى سيرتهم الأولى في الدفاع عن الدين والحرم.

وحيث جاء هذا الجزء من الخطبة صريحاً في الاستنفار، فإنَّ الخطيب قد اتَّخذ من القرآن الكريم والحديث الشريف سُلطةً علياً تُعزِّز حضوره بين يدي هذا العدد من الأوامر والتوجيهات، ولطول غفلة المتلقين فإنَّ الخطيب قد أورد تلك الأبيات التي تشرح قول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١)؛ احترازاً من تهاون المتلقين بتلك الأحاديث، وتبكيئاً لمن أعرض ونأى بجانبه عنها؛ فعصيان تلك الأوامر ليس عصيانياً للخطيب فحسب، بل هو عصيانٌ آثمٌ للصَّادق المصدوق ﷺ.

وإلى ذلك فإنَّ الحجاج بكلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ يرمي إلى إشراك المتلقي في الرأي نفسه الذي يذهب إليه الخطيب؛ وذلك نظراً إلى ما بين الخطيب ومتلقيه من الاشتراك في الدين الذي أسَّه هذان المصدران^(٢).

ويلحظ الناظر في الأمثلة السالفة أنَّ الحجج الحديثة جاءت مسبوقه بإسناد صريح إلى رسول الله ﷺ: (سمعت رسول الله ﷺ، كأني أسمع رسول الله ﷺ، إنَّ رسول الله ﷺ قال، ومما صحَّ عنه قوله)، وهذا- بلا شك- مما يزيد الحجَّة سُلطة وقوَّة، ويجعل سلطة الخطيب أقرب اتصالاً بسلطة رسول الله ﷺ؛ ذلك أنَّ مواقف الشك أو النفي التي يواجه بها المتلقون أطروحة الخطيب تتوقف عندما يُسند الحديث بهذه القوَّة.

ويمكن الإقرار- بناء على ما سبق- بأنَّ تضمين الخطيب خطبته شيئاً من حديث رسول ﷺ إنما هو أسلوبٌ، أو آليةٌ حجاجية، تدخل في مجال الروابط التي تربط الإقناع بالمعتقد، ومن ثمَّ الحمل على الاستجابة والفعل.

٢-ج- الحجاج بالأقوال المأثورة:

ويقصد الباحث بالأقوال المأثورة: كلُّ ما أثير من أقوالٍ عن الخلفاء الراشدين، أو عامَّة

(١) سورة: النور، الآية: ٦٣.

(٢) حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي (خطب الإمام علي) أمودجاً، ص ٢٢٧.

الصحابة والتابعين لهم، وكلّ ما حُفظ عن الأئمة المعروفين، وأولي العلم والنهي المصدقين، وأهل الخبرة والرأي المشهورين، وذلك بابٌ واسعٌ من الأقوال يصعب حصره أو حُدّه^(١)، ولئن كانت الحجتان: القرآنية والنبوية، حججًا تشريعيةً تنظيريةً تستدعي التطبيق والعمل، فإنّ هذه الحجة (حجة القول المأثور) تمثّلُ أُمُودًا تطبيقيةً لتلك التشريعات.

وغني عن القول بأنّ لهذه الأقوال فاعليتها في الحجاج؛ ذلك أنّ لآثار سلف الأُمَّة قوّةً في نفوس الأحياء، وسلطاناً كبيراً على قلوبهم، فهم العلماء الذين يُهتدى بهم، والسادة الذين يُقتدى بهم، والسلف الذين يعود إليهم الخلف، ولا ريب في أنّ قيمة الشخص المعترف بها سلفاً تُمثّلُ مقدمة ناجعة في الدعوة إلى القيام بفعلٍ ما أو توحّيه^(٢).

وقد وقع الباحث في المدوّنة على ما يُبرّر الوقوف على هذه الحجة ودراستها، من قبيل قول المسيّب بن نجبة الفزاري عند طلب التّوّابين^(٣) بدم الحسين رضي الله عنه: ((أمّا بعد، فإنّنا قد ابتلينا بطول العمر والتّعرض لأنواع الفتن، فنرغب إلى ربنا ألاّ يجعلنا ممن يقول له غداً: ﴿أُولَئِكَ نَعَمَّرَكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾^(٤)، فإنّ أمير المؤمنين قال: (العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة)، وليس فينا رجل إلّا وقد بلغه)^(٥).

أراد نجبة أنّ تكون خطبته على قدرٍ من الإيقاظ، وفي مستوى من الفاعلية والتّحريك، فاستشهد بهذه الآية وثبّى بقول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فتجلّى هذا الأثر حجة عالية في سلطتها وقوّتها؛ ذلك أنّ فيه تحديداً وتفصيلاً لمعنى الآية السابقة، وهو إلى ذلك كلامٌ سيّد العترة الذين يسعى هؤلاء المتلقون إلى الثّار لهم.

(١) ينظر: الاتصال الخطابي وفن الإقناع، مرجع سابق، ص ١٧٥.

(٢) ينظر: الخطابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مرجع سابق، ص ٤٢. وفي نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٥٥.

(٣) تلاوم الشيعة على ما أضاعوه من أمر الحسين رضي الله عنه وأتهمّ دعوته ثم لم ينصروه، وندموا ورأوا أنّ لا كفارة تمخّصهم سوى الاستماتة دون ثأرهم له، وسمّوا أنفسهم (التّوّابين). ينظر: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢١٦.

(٤) سورة: فاطر، الآية: ٣٧.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٥٨.

ولا تقتصر سلطة هذا الأثر على أنه قول الصحابي الجليل والخليفة الراشد، بل إنَّ الأمر ليتجاوز ذلك إلى أنَّ القائل يمثِّل النموذج العالي الذي يحتذيه المتلقُّون، ويسعون إلى إحياء بقيته^(١).

ومن قبيله، ما ورد في موعظة الحسن البصري رَضِيَ اللهُ لَهُ لأحد الأمراء، حيث يقول: ((نعوذ بالله من الحور بعد الكور^(٢)) ومن الضلالة بعد الهدى، لقد حُدِّثْتُ أَيُّهَا الأمير عن بعض الصالحين أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: (كفى بالمرء خيانة أن يكون للخونة أميناً، وعلى أعمالهم مُعِيناً))^(٣).

فإذا كان الناس - قديماً وحديثاً - يرون أنَّ المُجايبة^(٤) حجابٌ يحول دون الاقتناع والتأثر، فإنَّه لم يُفِتِ الحسن البصري رَضِيَ اللهُ لَهُ ذلك، إذ ضَمَّن موعظته هذا القول المأثور عن ذلك الرجل الصالح غير المُسمَّى؛ تعزيزاً لأطروحته وتمكيناً لها؛ لِعَلَّمَهُ أَنَّ لِكَلَامِ الحكماء والصالحين والمصلحين وأقوالهم سلطاناً في نفوس المتلقين، لا يبلغه كلام العصريين المجاليلين لهم؛ إذ إنَّ أقوال هؤلاء السلف الماضين بمعزلٍ عن تهممة التَّعَالِي أو التظاهر أو المُراءاة.

إنَّ هذه الحججة تستند إلى سلطة شخصية سابقة في تاريخ الأمة، وبهذا السبق التاريخي فإنَّها تُمثِّل أنموذجاً ذا وزنٍ وثقلٍ اجتماعيٍّ مُتجدِّدٍ؛ ذلك أنَّها تعود إلى الماضي الذي تناسلت منه هذه الأمة^(٥)، وإلى ذلك فإنَّ الحسن رَضِيَ اللهُ لَهُ لم يختم بهذا القول إلا ليكون قُفلاً يُحصِّن به قوله السابق من الاعتراض، ويُخْلِصه من الرد والشك، وليكون أدوم بقاءً في ذاكرة المتلقي.

ومن قبيله أيضاً، ما جاء في عِظَةِ الأوزاعي للخليفة المنصور؛ إذ كان مما قال له في عظته تلك: ((إنَّ الدنيا تنقطع ويزول نعيمها، ولو بقي المُلْكُ لمن قبلك لم يصل إليك يا أمير المؤمنين، ولو أنَّ ثوباً من ثياب أهل النار عُلق بين السماء والأرض لآذاهم، فكيف من يتقمَّصه؟ ولو أنَّ

(١) ينظر: في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٥٦. ورسالة: الحجاج في النص القرآني: (سور الحواميم) أنموذجاً، مرجع سابق، ص ٦٣.

(٢) الحور بعد الكور: النقصان بعد الزيادة. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١١، ص ٩٩.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٤٩٣.

(٤) الاشتراك في العيش في عصرٍ واحدٍ.

(٥) ينظر: بحث: الحجاج في الفلسفة وفي تدريسها، مرجع سابق، ص ٦٩١.

ذُنُوبًا^(١) من صديد أهل النار صُبَّ على ماء الأرض لآجنه^(٢)، فكيف بمن يتجرَّعه؟ ولو أنَّ حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف من سَلَكَ فيها^(٣) ويُرْدُّ فضلها على عاتقه؟ وقد قال عمر بن الخطاب: (لا يَقُومُ أمرُ الناسِ إلَّا حَصِيفَ العَقْدَةِ^(٤)، بعيد الغرَّة^(٥))، لا يَطَّلِعُ الناسُ منه على عورة، ولا يُحِيقُ في الحَقِّ على جِرَّة^(٦)، ولا تأخذه في الله لومة لائم^(٧)).

فلئن كان عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في سياسته ودرأيته بالخلافة مثالاً يُتخذى وإماماً يُتَّبَع، فإنَّ الأوزاعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد اختصَّ موعظته بهذا القول العمريِّ؛ ليكون نبراسًا للخليفة المنصور، وقبسا يستنير به في سياسته للرعية، ولقد أحسن الأوزاعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الاختيار؛ إذ جعل خلافة المنصور إزاء خلافة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الراشدة، ولاشكَّ أنَّ الخلافة العمرية أعلى سُلطة وأسمى مقامًا من جهة صحبة الخليفة للنبي ﷺ، وزهده وورعه المشهود.

إنَّ هذا القول العمريِّ يكتسب حجَّيته وسلطته بصدوره عن قائلٍ حجة يعوَّل عليه ويُهتدى بسنَّته، ومتى كان المُستشهاد بقوله معروفًا بالأخلاق المحمودة، ومشهورًا بحبه للحق وحرصه على العدل في الحكم وتمكَّنه من القضايا التي يتحدَّث فيها، كان نصيب الخطاب من الإقناع أوفر حظًا، وتأثيره في متلقيه أعمق غورًا^(٨).

وعلى منواله، ما تضمَّنه قول صالح بن عبد الجليل بين يدي الخليفة المهدي، إذ يقول: ((إنَّه لَمَّا سَهَّل علينا ما توعَّر على غيرنا من الوصول إليك، فمُنَّا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله

(١) الذُّنُوبُ: الدُّنُوبُ. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٣٨.

(٢) لآجنه: لغَيْر طعمه. ينظر: السابق، ج ٣٤، ص ١٥٦.

(٣) سَلَكَ فيه: أدخله. ينظر: السابق، ج ٢٧، ص ٢٠٧.

(٤) حَصِيفَ العَقْدَةِ: مُستحَكِّم الرأي والتدبير. ينظر: السابق، ج ٢٣، ص ١٤٤.

(٥) الغرَّة: الغفلة. ينظر: السابق، ج ١٣، ص ٢٢٤.

(٦) لا يُحِيقُ على جِرَّتِهِ: لا يحقِّد على رعيته؛ وأصل ذلك القول أنَّ البعير يقذف بجرَّته، وإمَّا وُضِع موضع الكظم من حيث إنَّ الاجترار ينفخ البطن، والكظم على خلافه. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٥، ص ٢٠٨.

(٧) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٥٠.

(٨) ينظر: الحجاج، كريستيان بلانتان، مرجع سابق، ص ١٥٣. ومقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، حمادي صمود،

ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، مرجع سابق، ص ١٢.

ﷺ، بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي عند انقطاع عُذْر الكتمان، ولا سيَّما حين اتَّسَمَتَ بميسم التواضع، ووعدتَ الله وحَمَلَةَ كتابه إثثار الحق على ما سواه، فَجَمَعْنَا وإياك مشهَدٌ من مشاهد التمحيص؛ لِيَتَمَّ مؤدِّينا على موعود الأداء عنهم، وقابلنا على موعود القَبُول، أو يزيدنا تمحيص الله إيَّانا في اختلاف السرِّ والعلانية، ويُحَلِّينا حِلْيَةَ الكذابين، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: (مَنْ حَجَبَ اللهُ عَنْهُ الْعِلْمَ عَذَّبَهُ عَلَى الْجَهْلِ، وَأَشَدَّ مِنْهُ عَذَابًا مَنْ أَقْبَلَ إِلَيْهِ الْعِلْمَ وَأَدْبَرَ عَنْهُ، وَمَنْ أَهْدَى اللهُ إِلَيْهِ عِلْمًا فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ، فَقَدْ رَغِبَ عَنْ هَدْيَةِ اللهِ وَقَصَّرَ بِهَا)، فاقْبَلْ ما أهدى اللهُ إليك من ألسنتنا قبولَ تحقيق وعمل، لا قبولَ سُمْعَةٍ ورياء^(١).

لم تكن هذه الموعظة ذات مقامٍ يسيرٍ؛ فقد جاءت في حضرة خليفةٍ من خلفاء الزمان المشهورين، ولأنَّ الخطيب على قدرٍ محدودٍ من السلطة، مقارنةً بسلطة الخليفة المطلقة، فإنَّه قد اعتصم بهذا القول المأثور عن صحابة محمدٍ ﷺ؛ ليجعله مُبرِّراً يَحْوِلُهُ أمر الخليفة ونهيه (فاقْبَلْ ما أهدى اللهُ إليك من ألسنتنا، قبولَ تحقيق وعمل، لا قبولَ سُمْعَةٍ ورياء).

إنَّ أقوى الأفكار أثرًا في النفوس ما جاء متصلًا بآثار أصلح الخلق، مؤتلفًا معها، لذا فإنَّ هذا الخطيب قرن بين أطروحته وبين ما أثر عن الصحابة في هذا المضمار؛ لينتهي بمتلقيه إلى الإقناع والانتقياد^(٢).

لقد جاءت الشواهد السابقة واضحة في بيان أثر هذا النوع من الحجج؛ إذ عدل إليها الخطباء بوصفها آلية إقناعية عصية على الاستهانة، ممتنعة عن الرد؛ ذلك أنَّها من خير ما حُفِظَ من كلام المقدمين من خير قرون الأمة.

٢-د-الحجاج بالشعر:

يمتثلُ الشعرُ أحد أهمِّ الحجج الجاهزة، والروافد الإقناعية التي عرفتْها الخطبة العربية قبل الإسلام ولم تنسها بعده، فللشعر أهميته القصوى في تشكيل ثقافة العرب وتكوين معرفتهم؛ فهو ديوانهم، ومحطُّ مآثرهم، ومورد أخبارهم، وسجلُّ تاريخهم، ومنتهى براعتهم في حِكْمِهِمْ وفلسفتهم وعلومهم، كما أنَّ للشاعر ثقله ومركزته؛ فهو من حيث القيمة موازٍ لمكانة رئيس القبيلة وخطيبها وكاهنها؛

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٧٩.

(٢) ينظر: الخطابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مرجع سابق، ص ٤٢.

لِما له من دورٍ في إذاعة مناقب القبيلة وحفظ مكارمها والذبِّ عن حُرْمِها^(١).

ولا يمكن الحديث عن حجاجية الشعر دون ذكر أثر الجمال والإبداع على المتلقين، إذ إنَّ للشعر من السطوة ما يحمل النفوس «على فعل شيء، أو اعتقاده، أو التخلي عن فعله واعتقاده»^(٢)، فضلاً عمَّا في الاحتجاج به من مراوحةٍ شائقة بين فَنِّي: النثر والشعر، وملاقحةٍ تعالقيَّة بين فكري الشاعر والخطيب؛ تزيد الخطبة تنوعًا، وتجعلها أكثر إثراءً للموضوع وقبولاً له. والشعر أعلى سلطة من عموم النَّثْرِ «لأنَّ كلَّ منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة، ألا ترى أنَّ الدَّر- وهو أخو اللفظ ونسيبه، وإليه يُقاس، وبه يُشَبَّه- إذا كان منثورًا لم يؤمَّن عليه، ولم يُنتفع به في الباب الذي له كُسِب ومن أجله انتُخب، وإن كان أعلى قدرًا وأغلى ثمنًا، فإذا نُظِم كان أصون له من الابتدال وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال، وكذا اللفظ»^(٣)، ولا شكَّ أنَّ ورود الشعر في ثنايا النصِّ المنثور يزيد بهاء، ويمنحه قيمةً وامتيازًا عمَّا يحيط به من منثور.

ولكثرة ما ردَّد العرب الشعر وحفظوه، فقد أصبح عندهم بمنزلة المشترك المتَّفَق عليه والمتواتر المصطلح على معناه؛ فأصبح «للشعر قوَّة في البناء اللغوي والمعرفي والإقناعي داخل هذه الثقافة، وليس أدلَّ على ذلك من اعتماده آلة لتفسير القرآن وكشف مقاصده، هذه المنزلة السامية التي تبوأها الشعر في علاقته بكتاب الله أكسبته حجية قوية وفَعَّالة في تحقيق الترجيح، وفي قطع الشَّعْب، وفي إيقاع التصديق»^(٤).

وإذا كان الشعر على هذا المستوى من الأهمية والفاعلية فإنَّه لا غرو في كثرة الاستشهاد به والتعويل عليه، ولهذه الأهمية وتلك الفاعلية فقد عدَّه الدارسون من أشهر مصادر الحجج التي

(١) ينظر: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، مرجع سابق، ص ١٤٣-١٤٤. والعمدة في محاسن الشعر وآدابه، مرجع سابق، ج ١، ص ١٩-٢٠، ٦٥. والتفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمود، ط ٢، ٢٣ (منشورات كلية الآداب منوبة، تونس، ١٩٩٤م).

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، مرجع سابق، ج ١، ص ١٩.

(٤) بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

تكتسب فاعليتها من مصدرها، ومن تواترها، ومن مصادقة الناس عليها^(١).

وإذا ما تتبعَت هذه الحجة في المدونة المدروسة فإنك ستلاحظ تكرّر ورودها بما يُثبت ما دُكر ويدلّل عليه، ومن أهمّ الشواهد التي وقع عليها اختيار الباحث، ما ورد في خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما ((وصل إليه مال من البحرين، فساوى فيه بين الناس، فغضبت الأنصار، وقالوا له: فَصَلِّنا، فقال أبو بكر: صدقتم، إن أردتم أن أفصلّكم صار ما عملتموه للدين، وإن صبرتم كان ذلك لله عز وجل، فقالوا: والله ما عملنا إلا لله تعالى وانصرفوا، فرقي أبو بكر المنبر؛ فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: يا معشر الأنصار، إن شئتم أن تقولوا: إننا آويناكم في ظلالنا، وشاطرناكم في أموالنا، ونصرناكم بأنفسنا، قلم، وإن لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد وإن طال به الأمد؛ فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوي^(٢):

جزى الله عنّا جعفرًا حين أزلقتُ بنا نعلنا في الواطئين فزلتِ
أبوا أن يملؤنا، ولو أن أَمنا تُلاقي الذي يلقون منّا لَمَلتِ
هُمُ أسكنونا في ظلالِ بيوتهم ظلالَ بيوتِ أدفأتِ وأظَلَّتِ^(٣) ^(٤)

فتجد أنّ هذه الأبيات قد احتلّت جزءاً يوازي- في حجمه- نصّ الخطبة المنثور، ولم يكن لأبي بكر رضي الله عنه أن يستشهد بتلك الأبيات ويُفسح لها النصف الأخير من خطبته لولا دورها الكبير في مضاعفة فكرة الأطروحة وتأييد معناها، ذلك إلى جانب دورها في إشاعة الإغراب والإحالة على عالم خاص يدعم الصوت ويعزّز الإيقاع^(٥).

(١) ينظر: الأدب والغراب: دراسات بنوية في الأدب العربي، عبد الفتاح كيليطو، ط ٢، ص ٥٤ (دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م). والاتصال الخطابي وفن الإقناع، مرجع سابق، ص ١٧٦. وبحث: الحجاج في خطب عبد الملك بن مروان، مرجع سابق، ص ١٠٧٦.

(٢) شاعر وفارس جاهليّ عاش في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، لُقّب بـ(المُحِبِّ)؛ لحسن شعره، وقد اشتهر في شعره بوصف الخيل. ينظر: ديوان طفيل الغنوي، عبد الملك بن قريب الأصمعي، تحقيق: حسان فلاح أوغلي، ط ١، ص ٧-١٩ (دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م).

(٣) من الطويل. ينظر: ديوان طفيل الغنوي، مرجع سابق، ص ١٣٠.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٨٦.

(٥) ينظر: بحث: حجاج الإيهام والمغالطة في الخطابة العربية: (منتخبات من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي)، مرجع سابق، ص ٦٦.

إنَّ في تدعيم أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أطروحته بهذه الأبيات ربطاً- بين ظاهرتين متشابهتين- يدمج التجربة المقامية بالتجربة السابقة المُحمَّلة في هذه الأبيات، وما من شكِّ في أنَّ مشاركة المتلقين (الأنصار) في استنتاج المعاني الكامنة خلف المهيمن الشعري، وإقحام مخيَّلاتهم في هذا المشهد التصويري، يُحرِّكهم ويعود بهم إلى التوازن المطلوب حصوله في مثل هذا الموقف، من حيث الإقرار بفضلهم، وما لهم من سابقة يفوق قدرها التعويض والمكافأة المادية^(١).

وإلى ذلك فإنَّ الشعر- بما فيه من تخييل- يتوجَّه إلى مخاطبة عواطف المتلقين ومشاعرهم أكثر من توجهه إلى مخاطبة عقولهم وأفهامهم، ولا ريب في أنَّ استجابة النفوس للعواطف أسرع من استجابتها للعقل؛ لذا فقد جاءت هذه الأبيات تعبيراً صائباً عن مكانة الأنصار في نفس أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ والمهاجرين جميعاً^(٢).

ومن الشواهد، ما جاء في معرض خطبة عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد فشل التحكيم؛ حيث يقول: ((وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري، ونحلت لكم مخزون رأبي، لو كان يُطاع لقصير أمر^(٣))، فأبيتم علي إباء المخالفين الجفاة، والمنابذين العُصاة، حتى ارتاب الناصح بنصحه، وضنَّ الزند بقدِّحه، فكنت وإيَّاكم كما قال أخو هوازن^(٤)):

أمرتكم أمري بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد^(٥)))^(٦)

لئن كان عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على قدرٍ عالٍ من السُّلطة والمخاطبة، فإنَّه لم يستغن عن الاحتجاج بهذا

(١) ينظر: بحث: الحجاج في خطب عبد الملك بن مروان، مرجع سابق، ص ١٠٧٥.

(٢) ينظر: أطروحة: أساليب الحجاج في أدب القاضي الفاضل البيساني، مرجع سابق، ص ٢٨.

(٣) لا يطاع لقصير أمر: يضرب مثلاً للذي يستشار ويعصى، وللنصيح يُتهم في رأيه. ينظر: جمهرة الأمثال، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٩٤.

(٤) قائل هذا البيت هو: دريد بن الصِّمَّة؛ وكان دُرَيْد أشار على أخيه عبد الله بالنجاء وترك التلبث، وهو منصرف من غارة أغارها على إبلٍ لعبس وفرارة، فأبى فأدركه الطَّلب فقتل، فجاء دريد بقصيدة منها هذا البيت. ينظر: الشعر والشعراء، ابن فُتَيْبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ج ٢، ص ٧٣٨-٧٤٠ (دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ).

(٥) من الطويل، وقد ورد البيت في الديوان بهذه الرواية:

(أمرتهم أمري بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد).

ديوان دريد بن الصِّمَّة، تحقيق: عمر عبد الرسول، ص ٦١ (دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م).

(٦) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٩١.

البيت؛ إذ أوردته ليؤكد به الفكرة المتضمنة في القول قبله، وليرسخ من خلاله مآل تجاوز رأي المُجربِ الناصح والحكيم المُشفق.

ومن شأن هذا التعلق والانسجام بين: الجنسين، والقولين، والحادثتين، أن يُحفز المتلقين إلى تدارك الأمر بطاعة عليٍّ رضي الله عنه، واجتناب ما عنه ينهى ويصدُّ، وهو تحفيزٌ ذاتيٌّ ناتجٌ عن مُعاقبة عليٍّ رضي الله عنه بكلام غيره (قول الشاعر)^(١).

ويتجلى قصده رضي الله عنه في هذه الحجة الشعرية أعلى من قصد دريد بن الصِّمَّة، على الرغم من أن دُرَيْدًا هو قائل هذا البيت؛ ذلك لما لعليٍّ رضي الله عنه من دورٍ في إعادة إنتاج الخطاب؛ فقد اكتسب البيت بفعل هذا الدور قوةً في التبليغ، لم تكن للغته وحدها، ولم تكن له في مصدره الأصل^(٢).

ومن الشواهد أيضًا، قول الحجاج إذ خرج من قصره، ((فسمع تكبيرًا في السوق، فراعته ذلك فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه، ثم قال: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، وبني اللكيعة^(٣)، وعبيد العصا^(٤)، وأولاد الإماء، والفقع بالقرقر^(٥)، إني سمعت تكبيرًا لا يُرادُ الله به وإنما يُرادُ به الشيطان، ألا إنَّها عجاجة تحتها قَصْفٌ، وإنما مثلي ومثلكم ما قال عمرو بن براق الهمداني^(٦):

وكنتُ إذا قومٌ غَزَوْنِي غَزَوْهُمْ
فهل أنا في ذا يالَ همدانِ ظالمٌ؟

(١) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

(٢) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٢٥٤.

(٣) اللكيعة: اللثيمة والدينية. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٢، ص ١٦٣.

(٤) عبيد العصا: من لا يمثل إلا بالضرب بها. ينظر: السابق، ج ٣٩، ص ٥٦.

(٥) القرقر: القاع الأملس. ينظر: السابق، ج ١٣، ص ٤٠٢.

(٦) شاعر وفارس جاهلي ذكر بعضهم أنه محضرم أدرك الإسلام، تفرَّق شعره في عددٍ من المصادر الأدبية. وتذكر المصادر أنه قد قال هذه الأبيات عندما أغار رجلٌ من مراد على إبله وخيله، ثم إنَّ عمرًا أغار عليه فاستاق كلَّ شيءٍ له، فأثنى المراديُّ بعد ذلك يطلب إلى عمرو أن يردَّ إليه بعض ما أخذ منه، فامتنع عمرو، وقال قصيدته التي منها هذه الأبيات. ينظر: عمرو بن براق الهمداني: سيرته وشعره، شريف راغب علاونة، ط ١، ص ١٧-٤٤، ١٠٩ (دار المنهاج، عمّان، ١٤٢٤هـ).

متى بجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حمياً بجنبك المظالم^(١) ((٢)).

فعلى الرغم مما يتمتع به الحجاج من سلطة ومنعة، إلا أن المقام يفتقر إلى مُعاضدة الأطروحة بحجج خارجية تاريخية ذات معانٍ حادة ومكثفة، تؤيد فكرة الأطروحة وترسخها في أذهان المتلقين^(٣).

إن من شأن معاني العزة والمنعة الذاتية المودعة في هذين البيتين أن تؤكد الفكرة المرمي إليها، وتُبين عن غرض الخطبة وصولاً إلى خضوع المتلقين وتغيير أفكارهم وسلوكهم، وقد بدا الحجاج بارعاً في توظيف هذين البيتين؛ إذ تمكّن بهما من رسم صورة قوية وحازمة لذاته، في جوٍّ مُفعمٍ بالإغراب من شأنه أن يهيئ المتلقي للانصياع والقبول^(٤).

ويجري مجرى ما سبق، ما ضمّنه الأحنف بن قيس رَحِمَهُ اللهُ خطبته في مدح زياد بن أبيه بين يدي معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكان أحد وفد العراق إليه زمن ولاية زياد عليهم، حيث يقول: ((والله يا أمير المؤمنين ما نعدم منكم قائلاً جزيلاً، ورأيًا أصيلاً، ووعدًا جميلاً، وإن أخاك زيادًا لمتبع آثارك فينا، فنستمع الله بالأمير والمأمور؛ فإنكم كما قال زهير- فإنه ألقى على المدّاحين فصول القول-:

وما يكُ من خيرٍ أتوه فإمّا توارثه آباءُ آبائهم قبل
وهل يُنبئُ الخطيَّ إلا وشيجه^(٥) وتُغرسُ إلا في منابتها النَّخل^(٦) ((٧))

إذ ثنى الأحنف رَحِمَهُ اللهُ كلامه بهذين البيتين، مُستفيداً من دقتهما في وصف كرم المحتد،

(١) من الطويل. ينظر: عمرو بن بَرّاق الهمداني: سيرته وشعره، مرجع سابق، ص ١١٣-١١٤.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٩١.

(٣) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ٢٤٣.

(٤) ينظر: بحث: الحجاج في خطب عبد الملك بن مروان، مرجع سابق، ص ١٠٧٦. وبحث: حجاج الإيهام والمغالطة في الخطابة العربية: (منتخبات من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي)، مرجع سابق، ص ٦٦.

(٥) الخطي: الرماح؛ نسبها إلى (الخط) وهي جزيرة بالبحرين، ترفأ إليها سفن الرماح؛ يقول: لا يُنبئ القناة إلا القناة. والوشيج: القناة، وتُسمّى الواحدة من القناة: وشيجة. ينظر: شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، أبو العباس ثعلب أحمد بن يحيى النحوي، تحقيق: حنا نصر الحّيّ، ص ١٠٧ (دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٤هـ).

(٦) من الطويل. والبيتان من قصيدة زهير التي يمدح فيها: هرم بن سنان بن حارثة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري. ينظر: شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، مرجع سابق، ص ١٠٧.

(٧) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣٦٥.

وبراعتها في تشخيص امتداد الفضل، ومدعمًا بما قوله السابق في حسن سيرة زياد في أهل العراق.

وإذا ما أخذ بعين الاعتبار ضياع الكثير من الشعر، فإنَّ تجذُّر هذين البيتين ورسوخهما في ثقافة المُلقِّي والمتلقِّي وحيازتهما اهتمام تلك الثقافة، جعلهما يُمَثِّلان حجةً جاهزةً ومجربةً صالحةً لسدِّ حاجة الخطيب إلى المزيد من الوصف والقول، مع ضمان الجدوى الحجاجية والمنفعة التأثيرية.

وفي التزام الخطباء بالإحالة إلى الشعراء (كما قال طفيل الغنوي، كما قال أخو هوازن، ما قال عمرو بن براق الهمداني، كما قال زهير) دلالةً ظاهرة على حاجة الخطيب إلى دعم الأطروحة بقولٍ خارجيٍّ مُشتركٍ يكفل لها موضوعيتها، وينتحي بها عن تُهمته (الخطيب) بالترجسية والذاتية.

إنَّ دراسة الأمثلة السابقة تقود-حتمًا- إلى الإقرار بأنَّ اتِّكاء الخطيب على قول شاعر من الشعراء واستناده إليه، يُمثِّل حجةً قويَّة على الادعاء؛ فحينما يُعزِّز الشاهد الشعريّ قول/ اعتقاد الخطيب، فإنَّه ينتفي عن هذا القول عراؤه، ويتجلَّى مسنودًا بخلفيات معرفية ووجدانية متجدِّرة، وهي خلفيات كافية لنقل أطروحة الخطيب من مجرد رأي خاص إلى اعتقاد كونيٍّ عامٍّ، ولاشكَّ في أنَّ المتوارث المشترك أكثر مصداقية وأقرب إقناعًا.

إنَّ أقوال الخطباء تصنع حقيقتها وتبدِّد غرابتها باعتماد الحجة الشعرية؛ ذلك أنَّ سلطة الشعر واشتهاره يحوِّلانه في الخطبة إلى حجةٍ مثبتةٍ ترفع درجة تقبُّل أطاريح الخطباء وتتيح الانخراط فيها، وبدراسة الحجج الجاهزة في المدونة المدروسة، فإنَّ الدارس يجد أنَّ الحجَّة الشعرية تأتي-من حيث الاستعمال- في المرتبة الثانية بعد الحجة القرآنية؛ ذلك لما وُقف عليه من دورها الإقناعي المؤثِّر والفعَّال.

وإذا كانت الحجج السابقة تأتي للمصادقة على ما سبقها من قولٍ، فإنَّ الباحث سيتحوَّل إلى دراسة حجة أخرى من حجج السلطة مخالفة لسوابقها؛ من جهة مجيئها بقصد البرهنة والتأسيس لما يليها من قولٍ.

٢-٥- الحجاج بضرب المثل:

يُشكِّل ضرب المثل «عملية فكرية تقوم على تشبيه أمر بأمر آخر في العلة التي كانت هي

السبب في حدوث ظاهرة من ظواهره، واعتبار هذا الشبه كافيًا لقياس أمر على آخر»^(١)، مما يعني أنّ المقصود بـ(ضرب المثل) هو: «إطلاقه واستعماله في الحالات المتجدّدة التي تشبه الحالة الأولى»^(٢).

ولئن سبق دراسة أربعة مصادر من مصادر الحجج الجاهزة (المُصادق عليها قبلاً) المحميّة من التحريف والتغيير، فإنّ حجج الأمثال تُعدُّ مصدرًا ثريًا ومهمًا من مصادر الحجج الجاهزة، ذلك بصفته مسلمات تُختزلُ التجارب الإنسانية، وتعمل على تقوية درجة التصديق؛ من خلال دورها في كشف الحال وقراءة المآل، وإبراز الخافي وفصل الملتبس؛ إذ تُريك المتخيّل في صورة المُحقّق، والمُتَوَهّم في معرض المتيقّن، والغائب الخافي كأنّه حاضرٌ مُشاهد، ولا أدلّ على قيمة هذه الحجج وأهميتها من كونها أحد أهم آليات الإقناع في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف^(٣).

وإنّ دُرِسَ المثل من جهة سلطته الحاصلة بفعل تواطؤ أبناء الثقافة الواحدة عليه، واشتراكهم في فهم معناه، فإنّه يُمكنُ دراسته أيضًا بصفته حُجّةً منطقية، أساسها المشابهة، تُستدعى بغرض استنتاج نهاية إحدى الحالتين بالنظر إلى نهاية سابقتها، وتُسمى الحالة الأولى (مورد المثل)؛ وهي حالة خاصة مقبولة سلفًا لدى المتلقي، أمّا الحالة الثانية فإنّها الحالة المقامية التي استدعي المثل من أجلها، وتسمى (مَضْرَب المثل)^(٤).

وبما سبق، فإنّ الوظيفة الحجاجية للمثل تتجلّى من حيث سلطته، ومن حيث تأسّسه على مبدأً منطقيّ هو: علة الشّبه؛ ذلك أنّ في ضرب المثل معنى عقد الصلة بين شبيهين؛ شبيه

(١) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط٤، ص٨٩ (دار القلم، دمشق، ١٤١٤هـ).

(٢) الأمثال العربية: دراسة تاريخية تحليلية، عبد المجيد قطامش، ط١، ص١١ (دار الفكر، دمشق، ١٤٠٨هـ).

(٣) ينظر: تفسير الكشاف، مرجع سابق، ص٥٠-٥١. والبرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج١، ص٤٨٦. وفي بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ص٨٥. واستراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص٥٤٢. وعندما نتواصل نغيّر، مرجع سابق، ص٩٥. ورسالة: الروابط الحجاجية في شعر أبي الطيب المتنبي: مقارنة تداولية، مرجع سابق، ص٩٣.

(٤) ينظر: تاريخ نظريات الحجاج، مرجع سابق، ص٥٥.

حاضر في الأطروحة وشبيه غائب عنها^(١).

وحين يَعْمَدُ المحاجِّج إلى استحضار نصِّ غائب في سياق الخطاب الحاضر، فإنَّه إنما يستند بذلك إلى مرجعية ثقافية كليَّة يلتقي فيها مع المتلقي؛ ليتحوَّل المتلقي-من خلال فحصه لعلاقة المشابهة واستخلاصه النتيجة-إلى مُنتجٍ مشاركٍ فاعلٍ في الحجاج^(٢)، وإليه فإنَّه لا يخفى دور الطبيعة السردية القصصية للأمثال؛ إذ يسهلُ بها تصوير الحدث وتقريبه تقريبًا يأخذ بالحسبان ميل المتلقين عمومًا إلى الحكاية، وانجذابهم إليها، وانسجامهم معها^(٣).

وإذا ما استُثْنِيَتِ النصوص المقدَّسة، فإنَّ القيمة الحجاجية للمثل تُفضّل قيمة الاستشهاد بالنصوص عامةً؛ «ذلك أنَّ المَثَلُ تُبْنَى عليه قاعدةٌ ما للوصول إلى نتيجةٍ ما، والاستشهاد يعقب القاعدة ليقويها ويزيدها وضوحًا وحضورًا»^(٤)، وبه فإنَّه يمكن القول بأنَّ «الاستشهاد يُؤْتِي به للتوضيح، في حين أنَّ المَثَلُ يُؤْتِي به للبرهنة ولتأسيس القاعدة»^(٥).

وقد وقف الباحث في الدراسة على جُمْلَةٍ لا يُستهان بها من شواهد حجّة المثل أتت غاية في التقعيد والتأسيس، نحو قول الحجاج بعد قتله عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه: ((ألا إنَّ ابن الزبير كان من أحرار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكَّن^(٦) بحرم الله، ولو كان شيء مانعًا للعصاة، لَمَنَعَ آدمَ حرمةُ الجنة؛ لأنَّ الله-تعالى-خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنَّته؛ فلمَّا عصاه أخرجها منها بخطيئته، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمةً من الكعبة))^(٧).

- (١) ينظر: الأمثال العربية: دراسة تاريخية تحليلية، مرجع سابق، ص ١٤. وفي بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ص ٨٢.
ومن مظاهر الحجاج في: (كلىة ودمنة)، محمد القارصي، حوليات الجامعة التونسية، العدد ٤١، ص ١٥٠ (١٩٩٧م).
(٢) ينظر: الصلة بين التمثيل والاستنباط، ناصر البعزاتي، ضمن كتاب: التحاجج: طبيعته ومجالاته ووظائفه، مرجع سابق، ص ٢٩. وحجاج التمثيل في الشعر الجزائري الحديث، خديجة بوخشنة، مجلة المَحْبَر، العدد ١٣، ص ٣٨٠ (٢٠١٧م).
(٣) ينظر: الواضح في علوم القرآن، مصطفى البغا، ومحيي الدين مستو، ط ٢، ص ١٩٨ (دار الكلم الطيب، دمشق، ١٤١٨هـ). وبمحت: من مظاهر الحجاج في: (كلىة ودمنة)، مرجع سابق، ص ١٥٤.
(٤) البنية الحجاجية للخطاب بين فنية الإيقاع ونصبة الإقناع في كتاب: (هداية الحيارى) لابن القيم، مرجع سابق، ص ٥٦.
(٥) في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٥٥.
(٦) استكَّن به: استتر وتوقَّى به. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٦، ص ٦٥.
(٧) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٨٧.

لئن كان الحجاج بالمثل يتغيًا «ترسيخ قاعدة عامة والتأسيس لها في كيانات الجمهور، حتى تغدو مقبولة، ويتم الانتقال فيها من الحالة الخاصة إلى الحالة العامة/ القانون»^(١)، فإنَّ الحجاج إمَّا استدعى هذا المثل القرآني التاريخي الخاصَّ؛ ليهوّن به من فداحة قتل هذا الصحابي الجليل، وليتخفّف به من عظم انتهاك حرمة البلد الحرام^(٢).

وبفعل قوة المثل المنطقية؛ المبنية على التقريب بين عنصرين من نظامين مختلفين مع محاولة طمس ما بينهما من فروق واختلاف؛ للانتقال من الحالة الخاصة إلى الحالة العامة، فإنّه لابدّ لمتلقي هذه الخطبة أن ينتهي إلى استنتاج قاعدة كليّة (عقوبة الذنب لا يحول دونها شرف المذنب، أو حرمة المكان) تبرّر -ظاهريًا- قتل الحجاج لابن الزبير رضي الله عنه، وتخلّصه من مغبة انتهاك الحرم، وتنقذه من ورطة الولوغ في دم هذا الصحابي الجليل، وتظهره مظهر البريء المسلم^(٣).

ولا جدال في أنّ المثل المستمدّ من القرآن الكريم أقوى حجةً وأجدى تأثيرًا؛ ذلك من جهة اتحاد السلطتين: سلطة القرآن الكريم وسلطة المثل، وبه فقد اجتمع بهذا المثل حضور (الشاهد) و(القاعدة)^(٤).

وقريبٌ مما سبق، أنّ ((خالد بن عبد الله القسري صعد المنبر في يوم الجمعة -وهو على مكة- فذكر الحجاج فحمد طاعته، وأثنى عليه خيرًا؛ فلمّا كان في الجمعة الثانية ورّد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك، يأمره فيه بشتم الحجاج ونشر عيوبه وإظهار البراءة منه، فصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إنّ إبليس كان ملكًا من الملائكة، وكان يُظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلًا، وكان الله قد علم من غشّه وخبثه ما خفي على ملائكته، فلمّا أراد الله فضيحتة أمره بالسجود لآدم، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم، فلعنوه، وإنَّ الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلًا، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشّه وخبثه على ما

(١) لغة التخاطب الحجاجي: دراسة في آليات التناظر عند ابن حزم، مرجع سابق، ص ١٧٦.

(٢) ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٣) ينظر: أسلوبيّة الحجاج التداولي، مرجع سابق، ص ١٦٦. والإمبراطوريّة الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٨٧. وبحث: عدة الأدوات الحجاجية، مرجع سابق، ص ٤١٨.

(٤) ينظر: حجاجية الصورة الفنية في الخطابة الحري (خطب الإمام علي) أمّودجًا، مرجع سابق، ص ٢٣٢. وبحث: حجاج التمثيل في الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص ٣٨١.

خفي علينا؛ فلمَّا أراد الله فضيحه أجرى ذلك على يدي أمير المؤمنين، فلعنه، فالعنوه لعنه الله^(١).

حيث استند خالدٌ في هذه الخطبة إلى قصة إبليس وعبادته لله ثم عصيانه واستحقاقه للعقاب، ليُعِلِّلَ بها تفاوت حُكْمِهِ على الحِجَّاجِ في الخطبتين. ويجدُ المتأملُ في هذا المثل أنَّ خالدًا تمكَّنَ به من إنقاذ نفسه وسلِّها من تهمة التناقض والتذبذب؛ فحال الحِجَّاجِ شبيه بحال إبليس الرجيم من جهة الخفاء والانكشاف. إنَّ مقارنة الحالة الخاصة الأولى الواردة في المثل التاريخي بالحالة الخاصة الثانية المتصلة بالحِجَّاجِ؛ تُثبت تقارب الحالتين بما لا يدع شكًّا في اتِّفَاقهما في الحكم الذي يؤسس لقاعدة عامة مفادها أنَّه (لا عبرة في الظاهر إذا ظهر حُبث الباطن)^(٢).

ولئن لم يكن الخطيب مضطرًّا إلى التبرير إلاَّ أنَّه قد عدل إلى هذا المثل ليُمرِّرَ به ما يريد؛ من خلال قاعدةٍ منطقية تتفق مع العقل وتنسجم مع مبادئه الأساسية، ولا تتعارض مع العالم المحيط به وقيمته، إنَّ استلهام المثل يُثمر ما يُسميه الحِجَّاجيون بـ(البدايات المشتركة)، ولكن من خلال حوار عقلي، وهو نوع من الحجاج القائم على التلطُّف والاعتدال في جدية تحفظ للخطيب مكانته ومنزلته^(٣).

وبفعل هذه الطاقة الإقناعية في حجة المثل، فإنَّه لا يُستغرب ما ذهب إليه (الماوردي) من أنَّ للأمثال «من الكلام موقع الإسماع والتأثير في القلوب، فلا يكاد المرسل يبلغ مبلغها ولا يؤثِّر تأثيرها؛ لأنَّ المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها وامقة، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة؛ ولذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز، وجعلها من دلائل رسله، وأوضح بها الحجة على خلقه؛ لأنَّها في العقول معقولة، وفي القلوب مقبولة»^(٤).

ومن بين خطباء المدونة من ذهب إلى تصوير فكرته وتجسيدها من خلال استعمال مثلٍ

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٢) ينظر: التعريفات، مرجع سابق، ص ٧٠. وفي بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ص ٨٧. وأطروحة: الحجاج في كتاب: (البيان والتبيين) للجاحظ، مرجع سابق، ص ١٠٣.

(٣) ينظر: حجاج الشاعر شفيعًا ومُحرِّضًا: دراسة في كتاب: (العمدة)، محمد سيد علي عبد العال، مجلة كتابات، العدد ٥، ص ٦٧ (٢٠١٢م).

(٤) الأمثال والحكم، علي بن محمد الماوردي، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، ط ١، ص ٢٠ (دار الوطن للنشر، الرياض، ١٩٩٩م).

خياليّ قائم على الحكاية غير الواقعية (الخرافية)، لوجود شبه قائم بين السياقين^(١)، نحو ما اختاره النعمان بن بشير رضي الله عنه إذ «خطب على منبر الكوفة، فقال: يا أهل الكوفة: إني والله ما وجدت مثلي ومثلكم إلا الضُّبُّ والثعلب، أتيا الضب في جحره فقالا: أبا الحسل^(٢)، قال: أجبتكما، قالاً: جئناك نختصم، قال: في بيته يؤتى الحكم، قالت الضبع: فتحت عيني، قال: فعَلَ النساء فعلتِ، قالت: فلقطت تمرة، قال: حلوا اجتنت، قالت: فاخطفها ثُعالة^(٣)، قال: لنفسه بغى الخير، قالت: فلطمته لطمه، قال: حقاً قضيتِ، قالت: فلطمني أخرى، قال: كان حرّاً فانتصر، قالت: فاقض الآن بيننا، قال: حدِّث حديثين امرأة، فإن لم تفهم فأربعة»^(٤).

إذ استدعى النعمان رضي الله عنه هذا المثل الخيالي؛ مستفيداً من طاقته الوصفية الدقيقة ومستثمراً قدرته التصويرية المفصّلة في تشخيص أمره مع أهل الكوفة، لينتهي بمتلقيه-بعد دراسة صفة المشابهة بين الحالة المقامية العامة (مضرب المثل) والحالة الخاصة (مورد المثل)-إلى قاعدة سياسية مهمّة ترسم حدود سياسته رضي الله عنه لأهل الكوفة^(٥).

لقد اضطلع هذا المثل بتحديد نوع العلاقة التي تجمع بين الخطيب ومتلقيه من أهل الكوفة؛ فهي علاقة محدّدة تقوم أساساً على وجوب الخضوع لسلطة الطرف الأقوى (الوالي)، بعيداً عن مُعارضته أو شكايته أو الاستهانة برده فعله، وبذلك فقد شكّل هذا المثل قاعدةً أساسية تحكم أفعال كلٍّ من الطرفين وتضبطها.

وعلى الرغم من أنّ العلاقة بين أهل الكوفة وبين النعمان رضي الله عنه علاقة رسميّة تراتبيّة، إلا أنّهُ رضي الله عنه قد نأى بنفسه عن التصريح؛ مُكتفياً بما في هذا المثل الخرافي من طاقة إقناعية تلميحية تُقرب المعاني وتُصوّرُها في قالبٍ سرديّ خياليّ مُمتعٍ، بعيداً عن المواجهة الواقعية والاصطدام

(١) ينظر: الخطابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مرجع سابق، ص ٣٨. وفي بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ص ٨٨.

(٢) أبا الحسل: الضبُّ، والحسل: ولد الضبِّ حين يخرج من بيضته. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٨، ص ٢٩٨.

(٣) ثُعالة: الثعلب. ينظر: السابق، ج ٢، ص ٩٠.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٨٠.

(٥) ينظر: الحجاج الخطابي: أسسه وتقنياته من خلال (ثمرات الأوراق) لابن حجة الحموي، مرجع سابق، ص ١٥٨. وبحث:

الحجاج في خطب عبد الملك بن مروان، مرجع سابق، ص ١٠٨٥.

بالرعية^(١).

إنَّ هذا المثل - في سياقه الحجاجي - يأبى أن يكون كوناً تخييلياً فقط؛ إذ تحوّل بفعل مهارة الخطيب وخبرته إلى حجة سردية، أو حجة تداولية، أو استعارة محبوكة مُنزلة في سياق حجاجي يجمع بين الخطيب ومتلقيه، وبهذا التحوّل فقد انحسر معناه السردى لصالح اشتغال المعنى الحجاجي في أقوى صوره، وتفاصرت وظيفته التخيلية لتتضخم وظيفته الإقناعية^(٢).

وقد تقوم علاقة المشابهة المثلية على الاستعارة والرمز بصفة عامة^(٣)، نحو قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مُستهلِّ خلافته: ((إِنِّي قائل كلماتٍ فأمنوا عليهن: إنما مثل العرب مثل جملٍ أنفٍ^(٤) أتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده، وأما أنا فوربِّ الكعبة لأحملنهم على الطريق))^(٥).

في حين أنَّ «حجاج المرء بالمثل يعني أنه يفترض وجود أمور منتظمة - قابلة للتقعيد - تُقدّم الأمثلة تجسيداً لها»^(٦)، فإنَّه يكثر أن يكون موضوع المثل تيسير أمر فهم القاعدة استناداً إلى حالة تطبيقية مُصادقٍ عليها سلفاً، ذلك أن نفوس المتلقين كلفَةٌ بالمحسوسات. والمتأمل في هذا المثل المحسوس يجد أنه قد شكّل تصريحاً ظاهراً بخَطِّته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الخلافة، أو القاعدة التي سببني عليها سياسته، فهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القائد المقدم العليم بما يُصلحُ حالهم، وهم المؤتمنون به، فمسؤولية التقدير والتدبير والإرشاد هي مسؤولية الخليفة من الدرجة الأولى، كما أن مسؤولية الرعية هي الطاعة والاستجابة لأوامر الخليفة واجتناب ما عنه ينهى^(٧).

لقد تضمّن هذا المثل أبلغ أنواع الاحتجاج وأوفى صور أداء المعنى؛ من خلال أداء المعنى

(١) ينظر: الخطابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مرجع سابق، ص ٣٨-٣٩.

(٢) ينظر: الحجاج الخطابي: أسسه وتقنياته من خلال (ثمرات الأوراق) لابن حجة الحموي، مرجع سابق، ص ٢٤٦.

(٣) ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ص ٨٩.

(٤) الجملُ الأنفُ: الدليل المؤاتي، الذي يأنف من الزجر والضرب، ويعطي ما عنده من السير عفواً سهلاً. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٣، ص ٤٥.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢١١.

(٦) الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١٨٧.

(٧) ينظر: أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص ١١٥. والحجاج الخطابي: أسسه وتقنياته من خلال (ثمرات الأوراق) لابن حجة

الحموي، مرجع سابق، ص ١٥٨، ٢٥١.

المقصود بطريقة محسوسة مُجَرَّبَة - خالية من جفاف المنطق - ترمز إلى أنَّ صلاح الرِّعية إمَّا هو بالانقياد التام للخليفة والالتزام بأمره؛ فهو أكثر الناس وعيًا بمصلحتهم، وأشدَّهم حزمًا في الأخذ على أيديهم إلى طريق نجاتهم^(١).

في ضوء ما سبق تتضح الأهمية الحجاجية للمثل؛ بفعل تأثيره الناتج عن تقريب المقصود إلى أذهان المتلقين وكشف العواقب والمآلات؛ ذلك أنه ومن أجل تأسيس قاعدة محدَّدة فإنَّ المتلقين في حاجة إلى شاهدٍ عقليٍّ معلوم، يُبرر الفكرة ويُرهن على صحة مذهب الخطيب فيها، وإذ عُرفَت القيمة الحجاجية للمثل فإنَّ طبيعة المدوَّنة تقتضي أن ينتقل الباحث إلى نوع آخر من الحجج، وهو: الحجاج بالأقوال والقواعد الحكيمية.

٢-١-١- الحجاج بالأقوال والقواعد الحكيمية:

وتمثِّل حجج هذا النوع الأقوال المتناغمة والمتجانسة، الموجزة العبارة، الغنيّة المعنى، السهلة الحفظ، الناتجة عن التجربة والمعاناة والخبرة، المُلقاة في سبيل الهداية أو الإرشاد أو تقويم الاعوجاج، وذلك داخل منظومة الحياة العملية والتَّصرف في حَقليِّ الدِّين والدُّنيا^(٢).

إنَّها نظرات سديدة، وخبرات صالحة، وخطرات صائبة، أنشئت لتكون صالحة للتداول والتواتر، والاتساع والرسوخ في اللاشعور الجمعي، إلى حيث أصبحت على هذا المستوى من القوَّة والسلطة والتأثير والكلية والتعميم والإطلاق^(٣).

وقد عاين الباحث جُملةً من شواهد هذا النوع من الحجج في المدونة، ولعلَّ من خير تلك الشواهد قول هانئ بن قبيصة الشيباني محرضاً قومه يوم ذي قار: ((يا معشر بكر، هالكٌ معذورٌ خير من ناجٍ فرورٍ، إنَّ الحذر لا يُنجي من القدر، وإنَّ الصبر من أسباب الطُّقْرِ، المنية ولا

(١) ينظر: أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص ١٢٢. والخطابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مرجع سابق، ص ٣٨. ورسالة: الخطاب الإقناعي في ضوء التواصل اللغوي: (الحجاج بن يوسف الثقفي) نموذجًا، مرجع سابق، ص ٢٨٩.

(٢) ينظر: أطروحة: حجاجية الحكمة في الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص ٧٠. ومن قضايا النقد القديم: الحكمة والمثل؛ المفهوم والعلاقة والتفويض، محمد إقبال العروي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد ٣٤، ص ٥٥ (يوليو ٢٠٠١م).

(٣) ينظر: حجاجية المناظرات في كتاب: (الإمتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي، خديجة خمقاني، رسالة ماجستير، ص ٤٨، جامعة قاصدي مرباح - ورقلة، الجزائر (٢٠١٥-٢٠١٦م).

الدينية، استقبال الموت خيراً من استدباره، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر، قاتلوا فما للمنايا من بد))^(١).

حيث يلحظ المتأمل في هذه الخطبة عددًا من الأقوال المرصوفة في تجانس وتناغم وتلاؤم يوحي بأهميتها ويهدف إلى حفظها ونقلها، ودأب الناس - في كل حين - مصادقة مثل هذه الأقوال وتقبلها وتداولها؛ لأنها حصيلة تجارب العقلاء، ولأنها مدعمة - بنائياً - بما يضمن بقاءها، ويبسّر تبادلها، ويقوي الشعور بصحة محتواها^(٢).

وإذا أخذ بعين الاعتبار ضيق مقام هذه الخطبة، وحاجة المقاتل إلى التخفف والاقترار على ما سهل حمّله وعظم أثره، فإنّ الحكيم التي أدرجها الخطيب جاءت مجانسةً في تركيبها لهذا المقام الضيق والحرج، من حيث إنّها أقوالٌ تحريضية جامعة مشحونة بالمعاني التي تُرغّب المتلقين في الثبات على القتال وتُنقِزهم من الإدبار عنه.

ومما رأى الباحث أنّه جدير بالذكر من شواهد هذا النوع من الحجج، قول الأحنف بن قيس رَضِيَ اللهُ فِي إِحْدَى خَطْبِهِ - بعد أن حمد الله وأثنى عليه - ((إِنَّ الْكِرْمَ يَمْنَعُ الْحَرَمَ، مَا أَقْرَبَ النِّقْمَةَ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ، لَا خَيْرَ فِي لَذَّةِ تُعْقِبُ نَدَمًا، لَنْ يَهْلِكَ مَنْ قَصَدَ، وَلَنْ يَفْتَقِرَ مِنْ زَهْدٍ، رُبَّ هَزَلٍ قَدْ عَادَ جِدًّا، مِنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ وَمَنْ تَعَزَّمَ عَلَيْهِ أَهَانَهُ، دَعُوا الْمَزَاحَ؛ فَإِنَّهُ يُورِثُ الضَّغَائِنَ، وَخَيْرَ الْقَوْلِ مَا صَدَّقَهُ الْفِعْلُ، احْتَمَلُوا لِمَنْ أَدَلَّ عَلَيْكُمْ^(٣)، واقبلوا عذر من اعتذر إليكم، أطع أخاك وإن عصاك وصله وإن جفاك، أنصف من نفسك قبل أن يُنتصف منك، وإيّاكم ومشاورة النساء، واعلم أنّ كفر النعمة لؤمٌ وصحبة الجاهل شؤمٌ، ومن الكرم الوفاء بالذمم، ما أقبح القطيعة بعد الصلة والجفاء بعد اللطف والعداوة بعد الوداء. لا تكوننّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل، واعلم أنّ لك من دنياك ما أصلحت به مثواك؛ فأنفق في حقّ ولا تكوننّ خازنًا لغيرك، وإذا كان الغدر في الناس موجودًا فالثقة بكلّ أحد عجز، اعرف الحق لمن عرفه لك، واعلم أن قطيعة الجاهل تعدل

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٧.

(٢) ينظر: حجاج الإيهام والمغالطة في الخطابة العربية: (منتخبات من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي)، مرجع سابق، ص ٦٦.

(٣) أدلّ عليكم: وَتَقَّ بِمَحَبَّتِكُمْ فَأَفْرَطَ عَلَيْكُمْ. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٨، ص ٤٩٧.

صلة العاقل))^(١).

فلئن كان الأحنف بن قيس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مثلاً يجتذى في الحلم وفي الأدب وفي العلم وفي الحكمة، فإنَّ هذه الخطبة قد جاءت في قالبٍ حَكَمِيٍّ خالصٍ فتجلَّت عاليةً في قيمتها التوجيهية والتقويمية؛ من حيث إرشاد المتلقين إلى الصواب وأمرهم بالصلاح وصدّهم عن خوارم المروءة، فمتى أجال الناظرُ نظره في جُمَل تلك الخطبة فإنَّه سيجد قُوَامَهَا أقوالاً تقويمية غنيّةً، وحكماً إرشادية جامعةً، نُظِمَتْ إلى بعضها على هيئة مبادئٍ حجاجية مسلّم بها، وحقائق سلوكية مُشتركة، تُمثِّل معاني كليّة عميقة صقلتها الخِبرات وأحكمتها التجارب^(٢).

إنَّ «التوجيه المباشر الذي تمارسه الحِكم، هو الذي حدا ببعض الباحثين إلى تشبيهها بقواعد السلوك؛ التي تُقَرُّ أو تُنكِرُ هذا المسلك أو ذاك بشكل سافر صريح، وقد يكون ما فيها من التوجيه المباشر هو الذي دفع إلى ربطها بالحُكم؛ بمعنى (القضاء) ففسرت به، وفُسِّرَ بها، حتى لكأنَّ الحِكمة حُكْمٌ للشَّيء أو عليه»^(٣).

وعلى منوال خطبة الأحنف، خطبةُ (المأمون)؛ إذ قال بعد أن ورده نَعِي (الرشيد): ((إنَّ ثمرة الصَّبْرِ الأجر، وثمره الجَزَعُ الوِزْر، والتسليم لأمر الله-عَزَّ وَجَلَّ-فائدةٌ جليلةٌ وتجارةٌ مُرَبِّحةٌ، فالموت حوضٌ مُورودٌ وكأسٌ مشروبٌ... يا أهل الدنيا: الموتُ نازلٌ، والأجلُ طالبٌ، وأمسِ واعظٌ، واليومُ مُعْتَنَمٌ، وغدٌ مُنْتَظَرٌ))^(٤).

لقد كان المأمون على وعيٍ تامٍّ بما يقتضيه هذا المقام من الوعظ والتذكير والاختصار، مما حداه إلى إيراد منتقيات الحكم المشتركة، ذات العبارة الموجزة والتراكيب الموقّعة، لتكون بُلغته إلى تحقيق النتيجة المقصودة من أطروحته.

ويجد الناظر في هذه الأقوال يُسر حفظها وسهولة تداولها، ذلك من جهة اعتمادها على الاختزال المُضاعف الذي يحميها من التغيير والتبديل، بحيث إنَّ تعرّضها للتَّحريف-زيادةً أو

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٣٥٩.

(٢) ينظر: الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، ط ١، ص ٨٢ (مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ٢٠١٠م).

(٣) الأمثال في القرآن الكريم، محمد جابر الفياض، ط ٢، ص ١١٠ (الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ١٤١٥هـ).

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٢٠.

نقصاناً- يُفقدُها جزءاً من قيمتها، ويذهب بجزءٍ كبيرٍ من رونقها، ولا شكَّ في أنَّ هذا الاكتمال هو سرُّ جمالها وقوتها في التأثير والإقناع^(١).

ومما جرى مجرى تلك الخطب، خطبة الجمعة لبعض الأعراب- وقد وُيِّ في قومه ولاية- حيث يقول: ((إنَّ الدنيا دار بلاغ والآخرة دار قرار، فخذوا لِمَقَرِّكُمْ في مَمَرِّكُمْ، ولا تَهْتَكُوا أَسْتَارَكُمْ عند من لا تخفى عليه أسراركم، وأُخْرِجُوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم؛ ففيها حَيِّتُمْ ولغيرها خُلِقْتُمْ، اليوم عمل بلا حساب، وغداً حساب بلا عمل، إنَّ الرجل إذا هلك قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قَدَّم؟ فله آباؤكم! قَدِّمُوا بعضاً يكون لكم قَرَضاً، ولا تَخْلِفُوا كُلاًّ يكون عليكم كَألاً^(٢))).^(٣)

فإنَّ كان هناك «نزوعٌ واضحٌ في الخطابات الحجاجية -[عموماً]- إلى استدعاء المشترك؛ أي: الاستناد إلى ما يشكِّل موضوع اتفاق بين المتلقين أو يمثِّل جملة من المعارف المشتركة الشائعة بينهم؛ ذلك أنَّ للمشارك سلطته على النفوس»^(٤)، فإنَّ خطبة هذا الأعرابي قد بُنيت على جُملةٍ من الأقوال والحكم المشتركة في معناها، الخفيفة في مبناها، فجاءت مكتملةً غايةً في الوعظ وتنبية الغافلين.

ولئن فات هذا الأعرابي الاستشهاد بالقرآن والحديث والشعر، فإنَّه لم يفتِّه تعزيز أطروحته بتلك الأقوال المكتنفة ذات العائد الحجاجي المضمون؛ إذ هي بدواتٌ حازمةٌ وخواطر سامية جدية بتعويض هذا النقص، بحيث أنقذت هذا الخطيب المُخَفِّ، وأصبحت طريقه الفاعل إلى الإقناع والتأثير.

وتبقى حجج الحكمة حججاً خفيفة اللفظ، ثقيلة المعنى، فائقة القوَّة، ثابتة الجدوى، وبالنظر إلى الخطب-عامَّةً- من جانب كونها نصوصاً شفاهيةً بامتيازٍ، فإنَّ الناظر يجد أنَّ تلك التراكيب اللغوية المركزة، هي خير ما يُمكن أن يستعين به الخطيب في الإبلاغ والتبليغ؛ من حيث تركيزها وقابليتها للحفظ والنقل والتداول.

(١) ينظر: الأمثال في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ١١٣.

(٢) الكل: الثقل الذي لا خير فيه. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٠، ص ٣٤١.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٢٤٣.

(٤) الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، مرجع سابق، ص ٢٨٧.

وفي حين وقف الباحث على عدد من الحجج الجاهزة ذات السلطة الكونية المعتمدة، فإنه سيتحوّل فيما يلي إلى دراسة نوعٍ من حجج السلطة ذي كيانٍ خاصٍ؛ خارجٍ عن حيزِ الحجج الجاهزة المنقولة.

٢-ز-الحجاج بسلطة الإجماع:

ويشمل الحجاج بسلطة الإجماع الحجج المبنية على الاتفاق حيال حكمٍ حادثٍ من الحوادث أو أمرٍ من الأمور^(١)؛ مما يعني أنّ نظر الباحث سيكون مقصوراً على ما عدل إليه الخطباء من أحكام الإجماع؛ لحمل المتلقين على الإذعان والتسليم؛ انطلاقاً من أنّ سلطة الإجماع «هي سلطة السائد والكثير في مواجهة المتفرّد والشاذّ والقليل، فحسب المتكلم أن يتحدث عن إجماعٍ أو أكثريةٍ تؤيد موقفه حتى يمتلك سلطة انتمائه للإجماع، فتكون حدّته بذلك أقوى وأكثر إقناعاً»^(٢).

ومما وقف عليه الباحث من قبيل هذه الحجّة، ما ورد في خطبة عمر رضي الله عنه يوم (السقيفة)، حيث يقول: ((هيئات لا يجتمع اثنان في قرن^(٣))، والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم؛ ولكنّ العرب لا تمتنع أن تويّ أمرها من كانت النبوة فيهم ووليّ أمورهم منهم، ولنا بذلك على من أبي من العرب الحجّة الظاهرة والسلطان المبين))^(٤).

إذ اتّكأ عمر رضي الله عنه في إقناع متلقيه على حجّة الإجماع؛ فالعرب قاطبة لن يُسلّموا أن يكون خليفتهم من غير قريشٍ خاصةً، ومتى خولفَ إجماع أمة العرب فإنّ الأمر لن يستقيم أبداً؛ ذلك أنّ جمع الأمة تحت سلطة خليفةٍ واحدٍ لا يمكن أن يُتوسّل إليه بشقّ الصف أو كسر الاتفاق.

ولئن ذهب نفرٌ من الأنصار رضي الله عنهم إلى غير هذا المذهب، فإنّ أحقية قريش ثابتة ومؤكدّة بموجب هذا الإجماع الذي وصفه رضي الله عنه ب(الحجّة الظاهرة، والسلطان المبين)، وما سوى الإجماع فإنّهُ شذوذٌ عن الحقّ لا يمكن أن يُبرّر خروج الخلافة من أيدي قريشٍ.

(١) ينظر: كتاب المنهاج في ترتيب الحجج، أبو الوليد الباجي، تحقيق: عبد المجيد تركي، ط ٣، ص ٢١ (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠م).

(٢) الحجج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٩١.

(٣) القرن: الحبل. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٥، ص ٥٤٥.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٧٦.

ويَدْخُلُ في عداد شواهد هذه الحجة، خطبة جرير بن عبد الله البجلي وقد أوفده عليٌّ إلى معاوية-رضوان الله عن الصحابة أجمعين- إذ كان مما قاله في خطبته تلك: ((أيها الناس، إنَّ أمر عثمان قد أعيأ من شهبه، فكيف بمن غاب عنه، وإنَّ الناس بايعوا عليًّا غير واطر ولا موتور^(١)، وكان طلحة والزبير ممن بايعاه، ثم نكثا بيعته على غير حدث، ألا وإنَّ هذا الدين لا يحتمل الفتن، وقد كانت بالبصرة أمس روعة^(٢) مُلِّمة إنَّ يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس، وقد بايعت الأمة عليًّا، ولو ملكنا والله الأمور لم نختر لها غيره، فادخل معاوية فيما دخل فيه الناس))^(٣).

لم يكن مقام هذه الخطبة مقامًا يسيرًا ولا سهلًا؛ فقد شَجَرَ بين الأمة ما يستدعي بذل كلِّ جهدٍ إقناعيٍّ في سبيل ردِّ الأمور إلى نصابها من الاجتماع واللَّحمة، وكان من براعة جرير رضي الله عنه أن بنى خطبته تلك على حجة الإجماع، لعلمه بما لها من سلطة وأثر في مواجهة شكوك الخصوم وإنكارهم.

وإذا كانت الأمة لا تجتمع على ضلالة^(٤)، وفي حين أنَّ انتهاك الإجماع والخروج عنه غير مقبولٍ شرعًا ولا عقلاً، فإنَّ إجماع الأمة على عليٍّ رضي الله عنه سلطةٌ كبرى يقع دونها كلُّ منفردٍ برأيه أو مخالفٍ بفعله وقوله، أو متَّبِعٍ غير سبيلها.

إنَّ من أهمِّ خصائص هذه السلطة الإجماعية، حصرَ المتلقي وإقحامه في الدخول بما ينفي عنه عيب الشذوذ والمخالفة، وإنَّ عنَّ لمعترض أن يعترض على هذا الإجماع بقوله: إنَّ إجماع الأمة على خلافة عليٍّ رضي الله عنه يتعدَّدُ انعقاده مع وجود المخالفين ولو كانوا قلةً، فإنَّ من اليسير ردُّ هذا الاعتراض بالقول بأنَّ انعقاد الإجماع قد لا يتمُّ حين وجود رأيٍ مخالفٍ، أمَّا إنَّ وُجِدَ الرأي المخالف بعد انعقاده فمن المنطق التسليمُ لهذا الإجماع وعدم القدح فيه^(٥).

(١) غير واطر ولا موتور: غير ناقص ولا منقوص. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٤، ص ٣٣٧.

(٢) الرَّوْعَةُ: الفَرْعَةُ، وَهِيَ المَرَّةُ الواحدةُ من الرَّوْعِ: الفَرْع. ينظر: السابق، ج ٢١، ص ١٢٩.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣١٠.

(٤) ينظر: قواطع الأدلة في الأصول، منصور بن محمد السمعاني، تحقيق: محمد حسن الشافعي، ط ١، ج ١، ص ٤٦٨ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ).

(٥) ينظر: توظيف ادعاء الإجماع في الخطاب الحجاجي عند أبي حيان الأندلسي: دراسة تحليلية، فوزية العتيبي، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية، المجلد ٢٠، العدد ٢، ص ٢٧٩ (٢٠٢٠م).

ومثله، قول عدي بن حاتم وكان أحد وفدٍ أوفدهم عليٌّ إلى معاوية-رضي الله عن الصحابة أجمعين-: ((أما بعد: فإننا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله-عز وجل-به كلمتنا وأمتنا، ويحقن به الدماء، ويؤمن به السبل، ويصلح به ذات البين، إن ابن عمك سيد المسلمين؛ أفضلها سابقة، وأحسنها في الإسلام أثرًا، وقد استجمع له الناس، وقد أرشدهم الله عز وجل بالذي رأوا، فلم يبق أحد غيرك وغير من معك، فانتبه يا معاوية، لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل))^(١).

فقد شكّل الإجماع في هذه الخطبة نقطة فاصلة تحدّد الحق وتبين الخلل المنطقي الذي وقع فيه كلٌّ من خرج عن نطاق هذا الإجماع، مما يُبرّر القول بأنّ مَكْمَن القوّة في أطروحة عديّ رضي الله عنه هو الاحتجاج بإجماع الأمة على علي رضي الله عنه.

وعلى حدّ قول (السمعيّ) فإننا «إذا تعرّفنا حال الأمة وجدناهم متفقين على تضليل من يخالف الإجماع وتخطّته، ولم تزل الأمة ينسبون المخالفين للإجماع إلى المروق وشق العصا، ومحادّة المسلمين ومشاقّتهم، ولا يعدّون ذلك من الأمور الهينة، بل يعدّون ذلك من عظام الأمور وقبيح الارتكابات، فدلّ أنهم عدّوا إجماع المسلمين حجة يُجرّم مخالفتها»^(٢).

وعلى منواله، ما جاء في معرض خطبة معاوية رضي الله عنه إذ خطب أهل المدينة بشأن البيعة ليزيد، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وذكر فضل يزيد: ((يا أهل المدينة، لقد هممتُ ببيعة يزيد، وما تركت قرية ولا مدرة^(٣) إلا بعثت إليها ببيعتي، فبايع الناس جميعًا وسلّموا، وأخّرت المدينة ببيعتي، وقلت: بيضتُهُ^(٤) وأصله ومن لا أخافهم عليه، وكان الذين أبوا البيعة منهم من كان أجدر أن يصله، ووالله لو علمت مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له))^(٥).

(١) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٣٣١.

(٢) قواطع الأدلة في الأصول، مرجع سابق، ص ٤٦٩.

(٣) المدرة: القرية. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٤، ص ٩٦.

(٤) البَيْضَةُ: حَوْزَةُ كُلِّ شَيْءٍ؛ يُقَالُ: اسْتَبِيحْتَ بَيْضَتَهُمْ، أَي: أَصْلَهُمْ وَمَجْتَمِعَهُمْ، وَمَوْضِعَ سُلْطَانِهِمْ وَمَسْتَقَرَّ دَعْوَتِهِمْ. ينظر:

السابق، ج ١٨، ص ٢٥٧.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٥٨.

حيث اعتمد معاوية رضي الله عنه في بيان أحقية ابنه يزيد على دعوى الإجماع وشدوذ أهل المدينة عن هذا الإجماع، وهو رضي الله عنه إذ يعتمد هذا الأسلوب في الحجج إنما يشير إلى أن الإجماع أعلى سلطة من أهل المدينة، ولو كانوا أصلاً في هذا الباب.

إن الخطيب كثيراً ما يجد نفسه مفتقراً إلى إخراج الرأي الخلافي المشكوك فيه، الباعث على الرفض والاعتراض، مخرج الرأي المسلم المجمع عليه، ذلك أن من شأن هذه الآلية الإقناعية أن تُخفي موضع الاعتراض على الأطروحة، وترفعها عن الشك والقدح فيها، فتجعلها محلاً للإلزام والإذعان، فالمرء مثلما يخشى شنيع الآراء ويحذرهما، فإنه لا بد أن يخشى إنكار الإجماع أو عدم قبوله^(١).

ومتى عُلِمَ أن الأصل في إجماع الأمة الإسلامية أن يكون مبنياً على أسس شرعية محكمة بنصوص الكتاب والسنة، فإنها لا تُستغرب قوّة هذه الحجّة وتضاعف سلطتها، ذلك إلى ما في تلك الحجّة من موازنة منطقية ظاهرة تكشف أقلية تيار المعارضة وتبين مدى انحرافه وشدوذه.

*** **

وبعد هذا التطواف والتنقل بين العديد من مظاهر حجج السلطة، فإن الباحث يطمئن إلى أنه ليس ثمة أطروحة ناجحة تخلو من سلطةٍ مُعيّنة، بل إن حجج السلطة قد تتعاضد وتتآزر في أداء المعنى نفسه.

إن الخطيب مهما بلغ من القوّة والمنعة والتمكين، فإنه لا يمكن أن يكتفي بنفسه عن حجج السلطة الخارجية؛ درءاً لثهمة القسر والإقناع، كما أن بوسع الخطيب غير ذي السلطة، أن يستدرك بحجج السلطة الخارجية ما فاتته من السلطة الذاتية.

ولعلّ هذا المبحث جاء كافياً في الدلالة على طغيان المُشتركات على حجج السلطة بما يبرّر القول بأن استدعاء المشترك والمتفق عليه يُشكّل سمةً من سمات الإقناع في الخطبة العربية؛ ذلك لما تشتمل عليه المُشتركات من المصادقة والقبول المسبق، ولئن كانت النفوس تنفر من الطارئ والجديد الذي لم يُجرب، فإنها قد جُبلت على الميل إلى المعلوم والثوق بالمعتاد.

(١) ينظر: الحجج الجدلي: خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي، عبد الله البهلول،

ولا يُخطئ مَنْ يذهب إلى أنه كلّما نضب معين الخطيب أو شارف، فإنَّ حجج السلطة الخارجية (الغيرية) تأتي بوصفها بديلاً يزيد الخطبة قوة، ويُضفي عليها حيوية وتدقُّقاً، ويسمها بسمّة المشترك المجمع على صحّة مذهبه.

ويمكن القول في نهاية هذا المبحث: إنّ كلّ خطيب لا يمكن أن يخرج عن مرتبةٍ من إحدى ثلاث مراتب: الأولى: أن يفوق متلقيه في المرتبة. والثانية: أن يتساوى مع متلقيه في المكانة، والثالثة: أن يكون في مقامٍ متدنٍّ عن مقامٍ متلقيه. وبفعل هذا الاختلاف بين المراتب، فإنَّها تتفاوت حاجة الخطيب إلى حجج السلطة الخارجية؛ فليس الخطيب المتنفِّذ والمقتدر مثل الخطيب الخاضع والمسير.

وبعد أن وقف البحث على جملةٍ من الحجج، فإنَّه لا بُدَّ له من الوقوف على الدور الحجاجي لموقع الحجّة من بنية الخطبة، ودراسة الترتيب التفاضلي لتلك الحجج من جهة سلّميتها وألويتها في الذكر، وهو ما سيختصّ به المبحث التالي.

المبحث الرابع: ترتيب الحجج:

لئن ظهر في المباحث السابقة من هذا الفصل أنّ الحجج ذات ضروب مختلفة ومستويات متفاوتة، وفي حين علم أنّ الحجج قد تردّ متعاضدةً متآزرةً يكمل بعضها بعضاً في سبيل تأييد الأطروحة نفسها، فإنّه يتحتمّ أن يكون هذا المبحث مختصاً بدراسة الجانب الترتيبي للحجج؛ استناداً إلى أنّ كلّ خطابٍ حجاجيٍّ لا بدّ أن يستند في بنائه إلى نظامٍ يزيده تصديقاً ويجعله أكثر قبولاً، وهو نظامٌ مقصودٌ يتّصل -بطريقة أو بأخرى- بالبنية الذهنية الجمعية الصانعة لعموم الخطابات؛ ذلك أنّ لكلّ مجتمعٍ بشريٍّ ترتيباته وتفضيلاته المشتركة والمحدّدة^(١).

إنّه لا يكفي -كما يُقرّر أحد الباحثين- «أن تُعرض الأدلة لكي يحصل الإقناع وتُخاطب الانفعالات وتُرجح الاحتمالات، وإنما ينبغي أن تُخضع لترتيب معين يقوي من قدرتها على الإثبات والتغيير والإنشاء؛ ذلك أنّ الحجاج وطيد الصلة بالمقام، والحجج تكون أقوى عندما توضع في المكان والزمان المناسبين»^(٢).

وتأسيساً عليه فإنّ هذا المبحث سيُعنى بدراسة ترتيب الحجج من جهتين اثنتين:

الأولى: موضع الحجّة من النص؛ ذلك أنّ لكلّ جزء من النصّ خصوصيته ودوره في الإقناع.
الثانية: دراسة الترتيب التفاضلي للحجج؛ فكلّ تزاحمٍ للحجج يفترضُ سلّميّةً ما؛ تُعزّزُ الدور الحجاجي لتلك الحجج وتزيد من فاعليته.

وإذا كانت الخطابات في عمومها تتشكّل من مفاصل ثلاثة، هي: (المقدّمة، العرض، الخاتمة)، فإنّ الباحث سيُدرس الترتيب مُعتمداً تقسيم خطب المدونة إلى تلك المفاصل الرئيسة:

(١) ينظر: الحجاج في قصص الأمثال القديمة، مرجع سابق، ص ١٤٣. ورسائل الإمام علي في نهج البلاغة: دراسة حجاجية،

مرجع سابق، ص ٨٢.

(٢) أطروحة: أساليب الحجاج في أدب القاضي الفاضل البيهقي، مرجع سابق، ص ٢١٤.

١- حجج المقدمة:

تُعَدُّ المقدمة واجهة الخطبة وعتبتها العليا ومحدّد قبولها الأول، وهي إلى ذلك مظنة الثبات والاستقرار في أذهان المتلقين؛ ذلك أنّها أوّل ما يقع في آذانهم، ومن خلالها يمكن للمتلقّي الإجابة عن الاستشكال الضمني المفترض الذي يشغل أفق انتظار المتلقّي (لماذا يقف الخطيب خطيباً؟)، وهي إلى ذلك مكمن التلخيص والإثارة والإلغاز الداعي إلى الحلّ والتتبع، ومتى أحسن الخطيب استغلال مقدمته فإنّها ستتحقق الغاية الحجاجية منها؛ من جهة لفت نظر المتلقّي وشدّ انتباهه، وتمهية سمعه وإقناعه بالتدرّج مع الأطروحة^(١).

وبتتبع مقدمات الخطب في المدونة، فإنّ الباحث قد وجدها محلاً لظهور عددٍ من الحجج، ولعلّ من أعلى حجج المقدمة ظهوراً: الحجة القرآنية؛ إذ استدعى الحجاج تعزيز عددٍ من مقدمات الخطب ودعمها بهذه الحجة، على شاكلة قول صالح ابن مسرّح في إحدى خطبه: ((**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**)^(٢)، اللهم إنا لا نعدّل بك، ولا نحفد^(٣) إلا إليك، ولا نعبد إلا إياك، لك الخلق والأمر، ومنك النفع والضرر، وإليك المصير، ونشهد أن محمداً عبدك الذي اصطفيته، ورسولك الذي اخترته وارتضيته لتبليغ رسالاتك ونصيحة عبادك، ونشهد أنه قد بلغ الرسالة، ونصح للأمة، ودعا إلى الحق، وقام بالقسط، ونصر الدين، وجاهد المشركين، حتى توفاه الله ﷻ. أوصيكم بتقوى الله، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، وكثرة ذكر الموت، وفراق الفاسقين، وحب المؤمنين؛ فإنّ الزهادة في الدنيا ترغب العبد فيما عند الله))^(٤).

فقد استفتح الخطيب خطبته بهذه الحجة القرآنية؛ توطئةً وتمهيداً لأطروحته الوعظية؛ إذ إنّ في هذه الآية من معالم عظمة الله وجلالته ما يكفي العاقل ويأخذ بلبّ الحائر، ولا خلاف في

(١) ينظر: الخطابة، أرسطوطاليس، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، ص ٢٣٠، ٢٣٢ (دار القلم، بيروت، ١٩٧٩م). والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق، ج ٣، ص ٩٨. والتعريفات، مرجع سابق، ص ٤٩. والخطابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مرجع سابق، ص ١٠٧. والبلاغة العربية: أسسها وعلومها وفنونها، مرجع سابق، ج ٢، ص ٥٥٩.

(٢) سورة: الأنعام، الآية: ١.

(٣) إليك تحفد: أي تُسرّع في العمل والخدمة. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٨، ص ٣٢.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٤٥٩. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٢٩٥. وج ٢، ص ٦٣. ج ٣، ص ١١٩.

جدوى استفتاح الموعدة بالآيات الدالة على عظمة الله وجلال قدره ﷺ إذ إنَّ في ذلك ترفيقاً ظاهراً للقلوب، وتهيئاً كبيراً للنفوس، يُحَفِّزُ المتلقين على قبول الموعدة والعمل بها.

إنَّ لتصدير الخطبة بالآية القرآنية أثره المؤثِّر والمُجدي، ذلك بفضل ما تحمله الآية من سلطة دينية تجعلها عتبةً فاعلةً-صالحة لكلِّ زمان ومكان-تبعث الطمأنينة والارتياح والثقة في نفوس المتلقين، وتثير عواطفهم وتستحثهم إلى تحقيق الغاية المرمي إليها^(١).

كما تكرر في المدونة ورود القول المتواتر بصفته عتبةً سابقة تُشير إلى مقصد الأطروحة وتهيئ له، وخيرٌ مثالٍ على ذلك ما استفتح به النبي ﷺ أول خطبة له بمكة، حيث يقول: ((إنَّ الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو عَزَزْتُ الناس جميعاً ما عَزَزْتُكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتنَّ كما تنامون، ولتبعثنَّ كما تستيقظون، ولتحاسبنَّ بما تعملون، ولتجزؤنَّ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإِنَّها لجنة أبدأ أو لنار أبدأ))^(٢).

فعلى حدِّ تقرير ابن جنِّي-فيما نقله عنه صاحب كتاب (إحكام صناعة الكلام)-فإنَّه «إذا كان المرسل حاذقاً، أشار في تحميده إلى ما جاء بالرسالة من أجله»^(٣)، ومَن أحذق من رسول الله ﷺ، إذ يُمهد لأطروحته بهذا القول الفاعل في الدلالة على الغرض الداعي إلى هذه الخطبة؛ ذلك أنَّه ﷺ رائدهم الصادق، وهم أهله الذين لا يمكن أن يخونهم أو يتوانى في دلائهم.

وإلى ذلك فإنَّ المتأمل في هذا القول الاستهلاكي يجده قولاً حكماً يشكّل مُلخَّصاً مُركِّزاً-للأطروحة-قائماً على الرمز والتكثيف الداعي إلى الاستكشاف وإذكاء روح المشاركة؛ بتحفيز المتلقين على تتبُّع جميع أجزاء الأطروحة؛ بحثاً عمّا يُفسِّرُ هذا القول الاستفتاحي، ويُبرِّزُ التقديم

(١) ينظر: الحجاج في النص الخطابي من فترة ما قبل الإسلام إلى أواخر العصر العباسي الأول: أساليبه ووظائفه، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١٤٧. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٣٥٥. وج ٢، ص ٢٨١، ٣٤١.

(٣) إحكام صناعة الكلام، محمد بن عبد الغفور الكلاعي، تحقيق: محمد رضوان الداية، ص ٦٦ (دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦م).

به^(١).

وكما يقول حازم القرطاجني، فإنَّ «تحسين الاستهلاكات والمطالع من أحسن شيء في هذه الصناعة، إذ هي الطليعة الدالة على ما بعدها...، وملاك الأمر في جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسباً لمقصد المتكلم في جميع جهاته»^(٢).

وقد يصرِّح الخطيب في مقدمته بحجة التعليل؛ لتكون سبيله إلى إقناع المتلقي بجدوى الأطروحة ومشروعيتها، نظير تعليل صالح بن عبد الجليل الذي استفتح به موعظته-سأفة الذكر- للخليفة المهدي، حيث يقول: ((إنَّه لَمَّا سَهَّلَ علينا ما توَعَّرَ على غيرنا من الوصول إليك، قُمْنا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله ﷺ بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي عند انقطاع عُذر الكتمان، ولا سيَّما حين اتَّسَمَتَ بميسم التواضع، ووعدت الله وحَمَلَةَ كتابه إثثار الحق على ما سواه))^(٣).

فإن كان لكلِّ شيءٍ سببٌ ولكلِّ فعلٍ دافعه، فإنَّ الخطبة-باعتبارها فعلاً قولياً- لا يُمكنُ أن تولد مكنتيةً بنفسها عن وجود سببٍ دافعٍ لها وعلَّةٍ تُبرِّزُ وجودها، ومتى عَلمَ المتلقي السبب المقنع الدافع للقول، فإنَّه يكون قد تلقَّى قيمةً تأثيرية عالية تربطه ببقية الأطروحة وتشده إليها.

إنَّ في معرفة المتلقي بالعلَّة احتراساً من التشتت، وقطعاً لجميع الظنون والاحتمالات غير المقصودة؛ فالمهمة محدَّدة والغرض معلوم، وليس أمامه سوى الانتقال مع الخطيب إلى صلب الأطروحة وفحواها.

ومن بين خطباء المدونة من اتخذ الحجة الشعرية طريقاً مثيراً ينفذ من خلاله إلى أطروحته، كفعل أبي جعفر المنصور في خطبته لما خرج عليه محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن رضي الله عنهما، إذ يقول:

((مالي أَكْفَكُفُ عَنْ سَعْدٍ وَتَشْتُمُنِي؟ وَلَوْ شَتَّمْتُ بَنِي سَعْدٍ لَقَدْ سَكَنُوا

(١) ينظر: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، مرجع سابق، ص ٦٠. وبراعة الاستهلال في المؤلفات، محمد الخراز، حولية: كلية اللغة العربية بالرقازيق، العدد ٣٠، ص ١٧٩٨ (١٤٣١هـ).

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، مرجع سابق، ص ٣٠٩-٣١٠.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٧٩. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٢٤٢، ٣٣٢. وج ٢، ص ٣٢٦.

جَهْلًا عَلَيْنَا وَجُبْنَا عَنْ عَدُوِّهِمْو لَبِئْسَتِ الْخَلَّتَانِ: الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ^(١)

أما والله لقد عجزوا عمّا قمنا به، فما عضدوا الكافي، وما شكروا المنعم، [فإذا حاولوا أشرب]^(٢) رَنْقًا^(٣) على غَصَصٍ^(٤)، وأبيت منهم على مضض، كلاً والله لا أصل ذا رحم حاول قطيعتها، ولئن لم يرضَ بالعفو لَيُطَلَبَنَّ مالم يوجد عندي، فليُبيقِ ذو نفسٍ على نفسه، قبل أن تمضي فلا يُبكي عليه^(٥).

لئن كان «أحسن الابتداءات ما ناسب المقصود»^(٦)، فلا أنسب لمقصود الخطيب من الاستشهاد بهذين البيتين، ذلك وإنّ لكسر توقّع المتلقي ومفاجأته بالابتداء بالشعر دورًا ملموسًا في الاستفزاز والاستثارة؛ من جهة إيقاد الشعور والتحفيز على المتابعة؛ بحثًا عن دواعي ورود الشعر في هذا الموضوع من الخطبة بالذات^(٧).

ولا يخفى ما تضمّنه هذان البيتان من كثافة، في المعنى والشعور، تدعو المتلقي إلى تقصّي كامل الأطروحة؛ للحصول على تفصيلٍ شافٍ لهذا المتضمّن المعنوي والشعوري المركّز، فضلًا عمّا في المفارقة الشعرية بين الحلم والقوة، والجهل والجبن، من إثارة للمتلقين، ولفتٍ لأنظارهم للوقوف على معالم تلك المفارقة وتحديد أقطابها.

ومع تنوع حُجج المقدمة وتعدّدها في المدونة، إلّا أنّها قد ظهرت متّفقة في أداء معنى التمهيد والتبرير والتركيز وجذب المتلقين وتحفيزهم على المتابعة والربط، مما يبرهن على أهميّة حجج المقدمة

(١) من البسيط، وهما من قصيدة لَقَعْبِ بن أمّ صاحب، (توفي بعد سنة ٩٦هـ)، يهجو فيها قومًا سماهم بني وهب، إلا أنّ الروايات جعلت البيت الثاني قبل البيت الأول مع اختلاف بسيط:

(ما لي أُسْكِنُ عن وهب وتشتمني ولو شتمت بني وهب لقد سكتوا).

ينظر: شعر قَعْبِ بن أمّ صاحب، جمع ودراسة: إبراهيم بن سعد الحقيّل، ط١، إلكترونية، ص ٤٩-٥١ (معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٣٣٩هـ).

(٢) ورد في: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: (فماذا حاولوا، أشرب)، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين (ت ٧٤٩هـ)، ط١، ج ٢٤، ص ١٨٩، (المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٣هـ).

(٣) رَنْقًا: كدّرًا. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٥، ص ٣٦٧.

(٤) غَصَصٌ بالماء: شَرِقَ به، أو وقف في حلقة فلم يكد يُسيغه. ينظر: السابق، ج ١٨، ص ٥٦.

(٥) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٣٠. ولزيد أمثلة، ينظر: ج ٢، ص ٢٨٨. ج ٣، ص ٣٠.

(٦) الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع، مرجع سابق، ص ٣٢٤.

(٧) ينظر: الخطابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مرجع سابق، ص ١١٠.

ودورها في الإقناع والتأثير، فمتى وُفِّقَ الخطيب إلى اختيار الحجة المناسبة للمقدمة فإنه يكون قد نجح في استمالة المتلقين وإقناعهم بسماع الأطروحة-على الأقل-وأخذها مأخذ الاهتمام، في حين أنّ الفشل في اختيار حجج المقدمة قد يعرّض الأطروحة إلى التهمش والردّ.

٢- حجج العَرَض:

وَيُمَثِّلُ العَرَضُ لُبَّ الخُطْبَةِ، وجوهرها، ومَتَّسَعُها الذي كثيرًا ما تتعاقد فيه الحجج وتنازُر؛ إثباتًا لفكرة الأطروحة ودفاعًا عنها وتفصيلًا لها، وإذا كان تنويع الحجج إجراءً معهودًا يتغيَّرُ زيادة الإثبات والإحاطة بجميع المخاطبين على اختلافهم، فإنَّ الباحث سُيَعْنَى -فيما يلي- بدراسة ترتيب الحجج العَرَضِيَّة؛ من جهة الاصطلاح الجمعي على بناء سلمٍ تفاضلي ينتظمها ويحدِّد أولويتها في الذكر، ومن جهة مواءمة الترتيب لما يتطلَّبه منطق العَرَض من تقديم وتأخير^(١).

والباحث يتفق في ذلك مع ما ذهب إليه صالح بن الهادي رمضان من «أنَّ الترتيب خصيصة من خصائص بناء العلاقات بين الأفكار داخل الخطاب، فتتنظيم الخطاب يستند إلى مبدأ الترتيب، ومبدأ الترتيب يراعي ما يريده المخاطب، ويراعي نظرتَه إلى الأشياء المرتبَّة، وفي كل ثقافة من الثقافات أو مذهب من المذاهب الفكرية يرتَّب المتخاطبون في أيِّ موضوع من الموضوعات آراءهم وأفكارهم بالاستناد إلى مرجعيات تلك الثقافة، أو ذلك المذهب في ترتيب الأشياء والنظر إلى الموجودات»^(٢).

وعلى حدِّ قول أحدهم ف«إِنَّ حِجَّةً مقنعة بالنسبة إلى جماعة معيَّنة قد لا يكون لها أي مفعول في جماعة مختلفة عنها؛ فالاستشهاد بآيات من القرآن قد يكون حاسمًا لكسب تصديق جماعة مسلمة، لكنَّ لن يكون له أيُّ أثر في جماعة غير مسلمة، بل قد لا يكون له معنى، إنَّ قوة الحججة تبقى رهينة بطريقة تلقِّيها»^(٣).

وبما أنَّ الغاية من الخطاب هي إقناع المتلقين، فإنَّ نظام عرض الحجج لا بد أن يكون خاضعًا لهذه الغاية بالذات، ويمكن القول بأنَّه يلزم استعمال أيِّ حجة من الحجج في اللحظة التي يمكن

(١) ينظر: الخطابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مرجع سابق، ص ١١٧. واللسان والميزان أو التكوثر

العقلي، مرجع سابق، ص ٢٧٦. والاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، مرجع سابق، ص ٦٢. والتواصل الأدبي

من التداولية إلى الإدراكية، مرجع سابق، ص ٩٧. وبمحت: البلاغة والعنف، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٢) التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية، مرجع سابق، ص ٩١.

(٣) الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ١١.

أن تكون فيها أشدَّ فاعلية^(١).

وستكون الشواهد فيما يلي مختصةً بالعرض ذي الحجج المتعددة؛ للوقوف على أهم الأسباب الدافعة إلى تقديم حجة على أخرى، ولعلَّ من خير ما يؤصّل قصدية الترتيب في المدونة، قول ميثم بن مثوب- في مقام إصلاح مرثد الخير بينه وبين سبيع بن الحرث-: ((أيها الملك، إنَّ من نَفَسَ على ابن أبيه الزعامة، وجَدَبُهُ^(٢) في المَقَامَةِ^(٣)، واستكثر له قليل الكرامة، كان قَرَفًا^(٤) بالملامة، ومؤتَبًا على ترك الاستقامة، وإنا والله ما نعتدُّ لهم بيدٍ إلا وقد ناهم منا كِفَاؤَها، ولا نذكر لهم حسنة إلا وقد تطلَّعَ منا إليهم جزاؤها، ولا يتفياً لهم علينا ظلُّ نعمةٍ إلا وقد قوبلوا بشرواها^(٥)، ونحن بنو فحلٍ مُقْرَمٌ^(٦)، لم تقعد بنا الأمهات ولا بهم، ولم تنزعنا أعراق السوء ولا إياهم، فعلام مطُّ الخدود، وخَزْرُ^(٧) العيون، والجخيف^(٨) والتصعُّر والبأو^(٩) والتكبرُ؟ ألكثرة عددٍ، أم لفضل جلدٍ، أم لطول مُعتقِدٍ؟ وإنا وإياهم لكما قال الأول:

لاه ابن عمك^(١٠) لا أفضلت في حسبٍ عني ولا أنت ديان فتخزوني^(١١)

(١) ينظر: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، مرجع سابق، ص ٦٤. والإمبراطورية الخطايبية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ٢٤٠.

(٢) جدبته: عابه. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٣٨.

(٣) المَقَامَةُ: القَوْمُ يجتمعون في المجلس. ينظر: السابق، ج ٣٣، ص ٣١٠.

(٤) قَرَفٌ بكذا: قَمِينٌ. ينظر: السابق، ج ٢٤، ص ٢٥٠.

(٥) شروى الشيء: مثله. ينظر: السابق، ج ٣٨، ص ٣٦٥.

(٦) الفحلُّ المُقْرَمُ: البعير الذي لا يُحمل عليه، ولا يُدَلُّ وإنما هو للفخلة والضراب. ينظر: السابق، ج ٣٣، ص ٢٥٦.

(٧) الخَزْرُ: النظر بِلحاظ العين، يفعله الرجل كبراً واستخفافاً بالمنظور إليه. ينظر: السابق، ج ١١، ص ١٥٦.

(٨) الجخيفُ: التَّكَبُّرُ. ينظر: السابق، ج ٢٣، ص ٧١.

(٩) البأوُ: الكِبْرُ والقَحْرُ. ينظر: السابق، ج ٣٧، ص ١٣٩.

(١٠) لاه بن عمك: لله ابن عمك، فحذف لام الجرِّ واللام التي بعدها. ينظر: السابق، ج ٣٦، ص ٤٩٧.

(١١) الديان: الحاكم أو السائس، وتخزوني: تسوسني. والمعنى: لا أنت مالك أمري فتسوسني. ينظر: السابق، ج ٣٥، ص ٥٧.

والبيت من البسيط، وهو من قصيدة لذي الأصبغ العدواني (توفي نحو ٢٢ قبل الهجرة) يصف فيها الخلاف الذي بينه وبين أحد أبناء عمومه. ينظر: ديوان ذي الأصبغ العدواني، تحقيق: عبد الوهاب محمد العدواني، ومحمد

الدليمي، ص ٨٨-٨٩ (مطبعة الجمهور، الموصل، ١٣٩٣هـ).

ومقاطع الأمور ثلاثة: حرب مبيرة^(١)، أو سلم قريرة، أو مداجاة^(٢) وغفيرة^(٣) ((٤)).

فقد أتى ميثم في عرض خطبته بعددٍ من الحجج المتتالية؛ مبتدئًا بحجة العدل، ثم المقارنة، ثم الشعر، ثم تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له، وبالنظر في الأساس الذي رُتبت بموجبه هذه الحجج، فإن الناظر يجده أساسًا منطقيًا واضحًا؛ ذلك أنه بعد أن أثبت الخطيب سلامة قلوبهم من خلال حجة العدل، ذهب ليضعف فكرة التساوي؛ متكئًا على حجة المقارنة، مرسخًا هذه الفكرة ببيت شعريٍّ ماثورٍ، خاتمًا تلك الحجج بحجة التقسيم التي تُحفز المتلقين على اختيار أسلم المقاطع الثلاثة (حرب مبيرة، سلم قريرة، مداجاة وغفيرة) وأنفعها لهم، وهي: السلم القريرة.

و«يُحدث تضافر الحجج إقناعًا قويًا إذا لم تكن موضع نقاش، وهو ما يحدث-بشكل لا يقبل الجدل-عندما يقوم هذا التضافر على النتائج التجريبية، فحين يُتوصل إلى النتيجة نفسها بواسطة مناهج مختلفة، فإن هذا التحابك، يُشكّل الأساس الأكثر صلابة للاستدلال الاستقرائي»^(٥).

ويُلاحظ في هذا الحشد المنطقي جريانه على نمطٍ سلّمٍ تصاعديٍّ؛ فقد بدا الخطيب متحوّلًا من الحجة الضعيفة إلى الحجة الأقوى، وتعدّ الحجج التصاعدية من المؤكّدات التي تُلحّ على معنى الأطروحة وتضاعفه وتزيده تقريرًا؛ بفعل ما يحصل بتصاعدها من تعيين وترسيخ^(٦).

وإذا كان متلقي الخطاب الشفاهي معرّضًا للتشتت والغفلة والنسيان-لاسيما عند امتداد الخطاب وتسلسله-فإنّ النظم التصاعدي للحجج يؤدي إلى الاستيثاق من ذهنه (المتلقي) وتحفيزه على المتابعة؛ إذ تتضاعف قوة الخطاب بقدر امتداده وتسلسله.

ومن شواهد ترتيب الحجج في العرض، قول زينب بنت عليّ رضي الله عنها في معرض ردها على

(١) مبيرة: مُهلكة. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٠، ص ٢٥٣.

(٢) المداجاة: الستز. ينظر: السابق، ج ٣٨، ص ٣٦.

(٣) الغفيرة: العذر والغفران. ينظر: السابق، ج ١٣، ص ٢٤٧.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ١١.

(٥) الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

(٦) ينظر: السلام الحجاجية في كلام الإمام الحسن عليه السلام، مروة حسام كاظم، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية بجامعة بابل، العدد ٤١، ص ١٠٩١ (كانون أول ٢٠١٨م).

يزيد بن معاوية: ((وقد أمهلت ونُقِست^(١)، وهو قول الله ﷻ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٢)، أَمِنَ الْعَدْلِ، يَا بَنَ الطَّلَقَاءِ^(٣) تخديرك نساءك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله ﷻ قد هتكت ستورهن، وَأَصْحَلت^(٤) صوتهن، مكتنبات تخدي بهن الأباعر^(٥)، ويحدو^(٦) بهن العادي من بلد إلى بلد، لا يُرَاقِبْنَ وَلَا يُؤَوِّينَ، يتشوّفهنَّ القريب والبعيد، ليس معهنَّ وليٌّ من رجالهنَّ؟))^(٧).

يظهر في هذا الجزء من عرض الخطبة تعاقب حجتين مهمتين هما: الحجة القرآنية، وحجة العدل، ولهذا التعاقب ما يُبرِّزه ويُؤصِّله؛ فبعد أن استوثقت ﷻ من قلب يزيد بالحجة القرآنية طالبته بالعدل والإنصاف، والمعاملة بالمثل، على أقلِّ الأحوال. ودون مزيد تفكّرٍ وفضلٍ تأمُّلٍ فإنه يتجلّى سبب تقديم الحجّة القرآنية القطعيّة على حجة العدل (الشبّه منطقيّة)، ذلك أنّ الخطيبية ﷻ لما رأت أنّها بإزاء سلطة قاهرة، تأبى التخطفة وتنفّر من الانتقاد، جابحتها بما يفوقها سلطة ويعلوها قوة.

وإذا كان كلُّ حجاجٍ يقومُ على علاقة ترابعية يُسمّى سلماً حجاجياً^(٨)، «إِنَّ مفهوم السُّلَم الحجاجي بتركيزه في الطابع المتدرّج والموجّه للأقوال، يُبيّن أن المُحاجّة ليست مُطلقة، إذ لا تتحدّد بالمحتوى الخبري للقول ومدى مطابقته لحالة الأشياء في الكون، بل هي رهينة اختيار هذه الحجّة أو تلك بالنسبة إلى نتيجة محدّدة، لذا فالحكم على المحاجة أساسه القوة والضعف، واعتبار التدرج فيه، لا الصدق والكذب»^(٩).

(١) التَّنْفِيس: السَّعة؛ يُقال: أَنْتَ فِي نَفْسٍ مِنْ أَمْرِكَ، أَي سَعَةٍ. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ١٦، ص ٥٦٤.

(٢) سورة: آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٣) الطَّلَقَاءُ: الذين أدخلوا في الإسلام كُزها. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٢٦، ص ١٠٢.

(٤) صَحَل: اِخْتَدَّ صَوْتُهُ فِي بَحِّحٍ. ينظر: السابق، ج ٢٩، ص ٣١٢.

(٥) حَدَى الْبَعِيرُ: أَسْرَعُ وَزَجَّ بِقَوَائِمِهِ. ينظر: السابق، ج ٣٧، ص ٥٣٩.

(٦) الحَدُو: الزجر والسوق. ينظر: السابق، ج ٣٧، ص ٤٠٨.

(٧) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٣٧.

(٨) ينظر: أطروحة: السلام الحجاجية في القصص القرآني: مقارنة تداولية، مرجع سابق، ص ١١٥.

(٩) المراتب الحجاجية في آيات الثرى والمدن في القرآن الكريم، إيمان مطر مهدي، وسامر نعمة كاظم، المجلة الدولية للعلوم

الإنسانية والاجتماعية، العدد ١٦، ص ٦ (أكتوبر ٢٠٢٠م).

ومن شواهد هذا النوع من الحجج، ما جاء في عرض خطبة عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما لما قدم معاوية رضي الله عنه المدينة واستأمر أهلها في تولية ابنه يزيد من بعده، حيث يقول: ((أما بعد: فإن هذه الخلافة إن أخذ فيها بالقرآن: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾^(١)، وإن أخذ فيها بسنة رسول الله، فأولو رسول الله، وإن أخذ بسنة الشيخين: أبي بكر وعمر، فأبي الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول؟))^(٢).

فقد عزز عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما عرض خطبته وأكدّه بالاستشهاد بثلاثة مصادر متتالية في مرتبتها وقوتها، مبتدئاً بالقرآن، ثم بسنة الرسول ﷺ، ثم بسنة الخلفاء من بعده: أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

ويُظهر هذا الترتيب التنازلي (السلم التنازلي) دور الشاهد القرآني؛ إذ هو أصل الشواهد كلها والبؤرة التي تتناسل منها بقية الحجج الأخرى، وليس هذا فحسب؛ ذلك أنّ الحاجج كثيراً ما يعدل إلى الترتيب التنازلي عندما يشعر أنّ البدء بالحجج الضعيفة قد يُضعف الخطاب ويترك للمتلقي مجال الرد بحجة أقوى، فهو (الحاجج) يختار تقديم الحجة الأقوى؛ ليتمكن بها من تقييد المتلقي، وإغلاق باب النقاش عليه، وليجعله آخذاً بطريق القبول والافتناع^(٣).

ومما يُحملُ عليه، قول لسان الدين بن الخطيب رحمته الله في عرض إحدى مواعظه: ((أين المعمر الخالد، أين الولد أين الوالد، أين الطارف أين التالد^(٤)، أين الجادل أين المجالد؟ ﴿هَلْ نُحْسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾^(٥)، وجوه علاهنّ الثرى، وصحائف تُفَضُّ، وأعمال على الله تُعْرَضُ، بَحَثَ الزُّهَادِ وَالْعِبَادِ وَالْعَارِفُونَ وَالْأَوْتَادِ وَالْأَنْبِيَاءِ-الَّذِينَ يُهْدَىٰ بِهِمُ الْعِبَاد-عَنْ سَبَبِ

(١) سورة: الأنفال، الآية: ٧٥.

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ٢٤٧.

(٣) ينظر: لغة التخاطب الحجاجي: دراسة في آليات التناظر عند ابن حزم، مرجع سابق، ص ١٧٧. وبحث: السلام

الحجاجية في كلام الإمام الحسن عليه السلام، مرجع سابق، ص ١٠٩٥.

(٤) الطَّارِفُ وَالطَّرِيفُ: مَا اسْتَحْدَثَتْ مِنَ الْمَالِ وَاسْتَطْرَفْتَهُ، وَالتَّالِدُ وَالتَّلِيدُ: مَا وَرِثْتَهُ مِنَ الْآبَاءِ قَدِيمًا. ينظر: تاج العروس،

مرجع سابق، ج ٢٤، ص ٧٢.

(٥) سورة: مريم، الآية: ٩٨.

الشقاء الذي لا سعادة بعده، فلم يجدوا إلا البُعد عن الله تعالى، وسببه حبُّ الدنيا، (لن تجتمع أمتي على ضلالة)^(١).

هَجَرْتُ حَبَائِي مِنْ أَجْلِ لَيْلَى فَمَا لِي بَعْدَ لَيْلَى مِنْ حَبِيبٍ
وَمَاذَا أَرْجِي مِنْ وَصْلِ لَيْلَى سَتَجْزِي بِالْقَطِيعَةِ عَنْ قَرِيبٍ

وقالوا: ما أورد النفس الموارد وفتح عليها باب الحُنفِ إلا الأمل^(٢).

أدرج لسان الدين بن الخطيب- في هذا العرض- حججه الجاهزة على نمط تنازلي؛ من الآية، إلى الحديث، إلى الشعر، إلى القول المأثور، مُراعياً في ذلك مركزية القرآن والسنة وملتمزاً باصطلاح الثقافة الجمعية في ترتيب مصادر تلك الحجج.

ومتى وردت الحجج على هذا النحو من الترتيب، وعلى هذا النحو من الإطراف والتنويع، فإنَّ النفوس تكون أشدَّ تشبُّثاً بالأطروحة وأحرى افتتاناً بها، فضلاً عن دور اجتماع تلك الحجج في مضاعفة حضور الخطيب وتعزيز سلطته؛ ذلك من جهة قدرته على الاستدلال وبراعته في الترتيب؛ لذا فإنَّ (بيرلمان) لا يُبالغ حين يقرر «أنَّ شروط تقبُّل الحجج تتغيَّر بحسب نظام عرضها»^(٣).

وبالشواهد السالفة فإنَّه يظهر- بما لا يدعُ مجالاً للشكِّ- قصدية ترتيب حجج (العرض) في خطب المدونة؛ فأهمية الحجج لا تقتصر على اختيارها فقط، بل في طريقة تنظيمها وألوية إيرادها؛ إذ إنَّ الحجاج الناجح هو الحجاج الخاضع لنظام ما يُمكن التماسه وتفقدّه، وعليه فليس الرِّصْف وحده كافياً للإقناع، بل يجب مراعاة ما تُملِّيه ثقافة المتلقِّين، وما يستدعيه الإقناع من مبررات التقديم والتأخير.

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، ج ٥، ص ٢١٨، ح ٩١٠٠ (دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت).

(٢) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٢٠٦.

(٣) الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، مرجع سابق، ص ٢٧.

٣- حجج الختام:

للخاتمة أهميتها ودورها الأساسي في الخطابات عامة وفي الخطبة على وجه الخصوص، وهي أهمية ناتجة عن دورها في تلخيص الأطروحة وتثبيت فكرتها المقصودة؛ ذلك أنّها آخر كلام الخطيب قولاً وأوله استدكاراً وأدعاه بقاءً، ومتى أحكم الخطيب خاتمة خطبته وبرع في اختيار عناصرها، فإنّه يكون قد ضاعفها بما يضمن لها الفاعلية والامتداد، ولهذا الدور فإنّ الخاتمة لا تقلُّ قدرًا عن المقدمة والعرض؛ من جهة الأهمية والتأثير والإقناع^(١).

وبالوقوف على مواضع الخاتمة في خطب المدونة فإنّه يُلاحظ أنّ رُدها بالحجة القرآنية يُشكّل ظاهرة لافتة تكشف عن أهمية الخاتمة ودورها في التحفيز والتركيّز، ولعلّ من خير أمثلة هذه الظاهرة، خطبة السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ب(المريد) في شأن عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ إذ ((حمدت الله وَعَبَّيْتُ، وأثنت عليه وقالت: كان الناس يتجنّون على عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ويُزرون^(٢) على عمّاله، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم، فننظر في ذلك فنجده برياً تقياً وقيماً ونجدهم فجراً غدرَةً كذبةً؛ يحاولون غير ما يظهرون، فلمّا قووا على المكاثرة كاثروه، واقتحموا عليه داره، واستحلّوا الدم الحرام، والمال الحرام والبلد الحرام، بلا ترة^(٣) ولا عذرٍ، ألا إنّ ما ينبغي لا ينبغي لكم غيره؛ أخذ قتل عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وإقامة كتاب الله وَعَبَّيْتُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾^(٤).

اختارت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن تجعل هذه الآية آخر عهدا بمتلقيها؛ لتصبح (الآية) فُقلًا يُغلق عليه سبيل التهاون، ويقطع عليه طريق الاعتذار؛ فهو (المتلقي) إمّا أن يكون عاملاً بكتاب الله أخذًا به، وإمّا أن يكون متولّيًا معرضًا عنه. إنّ ختم الخطبة بالآكد والأقوى يجعل من الخاتمة حدًا نهائيًا للمخالفة، وحاجزًا منيعًا دون الاعتراض، وآلية اعتبار وإقناع لا يعقبها إلا الصمت

(١) ينظر: تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: حفي محمد شرف، ص ٦١٦ (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٥م). والخطابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند

العرب، محمد أبو زهرة، ص ١٣٢. والبلاغة العربية: أسسها وعلومها وفنونها، ج ٢، ص ٥٦٣.

(٢) يُزرون: يعيبون. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٨، ص ٢١٥.

(٣) ترة: نقص. ينظر: السابق، ج ١٤، ص ٣٣٨.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٨٦. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ٤١٦. وج ٢، ص ١٥٦. وج ٣، ص ٢٣٠.

والتسليم^(١).

ولأنَّ الخاتمة «ربما حُفِظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال»^(٢)، «ولا اختصاص هذا القسم من الخطبة بإثارة الانفعالات»^(٣)، فقد اختارت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن تختم بمشتركٍ قطعيٍّ، يسيرٍ في حفظه، سلسٍ في لغته، جمٍّ في معناه، ليكون طاقةً باقيةً ودائمةً في تحفيز المتلقين وإثارتهم. وإلى جانب ظاهرة الختم بالحجة القرآنية، فإنَّ الباحث قد وقف على عدد لا يُستهان به من الخطب المختومة بالحجة الشعرية، على شاكلة ما ختم به عبد الله ابن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهَا خطبته عندما حاصره الحجاج؛ إذ ((صلى بأصحابه الفجر، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا آل الزبير: لو طبتم لي نفساً عن أنفسكم كُنَّا أهل بيت من العرب اصْطَلَمْنَا^(٤) في الله، لم تصبنا زبَاءً^(٥) بَنَّةً، أمَّا بعد يا آل الزبير: فلا يَرُعْكُمْ وَقَعُ السَّيْفِ، فَإِنِّي لَمْ أَحْضِرْ مَوْطِنًا قَطُّ إِلَّا ارْتُبْتُ^(٦) فيه من القتل، وما أجد من دواءٍ جراحها أشدَّ مما أجد من ألمٍ وقعها، صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم؛ لا أعلم امرأً كسر سيفه واستبقى نفسه؛ فإنَّ الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل، عُضُّوا أبصاركم عن البارقة^(٧)، وَلْيَشْغَلْ كُلَّ امْرِئٍ قِرْنَهُ^(٨)، ولا يُلْهِئَنَّكُم السُّؤَالُ عَنِّي، ولا تقولن: أين عبد الله بن الزبير؟ ألا من كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول:

أَبِي لِابْنِ سَلَمَى أَنَّهُ غَيْرُ خَالِدٍ مُلَاقِي الْمَنَايَا أَيُّ صَرْفٍ تَيَمَّمَا
فَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِسَبَبَةٍ وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ حَشِيَّةِ الْمَوْتِ سُلَّمَا^(٩)

(١) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

(٢) تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص ٦١٦.

(٣) حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي (خطب الإمام علي) أممؤذجا، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

(٤) الاصطلام: الاستئصال والإبادة. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٣٢، ص ٥٠٧.

(٥) الرِّبَاءُ من الدَّوَاهِي: المنكرة الشديدة. ينظر: السابق، ج ٣، ص ٣.

(٦) ارْتُبْتُ فُلَانٌ: جُمِلَ من المعركة رَثِيئًا، أَي جَرِيحًا، وبه بقية من حياة. ينظر: السابق، ج ٥، ص ٢٥٨.

(٧) البارقة: بَرِيقُ السَّلاح. ينظر: السابق، ج ٢٥، ص ٤٢.

(٨) القِرْنُ: المُعَادِلُ فِي الشَّدَّةِ. ينظر: السابق، ج ٣٥، ص ٥٣٠.

(٩) من الطويل، والبيتان للحصين بن الحمام المرِّي (توفي نحو ١٠٠ قبل الهجرة)، وهما من قصيدة له طويلة يندد فيها ببني صرمة بن عوف، وقد عزموا على محاربة قومه. ينظر: الحصين بن الحمام المرِّي الفارس الشاعر: سيرته وشعره، جمع

احملوا على بركة الله))^(١).

لا يخفى ما يحمله الشعر من إيقاع وتجنيس وحقّة وحماسة تهيّج لها نفوس المتلقين، فتكون بها أدعى للحركة وأقرب إلى الإنجاز، ولا يخفى-أيضاً- ما في الشعر من اليسر والإيجاز والكثافة التي تسهم في تلخيص معنى الأطروحة، وتعين على بقاءه، وتسهّل استذكاره، وتضمن استدامة تأثيره، كما أنّ في مفاجأة المتلقي ومخالفة أفق انتظاره بالانتقال من النثر إلى الشعر إيقاظاً وتحفيزاً يعزّز وجودهما بغير هذه المغايرة بين جنس النثر والشعر.

لقد جاء الشاهد الشعري في هذه الخطبة على هيئة ختامٍ حاسمٍ مُتِمِّمٍ للأطروحة ومؤكِّدٍ لمعناها، ومجرى ذلك- كما يقول أبو هلال العسكري- «مجرى التذييل لتوليد المعنى، وهو أنّ تأتي بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجرى مجرى الاستشهاد على الأول، والحجة على صحته»^(٢).

وقد تكون الخاتمة في المدونة محلاً لحجة التعليل؛ فيحتجّ الخطيب في خاتمة خطبته بحجة تُبرِّز مذهب الأطروحة وتعلّل له، نحو خاتمة خطبة جرير بن عبد الله رضي الله عنه- سالفه الذكر- التي يُحرِّض فيها قومه: ((يا معشر بجيلة: إنكم وجميع من شهد هذا اليوم في السابقة والفضيلة والبلاء سواء، وليس لأحد منهم في هذا الخُمس غداً من النَّفْلِ مثل الذي لكم منه، ولكم رُبْعُ خُمُسِهِ نَفْلاً من أمير المؤمنين؛ فلا يكوننَّ أحد أسرع إلى هذا العدو، ولا أشدّ عليه منكم للذي لكم منه، وثبّة إلى ما ترجون؛ فإمّا تنتظرون إحدى الحسنين: الشهادة والجنة، أو الغنيمة والجنة))^(٣).

لم يشأ جرير بن عبد الله رضي الله عنه- بعد أن تقدّم بهذا التحريض والتحريك- أن يفارق متلقّيه دون أن يختم بعلّة مُقنعة، ذلك أنّ طلب المبادرة بالجهاد والمُفاداة طلبٌ عظيمٌ لا بدّ أن يُعلّل بحجة تُحرِّز المتلقين على التّفير وتحتّمهم على استرخاص النفوس في هذا السبيل؛ فهم إلى حسنين متوجّتين بالجنة؛ فإمّا الشهادة وإمّا النصر.

وتحقيق: شريف علاونة، ص ٨١، ٩٥ (دار المنهاج، عمّان، ٢٠٠٢م). وشعر الحصين بن الخُمّام المري، جمع وتحقيق:

مهدي عبيد جاسم، مجلة المورد، المجلد ١٧، العدد ٣، ص ١١٤ (١٩٨٨م).

(١) جمهرة خطب العرب، ج ٢، ص ١٨٠. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ٣٢٥. ج ٢، ص ١٩٤. ج ٣، ص ١٨.

(٢) كتاب الصناعتين، مرجع سابق، ص ٤٣٤.

(٣) جمهرة خطب العرب، ج ١، ص ٢٢٩. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ١٧. ج ٢، ص ٧٢، ٢٥٩.

وحريٌّ بمن استقرّت هذه العلة في ذهنه وثبتت، أن يكون أسرع إلى الاستجابة وأصبر على القتال؛ سعيًا للحصول على هاتين المكافأتين الموعودتين، وكما يقول محمد أبو زهرة فإنه: «يحسن أن تكون الخاتمة مشتملة على موجزٍ لما ألقاه، وتوضيحٍ كامل لغايته ومرماه، وأن تكون مثيرة للعاطفة في الأمر الذي يريده الخطيب؛ فإن كان تهديدًا وإنذارًا كان فيها أقواهما، وإن كان إثارة للحماسة وحفزًا للهمم ألقى في الخاتمة أبلغ ما يثيرهما، وإن كان يريد من خطبته إثارة عاطفة الرحمة أتى بأشد ما يثيرها في خاتمة القول»^(١).

وإلى جانب الحجة القرآنية والحجة الشعرية والحجة التعليلية، فقد وقف الباحث على عددٍ من حُطَب المدونة اتخذ خطبائها من القول الحكيم حجةً تُلبى ما تقتضيه الخاتمة من الترسيخ والإجمال والإثارة^(٢)، نحو ما ختم به (المأمون) خطبته-سألفة الذكر-: ((إنَّ ثَمْرَةَ الصَّبْرِ الأَجْرُ، وَثَمْرَةَ الجَزَعِ الوِزْرُ، وَالتَّسْلِيمُ لأَمْرِ الله ﷻ فَائِدَةٌ جَلِيلَةٌ وَتِجَارَةٌ مُرَبِّحَةٌ، فَالمَوْتُ حَوْضٌ مَوْرُودٌ، وَكأسٌ مَشْرُوبٌ، وَقَدْ أَتَى عَلَى خَلِيفَتِكُمْ مَا أَتَى عَلَى نَبِيِّكُمْ ﷺ فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَمَا كَانَ إِلاَّ عَبْدًا دُعِيَ فَأَجَابَ وَأُمِرَ فَأَطَاعَ، وَقَدْ سَدَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ثَلَمَهُ^(٣) وَقَامَ مَقَامَهُ، وَفِي أَعْنَاقِكُمْ مِنَ العَهْدِ مَا قَدْ عَرَفْتُمْ، فَأَحْسِنُوا العِزَاءَ عَلَى إِمَامِكُمُ المَاضِي، وَاعْتَبَطُوا بِالنِّعْمَاءِ وَالوَفَاءِ فِي خَلِيفَتِكُمْ البَاقِي، يَا أَهْلَ الدُّنْيَا: المَوْتُ نَازِلٌ، وَالأَجَلُ طَالِبٌ، وَأَمْسِ وَعَظُّ، وَاليَوْمُ مُغْتَنَمٌ، وَغَدٌ مُنْتَظَرٌ))^(٤).

تتضمن الحكيم-عمومًا-معاني كلية جامعة في معناها سهلة في لفظها، لذا فإن من الخبرة إيرادها عقب المعاني وفي ختام القول، وقد عمد المأمون إلى التعقيب بهذا القول الحكيم والختم به؛ رغبةً منه في استبقاء المعنى واستمرار تأثيره؛ فمتى كان القول الأخير قولًا مُحْكَمًا غنيًا في معناه، قصيرًا في مبناه، فإنه يكون أكثر فاعلية وأقوى تأثيرًا وأجدى نفعًا^(٥).

لقد وضع (المأمون) هذه الحكمة في ذيل خطبته؛ لأنه يعلم مكان الخاتمة من نفوس المتلقين؛

(١) الخطابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٢) ينظر: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، مرجع سابق، ص ٦٤-٦٥.

(٣) سَدَّ الثَّلْمَ: أصلحه وأوثقه. ينظر: تاج العروس، مرجع سابق، ج ٨، ص ١٧٨.

(٤) جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ١٢٠. ولمزيد أمثلة، ينظر: ج ١، ص ١٦٠. ج ٢، ص ١٤٥، ٤٨٣.

(٥) ينظر: بحث: من قضايا النقد القديم: الحكمة والمثل؛ المفهوم والعلاقة والتفويض، مرجع سابق، ص ٦٦.

بفعل توقّهم إلى معرفة ما ستنتهي عليه هذه الخطبة. وظاهرٌ أنّ التقديم بهذه الحكمة أو توسيطها من الخطبة يُفقدُها جزءاً من قيمتها، ويُعرّضها للفقدان والنسيان، في حين أنّ بقاءها في هذا الموضوع من الخطبة يجعل من الخاتمة جهاز تحكّم ومركز توجيه^(١).

وبهذا القدر من دراسة حجج الخاتمة في المدوّنة فإنّما تظهر القصدية الموضوعية لتلك الحجج، فلم تحتلّ هذه الحججُ الخاتمةَ عفوًا أو تحصيل حاصلٍ، وإتّما نتج ذلك عن تديرٍ حجاجيٍّ نابعٍ من تقدير المتلقين لهذا الجزء واحتفالهم به، ولئن كان من المعهود نسيان الخطبة أو بعضها فإنّ الخاتمة تُعدُّ موضعاً مهمّاً من مواضع الحجج؛ ذلك أنّها أحرى الأجزاء بالحفظ والبقاء.

*** **

وبعد دراسة الحجج في ظلّ هذه الأجزاء الثلاثة، فإنّه يمكن القول بأنّه للحكم على نجاح خطبةٍ من الخطب، فإنّ الحكم لا بدّ أن يكون مبنياً- في جانبٍ منه- على تتبّع الهيكل البنائي لهذه الخطبة أو تلك، للوقوف على ما بين المفاصل وحججها من اتّساق، إذ تزيد قوة الحجة وتتضاعف بحسب موضعها من النص، وذلك مسلك دقيقٌ لا يجتازه إلا الخطيب البارِع والمُحاجّ الفطن.

ولئن ظهرت حجج (المقدمة) غاية في انسجامها مع هذا الجزء مُلبية لما يستدعيه الاستهلال من لفت وتبرير وإثارة، فقد كشفت دراسة حجج (العرض) في خطب المدوّنة عن وجود سُلّمية ظاهرة في بناء الحجج؛ إذ بدت الحجج مترابطة ملتزمة بالترتيب السلمي- بشقيه: التنازلي والتصاعدي- وهو ترتيبٌ مبنٍ في أساسه على مراعاة المتلقّي وتقدير ثقافته، وإلى ذلك فقد تجلّت حجج (الخاتمة) في عددٍ من الخطب أفضالاً وقصاصاتٍ صالحة للحفظ وعدم النسيان، مما يجعلها محفّزاتٍ باقيةً عصيةً على النسيان.

(١) ينظر: حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي (خطب الإمام علي) أنموذجاً، مرجع سابق، ص ٢٤٥.

خاتمة الفصل:

إنَّ إدراج أيِّ حجةٍ من الحجج لا بدَّ أن يكون نتيجة عملية عدولٍ واختيارٍ إقناعيٍّ يجعل من بناء الخطبة بناءً مقصودًا و(مؤدجًا)؛ ذلك أنَّ الخطاب الحجاجي - في أصله - عملية فكرية، موجهة ومؤطرة، تتعلَّق بالمتلقي وتتأسس على إقناعه، وليس الخطاب الحجاجي نصًّا أحاديًّا خالصًا خاضعًا لاختيارات الخطيب وما تُملِّيه عليه مشاعره، أو خطابًا سرديًّا محكومًا بمطابقتها لحكايته.

وفي حين تعددت مقامات خطب المدونة، ولمَّا كان المتلقون مختلفين في خلفياتهم وطبائعهم، فإنَّ حجج المدونة قد أتت متنوِّعة ومختلفة، بما ينسجم مع هذا المقام أو يُلبِّي ذلك الغرض، وبما يُناسب هذا المتلقي أو ذاك.

ولئن كان (المنطق) هو الطريق الذي يُمكن أن ينفذ به الخطيب إلى جميع العقول، فإنَّ حجاج المدونة قد تجلَّى - في جميع عصوره - مُراعياً لهذا الجانب مستفيداً منه، وذلك بفعل ظهور عدد من الحجج المنطقية المقصودة.

ولأنَّه من الصعب فصل المتلقين عن واقعهم، فإنَّ حجاج المدونة قد بدا مُتأثراً بواقعه مُراعياً له، إذ وقف الباحث على ما لا يمكن حصره من حجج هذا النوع، على اختلاف أشكالها ومصادرها.

وتأسيساً على ما سبق، فإنَّه يمكن الإقرار بأنَّ الحجاج - بخلاف البرهان المبني على الضرورة في ترابطه - عملية استراتيجية معقدة؛ فالإثبات فكرةٍ ما، أو نفيها، فإنَّه لا يكفي حشد الحجج والدفع بها تلقائياً دون نظامٍ؛ بل يلزم الخطيب إيرادها في نسقٍ محكومٍ بالمنطق وملتمزمٍ بما استقرَّ لدى المتلقين من تنظيمات؛ فنجاح الخطبة مقرون - بالدرجة الأولى - بمواءمتها لمتلقيها بصفته المستهدف الأول والأخير.

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة الحجاج في الخطبة العربية التراثية، وذلك من خلال تمهيدٍ وفصولٍ ثلاثة؛ فبعد أن استوفى الباحث المقدّمة، مهّد بما يلزم من التعريفات والتحريرات، حيث عرّف فيها بالحجاج وأهمّ مدارسه، ثم عرّف بعد ذلك بالمدونة المدروسة، ثمّ تحوّل إلى الفصل الأول مستعرضاً من خلاله أهمّ الأساليب اللغوية المستعملة في المدونة المدروسة، فبدأ بدراسة أشهر الروابط الحجاجية في المدوّنة مقسّمة إلى روابط: (تعارض، تساوق، تعليل، عطف)، ثم ثنّى بدراسة العوامل الحجاجية في المدوّنة؛ وذلك من خلال الفصل بين العوامل (الشكّية) والعوامل (اليقينية)، ولا تساع مقولة التوكيد فإنّ الباحث خصّه بالمبحث الثالث، ولأنّ التكرار لا يقلّ شأنًا عن التوكيد فقد أفرده الباحث بالمبحث الأخير من هذا الفصل.

وإنّ كان ما دُرس في الفصل الأول داعياً إلى الانصراف إلى دراسة الأساليب في مستوى آخر، فإنّ الفصل الثاني من الدراسة جاء مقصوداً على دراسة الأساليب البلاغية في مستوياتها الثلاثة، فابتدأه الباحث بدراسة الكلمة من خلال دواعي اختيارها، ثم درس- في مبحث مستقلّ- أهم ما وقف عليه من التراكيب البلاغية التي استعملها خطباء المدوّنة، ليختم هذا الفصل بمبحثٍ مختصّ بدراسة الصور البلاغية الثلاث: (التشبيه، والاستعارة، والكناية).

وفي حين أنّ الحجاج في جزء كبيرٍ منه إنّما يتأسس على الإقناع العقلي غنيّ الفصل الثالث بالأساليب الحجاجية في المستوى المنطقي، بحيث تناول الباحث- من خلال أربعة مباحث- الحجج شبه المنطقية المشابهة للمنطق، ثم إنّه انتقل إلى دراسة الحجاج بالسبب، ثم الحجاج بالسلطة، ليُنهي هذا الفصل بدراسة هذه الحجج من جهة ترتيبها الموضوعي والسلمّي.

وإذ وقفت الدراسة على كلّ هذه العناوين والموضوعات، فإنّ الباحث يدلي فيما يلي بأهم ما توصل إليه من نتائج:

١- ظهور الروابط الحجاجية بصفاتها أساليب فعّالة- في المدونة- لا تنحصر وظيفتها على الربط والتأليف، حيث أسفرت الدراسة عن قيمة روابط التعارض في الربط بين فكرتين متناقضتين، وإبطال ما قبلها لصالح تقوية ما بعدهما، كما ظهر أثر رابط التساوق (حتى) في إدراج لفظ يرفد الملفوظ السابق له ويساوقه في خدمة نتيجة واحدة، وقد اتّضحت القيمة الحجاجية

لروابط التعليل في التوجيه؛ بفعل ربط العلة بالمعلول، في حين تجلّت فاعلية روابط العطف من خلال عملها على الربط بين العناصر الحجاجية وتنسيقها وترتيبها.

٢- اضطلاع العوامل الشكّية في المدونة بقيمة حجاجية عالية؛ ذلك من جهة موضوعيتها وحيادها، ومن جهة تخليصها الخطيب من مغبة القول.

٣- أثر العوامل اليقينية (النفي، الحصر) الظاهر في سؤق المتلقين إلى نتيجة قطعاً محدّدة، وتضييق مجالات الاحتمال والإمكان.

٤- كثرة أساليب التوكيد وطرقه وتفاوتها في القوة والمعنى، مما ظهر به دقّة خطباء المدونة في اختيارهم وعنايتهم بتفضيل أقرب الطرق وأمتن الأساليب المؤدّية إلى تقرير النتائج وترسيخها.

٥- أهمية التكرار القصوى في المدونة؛ من جهة الترسّخ وإعادة التعيين؛ سواء كان ذلك على مستوى التكرار اللفظي (تكرار الأداة، تكرار اللفظ، تكرار العبارة) أو على مستوى التكرار المعنوي.

٦- براعة الخطباء في اختيارهم الكلمة ووعيمهم بأهميتها في مستوياتها الثلاثة: (المعجمي، والبنوي، والصوتي)؛ من حيث اختيار أدقّ الكلمات وأوفاهها دلالة على المعنى المقصود.

٧- القيمة الحجاجية لتركيبّي: (الأمر والنهي)؛ ذلك من خلال مظهرهما الذي يبدوان به، ومن خلال معنهما غير المباشر.

٨- خروج (الاستفهام) عن معناه الأصلي إلى عددٍ من المعاني الحجاجية المؤثّرة في تحقيق النتائج المقصودة.

٩- دور (التقديم)-البنائي والمعنوي- في التركيز على المقصود والإلحاح عليه واللفت إليه.

١٠- فاعلية (الحذف)-بشقيّه: البنائي والمعنوي- في تكتيف المعاني وإثارة المتلقي وشده.

١١- تعدّد وجوه (الالتفات) وأهميته؛ بحيث أثبت استعمال خطباء المدونة لهذا الأسلوب أنّه ليس ترفاً كلامياً أو تلاعباً أسلوبياً، بل هو اختيارٌ واعٍ يمنح الخطاب دفقة دلالية مكثّفة.

١٢- تسامي الصور البلاغية عن مجرد التزيين والإمتاع؛ فقد تجلّت في المدونة بصفاتها استدلالاً مكثّفةً وطرفاً حسّية محمّلة بالعديد من المعاني الإقناعية والتأثيرية.

١٣- ظهور عدد من الحجج شبه المنطقية في المدونة (التعارض، الحد، العدل، التعدية، إدماج الجزء في الكل، تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له، المقارنة) بمستوى يدل على طاقة هذه الحجج في تحقيق النتائج من طريقٍ عقليٍّ صارم، ويثبت مدى تجذر المنطق في الخطبة العربية التراثية.

١٤- قيمة ربط النتيجة بسببها وأثره في جعل النتيجة المقصودة محلاً للمصادقة والتأثر، وموضعاً من مواضع الإلزام والإفحام.

١٥- الأثر القوي للسلطة الذاتية التي يستمدّها الخطيب من مكانته ووظيفته؛ وذلك من جهة صرامة لغة الخطبة وترفعها عن الردّ والمراجعة.

١٦- الدور المهم للحجج السلطوية المستقطبة؛ إذ تُمثّل سبيلاً مهمّاً من سبل الإلزام وحماية الأطروحة من الشكّ أو الردّ أو الاستهانة.

١٧- عناية الخطباء بترتيب الحجج وجلاء أثر الترتيب في تحقيق النتائج المقصودة.

وبتلك الدراسة فقد انقده في ذهن الباحث بعض التوصيات والأفكار الجديدة بأن تكون نواةً لأبحاثٍ أخرى تُكْمَل مسيرة هذه الرسالة، وتُعزّز دراسات الحجاج في الخطبة العربية، ولعلّ من أهمّ تلك الأفكار: دراسة الحجاج في الخطبة العربية دراسةً (مُقارِنة)، وغنيّ عن القول بأنّه يمكن إنجاز هذا النوع من الدراسة على عددٍ من الأصعدة غير القابلة للحصر؛ فيمكن مثلاً دراسة الحجاج في ظلّ نماذج مختارة من العصر الجاهلي ومن العصر الأموي، أو في ظلّ نماذج مختارة من خطب العصر الأموي وخطب العصر الحديث، كما يُمكن دراسة الحجاج في حُطْب واعظٍ من وعّاظ المدونة وحُطْب واعظٍ من وعّاظ عصرنا، وهكذا؛ فمن شأن هذا النوع من الدراسات أن يكشف السمات الحجاجية ومدى تقدّم الحجاج في حُطْب ما وتأخره في أخرى.

وخير ما يُختم به هذا العمل، حمد الله وشكره والثناء عليه بما يسّر وأعان وسدد،

والصلاة على نبيه محمد ﷺ.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، (ط١)، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت.

ثانياً: الكتب:

- ١- الاتصال الخطابي وفن الإقناع، كريمة شعبان، (ط١)، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٥م.
- ٢- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٤هـ.
- ٣- إحكام صناعة الكلام، محمد بن عبد الغفور الكلاعي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦م.
- ٤- الأدب والغرابة: دراسات بنيوية في الأدب العربي، عبد الفتاح كيليطو، (ط٢)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م.
- ٥- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- ٦- إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: أحمد عزو عناية، (ط١)، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٤١٩هـ.
- ٧- أساس البلاغة، محمود الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، (ط١)، بيروت، ١٤١٩هـ.
- ٨- أساليب بلاغية: الفصاحة-البلاغة-المعاني، أحمد مطلوب (ط١)، دار غريب للطباعة، القاهرة،

- ١٩٨٠م.
- ٩- استراتيجيات الخطاب: مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي الشهري، (ط١)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م.
- ١٠- الاستعارة المفروضة في الموروث البلاغي والنقدي، أحمد يوسف علي، (ط١)، دار كنوز، عمان، ٢٠١٥م.
- ١١- الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، محمد الولي، (ط١)، دار الأمان، الرباط، ١٤٢٦هـ.
- ١٢- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، (ط١)، دار المدني، جدة، ١٤١٢هـ.
- ١٣- أسرار التكرار في القرآن الكريم، محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق: خيرى سعيد، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، د. ت.
- ١٤- أسرار الفصل والوصل في البلاغة القرآنية، صَبَّاح عبيد دراز، (ط١)، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٤٠٦هـ.
- ١٥- الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، أحمد الشايب، (ط٨)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٤١١هـ.
- ١٦- أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي: تنظير وتطبيق على السور المكية، مثنى كاظم صادق، (ط١)، منشورات ضفاف، بيروت، ١٤٣٦هـ.
- ١٧- الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، (ط٣)، الدار العربية للكتاب، طرابلس، د. ت.
- ١٨- الأسلوبية ونظرية النص، إبراهيم خليل، (ط١)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٧م.
- ١٩- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، ميدان الأوبرا، ١٤١٨هـ.

- ٢٠- الأصول في النحو، محمد بن سهل بن السراج، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، (ط١)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- ٢١- الإعجاز البلاغي: دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، محمد أبو موسى، (ط٢)، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٨هـ.
- ٢٢- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم: دراسة نظرية تطبيقية (التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة)، عبد الحميد أحمد هندراوي، (ط١)، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٨م.
- ٢٣- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، (ط٩)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٣هـ.
- ٢٤- إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي، تحقيق: أحمد صقر، (ط٣)، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧١م.
- ٢٥- أعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ.
- ٢٦- الإمبراطورية الخطابية: صناعة الخطابة والحجاج، شاييم بيرلمان، ترجمة: الحسين بنو هاشم، (ط١)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٢٢م.
- ٢٧- الأمثال العربية: دراسة تاريخية تحليلية، عبد المجيد قطامش، (ط١)، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٨هـ.
- ٢٨- الأمثال في القرآن الكريم، محمد جابر الفياض، (ط٢)، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ١٤١٥هـ.
- ٢٩- الأمثال والحكم، علي بن محمد الماوردي، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، (ط١)، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٩٩٩م.
- ٣٠- إمعان في أقسام القرآن، عبد الحميد الفراهي، ملتقى أهل التفسير، [www. tafsir. org](http://www.tafsir.org)

١٤٢٤هـ.

- ٣١- إنشاء النفي وشروطه النحوية الدلالية، شكري المبخوت، مركز النشر الجامعي، جامعة منوبة، تونس، ٢٠٠٦م.
- ٣٢- أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، سلسلة آداب، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب، تونس، منوبة، المجلد XXXIX.
- ٣٣- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، عبد الله بن يوسف بن هشام، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، د. ت.
- ٣٤- الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبدیع، الخطيب القزويني، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، (ط١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.
- ٣٥- البحث البلاغي عند ابن تيمية رحمه الله: دراسة وتقويمًا، إبراهيم التركي، (ط٢)، دار كنوز إشبيلية، الرياض، ١٤٣٩هـ.
- ٣٦- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلس، تحقيق: صدقي محمد جميل، وزهير جعيد، دار الفكر، بيروت، ٢٠١٠م.
- ٣٧- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.
- ٣٨- البديع في البديع، عبد الله بن المعتز، إغناطيوس كراتشكوفسكي، (ط٣)، دار المسيرة، بيروت، ١٤٠٢هـ.
- ٣٩- البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط٣)، دار التراث، القاهرة، ١٤٠٤هـ.
- ٤٠- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، (ط٣)، وزارة الأوقاف بجمهورية مصر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية-لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦م.

- ٤١- بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، (ط١)، دار الأمان، الرباط، ١٤٣٤هـ.
- ٤٢- بلاغة الإقناع: دراسة نظرية وتطبيقية، عبد العالي قادا، (ط١)، دار كنوز المعرفة، عمّان، ٢٠١٦م.
- ٤٣- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، محمد العمري، (ط٢)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٢م.
- ٤٤- بلاغة المحجة في خطاب الخلفاء الراشدين: دراسة وصفية لنماذج خطابية، هناء حلاسة، (ط١)، مركز الكتاب الأكاديمي، عمّان، ٢٠١٦م.
- ٤٥- بلاغة الخطاب الإقناعي: نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، حسن المودن، كنوز المعرفة، (ط١)، عمّان، ١٤٣٥هـ.
- ٤٦- بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٢م.
- ٤٧- البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، محمد إبراهيم شادي، (ط١)، الرسالة، ميدان المساحة، الدقي، ١٤٠٩هـ.
- ٤٨- بلاغة الصورة: نحو قراءة حجاجية لعلم البيان، سعيد العوادي، (ط١)، دار أوكسجين للنشر، المغرب، ٢٠٢١م.
- ٤٩- البلاغة العربية قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، (ط١)، الشركة المصرية العالمية للنشر، الجزيرة، ١٩٩٧م.
- ٥٠- البلاغة العربية: أسسها وعلومها فنونها وصورها من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد، عبد الرحمن بن حسن حبتكة الميداني، (ط١)، دار القلم، دمشق، ١٤١٦هـ.
- ٥١- البلاغة والاتصال، جميل عبد المجيد، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- ٥٢- البلاغة والأسلوبية: نموذج سيميائي لتحليل النص، هنريش ليبث، ترجمة: محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩٩م.

- ٥٣- البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، (ط١)، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٤م.
- ٥٤- البلاغة والنقد، مصطفى الصاوي الجويني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٧٥م.
- ٥٥- البلاغة وأنواع الخطاب، إشراف محمد مشبال، (ط١)، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٧م.
- ٥٦- البلاغة، ميشيل مايير، ترجمة: محمد أسيداه، (ط١)، دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠٢١م.
- ٥٧- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: يحيى بن محمد الهندي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٢٦هـ.
- ٥٨- البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، تمام حسان، (ط١)، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٣م.
- ٥٩- البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، (ط٧)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨هـ.
- ٦٠- تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، (ط٢)، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٤٠٧هـ.
- ٦١- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، (ط٢)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٤هـ.
- ٦٢- تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط٢)، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٩م.
- ٦٣- تاريخ دمشق، علي بن الحسن بن هبة الله؛ المعروف بابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٥هـ.
- ٦٤- تاريخ نظريات الحجاج، فيليب بروتون، وجيل جوتييه، ترجمة: محمد بن صالح الغامدي، (ط١)، مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبد العزيز، جدة، ٢٠١١م.
- ٦٥- تأويل مشكل القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، (ط٢)،

دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م.

- ٦٦- التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق: حمو النقاري، (ط١)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٤٢٧هـ.
- ٦٧- تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: حفي محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٥م.
- ٦٨- تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة: دراسة تطبيقية لأساليب التأثير والإقناع الحجاجي في الخطاب النسوي في القرآن، محمود عكاشة، (ط١)، دار النشر للجامعات، القاهرة، ١٤٣٥هـ.
- ٦٩- تحليل الخطاب وتجاوز المعنى: نحو بناء نظرية المسالك والغايات، محمد يونس علي، (ط١)، دار كنوز المعرفة، عمّان، ٢٠١٦م.
- ٧٠- التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي، مسعود صحراوي، (ط١)، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٥م.
- ٧١- التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، أبو حيان: محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: حسن هنداي، (ط١)، دار القلم، دمشق، ١٩٩٨م.
- ٧٢- التصوير البياني: دراسة تحليلية لمسائل البيان، محمد أبو موسى، (ط٣)، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٣هـ.
- ٧٣- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، (ط١٧)، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- ٧٤- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (ط٢)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ.
- ٧٥- تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد، بدر الدماميني، تحقيق عبد الرحمن المفدى، (ط١)، المؤلف، ١٤٠٣هـ.

- ٧٦- التفاؤل في القرآن الكريم: دراسة أسلوبية، لولوة بنت عبد الرحمن العويس، (ط ١)، نادي القصيم الأدبي، بريدة، ١٤٣٨هـ.
- ٧٧- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- ٧٨- التفسير القيم، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- ٧٩- التفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمود، (ط ٢)، منشورات كلية الآداب منوبة، تونس، ١٩٩٤م.
- ٨٠- التكرير بين المثير والتأثير، عز الدين علي السيد، (ط ٢)، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦م.
- ٨١- التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية، صالح بن الهادي رمضان، (ط ١)، نادي الرياض الأدبي، الرياض، ١٤٣٥هـ.
- ٨٢- التوجيه الأدبي، طه حسين، وأحمد أمين، وعبد الوهاب عزام، ومحمد عوض محمد، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٢م.
- ٨٣- توجيه النفي في تعامله مع الجهات والأسوار والروابط، شكري المبخوت، (ط ١)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٩م.
- ٨٤- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: للرماني، والخطابي، وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، (ط ٣)، دار المعارف بمصر، مصر، ١٩٧٦م.
- ٨٥- الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، د. ت.
- ٨٦- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرين، (ط ١)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٧هـ.
- ٨٧- جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، محمد عبد المطلب، (ط ١)، شركة أبو الهول

للنشر، القاهرة، ١٩٩٥م.

- ٨٨- الجمع بين الصحيحين: البخاري ومسلم، محمد بن فتوح الحميدي، تحقيق: علي حسين البواب، دار ابن حزم، بيروت، د. ت.
- ٨٩- جُمَل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، تحقيق: سهيل زكار، ورياض زركلي، (ط١)، دار الفكر، بيروت، ١٤١٧هـ.
- ٩٠- جمهرة الأمثال، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، (ط٢)، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- ٩١- الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، (ط١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.
- ٩٢- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيّد أحمد الهاشمي، تدقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، د. ت.
- ٩٣- حاشية الشهاب المسمّاة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (ط١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ.
- ٩٤- حاشية الصبان: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ومعه شرح الشواهد للعيني، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت.
- ٩٥- الحجاج الجدلي: خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي، عبد الله البهلول، (ط١)، مطبعة دار نهى، صفاقس، ٢٠١٣م.
- ٩٦- الحجاج الخطابي أسسه وتقنيّاته من خلال (ثمرات الأوراق) لابن حجة الحموي، محمد الناصر كحولي، (ط١)، زينب للنشر والتوزيع، تونس، ٢٠١٧م.
- ٩٧- الحجاج اللغوي: قراءات في أعمال أبي بكر العزاوي، تنسيق: حسن مسكين، (ط١)، عالم

الكتب الحديث، إربد، ٢٠١٧م.

- ٩٨- الحجاج رؤى نظرية ودراسات تطبيقية، إشراف: حسن خميس الملخ، (ط١)، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١٥م.
- ٩٩- الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، محمد سالم محمد الأمين الطلبة، (ط١)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٨م.
- ١٠٠- الحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، إيمان المغامسي، (ط١)، الدار المتوسطة للنشر، تونس ١٤٣٧هـ.
- ١٠١- الحجاج في الخبر الأندلسي: حجاجية التخييل وتخييل الحجاج، محمد الناصر كحولي، (ط١)، نادي القصيم الأدبي، القصيم-بريدة، ٢٠١٦م.
- ١٠٢- الحجاج في الخطاب: مقاربات تطبيقية، عبد اللطيف عادل، (ط١)، مؤسسة آفاق، مراكش، ١٤٣٨هـ.
- ١٠٣- الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، (ط٢)، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١١م.
- ١٠٤- الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، (ط٢)، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٧م.
- ١٠٥- الحجاج في النص الخطابي من فترة ما قبل الإسلام إلى أواخر العصر العباسي الأول: أساليبه ووظائفه، سراب الرحموني، دار سحر للنشر، تونس، ٢٠١٨م.
- ١٠٦- الحجاج في قصص الأمثال القديمة، عادل بن علي الغامدي، (ط١)، كنوز المعرفة، عمّان، ١٤٣٧هـ.
- ١٠٧- الحجاج في كلام الإمام الحسين، عايد جدوع حنون، (ط١)، مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية، النجف، ٢٠١٧م.

- ١٠٨- الحجاج مفهومه ومجالاته: دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إشراف: حافظ إسماعيلي علوي، (ط١)، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١٠م.
- ١٠٩- الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل: بحث في الأشكال والاستراتيجيات، علي الشبعان، (ط١)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١٠م.
- ١١٠- الحجاج، كريستيان بلانتان، ترجمة: عبد القادر المهيري، دار سيناترا، تونس، ٢٠٠٨م.
- ١١١- حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي (خطب الإمام علي) أمودجًا، علي عمران، دار نينوى، دمشق، ٢٠٠٩م.
- ١١٢- الحصين بن الحمام المرّي الفارس الشاعر: سيرته وشعره، جمع وتحقيق: شريف علاونة، دار المنهاج، عمّان، ٢٠٠٢م.
- ١١٣- حكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مرتبة حسب المواضيع والمطالب، إبراهيم شمس الدين، (ط١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦م.
- ١١٤- الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، (ط٢)، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٦م.
- ١١٥- خصائص الأسلوب في الشوقيات، محمد الهادي الطرابلسي، منشورات الجامعة التونسية، تونس، ١٩٨١م.
- ١١٦- خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد محمد أبو موسى، (ط٤)، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٦هـ.
- ١١٧- الخصائص، عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م.
- ١١٨- الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، (ط١)، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ٢٠١٠م.
- ١١٩- الخطابة وإعداد الخطيب، عبد الجليل عبده شلبي، (ط١)، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨١م.

- ١٢٠- الخطابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة، المؤلف، (ط ١)، مطبعة العلوم، القاهرة، ١٩٣٤م.
- ١٢١- الخطابة، أرسطوطاليس، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، ١٩٧٩م.
- ١٢٢- الخيال: مفهومه ووظائفه، عاطف جوده نصر، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
- ١٢٣- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، د. ت.
- ١٢٤- دراسات في علم اللغة، كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ١٢٥- دروس في البلاغة العربي، الأزهر الزناد، (ط ١)، المركز الثقافي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ١٩٩٢م.
- ١٢٦- دلالات التراكيب، محمد محمد أبو موسى، (ط ٢)، دار التضامن، القاهرة، ١٤٠٨هـ.
- ١٢٧- دلالة السياق، ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، (ط ١)، معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٣هـ.
- ١٢٨- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ت.
- ١٢٩- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، وسهيل زكار (ط ١)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.
- ١٣٠- ديوان دريد بن الصمة، تحقيق: عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.
- ١٣١- ديوان ذي الأصبع العدواني، تحقيق: عبد الوهاب محمد العدواني، ومحمد الدليمي، مطبعة الجمهور، الموصل، ١٣٩٣هـ.

- ١٣٢- ديوان طفيل الغنوي، عبد الملك بن قريب الأصمعي، تحقيق: حسان فلاح أوغلي، (ط١)، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
- ١٣٣- الديوان في الأدب والنقد، عباس العقاد، وإبراهيم المازني، مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، هاي ستريت وندسور، ٢٠١٨م.
- ١٣٤- رسائل الإمام علي في نهج البلاغة: دراسة حجاجية، رائد مجيد جبار، (ط١)، مؤسسة علوم نهج البلاغة، كربلاء، ٢٠١٧م.
- ١٣٥- رسائل الجاحظ، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، د. ت.
- ١٣٦- رسائل في اللغة، عبد الله بن السيد البطلاني، تحقيق: وليد السراقي، (ط١)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤١٩هـ.
- ١٣٧- زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي الحصري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (ط٤)، دار الجيل، بيروت، د. ت.
- ١٣٨- سر صناعة الإعراب، عثمان بن جني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد رشدي شحاته عامر (ط١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ.
- ١٣٩- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى بن حسني السباعي، (ط٣)، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٠٢هـ.
- ١٤٠- السؤال البلاغي: الإنشاء والتأويل، بسمة بلحاج رحومة الشكيلي، (ط١)، دار محمد علي للنشر، صفاقس، ٢٠٠٧م.
- ١٤١- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (ط١)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- ١٤٢- سيكولوجية الجماهير، غوستاف لوبون، ترجمة: هاشم صالح، (ط١)، دار الساقي، بيروت، ١٩٩١م.

- ١٤٣- شذا العرف في فن الصرف، أحمد بن محمد الحملأوي، تخريج وفهرسة: أبو الأشبال أحمد بن سالم المصري، دار الكيان، الرياض، د. ت.
- ١٤٤- شرح ابن عقيل، عبد الله بن عقيل، ومعه كتاب: منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، محمد محيي الدين عبد الحميد، (ط٢٠)، دار التراث، القاهرة، ١٤٠٠هـ.
- ١٤٥- شرح الرضي على الكافية، رضي الدين محمد بن الحسن الأسترابادي، تحقيق: يوسف حسن عمر، (ط٢)، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٩٦م.
- ١٤٦- شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنيّة بالمنح المحمدي للعلامة القسطلاني، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، (ط١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ.
- ١٤٧- شرح المفصل للزحشري، يعيش بن علي بن يعيش الموصللي، تحقيق: إميل بديع يعقوب، (ط١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ.
- ١٤٨- شرح جمل الزجاجي، علي بن محمد بن علي بن خروف، تحقيق: سلوى محمد عمر عرب، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٩هـ.
- ١٤٩- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، أبو العباس ثعلب أحمد بن يحيى النحوي، تحقيق: حنا نصر الحنّي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٤هـ.
- ١٥٠- شرح قطر الندى وبل الصدى، عبد الله بن هشام الأنصاري، ومعه: كتاب: سبيل الهدى، بتحقيق شرح قطر الندى، محمد محيي الدين عبد الحميد، (ط٧)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٧٤هـ.
- ١٥١- شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- ١٥٢- شعر إبراهيم الدامغ: دراسة أسلوبية، نهلأ الفلاج، (ط١)، نادي القصيم الأدبي، بريدة، ١٤٣٨هـ.
- ١٥٣- شعر أحمد الصالح: دراسة أسلوبية، عبد الله ماطر المطيري، (ط١)، نادي القصيم الأدبي، بريدة،

١٤٣٩هـ.

- ١٥٤- الشعر العربي المعاصر: قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت.
- ١٥٥- شعر قَعْنَبِ بن أُمِّ صَاحِب، جمع ودراسة: إبراهيم بن سعد الحقييل (ط ١ إلكترونية)، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٤٣٩هـ.
- ١٥٦- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: أحمد حسن بسج، (ط ١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.
- ١٥٧- صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، محمد ناصر الدين الألباني، أشرف عليه: زهير الشاويش، (ط ٣)، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- ١٥٨- صحيح سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني، (ط ١)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٩هـ.
- ١٥٩- الصوت اللغوي في القرآن، محمد حسين الصَّغِير، (ط ١)، دار المؤرخ العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- ١٦٠- الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي، محمد الولي، (ط ١)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠م.
- ١٦١- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، (ط ٣)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢م.
- ١٦٢- ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، (ط ٤)، دار القلم، دمشق، ١٤١٤هـ.
- ١٦٣- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، المقتطف، مصر، ١٩١٤م.
- ١٦٤- ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، طاهر سليمان حمودة، (ط ٢)، الدار الجامعية، الإسكندرية،

١٩٩٨م.

- ١٦٥- علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، (ط١)، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٩هـ.
- ١٦٦- علم الأصوات العام: أصوات اللغة العربية، بسام بركة، مركز الإنماء القومي، بيروت، د. ت.
- ١٦٧- علم النحو: رؤية جديدة وعرض نقدي مفاهيم المصطلحات، صبري المتولي، (ط١)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠١٣م.
- ١٦٨- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (ط٥)، دار الجيل، بيروت، ١٤٠١هـ.
- ١٦٩- عمرو بن بَرّاق الهمداني: سيرته وشعره، شريف راغب علاونة، (ط١)، دار المنهاج، عمّان، ١٤٢٤هـ.
- ١٧٠- عندما نتواصل نغير: مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م.
- ١٧١- العوامل الحجاجية في اللغة العربية، عز الدين الناجح، (ط١)، مكتبة علاء الدين، صفاقس، ٢٠١١م.
- ١٧٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود، وآخرين، (ط١)، مكتب تحقيق دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٦هـ.
- ١٧٣- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ١٧٤- فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، أبو الوليد بن رشد، تحقيق: محمد عمار، (ط٢)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.
- ١٧٥- فقه اللغة وخصائص العربية: دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد، محمد المبارك، (ط٢)، دار الفكر، دمشق، د. ت.

- ١٧٦- فن المناظرة في الأدب العربي: دراسة أسلوبية-تداولية، باشا العيادي، (ط١)، كنوز المعرفة، عمّان، ١٤٣٥هـ.
- ١٧٧- فواصل الآيات القرآنية: دراسة بلاغية دلالية، السيد خضر، (ط٢)، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- ١٧٨- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن القيم الجوزية، إشراف لجنة تحقيق التراث، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- ١٧٩- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، (ط٢)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م.
- ١٨٠- في البلاغة العربية: (علم المعاني، البيان، البديع)، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، د. ت.
- ١٨١- في النحو العربي نقد وتوجيه، مهدي المخزومي، (ط٢)، دار الرائد العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ.
- ١٨٢- في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، محمد العمري، (ط٢)، دار أفريقيا الشرق، بيروت، ٢٠٠٢م.
- ١٨٣- في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، عبد الله صولة، (ط١)، مسكيلياني، تونس، ٢٠١١م.
- ١٨٤- قراءات مع: الشايّ والمتني والجاحظ وابن خلدون، عبد السلام المسدي، (ط٤)، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٣م.
- ١٨٥- قراءة جديدة لتراثنا النقدي، ندوة تمام حسان وآخرين، نادي جدّة الأدبي، جدة، ١٤١٠هـ.
- ١٨٦- قضايا الشعر المعاصر، نازك صادق الملائكة، (ط٥)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٨م.
- ١٨٧- قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي، أحمد المتوكل، دار الأمان، الرباط، ١٩٩٥م.

- ١٨٨- قواطع الأدلة في الأصول، منصور بن محمد السمعاني، تحقيق: محمد حسن الشافعي (ط١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.
- ١٨٩- الكامل في التاريخ، ابن الأثير؛ محمد بن محمد الشيباني، (ط١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ.
- ١٩٠- الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: محمد أحمد الدالي، (ط٣)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٨هـ.
- ١٩١- كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (ط٢)، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧١م.
- ١٩٢- كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج، أبو الوليد الباجي، تحقيق: عبد المجيد تركي، (ط٣)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠م.
- ١٩٣- الكتاب: سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام هارون، (ط٣)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨هـ.
- ١٩٤- الكتابة في درجة الصفر، رولان بارت، ترجمة: محمد نديم خشفة، (ط١)، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ٢٠٠٢م.
- ١٩٥- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: خليل مأمون شيحا، (ط٢)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٦هـ.
- ١٩٦- الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، (ط٢)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ.
- ١٩٧- اللباب في علل البناء والإعراب، عبد الله بن الحسين العكبري، تحقيق: غازي مختار طليمات، (ط١)، دار الفكر، دمشق، ١٤١٦هـ.
- ١٩٨- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، (ط٣)،

دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٩هـ.

- ١٩٩- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، (ط١)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٨م.
- ٢٠٠- لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، (ط١)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١م.
- ٢٠١- لغة التخاطب الحجاجي: دراسة في آليات التناظر عند ابن حزم، مصطفى العطار، (ط١)، دار كنوز المعرفة، عمّان، ٢٠١٧م.
- ٢٠٢- لغة القرآن الكريم: دراسة لسانية للمشتقات في الربع الأول، بلقاسم بلعرج، دار العلوم للنشر، القاهرة، د. ت.
- ٢٠٣- اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، (ط١)، المؤلف، ٢٠٠٦م.
- ٢٠٤- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، (ط٧)، دار عمار، عمان، ١٤٣٢هـ.
- ٢٠٥- اللمع في العربية، عثمان بن جني، تحقيق: سميح أبو مغلي، دار مجدلاوي للنشر، عمّان، ١٩٨٨م.
- ٢٠٦- المبسط في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع، محمد طاهر اللادقي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٦هـ.
- ٢٠٧- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، (ط٢)، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د. ت.
- ٢٠٨- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.
- ٢٠٩- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات وعلمه، عثمان بن جني، تحقيق: علي النجدي ناصف، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، وعبد الحليم النجار، (ط٢)، دار سزكين للطباعة والنشر، استامبول، ١٤٠٦هـ.

- ٢١٠- المحصول، محمد بن عمر الرازي، تحقيق: طه جابر فياض العلواني، (ط٢)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ.
- ٢١١- المختصر في أصوات اللغة العربية: دراسة نظرية وتطبيقية، محمد حسن جبل، (ط٤)، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٢٧هـ.
- ٢١٢- مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، عبيد الله الرحماني المباركفوري، (ط٣)، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء-الجامعة السلفية-الهند، نارس، ١٤٠٤هـ.
- ٢١٣- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين، (ط١)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٣هـ.
- ٢١٤- مسند أبي يعلى الموصلي، أحمد بن علي بن المثنى التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، (ط١)، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤٠٤هـ.
- ٢١٥- المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب: دراسة معجمية، نعمان بو قره، (ط١)، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٩م.
- ٢١٦- المطوّل: شرح تلخيص مفتاح العلوم، مسعود بن عمر التفتازاني، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، (ط٢)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٨هـ.
- ٢١٧- معاني الأبنية في العربية، فاضل السامرائي، (ط٢)، دار عمار، عمّان، ٢٠٠٧م.
- ٢١٨- معاني الحروف، علي بن عيسى الرماني، تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، (ط٢)، دار الشروق، جدة، ١٤٠١هـ.
- ٢١٩- معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السّري (الزجاج)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، (ط١)، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- ٢٢٠- معاني النحو، فاضل السامرائي، (ط١)، دار الفكر للطباعة والنشر، عمّان، ١٤٢٠هـ.
- ٢٢١- معترك الأقران في إعجاز القرآن، عبد الرحمن أبي بكر السيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين،

- (ط١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- ٢٢٢- معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٨م.
- ٢٢٣- معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، (ط١)، مؤسسة جائزة سعود عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ٢٠٠٨م.
- ٢٢٤- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ.
- ٢٢٥- معجم السرديات، إشراف: محمد القاضي، (ط١)، دار محمد علي للنشر، تونس، ٢٠١٠م.
- ٢٢٦- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٧م.
- ٢٢٧- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: عبد اللطيف محمد الخطيب، (ط١)، السلسلة التراثية، مطابع السياسة، الكويت، ١٤٢١هـ.
- ٢٢٨- مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر السكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، (ط٢)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ.
- ٢٢٩- المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق وإعداد مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، د. ت.
- ٢٣٠- مقاربات سردية، علي عبيد، (ط١)، نادي الباحة الأدبي، الباحة، ٢٠١٤م.
- ٢٣١- المقتصد في شرح الإيضاح، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: كاظم بحر المرجان، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٢م.
- ٢٣٢- المقتضب، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة (ط٣)، لجنة إحياء التراث بوزارة الأوقاف بجمهورية مصر العربية، القاهرة، ١٣٩٩هـ.
- ٢٣٣- من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، جميل حمداوي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٤م.

- ٢٣٤- من بلاغة القرآن، أحمد بدوي، شركة نخضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- ٢٣٥- مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م.
- ٢٣٦- المنطق، محمد رضا المظفر، (ط١)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، د. ت.
- ٢٣٧- مناهج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، (ط٤)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٧م.
- ٢٣٨- المؤتمر الدولي الثاني: المؤسسات العلمية ودورها في النهوض بالفكر اللغوي والحضاري، كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، إيتاي البارود، ٢٠١٦م.
- ٢٣٩- الموسوعة القرآنية: خصائص السور، جعفر شرف الدين، (ط١)، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- ٢٤٠- الموسوعة القرآنية، إبراهيم بن إسماعيل الأبياري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٤٠٥هـ.
- ٢٤١- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، تحقيق: علي دحروج وآخرين، (ط١)، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م.
- ٢٤٢- نتائج الفكر في النحو، عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، (ط١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ.
- ٢٤٣- النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة، عباس حسن، (ط٢)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م.
- ٢٤٤- نسيج النص: بحث فيما يكون به الملفوظ نصًّا، الأزهر الزناد، (ط١)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٣م.
- ٢٤٥- نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، الحسن بنو هاشم، (ط١)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١٤م.

- ٢٤٦- النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، محمد طروس، (ط١)، دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٥م.
- ٢٤٧- النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابق الهجري، نعمة رحيم العزاوي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م.
- ٢٤٨- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ.
- ٢٤٩- الواحد المتعدد: النص الأدبي بين الترجمة والتعريب، حبيب مؤنسي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ٢٠٠٥م.
- ٢٥٠- الواضح في علوم القرآن، مصطفى البغا ومحيي الدين مستو، (ط٢)، دار الكلم الطيب، دمشق، ١٤١٨هـ.
- ٢٥١- الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، (ط١)، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٧هـ.
- ٢٥٢- الوظائف التداولية في اللغة العربي، أحمد المتوكل، (ط١)، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٤٠٥هـ.

ثالثاً: الأطروحات والرسائل:

- ١- (لكن) في القرآن الكريم: دراسة تركيبية دلالية، فتحة عبيدة، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، ٢٠٠١م.
- ٢- الأبعاد التداولية في الخطاب القرآني: (سورة البقرة) أنموذجاً، عيسى تومي، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، الجزائر، بسكرة، ٢٠١٤م.
- ٣- الأبعاد النصية والتداولية في التراث البلاغي العربي، إبراهيم بشار، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، الجزائر، بسكرة، ١٤٣٦هـ-١٤٣٧هـ.
- ٤- أبنية المشتقات في نهج البلاغة، ميثاق علي الصيمري، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، ٢٠٠٢م.

- ٥- أساليب الحجاج في أدب القاضي الفاضل البيساني، أطروحة دكتوراه، عبد اللطيف الجفن، جامعة الملك سعود، ١٤٣٧هـ.
- ٦- أساليب النفي ودلالاتها في شعر (راشد حسين): دراسة أسلوبية وإحصائية، وفاء يعقوب، رسالة ماجستير، جامعة بيرزيت، فلسطين، ١٤٣٨هـ.
- ٧- بلاغة الخطاب المكتوب: دراسة لتقنيات الحرف واللون والصورة في خطاب الدعاية التجارية، أمينة رقيق، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، الجزائر، بسكرة، ٢٠١٣-٢٠١٤م.
- ٨- البنية الحجاجية في شعر المتنبي: (السيفيات) أنموذجًا-مقاربة تداولية، فضيلة قلاقي، رسالة ماجستير، جامعة أم البواقي، الجزائر، ٢٠١٥-٢٠١٦م.
- ٩- البنية الحجاجية في كتاب (المقابسات) لأبي حيان التوحيدي، آمال شيخ، رسالة ماجستير، جامعة المسيلة، الجزائر، ٢٠٠٩-٢٠١٠م.
- ١٠- البنية الحجاجية للخطاب بين فنية الإيقاع ونصية الإقناع في كتاب: (هداية الحيارى) لابن القيم، يوسف بن سعدة، رسالة ماجستير، جامعة الجلفة، الجزائر، ٢٠١٦-٢٠١٧م.
- ١١- بنية الملفوظ الحجاجي للخطبة في العصر الأموي، خديجة محفوظي، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، الجزائر، قسنطينة، ٢٠٠٦-٢٠٠٧م.
- ١٢- تأصيل الأسلوبية في الموروث النقدي والبلاغي كتاب: (مفتاح العلوم للسكاكي) أنموذجًا، ميس خليل محمد عودة، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، ٢٠٠٦م.
- ١٣- التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم، تحقيق: حمزة بن محمد عسيري، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤٢٢هـ.
- ١٤- تجليات الحجاج في الخطاب النبوي: دراسة في وسائل الإقناع (الأربعون النووية) أنموذجًا، هشام فرّوم، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، الجزائر، باتنة، ٢٠٠٨-٢٠٠٩م.
- ١٥- التكرار المعنوي في القرآن الكريم: دراسة أسلوبية دلالية، يحيى بن محمد المهدي، أطروحة دكتوراه،

- جامعة أم درمان الإسلامية، جمهورية السودان، ١٤٢٦هـ.
- ١٦- التماسك النصي: دراسة تطبيقية في نهج البلاغة، عيسى جواد الوداعي، أطروحة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٥م.
- ١٧- التوكيد النحوي في خطب العرب ووصاياهم في كتاب جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت: دراسة نحوية دلالية، أيمن سلامة صعلوك، رسالة ماجستير، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمّان، ٢٠١٤م.
- ١٨- الحجاج اللساني وآلياته في نص الخطبة: دراسة لنماذج مختارة، فاتن جغلاف، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، الجزائر، بسكرة، ٢٠١٥-٢٠١٦م.
- ١٩- الحجاج بين الدرس البلاغي العربي والدرس اللساني الغربي: دراسة تقابلية مقارنة، نور الدين بوزناشة، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد لمين دباغين، الجزائر، ٢٠١٥-٢٠١٦م.
- ٢٠- الحجاج في: (الإمتاع والمؤانسة)، حسين ببولوط، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، الجمهورية الجزائرية، باتنة، ٢٠٠٩-٢٠١٠م.
- ٢١- الحجاج في النص القرآني: (سور الحواميم) أنموذجًا، هاني يوسف أبو غليون، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، ٢٠١٨م.
- ٢٢- الحجاج في النص القرآني، إيمان درنوبي، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، الجزائر، باتنة، ١٤٣٣-١٤٣٤هـ.
- ٢٣- الحجاج في خطب الحجاج بين يوسف الثقفي، عائشة سلامة، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، الجزائر، بسكرة، ١٤٣٦-١٤٣٧هـ.
- ٢٤- الحجاج في خطب العرب: كتاب (جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة) أنموذجًا، هدية محمد فاضل، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، العراق، ١٤٤٠هـ.
- ٢٥- الحجاج في خطب صدر الإسلام: (خطب الخلفاء الراشدين) أنموذجًا، زوليخة رحمون، رسالة

- ماجستير، جامعة محمد خيضر، الجزائر، بسكرة، ١٤٣٥-١٤٣٦هـ.
- ٢٦- الحجاج في كتاب: (البيان والتبيين) للجاحظ، ليلي جغام، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، الجزائر، بسكرة، ٢٠١٢-٢٠١٣م.
- ٢٧- الحجاج في كتاب: (خطاب المرحلة) للشيخ يعقوبي: من ٢٠٠٣م حتى ٢٠١٤م، ثامر العبادي، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، العراق، الناصرية، ٢٠١٦م
- ٢٨- الحجاج في كتاب: (المثل السائر) لابن الأثير، نعيمة يعمران، رسالة ماجستير، جامعة مولود معمري، الجزائر، ٢٠١٢م.
- ٢٩- حجاجية الاستعارة في الشعر العربي: (ديوان المتنبي) أمودجًا، البشير عزوزي، رسالة ماجستير، جامعة البويرة، الجزائر، البويرة، ٢٠١٣-٢٠١٤م.
- ٣٠- حجاجية التكرار في إياذة الجزائر ل(مفدي زكريا)، خيرة خرفي، رسالة ماجستير، جامعة وهران، الجزائر، وهران، ٢٠١٤-٢٠١٥م.
- ٣١- حجاجية الحكمة في الشعر الجزائري الحديث، خديجة بوخشة، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠١٣-٢٠١٤م.
- ٣٢- حجاجية المناظرات في كتاب: (الإمتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي، خديجة خمقاني، رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح-ورقلة، الجزائر، ٢٠١٥-٢٠١٦م.
- ٣٣- الخصائص الأسلوبية لنثر الإمام علي رضي الله عنه في نهج البلاغة، سعد محمد علي جاسم، أطروحة دكتوراه، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، ١٩٩٧م.
- ٣٤- الخطاب الإقناعي في ضوء التواصل اللغوي: (الحجاج بن يوسف الثقفي) نموذجًا، عمارية حاكم، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، تلمسان، ١٤٢٧-١٤٢٨هـ.
- ٣٥- الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب: (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة-دراسة تداولية، ابتسام بن خراف، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، الجزائر، باتنة، ٢٠٠٩م-٢٠١٠م.

- ٣٦- دراسة وظيفية لأسلوب التوكيد في القرآن الكريم، عائشة عبيزة، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، الجزائر، باتنة، ٢٠٠٨-٢٠٠٩م.
- ٣٧- دلالة المشتقات في الشعر الجزائري خلال العهد التركي: (محمد بن علي وأحمد بن عمار) نموذجًا- دراسة وصفية تحليلية، محمد عجوط، رسالة ماجستير، جامعة حسيبة بن بو علي، الجزائر، الشلف، ٢٠٠٧-٢٠٠٨م.
- ٣٨- الروابط الحجاجية في شعر أبي الطيب المتنبي: مقارنة تداولية، خديجة بوخشرة، رسالة ماجستير، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠٠٩-٢٠١٠م.
- ٣٩- الروابط والعوامل الحجاجية في رسائل الجاحظ، عبد السلام بوفار، رسالة ماجستير، جامعة مولود معمري، الجزائر، تيزي وزو، ٢٠١٦م.
- ٤٠- السلام الحجاجية في القصص القرآني: مقارنة تداولية، فايزة بوسلاح، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران ١- أحمد بن بلة، الجزائر، وهران، ٢٠١٤-٢٠١٥م.
- ٤١- المشتقات الدالة على الفاعلية والمفعولية: دراسة صرفية إحصائية، سيف الدين طه الفقراء، أطروحة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٢م.
- ٤٢- النفي وأدواته في القرآن الكريم: دراسة تركيبية دلالية (السبع الطوال) أنموذجًا، محمد بن صايل الصالح، رسالة ماجستير، الجامعة الهاشمية، الأردن، الزرقاء، ٢٠١٦م.
- ٤٣- نظرية الحجاج ومستويات الخطاب اللسانية في النثر العربي القديم: التوحيدي نموذجًا، ابتسام محمد محفوض، أطروحة دكتوراه، جامعة البعث، سوريا، ١٤٤٠هـ.
- ٤٤- نماذج من أساليب التوكيد في القرآن الكريم: ترجمة المفعول المطلق المؤكد لعامله ونون التوكيد من اللغة العربية إلى اللغتين الفرنسية والإنكليزية (دراسة تحليلية مقارنة)، دليلة مسلوب، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، ٢٠٠٦-٢٠٠٧م.

رابعًا: المجالات:

- ١- (ما) النافية: بنياتها الدلالية والتركيبية، مصطفى منياني، مجلة إحالات (٧)، ٢٠٢١م.

- ٢- (ما) و(لا) النافيتان والفرق بينهما، مكي الحسني، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٩٢، الجزء ٣-٤، ٢٠١٩م.
- ٣- الإحالة التكرارية ودورها في التماسك النصي بين القدامى والمحدثين، ميلود نزار، مجلة علوم إنسانية، السنة ٧ (٤٤)، شتاء ٢٠١٠م.
- ٤- أدوات الإقناع العقلي والعاطفي: خطبة عبد الله بن يحيى زعيم الإباضية لمّا استولى على اليمن أنموذجاً، محمد إسماعيل بصل، وعدنان محمد أحمد، واکسم أحمد فياض، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، المجلد ٣٩ (٦)، ٢٠١٧م.
- ٥- الأساليب المغالطية في المطارحات الحوارية التلفزيونية: برنامج (الاتجاه المعاكس) أنموذجاً، رائد مجيد جبار الزبيدي، مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع، كلية الإمارات للعلوم التربوية (٥٨)، سبتمبر ٢٠٢٠م.
- ٦- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، رضوان الرقيبي، مجلة عالم الفكر، المجلد ٤٠، أكتوبر-ديسمبر ٢٠١١م.
- ٧- الاستعارة التمثيلية عند الإمام الطيبي: دراسة نظرية تطبيقية، عمر عبد الكريم خليل الزعبي، وسليمان الدقور، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون بالجامعة الأردنية، المجلد ٤٥ (١)، ٢٠١٨م.
- ٨- الاستعارة التمثيلية في الحكم العطائية بين الأنماط التعبيرية والبنى التركيبية، محمد سيد سلطان عبد الرحيم، حولية: كلية اللغة العربية بجزءاً، الجزء ٤ (٢١)، ١٤٣٨هـ.
- ٩- الاستعارة بوصفها حجة، ستيف أوزوالد، وآلان ريهس، ترجمة: معتز سلامة، مجلة فصول، المجلد ٢٦ / ١ (١٠١)، خريف ٢٠١٧م.
- ١٠- الاستعارة والحجاج، ميشيل لوجيرن، ترجمة: الطاهر وعزيز، مجلة المناظرة (٤)، مايو ١٩٩١م.
- ١١- أسلوب القسم الظاهري في القرآن الكريم: بلاغته وأغراضه، سامي عطا حسن، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت، المجلد ١٨ (٥٣)، ٢٠٠٣م.

- ١٢- أسلوب النفي في بعض الأحاديث النبوية الشريفة: (صحيح مسلم) أمّودجًا، أسماء عبد الباقي محمد، مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد (١٠٢)، ٢٠١٢م.
- ١٣- أسلوب صيغ المبالغة في القرآن الكريم واللغة، عبد المجيد محمد أبو سعيد، مجلة الزرقاء، المجلد ٦ (١)، حزيران ٢٠٠٤م.
- ١٤- أفق التوقع: جذوره وامتداده عند هانز روبريغ يابوس: عرضٌ وتحليلٌ، محمد السماعنة، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة (١٠٨)، ٢٠١٧م.
- ١٥- آليات الحجاج اللغوية في رسائل الإمام علي: الروابط الحجاجية اختياريًا، أحمد حياوي السعيد، ورائد مجيد جبار، مجلة العميد، السنة ٣، المجلد ٣ (٣)، كانون الأول ٢٠١٤م.
- ١٦- آليات الحجاج في خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، هاني علي سعيد، مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الحولية ٣٦ (٤٤٠)، ديسمبر ٢٠١٥م.
- ١٧- الآليات الحجاجية في الخطاب الديني: خطبة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أمّودجًا، حليلة مسعي، مجلة سياقات اللغة والدراسات البيئية، المجلد ٢ (٥)، أبريل ٢٠١٧م.
- ١٨- براعة الاستهلال في المؤلفات، محمد الخراز، حولية: كلية اللغة العربية بالزقازيق (٣٠)، ١٤٣١هـ.
- ١٩- بلاغة الإقناع في صور الخطاب: (المقامة الجرجانية للهمذاني) أمّودجًا، محمد الناصر كحولي، مجلة أنساق، المجلد ١ (٢)، ٢٠١٧م.
- ٢٠- بلاغة الحجاج في خطبة الغدير، طاهرة طوبائي، ومرضية آباد، مجلة اللغة العربية وآدابها، السنة ١١ (٢)، صيف ١٤٣٦هـ.
- ٢١- بلاغة الخطاب الحجاجي في القرآن الكريم: الاستعارة التمثيلية نموذجًا، آلاء عبد الغفار هلال، حولية: كلية اللغة العربية بجرجا، الجزء ١٣ (٢٤)، ١٤٤٢هـ.
- ٢٢- البلاغة الصوتية في الأحاديث النبوية، مدحت حسيني ليمونه، مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، إيتاي البارود، المجلد ٢٥ (٢)، ٢٠١٢م.

- ٢٣- بلاغة القسم في الحديث النبوي الشريف، أميمة بدر الدين، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٦ (٤+٣)، ٢٠١٠م.
- ٢٤- البلاغة والسلطة، ريتشاد أندروز، ترجمة: كرم أبو سحلي، مجلة فصول، المجلد ٢٦ / ١ (١٠١)، خريف ٢٠١٧م.
- ٢٥- البلاغة والعنف، جيمس كروسوايت، ترجمة: أحمد الشيمي، مجلة فصول، المجلد ٢٦ / ١ (١٠١)، خريف ٢٠١٧م.
- ٢٦- بنية التشكيل الصوتي ل(النون) الإيقاعية المشددة في القرآن الكريم، نوزاد حسن أحمد خوشناو، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، الجامعة الإسلامية، الجزء ١ (٦٤)، ٢٠٢٢م.
- ٢٧- البيان الحجاجي في إعجاز القرآن الكريم: (سورة الأنبياء) أنموذجًا، عبد الحلیم عيسى، مجلة التراث العربي، السنة ٢٦ (١٠٢)، نيسان ٢٠٠٦م.
- ٢٨- التشكيل الحجاجي في الخطاب السيرذاتي القديم: الوصف أنموذجًا، عائشة بنت دالش العنزي، حولية: كلية اللغة العربية بالزقازيق، جامعة الأزهر، المجلد ١ (٣٨)، ٢٠١٨م.
- ٢٩- التصغير: أحكامه ودلالته في القرآن الكريم، إبراهيم فرج الحويج، مجلة العلوم الإنسانية بجامعة المرقب (٢٣)، ٢٠٢١م.
- ٣٠- التصغير في اللغة العربية: نظرة في الدلالة والتحليل الصوتي، محمد أمين الروابدة، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، المجلد ٣٤ (٧٩)، تموز، كانون الأول ٢٠١٠م.
- ٣١- التعبير القرآني بالجملة الاسمية والفعلية بين علماء النحو والبيان، حمدية موحان حمود، مجلة الجامعة العراقية، الجزء ٣ (٤٢)، ٢٠١٨م.
- ٣٢- تقنيات الحجاج في خطاب عمر بن عبد العزيز: دراسة نصية تداولية، وليد الدوسري، مجلة جامعة الباحة للعلوم الإنسانية (٢٨)، ٢٠٢١م.
- ٣٣- تقنيات الحجاج في كتاب: (حوار مع صديقي الملحد) للدكتور مصطفى محمود، محمود حمزة

- محمد، مجلة كلية الآداب للإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة الفيوم، المجلد ١٢ (٢)، ٢٠٢٠م.
- ٣٤- تمثلات حجج الاتصال شبه المنطقية في نثر العصر العباسي الأول، محمد صبري تومان، مجلة بحوث الشرق الأوسط (٥٦)، ٢٠٢٠م.
- ٣٥- توظيف ادعاء الإجماع في الخطاب الحجاجي عند أبي حيان الأندلسي: دراسة تحليلية، فوزية العتيبي، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية، المجلد ٢٠ (٢)، ٢٠٢٠م.
- ٣٦- التوكيد بالجملة الاسمية: دراسة بلاغية، بلقيس بنت محمد الطيب بن إدريس بكر، مجلة العلوم الشرعية والعربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (٦)، ٢٠٠٩م.
- ٣٧- ثلاثية اللسانيات التواصلية، سمير شريف إستيته، مجلة عالم الفكر، المجلد ٣٤ (٣)، مارس، ٢٠٠٦م.
- ٣٨- الثنائية الحجاجية الأصولية (السؤال والجواب) في ضوء نظرية المساءلة لميشال ماير، مجلة بدايات، المجلد ٢ (٢)، نوفمبر ٢٠٢٠م.
- ٣٩- الجرس الصوتي: دراسة جمالية في ألفاظ غريب القرآن، ياسر علي عبد الخالدي وكاظم صافي حسين الطائي، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية بجامعة أربيل (١٨)، كانون أول ٢٠١٤م.
- ٤٠- حجاج الإيهام والمغالطة في الخطابة العربية: (منتخبات من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي)، عمارة حاكم، مجلة سياقات، المجلد ٢ (٥)، أبريل ٢٠١٧م.
- ٤١- حجاج التمثيل في الشعر الجزائري الحديث، خديجة بوخشنة، مجلة المَحْبَر (١٣)، ٢٠١٧م.
- ٤٢- حجاج الشاعر شفيحًا ومُحَرِّضًا: دراسة في كتاب: (العمدة)، محمد سيد علي عبد العال، مجلة كتابات (٥)، ٢٠١٢م.
- ٤٣- الحجاج اللغوي في الحديث النبوي الشريف: حجاجية الكلمة أنموذجًا -مقاربة تداولية، فريدة

- رمضاني، مجلة دراسات لسانية، المجلد ٣ (١)، ٢٠١٩م.
- ٤٤- الحجاج بالوصف: (هنشير اليهودية) لعبد القادر الحاج نصر أنموذجاً، محمد الناصر كحولي، مجلة الجمعية التونسية للدراسات الأدبية والإنسانية (٧-٨)، ٢٠١٩م.
- ٤٥- الحجاج شبه المنطقي في رسالة: (الصاهل والشاحج) لأبي علاء المعري، مها العجلة، مجلة جذور (٦٠)، ٢٠٢١م.
- ٤٦- الحجاج في الدرس اللغوي الغربي، بوزناشة نور الدين، مجلة علوم إنسانية، السنة ٧ (٤٤)، شتاء ٢٠١٠م.
- ٤٧- الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي، يمينة تابتي، مجلة الخطاب (٢)، ١ يونيو ٢٠٠٧م.
- ٤٨- حرية النفي وممكنات الإثبات: بحث في أسلوبية الاختيار، أحمد محمد ويس، مجلة فصول، المجلد ٢٦ / ١ (١٠١)، خريف ٢٠١٧م.
- ٤٩- حماية الكرامة الإنسانية في السنة النبوية، خديجة بنت عبد الحليم تُرْكِسْتَانِي، مجلة البحوث الإسلامية، هيئة كبار العلماء، المملكة العربية السعودية (١٠٠)، ١٤٣٤هـ.
- ٥٠- خصائص الجملة التعليلية في شعر المعلقات، السيد أحمد موسى، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، الجزء ٤ (٤٠)، ٢٠٢١م.
- ٥١- الخطاب الحجاجي في الشعر السياسي في القرن الثاني الهجري، صلاح الدين أحمد دراوشة، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، العلوم الإنسانية، المجلد ٣٥ (٩)، ٢٠٢١م.
- ٥٢- الخطب الجاهلية في كتاب: (جمهرة خطب العرب) لأحمد زكي صفوت: بحث في المادة ومنهج الجمع والتحقيق، محمد عبد الساتر زكريا، وسمر الديوب، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، السنة ٤ (٣٢)، يوليو ٢٠١٧م.
- ٥٣- خطب الحجاج بن يوسف الثقفي الوعظية: دراسة في ضوء نظرية الاتصال الأدبي، محمد أرشد الحسن، مجلة التجديد، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، المجلد ٢٠ (٤٠)، ١٤٣٨هـ.

- ٥٤- دراسة الأفعال الكلامية في القرآن، حكيمة بوفرمة، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب بجامعة مولود معمري (٣)، ماي ٢٠٠٨م.
- ٥٥- الدلالة الزمنية ل(لا) النافية للجنس في القرآن الكريم، إسحاق رحمانى، وصديقة دربانورد، مجلة الممارسات اللغوية (٣٩)، ٢٠١٧م.
- ٥٦- دلائل الحجاج والإقناع في الخطاب النبوي الشريف: حديث الشفاعة نموذجًا، رشا عبد الرؤوف عبد الفتاح الحبشي، مجلة الجامعة الإسلامية للغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (٤)، ٢٠٢٢م.
- ٥٧- الروابط الحجاجية في الخطبة الفدكية للسيدة الزهراء، علي عباس الأعرجي، مجلة العلوم الإنسانية بجامعة بابل، المجلد ٢٤ (٢)، ٢٠١٧م.
- ٥٨- الروابط الحجاجية في القرآن الكريم: نماذج مختارة، مسعودة الساكر، مجلة الآداب، جامعة منتوري قسنطينة، المجلد ٢١ (١)، ٢٠٢١م.
- ٥٩- الروابط الحجاجية وطاقت الاستدلال، أحمد كروم، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، المجلد ٣٤ (١٣٦)، ٢٠١٦م.
- ٦٠- روافد البلاغة: بحث في أصول التفكير البلاغي، سمير استيتية، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي بجدة، المجلد ٢، الجزء ٦، رجب ١٤٢٢هـ.
- ٦١- السلام الحجاجية في كلام الإمام الحسن عليه السلام، مروة حسام كاظم، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية بجامعة بابل (٤١)، كانون أول ٢٠١٨م.
- ٦٢- السلم الحجاجي في رسالة الإمام زين العابدين، عبد الإله عبد الوهاب العرداوي، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد ٢٠ (١)، ٢٠١٧م.
- ٦٣- سيميائية الصائت الواقع قبل نون التوكيد في القرآن الكريم، نجاة سعة محمد البكوش، مجلة جامعة بنغازي العلمية، المجلد ٣٥ (١)، ٢٠٢٢م.

- ٦٤- السنين وسوف في القرآن الكريم، مجدي مصطفى ياقوت، مجلة التربية، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، المجلد ٤٤ (١٨٦)، ٢٠١٥م.
- ٦٥- شعر الحصين بن الحُمَام المري، جمع وتحقيق: مهدي عبيد جاسم، مجلة المورد، المجلد ١٧ (٣)، ١٩٨٨م.
- ٦٦- صيغ المبالغة في الاستعمال القرآني: دراسة في دلالة البنية الصرفية، فاخر هاشم الياسري، حولية: المنتدى للدراسات الإنسانية، المجلد ٢ (٣)، ٢٠٠٩م.
- ٦٧- ضمير الفصل في العربية ودوره في أداء المعنى: (سورة يوسف ﷺ) نموذجًا، خلود إبراهيم العموش، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد ٦ (٣)، رجب ١٤٣١هـ.
- ٦٨- الظن بين الناس في القرآن الكريم: دراسة موضوعية، فلوة بنت ناصر الراشد، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد ١٧ (١)، ٢٠٠٤م.
- ٦٩- العدول في البنية التركيبية: قراءة في التراث البلاغي، إبراهيم بن منصور التركي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، المجلد ١٩ (٤٠)، ربيع الأول ١٤٢٨هـ.
- ٧٠- العدول في المفردة القرآنية وأثره في تأويل السياق القرآني: مقارنة تداولية، خدير المغيلي، مجلة الذكرة (٩)، جوان ٢٠١٧م.
- ٧١- العدول من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية: دراسة تداولية في عناوين جريدة الغد الأردنية، يوسف ربابعة، ونبالة نزال، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، الجامعة الإسلامية بغزة، المجلد ٢٩ (١)، ٢٠٢١م.
- ٧٢- علم المعاني: علم المقاصد التداولية، عبد الإله بوغابة، مجلة فكر، العلوم الإنسانية والاجتماعية (١)، ٢٠٠٥م.
- ٧٣- عمل القسم وبنيته الإخبارية، خالد السويح، مجلة بحوث جامعية (٨)، ٢٠١٠م.
- ٧٤- العوامل الحجاجية في آيات الأحكام، عايد جدوع حنون وثائر عمران شدهان، مجلة اوروك،

المجلد ٩ (٤)، ٢٠١٦ م.

- ٧٥- العوامل الحجاجية في شعر البردوني: النفي أمودجًا، ألطاف الشامي، مجلة كلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد، الجزء ١ (٤٣)، ٣٠ أيلول، ٢٠١٥ م.
- ٧٦- القصر بالنفي والاستثناء في نهج البلاغة: دراسة دلالية، مجلة اللغة العربية وآدابها بجامعة الكوفة، عقيل الخاقاني، ووردة صالح نعماش (٢٢)، ٢٠١٥ م.
- ٧٧- القيمة الدلالية للتوكيد، إسحاق محمد الجعبري، مجلة فكر وإبداع، الجزء ١٠٤، ٢٠١٦ م.
- ٧٨- الكف بين النهي والنفي في القرآن الكريم: رؤية دلالية معاصرة، إسماعيل الكعبي، مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع بكلية الإمارات للعلوم التربوية (٣٤)، ٢٠١٩ م.
- ٧٩- المبني للمجهول بين اختزال البنية واسترسال المعنى، دليلة مزوز، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية (٥)، جوان ٢٠٠٩ م.
- ٨٠- مدخل إلى قراءة النصوص الخطابية القديمة، صالح بن رمضان، مجلة علامات في النقد، المجلد ٥، الجزء ٢٠، ١٩٩٦ م.
- ٨١- المراتب الحجاجية في آيات الثرى والمدن في القرآن الكريم، إيمان مطر مهدي وسامر نعمة كاظم، المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية (١٦)، أكتوبر ٢٠٢٠ م.
- ٨٢- مساهمة في تحديد الجملة الاسمية، عبد القادر المهيري، مجلة حوليات الجامعة التونسية (٥)، ١٩٦٨ م.
- ٨٣- المستويات الفنية في خطب معاوية بن أبي سفيان: دراسة أسلوبية، أحمد اليحيى، مجلة كلية الآداب بجامعة بورسعيد (٧)، يناير ٢٠١٦ م.
- ٨٤- المعاني البلاغية لحرفي التنفيس في النظم القرآني، ظافر غرمان العمري، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، السنة ٧ (١٤)، ١٤٣٩ هـ.
- ٨٥- معاني الحرف (قد)، محمود أحمد الصغير، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، جامعة الأزهر، المجلد

٣ (٢٩)، ٢٠١٠ م.

- ٨٦- معجمة النفي في اللغة العربية، العربي بيلوش، مجلة أبحاث لسانية (٣٣)، ٢٠١٧ م.
- ٨٧- مفهوم المفعول المطلق أنموذج لتكامل علمي النحو والبلاغة، لطيفة الوارثي، مجلة مصطلحيات (١٢)، ٢٠٢٠ م.
- ٨٨- من بلاغة القسم في قصة نوح عليه السلام، عبد العزيز الدعيلج، مجلة العلوم العربية (١١)، ٢٠٠٩ م.
- ٨٩- من قضايا النقد القديم: الحكمة والمثل؛ المفهوم والعلاقة والتفريغ، محمد إقبال العروي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد ٣٤، يوليو ٢٠٠١ م.
- ٩٠- من مظاهر التكرار في القرآن الكريم، محمد زوين، مجلة دراسات نجفية، مركز دراسات الكوفة، جامعة الكوفة، المجلد ١ (٣)، ٢٠٠٤ م.
- ٩١- من مظاهر التنبيه في القرآن الكريم: دراسة نظرية تطبيقية، جابر علي السيد سليم، مجلة حوليات كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، الجزء ٥ (١٦)، ١٤٣٣ هـ.
- ٩٢- من مظاهر الحجاج في: (كليلة ودمنة)، محمد القارصي، حوليات الجامعة التونسية (٤١)، ١٩٩٧ م.
- ٩٣- نحو آجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية، سعد مصلوح، مجلة فصول، المجلد ١٠ (١ و ٢)، يوليو-أغسطس ١٩٩١ م.
- ٩٤- نظرية الأفعال الكلامية من سوسور إلى فلسفة اللغة، أوزفالد دوكرو، ترجمة: مركز الإنماء القومي، مجلة العرب والفكر العالمي (١٠)، ربيع ١٩٩٠ م.
- ٩٥- نظرية الحجاج في اللغة في الدراسات العربية المعاصرة: الاستيعاب والممارسة، عمر بو قمر، مجلة العاصمة، كلية الجامعة تروننبرم، الهند، كيرالا، المجلد ٩، ٢٠١٧ م.
- ٩٦- نظرية المساءلة والبلاغة لميشيل مايير مقارنة في: الأصول والأسس والتمثلات، نعمة الطائي، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، ع ٤٣، ٢٠١٩ م.

فهرس الموضوعات

٢	إقرار
٤	إجازة الرسالة
٥	الملخص
٦	المقدمة
١٠	التمهيد:
١٣	أولاً: تعريف الحجاج
١٩	ثانياً: أهم مدارس الحجاج المعاصرة:
٢١	المدرسة الأولى: مدرسة البلاغة الجديدة
٢٤	المدرسة الثانية: المدرسة اللغوية
٢٧	المدرسة الثالثة: مدرسة المساءلة
٢٩	ثالثاً: أساليب الحجاج:
٣٢	رابعاً: وصف المدونة المختارة:
٣٢	أ- في الخطبة
٣٥	ب- في المدونة
٣٨	الفصل الأول: الأساليب اللغوية:
٤١	المبحث الأول: الروابط الحجاجية:
٤٢	١- روابط التعارض الحجاجي
٥٠	٢- روابط التساوق الحجاجي
٥٤	٣- روابط التعليل الحجاجي
٦٠	٤- روابط العطف الحجاجي
٧٣	المبحث الثاني: العوامل الحجاجية:
٧٦	١- العوامل الشكّية (التقريبية)
٨٦	٢- العوامل اليقينية
١٢٠	المبحث الثالث: التوكيد:

- ١٢٣ ١- التوكيد باسمية الجملة
- ١٣٠ ٢- التوكيد بالقسم
- ١٣٧ ٣- التوكيد ب(إِنَّ)
- ١٤٤ ٤- التوكيد ب(أَنَّ)
- ١٤٧ ٥- التوكيد ب(كَأَنَّ)
- ١٥١ ٦- التوكيد بلام الابتداء
- ١٥٥ ٧- التوكيد ب(النون)
- ١٥٩ ٨- التوكيد ب(السين وسوف)
- ١٦٤ ٩- التوكيد ب(قد)
- ١٦٧ ١٠- التوكيد ب(ضمير الفصل)
- ١٧١ ١١- التوكيد ب(المفعول المطلق)
- ١٧٥ ١٢- التوكيد المعنوي
- ١٧٩ **المبحث الرابع: التكرار:**
- ١٨٢ أقسام التكرار:
- ١٨٣ ١- التكرار اللفظي
- ١٩٦ ٢- التكرار المعنوي
- ٢٠١ خاتمة الفصل
- ٢٠٢ **الفصل الثاني: الأساليب البلاغية:**
- ٢٠٧ **المبحث الأول: في الكلمة:**
- ٢٠٨ ١- الاختيار المعجمي
- ٢١٨ ٢- الاختيار الصرفي
- ٢٣٦ ٣- الاختيار الصوتي
- ٢٥٠ **المبحث الثاني: في التركيب:**
- ٢٥٢ ١- تركيباً: الأمر والنهي
- ٢٥٨ ٢- التركيب الاستفهامي

٢٦٤	٣-التقديم والتأخير
٢٧٠	٤-الحذف
٢٧٦	٥-الالتفات
٢٨٣	المبحث الثالث: في الصورة:
٢٨٧	١-التشبيه
٢٩٥	٢-الاستعارة
٣٠٦	٣-الكناية
٣١٣	خاتمة الفصل
٣١٤	الفصل الثالث: الأساليب المنطقية:
٣١٩	المبحث الأول: الحجج شبه المنطقية:
٣٢٠	١-الحجج شبه المنطقية
٣٣٥	٢-الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية
٣٥٢	المبحث الثاني: الحجج بالسبب:
٣٥٤	الوجه الأول
٣٥٨	الوجه الثاني
٣٦١	الوجه الثالث
٣٦٦	المبحث الثالث: الحجج بالسلطة:
٣٦٨	١- الحجج بالسلطة الخطيب
٣٧٥	٢- الحجج بالسلطة الغيرية
٤١٦	المبحث الرابع: ترتيب الحجج:
٤١٧	١-حجج المقدمة
٤٢٢	٢-حجج العرّض
٤٢٨	٣-حجج الختام
٤٣٣	خاتمة الفصل

٤٣٤ الخاتمة
٤٣٧ المصادر والمراجع:
٤٣٧ أولاً: المصادر
٤٣٧ ثانياً: الكتب
٤٥٩ ثالثاً: الأطروحات والرسائل
٤٦٣ رابعاً: المجلات
٤٧٣ فهرس الموضوعات
٤٧٧ Abstract

Abstract

The sermon represents the main argumentation type known to the Arabs. The Arabic sermon is linked to persuasion and argument. In the post-Islam era, the sermon became part and parcel of a number of rituals and acts of worship. Therefore, it can be argued that the ancient Arabic argumentation is represented in the traditional sermons that were preserved in records and books. If the pre-Islam era and the bright Islamic eras that followed it represent the sublime model that can be followed and traced, then the book, *Jamharat Khotab Alarab (A Collection of Arabs' Sermons)*, is considered to be the ideal record through which Arabic sermons can be studied. If the Arabic sermon is regarded as argumentation, then it is possible for the preacher to choose the most useful methods or style to achieve the desired speech goal. Therefore, this study aims to investigate these argumentative means and identify their impact and role.

This study begins with a preface through which the researcher defines argumentation and its main schools, then introduces what is meant by “argumentation methods.” It concludes this preface by defining the studied record. Following the preface, the study deals with the methods at three levels. Chapter One deals with the most famous persuasive linguistic methods pursued by preachers. Chapter One is divided into four parts that deal with connectors, factors, emphasis, and repetition. As for Chapter Two, it is concerned with the most important rhetorical methods chosen by preachers as a way to the intended results. In three parts, Chapter Two studies rhetorical methods at three levels: the word, the structure, and the image. Chapter Three is limited to logical methods. In three parts, it deals with the quasi-logical argumentation, reason argumentation, and power arguments, in addition to the fourth part that deals with the rank effect of the diction of these methods.

The study came up with a number of findings. The Arabic sermon involves a number of manifestations and levels of argumentation, which prove that argumentation is deeply rooted in the Arabic sermon. They also prove the accuracy of the Arab preacher in choosing the closest and strongest methods to achieve the desired speech goal.

Kingdom of Saudi Arabia

Ministry Of Education

Qassim University

**Faculty Arabic language and social
studies**

Department Arabic Language and



Argumentation Techniques in jamharat khuttab al-arab by Ahmad Zaki Safwat -Rhetorical study-

**The dissertation submitted in fulfillment of the conditions of the
award of the degree Dukturah of Literary Studies**

By:

omran Mohammed Ahmad Al-Ahmad

381100168

Supervisor

Professor: Ibrahim Mansour Al-Turki

Professor of rhetoric in the department

1444 H - 2023 M